



الْحَلَالُ الْحَاجُّ

لولى النعم الحاج عبا من حليم باشا الثباني خديو مصر

تقلم
محمد البينوني

وردت اظاره المعارف هذا الكتاب للطباعة بمدارسها

في الطبعة الثانية

(تمت طباعتها وبيعها في دار الكتب بمصر في سنة ١٣٢٩ هـ)

(سنة ١٣٢٩ هـ)

حقوق الطبع والرحمة محفوظة للمؤلف

طبع بمطبعة الجليلية - بمصر

(الكاتبة نخارة الروم اعطتة التري)

(لاستادها محمد أمين الاحمدى و... واحد...)

(فهرست)

— المقدمة والتمهيد —

صحيفة

- تقديم الكتاب الى الجنب العالى الخديوى .
كتاب عطوفة رئيس النظر الى المؤلف .
مقدمة الكتاب . ٥
- تمهيد — الامة العربية . العمالق . عرب الرعاة . الخط المسامى . دولة عاد الاولى
المعنيون . طسم وجديس . تمود . ٨
- القحطانية — دولة سبأ الاولى . سد مأرب . ملوك حمير والتابعة . أصحاب
الاخدود . استيلاء الحبشة على اليمن . دخول اليمن فى حكم المسلمين . دولة كنده .
دولة تنوخ بالعراق . دولة اللخمين بالعراق . جدول بملوك اللخمين بالحيرة . الفسانية ١٣
- العدنانية — ملوك العدنانية قبل الاسلام . دول العرب بالاندلس . دولة العرب
بدمشق . الدول الاسلامية التى قامت بمصر . دولة الديلم . دولة بنى حمدان . الدولة
السامانية . القرامطة . دولة الغزنويه . الدولة الغورية . الغز . التتار . دولة فارس .
قيام دولة بنى عثمان وانتقال الخلافة العربية اليهم . طرابلس . بلاد الجزائر . تونس .
مراكش . شجرة القبائل القحطانية والعدنانية . ٢٥
- صفة جزيرة العرب — أقسام الجزيرة . بلاد الحجاز . نظام الحكومة بها .
اليمن . طبيعة أرضها . محاصيلها . الدول التى قامت باليمن بعد الاسلام . استيلاء الدولة
العلية على اليمن . حرب الامام يحيى مع الدولة . فتنة عسير والادريسى . مدينة عدن .
السلطنات التى فى جنوب اليمن . عمان . استيلاء البرتغاليون على عمان . استيلاء
السلطان أحمد بن سعيد عليها . تقسيم بلاد عمان بين بنى سعيد . جزائر البحرين .
نجد . شعر . العارض . الحسا . أخلاق العرب . جدول بالقبائل العربية الموجودة
بجزيرة العرب . خريطة بلاد العرب . ٣٧

﴿ فهرست كتاب الرحلة ﴾

- صحيفة
- ١ سفر الحجاب العالى من مصر الى جدة - مدينة جدة . علة تسمية البحر الاحمر . قبر
أمناحواء . الرهان على أن طول الموميات ليس بدليل على وحدة طول الانسان فى
جميع أدوار حياته .
- ١٦ وصول الحجاب العالى الى جدة وقيامه معها الى محرة - وصف الطريق من جدة الى مكة
- ٢١ دخول الحجاب العالى مكة وإيامه بها قبل عرفة - صلاة الجمعة بالحرم . زيارته البيت
العتيق وشعور الانسان وهو فى داخله .
- ٢٧ الطريق القديم والحديث من مصر الى الحرمين - فبا تل الباجه وعدم تهرىف
الاسلام فى المعامله بين المسلمين وأهل الدمة . الطريق من فنا الى القصير فى
عاره وحاصره . الكلام على العمبه (أيله) .
- ٣٧ مكة المكرمة - أهل مكة وأجاسهم . لغتهم . عدم دخول الحجاب الى مكة .
عوايد أهل مكة . مولد النبى . دار خديجة المشهورة بمولد فاطمة . دار الارهم
المخزومى . عارحراء . مزارات مكة . مدارسها . المطوفون وخرافاتهم - مخربهم
ألفاظ القرآن الشريف . النمودى مكة . أسواقها . جوها . آثار مكة . عين زبيده .
نصيحة للعناية أمر ماء الشرب . التكايا والاديرة والدارس بالمدس الشريف .
- ٦٩ تاريخ مكة - وصول ابراهيم واسماعيل عليهما السلام اليها . قریش وتقسيم
الامتيازات الدينية والاجتماعية بينها قبيل الاسلام .
- ٧٣ حكم الاشراف بمكة . جدول تأمرامكة .
- ٨٧ الوهايه ومحمد على بالحجاز . آل سعود . آل الرشيد .
- ٩٤ الحرم المكى والزيادة التى حصلت فيه . حرقه . عماراته . الآثار التى فى داخله .
مستخدميه .
- ١٠١ الكعبة المعظمة و بناء ابراهيم لها - بناء الكعبة قبل الاسلام . عمل قریش برأى
الرسول عليه السلام قبل البعثة فى وضع الحجر الاسود . هدم الحجاج للكعبة و بناءه
لها . شكل الكعبة . الكعبة من الداخل . أصل كلمة شادر وان . الايام التى تفتح فيها
الكعبة . الاحتفال بغسيل الكعبة .

- ١٠٩ الكعبة قبل الاسلام و بعده - الصائفة وهيا كلها . فكرة في أصل الطواف واستعداد الشرائع من الشرائع التي قبلها . علم النجوم عند العرب . أسواق العرب وسوق عكاظ .
- أنديّة العرب في الاسلام . الساعات واحترامها . احترام اليهود والنصارى وغيرهم للكعبة قبل الاسلام . الحرم ومسافته من الكعبة . أشهر الحج والاشهر الحُرّم .
- سبى الشهور . علّة تحريم شهر رجب . الطواف . المطوّفون . أثر قدم ابراهيم . آثار الاقدام المحترمة . مقام ابراهيم . ثزمزم . فشل الامراء والملوك في تحويل الناس عن الكعبة . أرهة والكعبة . مرض الحدرى والزمن الذى وجد فيه .
- ١٣٣ هدايا البيت الحرام . كسوة الكعبة واصليها ومصاريغها . الكسوة القديمة . الحمل وأصله ومرتاته وخدمته .
- ١٤٦ حمام الحمى - احترام الحمام من زمن بعيد حمام الرسائل . الحج عند الامم المختلفة .
- ١٥٠ الحج عند العرب جاهلية واسلاما . احترام الاسحجار من قديم الزمان . علّة احترام الحجر الاسود عند المسلمين . نفديس اليهود لقطعها من حائط سور المسجد الاقصى .
- لاميه أنى طالب في مناسك الحج في الجاهلية تأثر الحج على الاخلاق .
- ١٦٢ المسجد الاقصى - الصحرة الشريفة . الآثار التي حولها . اصطبلات سليمان . مدينة القدس وتاريخها . المراتب التي فيها . مدينة الخلد . بيت لحم .
- ١٧٢ كيف تحج أيها المسلم - الادعية المأثورة من الابتداء في الحج الى النهاية منه .
- ١٧٦ محرمات الاحرام . جدول مناسك الحج على المذاهب الاربعة .
- ١٧٩ الاحرام . لباس الاحرام واسمعه من قدم الزمان .
- ١٨٦ الوقوف بعرفة - وكرة في تسميم بحراء عرفة بين أصناف الحجاج وقت الوقوف . شعور الانسان وقت الخطبة على جبل الرحمة .
- ١٩٠ الرجم وأصله عند اليهود والنصارى - المبور المرجوم .
- ١٩٣ الفريان . تاريخه عند جميع الامم .
- ١٩٦ الآثار في منى - أيام الجناب العالي في منى . الرهان على أن عائدا لا شراف أقدم أسرة في العالم . الاحتمال تلاوة فرمان الشرف عنى . مواكب الشرف .
- ٢٠٦ سهر الحجاج من مكة - الجمل وفسلوجيته . الشمذف والسحلية . الحمير الحساوى .
- ٢٠٩ الطريق الى المدينة - الطريق الفرعى . طريق الغاير . الطريق الشرقى
- ٢١٣ نظام المواويل - أخلاق الجمال . أعنية الحجاج . الحداء وأصله . الخطر في ابتعاد الحاج عن القافلة . ما يجب أن تكون عليه القافلة وقت سيرها .

• صحيفة

- ٢٢١ سفر الجناب العالى من مكة الى الوجه - الوجه والطريق منه الى البدايع . ركوب السكة الحديد الى المدينة . قطع السيول لسكة الحديد الحجازيه . مكتوب للجناب الخديوى يوم عيد الجلوس غرابة الانسان وهو فى صحراء بلاد العرب من انها مصدر مدية الاسلام . شعور الانسان عندما يرى أعلام المدينة .
- ٢٣٦ الجناب الخديوى بالمدينة المنورة - الخدمة بالحجرة الشريفة . شعور الانسان وهو فى داخلها .
- ٢٣٩ الحرم المدينى - أصل الحرم المدينى والزيادة فيه . الروضة الشريفة . المقصورة الشريفة . الذخائر التى بها . بحث فى بيته صلى الله عليه وسلم بالمدينة .
- ٢٥٢ المدينة المنورة - حارات المدينة . كتب خاناتها . مزاراتها . مسجد حمزة . البقيع . مسجد قباء . آبار المدينة . العين الزرقاء . وديان المدينة . أهل المدينة وعاداتهم . المدينة فى صدر الاسلام .
- ٢٦٥ النبي عليه الصلاة والسلام - صفته . حكم من أقواله . هجرته . سيرته . غزواته .
- ٢٧٠ أبو بكر - صفته . تغلبه على أهل الردة . بعوثه الى فارس والشام . أولاده
- ٢٧٤ عمر - صفته . اتساع الاسلام فى مدته . فتح فارس والعراق والشام والقدس ومصر . بعض مكاتيب عمر لعماله . حياته فى شخصه . أولاده وعماله .
- ٢٨٣ عثمان - صفته . فتح أفريقيا . اتساع ملك الاسلام فى أيامه . كتابته للمصاحف وتوزيعها على الأمصار . تغير الناس عليه . قتله . أولاده وعماله .
- ٢٨٩ على - صفته . واقعة الجمل . واقعة صفين . الحكيم . حربه للخوارج . قتله . تنازل الحسن عن الامارة الى معاوية .
- ٢٩٦ الانصار . جدول أمراء المدينة . .
- ٣١٢ سفر الحجيج من المدينة الى مصر - جدول أسماء محطات السكة الحديد الحجازيه
- ٣٠٥ الحاجر والكورنيتين .
- ٣٠٩ الطريق الى الحرمين فى عاره وحاضره . عوائد المصريين عند نزولهم من الحج .
- ٣١١ سفر الجناب العالى من المدينة الى مصر - مدائن صالح . الكلام على نمود مدينة بطره (الرقم) الآثار التى بالشام . السراب . وصول الجناب العالى الى حيفاء . وصول الجناب العالى الى الاسكندرية ومنها الى مصر . تقارب .



الى سمو ولي النعم الافخم

اقدر شرفنى مولاي حفظه الله بخدمة ركابه العالى فى حجه المبرور .
لذلك رأيت قياما بواجب شكر آلائه ، وحمد نعمائه ، أن أمثل صورة هذه
الرحلة الميمونة فى هذا السفر ، وأن أكتب معها كلمة عمافى هاتيك الارحاء
الشريفة من المواقع المقدسة ، يرى المطلع عليها كل ماتهمه معرفته منها .
وقد رأيت ان أضيف اليها فى هذه الطبعة من تاريخ الدول العربية
وجغرافية جزيرة العرب ماتكون به الفائدة أعم . والمنفعة أعظم .
وها أنا يا مولاي أرفعها لاعتنا بكم السنية بيد الا جلال والاعظام ، هدية
للاسلام والمسلمين ، وخدمة للعلم والتاريخ .

العبد المخلص

وغاية المأمول اسعادها بالقبول مـ

محمد لتيت اليتيتونى



GOEHME & ANDERER, CAIRO

الحاج عباس حلمي الثاني خديو مصر

ولد حفظه الله في عرة جمادى الثانية سنة ١٢٨١ (يوليو سنة ١٨٦٤) وجلس على عرش الخديوية في جمادى الثانية سنة ١٣٠٣ (يناير سنة ١٨٨٦)

﴿ كتاب صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار الى المؤلف ﴾

تفضل صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار فأرسل الى صاحب كتاب الرحلة الحجازية نكتات ثناء على مؤلفه ، يرى المطلع من خلال كلماته ذلك النور الذي يضيء للناس لمحجة التي تسلكها هذه الحكومة السعيدة السعيدة لترقية الامة ، بتنشيط المعارف ، وتربية المدارك ، والنهوض بالهمم الى الدرجة التي تناسب مع الحياة الصحيحة . فهو اذا شكر الكاتنين ، وحمد المحمدين ، فاعما يشكر نفسه ويحمداهتمامه بمصلحة البلاد ، من الطريق الالاف والسبل الالاف . جزاه الله عن الامة خيرا الجزاء .

وانا تشرف بان يدكر هنا هذا الكتاب الكريم بكل اجلال واعظيم ، ووجود ما كله شكر لعطوفته على هذه العناية الكرى والرعاية العظمى :

القاهرة فى ٢٦ دى الحجة سنة ١٣٢٨ — ٢٨ ديسمبر سنة ١٩١٠

عزى لبيب بك

أمعت النظر فى كتابكم الجديد الموسوم بالرحلة الحجازية ، ورأيت فيه آيات البراعة فى التحرير والتحرير ، وأعجبت منكم التعويل على التحقيق والتدقيق ، وأملى وطيدى أن ينسج الكاتنون على منوالكم المفيد ، حتى يكون القارى مشاركا لكاتب فى عواطفه ، مرافقا له فى حله ورحاله ، وتلك عدى أفضل وسيلة لترقية الملكات وترقية المدارك . أما ما زينت به صحائف الكتاب من الرسوم فقد زادت فى قيمته الثمينة ، وقد تحلت بها تلك المعاهد المقدسة للانظار ، وتمثلت تلك المشاهد المباركة للعيان . هذا فضلا عن المباحث العمرانية فى فلسفة الحج ، فقد أفصحت فيها شامكم السيل ، وجردتم هذا الموضوع للخلل مما اعتوره من الشوائب على طول الزمان ، وأرغموه فى حلته الاولى وبهجته الصحيحة ، وفقكم الله للقيام بأمثال هذه الخدمة للامة والسلام .

رئيس مجلس النظار

محمد سعيد .

﴿مقدمة الكتاب﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من أرسل رحمة للعالمين . أما بعد فقد شرفني مولاي الخديو الاعظم بتعييني مندو بأخصوصياً في خدمة ركابه العالى مدة سفره الى الافطار المحازيه . و بعد عودة سموه بسلامة الله أسعدني بصدور أمره الكريم إلى هذا العاجر بوضع شئ عن هذه الرحلة المباركة .

ولما كانت هذه البلاد غربة للآن كما يحل لدوى المصيرة والعرفان، مع أنه يقصدها سنوياً أكثر من مائتي ألف نفس من المسلمين، وكل ما كتب عن رحلته الحاج الهال لا يخرج عن بعض المناسك التي يصل المطلع في كثرة شعاعها ووعوره طرقها ومحاهلها، مما يزيد ارتباك وجهاله، رأيت أن أضيف إلى الرحلة الخديوية كلمة عن المشاعر الدينية المقدسة، مبتعداً عن الترهات التي ألحمتها بمبالغة الوهم أو مغالبة الغرض، مما اتخذته أعداء المسلمين وسيلة إلى الطعن عليهم في دينهم الذي جل ما تعرفوا به منه إما أخذوه عن أولئك الجهلاء الذين رزى الإسلام، فيكيلون لهم الكلام جزافاً من غير ما يشعرون بأنهم به ينتحرون !!! لذلك سالت في هذا الطريق مسالك التحقيق والتدقيق، حتى جاءت كلمتي فيه والحمد لله مسفرة عن حميفة الحج، صبيحة الغرض منه، شارحة مناسكه بعبارة هيينة آيئة سهلة على كل مسترشد وصور به لكل من قصد سمرأ إليه أو معرفة به .

وإني قياماً بهذا الواجب الاقدس لم أقتصر على الكلام في النقط الدينية ، بل تناول بحث ما يهيم القارئ من المسائل العمرانية ، والاجتماعية ، والجغرافية ، والتاريخية ، مما لم يسبقني اليه أحد من الذين كتبوا عن هذه الديار ، راجياً بذلك الخدمة العامة للعلم والاسلام . وتالياً للفائدة قد وضعت في هذا السفر المبارك كثيراً من الخريط الجغرافية ، والرسوم النظرية التي وضعتها بنفسى ، والصور القوطوغرافية التي أخذت بعرفة بعض من كان في معية الجناب العالي الخديوى وسواهم من أفاضل المصوّرين الذين سبق لهم السفر الى تلك الارحاء من مصريين وغيرهم ، ووضعت للحرمين الشريفين رسماً نظرياً معتقداً على الابعاد التي وضعها لهما المرحوم محمد صادق باشا المصرى وغيره من مهندسى الاتراك . و رسمت كروكى مكة ، ومنى ، وعرفة ، والمدينة ، مستقداً من بعض الرسوم القديمة المأخوذة عن الكروكيات التي وضعها بوركارى في أوائل القرن الماضى لهذه الجهات التي لم تختلف كثيراً في هيئتها ونظام أبنيتها وعمارتها عما كانت عليه من قرون مضت .

هذا وإني أشرف بتكرار عبارات الشكر ان إلى صاحب العطفوة رئيس مجلس النظر على تنشيطه للعاملين بأعلان رضاه عن هذا العمل وثنائه عليه ، رافعاً واجب الامتنان الى نظارة معارفنا الجليلة وخصوصاً الى ناظرها صاحب السعادة حشمت باشا على تقرير هذا الكتاب للمطالعة بمدارس الحكومة ، مسدياً آيات الحمد الى من اسعدونى بتقريره من أهل الفضل والعرفان : أخص بالذكر مهم صاحبى الدولة والفقامة الرس حسين كامل باشا ، والبرس فؤاد باشا رئيس الجامعة المصرية ، ومولانا الاستاد الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الازهر ، والاستاد الشيخ عبد الكريم سلمان ، وجناب المستشرق الكبير والعالم الجليل الالماني المسيوشو ينفورت ، والعلامة الفرساوى المسيود فليز ، وجناب المسيوما سبيرو مدير الانتكخانه المصرية ، وغيرهم من أكابر العلماء والكتاب لاسيما حضرات أصحاب الجرائد المصرية عربية وأفريقية ، سواء الذين استقبلوه بالمنة أو انتقدوه باخلاص .

وهنا أقدم عاطر ثمانى الى السادة الافاضل الذين بهوتنى الى ماجرنى اليه السهو أو السرعة فى العمل، مما أصابحتة فى هذه الطبعة التى عنيت بها وأكملت فيها الكلام على ما أهملته فى بعض مواضيع الكتاب فى الطبعة الاولى، وأخص بشكرانى حضرة صديقى الفاضل محمد كمال الذى ساعدنى شئاً كثيراً من معلوماته الثابتة عن جزيرة العرب التى أقام فيها زمناً .

ولقد أضفت الى الكتاب فى هذه المرة بعض الصور الفوتوغرافية التى تزيد فى فائدته، كما أضفت اليه أبواباً مهمة جداً مثل : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وباريخ الخلفاء الراشدين، وعقدت به باباً لبيت المقدس . وآخر للتقراين وأصولها فى جميع الديانات، وبعد كمال طبع الكتاب وجدت أن أضيف اليه تمهيداً عن وصف جزيرة العرب الحالية وتاريخ جميع الدول العربية التى قامت قبل وبعد الاسلام، استرسل القلم فيه بمالم يمكنى إيقافه الى الحد الذى يناسب مع كتاب الرحلة . وقد أضفت الى ذلك جداً أولاً مهمة جداً بملوك بعض هذه الدول، وبأشراف مكة والمدينة، وقبائل العرب الموجودة الآن، وعملت شجرة لأمهات القبائل العربية من قحطانية وعدنانية وفرشية، مالم يسبقنى لملها أحد من المؤرخين، والله المسئول أن يرفع به عنه وكرمه .

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ تَوْنَسٍ

تمهيد

لما كانت بلاد العرب يقصدها سنويا نحو ربع مليون من المسلمين لتأديته فريضة الحج ، رأيت أن أكتب عنها كلمة تمحضها مما ألصقته بها الاوهام ، وشوّهته الرواة على مدى الايام . وقد رأيت أن أقسم الكلام فيها إلى قسمين : قسم نتكلم فيه عن أمة العرب وأصلها وقبائلها وبطونها ودولها قبل الاسلام وبعده ، باختصار جمع اليه ما تشنت من الحقائق في كتب التاريخ ، وقسم نتكلم فيه عن صفة جريرة العرب الحاضرة وعشائرها وحكوماتها مما تغمض معرفته على كثير من الناس ، فنقول والله الموفق .

الامة العربية

الامة العربية من أعدل الامم وجوداً ، وأطولها عمراً ، وأوسعها سلطاناً ، بل من أقدم الامم مدنية وعمراناً . ولقد كان لها قبل الاسلام من الدول ما ينحلي جيد التاريخ بدكره ، كما كان لها بعده ذلك الملك الشاسع الاطراف ، البعيد الاكناف ، الذي كان له الشأن الاول في سياسة العالم بأسره مدّة من الزمن طويلة .
وقد رأيت أن أقسم الامة العربية بالنسبة لاصولها الى ثلاثة أقسام : القسم الاول العمالق أو العرب البائدة ، الثاني العرب القحطانية ، الثالث العرب العدنانية :

العمالق

العمالق هم أولاد عمليق بن لاو ذبن سام وأوّل ما وصلنا من أمرهم أنهم كانوا يسكنون على حاله بداهة في الصحراء التي بين العراق والعمّة . وكانوا يسمون الى فصائل صغيرة تنفل من جهة الى أخرى وراء الكلا ، وكانت لهذه الفصائل مشيخات منها تقوم بطبيعة الحال بتدبير أمورهم ، وكان ذوو العصبية منهم يشتغلون بنفل العجّارة بين نابل ومصر . وما زالوا على هذه

البداءة حتى كبرت عصبيتهم، وتغلبوا على بابل، وقامت بهامتهم في القرن الخامس والعشرين قبل المسيح دولة يسمونها دولة الساموآيين من (بنى سام بن نوح). ومازالوا بها حتى ظهر منهم في القرن الثالث والعشرين قبل المسيح ملك اسمه حمورابي، فتغلب على مملكة آشور وما حولها، وأصبحت له مملكة واسعة، بلغت في زمنها أسمى ما وصلت إليه دولة لذلك العهد في الرقي الادبي والمادي، وسميت بمملكة حمورابي. واستمرت هذه الدولة حاكمة الى أواخر القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد: يعني مدة أربع قرون تقريباً. وقد عثر النقبون الذين يعملون في آشور وبابل لهذه الدولة على كثير من الآثار التي تدل على رفيتهم في مدنييتهم، مكتوبه بالخط المسماري^(١)، مما حكوا معه بأنهم أبعد الامم رقياً في حضارتهم.

ولما وصلت هذه الدولة الى سن الشيخوخة بطبيعة الحال، ضعف أمرها وانفصلت عنها أطرافها، واستقلت آشور. ولم تقف هذه المملكة الاخرة عندهذا الاستملال، بل نهضت بحكومتها حتى استولت على بابل في سنة ١٢٨٠ ق م مدة الملك تغلاب بلسر. وأخذ الآشوريون يعاملون العرب معاملة قاسية، فلم يقبلوا الناء على الضيم، كما هي شيتهم في كل زمان، وهاجر قسم كبير منهم الى جنوب جزيرة العرب والى غربها.

— الشاسو (الهكسوس) وهم عرب الشرق أو عرب الرعاة —

بينما كانت الدولة الحمورابية قائمة في بابل، دخلت الهكسوس الى مصر من برزح السويس في القرن الثالث والعشرين قبل المسيح، واستولوا على الوجه البحري وكونوا لهم به دولة كان مركزها في مدينة صان. وأول ملوكهم يسمى سسلاطيس وهو رأس العائلة السابعة عشرة المصرية. ومكث عرب الرعاة بمصر الى أن أجلاهم عنها الملك تحتمس ملك طيبة في (الوجه القبلي)، حوالي سنة ١٧٠٠ ق م. وليست لهم بها آثار تذكر، اللهم الا بعض

(١) الخط المسماري أخذه العماليق عن السومريين الذين كان لهم الملك ملهم عن بابل. واما سمي بذلك لانهم كانوا يكتبونه أولاً برؤوس المسمارين. نقشاً على الطين. وكثيراً ما كانوا يحرقونه بمدد ذلك حفظه على كرور العصور. ولما دخل العرب على هذا الخط تحسبات كثيرة بهت به اشكاه وكتبه ثدته، وكان لا يزال يقرأ قبل الاسلام في اليمن ولكنه الاشئ أمره بان يشار الخط السطحي الذي كان يكتب به الحجار يون.

تمائيل لمعبوداتهم وخصوصاً لمعبودهم سوبيخ . ويقال ان منهم فرعون ابراهيم ، والعرب
يسمونه سنان بن الاشيل ، وفرعون يوسف وسمونه الريان بن الوليد ، وفرعون موسى
و اسمونه الوليد بن مصعب . ويؤكدهم ان هذا الاخير مصرى الخنس ودليلهم على
ذلك ان الاولان كانا يعطمان على الاحاب ، أما الثالث فكان يعمم عليهم .

— دوله عاد الأولى —

لما نزع عرب الشمال بعد سقوط الدولة الحمرانية الى جنوب جريده العرب ، في القرن
العشرين قبل المسيح كما قلنا ، كوثوا دوله عاد الأولى . وكانت مواطنهم أحفاف الرمال بين
النين وعمان . ومؤرخو العرب يعمون أن عاداً أقدم الأمم . ولذلك فاهم بطلعون وصف
« عادى » على كل شئ قديم لا يعلم لهم تاريخه . ويدكرون لهم أموراً من الغرابه يمكن : كم قولهم
ان عاداً عاش ١٢٠٠ سنة وولده ولد كركل صلبه ، وغرد لك مما يمكنك مراجعته
في توارخهم . ودكروا أن عاداً لما مات ملك بعده سوده : شديد ، ثم شداد ، ثم إرم . وقالوا ان
شداد أهو الذي بنى مدينته إرم داب العماد ، وقالوا في وصفها ما نفق الغرابه نفسها باهتة
أمامه ' ' على أن بعض المفسرين قالوا في تفسير قوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم
دات العماد » إهدات الرفعة ، وان إرم اسم جدهم : وبذلك كون دات العماد وصفاً لعاد .
ويؤيد ذلك نسبتهم الى إرم : فيمولون عاد إرم ونمود إرم . ولا يبعد أن كان لعاد من
شمال مخ الميناء في ملكهم هدمه ، كان لعبرهم في ذلك الوقت في ممالك الشام ومصر والهند
وسواها ، يدل على ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء خطابهم : « أنذون بكل ريع (مرفع) أنه
(فسروها بالساء الفحيم) نعثون وسجدون مصابيح لعلكم تحذون » ؛

وفي مدد شداد نفع عادوا أكثر ما من الظلم والفساد ، فأرسل الله تعالى اليهم هوداً .
فدعاهم الى ترك الاوثان وعبادة الرحمن ، وكذبوه وعادوا في ضلالهم . فانقطع عنهم المطر مدة ،
فأرسلوا وفد منهم الى مكة يستسمون ، ولكنهم استقروا في طغيانهم . ولما رأى هود أن
سخط الله نازل بهم لا محالة ، اعزهم واسعد عنهم مع من آمن به . وسحر الله عليهم رحامه سبع
ليال ونما به أيام حسوما (متاعات) وأهلكهم .

وفد ذهب بمضى المؤرخين الى أن عاداً الاولى اعماهم من قبل عرب الرعاه بعد طردهم من مصر: وعليه يكون ابتداء حكمهم بالاحقاف في العصر السابع أو السادس عشر قبل الميلاد. ولما هلك عاد بقي هود ومن آمن معه. وانضم اليهم لعمان بن عاد الذي كان ذهب بوفدهم الى مكة^(١)، ولحق بهم خلق كثير قاموا بدولة جديدة يسمونها عاد الثانية، دام ملكها ألف سنة، ثم تغلب عليهم الفتحطانيون فانحلت دولتهم وانقطع ذكرهم.

وعلى كل حال فإن المقامين لم يكشفوا لنا إلا شيئاً من أخبارهم، وعايه ما ذكره أنهم اعثروا في تلك الاحقاف على مغائر محفورة في الصخر التي تراكت عليها طينة كثيفة من الرمال. ولعلمهم يبدون لنا قريباً هذه الحجب التي اختفت من ورائها أخبار دولة كبرى لا يسعدنا ما خدمت الاساسية خدمة نذكرها لها مع الشكر.

— المعبيون —

المعبيون أو بنو معين قوم كانوا يسكنون شرق بلاد اليمن فوق حضرموت، وكانت لهم بها دولة كبيرة. ومؤرخو العرب لم يحدثوا بكلمة عن هذه الامة. والذي أحسبنا أمرهم اعماهم أولئك المستشرقون، وعلى الخصوص هاليق المرساوي، الذي أوفدته بلاده الى اليمن سنة ١٨٦٩م، واكتشف كثيراً من آثارها أهمها مدينة معين. وسار على أثره علاذر الالماني وعسره، وحدثوا شيئاً من أخبار هذه الدولة. وقالوا ان بنى معين كانوا ذوي مدينة وكان اشتغالهم بالزراعة في سهول جمال اليمن وسهول حضرموت. وأهم أقاموا هناك السدود وفتحوا الخللجان وسيروا الماء الى مزارعهم. وقد اختلفوا في تقدير عمر هذه الآثار: فبعضهم ذهب الى أنها من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وذهب آخرون الى أنها من القرن

(١) اذا اعتبرنا ان عاداً لم ترح الى بلاد اليمن إلا في القرن العشرين على أمد ما ذكره المؤرخون العربون، كان وفدهم الى مكة للاستسقاء إنما كان ببصد الاسعانة بالكعبة بعد بناء إبراهيم لها، لا كما قال بعض مؤرخي العرب من ان وفدهم كان ذلك.

الثامن أو السابع . وقد كتب الاستاذ هومل بالالمانية كتاباً في لغتهم ولغة سبأ . ولما كانت الخطوط التي على تلك الآثار مسمارية ولغتها بابلية ، كان المعينيون من غير شك من عمالة الشمال . ولا يبعد أنهم هم عاد الثانية ، ان لم يكونوا نزحوا الى هذه البلاد في تيار قدوم عاد الاولى اليها ، وربما كانت لهذه الغلبة عليهم ، ولهذا لم يذكر اسمهم معها . وعلى كل حال فإدام المسميون لا يفترقون عن البحث عن آثارهم ، ولا يبعد أن ينكشف لنا أمرهم في الفريب العاجل ان شاء الله .

- طسم وجدبس -

هما أمتان يذكرهما مؤرخو العرب ، انهما من العرب البائدة . وقد كانتا تسكنان في اليمامة شرق بلاد العرب . وكانت لطسم الكلمة السائدة لكثرة عصبتها . وكان مركز ملكها في مدينة تسمى المريده وهي مدينة الحجر ، ولا تزال بها آثارهم الى الآن . ويوجد في مدينة جمعه قصر يعبرون عنه بالعمادي (ويعنون أنه قديم جداً) . وربما كانت لهذه العصبة نسبة صحيحة ، وان هاتين الامتين اعادتا الى هذه البلاد مع عاد أو بعد هابز من قليل . وربما كان لعاد الحكم عليهم ، فلما هالكت هيتافى عزلنا حتى دخلنا في حكم التباينة . ومازالنا حتى تملك من طسم رجل ظالم فاجر . فغضى أن لا يرف فتاد من جدبس الى علمها قبل دخولها عليه . فانتهت لذلك جدبس وتخاذلوا على قتله : ودموا سلاحهم في الرمل ودعوه الى ولية عدهم ، فحضر في حاضرة قومهم . فهاجموا عليهم وقتلواهم عن آخرهم . وذهب نهر من طسم واستنصرخوا تتبع حسان أبي سعد . فساق جنده على جدبس . وقالت لدطسم ان بالتمامة امرأه تسمى الرقاء تنظر من بعد ثلاث ليال ، فخشى ان هي أبصر ما أخبرت قومها فيستعدون لها . فأمر كل واحد من رجاله أن يأخذ فرعاً من شجره ويحمله أمامه . فلما فعلوا وأبصرتهم الرقاء قالت لقومها :

انى أرى شجراً من حلقه اشرف * فكيف تجتمع الاشجار والبشر

نوروا بأجمعكم في وجه أولهم * فان ذلك منكم فاعلموا ظفر

فاستخفوا علمها ولم يصدقوا قولها ، فدمتهم خيل سبع فأفنوهم عن آخرهم . ثم أصاب

ما بقى من طسم ما تشتت به شملهم ، ونفروا الى جرائر المحرين وغيرها ، وبه قضى على ذكرهم . وكان ذلك فى أوائل القرن الخامس للمسيح .

— تمود —

ومن أهم العمالة تمود . نزلت من اليمن الى الشمال ونزلوا مدائن صالح ، ثم كانت لهم بها دولة كبيرة ، وآثارهم فيها الى الآن ، وأهمها ما يسمونه قصر البت ، الذى لا تزال توجد عليه نفوش يصعد ناريحها الى قبيل ميلاد المسيح . ولقد اختلف المؤرخون فى اهمهم كانوا أصحاب السلطان على النبطيين الذين كانوا يسكنون فى بطر ، وأهمهم كانوا تابعين لحكم عرب الاساط ، مما هو مشروح فى آخر باب من هذا الكتاب عند الكلام على مدائن صالح .

— القحطانية —

القحطانيون هم سوفحطان بن سبأ الاكبر بن سام بن نوح . وكانوا يسكنون فى شمال جرير العرب ، ونزحوا الى بلاد اليمن فى القرن الثامن قبل المسيح فى من نزل اليها بعد تحكم الآشوريين فيهم . وربما كانوا معاصرين للمعبيين ، وانتهى أمرهم بالغلب عليهم ، وقاموا فى اليمن بدولة جديدة يسميها مؤرخو العرب سبأ الاولى .

ولقد ذكرها أعلمهم عرضاً عند الكلام على سد مأرب . والحمدانى أول من شرحه لنا شرحاً وافياً . وأتى من بعده أرنؤ ، وهاليفى ، وغلادى ، فى القرن الماضى فأيدوا قوله ورادوا عليه مما أخذوه من الآثار التى نقلوا شيئاً كثيراً منها الى مناحف أور ونا بعضهما مقوش على أحجار وبعضها على برز .

وفهم من مجموع ما قالوه ان مياه الامطار كانت تكون فى بلاد اليمن مجبالها المرتفعة ، ثم تنزل على هيئة سيول كبيرة فى وديان الى الشرق والغرب . والوديان التى كانت تنزل الى شرق مدينة مأرب كانت تجتمع فى واد يسمونه الميزاب ، يرتفع عن سطح البحر بالف ومائة متر ، ويحيط به جبال من كل جهاته . وهذا الوادى يصيق من جهته الشرقية الشمالية وينحصر بين

جبلين يسمونهما تلق الايمن و تلق الايسر في مسافة ذكر الحمداني انها . ٦٠ خطوة، أى ٤٠٠ مترتفر بها ، وهالك يسمى وادى أدينة، وبعده ينفرج الوادى انفر اجاعظيا وتضييع فيه هذه السيول بلا فائدة . فاقام السبثيون على مسافة قليلة من مضيق هذا الوادى سد امان الحجر، طوله ٨٠٠ دراع وعرضه ١٥٠ ذراعا كوّن مع جانبي البلقين الخارجين مجرى عموديا على مضيق أدينة يحوّل الماء عن محراه الاصل الى دات اليمين وذات اليسار . وجعلوا الفتحتيه من جهتيه سدوداً ، فيما وراءها محار يسير فيها الماء الى الجهة التي يراد سوقه اليها على حسب ارتفاعها أو انخفاضها . وهذا السد هو ما يسمونه سد العرم . وأول من بناه يثعمر ملك سبأ في القرن السادس قبل المسيح . ووجدوا اسمه أخيراً منقوشاً على جبل بلق فيما يقابل السد المذكور . وزاد فيه خلفاؤه بما كان يزيد في فائدته . ولقد حصل من وراء هذا السد وترتيب المياه بواسطته ، تنظم الزراعة في تلك الصحراء بما أتى بالخير الحسيم لبلاد اليمن الشرقية : لانه حولها من فخر نلمع الى رياض وجبان ، حتى كانوا يعبرون عن الارض التي كانت في يمانا بالحمة اليمنى ، والتي في يسرا بالحمة اليسرى .

وما زال هذا السد^(١) حتى انكسر فحصل منه خراب جسيم قضى على دولة سبأ ، وتشتت أهلها في جزيرة العرب : فزات خزاعة مكة ، وزات الاوس والحزرج يثرب (المدينة) ، وزلت الازد عمان واليمامة ، وسار مزيميا الى الشام فكان منهم العسايون ، ونزحت نخم الى العراق وكان منهم المنادرة . و بذلك انتهى أمر سبأ الاولى وفي المثل : تفرقوا أيدي سبأ . وقد ورد تاريخ سبأ بالتفصيل في القرآن الكريم قال تعالى « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حط^(٢) وأثل وشئ من سدر

(١) بعد كسر هذا السد ماء ملوك حير وكانوا يسمونه بالعمارة ويقومون ما عمل . ٥٠٠ و آخر ما وصلنا من أمره أثر لا رهة الاشرم غفور على بعض جهانه نقوش وأرها علا در : وفيها كنيه دخول اليمن في ملك الاحاش ، وقد ذكر فيها ان سد مأرب كسر ففناه ابرهة (انظر كتاب العرب قبل الاسلام لجورجي زيدان) . ثم كسر قبل الاسلام ففعل ، ولا تزال آثاره موجودة وخصوصاً العربية منها . (٢) حط حامن وقيل هو الاراك أو العصا .

فليل . ذلك جز بناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سير وافيها ليالى وأياما آمنين . وما لو اربنا بعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق » .

- دولة سبأ الثانية أو حمير -

لما انهدم بيان دولة سبأ الاولى ، وتلاشت مدينة مأرب عاصمة ملكهم ، صارت السلطة ببلاد اليمن متفرقة في أيدي من تقي فيها . وكان لكل كهر أو قرية أو مدينة أو قصر رئيس منها . وهؤلاء الرؤساء كانوا يسمونهم الأداة : وكانوا يعرفون في الغالب بإضافة اسم الله اليهم (تلفظ دو) فيقال ذونا عيط ، ودور يدان ، ودوظفار مثلاً يعنى صاحب ناعط وصاحب ظفار الح . وأشهر ما وصلنا من أسماء هذه القصور و نال شعراء العرب ومؤرخوهم في وصفها وخصوصاً الهمداني : قصر ناعط ، وقصر سلحين ، وقصر كوكبان ، وقصر غمدان ، وقصر يندون الح .

وكان الموى من هؤلاء الأداة يتغلب بطبيعة الحال على بعض البلاد التي في جواره ويكون له الحكم فيها ، وهالك يسمى مجموع مملكته محمداً ، وصاحبه يسمى فيلاً . وربما اجتمعت جملة محافد في حكم شخص واحد فيسمونها محلافاً وحاكمها يسمى ملكاً : وعلى هذا كان شأن الدولة في حمير في صغرها وضيختها .

وما زالت الحال في هذه البلاد على هذا النظام حتى قام صاحب ريدان (ظفار) واسمه علمان ، في نهاية القرن الاول قبل المسيح ، وتغلب على حملة محاليف ومحافد تكونت منها مملكة حمير الثانية ^(١) . وما زالت هذه المملكة تكرر في زمن خلفائه حتى دخل في دائرتها

(١) ذكر حمير الاصفهاني ان ملوك حمير ستة وعشرون ملكاً ، مدة حكمهم ١٧٠٠ سنة . وهم : الحارث الرايش ومدة حكمه ١٢٥ سنة . أورهه دوالمار وحكمه ١٨٣ سنة . أفرقش سابرهه وحكمه ١٦٤ سنة . العمد دوالادغار وحكمه ٢٥ سنة . هيدهاد س شرحيل وحكمه ٧٥ سنة . بلقش بنت هدهاد وحكمها ٢٠ سنة . اشريبع وحكمه ٨٥ سنة . شمير يرعش وحكمه ٣٧ سنة . أبو مالك وحكمه ٥٥ سنة .

حضر موت وما والاها من البلاد شر قادمة حكم شمر برعش، في نهاية القرن الثالث للميلاد، وبها قامت دوله التبابعة (واحد هاتبع) ومعناه ملك الملوك، وهو في قوة لفظ امراطور عند الرومان. واستقر الحكم فيها الخلفاء الى سنة ٥٢٥ بعد الميلاد، أي مدة ٦٣٠ سنة، تولى الحكم فيها جملة ملوك منهم ^(١).

وأشهر ملوك التبابعة الهدداد، وكان يحكم من سنة ٣٤٥ الى سنة ٣٧٢ بعد الميلاد. ثم أبو كرب أسعد وكان يحكم من سنة ٣٨٥ الى سنة ٤٢٠ بعد الميلاد. وحسان بن أسعد وحكمه من سنة ٤٢٠ الى سنة ٤٥٥. وذو نواس وحكمه من سنة ٥١٥ الى سنة ٥٢٥.

وامد كانت حكومة التبابعة في غاية الرقي، وكانت بلادهم تسمى عند الرومان ببلاد العرب السعيدة، والعرب يسمونها اليمن الخضراء وكانت حضارتهم لا تقل عن حضارة الآشوريين وغبرهم من الممالك التي كانت في شمال جزيرة العرب ان لم تزد عنها: وذلك لاحكامهم بتجارة

تبع من الاقرن وحكمه ٥٣ سنة. دوحيشان وحكمه ٧٠ سنة. الاقرن من أنى. الملك وحكمه ١٦٣ سنة. كايكرب وحكمه ٣٥ سنة. أسعد أبو كرب وحكمه ١٢٠ سنة. حسان بن تبع وحكمه ٧٠ سنة. عمرو بن تبع وحكمه ٦٣ سنة. عبيد كلال وحكمه ٧٤ سنة. تبع بن حسان وحكمه ٧٨ سنة. مرند بن عبيد وحكمه ٤١ سنة. وايمه بن مرند وحكمه ٧٣ سنة. ارهه بن الصياح وحكمه ٠٠٠. صهان بن بحرث وحكمه ١٥ سنة. حسان بن عمرو بن تبع وحكمه ٥٧ سنة. دوشاتر وحكمه ٢٧ سنة. ذو نواس وحكمه ٢٠ سنة. دوحدن وحكمه ٨٨ سنة. عبيد بن علي بن أوهلم وهو الخارث الراش كان يحكم في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وقد سار المؤرخ نوبل دي فرحيه على نحو في كتابه تاريخ العرب، وبخالفهما في ذلك أبو الهداء وغيره من مؤرخي العرب.

(١) في عدد ملوك السابعة وأسمائهم ومدة حكمهم خلاف بن ومؤرخي العرب والمؤرخين العصريين الذين سوا حكمهم على ما عثر وأعليه من آثارهم. وملوك السابعة على ما جاء في كتاب العرب قبل الاسلام هم: شمر برعش وحكمه من سنة ٢٧٥ ميلاديه الى سنة ٣٠٠. ثم دوالقرن الصعب (افريقش) وحكمه من سنة ٣٠٠ الى ٣٢٠. وعمرو روح بلقيس وحكمه من ٣٢٠ الى ٣٣٠. بلقيس وحكمها من ٣٣٠ الى ٣٤٥ (وهي غير بلقيس سليمان لان هذه كانت في العصر العاشر في م). الهدداد أخو بلقيس وحكمه من ٣٤٥ الى سنة ٣٧٤. أيكرب يعم وحكمه من ٣٧٤ الى ٣٨٥. أبو كرب أسعد وحكمه من ٣٨٥ الى ٤٢٠. حسان بن أسعد وحكمه من ٤٢٠ الى سنة ٤٢٥. شرحيل يعمر بن أسعد وحكمه من سنة ٤٢٥ الى سنة ٤٥٥. شرحيل يوف وحكمه من سنة ٤٢٥ الى سنة ٤٧٠. معد يكر يعم وابيه لحيمه (لله ابيعه) وحكمهما من سنة ٤٧٠ الى سنة ٤٩٥. مرند اللات يوف وحكمه من سنة ٤٩٥ الى سنة ٥١٥. دونواس (دميانوس) وحكمه من سنة ٥١٥ الى سنة ٥٢٥. دوحدن وحكمه من سنة ٥٢٥ الى سنة ٥٣٣.

الهنود والفرس والاحباش والمصريين والسوريين . وكانت الزراعة متقدمة في بلادهم التي كانت لذلك العصر كلها مزارع وساتين ورياضا وغياضاً . وكانوا يستخرجون من جبالهم المعادن المختلفة كالذهب والفضة والاحجار الكريمة كالياقوت والزمرد والعقيق . و بذلك كان السبئيون والحميريون من أغنى أهل الارض وأكثرهم حضارة ورفاهية : فكانت لهم القصور الفاخرة ، والرياض الزاهرة ، والرياش الباهرة ، وحسبك ما قاله الشعراء ودكره المؤرخون في وصف قصورهم ، ذكرك بعض ما قاله الهمداني في وصف قصر كوكبان : « كان مؤزر الحارح بالفضة ، وما فوقها حماره بيض ، وداخله ممرّ بالعرب والعسيفساء والجرع ^(١) وصنوف الجوهر » . وقيل في وصف قصر بينون :

واسأل بينون وحيطانها * قد نظمت بالدر والجوهر

ولم يقتصر حكم التبابعة على اليمن بل امتد الى بلاد الحجاز واليمامة وما بينهما من قبائل العرب العدنانية وغيرها ، بل تعدت فوطاتهم في زمن أسعد أبوكرب وولده حسان الى الشام و بلاد الفرس والهند . وكانوا يفيمون على العرب حكاماً منهم يسمونهم ملوكاً : كزهير بن حباب الكلبي وغيره . وكانت وفود العرب تقدم عليهم من جميع أطراف الجزيرة ، يشئون اليهم شكواهم ، أو يستمطرون من جدواهم . وما زال حكم التبابعة قائماً في اليمن حتى نفم دونواس على بصارى حمران ، فأساء معاملتهم ، وأحديقتل فيهم ظلماً لانهم على غير ملته ، وكان يهودياً . ثم بالغ في ممته عليهم محدّ (حقر) لهم أخذودا (حمره) وأصرم فيه النار ، وكان يرمى فيه كل من لم يرجع عن الصراية . وقد وردت قصة أصحاب الاخدود اثنان زاراً مما أصابهم من الاعتساف في سورة الروج : قال تعالى « قل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود الخ » . واستجد أهل نجران ببجاشي الحبشة وكان بصرايياً فأرسل الى اليمن جيشاً عليه أرياط ، وكان من ضباطه رجل يقال له أبرهة الاشرم . فلما علم دونواس بهم قائلهم وقتلهم شديداً ، ولكنه انهزم وحاف من سقوطه في يد عدوه فأغرق نفسه . و بذلك تم الاحباش الاستيلاء على أغلب بلاد اليمن . وملعت أرياط بعد أن حكم البلاد عشرين سنة ، فتولى

(١) حجر يمانى يشبه العقيق وهو ما يسمونه عين الهر .

عليها أبرهة ، وجعل عاصمته صنعاء . وكان منه ما كان في حملته على مكة ورجوعه الى اليمن مقهوراً ، فرض ومات بعد أن حكم ٤٣ سنة . وتولى الملك بعده ابنه يكسوم وكان حكمه عشرين سنة كلها ظلم وجور . ثم ملك بعده أخوه مسروق بن أبرهة وكان أكثر ظلماً من أخيه . ولما هلك ذونواس قام أمير من قرابته اسمه ذوزن (جدن) واستولى على بعض البلاد واستمر ملكه فيها نحو ثمان سنين . ثم تغلب عليه الحبشة فقتل نفسه ، وفر ابنه سيف الى قيصر الروم يستنجد به ، وأقام مائة سبع سنين ، فأبى أن ينجده . فسار الى كسرى أنوشروان فوعده بمساعدته ، ووجه معه رجال اسمه وهرز في جيش من المسيحيين وقال « انهم فتحوا كان لنا وانهم هلكوا كان لنا » . وركب وهرز ومن معه البحر فلما وصلوا الى اليمن النعوا بكسوم ورحاله ، فكانت الدائرة على الاحباش : وقتل يكسوم في الواقعة واهزم جيشه . وتبعهم الفرس فأنحوا فيهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . و بذلك دانت لهم البلاد ، وجلس سيف بن ذي يزن على كرسيها . وأنته وفود العرب تهته بالملك ، وأتاه عبد المطالب سيد قريش في نفر من قومه فأكرم وفادتهم . و بعد مدة من حكمه قتله حجاجه وكانوا من الحبشة . وبه كان آخر حكم التبابعة في اليمن التي صارت بعد ذلك تابعة لملك الفرس . حتى اذا كانت السنة التاسعة للهجرة أسلم أهل اليمن ، وأرسلوا وفد أمهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . فأرسل اليهم معادين جبل وجعل له الامارة عليهم ، وأوصاهم خيراً . وكان عامل كسرى عليهم اسمه نازان فأسلم وبه صار حكم اليمن الى المسلمين .

— دولة كندة —

كندة بطن من كهلان ، كانت نزحت من البجامة في أوائل القرن الخامس من الميلاد وسكنت في شمال حضرموت في بلاد محيت باسمهم . وكان سيدهم حجر بن عمرو المشهور بأكل المرار ، له علاقة بحسان بن تمع ملك حمير ، لانه كان من أعوانه في فتوحاته بشمال جزيرة العرب ، فولاه ملكاً على قومه . وكان حجر ذا قوة وشجاعة ودراية . فاستنجدت به بكر بن وائل على الحميين ملوك العراق ، وكانوا غلبوهم على بلادهم وأجلوهم عنها . فسار مع بكر اليهم وحاربهم واستنفذ منهم أرض بكر . فولاه حسان ملكاً على العرب . فسار الى نجد وجعل مقامه

بها في بطن عاقل، وما زال به حتى مات . وتولى بعده ابنه عمرو، ويسمونه المقصور لاقتصاره على ملك أبيه . ثم خلفه ابنه الحارث . واتفق ان قباز ملك الفرس نغم على المنذر بن ماء السماء فطرده عن الحيرة، وأقام الحارث مكانه على ملكها . فلما ملك أنوشروان، أعاد المنذر وطرده الحارث فهرب الى ديار كلب ومات بها . وكان للحارث ولد اسمه ثجر كان ولده على أسد، فتنكروا له وقتلوه في ديمون باليمن فاستنجد عليهم ابنه امرؤ القيس الشاعر المشهور ببكرو تغلب، فساروا لنجدته وهربت أسد من وجهه . ولما علم به المنذر بن ماء السماء سار في طلبه فتفرقت جموعه . فاستنجد امرؤ القيس بابن ذى جدن ملك حمير وسار الى المنذر في جمع من العرب . وكانت الدائرة على ابن حجر، فاهزم وسار يتنقل من قبيلة الى أخرى حتى قصدا السموأل بن عادياء، وترك عنده قوسه ودرعه، ثم سار الى فيصر الروم يستنجد به فلم يستجده . فرجع من عنده خائباً ومات من الحزن في سنة ٥٦٠ للميلاد، وهو آخر ملوك كندة .

— دولة تنوخ بالعراق —

اختلف السابون في أصل تنوخ: فهم من يجعلهم قحطانيين ومنهم من يجعلهم عدنانيين . ومع أننا أخذنا بالقول الثاني في شجرة القبائل العربية، فإنا إذا كروهم هنا لانهم هم الذين شادوا الدولة العربية في العراق، وخلفهم عليها اللخميون إلا فاصل بين الدولتين: وذلك ان تنوخ (١) لما نزلت بالعراق كونوا فيها لهم دولة عظيمة في أوائل القرن الثالث للمسيح . وأول من قام بها مالك بن فهم أول ملوكهم . ثم خلفه عليها ابنه جذيمة الابرش، المشهور بدهائه وقوته وشجاعته وحسن رأيه . وكانت له حروب مع ملك من العمالقة اسمه عمرو بن الظرب، كان ملكه في مشارف الشام، وبعضهم ذهب الى أن عاصمة ملكه كانت مدينة تدمر، فقتله جذيمة . وكانت لعمرو بنت اسمها الزباء (واليوان يسمونه رينوبى ولعله محرف عن زنوبه) فاحتالت على جذيمة فقتلته في ثار أبيها . وكان جذيمة لم يعقب نسلاً . وكان زوج أخته رقاش

(١) كان لتنوخ فرع تولى الحكم في مشارف الشام للرومانيين ولم تطل مدتهم حتى تملك عليها بوسليح وهم بطن أخرى من قصاعه . وما زال هؤلاء حتى عليهم عليها العسابية .

برجل من لحم اسمه عدى وكان من ندمانه، فولدت له ولداً حبيباً اسمه عمرو، وكفله خاله وورثه
أحسن تربية . فلما قتل جذيمة تولى عمرو بن عدى الحكم بعده على الحيرة . وبه انتقل
الملك من تنوخ الى لحم .

وأراد عمرو أن يأخذ شارحاله فاحتال هو أيضاً على الزباء بواسطة عبد له اسمه قصير :
فجدع قصيراً نفسه، وسار الى الزباء يشكو اليها ابن عدى . وأرسل عمرو بالرجال اليه في
صناديق، وقصير يوم أهدأموه . فلما كان الليل خرجت الرجال ووضعوا السيف في قوم
الزباء فهرت ولحق بها ابن عدى . فلما تحققت فتكها بها ، كان بيدها سم فتناولته قائلة
« بيدى لا يد عمرو » .

— دولة اللخمين بالعراق —

كانت ملوك الحيرة تابعة لدولة الفرس . وكانوا يستعملونهم في الوقوف في وجه من يقصدهم
من الرومان من جهة الغرب ، كما كان الرومان يستعملون الغسانية لصدهجمات من يقصدهم
من جهة الشرق . وكان للخمين (ويسمونهم بنى نصر) دالة كبيرة على الملوك الساسانيين ،
ولهم عندهم مكانة اجلال واحترام ، وكانوا يلقبونهم بملوك العرب : فعظم جاههم واشتهر
أمرهم بين قبائل العرب ، وقدمت عليهم وفودها ، وقصدتهم شعراؤها وانقطع لمدحهم
جملة منهم النافعة الدياني ، وطرفة ، والمتلمس ، وحسان وغيرهم .

وأغلب ملوك اللخمين من دوى الهمة والعزة والسلطان . وأشهرهم ذكر عند العرب
النعمان بن المنذر لقرب عهده بالعصر الاسلامي . وحكمت هذه الدولة العربية الزاهرة من
سنة ٢٦٨ الى سنة ٦٢٨ ميلادية .

وهالك جدولا بملوكهم وتواريخ حكمهم مع ما اشتهر وابنه من الاعمال :

﴿ جدول ملوك اللخمين بالحيرة ﴾

﴿ اسم الملك ﴾	مدة الحكم من سنة م إلى سنة م	﴿ أعماله ومناقبه ﴾
عمرو بن عدى بن نصر	٢٦٨ ٢٨٨	هو الذي كون دولة اللخمين في العراق .
امرؤ القيس بن عمرو	٢٨٨ ٣٢٨	اتسع سلطانه وامتد على قبائل العرب غربا وجنوبا، ودخل في حكمه قبائل مذحج وربيعة ومضر، وحارب شمر ملك حمير، وقد وجدوا اسمه مكتوبا بالعربية على قبر في حوران ولعله كان ذهب اليها في غزوة فأتى ودفن بها .
عمرو بن امرئ القيس	٣٢٨ ٣٧٧	ملك نحو نصف قرن وكان معاصراً لسابور دى الاكتاف، وكانت مدته كلها خيراً ورخاء .
أوس بن قلام	٣٧٧ ٣٨٢	ليس من اللخمين ولكنه تغلب عليهم واستقر على ملك الحيرة حتى قتله رجل من بنى نصر فرجعت الدولة اليهم .
امرؤ القيس بن عمرو الثاني	٣٨٢ ٤٠٣	ليس له عمل يذكر .
النعمان الاعور بن امرئ القيس	٤٠٣ ٤٣١	كان مهيباً حازماً كثير الحروب، غزا الشام مراراً . وكان يغزو كل قبيلة من العرب لا تدين له . واجتمع له من الاموال ما لم يجتمع لاحد من سلفه . وهو صاحب قصر الخوراق، بناه له سمنار، فلما أعجبه قطع يده حتى لا يبني لغيره مثله وكان بينه وبين زهير بن قيس العبسي صلة نسب . وفي آخر أيامه زهد الملك وهام على وجهه في الففار ولم يعلم من أمره شيء بعد ذلك .
المذر بن النعمان بن امرئ القيس	٤٣١ ٤٧٣	كان من أعوان ملوك الفرس . وكان معاصراً لزيد جرد (يزدگرد) وبهرام، وحارب جيوش الروم الذين كانوا يقصدون فارس وانتصر عليهم انتصاراً باهراً .
الاسود بن المذر بن النعمان	٤٧٣ ٤٩٣	استصرخ به عمرو بن أذينة في أخذ ثار خال له قتله الغسانيون فسار اليهم وحاربهم .

جدول ملوك اللخمين بالحيرة

﴿ اسم الملك ﴾	مدة الحكم	﴿ أعماله ومناقبه ﴾
	من سنة إلى سنة	
المنذر بن المنذر بن النعمان	٤٩٣ ٥٠٠	وأسر كثير من وجوههم وقتلهم فيه . ليس له ما يستحق الذكر .
النعمان بن الاسود	٥٠٠ ٥٠٤	أمضى مدة حكمه في حرب الروم بالشام وغيرها
علقمة أبو يعفر	٥٠٤ ٥٠٧	من غير آل نصر وليس له ما يذكر .
امرؤ القيس بن النعمان	٥٠٧ ٥١٤	ليس له ما يذكر .
المنذر بن امرؤ القيس بن	٥١٤ ٥٦٣	هو أشهر ملوك اللخمين . وقد حصل بينه وبين قباد ملك الفرس خلاف أفضى إلى تولية قباد للحارث الكندي على الحيرة . فهرب المنذر وما زال محتفيا حتى مات قباد وتملك ولده أبوشروان . فقدم عليه المنذر فرحب به وولاه الحيرة ثانيا . وكان له يومان (١) يوم بؤس ويوم نعيم : فمن وفد عليه في بؤسه قتله ، ومن وفد في يوم نعيمه أهال عليه عطايه . وحارب المنذر بكر بن وائل في يوم أواره ثم قتل في حرب بينه وبين الحارث بن جبلة الغساني في واقعة يسمونها ذات الحيار أو يوم اباغ . كان ذا همة علياء وشجاعة شماء ، وكان صاحب خيلاء وكبرياء . دعا كراء العرب يوما فوفدوا عليه ، ووفد عليه عمرو بن كلثوم التغلبى مع أمه بدعوة منه . فلما دخلت أم كلثوم على هند ، أرادت هند أن تستخدمها فقالت واذلاه !! فسمعها ابنها فاستل سيف بن هند وهو معلق في السراقد وقتله به ، ثم خرج مع من كان معه من تغلب .
عمرو بن هند مضط الحجارة	٥٦٣ ٥٧٨	
ابن المنذر بن ماء السماء		
قابوس بن المنذر	٥٧٨ ٥٨١	كان ضعيفا وله يوم طخفة مع بني يربوع .
المنذر بن المنذر بن ماء السماء	٥٨١ ٥٨٢	قتل يوم حليلة في حرب بينه وبين الغسانية .

(١) ذكر بعض المؤرخين ان الذي كان له هذان اليومان هو النعمان بن المنذر أبو قابوس .

جدول بملوك الاخميين بالحيرة

﴿ أعماله ومناقبه ﴾	مدة الحكم	﴿ اسم الملك ﴾
من سنة الى سنة م		
بلغت الدولة في أيامه منتهى الشرف . ونعم عليه كسرى وطلبه فهرب الى طي وطلب منها أن تمنعه فأت . فنزل على هاني بن مسعود سيد بني شيبان . وكان هاني عزيزاً ، فأودعه أهله وسار الى كسرى فأمر به فسيجن حتى مات في طاعون سنة ٦١٣ م . وهو صاحب يوم السلان بينه وبين بني عامر بن صعصعة .	٥٨٥ ٦١٣	النعمان بن المنذر أبوقابوس
لما سيجن أبوقابوس استعمل كسرى اياسا سيد طي على العراق . فأرسل الى هاني بن مسعود وطلب منه ما استودعه النعمان فأت . فاخر كسرى وسار اليه بجمع كبير . فثبت لهم بنو شيبان وانتصروا على الفرس انتصارا بينا بدى قار . وكان ذلك سنة ٧ قبل الهجرة . ليس له ما يدكر .	٦١٣ ٦١٨	إياس بن قبيصة الطائي
وهو آخر ملوك الحيرة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة ٦ للهجرة ، أرسل العلاء الحضرمي الى البحرين ليدعو أهلها الى الاسلام أو الى الحرب . وأرسل معه كتابا الى المنذر يدعوه الى الاسلام فأسلم ، وأسلم معه جميع من هناك من العرب . وولى رسول الله العلاء على البحرين ومكث بها حتى كانت خلافة أبي بكر فارتدت العرب . فاستنجد أهل البحرين بالمنذر فحضر اليهم وحاصروا العلاء في حصن الجوئاء ، وما زال محصوراً حتى غافلهم وخرج عليهم ليلاً وأوقع بهم وقتل المنذر في هذه الواقعة وكان ذلك سنة ١٢ للهجرة وفيها انتهى حكم المناذرة باستيلاء المسلمين على العراق .	٦١٨ ٦٢٨ ٦٢٨ ٦٣٢	زاديه (زادويه) المنذر بن النعمان المغرور

الغسانية

كانت الروم تستعمل العرب الدين كانوا يسكنون بادية الشام للاستعانة بهم على عرب العراق الذين كانوا يستعملهم ملوك الفرس في مناوأة الرومان . فاستعملوا أولاً بطناً من تنوخ، ثم استعملوا سليحاء، ثم الضجاعة، وكلهم من قضاة . حتى اذا نزع الغسانيون الى بلاد الشام تغلبوا على بني ضجعم وأقاموا في البلاء، وصارت لهم الكلمة في تلك البادية بحكم العصبية، فأقامهم الرومانيون على المحافظة على حدودهم وعلى حروبهم مع الفرس وغيرهم . وقد اختلف مؤرخو العرب في عدد ملوك الغسانية : فقال حمزة الاصفهاني انهم ٣٢ ملكاً حكموا من سنة ٢٢٠ للميلاد، وقال آخرون غير ذلك . وذهب المؤرخ نولدكي الى أنهم عشرة فقط، وأن ملكهم يبتدىء من أواخر القرن الخامس للمسيح كما هو مبين في الجدول الآتي :

سنة الوفاة	﴿ إسم الملك ﴾	سنة الوفاة	﴿ إسم الملك ﴾
٥٠٠	جبله أبوشمر .	٥٠٠	الحارث الاصمراش الحارث الاكبر .
٥٦٩	الحارث بن جبله .	٥٠٤	« الاعرج ابن الحارث الاصمراش »
٥٨٢	المنذر أبوكرب بن الحارث .	٥٠٤	النعمان بن الحارث الاصمراش .
٥٨٣	النعمان بن المنذر الغساني .	٥١٤	عمرو بن الحارث الاصمراش .
		٥٣٦	حجر بن عمرو .
			حلة بن الازهم .

ولما كان التاريخ الذي حكم فيه جبله أبوشمر يقرب من الزمن الذي وضعه له حمزة وغيره من مؤرخي اليونان ، كان اختلافهم في تاريخ مبدأ هذه الدولة مبنيّاً على الوقت الذي ابتدأت فيه ضخامتها في عهد جبله المنذر .

وأشهر هؤلاء الملوك هو الحارث بن جبله ، وكانت له منزلة كبيرة عند الروم لشجاعته وشدة بأسه وعظيم سلطانه على العرب . ولما مات تولى ابنه المنذر مكانه فخارب قابوس

ملك الحيرة وانتصر عليه . وذهب المنذر الى القسطنطينية فألبسه الامبراطور طيار يوس التاج ولم يلبسه أحد قبله من الغسانيين . واستقرت سوريا في يد الغسانيين حتى حمل الفرس عليها وافتتحوها سنة ٦١٣ م ، فذهبت دولة العرب منها ، وكان عليها حجر بن عمرو . فلما نهض هرقل لاسترجاع سوريا من الفرس ظهر من الغسانية جبلة بن الايهم . وهو الذي وفد على عمر بن الخطاب في أشراف قومه وأسلم معهم ، وبنما هو يطوف حول الكعبة وطى إزاره أعرابي فلطمه جبلة . فاشتكى الاعرابي الى عمر . فاستدعاه وخيره بين القصاص أو استرضاء الاعرابي حتى ينزل عن حقه . فاستمهل جبلة حتى يرى رأيه وفر ليل الى فلسطين وركب البحر الى القسطنطينية وأقام بها حتى مات .

وللغسانية كثير من آثار العماراة في بلاد الشام : خصوصاً في أذرح ، ونجران ، ومعان . ومن أسماء قصورهم : صرح الغدير ، والقصر الابيض ، وقصر المشقى ، والقلعة الزرقاء ، وقصر منار . وقد عثروا أخيراً على بعض آثار هذه القصور في حوران .

العدنانية

لما أتى اسماعيل عليه السلام الى مكة تزوج بها وولد له اثنا عشر ولداً ، وما زال نسله يتكاثر ، وكانوا يسمونهم بالاسماعيلية ، حتى أصبح بعد نحو عشرين بطناً حفيداً عدنان . فولد له معد . وولد لمعد نزار فأنجب أعماراً ، ومضر ، وقضاة ، وربيعة ، وأياداً . وبارك الله تعالى في نسله فكان منهم العرب العدنانية . وكانت منازل هذه البطون الخمسة حول مكة في مبدأ أمرها . ثم اضطرتهم الحالة المعاشية الى طلب الرزق في جهات جزيرة العرب فنزحت قضاة الى نجد ، وتفرعت الى بطون كثيرة منها : تيم اللات وقد نزحت الى البحرين ، وتزيد نزلت عبرت بأرض الجزيرة ، وسليم نزلت مسارح الشام وفلسطين ، وأسلم نزلت الحجاز شمال المدينة ، وتفرغت في جهاته أنفاً الى الاربعة : عذرة ، ونهد ، والحواتكة ، وجهينة . ثم تنوخ وقد نزلت الى أرض الحيرة . وربان بن حلوان نزحوا الى بادية الشام . وبنى أقامت جنوب العقبة . وبهر او قد لحقت باليمن . ولقد تفرعت من هذه البطون أنفاً كثيرة كانت أمهات لقبائل كبيرة مشهورة .

وأما انمار فاهانزحت الى جبال السروات فملكوها وكان منها بطنان : بجيلة وخثعم .
وقد تفرقت أفرادهما في جهات الجزيرة . ورات اياد العراق ، وكانوا يغيرون على بلاد
الفرس فأجلاهم أنوشروان عنها ، ففرقوا في أرض الروم وبلاد الشام .

ولم يعم من العدنانية قبل الاسلام دول تستحق الذكر ، ولكن كانت ملوك اليمن
تعطى لمبملك لبعض سادات العرب وتوليهم الرعامة على القبائل : ومن هؤلاء الملوك زهير
ابن جناب السكبي ، ولده أرهة الاشرم على قبائل العرب ، فخرجت عليه نكر وتغلب ، فسار
اليهم وغراهم وأسروهم وجوهمهم ومهمهم وائل بن ربيعة المشهور بكليب وأخوه مهلهل ، وعاد بهم
الى بلاده . ومكث كليب وأخوه عند مدة حتى هب قومهما وأبغضوهما من الاسر . وكان
زهير قد أسن وعمر وتولى بعده عبد الله بن أخيه حكيم . ولما رجع كليب الى قومه أخذ يستميل
اليه العرب و يعمل فيهم بكمال درايته وحسن ادارته وكثير كرمه وجوده ، وجمع اليه معدا
وأفهمهم مقدار ما يصيبهم من تبعيتهم للملوك اليمن . وسارهم وحارب ابن حكيم ، فانصر عليه في
واقعة عظيمة يسميها العرب يوم خزاز ، وكان ذلك في أواخر القرن الخامس للميلاد : وبذلك
خرج العدنانية من تبعيتهم للملوك اليمن ، ونادوا بكليب ملكا على العرب . وما زال أمر
كليب يكثر حتى قتل باقة لامرأه اسمها البسوس ، كانت تزيله على ابن عمه جساس ، فقتله بها
غيرة على جواره ، وقامت لذلك حروب هائلة بين نكر وتغلب مكثت أربعين سنة ويسمونها
حرب البسوس .

ومن ملوك العرب أيضاً قيس بن زهير العبسي وله حروب مشهورة . وفي آخر أيامه
اعتزل الملك وذهب الى عمان ، وترهب فيها ومات بها . وكان له ولد اسمه فضاله وفد على
رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقد له على من معه من قومه .

• وأما قر يش فقد كانت لهم في جزيرة العرب الزعامة الدينية العامة لاستيلائهم على الكعبة
وكان لهم بذلك في العرب كلهم منزلة اجلال واعظام لا تقل عن منازل الملوك ان لم تزد عنها .
وما زالت القبائل العدنانية على بداوتها حتى ظهر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من
قر يش ، ونشر دين الاسلام في قومه ، ثم هاجر الى المدينة ، ومن ثم أخذ الاسلام ينتشر في

قبائل بلاد العرب كلها، وماليت أن تحاوزها شرقا وشمالا وغربا، واستولى العرب في حكم الراشدين الذين كان مركزهم المدينة، على بلاد فارس والشام وأرمينيا والقوقاز ومصر وبلاد المغرب . وفي مدة الامويين انتقل مركز الخلافة الى دمشق . ووصلت فتوحاتهم الى المحيط الاطلسي، ودخلت جنودهم الى أوروبا من بوغاز جبل طارق، وما زالت تفتح في بلادها حتى وصلت الى قلب فرنسا . بل نفذت سراياهم الى قلب أوروبا لتوطيد عرش من كان يطلب حمايتهم من ملوكها . وفي ذلك العهد كنت ترى تحار المسلمين يسرون بتجارهم من بغداد الى القسطنطينية ، ومنها الى شمال أوروبا . وهناك كانوا يتقابلون مع اخوانهم من التجار الاندلسيين ، فيتبادلون تجارة بعضهم البعض ثم يعودون في أمان الله وحماية حكوماتهم الى بلادهم . و بقيت العرب في الاندلس أربعة قرون ، وكانت لهم بها دولة راقية جدا ، كانت سببا في رقي المدنية الأوروبية وبينة الحالية في أخلاقها وعلومها وصناعاتها .

وحكم العرب في الاندلس يتبدى من سنة ٩٢ بعد الهجرة وهي التي دخل فيها طارق الى بلادها من مضيق الزقاق (بوغاز جبل طارق) ، ثم تبعه سيده موسى بن نصير . ومازالا يفتحان في البلاد حتى خافهما الوليد بن عبد الملك فاستدعاهما وبكبهما . وما زالت الاندلس تابعة للدولة الاموية ، وكانوا يولون عليها ولاية بلقب أمير الى سنة ١٣٨ هـ . وفيها استولى عليها عبد الرحمن بن معاوية الاموي واستقل بها . والسبب في ذلك أنه لما سقطت دولة الامويين بدمشق . وقامت دولة العباسيين على يد السفاح أخذوا يتعقبون الامويين بالقتل ولم يفلت منهم الا القليل ومنهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك . فدخل الى الاندلس ولذلك يسمونه بالداخل ، فاجتمع عليه الناس وبايعه أهل أشبيلية وقرطبة وغيرهما . وتم استيلاؤه على الاندلس في سنة ١٤١ ، فجعل عاصمته قرطبة ، وقطع الخطبة عن العباسيين ، وبنى بها القصر والمسجد الجامع . وما زال بنوه عليها حتى اذا ربح ثامنهم عبد الرحمن الناصر في دست الامارة سنة ٣٠٠ ، لقبوه بأمر المؤمنين ، وبه ابتدأت الخلافة العربية بالاندلس . وحكم الناصر خمسين سنة استفحل فيها ملك بني أمية بهذه البلاد ، وارتقت فيها العلوم والاداب والصناعات وخصوصا قرطبة التي صارت تناظر بغداد في

نخامتها وضخامتها . و بنى عبد الرحمن مدينة الزهراء ، وأنشأ بها من القصور ما لا يصل اليه الوصف . وبالجملة فقد كانت مدته كلها نورا وعرفانا وعزة وسعادة . وتولى بعده ابنه الحكم سنة ٣٥٠ ، وكان محبا للعلوم : ولقد شيد دارا للكتب لم يشيد مثلها أحد من الملوك ، وقالوا ان عدد كتبها نيف وأربعمائة ألف مجلد ، وكان لها أربعون فهرستا . وخلفه ابنه هشام سنة ٣٦٦ ، وما زالت الخلافة تنقل في بيته حتى تولاها أمية بن عبد الرحمن في سنة ٤٢٢ . وكانت الفتنة قد كثرت في البلاد واشتدت في مدته ، فهرب ومات في هربه ، وهو آخر خلفاء بني أمية في الاندلس وعدد هم ١٦ خليفة : كانت دولتهم من أحسن الدول شأنا ، وأضخمها سلطانا ، وأعلاها ذكرا ، وأكثرها ثروة . ولا يزال من آثارهم قصر الحمراء في غرناطة ، والقصر المشهور بالكازار ومجايبه المارة التي كانوا يرصدون عليها الكواكب في أشبيلية ، والمسجد الجامع في قرطبة : وكلها آثار حية تفوق حد الاقتان في صناعتها وزخرفها وفخامتها مما لا تصل الى تصويره مقدرة الواصفين ، ويقف أمامه الحاضر باهتا لقدرة الانسان الغابر في ذلك الزمن الزاهر ! وسيمحان من بيده الملك .

وقامت بعدها بالاندلس دولة العلويين في سنة ٤٠٧ ، واستقرت الى سنة ٤٦٠ . وأول ملوكها على بن حمود الادريسي . ولما ما يعوه تلمب بالناصر لدين الله . وضعفت الخلافة في مدتهم حتى صارت لا هيبة لها . وكان ذلك سبباً لا يمساهم ملك الاندلس بين ملوك الطوائف : فقام أشبيلية محمد بن عباد وبنوه من بعده . وقام ببطليوس محمد بن عبد الله المعروف بالافطس وأولاده من بعده . وقام بطليطلد ابن يعيش ، ثم اسماعيل بن دى النون . وقام بسر قسطة سليمان بن هود الجذامي . وقام بطرطوشة ابيب العامري . وقام في تلمسية المنصور المغامري . وقام بسهلة عبود بن زير بن البربري . وقام بدانية الموفق العامري . وقام بمرسية بنوطاهر ، ثم استولى عليها ابن عباد . وقام بالمريه خيران العامري . وقام بمالقة بنو حمود . وقام بغرناطة حبوس الصنهاجي . الا أن الافرنج ابتدأوا يستعملون هؤلاء الرؤساء أسلحة بعضهم في محو البعض الآخر . ثم أخذوا بعدهم هذا الا شفاق يستولون على الاندلس لدا لدا ، حتى استولوا على أشبيلية في سنة ٦٤٥ . فانحازت العرب الى غرناطة

والمرية ومالفة وضاق الملك بهم بعد اتساعه .

وكانت هذه البقية الباقية يدافع عليها ابن هود مع محمد بن الأحمر ، وفي أثناء ذلك كان عدوهم ينقض على أطرافها شيئاً فشيئاً ، حتى أخرجهم الى سيف البحر . وهناك اجتمع عليهم جموع من المسلمين ، وزحف اليهم رجال من الربر ، فاستولوا على بعض النواحي . ولكنهم ما لبثوا أن استولى الاسبانيون على غرناطة عاصمة ملكهم صلحاً في سنة ٨٩٧ ، بعد أن أمنوا المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم . ولكنهم أخفروا عهدهم وأذاقوهم صنوف العذاب ، خصوصاً بعد أن تشككت محكمة المسوس المسماة بمحكمة التفتيش (الابكر سيون) ، فقتلوا النفوس ، وسلبوا الاموال ، وهدموا الا نوار ، وأحرقوا القصور والمساجد ، التي لم يبق منها الا ما وارته عن أعينهم بد الزمن !!! وتشنت المسلمون الى بلاد المغرب ، ولم يبق في الاندلس منهم الا المستضعفون الذين وعدت بهم حالهم عن الهجرة ، وما زالوا يسامون سوء العذاب حتى داوود بن الملاد . وللا ن ترى بعض الاسماء بأسبانيا عربية محصنة مثل : الفارس ، والفائد ، ورماني ، وريدان ، وفران ، ورتضار ، وبصار ، وميمون الخ . هداما كان من أمر الدولة العربية الغربية . أما دولتهم الشرفية ، فقد كانت في صدر الخلافة العباسية في أعز أيامها ، وأرفع أعلامها ، وخصوصاً في مدة الرشيد وولده المأمون ، اللذين قاما بكل ما فيه رقي الافكار ، وبشر العرفان ، وتنشيط الصناعات : حتى صارت الدولة الاسلامية في مدتهم مشكاة يستنير بها العالم الشرقي ، في حين ما كانت الدولة الغربية الاسلامية بالاندلس تراسا يضيء ما حوله من الكائنات .

فلما كانت خلافة المعتصم العباسي في سنة ٢١٨ جمع كثير من المماليك الى خدمته : حتى ان عدد من التركمان والجر كس ما يزيد عن خمسين ألفاً واتخذ منهم حراسا لنفسه ، وولاهم محافظة الثغور . فاخذت شوكتهم تزداد يوماً فوما حتى تغلبوا على الدولة ، وصارت الخلفاء ألعوبة في أيديهم ، يولون من يشاءون ، ويعزلون من يريدون ، حتى اذا كانت خلافة المعز بالله استولى أحمد بن طولون^(١) على مصر سنة ٢٥٤ م ثم أخذت عمال الدواحي تتغلب على أطراف الدولة

(١) هو الذي كون الدولة الطولونية بمصر ومكثت قائمة بها من سنة (٥٢٥٤) الى سنة (٥٢٩٢) وفيها

شيئا فشيئا حتى اذا كانت سنة ٣٢٢ ضعف أمر الخلافة العباسية بالمرّة : فكانت فارس في يد بني نويه^(١) ، والموصل وديار بكر في يد بني حمدان^(٢) ، ومصر والشام في يد الاخشيديين ، والاندلس في يد بني أمية ، والمغرب وافريقية في يد الفاطميين ، والبصرة في يد ابن رائق ، وماوراء النهر في يد بني سامان^(٣) ، وطرسستان وجرجان في يد الديلم^(٤) ، وجهة البحرين واليمامة في يد القرامطة^(٥) ، ولم يبق في يد الخليفة الا بغداد وضواحيها . وبذلك أصبحت الخلافة كأن لا وجود لها بالمرّة .

قامت الدولة الاحشيدية الى سنة ٣٥٨ هـ وفيها تملكت عليها الدولة الفاطمية الى سنة ٥٦٧ هـ . وفيها اسولى عليها الدولة الايوبية الى سنة ٦٤٨ هـ . ثم قامت بها دولة المماليك البحرية الى سنة ٧٨٤ هـ ثم دولة المماليك البحرية (دولة الجراكسة) الى سنة ٩٢٢ هـ . وفيها اسولى عليها الدولة العلية العثمانية . وفي سنة ١٢٢٠ تولاها محمد علي باشا حداثا الخديوية وصارت ارتنا ناسا لدمه من بعده .

(١) هم من الديلم فاموا بدولة ملك العراقيين ودرس والاهوار على يد عماد الدولة بن نويه سنة ٣٢٢ هـ فساسها أحسن سياسة وأدارها بمقل وحكمة حتى عظم شأنه واسولى على بغداد سنة ٣٣٤ هـ ثم اسولى على كثير من الجهات ومنها حرخان واصهبان وخورسان ، وحط له على المار في بغداد وغيرها ، وكان وزيره الصاحب بن عباد ، وما زال الملك في يده الى سنة ٤٤٧ هـ حيث برعه مهم طغرل السلجوقي . واستمرت الدولة السلجوقية الى سنة ٥٩٠ هـ . وفيها ظهرت الدولة الخوارزمية ، وأول من قام بها محمد خوارزم شاه الذي بعد ان تملكت على سلاطنة ايران اسولى على بغداد ومارال خلدائه بها حتى تملكت عليها السار .

(٢) ظهرت دولة بني حمدان في الموصل سنة ٢٩٣ هـ ، ولقد عظم شأن هذه الدولة حتى امتد سلطانها على الحرية والشام ، وبلغ من أمر ملوكها انهم استمدوا بالدولة العباسية وصارت لهم فيها السكاسة المأداة . وأشهر ملوكها سيف الدولة الذي كان حكمه من سنة ٣٣٠ الى سنة ٣٥٦ هـ . وفيها مات . ولكن مقامه بقيت منشورة على صفحات شعر المني الذي قصر حياته على مدائحه . ومن أشهر من بني حمدان أبو فراس الشاعر المشهور .

(٣) بنو سامان كانوا ولادة من العجم على ماوراء النهر لعماسيين ، فلما ضعف الخلافة العباسية استقلوا بها حتى علمهم عليها الدولة العنوية في سنة ٩٩٩ هـ .

(٤) بعد تملك الديلم على حرخان وطرسستان اسولوا على بغداد حتى علمهم عليها العزوية .

(٥) القرامطة نسبة الى رجل يقال له قرمط قام بالبحرين ودعا قوما من أهل البادية الى دين جديد ذهب فيه الى ان عيسى المسيح انما هو أحمد بن محمد بن الحنفية ، وكانت الصلاة عندهم أربع ركعات : ركعتين قبل طلوع الشمس ، وركعتين قبل غروبها . وكانت كلمة توحيدهم أشهد أن لا اله الا الله وأن ابراهيم رسول الله ، وأن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله ، وأن الصلاة الى بيت المقدس ، وأن الجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيها شيء ، وأن يصام يومان في السنة يوم المهرحان

وفي خلافة الطائع لله ظهرت الدولة الغزنوية^(١) سنة ٣٦٦ هـ وفي خلافة المقتدى لامر الله قامت الدولة الغورية^(٢) سنة ٥٤٣ هـ ثم ظهر أمر الغز^(٣) سنة ٥٤٨ هـ.

وفي سنة ٦٥٦ استولى التتار^(٤) على بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم العباسي ، ومن ثم انقطعت الخلافة العباسية ثلاث سنوات ، وفي سنة ٦٤٦ وصل من فر من العباسيين الى مصر فاستقبلهم الملك الظاهر بيبرس أحسن استقبال وأقام بها الخلافة باسمهم . ومات هولاكو سنة ٦٦٢ بعد أن ملك الشام والعراق وفارس وماوراء النهر . وانقسمت مملكته بين بنيه وبين اخوته ومازلوا حتى افرض حكم ملكهم تغلب تيمورلك التتري على بغداد في سنة

ويوم الدورور ، وان السيد حرام والجر حلال ، ولا غسل من حنافة ، وان الوضوء كوضوء الصلاة وان يؤكل كل ديباب ودي علب . وظهر أمر القرامطة سنة ٢٧٨ هـ ثم اسحق ملكهم حي اسولوا على مكة والمصر والكوفة وما حوا الخليفة في بغداد . وفي سنة ٣٢٩ ضعف شوكتهم وانحصرت سلطتهم في بلاد هجر حي تلاشى أمرهم .

(١) الروية أسسوا دولة في شرق بلاد العجم سنة ١٦٦ هـ على يد محمود بن سبكتكين علام اسحاق صاحب جيش عرنة لاسامانية ، واتخذ عرنة عاصمته ، وفتح بلاداً كثيرة في الهند واسمر الملك في بنيه الى سنة ٥٧٨ هـ . ومات بالملك بعدها الدولة الغورية .

(٢) الدولة الغورية قامت بالملك بعد الدولة العجمية وامد ملكهم الى الهند والسند واسمر حكمهم الى سنة ٦٠٤ هـ ومن أحسن ملوكها عماد الدين الغوري الذي كان يلقب بقسيم أمير المؤمنين . (٣) المرطائنة من الترك كانوا فيما وراء النهر ثم رحلوا الى خراسان وكانوا كثيرًا ومن أسلم منهم كان ترجحًا بآبائهم ومن المسلمين . فلما أسلموا سمو بالترك كان ، وحاربهم السلطان سحر السلجوقي فكسروه وهرموه شر هزيمة واسولوا على خراسان سنة ٥٥١ هـ .

(٤) السار لبط يطلق على مجموع قبائل كثيرة في أواسط آسيا واشهر أمرهم في القرن السابع والثامن والتاسع للهجرة . وأول من اشهر من ملوكهم حكيم بن في أول القرن الحادي عشر للهجرة . وكان يدخل في ملكه حوارزم وخراسان وكرمان وفارس وأذربيجان والعراق العربي والعجمي والحريرة . وبعد وفاته انقسمت مملكته بين بنيه ، وفي مدة ملكهم سار هولاكو أحدهم الى بغداد بواطية مع مؤيد الدين الطقعي وزير المستنصر بالله العباسي ، وحصل بينه وبين حمود المستنصر واقعة اسب نامهرام حمود الخليفة سنة ٦٥٦ هـ ودخل بغداد وهبها وقسلوا الخليفة المستنصر العباسي مع من فيها من الاشراف ، وسبوا ساءها وفكوا بأهلها ، وكان حرائر بغداد عامرة بالكسب النفيسة فأحدها هولاكو وعمل بها حشرا في الدخلة مرت عليه حموده ! واسمرت دولة السار قائمة الى سنة ٧٩٧ هـ وفيها اسولى تيمورلك (تيمور الاعرج) المغولي عليها . ودخل بغداد وفك بأهلها فككاً دريماً .

٧٩٨ . ولما مات سنة ٨٠٨ اقتسم بنوه مملكته : فاستقلت بلاد فارس ^(١) والتركستان ^(٢) ، وأخذ ملوك بني عثمان ^(٣) الذين كان لهم الحكم في آسيا الصغرى كلها في التغلب على مادونها شيئاً فشيئاً ، حتى اذا دخلت الشام في حكم السلطان سليم سنة ٩٢٢ هـ ، سار الى مصر من سنته ودخلها فاتحاً ، ومكث بها حتى رتب أمورها ونظم حكومتها ثم سافر الى بلاده ، وأخذ معه محمد المتوكل على الله الخليفة الثامن عشر العباسي . ثم تنازل له المتوكل عن الخلافة الاسلامية . ومن هذا الوقت وهي في أيدي ملوك بني عثمان . ومن ثم انحصر ملك العرب في بلاد المغرب . ولهذا رأينا أن نقول كلمة صغيرة عن كل قسم من أقسامها لتكمل به الفائدة .

(١) فارس كانت في يد الحداة الى أن قامت بها الدولة العروبية من سنة ٣٨٧ هـ الى سنة ٥٤٥ هـ . ثم وقعت في يد السلجوقيين الى سنة ٥٧٤٥ هـ . ومن ثم نجراً حكمها الى حملة حانات ثم اسولي عليها التركمان في سنة ٨١٠ هـ الى سنة ٩٠٧ هـ ثم طهرت بها الدولة الصوية الى سنة ١١٣٥ هـ ثم تداولها حملة أمراء . وفي سنة ١١١٢ هـ اسول عليها عائلة فاحار الحالية ، وانصلت بها في مدتهم بلاد الافغانستان سنة ١١٦٠ هـ . (٢) بلاد تركستان التي من أهم مدنها بخارى لم يتم فتحها الا لعبيدة بن مسلم الخراساني في سنة ٨٧ هـ ثم دخلت في ولاية بني سامان حكام خراسان من سنة ٢٠٤ الى سنة ٦٣٨٩ هـ ثم تولي عليها ايلك التركي . ثم دخلت في حكم السلجوقية . ثم اسولي عليها حكم كيرخان . ثم تطلبت عليها حكومة اربك التركية مدة قرن ونصف . ثم انقسمت الى حايات مستقلة منها حاية بخارى ، وحاية سمرقند ، وناشقند ، وخيوه . ودخلت هذه الحايات في حكومة روسيا واحدة واحدة في نحو نصف القرن التاسع عشر من الميلاد . (٣) أول ظهور هذه الدولة انه لما اصمحت دولة السلجوقيين في سنة ٦٩٩ هـ تطلبت على ملكها دول كثيرة صغيرة . وكان من ضمنها دولة الترك ، وفي سنة ٦٩٩ هـ ظهر أمر السلطان عثمان التركي في الاصول واشهر بصله وعدله وبلغت فوحاه الى بحر الروم غربا والدردييل والوسفور شمالاً ثم فتح بورصة سنة ٧٢٦ هـ . ولما مات استولي على مملكته ابنه أورخان ففتح البحر الى أوربا واسولي على مدينة عاليولى وتولى بعده ولده مراد الاول فسار الى أوربا وأوغل في بلاد الصرب والبلغار والبايا . وخلفه ابنه بايزيد وكسر ملوك فرنسا والمجر وألمانيا الذين تحالفوا عليه ، ثم قصد فتح القسطنطينية فلعله ان تيمور لك . ذلك المول قصد بلاده فسار اليه وحاربه فوقع في أسره ومارال به حتى مات . وقام بالملك بعده ولده السلطان محمد بن بايزيد فاسترد ملك أبيه ومات سنة ٨٢٣ هـ وتولي بعده أحفاده وما زال ملكهم حتى افسح السلطان محمد القسطنطيني سنة ٨٥٧ هـ ثم افسح اليوسه والهرسك وطررون واستولي على كثير من حررا لارخيل . وما زال ملك بني عثمان حتى تملك السلطان سليم الاول فاستولي على ديار بكر وكرديستان وحارب البرس واتصر عليهم ثم تركها الى حرب مصر فاستولي عليها سنة ٩٢٢ هـ . وما زال خلفاؤه يتوارثون عرش الدولة العلية حتى آل أمرها الى سلطانها الدستوري (محمد الخامس) في ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٣٢٧ هـ الموافق ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩ هـ حفظه الله وحمل أيامه كلها خيراً وبركة .

— طرابلس —

كانت طرابلس أولاً في يد البربر، ثم دخلت تحت الحكم الروماني حتى افتتحها العرب سنة ٢٢ هـ : وتولاها الاغالبه ثم العبيديون ثم الصنهاجيون، ثم استولى عليها صاحب صقلية واستردها منه الموحدون . ثم استولى عليها الاسبانيون ، وفي سنة ٩٥٠ حضرت الاساطيل العثمانية وطردهم منها واستولوا على البلاد وهي في قبضتهم الى الآن .

ومما نذكره مع الاسف الشديد أن دولة ايطاليا التي تمنى نفسها من زمن بعيد باحتلال هذه البلاد ، قد اعتدت بلاسبب على الدولة العلية، وأشهرت عليها الحرب على غرة منها وسيرت أساطيلها الى طرابلس، وكانت الدولة في شاغل بحروبها الداخلية عن تقوية ثغورها . وطلب الطليان من حاكم طرابلس أن يسلمهم المدينة فلم يقبل . فأطاعوا يرائهم على قلاعها في يومى ٨ و ٩ شوال سنة ١٣٢٩ ، فانسحبت الحامية الى داخلية البلاد استعداداً للحرب ونزل الطليان الى البرواحتلوا المدينة في يوم ١٥ منه الذى يكتب فيه كلمتنا هذه . ولا يعلم الا الله مصير هذه البلاد من بعد ذلك ، ولعل الدائرة تدور على الباغي . ولا حول ولا قوة الا بالله .

— بلاد الجزائر —

أصل هذه البلاد من قبائل زناته وصنهاجه من البربر . وفتحها الرومان في سنة ٥٣٤ م ، ثم فتحها المسلمون في خلافة سيدنا عثمان بن عفان . وفي مدة العباسيين قامت بها الدولة الزيرية من سنة ٣٦١ الى سنة ٥٤٣ هـ ، ثم استظهر عليها صاحب صقلية روجير الثانى النورماندى . وفي سنة ٥٥٤ استوات عليها دولة الموحدين المرراكشية الى سنة ٦٦٩ ، حيث تغلب عليها بنو زيان من الصنهاجيين ، وجعلوا تلمسان عاصمة للمكهم . ثم استولى عليها الاسبانيون سنة ٩١٥ هـ ، وطردهم منها أهل البلاد سنة ٩٢٢ هـ بمساعدة القرصان الذين كانت مراكبهم تغدو وتروح فى البحر الابيض المتوسط متعقبه مراكب الاسبانيين ، موقعة بهم كلما عثرت على شىء منهم . وكان رئيس القرصان يسمى بارباروس وكان على جانب عظيم

من الشجاعة ، فظهر أمره وهابته دول الفرنجة ، وما زال حتى مات سنة ٩١٩ وتولى عمله أخوه خير الدين بارباروس . وكانت مدينة الجزائر في يد الفرنج مع بعض السواحل الغربية ، فخار بهم خير الدين وأجلاهم عنها ، وصارت له الكلمة في كل بلاد الجزائر . وكثرت فتوحاته واتسع ملكه الى داخل افريقية .

وفي هذا الوقت كانت الدولة العثمانية قد استولت على الشام ومصر و بلاد الحرمين . فبادر خير الدين وأرسل بالهدايا الفاخرة مع مفاتيح البلاد الى السلطان سليم ، فأقره عليها . ومن ذلك العهد أخذت تزداد مكانته ويعظم سلطانه . وسافر خير الدين الى الاستانة في مدة السلطان سليمان ، فأكرمه كل الاكرام وأعم عليه بلعب باشا . وفي مدة اقامته بها قام شارالكان ملك فرنسا بجيش عظيم ومعه كثير من أهل أسبانيا وهم على بلاد الجزائر . فقتلهم حسن أعان نائب خير الدين على البلاد بجأش رابط ، وحرارهم وهزمهم شر هزيمة . ونزلوا الى المحرمهم زمين الى بلادهم بعد أن غرق أغلب سفنهم . وفي تلك الاثناء صدرت الارادة السنية بتعيين خير الدين باشا رئيسا للحرية العثمانية . ومن ثم أخذت الدولة العلية تعين ولائها على الجزائر . وما زالت في يدها حتى استولى عليها الفرنسيون سنة ١٢٢٧ هـ (سنة ١٨٣١م) وهي في أيديهم الى الآن .

— تونس —

هذه الولاية كانت قديما في يد الررواستولى عليها الفينيقيون وأسسوا فيها مدينة قرطاجنة في القرن التاسع ق م ، ولا تزال تشهد آثارها قرب مدينة تونس . وكانت لهم بهادولة رافية استمرت الى منتصف القرن الثامن ق م . ثم استولى عليها الرومانيون الى أن فتحها العرب سنة ٢٧ هـ . وكانت هذه البلاد أولا في ادارتها تابعة لولاية مصر ، حتى قامت بهادولة بني الاعلب في سنة ١٨٤ هـ ، فاستقلوا بها واستمرت في يدهم الى سنة ٢٩٦ هـ . وفيها قامت دولة العبيدين (العلويين) ، ومارالوا بها حتى استولوا على مصر سنة ٣٥٥ في مدة المعز لدين الله . وسار المعز اليها سنة ٣٦١ وجعلها ممره ، ونزل بالماهرة التي اختطها جوهر سنة

٣٥٨ ، وجعل على افر يقية يوسف بلكين بن زيرى الصنهاجى . واستقرت في يد الصنهاجين الى سنة ٥٤٢ . وفيها استولى ملك صفلية على أغلب ثغور تونس . فسار اليها الامير يوسف ابن عبد المؤمن صاحب مرّا كش بجيوش الموحدين ، فطردهم منها واستولى على تونس في سنة ٥٥٥ . وما زالت في يد خلفائه الى سنة ٦٠٣ . وفيها قامت بهادولة الحفصيين وما زالوا عليها الى سنة ٩٨٢ هـ . وفيها استولت عليها أساطيل الدولة العلية وما زالت تولى عليها ولايتها باسم دايات (مفردة داي) حتى صارت الولاية لمولاي حسن ابن علي باشا رأس الدولة الحسينية الحالية سنة ١١١٧ . وما زالت في بنيه حتى تولى عليها منهم الباي محمد الصادق باشا سنة ١٢٧٦ . وفي مدته أخذت فرنسا تعمل لضم بلاده الى حكومة الجزائر واستعملت لهذا الغرض وزيره مصطفى بن اسماعيل ، وكانت أمّته ان هو سعى جهده في وضع تونس تحت الحماية الفرنسية و به اقامته ببايا عليها . فاخذ هذا الدين في خلق الملاقل وبذر بذور الفتى في البلاد . وما زال يحيف الصادق من الدولة العلية من جهة ، ومن أهل البلاد من اخرى ، حتى طلب حمايه فرنسا وعملت بينه وبينها معاهدة برودو وأمضاها في ١٢ مايو سنة ١٨٨١ . وفي ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٨٢ مات محمد الصادق وتعين مكانه ولي عهد مولانا على باي الموجود الآن على منصتها ، ساعده الله على ما فيه خير بلاده وصلاحها .

— مرّا كش —

مرّا كش يسمونها بالمغرب الاقصى ، وأهلها من قبائل صنهاجة والبربر . استولى عليها الروم ايون سنة ٥٣٤ م ، وكل فتحتها للمسلمين سنة ٥٨٨ هـ ، وتم اسلام البربر سنة ١٠٠ هـ . وفي سنة ١٧٢ وصل الى هذه البلاد ادريس بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي كرم الله وجهه فارأى من وجه العباسيين . فالتف عليه أهل المغرب من البربر وقاموا بالدعوة له وجعل مقره مدينة ويلي . ولما تمكن بها قدمه كوّن فيها دولة الادارسة ، وما زال الملك في نيه الى سنة ٣٧٥ . وبعدها دخل المغرب الاقصى في حكم العبيديين الى ان

قامت به دولة المُلْكُمِين أو المرابطين من صنهاجة سنة ٤٦٢ على يد يوسف بن تاشفين . ولما اتسع ملكه وعظمت شوكته اشترى مكان مدينة مرا كَش و بناها قاعداً له . وبنى فيها القصور الرفيعة والدور الواسعة وجعلها مقر سلطانة . وبعد أن مكن دعائم سلطنته في المغرب ، زحف الى الاندلس بدعوة من أهلها . ووقعت بينه وبين الفونس السادس (الاذِفونس) ملك فشتاله حرب نصر الله فيها ابن تاشفين في واقعة الزلاقة ، وهى أكبر واقعة حصلت في الاندلس ، واستولى بعدها على غرناطة ، ثم تغلب على ملوك الطوائف ، وصار له ملك الاندلس والمغرب جميعا الى أن توفى سنة ٥٠٠ ، وتولى بعده بنوه بالاندلس الى سنة ٥٤٢ . وكانت قامت بالمغرب الاقصى فى سنة ٥١٤ دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت الملقب بالمهدي . وبعدهم توفى سنة ٥٢٤ ، خلفه بعهد منه وزيره عبد المؤمن بن علي . ولما ظهر أمره وتمكن سلطانه سرجنوده الى الاندلس ، فاستولى عليها تماما فى سنة ٥٤٥ . وهو الذى بنى مدينة جبل طارق سنة ٥٥٥ ، ثم تقدم بحموشه فافتتح الجزائر وتونس والمهدية ، وما زال يتسع سلطانه حتى مات سنة ٥٥٨ ، واستقر خلفاؤه الى سنة ٦٧٤ . ثم تولى المغرب الاقصى دولة بنى مُرِين الى سنة ٨٩٠ . ثم دولة بنى طائوس الى سنة ٩٦١ . ثم دولة الاشراف السعديين الى سنة ١٠٦٩ . ثم دولة الاشراف السجلماسيين وهم الحاكون الى الآن .

وقد كانت البلاد على تمام الاستقلال فى مدتهم حتى كان ما كان من تداخل الاجاب فى بلادهم ، وكثرة الثورات الاهلية بها ، ثم عتدم مؤتمر الجزيرة ، وعزل السلطان مولاي عبد العزيز ، وتعيين مولاي السلطان عبد الحفيظ ، ثم ظهور فرسان الكامة فى بلاده بمظاهرة الاكيز لها ، ووقوف ألمانيا فى طريقها للحصول على نصيبها هى الاخرى من هذه الغنيمة التى لم يذق حرارتها غير المرساوين . والدولتان لا تزالان الى يوم كتابتنا هذه الكلمات بين وعد ووعيد وصلاح وتهديد وتراخ وتشديد وتقريب وتبعيد . وعلى كل حال فقد قضى على استقلال هذه البلاد الاسلامية التى بقيت حافظة له مدة ثلاثة عشر قرنا ، وهى آخر الدول العربية والله يرث الارض ومن عليها ، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء .

صفة جزيرة العرب

بلاد العرب يحدها شمالا بادية الشام الكبرى، وشرقا البحر الاحمر، وغربا بادية العراق وخليج فارس وبحر عمان، وجنوبا المحيط الهندي .

وأرض هذه البلاد في الغالب رمليّة وخصوصاً في وسطها فيما بين نجد وحضرموت والحجاز وعسير و بلاد عمان، حيث توجد الصحراء الكبرى التي يسمونها بالدهناء . وطولها اكثر من درجتين جغرافيتين وعرضها نحو درجة ونصف، وهي ما يسمونه بالربع الخالي : وهي قفر بلقع لا نبات فيها ولا ماء، اللهم الا بحار من تلك الرمال الناعمة التي تنقلها الرياح على الدوام من جهة الى أخرى، واد اصادفت حركتها مرور بعض القوافل التي تخاطر نفسها في السير على حافاتها التهمتهم وأغرقتهم في جوفها وقبرتهم فيه كأنهم ما كانوا . ويمتد من شمال هذه الصحراء لسان يسيرين بلاد الحسا والقصيم ، ثم يميل نحو الغرب حتى يمر ببلاد الجوف ويتصل ببادية الشام التي يسمونها بالنفود الصغرى .

أما سواحل البلاد فهي عامرة بالسكان وفيها كثير من المزارع . ويقطع بلاد العرب من الشمال الى الجنوب جبال السروات، وفيها العيون والانهار والبساتين النضرة والمزارع الكثيرة . وفي سفوح جبال اليمن يزرع ابن الذي هو أحسن أنواعه في جميع العالم . وأشهر جبال الحجاز جبل الهدى وكرا بالطائف، وأشهر جبال معان الجبل الاخضر، وفي نجد جبل العارض وجبل طويق، وفي شمر جبل سامي : وكل هذه الجبال عامرة بالسكان كثيرة الخير والبركة .

وتنقسم بلاد العرب الى ستة أقسام : الحجاز . اليمن ويتبعها عسير . حضرموت . عمان . البحرين . نجد ويتبعها الحسا .

أما الحجاز فهو اقليم مستطيل يحده غربا البحر الاحمر ، وشرقا البادية الكبرى، وجنوبا بلاد عسير . وشمالا بادية الشام، وطوله من الشمال الى الجنوب يبلغ ١٥٠٠ كيلومتر، وعرضه من الغرب الى الشرق يبلغ ثلثائة كيلومتر . ويقطعه من الشمال الى الجنوب جبال السراة و يبلغ

ارتفاع بعضها ٨٠٠٠ قدما . وفيها مياه كثيرة وغابات وبساتين وقرى أهلة بالسكان من الاعراب . ومنحدرات هذه الجبال يتصل بها سهل الى البحر يسمونه تهامة ، وأرضه رملية وبعضها صالح للزراعة ، ويزرع فيها الحبوب وغيرها من الخضر .

و بلاد الحجاز ولاية عثمانية منذ سنة ٩٢٢ هجرية . وكانت قبل الاسلام تتبع في الغالب لحكومة مكة لاسيما بعد ظهور قریش ، وكانت تتداولها بعده ولاية مكة والمدينة الى أن دخلت البلاد في يد الدولة العلية : فصارت تعين الولاة من قبلها ، وتكون أمور البلاد المالية والادارية في أيديهم ، وتعين على أمارة مكة اميراً من الاشراف لينظر في أمور العرب . وكان مركز الوالى أولاً جدة فانتقل الى مكة سنة ١٢٨٧ . وللولاية مجلس ينظر في أمورها الهامة : يتركب من قاضى مكة ، والدفتردار ، ومدير الحرم ، والمكتوب بجى (كاتب أسرار الولاية) ، ومن نقيب الاشراف ، ونائب الحرم ، وصاحب سدان البيت المعظم ، ومفتى الحنفية ، وقائم مقام الشريف في مكة ، ومدير الصحة ، ونقيب السادة الحسينية . ويوجد بمكة ديوان تميز أى محكمة نظامية تنظر في الدعاوى المدنية والجنايية في الدرجة الابتدائية ، وأحكامها تستأنف في محاكم الاستئناف . وتتركب هذه المحكمة من نائب الشرع الشريف ، وثلاثة أعضاء منتخبين من أهالى مكة ، وقائم مقام الشريف . وقاضى مكة يعين من قبل الدولة لسنة واحدة قمرية ، أما نائب الشرع فيعين لسنتين . ولهذه الولاية نواح وأخطاط يسمى متولياها مدير ناحية ، وحاكمها يلقب بقائم مقام : ومنها الطائف ، ورابغ . ولكل قائم مقامية مجلس يتركب من القائم مقام ومن نائب الشرع الشريف ومأمور المالية (ويسمونه مال مديرى) ومن بعض الاهالى الذين ينتخبهم الشريف مكة . وايرادات الولاية تنحصر في رسوم المحاكم النظامية وبيع ورق البول (وهى أوراق مثل طوابع البريد تلصق على الاوراق الرسمية بدل التبعة في مصر) .

أما القبائل فلم يحالس عُرْفية تنظر في أمورهم ابتدائية واستئنافية ، وتتألف من القاضى وبعض الشيوخ ورؤساء القبائل مع من يختاره الطرفان للاشتراك معهم في الحكم .

ولاصحاب القضايا حق رفض أحكام هذه المجالس واستئنافها عند الشريف ، وهو ما يؤيد أحكامها أو يُعَدِّلُها ويكون حكمه نافذاً المفعول ، ولهم الحق أيضاً في انابة من يدافع عنهم امام هذه المحاكم .

وأهل الحجاز يقدرون باثنين مليون ونصف من النفوس ، وكلهم الا أهل مكة وجدة مدو يعيشون من ماشيتهم في الجبال ، اما أهل السواحل فهم يعيشون من صيدهم وزوارفهم . وهم في الغالب شوافع المذهب .

— اليمن —

اليمن ولاية عثمانية واقعة في الجنوب الغربي من جزيرة العرب ، وطوله من الشمال الى الجنوب نحو ٧٥٥ كيلومتر ، ومن الغرب الى الشرق نحو ٤٠٠ كيلومتر . ويمدرون أهله بأربعة مليون من النفوس ، كلهم مسلمون على مذهب الزيدية الا القليل منهم من اليهود ، أما أهل عسير وهم وهابيون . وأرض اليمن تنقسم الى قسمين قسم السهول وتسمى تهامة وهي الى البحر ، وقسم الجبال وهي سلسلة من جبال السروات متصلة ببعضها من الشمال الى الجنوب ، وأعلىها جبل كوكبان وبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٣٠٠٠ متراً ، وجميع هذه الجبال عامرة بالسكان وفيها عيون كثيرة تتكون منها أنهار تسير في وديان خصبة : منها ما يسير الى الغرب وتصب في البحر الاحمر وأكبرها وادي مشرف ، ووادي كانون جنوب العنقذة ، ووادي عاشور عند ثغر حلي ، ووادي السهام قرب الحديدة ، ووادي هندان الذي يمر بمدينة تعز ، والوادي الكبير قرب مُحَا أما الانهار التي تصب في المحيط الهندي فهي وادي الميدان ويصب قرب ميناء عدن ، ووادي داما ، ووادي الشارد اللذان يجران قرب صنعاء وينحدرا الى الصحراء أحدهما ماراً بخرائب مأرب والثاني بخرائب معين ، ثم وادي نجران ، ووادي بيشة وغيرها . وبعض هذه الانهار تنعدم مياهه في الصحراء ولا تصل الى البحر الا في زمن شدة الامطار التي تكاد لا تنقطع في هذه البلاد مدة الشتاء والربيعين ، وبعضها يسير الى جهة الشمال والشرق ولا يلبث ان تتلاشى في جوف الرمال .

وقد عمل اليمنيون في جميع الازمان لهذه الانهار وفروعها سدوداً كثيرة على حسب ما تسمح به نظاماتهم الزراعية، وكان أكبرها في الزمن السابق سدمأرب الذي تقدم الكلام عليه: لهذا ترى ان هذا الاقليم زراعي، وكلما صعدت فيه الى أعالي الجبال وجدت ما مكسوة ببساط أخضر مما يوجد عليها من المزروعات المختلفة، التي ترى الى جوارها عابات من الاشجار المثمرة أو غير المثمرة كالساج والعرو وغيرهما.

وحاصلات اليمن الزراعية هي الدخن، ويزرعونه في الجهات العالية وعليه مدار حياة الالهالي، والقمح، والشعير، والعدس، والسهمس، والدرة، والقول، والقطن، والنيلة، والتبغ، والخضر بجميع أنواعها، والفاكهة الكثيرة: ومنها الالمبا (المانجو) واللوز والرفوق ويسمونه نخاري والتين الشوكي ويسمونه الرشومي أو الصابور، وأهم حاصلات اليمن البن. وتنقسم اليمن في ادارتها الى أربع لواءات: لواء صنعاء، ولواء تعز، ولواء الحديدة، ولواء عسير. وفيها نحو ١٩٠٠ قرية.

وحيث اننا تكلمنا على تاريخ الدول التي قامت في هذه البلاد قبل الاسلام، فيجدر بنا ان نقول كلمة على الدول التي قامت بها بعده فنقول:

لما أسلمت اليمن في السنة العاشرة من الهجرة وسار بذلك وفد هم الى المدينة: ولى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل. وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم صارت اليمن تابعة للخلافة الاسلامية الى سنة ٢٠٤. وفيها أعلن محمد بن زياد عامل العباسيين عليها استقلاله، وسميت دولته بالدولة الزيدية وكان مركزها زبيد. واستقر حكم بنيها عليها الى سنة ٥٠٩ هـ. وفي أثناء ذلك قامت دولة اليعافرة في صنعاء من سنة ٢٤٧ الى سنة ٣٨٧. ثم قامت الدولة النجاشية في زبيد من سنة ٤١٢ الى سنة ٥٥٣. ثم الدولة الصليبية في صنعاء من سنة ٢٢٩ الى سنة ٤٩٢. وكانت قامت في صعدة الدولة الرسية في سنة ٢٤٦، واستقرت الى سنة ٦٨٠ وكان أمراءها من الزيدية، وينسبون الى الهادي يحيى حفيد قاسم الرسي أحد غلاة الشيعة في زمن المأمون. ثم قامت في عدن الدولة الزيدية من سنة ٤٧٦ الى سنة ٥٦٩. وفي هذه السنة دخلت اليمن برمتها في حكم الايوبيين الى سنة ٦٢٥، وفيها

قامت الدولة الرسولية الى سنة ٨٥٠ . وفيها قامت الدولة الطاهرية الى سنة ٩٠٦ ، وفيها استولى عليها قانصوه الغورى . وما زالت تابعة لحكم المماليك حتى دخلت في حكم العثمانيين في عهد السلطان سليمان القانونى حوالى سنة ٩٥٠ . ولكنها اسحبت منها سنة ١٠٤٣ . لكثرة الثورات الداخلية التى كانت تقوم بها . فعادت حكومتها الى الأئمة ، وكانوا نقلوا مركزهم الى صنعاء . وحوالى سنة ١٢٦٠ هـ زحف الامام محمد بن يحيى على تهامة (اليمن) وكانت في سلطة شريف مكة واستولى عليها ، ودخلت زبيد والحديدة في سلطته . فانهز الباب العالى هذه الفرصة وبعث حملة تحت قيادة توفيق باشا الى اليمن ، فتخلى الشريف له عنها ، ونجا برتوفيق باشا مع الامام واتفعا على صلح فخواه : اعتراف الامام بسيادة الدولة ، وأن يرتب له ٣٧ ألف ريال شهر يائأخذها من ايرادات اليمن والباقي يقسم مناصفة بينه وبين الدولة ، وأن تقام في صنعاء قوة عثمانية مركبة من ألف جندي . فلما علم اليمنيون بذلك ثاروا وقتلوا الحامية العثمانية ، وانسحب توفيق باشا مجرّوا الى الحديدة ومات فيها من جراحه . و بقيت سلطة العثمانيين في هذه البلاد على الساحل الغربى لليمن أكثر من عشرين سنة . وبعدها جردت الدولة حملة على صنعاء مدة السلطان عبد الحميد الخلع فاحتلتها ، وحجزت الامام في صنعاء وربت له مرتبات شهرية ومازال بها حتى مات ، وتولى بعده رجل من أقارب اسمعه السيد حميد الدين ثم تولى بعده ولده الامام يحيى الحالى ، وفي مدته كثرت المحاصمات بينه وبين الدولة وقامت من أجلها حروب كثيرة بين اليمنيين والجنود العثمانيين كانت صنعاء تقع أثنائها في يدهؤلاء تارة ، وفي يد أولئك أخرى .

وبعد الدستور العثمانى قامت فتنتان باليمن : واحدة بزعمامة الامام يحيى ، وأخرى بعسير بزعمامة الادريسى . فأرسلت الجنود العثمانية تلوا الجنود الى اليمن لمحاربة الامام ، والى العسير لمحاربة الادريسى . فسارت فرقة اليمن من الحديدة الى صنعاء التى استولت عليها بعد وقائع شديدة . واستعصم الامام برجاله فى الجبال وأقام فى مدينة شهار ، ومن ثم لم يصل اليها شئ من اخبار اليمن يعول عليه ، اللهم الا ما ورد فى التلغرافات العمومية من أن الدولة فوضت لقائد الحملة

التيمنية المخابرة مع الامام في الصلح ولم يعلم شئ مما آل اليه أمر ذلك الى الان . اللهم الا ما ورد في
تلفعات روترب تاريخ ١٦ شوال سنة ١٣٢٩ من ان الامام عرض على الدولة العلية
بمناسبة حربها مع الطليان لا اعتدائهم على طرابلس ، مساعدته لها بمائة ألف معادل من اليمن :
وهو أكبر دليل على انضمام أطراف الدولة الى جسامها في الشدائد التي يجب ان تُنسى معها
الاختلافات التي أوجدتها بعض الظروف بحق أو بغير حق ، ويد الله مع الجماعة .

• أما فتنة عسيرة فقد سار اليها الشريف حسين باشا من مكة في أوائل ربيع الثاني سنة
١٣٢٩ ، بعد أن استنفر معه قبائل عرب الحجاز . ولما وصل الى قنفذه أتهرؤ وس قبائل
عسيرة وقدمت له الطاعة فآمنهم ، الا قبيلة خرشان فانها أتت ان تدعن لامره . فأرسل الامير
اليهم بنذرهم سوء العاقبة ان هم أصروا على عنادهم وعصيانهم ، فلم يسمعوا له . فجهز عليهم
جيشاً بقيادة ولده الشريف عبدالله بك ، فمهمهم بعد قتال شديد وأسر كثير من وجوههم ،
وكان ذلك في ١٩ حمادى الاولى من السنة المذكورة . ثم سار الشريف مع عسكر الدولة فدخل
مدينة أبها عاصمة عسيرة يوم ١٩ رجب ، ومعه شأن ناشا قائد الجنود العثمانية بعسيرة ، وبعد
أن أقام بها خمسة عشر يوما رتب فيها أمورها ووكد انظاماتها ، نارحها عائدا الى مصيفه
بالطائف على طريق عامد . ولكن بعد سفره وردت أخبار بمحاصرة العرب لها من جديد .
ثم أعانتها أخبار بعرض الادريسى للدولة مساعدته في حربها مع الطليان ، والله يلهم ولاة أمور
المسلمين ما فيه مصاحبتهم وبه تكون حياتهم .

وأكثر شعور الدولة باليمن الحديدة وسكانها . ٢ ألفا من أجناس مختلفة منهم الحبشى
والسومالى والهندي والجاوى والعرسى والسودانى . وهواؤهم ردي لكثرة رطوبتها
وحمايتها . والطريق منها الى صنعاء بين جبال عالية يصعب السير فيها جدا ، وأشهر البلاد
التي في هذا الطريق مناخة وتبعد بمسافة ١٥٠ كيلومترا عن الحديدة ، وبمسافة ١٠٠
كيلومترا عن صنعاء التي بها مركز الولاية والتي ترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٥٠٠ متر .
وعدد أهالى صنعاء ٢٥ ألفا منهم ٢٠ من العرب و٣ من الأتراك وألفان من الهنود ،
وجو هذه المدينة حار ومطرها كثير .

وأهم موانئ بلاد اليمن عدن وهي في يد الالانكييز من سنة ١٨٣٩ م. وهي الآن مركز تجارى مهم جداً بين الشرق والغرب. وموقعها الطبيعى من أمنع بلاد الدنيا: لانها فى وسط جزيرة صخرية تتصل بالقارة بلسان من الرمل. وقد حصنها الالانكييز بما لا يقل عن تحصين جبل طارق، وبذلك كانت لهم الكلمة النافذة فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الاحمر. ومينا عدن تبعد عن مدينتها قليلا، وهي من الاهمية بحيث تراها على الدوام عاصمة باساطيل الالانكييز وكثير من المراكب التجارية وخصوصا التى تسير بينها وبين البصرة أو بينها وبين بومباي ويقدر أن عدد السفن التى رست بمينائها فى سنة ١٩٠٨ م بنحو ١٨٠٠ سفينة، وبلغت وارداتها فى السنة المذكورة سبعة ملايين وسبع مائة ألف ليرة. ومدينة عدن مشهورة بصهاريجها القديمة المنحوتة فى الصخور والتي تملؤها مياه الامطار. ويبلغ عدد سكانها الآن ٥٠ ألف نفس، وكانوا عند استيلاء الالانكييز عليها لا يزيدون عن عشر هذا العدد. وأغلب سكانها من الهنود والسوماليين والاحباش واليهود وقليل من العرب. وعلى مقتضى المعاهدة التى عملت بين الباب العالي وحكومة الالانكييز سنة ١٩٠٤، جعلت أملاك الالانكييز فى جنوب بلاد العرب ممتدة من بوغاز باب المندب الى نهر بانا شرقا: وهو ما لا يقل عن مائتين وعشرين كيلومترا طولاً على ساحل المحيط الهندى، وخمسين كيلومترا فى داخل البلاد. ومما يدخل فى سلطة الالانكييز فى جنوب بلاد العرب واحدة الشيخ عثمان المشهورة بسلطنة لحج (ومركز سلطانها الحوطه)، ثم جزيرة يريم الواقعة فى مدخل بوغاز باب المندب ومساحتها ٨٠ ميلا مربعا وهي مركز تجارى مهم، ثم جزائر كور يامور يا على ساحل حضرموت.

وكل هذه الجهات تابعة ادارتها لحكومة عدن التى هى تابعة لامراتورية الهند. وللالانكييز عدد ذلك شبه سيادة على الحكومات الصغيرة التى فى سواحل حضرموت، لانها تعطى ملوكهم مرتبات بدعوى عدم تنازلهم للممالك الاخرى عن شئ من أملاكهم: وأهمها سلطنة المسكلة، وسلطنة متهرة، والشحر، وتريم.

وهذه البلاد على الساحل الجنوبى لحضرموت الا تريم فانها تبعد عنه بنحو ٢٠ كيلومترا

واهلها يتكلمون بلغة يسمونها بالـعَيْلِيَّة ، وهي غير العربية واعلمها مستمدة من لغة البلاد الاصلية التي يسمونها بالمسند وهي لغة حمير .

— عمان —

حكومة عمان وتسمى امامة مسقط واقعة في الزاوية الجنوبية الشرقية من بلاد العرب . وكل ساحل عمان عامر بالبلاد والسكان ، وطوله من نجرم ربط الى بحيش جزيرة القطر نحو ٢٢٠٠ كيلومتر . وعرضه في داخل البلاد الى الغرب نحو ٣٠٠ كيلومتر ، وعاصمتها مسقط . وتنقسم البلاد الى البطنة (نهامة) ولا تمتد اكثر من ٤٠ كيلومترا أغلبها مغطى بالنخيل المشهور بخودة ثمره ، ثم الى قسم الجبال وأكبرها الجبل الاخضر وارتفاعه نحو ٣٠٠٠ متر ، وفيه كثير من الغابات والاحراش . ويوجد بين هذه الجبال وديان كثيرة خصبة تسقى بواسطة مجارى ماء لها خزانات وسدود ، كما كان شأنها في هذه البلاد من قديم الزمان . وأهم حاصلات عمان التمر والحنطة والذرة والشعير والرسم والنيسلة والخضر وكثير من انواع الفاكهة لاسيما الجوز الهندي والمانجو ، ومن محاصلها خشب الند والصندل والصمغ العربي والصبر والتباك . وفي جبال هذا الاقليم كثير من المعادن وبالاخص الحديد والرصاص والنحاس والسكريت والملح الجبلى . وعلى سواحلها مغاصات كثيرة للؤلؤ وأشهرها في مسند سحار ، ودمار ، ومسقط . وأهل السواحل يشتغلون بصيد السمك ويصدرون منه كميات كبيرة الى بلاد المعجم وغيرها ، ويحفظون منه كميات كثيرة ، وما يبقى من التصدير يغذون منه البقر ويسعدون به الارض . وهذه البلاد مشهورة بنخيلها وبقرها وغنمها ، وجوها حار كثير الجفاف .

وعدد أهالى حكومة عمان يبلغ مليوناً وستمائة ألف شخص . ومساحتها لا تقل عن ثمانين ألف ميل مربع ، وعاصمتها مسقط أو مسكت وسكانها ٢٥ ألف نفس ، وبينها وبين مكة أكثر من ألفين كيلومترا . ولها ميناء صغيرة ترسو السفن فيها . وتنقسم سكانها الى قسمين : البدو أو سكان الخيام وهم قوم رُحَّل وراء المرعى وفي الغالب من العرب العدنانية ، ثم المتحضرون ويقال لهم العُمانيون وهم خليط من الهندود والمعجم والبلوچستان والعرب والزنوج .

وأهل عمان على مذهب الإباضية المنسوب الى عبد الله بن أباض المرسي (من المربية من أعمال طرابلس الغرب) الذي استولى على افريقية الشمالية سنة ١٥٢ هـ وادعى فيها الخلافة . وكانت عمان تابعة لحكم التبابعة ، وأسلمت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت الخوارج تلجأ اليها هرباً من خلفاء بني أمية والعباسيين ، لبعدها عن العمران الاسلامي . وكان تجارها ينتقلون في جزر المحيط الهندي مثل جاوة وسومطرة وغيرها من سواحل أفريقيا الشرقية . ومن كثرة احتكاكهم بأهل تلك البلاد اذاعوا فيهم دين المسلمين وقبحوا لهم الوثنية ففسح فيهم الاسلام . وكثر توارد العرب الى تلك الجهات وتقربوا من أهلها بالمصاهرة وما زالوا حتى أصبحت لهم الكلمة فيهم والسيادة عليهم .

وفي سنة ١٥٠٨ م استولى البورتغاليون على سواحل عمان واتخذوا مسقط قاعدة لغاراتهم البحرية ، وجهوا عساكرهم لتحصينها . ولما استولى الشاه عباس على جزيرة هرمز سنة ١٦٢٢ ، لحأ أهلها الى مسقط فازدادت بهم أهميتها . وفي سنة ١٦٥٨ ثار أهلها الى مسقط على البورتغاليين وطردهم من أرضهم . و بعد مدة استولى الهولنديون على مسقط فطردهم أهلها . ثم أتى الإيرانيون بقصد فتح بلادهم فاستصرخ العمانيون بأحمد بن سعيد حاكم الشحر ، فحضر وساعدهم على طردهم ، فبايعوه ونادوا به سلطاناً عليهم في سنة ١١٦٧ هـ . وامتد حكم ابن سعيد شمالاً الى جزيرة القطر وجزائر البحرين ، وجنوباً الى حضرموت وظفار ، ثم توفي سنة ١١٨٨ هـ ، وتولى مكانه ابنه عبد الصمد . ولما مات تولى بعده ابنه سلطان بن عبد الصمد . ولما مات تولى عمه سعيد بن أحمد بن سعيد . فأدرك أهمية مركز بلاده الجغرافي وعرف أن مستقبلها مرتبط بالقوة البحرية . فاشأ أسطولاً مركباً من ثلاثين سفينة حربية ، وسلحها بالمدافع واستولى بقوة على جزيرة هرمز في الخليج العجمي ، ثم استولى على جزيرة سوقطرة وجزيرة زنجبار ، ثم وضع يده على سواحل زنجبار ورأس غاردافوي : وبذلك أصبح له السلطان المطلق في خليج العجم والبحر الهندي . وأنشأ طرقاً كثيرة في بلاده التي أصبحت محط الرحال للتجار من الهند وفارس وشرق أفريقيا ومصر . وكان الوهايون قبل هذا الزمن قد أغاروا على عمان ووضعوا خراجاً

سنو يا على صاحبها، ولكن السلطان سعيد امتنع من أدائه اليهم . فاعاروا عليه وأحرقوا كثيرا من بلاده ولم ينقذهم الا نحو لهم عنه الى حرب ابراهيم بن محمد على باشا الذي قضى عليهم الفضاء المرم . بعد ذلك مال سعيد الى الراحة، فباع اسطوله وقسم مملكته بين أولاده الثلاثة: فجعل زنجبار وما يليها من سواحل افريقيا وجزيرة سوقطرة الى ولده ماجد، وجعل القسم الشمالى من مملكته وهو جزائر خليج البصرة وما يليه من الساحل الغربى لابنه الاكر التوينى ، وجعل القسم الجنوبى الى ابنه تركى .

ولما توفى سعيد طلب التوينى من أخيه ماجد أن يؤدى اليه خراجا سنويا فلم يقبل . وقامت بينهما الحرب مدة سنتين حتى تداخل الاككيز وأصلحوا بينهما على أن يستقل ماجد بزنجبار ، وأن يؤدى فى نظير ذلك الى أخيه التوينى كل سنة أربعين ألف ريال . ثم نارع التوينى أحاه تركيا فى نصيبه فقم الناس عليه وانصموا من حوله وابعوا أحاه تركيا، وساعده الاككيز على دخوله مسقط . فهرب التوينى الى فيصل الوهانى، فارسل معه جيشاً بقيادة ابنه عبد الله واستولى على بلاد عمان وسلمها الى التوينى ، واهرب بالحكم فيها حتى توفى سنة ١٢٨٥ هـ . وخلفه ابنه سالم فقبض على عمه تركى وسجنه ، ثم أدخل سبيله بداخلة الاككيز فسافر الى بومباى . أما سالم فانه نار عليه فى السنة الثالثة من حكمه رجس من قرابته اسمه عزان، ونزع منته الملك . وبلغ ذلك تركيا وهو فى بومباى فاسرع الى بلاده وقتل عزان واستولى على عمان سنة ١٢٨٧ هـ . وكان أخوه ماجد قد مات فى زنجبار، فعين أحاه برغشا سلطانا عليها .

ومن ثم بقيت حكومة عمان على غاية الصفاء مع الاككيز . ومن سنة ١٢٩٨ م الى الآن عقدت بين الحكومتين جملة معاهدات تضمن بها للسلطان مرتباً شهريا من خزينة الهند وتكفل له استملاكه وحفظ الامن فى داخلية بلاده، وذلك كله فى نظير عدم تنازله عن شىء من بلاده الى حكومة أخرى .

ومن هذا الوقت أخذت يد الاككيز تمتد الى أطراف هذه المملكة واحدا بعد الآخر: فاستولت على جزائر كور يا مور يا سنة ١٨٥٤ م، وعلى جزائر خشم الواقعة فى مضيق هر من

سنة ١٨٧٦، وفي هذه السنة نفسها أعلنت حمايتها على جزيرة سوفطرة . وكان سلطان زنجبار تنازل سنة ١٨٩٠ للمانيا عن قسم من بلاده يبتدى من مصب نهر روفوما جنوبا وينتهى الى ونغاشمالا في ممال ٤ ملايين مارك . فبادرت اسكترا فوضعت يدها على مائتي سلطنة زنجبار من السواحل ، ثم أعلنت حمايتها على جزيرة زنجبار نفسها ، وبعدها عقدت معاهدة مع ايطاليا استولت هذه بموجبها على قسم مما يلي بلاد الصومال .

— جزائر البحرين —

أهم هذه الجزائر جزيرة عوال ، وفيها نحو ستين قرية صغيرة وعاصمتها مدينة منامة وسكانها نحو ٢٥ ألف نفس ، والى جوارها جزيرة اراد . وأصل سكان هذه الجزيرة من عمالقة طسم وجديس ، ثم استولى عليها الفرس ، وصارت تابعة لحكم المناذرة ملوك الخيرة ، ثم دخلت في سلطنة المسلمين في السنة السادسة للهجرة مدة حكم العللاء الحضرمي على إقليم البحرين . ثم استولى عليهما البورتغاليون ثم الايرانيون ثم امام مسقط ثم الدولة العثمانية ، وبنازعها فيها الان الدولة الانجليزية ويصورها كل منهما بلون بلاده على الخرائط الجغرافية . ويحكمها الان الشيخ عيسى بن علي تحت حمايه حكومة الهند . ومن أهم حاصلاتها اللؤلؤ ، وقد بلغت صادراتها سنة ١٩١٠ مليوناً ومائة وسبعين ألف ليرة اكيزيه . ويقدر عدد سكان جزائر البحرين بمائة ألف نسمة .

— نجد —

نجد هي القسم الواسع الواقع في وسط جزيرة العرب ، وفي منتصف المسافة بين المدينة وبغداد . ويقسمونه الى قسمين : الشمالى وهو الحائل وما والاها ويسمونه نجد الحجاز ، والثانى العارض وما يليه ويسمونه نجد اليمن . ومعنى نجد الشئ المرتفع ، فهو مرتفع عن تهامة وهي الارض التى تلى البحر . ويرتفع سهل نجد عن سطح البحر نحو ١٢٠٠ متراً . وفي هذين القسمين جبال مشهورة بكثرة خيراتها ، منها جبل سلمى ، وجبل طويق ، وجبل أجأ .

ويحيط بنجد من الشمال صحراء الشام ، ومن الغرب صحراء الحجاز، ومن الجنوب البادية الكبرى، ومن الشرق اسان من الدهاء، ولذلك كان الوصول اليها لا يخلو من المشقة .

— شمر —

شمر واقعة في منتصف المسافة بين مكة والبصرة وهي عبارة عن جبل شمر وجبل سلمى . والاودية التي بينهما صالحة للزراعة، وفيها كثير من البساتين، ويقدرون مسطحها بأربعين كيلو مترًا مربعاً . وهذه الجهة ادارتها في يد آل الرشيد ومركزهم مدينة الحائل، وسكانها نحو عشرين ألف نفس . وفي جنوبها قصبة تسمى كفار، ويقدرون سكانها بثمانية آلاف نفس . وفي شمر نحو أربعين قرية كبيرة تحيط بها غابات النخيل، وأغلب سكان شمر من ذوى الخيام ويقدرون بنحو أربع مائة ألف نفس، كلهم من أهل الساحة والنخوة . وأشهر حيوانات هذه الجهة الخيل ، وهي أجمل أنواعها في الدنيا بأسرها، ويوجد عندهم الحمير والابل والبقر، وتكثر عندهم الاغنام ، ويوجد في جبالهم النعام والبقرا الوحشى والفهد والثعلب والذئب والغزال والاربع وغير ذلك . والى شرق شمر بميل الى الجنوب بلاد القصيم . وأغلب أرضه وديان خصبة تزرع فيها الحبوب على اختلاف أنواعها ، وكثير من أصناف العاكمة كالعنب والمان والزيتون والشمش والبطيخ والفاوون، وفيه كثير من النخيل . وفي وسط أرضه أكمات تكثر فيها الغابات . ويقدرون عدد أهلها بثلاثمائة ألف نفس ، كلهم يسكنون الخيام الا العليل منهم فانه يسكن القرى التي لا تزيد عن ثلاثين قرية، وأشهرها بريدة وعنيزة . و بلاد القصيم نصفها الشمالى تابع لامير شمر، والنصف الجنوبى تابع لامير الرياض .

— العارض —

هي جبال نجد اليمن، وهي المشهورة بنجد الان، واذا أطلق هذا اللفظ فلا ينصرف الا عليها . وعيون هذا الجبل غزيرة وأوديته كثيرة وفي غاية الخصوبة، وتكثر فيها المزارع والبساتين .

وهذه البلاد الان وما والاها من بلاد القصيم في حكم آل سعود، وعاصمتها الرياض، وهي من أهم مدن نجد. ويكثر في هذه البلاد النخيل والحيوانات الالهلية وأخصها الخيل والابل والغنم. وأغلب أهلها أهل بادية، ويقدر عددهم بنصف مليون نفس، وكلهم وهابيون. وأمارنا الرياض والحائل تابعتان لتصرفية نجد التي يدخل في دائرتها الحسا ومر كزها مدينة الحسا. وكلها داخل في دائرة ولاية البصرة. ويشغل أهل السواحل بالتجارة وصيد اللؤلؤ والاسماك ويحفظونها ويصدرون منها الى الخارج كميات وافرة. وأعمار بلاد الحسا قضاء القطيف، ثم البلاد التي جنوبها الى بحيرة المطر، وغالبها صحارى رملية وتكثر المزارع فيها الى جهة السواحل وفيها النخيل بكثرة. وبلاد الحسا مشهورة بالحمر الحساوية ويكثر في فيا فيها السباع والنعام وحمر الوحش. ومن صناعة هذه البلاد العبي المشهورة وغير ذلك من المنسوجات وبعض الاعمال النحاسية. وهواء البلاد حار كثير الخفاف ونحي، الا في القطيف فانه رطب لكثرة المستنقعات التي حولها. وتنقسم هذه البلاد الى أربعة أقضية قضاء الحسا، وقضاء القطيف، وقضاء القطر، وقضاء الحموف، وهو أكبرها وأوسعها. وعدد سكان الحسا يقدر بخمسة وثلاثين ألف نفس نصفهم أهل حضر والباقي بدو. ويوجد في الحسا مياه معدنية بكثرة، وأرض هذه البلاد تسقى من الاحساء (مفرده حسا) وهي الجداول الطبيعية. وقد تجتمع جملة جداول وتصب في بركة تكون خزاناً مستديماً في الاراضي.

اخلاق العرب

العرب أخلاقهم في البادية واحدة في الغالب من قديم الزمان: فهم أهل صدق ووفاء وشهامة وشجاعة وكرم. شديدو الغيرة على سائهم ولا قيمة للحياة في نظرهم الا مع العزة. يأنفون العار ويحفظون الجوار ويدافعون عن دخل في وجههم (حميتهم). وادابني بعضهم على شخص فمال لهم أنا في وجه فلان يعني رجلاً من قبيلتهم ولو في غيبته رجعوا عنه واحترموا حمايته صاحبهم. يعرفون المعروف لصاحبه ولا تأخذهم في الحق لومة لائم. وهم أبعد الناس عن

الرباء والنفاق وكلامهم كله صراحة وليس فيه من ألقاط التعجيم وجمل النعظم ما تضيق معه
الخميمة : فهم ينادون أمير مكة وهو في منزلة الملك منهم ، فلو لم يشارف كما كانوا ينادون
الرسول ، فلو لم يشارف . صانعوهم يسين على أنفسهم ويسالوهم أقرب الاشياء الى يدهم .
الربيع عندهم خبر الايام واللحم سبب الطعام وهم أعد الناس عن التأني في المأكل والملبس .
يعبر قوتهم على صغيرتهم وكثرون من غرو بعضهم المعص ولا يترك الرجل منهم ثأر دمهما
كان ضعيها . وادامه سائر له أن يحصل على حنوفه من عريمه شخصياً كان له في عرفهم أن
يعبر على حنوفه وهو أي شخص من قبيلة يحصل معه في اسمه الى الحد الخامس . وادامه
شخص آخر ولم يمكن صاحب الدم أن ينجس من القاتل قبل نداءه أو حاله أو عمه أو أحد
بناتهم . وبه استقطب النعاص . وبعضهم رضى بالدين في قبيلة وهي عندهم ثمانية ريال في
العمد والوفاء في الخروج غير دأل في الرجل السري . وادامه قبل أحدهم أو ففوه في غيره حتى
يأخذوا بنأره وعمدها من حنوفه وبنامه في فراشه الا حرم راحا على زعمهم مما
صنعوا . ومن عواندهم الماءة وهي أدا دأ قبل أحدهم يذهب أهل القاتل الى أهل المقتول ولا
يشربون لهم فيه ولا يأكلون طعاما . فاداستلوا عن حاجتهم سألوهم الماءة وهي بأجيل
المطالبة بالنعاص شهرا أو شهرين فيقبلون منهم أحلهم في الغالب . وعليه يكون القاتل في أمن
على نفسه طول هذه المدة الى تختدون أسماءها في الاتفاق مع أهل المقتول على الصلح أو الدية .
فادامه انتصت دون ان سمعوا طالعهم بالنعاص والاباروا لا أنفسهم بأي طريقة .
وإذا أتهم شخص منهم وأسكر أو انه الى الملتحس هو رجل مخصوص عندهم فيأتي
تحديدته في النار بالنعاص اياها . وهم يرمون أنه اذا كان صادقا لا تضره والا فانها تحرق
لسانه . وبعضهم نخط دأ في الارض يوقف فيها المنهم ويحلقه وبعدهم أنه اذا كان كادما
لا يمكنه الخروج منها مطلقا . أما الممضرون من العرب أو الدين لهم صلة بأهل الحضرة كالحالة
والمؤمنين مثلا فأخلافهم أقرب الى أخلاق الحضرة منها الى المداوذة والطهمة السافلة منهم في
الغالب من أمر ما يوحد من نوع الانسان على العرب . وربما كانت حاجتهم الى العيش هي
التي ترمي بهم الى انسلاب العيوب واقتراف الذنوب . وليست أخلافهم مما يؤثر على أخلاق
العرب في جموعها : وأمثالهم في جميع الامم كثيرون .

﴿ جدولاً بالقبائل الموجودة ببلاد العرب ومساكنها وعدد نفوسها ﴾

اسم القبيلة	المطون المنفرعة منها	عدد	مساكنهم
عزده	الحسنة . حلاس . (ومهم الزواله والمخالف) * (مائل الحجار) * وبشير (ومهم ماجد ويسلتي) وأولاد علي (ومهم المشارفة . المشطا . الحدة أمده . الجدالة وطلاح) .	٣٥٠٠	شمال المدية في شرف مدائن صالح إلى خيبر .
الحويطات	الحازمي . الرضات . عمران . بنى عطية . دبور . بدول . السماحة . البرايين . والطحج	٧٠٠٠٠	من محطة العلاء إلى معان والعمدة وغرد .
بلي جهميه	بنى مالك (وتفرع منهم فمائل الصبحه . العباشة . عروه . كومه . سدابان . الخصيبان . الاساوره . المسادي . الرفعه . بنى كلب . الحماذله . الحمد . والموالند) . ثم بنى موسى (وتفرع منهم التراحمه . الموالم . المراديين . العلاوين . ريمان . العوامره . بنزه . والسماحجة) .	٣٠٠٠٠ ٥٠٠٠٠	من العمدة إلى جنوب الوجه شرف وشمال المدينة إلى الوجه
{ عس (١) (هيم)	مهميزان . دوى الرشيد . دوى راك . النوامسة . الشراراب . والهمان .		وهي قبيلة صغيرة في شمال ناعم
حرب	بنى سالم (ومنتهم مهمون وسفرع إلى محامده . رلاو وعه . رحله . عثرو . حيدر . أحامده . صبيح ثم المراوحة وهي الحوارم وتفرع إلى نوامسة . قرا . ظواهر . جبول . حنيطاب درعات . مجله . مزايه . ردادده . حباينه) ثم بنى مسروح (وتفرع منها عطور . مناشك لشر . معبد . السلا دية . حمران . الدارس بنى جابر . عوف . زبد	٨٠٠٠٠	وهم يسكنون من الحمره شمالا وشرقا وغربا إلى عسفان

(١) عس هذه هي التي كان لها في الخاهلية ذلك الخاء المبيع . وكانت إلى القرن الثامن الهجري
دولة فاعند على حراهم فقمم العرب عليها وأوقعوا بها شت شعها إلى اليمن وغيره ومن ثم ضعف أمرها .

إسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
النخاولة ^(١)	*(قبائل الحجار) *		
	(١) قبيلة حقيرة في صواحي المدينة يستعملهم أهلها في خدمتهم وفي زراعة نباتينهم وحقولهم وهم رافضة ولا يسمون أباءهم بأسماء أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة . ويسمون أولادهم المروم وهم يحملون بكاح الممة . وأهل المدينة لا يسموهم دويش . ميمون . نبي عبدالله	١٢٠٠٠	
مطير		٤٠٠٠٠	شرق المدينة شمالا الى نجد وجنوبا الى الصفينة .
نبي سليم عنيبة		٢٠٠٠	شرق المدينة بجنوب الى حاذه
	رقاوبريا (ويتفرع عنهم ما قبائل روسان . الروقة . الشيبانين . الدجاجين . العصمة . جذعان . والحنا تيس)	٢٠٠٠٠	شرق البادية الواقعة على طريق الشرق بين مكة والمدينة
قريش		٢٠٠٠	شمال عرفة والطائف .
هذيل	العلويين . التدوين . نبي خالد	١٠٠٠٠	الحبال التي بين مكة والطائف
ثقيف	نوسنقيان . نوسعد . باصرو . ربيعة . عيلدة	٣٠٠٠٠	جنوب وشرق الطائف .
القوم الجوم		٢٠٠٠	شرق الطائف .
عدوان		٢٠٠٠	» »
بنو الحارث		٢٠٠٠	» »
بنو سعيد		٣٠٠٠	جنوب الطائف .
بنو لحيان		١٥٠٠	بين مكة وجده .
الجحادله			وادي يللم الى البحر .
قبائل	بنو فهم . يزيد . بجاله . منعان . أشراف ذوى ريد . نبي هلال . نبي عفيف . أشراف ذوى حسن . بئلا سود . بئلا غور . نبي سليم . نبي عمر . نبي علي . نبي زيدان .	١٠٠٠٠	جنوب مكة وعلى طريقها الى الليث .
قبائل	رفاعة العبيدات . الهجالة . بنو كبير . أكلوب . العبادله . البيشة . بنو سعد . بنو ساعد ميمون . نبي مالك . زهران . غامد . شهران . وبلقرن . بنو الاسمر . ناصر . بنو الاحمر . وشهران .	٦٠٠٠٠	شرق الطائف الى الجنوب . في جنوب الطائف الى عسير .

اسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
	﴿قبائل عسير﴾		
قبائل	بنى علفم . رفيره . بنى ربيعة . المقيد .	١٠٠٠٠	شمال وجنوب العسير
قحطان	رفيف . عبيدة . شريف . سحان . و راعه	١٠٠٠٠	جنوب العسير شرق
يام	ذوى محمد . وذوى حسين .	٣٠٠٠٠	فى وادى نجران
	﴿قبائل اليمن﴾		
بائعز	بنى زيد . بنى حرب . بنى عبس . و بنى سهم	٦٠٠٠	شمال القنفذه
قبائل	بنى بحير . و بنى الروحه .	٥٠٠	فى وادى وثبه قرب القنفذه
»	الكثمنش . البعريان . العوامر . ملكينانى	٤٠٠٠	وادى حلى قرب وادى وبيه
»	بنى سبيل . بنى شليل . وجيزان .	٦٠٠	قرب العرايش
»	بنى مروان . حرَض	١٥٠٠	بين جيزان ولحيه شمال الحديدة
»	بنى قصير . بنى جامع . بنى شبيه . بنى شابع	١٠٠٠	بحوار الحية
»	بنى رين . بنى راجح . القراثة . بنى طاهر . و بنى هيجان .	٧٠٠٠	وادى الواعظات شرق الحية
»	بنى حسن . بنى عبس . أسلم .	٥٠٠	قرب وادى الواعظات
»	آل مره . الكُرب . الصميعر .	٣٠٠٠٠	بين جبل برط والجوف
»	نهم . أرحب .		بلاد حاسد شمال صنعاء
»	عمران .	١٠٠٠	شمال الحديدة
»	همدان .	١٠٠٠	شمال صنعاء
»	بنى مطير .	٣٠٠٠	قرب صنعاء
»	البرويه .	١٠٠٠٠	قرب صنعاء غربا
»	الحضور .	٤٠٠٠	جنوب صنعاء
»	بنى شداد . خولان . بنى جبير . عبس . فلاح . ضبيان . مجاهد . قيس الاعماس .	٦٠٠٠	شرق صنعاء
	﴿قبائل حضرموت﴾		
قبائل	آل عمورى . المراشده . القيشن . الخامعه . ونوح .	٢٥٠٠	فى وادى دُغن جنوب شبام
»	الحالكه . آل محفوظ . آل يزيد . آل بطاطى . و آل كثير .		فى وادى لسير أحد شعاب وادى دُغن
»	آل العوابسه .	٥٠٠	فى وادى العين

إسم القبيلة	البطون المتفرعة منها	عدد	مساكنهم
قبائل	باصليب . بابيس . نبي ماضي . الجمدة . الصمرة . نهب . و نبي حاشن .	١٥٠٠	وادي عمد
»	بي حيدره . نبي الليث . وشحا .	٥٠٠	وادي رفيه
»	آل بالعبيد . الصيغر . ونافع	٢٥٠٠	وادي دهر
»	آل كثير . العوامره . آل باجري . آل جابر	٦٠٠٠	وادي بن راشد
»	وآل تميم
»	يافع .	٢٠٠٠٠	الحبال الواقعة شرق شمال عدن
»	العواليق . آل ديب . آل عبد الواحد . شيبان	٥٠٠٠	بين عدن والمكلا
»	العكابر . و نبي حسن
»	آل حموم .	١٠٠٠	بحوار الشحر
»	نبي هود . مناهل . ومهره	٢٠٠٠	بين قريتي هود وظفار
»	آل كثير .	٥٠٠	ظفار وماحولها
»	قرا . والشجرة .	٣٠٠٠	الحبال المشرفة على ظفار
»	السادات العلوية .	٣٠٠	حضر موت
قبائل عمان	بنو شعاب . الفاريون
قبائل الحسا	قبيلة الطرة .	٣٠٠٠	في أطراف القطيف
»	قبيلة نبي هاجر .	٤٥٠٠	غرب القطيف
»	بنو خالد (بن الوليد)	١٠٠٠٠	غرب الحسا
قبائل نجد	بنو سبيع .	٦٠٠٠	بين الرياض والحسا
»	قبائل عسرة (بطن من التي بالحجاز) . الذي	١٤٠٠٠	بن المدينة المنور ذوالقصيم
»	الفرم . نبي سالم و نبي حيض
»	العجمان وهم مشهورون بالشجاعة والفروسية	٦٠٠٠	شمال الرياض
»	قبائل قحطان (وهم غبر قحطان اليمن)	٣٠٠٠٠	يتقسمون الى قسمين الاول بين الرياض وريته والثاني بالحوطة
»	قبائل الضغيفات . الحعاره الرابعة . نبي	١٥٠٠٠	وادي الدواسر جنوب الرياض بمر
»	بنو ساجه . بنو لحم . بنو حيتم . عرب الاخايل (ويقال انهم نقيه من نبي هلال المشهورة)	..	في القصيم

سفر الجناب العالى

من مصر الى جدة

طالما كانت تتوق نفس مولانا الخديو ع عباس باشا حلمى الثانى هـ الى حج بيت الله الحرام وزيارة بيته الكريم . وكانت هذه الفكرة المقدسة تتردد فى خاطره من سنة الى أخرى ، حتى تأكدت عزيمته على أداء هذه القرية فى شهر رمضان الماضى سنة ١٣٢٧ فأصدر أمره السامى بتجهيز ما يلزم لسفره الى الاقطار الحجازية . وفى شهر ذى القعدة أخذ حوطه الله فى تعيين من يلزمه فى هذا السفر المجمعون من رجال معيته الفخام ومن غيرهم من العلماء الأعلام والذوات الكرام . والحيلة فقد صدرت ارادته السنية تشريفاً بالسفر فى خدمة ركابه العالى ، وصدر الأمر الى بعض الحاشية الخديوية من ملكيين وعسكريين بالسفر معهم الى جدة وبعضهم الى مكة لا تنتظار تشريف جنابه السامى بهما ، نخص بالذكر منهم أصحاب السعادة أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى العربى والاfrican (مدير الأوقاف العمومية حالا) وحسين محرم باشا السرياء والخديوى ومهمندار جنابه العالى فى هذه الرحلة المباركة (وكيل الحرية حالا) ومحمد عزت باشا رئيس الديوان الخديوى التركى وأحمد خيرى باشا ناظر الاوقاف الخصوصية وأحمد صادق بك وكيل الخاصة الخديوية ومحمود بك محمدرئيس قلم عرفخالات المعية السنية وفضيلتو الشيخ محمد شاكر وكيل مشيخة الأزهر الشريف والسيد محمد البلاوى من علماء الارهر ووكيل الكتبخانة الخديوية المصرية والشيخ محمد عاشور مفتى الأوقاف الخصوصية وغيرهم من حضرات ضباط الحرس الخديوى .

وفي يوم السبت الموافق ٢٦ دى القعدة ٩ ديسمبر سنة ١٩٠٩ كانت تشریفات الوداع ، فامتلات أرجاء سراى عابدين بصنوف المودعين ، وتواردت الوفود من جميع انحاء القطر للنم هذه اليد المباركة بحال لم يسبق لها مثیل ، وفلو بهم تبتهل الى الله تعالى بأن يحفظ ملك البلاد المحبوب ، وأن يردده اليهم قريباً بكل ما يرجون له من كمال الصحة والعافية . ولم تقتصر هذه العاطفة على المسلمين ، بل كنت ترى المصريين على اختلاف أديانهم مشتركين فى السرور بهذا الاحساس الشریف والشعور الحى الذى تحرك فى فؤاد ملك من أكر أمراء الاسلام للنم باداء هذا الواجب الدينى الاجتماعى ، مؤملين من ورائه الخير والسعادة العظمى إن شاء الله الاسلام وأهليه عموماً ولمصر وبنها خصوصاً .

وفى ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣٢٧ صدر الى عطوفه رئيس النظارة الأمر العالى الآتى . « قد شاءت الارادة الالهية بتحقيق رغبتي فى اداء فرصة الحج وزيارة الروضة الطاهرة السوية على صاحبها الصلاة والسلام ، فعزمنا على السفر لهذا النصد الحليل فى هذا العام . ولونوقنا فى عطوفتكم رأياً أن تقوموا منامنا مده غياناً فى اداره شؤون حكومتنا بما عهد فيكم من الخبرة والدراية ، وقد أصدرنا هذا اليكم دلك راجين من الحق عرشاً أن يوفىكم مع حصرات النظارة زملائكم لما فيه سعادة الامة وخير الملامد .

والمالرحو أن يكون توحهما الى تلك الأقطار المباركة ووقوفنا بالذات على أحوال المحاح المصرين وحاجاتهم باعثاً فى المستقبل لراحتهم واطمئنانهم ، خصوصاً فى هذا العهد عهد مولانا خليفة المسلمين السلطان محمد الخامس ﷺ أعز الله وأيد ملكه بالعدل والتوفيق .

هذا وسرفع أ كف الصراعة الى مقام العزة الالهية فى تلك الجماع الطاهرة بأن يوفىنا الى خدمة الامة العز يزده المصرين الى لا تقارفها إلا وفلسامعها وفكرنا مشغول بما يؤدى الى خبرها ومجدها فى الحال والاستقبال ، كما ساعلى يفهم من أن دعواتنا الصالحة تكون ملازمة لنا فى الحل والترحال إن شاء الله » .

وفى الساعة السابعة والديفة الأربعين من صباح يوم ٢٩ دى القعدة سنة ١٣٢٧ ، وهو اليوم الذى تمر فيه رسمياً سبيل الحباب السامى ، تحرك المطار الخصوصى من سراى

القبة مقبلة للحضرة الفخيمة الخديوية و بعض الحاشية الكريمة . فوصل الى محطة مصر حيث كان في انتظار جمابه العالى أصحاب السعادة النظار الكرام والعلماء الأعلام ووكلاء الدول وقاصليها وكل من في مصر من الدوات وأصحاب الحيات و بعد ان صاحبهم حفظه الله مودعا من الكل بالدعاء الصالح ، تشرف حضرات النظار بالركوب مع سموه ، وسافر القطار على بركة الله تعالى الى السويس . وكانت جميع محطات السكة الحديدية مزدانة بأحر الزينات الباهرة ، وفيها مالا يحصى من جموع المودعين ، لاسيما في محطتي نها والزقازيق اللتين احتشد فيهما خلق كثير يضرعون الى الله تعالى بأن يرد عليهم أميرهم محمود والعودة محروسا بالعباية الصمدانية . ومارال القطار سائرا تشيعه الملوك حتى وصل بسلامة الله الى السويس ثم الى محطة الحوض في الساعة الأولى بعد الظهر . وهالك كانت معالم الريات في أحمل مظاهرها ، وكان المستمبلون من عليبة المصريين لا يحصون عددا ، حيث قام الى السويس فطر محبوصه من جميع جهات المطر تمل وفود المودعين من عواصم الثغور والمديريات ، وفي مقدمة الجميع حضرات أعضاء الجمعية العمومية ومجلس شورى القوايين يتقدمهم صاحب الدولة والتمجامة الرئيس حسين كامل باشا (وكان رئيسا لهما) فلما وقف القطار رل الحنايب العالى وصافح دولته وكل من كان حاضرا من الامراء والعظماء شاكرهم تحمليهم هذه المشقة ، وأنى عليهم لسان كلد عطف وحنان ، ثم التفت الى دولة الرئيس قائلا : إني أشكرك من جميع قوادى لا تصفتك رئيسا للشورى والجمعية العمومية فقط بل تصفتك كدرا البيت الخديوى — فلم يمالك دولة الأمير نفسه تلاء هذا الكرامة الكرى والعاطفة الشريفة أن درفت عيناه بالدموع وقال محببا عن هذه العبارة السامية الرحمة : لست يامولاى مهما بالغ من أمرى عبر عمن عبيدكم الخاضعين المخلصين لعرشكم ، قد امتزت شرف المرئى من سموكم ، فحنى الحنايب العالى رأسه لهذا الخواب الذى كان له أجمل وقع فى نفوس الحاضرين ، لأنه جمع الى محض الاخلاص جليل المحبة والولاء .

وهناك صعد الحنايب العالى الى ما نور المحروسة ، و بعد أن استراح قليلا ابتدأت التشرهات بحال كنت تتخيل معها انك ترى عيانا عاطفة هذا الامير الحليل المحبوب تتعاق

مع عواطف رعيته الصادقة المخلصة ، وكنت كأنتك تشاهد الدعاء الذي كان يخرج من أعماق القلوب صاعداً إلى السماء رجاءاً إلى الله تعالى أن يحفظ هذه الذات السامية وأن يعيدها إلى ملكها بعد أداء هذه القرية المقدسة في صحة تامة ومسرة عامة . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر تحرك اليخت قاصداً جدة ، وكان مقبلاً للجناب العالي وصاحبة الفخامة والدسموه الرفيع وصاحبات الدولة الأميرات السنيات عطية هانم أفندي وفتحية هانم أفندي كريمة الحضرة الحديوية العظيمة والربسيس فاطمة هانم أفندي عمه جنابه السامي ، وكان قد حضر مع دوله والدة على قطار خاص وصل إلى السويس قبل تشریف الجناب العالي إليها .

وما زال اليخت سائراً حتى حادى ثغراً باعاً من الشاطئ الشرقي ، وهو على عرض ٢٢ درجة و ٢٨ دقيقة وطول ٢٨ درجة و ٥٨ دقيقة ، وبينه وبين جدة مائة ميل وتسعة ، فأحرم الحجاب العالي إحراماً كاملاً هو ومن كان في معيته من الحجاج ، واستقرت الباخرة في سيرها حتى إذا صارت على بُعد ساعتين من جدة ، أخذت مبايها تظهر شيئاً فشيئاً حتى تجلت للعيان بيضاء ناصعة ، وظهرت في جنوبها ضيعة صغيرة يسمونها بالزله وكلها أكواح تسكنها الأعراب وبعض الأهلالي وغالبهم من صيادي الأسماك . وفي قبالة هذه الضيعة من جهة البحر جزيرتان صغيرتان إحداهما وهي الشمالية تسمى جزيرة سعد واثانية تسمى جزيرة سعيد ، وفيهما الحجر الصخري لثغر الحجاز ، وفي الأولى محل للتبخير وآله لنكر بالمياه الملحة وبعض أحذيه ^(١) مبنية لا قامه الحججور عليهم فيها . فإذا كانت جوازات المراكب القادمة إلى هذا الثغر غير نظيفة أخذ الحجاج إليها في سفن شراعية يسمونها سناك (مفردها سبوك) ومصل إلى الجزيرة الأولى في ثلاث ساعات أو أكثر ، وإلى الثانية في ضعف هذا الزمن ، فيقضون في هذه أو تلك مدة الحجر التي يقدرها حكيم المورثينات بجدة .

وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم الثلاثاء غرة ذي الحجة ألفت الحروسه مراسيها على نحو ثلاثة أميال من الشاطئ ، لأن المراكب الكبيرة لا تستطيع الدخول إلى مينائها لعمق

(١) مفردة حذاء وهو قسم من أقسام القورينيه يوضع فيه أناس على حداثهم لمصونه أيام الحجر المقررة عليهم ولا يمكن أحداً منهم أن يمازج حدود هذا القسم بأي حال قبل انتهاء المدة .

المياه فيها: وبقى بها الجناب العالى الى صباح اليوم التالى . وكان يوجد خارج الميناء كثير من المراكب التى أتت الى هذا النفر بالحجاج من الهند والروسيا وتركيا وبلاد المغرب ومصر وبورسودان وغيرها ، وكلها رافعة أعلامها ترحيبا بمقدم سموه ، كما كانت السنايك التى ظلت تعدو وتروح فى مياهها رافعة على سوارىها العلم العثمانى إكراما لتشریف جنازه العالى .



مدينة جدة

قال البكرى فى معجمه « جدة بضم أوله ساحل مكة سميت بذلك لانهما حاصرة البحر والحدوة من البحر والنهر ما يلى البر وأصل الجدة الطريق الممتد » وأهل البلاد يسمونها الآن جدة بكسر الجيم ، ويسمونها المصريون جدة تفتحها ، وكلها على ما أرى تسمية صحيحة : لأن الجدة بالكسر اليمين والسعادة ، وهذا النفر بلا شك منه المادة التى تقوم بحياة هذه البلاد كلها وأى شئ أسعد مما يقوم بحياة الانسان ووجوده . كما أن الحدوة بالفتح الطريق الواسعة ، وليس من طريق فى بلاد الحجار أوسع من هذه . وهى واقعة على الساحل الشرقى للبحر الاحمر على ٣٩ درجة وعشر دقائق من الطول الشرقى وعلى ٢١ درجة و ٢٨ دقيقة من العرض الشمالى . وقد كانت قرية صغيرة فى بادئ أمرها يسكنها وما حولها قضاة قبل الاسلام فلما كانت سنة ٢٦ للهجرة فى خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه اشتكى الناس له الشدة التى يعانونها فى ميناء الشعبية لكثرة ما فيها من الشعاب التى كانت تعوق سير السفن بها . وقالوا له ان فى شألكم ما كان خيرا منها . فذهب عثمان اليه فى جمع من قومه ليعاينه بنفسه فوجده حقيقة أحسن من الاولى فأمر بجعله نفرا لمكة ، وسموه جدة . ومما يدكر عن عثمان رضى الله عنه عند قدومه الى هذا المكان ، أنه نزل الى البحر فاغتسل وأمر قومه بالاغتسال فيه كذلك وأن يتخذوا المنزلة عليهم : وهو ما يزعم الافرنج أنه من مدينتهم . والشعبية الآن قرية صغيرة على مسافة عشرين كيلومترا من جنوب جدة وبعضهم يدكرها بلفظ الشعبية : قال كثير يصف إبلا تسير فى ملا تريم (مكان بحضر موت)

سألك^(١) وقد أجدها البكور * غداة البين من أسماء غير
 كأن حمولها بملا تريم * سفين بالشعبية ماتسبر
 ومن ثم أخذت جدة تزيد في عمرها وتعظم في أهميتها حتى أصبحت أكبر غربي بلاد
 العرب .

وساحل جدة كله شعاب صخرية يخللها شعب مرجانية حمراء أو سوداء (اليسر) ،
 وترى على سطح مياهه في كثير من جهاته أوراق مات مائي شكله أشبه شئ بالبشبين في
 بحيرات مصر، وهذا النبات لونه أحمر قاتم ويوجد بكثرة على شاطئ الخليج العربي . وربما
 كان له تأثير على ما يعيش في جود من الاصداف الحمراء والاسماك المرجانية التي توجد فيه
 بكثرة لتعذيتها منه، وربما أتت من ذلك تسميته بالبحر الأحمر . ويساعد على هذه التسمية ذلك
 اللون السجاني الذي يشاهد قبل شروق الشمس فيما يلي الشاطئ من مياه البحر عند انحسار
 كتله المياه عنه وقت الحز الذي يحصل فيه يوماً : حيث يترأى لك الشعب على طول الشاطئ
 ضارباً في البحر بلونه الأحمر الذي يتشرب بالزرقه شيئاً فشيئاً حتى يتصل بكتله الماء الكبرى .
 ومما يذكر بهذه المناسبة أن أبناء أهل جدة يميلون الى اللباس الأحمر لافرق في ذلك بين
 كبيرهم وصغيرهم ، وربما كان ذلك من تأثير الوسط الذي يعيشون فيه : فتراهم يشدون
 على وسطهم حزاماً أحمر ويضعون على رأسهم شالاً من لونه ، وكثيراً ما ترى صبياهم يلبسون
 جلابيب بيضاء وعليها صديريه حمراء : حتى الطبقة الغالبة منهم يكره في لباسهم اللون
 الوردي أو ما يهرب منه .

ويحيط بحده سور له خمسة أضلاع : فالغربي منها على البحر وطوله ٥٧٦ متر ، والبحري
 ٦٧٥ متر ، والشرقي ٥٠٤ متر ، والشرقي الجنوبي ٣١٥ متر ، والجنوبي ٨١٠ متر .
 وفي كل ضلع من أضلاع هذا السور باب ، والباب الشرقي يسمى باب مكة وعلى جداره
 من الخارج ركن منقوش في الحجر والى جانبه اسم السلطان الغوري ملك مصر ، وهو الذي بنى
 هذا السور سنة ٩١٥ لمنع الافرنج (الدين كانوا اتوا به في استعمار الشرق) من طلوعهم
 (١) لعله وساء لك .

الى جدة . وقد أفاد فائدة تد كرفي مع البرتغاليين من الدخول اليها سنة ٩٤٨هـ وأصلتهم فلعنتها هذه الصغيرة باراً حامية وروايتها الى مراكزهم تاركين ما كان معهم من الدخائر . كما نالت أيضاً من الوهابيين حين حصارهم لجدة سنة ١٢١٨هـ ، إلا أنهم لم يكن تؤدي وظيفتها في ضرب المراكب الانجليزية لها سنة ١٢٧٤ : وسبب ذلك ان أحد الرعايا الانجليز كان يملك مركباً شراعياً بحده ، وكان يرفع عليها العلم الانجليزي فبدلاً بالعلم العثماني ، فحقق لذلك فصل الانجليز ورجل الى المركب وأنزل العلم العثماني بالموه وأهانته . فلما بلغ الناس هذا الأمر كبر عليهم وهاج له الرعاع فمصدوا منرله وقتلوه مع الفصل الفرنسي و بعض الافرنج و هوادورهم . فأتت مراكب الانجليز وضربت جدة . فحضر والى مكة وانفق مع الامبرال على عمل تحقيق كانت نتيجة شتى نحو ١٠ نفر آمن الالهالى في سوق جدة ، وبقي كثيرين من كرائها ، وغرامة الدولة نظير الاموال التي ادعت رعايا الدول الاجنبية انها ممتدتها في هذه الفتنه . وفي سنة ١٣١١ ساق الانجليز مراكبهم مره أخرى الى مياه هذا الشجر عندما قتل الأعراب وكيل الفصل الانجليزي وجرحوا وكيل الفصل الفرنسي والروسي ، وكانوا تجاوزوا الحد المضروب لهم خارج البلد ، وكلهم مسلمون من الالهالى الذين لم يحسوا سيرتهم مع اخوانهم من مواطنيهم ارتكاباً على الحماية الاجنبية . فحضر الشريف عون من مكة لهذا الأمر الذي انتهى بالصلح وسهر المراكب من غير صرب .

وشوارع جدة لا نظام فيها وهي تحتوي على نحو ٣٥٠٠ منزل مبنية بالحجر الحلى الذي يأتيون به من الجبال القريبة ، أو الحجر المائي الذي يقطعونه من شعاب البحر وهو خفيف جداً وفي غاية الممانه الا أن خطره جسيم وصرره عظيم لأنه قابل للالتهاب بسرعة لما يحتويه من المادة الصفورية التي توجد فيه بكثرة . ومساكنها كساكن مدن الحجر (مكة والمدينة) وهي أشبه بمساكن مصر في عهد المماليك (وفي سوق السلاح كثير منها) ، أعنى أن بها غرفاً كبيرة ولواوين واسعة ذات سفوف عالية ولها شبابيك طويلة عريضة على شكل المشربيات يسمونها الرواشن (مفرد هاروشن وهي كلمة فارسية معناها المور) ، وشغلها الخشبي يشبه ما يسمونه بالمنفور أو المنجور وأكثرها من النوع المسمى بالشيش . وقد رأيت

في بعض بيوت هذه المدينة منزلاً وجهته نحو ١٥ متراً وفيها تسعة رواشن كبيرة . ولا شك أن هذه المآود الواسعة موافقة جداً للبلاذخارة . ولذلك ترى النظام الجديد في العمارات المصرية يرجع الى هذا النمط كما تراه في أغلب المباني الحديثة لاسيما في الأحياء الأفرنجية وعلى الأخص في مصر الجديدة التي هي شكل مجمل مكمل من الأشكال المصرية القديمة .

ولمحمد علي باشا في هذه المدينة مبان كثيرة : منها دار الولاية ، ودار البلدية ، وثكنات العساكر ، وغيرها .

وماء الشرب فيها من الصهاريج القديمة التي تملأ من ماء المطر أو العيون الموجودة خارج المدينة ، وكلما فرمت تلك العيون من البحر كانت مياهها ملحة غير صالحة للشرب . وفيها مواسير كان وضعها عثمان باشا نوري سنة ١٣٠٢ وسير الماء فيها من عين الرعامسة التي تبعد عن المدينة شرقاً بنحو عشرة كيلومترات . وهي الآن مهتمة . وقد اهتمت بلدية المدينة بإصلاحها ولكن يظهر أن الحكومة لا يمكنها عمارتها إلا بمعونه الأهالي وهم لا يساعدون على ذلك لأن لهم مصلحة في بيع مياه صهاريجهم على الحجاج نائماً باهظة . على أن سواد الحجاج لا يشرون أثناء وجودهم في هذه المدينة إلا من المياه التي يأتون بها اليهم من الحفر والآبار وفضلاً عن وساختها فإن طعمها يميل دائماً الى الملوحة ولولا فضل الله عليهم لهلكوا منها جميعاً !!!

وفي هذه المدينة كنداسه لبعض الفرنجة لتكرير مياه البحر وبيعها للباس ولكنها تخرمت نهائياً وبلغنا ونحن بحدة أنهم أرسلوا بعض عددها الى السويس لإصلاحها فيها . وجدة مركز تجاري كبير ويمكنك أن تقول انها الثغر العمومي للحجاز فمنها صادراته واليه وارداته . وتجارته تكاد تنحصر في أصناف اللؤلؤ والمرجان واليسر والسبح والاقمشة الحريرية والعطر والعطارة والبقالة الجافة والقرب والجلود والسجاد جيد وجميع ما يهيم الحاح . وتجارته الرئيسية في الحبوب خصوصاً القمح والدقيق اللذين عليهما مدار حياة أهل البلاد العربية من أدناها الى أقصاها ، وهي تأتي اليها من الهند ومصر والشام والعجم والجاود وغيرها . وسوق المدينة تمتد على طولها من الجهة الجنوبية الى الشمالية التي

تنتهي بما كن قناصل الدول، وهي أحسن ما في المدينة من الانية، وأخص منها بالذ كرمزل
الوكالة الروسية الذي هو على أطف مثال وأجل هندام لما فيه من المشرىات والطشف
(الملكونات) التي تمثل أهة الشكل العربي القديم بما يحيل للرائى أنه أمام قصر الرصافة في
بغداد. وبجاه هذا المزل بقطة بوليس و حوارها مكان البوستة، وهو غرفة صغيرة يقطعها

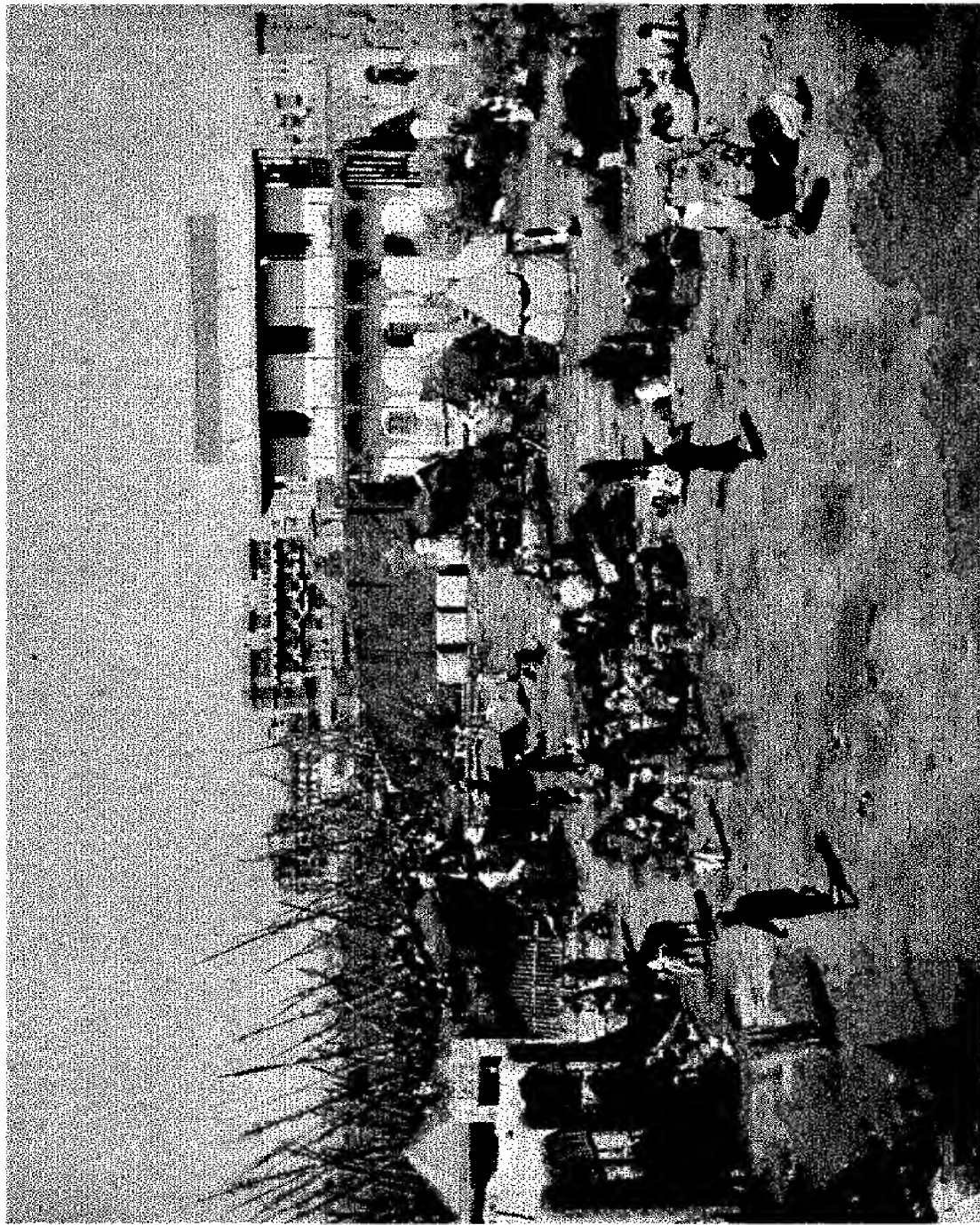
حاجز خشبي بسيط يفصل بين العمال وأرباب الأعمال، وإلى حوارها مكان التلفراف .
وتجار جدة من أهلىن وحضارم وهنود وأعجام وبخاريين وأرام تراهم يعملون في هذا
الوسط ولا تروج تجارتهم إلا في موسم الحج . ولا حد إلا روام في جنوب المدينة وأبور
(ما كينه) يدار بالترول لطحن الغلال وأجرة الكيلة الجداويه (ممدارها ثلاث أقات)
ثلاثة قروش محبوبة ومع هذا فان صاحبه على الدوام تراها يصرح مستغنياً من قلة المكسب
وكثرة ما يصرفه في سبيل ادارته .

وتعداد أهل هذه المدينة لم يحصل بصفة رسمية ، وهم يبلغون خمسين ألفاً على أضبط
تقدير : منهم عشرة آلاف من الأجانب المسلمين بين فرس وحضارم وهنود وبخاريين ،
أما الفرنجة فيبلغ عددهم مائة أو يزيدون قليلاً وأغلبهم من الأروام . وثرؤة البلاد تفرىياً
في أيدي هؤلاء الأغراب وتقدر ثروة بعضهم بنحو مليون من الخنيهاات لا هم يجدون
ويكدون ولهم نشاط غريب في بابيه ، حتى الشياطين والفلايكية في هذه المدينة تجدهم في
الغالب من الحضارم أو العيد .

وفي جدة مدرستان مدرسة الاصلاح وفيها نحو ثمانين تلميذاً ويصرف عليهما من
ترعات الاهالى ، والمدرسة الرشديه وهي للحكومة وفيها نحو مائة وعشرين تلميذاً ،
ولا يدرس فيهما الا شئ بسيط من الحساب والكتابة والقراءة العربية والتركية ، وعلى كل
حال فانهما أقل في التعليم من مكاتب الاوقاف بمصر . وقد رأيت في سوق المدينة لوحة
مكتوبة عليها (جريدة الاصلاح ومطعمتها) فسألت عنها فعلمت أنها ابتدأت عملها بعد
اعلان الدستور والعثمانى ولكنهم لم تجدروا جافاضطر صاحبها الى اغلاقها، وقفل محررها
(التركي) راجعاً الى الاستانة ، أما المطبعة الآن فليس لها من عمل يذكر .

مرفأ جندة

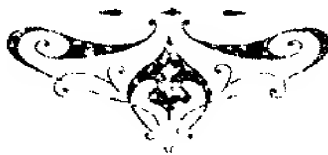
BOEHME & ANDERER, CAIRO



وسكان جدة خليط كما أسلفنا، وقد أثرت فيهم طبيعة هذا الاقليم فغلبت عليهم حال البداوة فيما يختص بالتعليم الذي ليس لهم فيه حظ يذكر اللهم الا ما كان يوصل الى كتابة خطابات أو مزاوله قليل من الحساب . وفي المدينة أربعة مساجد - المسجد الحنفى - والشافعى - والمالكي - ومسجد سيدى عكاشة وهو أكبرها، وفيها أجزائه صغيرة، ويقال ان بها نزلا صغيرا (لو كادة) في ميدان الحرك ولكنى لم أراه .

وحكومة المدينة محصورة في القائما ووكيل الشريف وهو الآن حضره السرى الوجيه السيد محمد نصيف : والاول مختص بأعمال الحكومة المالية المنحصرة في ايراد الخمارك عالياً، وتقدر هذه الايرادات بنحو خمسين ألف جنيه عثمانى في السنة على الاكثر، والثانى قائم بجميع الاشغال المختصة بالعرب كما أن أمر القوه العسكرىه موكول الى قومداها : وقد كان الى الخمار يسكن أولاً في جده واصل على مركزه في محوسنة ١٢٨٠ الى مكة لأهميتها .

وفي موسم الحج ترى في جدة حركة مستديمة لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً من الحجاج الذين اذا وصلوا اليها وجدوا على أبواب حرمها مطوفيههم أو وكلاءهم في انتظارهم وهم ينادون يا حاج فلان أو يا حجاج فلان (يعنون المطوف)، فيعرف الحاج اسم مطوفه فيأدى عليه وهو في هذه الشدة، فيبادر الى مساعدته و يأخذ منه ورقة جواره (باسابورب) ليعلم علمها من فلم الحواراب ثم يسير معه الى منزل يعيم به يوماً أو يومين يصلح فيهما من شأنه في نظير أجر يدفعه لصاحبه ثم يؤجر حميره أو حماله ويسافر الى مكة بعد أن يشتري شئاده ان كان له اصر و رده عنده ومتوسط ثم الشندف جسيه الحلمرى وأجره الهجين أو الخمار جنيه الى مكة وكذلك جعل الحمل ، أما حمل الشندف فتعمل أجرت في الغالب الى ضعف ذلك .



جبانة جدة وقبر أمناء حواء

و يوجد خارج هذه المدينة من جهة الجنوب مدفن للنصارى محاط بسور عال وعليه خفير من الأعراب لا يدع أحدا يدخل فيه من غير ذويه . أمام مدافن المسلمين فانها في جهتها الشرقية على مسافة نحو كيلومتر من بابها الشرقى الذى يسموه باب مكة ، وعليها سور يفتح باب للغرب ترى في مدخله زمن الحج كثير أمن الشحادين صغاراً وكباراً من الأعراب والأغراب فادخلت من هذا الباب وجدت أمامك رأس قبر طويل ضارب الى الشمال مسافة مائة وخمسين متراً على ارتفاع من وى عرض نحو ثلاثة أمتار ، وهو ما يسمونه قبر أمناء حواء : وهو أشبه شئ بمادة مسدودة من طرفها الجنوبى ثلاث حوائط من مربع بمصه الحائط الشمالى الذى هو من جهة الغرب ، وطول كل حائط أربعة أمتار في ارتفاع مثلها ، وفي كل منها شباك تحرج منه فروع عوسجة كبيرة ، كذا تسد فروع هذا المربع الذى هو مكان الرأس عدهم . وفي هاية هذا المسطيل من جهة الشمال حائط يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار ، في وسطه من أعلاه شرفة تحتمها شباك يطل على القبر من جهة المدمين ، وعند هاتى القبر ترى أناسا مطوعين لا رشادك عن مكان الرأس أو القدم وأيديهم ممدودة للسؤال ، وفي نحو ثلثي طوله من جهة الرأس فيه يفتح باب الى الغرب ، وفيها شباك يشرفان على جهتي القبر ، وفي وسطها معصورة من الخشب عليها ستر من الخوخ فيها باب مقابل لباب القبة فتحة لها حاد المقصورة قائلا « هذا مكان السرة الشريفة » . فنظرت فوجدت فيه حجرا من الصوان يبلغ طوله نحو متر ، مخفورا من وسطه ، وهو أشبه شئ ساووس صغير ، ان لم نقل مذبح كان مستعملا في قديم الزمان لتقديم القران . وهنا لك مرة بحاطرى أن هذا المكان ربما كان لغضاعة فيه قبل الاسلام هيكل لحواء أم البشر يعبدونها فيه كما كانت هذيل تعبد سواع ابن شيث بن آدم : وهذيل كما لا يخفى في جنوب وشمال مكة ، وهم الآن يقولون هذيل الشام وهذيل اليمن ، وكانت مساكن قضاة فيما بينهم : وكما كانت قبائل كلب ومراد وهمدان

الهائل : لانه لا يلزم من طول القصر طول الجثة . هذا المفدار ، وليس آدعائهم بان هذا موضع الرأس وذلك موضع القدم برهانا على أن طرفي جسم حواء متناسبان مع طرفي قبرها : إذ يصح أن يكون هذا المعين جهة الرأس وذلك لجهة القدمين من غير تحديد نقطة بداية أو نهايه . ولا عبرة بمولدهم ان الفنة على مكان السر ، لانه بمطع النظر عن أنه كان الأولى بها أن توضع على أشرف عصف في الجسم وهو الرأس ، فان المسافة بين الرأس والسر في طول القبر ضعف المسافة بين السر والقدمين ، وهذا مخالف لطبيعة الانسان ،

أن المسافة الى من آدم ومن الطوفان كانت أصعاف أصعاف المسافة الى نسا ومن الرمن الذي وصلنا منه هذه الموميات ، تما تدرج معه جسم الانسان الى هذا الخد تحكم الماء ومن الطبيعي الذي يسير به الى الصف والعماء . ولا أدري اذا كان اصح أن مهم على هذا برهانا محسوساً من تلك الهياكل الضخمة الى اكتشافها أحياء من طبقات الارض وثانياً الصخور ، ووجدوا فيها أصعاف أصعاف هياكل الحيوانات الى من نوعها الآن : تذكر من ذلك الحيوان الهائل الذي سمونه ماستودون (Mastodonte) وولوا انه هو القمل نسا ومدكور في مادة فصل (éléphant) دائرة المعارف الكبرى المراسوية ، ثم ذلك الحيوان الذي سمونه بربوسور (blestosaure) وولوا انه نوع من الورلة (الورنه) وولوه عميرة أعمار ، وهو مالا يكاد تربطه اسمه بطوك أي نوع من أنواع الآن . ولا يردعنا أنهم وجدوا في الارض الثالثة جسم انسان لا يريد كثيرا عن أطوال جسمه . وقد ذهب بعض الخو لوحيين الى أن الصخور الباليوروية (أي الى وجدوا فيها بعض حيوانات مما كانت تعيش في الارض الثالثة) اما هي مكنونه من روائس مائيد منها الطوفان . وعلى هذا فيكون هذا الانسان الذي غيروا عليه كان عائداً في الخلف الى ايامها الارض الثالث وانتدأت بها الارض الرابعة ، وهي الى بعد الطوفان والى نسا فيها الآن . ولا مشاحة في أن الانسان الاول كان موجوداً قبله نصف مليون سنة على الأقل كما يؤخذ من قول فلاماريون في كتابه (as tronomie Populaire) من أن عمر الارض الثالثة كان ثمانمائة ألف سنة ، وعمر الثانية مليون ومائتا ألف سنة . والارض الثالثة هي الى انكوب فيها السمات والحيوانات الى انكوب تكون الحيوانات الثديية الى منها الانسان ، الذي مارال مدعما في كتابها وناره في مجموعها حتى ظهر استمداده وأحد يعمل لما وجد من أحفاه ، وبعمله هذا ابتدأ طور حديد هو طور الارض الثالثة . على أنه يجوز أن يكون عمر هذين الطورين أكثر مما مدره لهما فلاماريون ، بدليل انهم كانوا يعدرون عمر الارض في جميع أدوارها بمائة مليون سنة ، ولكمهم بعد اكتشاف الراد يوم مدرود ثمان مليون من السنين (انظر باب الاحجار العائمة في عدد ٦ من هلال مارت سنة ١٩١١) . ولا بعد أن يأتي رمن يرشدنا فيه العلم الى ان عمر

بأطبع هذا الهيكل ، بقى أأرد فى قفوس القوم برأبحق الأؤومة؁ وأقاموا له قبعة (لا بذكرى
مقى كان تشييدها) لتكون مزارا للناس ؁ كما كانوا يقيمون المزارات لآل بيت النبوة عليهم
وعلى جدرهم الصلاة والسلام .

ولقد ذكر هذه القبة ابن بطوطة فى رحلته المشهورة فى القرن السابع للهجرة ولم يذكرك شيئاً
عن القبر . ومن أكبر الأدلة على أن هذا القبر حادث لا محالة ماد كره ابن جبى فى رحلته التى
عملها سنة ٥٨٧ للهجرة قال رحمه الله : « وبها (بحدة) موضع فيه قبعة مشيدة عتيقة يذكرك
أنه كان منزلا لحواء أم البشر عند توجهها إلى مكة فبنى ذلك المبنى عليه تشهيرا لبركته وفضله
والله أعلم »

وعلى كل حال فانا لو صرفنا النظر عما غيره الطوفان من معالم الارض وقلب أغلب معالمها
بطأاً لظهر خصوصاً فى الجهات الركائىة التى معها هذه البلاد وجارى ما مؤرخى العرب فى أن
حواء هبطت مع آدم إلى جزيرة سرندىب (سىلان) ؁ وقطعنا النظر عن الواسطة التى
انتفلا بها من الجزيرة إلى القارة ؁ وعن كيفية وصولهما إلى جدره وموت حواء ودفعها به هذا
المكان؁ ثم موت آدم ودفعه بحبل أبى قيس أو بمسجد الحيف ؁ أو توجهه على ما يقول
النصارى إلى بيت المقدس وموته به ودفعه تحت صخرة هالك فى كنيسة القيامة يفسدسونها
إلى الآن : فلا تهولنا دعوى القوم بأن هذا قبر حواء على ما هو عليه من الطول^(١)

(١) أرحو أن سمح لى القارى بأن لا أترك هذا المقام دون أن أقول كلمة عما ولوه فى طول
آدم وحواء :

قال المسيو هاربون العصى فى المجمع العلمى الغربساوى والعالم المسشرق « أن طول آدم كان
١٢٣ قدم وتسع بوصات (٣٧ متراً تقريباً) وأن طول حواء كان ١١٨ قدم وثلاثة أرباع البوصة »
(أنظر مادة آدم فى معجم لاروس الكبر) .

أما العرب فهم قالوا أن طول آدم كان سبى دراعاً (وكان طول حواء متناسلاً معه طمعاً)
وبحسب لا بذكرى ما كانوا يقصدونه من طول الدراع . ولو فرضنا أنه دراع اليد الذى يطلع متوسط
طوله ٤٠ سمترًا فإن طوله يكون ٢٤ مرًا وهو أقل مما هله المسيو هاربون بكثير . ويقول
بعضهم أنا اذا نظرنا إلى طول الموميات التى وصلت إلينا من حبيب قرنا ورأينا أنها لا تختلف
كثيراً عن طول حوسمنا اليوم حكمنا بأن ما هله العرب فى طول آدم منافع فيه . ولكن من لنا

الهائل : لانه لا يلزم من طول القصر طول الجثة . هذا المفدار ، وليس آدعائهم بان هذا موضع الرأس وذلك موضع القدم برهانا على أن طرفي جسم حواء متناسبان مع طرفي قبرها : إذ يصح أن يكون هذا المعين جهة الرأس وذلك لجهة القدمين من غير تحديد نقطة بداية أو نهايه . ولا عبرة بمولدهم ان الفنة على مكان السره ، لانه بمقطع النظر عن أنه كان الأولى بها أن توضع على أشرف عصف في الجسم وهو الرأس ، فان المسافة بين الرأس والسره في طول القبر ضعف المسافة بين السره والقدمين ، وهذا مخالف لطبيعة الانسان ،

أن المسافة الى بن آدم وبين الطوفان كانت أصعاف أصعاف المسافة الى نسا وبين الرمن الذي وصلنا منه هذه الموميات ، تما تدرج معه جسم الانسان الى هذا الخد تحكم الماء وس الطمسي الذي يسير به الى الصف والعماء . ولا أدري اذا كان اصح أن مهم على هذا برهانا محسوساً من تلك الهياكل الضخمة الى اكتشافها أحياء بن طبقات الارض وثانياً الصخور ، ووجدوا فيها أصعاف أصعاف هياكل الحيوانات الى من نوعها الآن : تذكر من ذلك الحيوان الهائل الذي سمونه ماستودون (Mastodonte) وولوا انه هو القمل نسا ومدكور في مادة فصل (éléphant) دائرة المعارف الكبرى المراسويه ، ثم ذلك الحيوان الذي سمونه بربوسور (blesiosaure) وولوا انه نوع من الورلة (الورنه) واوله عميرة أمار ، وهو مالا يكاد تربطه اسمه بطوك أي نوع من أنواع الآن . ولا يردعنا أنهم وجدوا في الارض الثالثة جسم انسان لا يريد كثيرا عن أطوال جسمه . وقد ذهب بعض الخو لوحيين الى أن الصخور الباليورويه (أي الى وجدوا فيها بعض حيوانات مما كانت تعيش في الارض الثالثة) اما هي مكنه من روايت مائيد منها الطوفان . وعلى هذا فيكون هذا الانسان الذي غيروا عليه كان عائداً في الخلد الى ارضها الارض الثالث وانتدأت بها الارض الرابعة ، وهي الى بعد الطوفان والى ارضها الآن . ولا مشاحة في أن الانسان الاول كان موجوداً قبله نصف مليون سنة على الاقل كما يؤخذ من قول فلاماريون في كتابه (as tronomie Populaire) من أن عمر الارض الثالثة كان ثمانمائة ألف سنة ، وعمر الثانية مليون ومائتا ألف سنة . والارض الثالثة هي الى انكوب فيها السمات والحيوانات الى انكوب تكون الحيوانات الثدييه الى فيها الانسان ، الذي مارال ممدعا في كتابها وناره في مجموعها حتى ظهر اسمعاده وأحد يعمل لما وجد من أحته ، وبعمله هذا ابدأ طور حديد هو طور الارض الثالث . على أنه يجوز أن يكون عمر هذين الطورين أكثر مما مدره لهما فلاماريون ، بدليل أنهم كانوا يعدرون عمر الارض في جميع أدوارها بمائة مليون سنة ، ولكمهم بعد اكتشاف الراد يوم مدرود ثمان مليون من السنين (انظر باب الاحبار العلمية في عدد ٦ من هلال مارت سنة ١٩١١) . ولا بعد أن يأتي رمن يرشدنا فيه العلم الى ان عمر

محالف لشكل بني آدم أو بعبارة أخرى لشكل بني حواء في جميع أدوار حياتهم .
على اننا مع اسكارنا لطول هذا الفتر فانا نحترم لحواء وجودها انى كانت وكيفما كانت
لانها أم الكل وكمكاهما من احترام الكل : لذلك لما قصصنا الشر يف عون الرفيق هدم قبتهما
فيما هدم من قباب الصالحين بمكة وعبرها قام في وجهه قاصد الدول وحاولا يذنه و بينهما دعوى
انها ليست أم المسلمين وحدهم .

الارض أصعاف أصعاف ذلك ولا شك ان قدم الانسان فيها مناسبة مع قدمها بطبيعته الوجود .
على أنهم يقولون ان النباتات الى كات تعيش في الارض الثالثة كات اكثر بكثير من التي تعيش
الآن من نوعها : ومما جاء في دائرة المعارف العربية من ذلك بمادة حيولوجيا ما نصه :
« ومما يستغرب له في نبات الارض العجمية نموود العجيب . من أنواع السرخس الى لا يكون
منها في عصرنا هذا الا نبات خشبيته ، خالدة في البلاد الباردة وكان يكون منها أشجار أعظم ارتفاعا
من أشجار السوب . وأنواع الليكوبوديون لا ترتفع في هذه الايام اكثر من متر ، مع انها
كات في الزمن القديم ترتفع من ٢٥ الى ٣٠ مترا وكان قطرها مترا » .
وينسبون هذا الخلاف الى اختلاف درجة الحرارة الهوائية لانهم يقولون انها كات ٢٠٠ درجة
سجرات مدمما تكون مشربة الارض ، وصارت قبل شتاء فشيئا برودة هذه الفترة حتى
وصلت الى هذه الدرجة الى هي عليها الآن . واي لا أدري اذا كان هذا التعليل صحيحاً لم لا يؤثر
على الانسان تأثيره على الحيوان وعلى النباتات والشكل كالا نحى من المملكة العنصرية .

على أنما لو فرضنا ان الانسان نفس من طوله في كل مائة سنة نصف سنتيمتر لكنا أطوال
هذه الموميات في حياتها أعى وهي في نضارتها لا يزيد عن أطوالنا الانحو ٢٥ سنتيمتر فقط ، وهو
ليس بالغرف المحسوس من أطوال الحسوم والمدى الحاضرة والمارة ، خصوصاً اذا لاحظنا انكماش
حسوم الموميات بعد تحيطها وبداخل درابها في بعضها تا يقصر من أطوالها . وعلى هذه النسبة
تكون مقدار طول الانسان اذا اعتدنا مدد ولا ماربون لا ينقص عن ٢٥ مترا .

وعلى كل حال فهذا مقام يصعب أن يوصل البحث فيه الى حقيقة ثابتة ، لانه متى على فروص
يهرها بعضهم من الخيبة ويعندها آخرون عما على حسب الشكل الذي يقع من صورتها في مجلاتهم
والله اعلم بما كان وما يكون .

وصول الجناب العالي الى جدة

وسفره منها الى بحرة

ومما يذكّر في تاريخ جدة تشریف الجناب العالي الحديو اليها يوم الثلاثاء غرة ذى الحجة سنة ١٣٢٧ قاصداً تأدية فريضة الحج الشريف . فمما أشرقت شمس هذا النهار حتى أخذ الناس يردون الى الميناء زمراً و فرافجهم متطاولين الى عرض البحر لرؤية وابور المحروسة الممل لهذا الذات العباسية المحبوبة . وفي نحو الساعة الثالثة العربية نهاراً حضر أصحاب السيادة والسعادة على بك وفيصل بك والشريف زيد أنجال سيادة شريف مكة ومعهم حضرات القائمات وقومندان القوة العثمانية الموجودة بحدة وسعادة مكتوب بحسب الولاية الذي وفد للسلام على الحصره الحديوية بالبيان عن الدولة العلية والتشريف بمرافقة الحجاب السامي بصفته مهمنداراً له مدته وجوده حفظة الله في الأقطار الحجازية يتلوهم حضرات مدير البوستان والتلغرافات و وكيل شركة المواحر الحديوية وغيرهم من مستحدمي الحكومة العثمانية . وقبل أن تظهر أي إشارة تنبئ بمرب الركاب العالي ركبوا جميعاً الزوارق و رملوا الى عرض البحر انتظاراً لمقدمه الشريف . وكانوا قبل شروق الشمس قد أرسلوا الوابور الحربي العثماني المقيم في مياه جدة لاسقبال المركب الحديوية المحروسة على بعد سبع ساعات أو أكثر من مياهها .

وفي نحو الساعة السابعة العربية هارا طهر دحان المركب في الأفق ، وما زالت اقرب شيئاً فشيئاً حتى ألتقت مراسيها في الساعة الثامنة . وهالك فرات منها الزوارق وصعدا لاشراف ورجال الحكومة للسلام على مولانا الحديو وتبليغه سلام مولانا أمير المؤمنين ونهاى الدولة العلية مع تحية سيادة الشريف ودولة الوالى . فمما لهم حفظة الله بما جبل عليه من البشر والايناس والخفاوة والاكرام ، وبعد ساعة رجعوا والسنتهم كلها شكر وثناء على مكارم أخلاقه ومكالم آدابه .

وما غربت شمس هذا اليوم حتى بدت دار البلدية تحتال في حلق زينتها من جهة البر، وتآلمت أنوار المراكب البخارية على اختلاف جنسياتها من جهة البحر، وذهبت ساريات لسنا بك في السماء بمصابيحها التي كانت كأنها النجوم الزواهر. وبالجملة فقد كان يوما مشهودا وليلة قدّ في بابها لم ير أهل جدة مثلها بالمرّة، كما أنهم لم يشاهدوا عناية الدولة العلية بمثل احتفائها بهذه الذات الكريمة واهتمام دولة الشريف بمافيها راحة جنابه الرفيع: وأى رجل اصطفاه مولاه الى حج بيته الكريم كالعباس حفظه الله، دعاده ولباه، وقد كشف عن رأسه تاج ملكه ونزل الى صفوف قبة الخلق في تقشفهم في ملابسهم وغذائهم، نائم على الغراء ويلتحف السماء، ويركب الصعب، ويسير بين حراره الشمس وبرودة الليل، في طريق تغزرو عثاؤه، وتكثر حصباؤه، ولا ينقطع اعصاره، كما لا تنهاى أخطاره. فلا غرابة اذا كانت عين الله تكلؤه وعنايته تحرسه وقلوب الخلق ترمته بكل تحلة واحترام.

وقبل فجر يوم الاربعاء تانى ذى الحجة أخذت العساكر تغدو وتروح في ميادين البلدية التي اكتظمت بالجموع من عساكر الحرس الخديوى من جهة، وعساكر الدولة وجند البيشة^(١) من جهة أخرى.

وفبل الشروق ظهر من اليم الزورق البخارى المقل لمولا بالخديو حفظه الله فضرب الفير وأطلقت المدافع من طابية المدينة. وهنالك انتظمت العساكر على شبه دائر مد مستطيلة نصفها الشرقى من رجال الحرس الخديوى، والنصف الثانى نصفه من عساكر الدولة العلية ونصفه الآخر من عساكر البيشة، وطرفا هذين الموسين من باب القورنتية الى باب البلدية. وبعد نصف ساعة شرف الركاب العالى على سلم القورنتية، وكانت ساحتها مهروشة بالسجاد جيد العجمية وقد اصطف على جانبيها رجال الدولة العلية من جهة، ومن الأخرى أنحاب السعادة أنجال دولة الشريف ومن حضر معهم من الأشراف لأداء واجب التحية. فطلع حفظه الله على الاسكّة وهو فى لباس احرامه كالبدري تمامه، وسار وهو يحيى هذه

(١) بيشة قبيلة موحدية في شرق بلاد العرب وحنودها يركون المحن بلباسهم العربي وهم في نظامهم أشبه بالباسوزوى وكل عساكر الشريف منهم وهم مشهورون بالشجاعة والامانة.

الجوع عبيده الشريفة، يتلوه صاحب الدولة البرنس كمال الدين باشا، وفضيلة الشيخ بكرى الصديقي مفتي الديار المصرية، وحضرة عزتو على بك لبيب طبيب سموه في هذه الرحلة المباركة، وغيرهم من الياوران الكرام وبعض رجال حاشيته. وكان جواده على سلم الفورنتينة فركب حفظه الله بن عزف الموسيقىات المصرية والتركية ودعاء الجنود وهتاف الجمهور، وركب من خلفه دولة البرنس وسعادة حسين محرم باشا مهنداره الخصوصي، ثم الياوران تتقدمهم ثلثة من الحرس بهيئة ناشدار (حرس أمامي)، يحيط بهم جميعاً فرقة من الخند. ثم ركب في أثرهم أنحال الشريف ومعهم مدوب حكومة الحجاز وجمعه يرمن الأشراف، تتلوهم جمود اليشة ثم قومندان قطه جدوة ومعهم فرفة من عساكر الدولة. وسار حفظه الله هذا الموكب الحافل إلى باب المعار به ومنه إلى الباب الشامي وهالك كان في انتظاره مشايخ العربان من أشراف وغيرهم على هيجنهم وساروا جميعاً في ركابه العالى إلى بحرة.

والطريق من جدوة إلى مكة يبلغ طولها نحو ثمانين كيلومتراً، وهي تدخل بعد ساحل جدوة في وادين جليلين أعلاهما يسمى القائم، ثم تمر في طريق على جبل الرعامة، ثم على جبل أم السلم وبه فهو العمد^(١)، ثم يأخذ الوادي في الميل إلى الجنوب الشرقي فيمر بقرية جراده، ثم يصل إلى بحره، وهالك يسع الوادي ويقطعه واد آخر من الشمال الشرقي إلى الجنوب حتى يتصل بالبحر اسمه وادي مر (وادي فاطمة). وهو واد عظيم من أشهر أرض الحجاز خصوصاً ويسكنه كثير من قبائل أشراف دوى حسين وهم ملكون أغلب أراضيه، وفيه عيون ماء كثيرة ولدا يزرع به جميع أنواع الحصروات التي تأتي إلى مكة، ويقطعه الطريق السلطاني بين مكة والمدينة في نقطة يوجد فيها بساتين من بحيل وأعماب يتخللها عرمرى ماء يأتي من جهة الشرق (يسمونه هرا) وكتلة الماء فيه أقل من متر مكعب وأكثر فواكه تلك البساتين من البرتقال والليمون: وأرى أنه لو عملت هذه الجهات آباراً لتوارى به الكائنات تأتي نفوائد حمة.

وبحره نزلها حملة أكواح يسكنها بعض الأعراب، وفيها عشش عمومية واسعة

(١) هو صابط سوداني عثماني كان مقبلاً بهذا المكان من طرف الدولة وأظهر شجاعته وحسن تدبيره في تأمين الطريق فسمي إليه.

يسمونها قهاوى ، يستريح فيها من أراد من الحجاج وخصوصاً ركبى الحمير والهجن لوجود ما يلزمهم بها من خبز وجبن وبلح وبعض الفاكهة والقهوة والتبناك ، وفي جوارها أفنية واسعة محاطة بأسوار من الحجر يدتربط فيها جمال الحجاج ودوابهم ، وأغلب القوافل تبيت فيها . ويأخذ الطريق من بحرة نحو الشرق ويميل الى الشمال فيمر على حدّة ويبيت فيها بعض القوافل ، ثم على قهوة سالم ويقرب منها الى الشمال الغربى قرية الحديدية ، ثم يمر على جبل الشميسى ، ثم على المقتسلة ، ثم الهجالية ، ثم البستان ، ثم قهوة المعلم ، ثم الشيخ محمود وهو باب مكة وفيه قبر حار الله الزمخشري صاحب التفسير الشهير المسمى بالكشاف وكان قد أتى اليها حاجاً سنة ٥٣٨ هـ مات بها يوم التروية ودفن بهذا المكان . وكل هذه القهاوى شبيهة أكواخ يحدد الحاج فيها بعض الراحة . أما الجبال على طول الطريق فنراها حمراء أو مائلة الى الخضرة أو الصفرة ، وهذا مما يدل على أنها غنية بالمعادن المختلفة كالحديد والنحاس وغيرهما . وعلى طول الطريق أربع عشرة قلعة يوجد فيها الجند العثماني على الدوام ، وبعضها قد تم من عمل الشريف غالب أو محمد على باشا والى مصر ، والبعض من بناء الدولة العلية من عهد ليس بعيد خصوصاً بعدما كثرت محبىء الحاح محراً .

أما ما كان من أمر صاحبة الدولة والعصمة والدولة الحجاب العالى فانها نزلت من المحروسة الى الر في منتصف الساعة الثالثة العربية نهائياً ، وكان في انتظار دولتها على الاسكلة بعض رجال الحاشية ، وكان بعض مأمورى الحكومة العثمانية على بُعد من الباب العمومى ، وركبت حمفلها الله مع صاحبتي الدولة الاميرتين كرىمى الحضرة المخيمه الحديويه عربيه من طرار (لاندو) بحرها أربعة بغال ، وركبت دولة الاميرة فاطمة هانم أفندى مع بعض الملقوات (كبيرات الحاشية) عربيه أخرى من عربات دولة الشريف ، وباقي الملقوات ركن في هودج يتلوها هودج سعادة ألماس أغاباش أغاى السراى الحديويه ، وعنايتلو كاظم أعا باش أعاى دولة الوالدة ، ويتلودلك شقادات بعض رجال المعية السنية ثم حمال الحملة . وسارت عربيه دولة الوالدة يحيط بها فوارس الحرس الحديوى وفي مقدمتهم عسكر الشريف ومن خلفها حرس الدولة ، والناس على جانبي الطريق يحال لم يسبق لها مثيل ، ولسان الجميع

يلهم حج بالثناء والدعاء . وما زال هذا الموكب على نظامه الجميل حتى خرج من باب جدة الشرقى المسمى باب مكة ، و بعد ذلك سارت دولة الوالد مع رجال الحرس الى بحرة حيث استقبلت أحسن استقبال ، ونزلت في الدائرة المخصصة لاقامتهم مع حاشيتها .

وهناك كنت ترى معسكر الجباب العالي في نظام لم يسبق له نظير بالمره ، والى شرقه سرادق حضرات أبحال الشريف التى مدت فيه ظهر ذلك اليوم مائده على النظام الأوربى تسع محو مائة مدعو لضيفه سمو الامبرومين في معيته ، وعلى الخصوص فى العشاء الذى حضره مولانا الحديو ، وكان أتاب عنه فى الغداء دولة الرئيس أحمد كمال الدين باشا . أما النظام والزينة فى هذه المائدة فقد كان مدهشين جداً لعدم انطباقهما بالمره على حال هذه البداوة التى رأيناها من ساعه ونحن بين فيافها كأننا بين جدران البهو الكبير فى نزل الكونتيمانثال بالناهرة أثناء أدبة من المآدب الكبرى : نعم كنت تجد الطعام على كثرة صنوفه جمع الى نظافته لذة طعمه ، وكانت ثريات النور الأبيض تتلألأ منتشرة فى أرجاء الصيوان مما كان ينير جو بحره بأجمعه حتى لساى رابعة النهار . وكان يزيدى رواء هذه الحفلة تلك الآداب العالية التى كنت تراها فى أبحال سيادة الشريف . و بعد العشاء مارح الحجاب العالي صيوان الأشراف بين صنوف التبجيل والتكريم ، فاصطف مشايخ العربان من أشراف وغرهم فسلم حفله الله عليهم شاكر لهم ضيافتهم وهم له شاكرون تفضله بقولها .



دخول الجناب العالى الى مكة

— وأيامه بها قبل عرفة —

بعد تناول العشاء فى صيوان أحبال الشريف فى محرة استراح الجناب العالى قليلا فى سرادقه، وفى نحو الساعة الحادية عشرة أفرسكى مساء، امتطى حفظه الله جواده كرىما قاصداً مكة، يتبعه دولة البرس كمال الدين باشا وحضره السرياور وبعض الحاشية . وسار الكل فى ركابه حتى اداوا فى جبل الشميسى وجد فى اسطارسموه سعادة خيرى باشا مديراً لأوقاف الخصوصية، وقدم لحضرته العليسة عطوفة أمين بك القائم بأعمال ولاية الحجاز ثم سعادة فومندان القوة الشاهانية بها . وبعد تبادل التحية ساروا مع سموه حتى وصلوا الى قهوة البستان وهى على بعد ثلاث ساعات من مكة . وهنالك كان دولة الشريف حسين باشا أمير مكة المكرمة فى جمع من علية يتسه وأكابرقومه استقبالا لجنابه العظيم، وأراد الشريف أن يترجل عن جواده احتراماً لجنابه العالى، فاقسم عليه سموه بأن لا يفعل، وبعد تبادل التحيات وعبارات التهنانى ساروا جميعاً حتى وصلوا الى الصواوين التى أعدها الحكومة خارج مكة احتفالاً بمقدمه الشريف، وكان العلماء والوجهاء والأعيان والتجار فى انتظار قدومه السعيد بها . ونزل حفظه الله فى سرادق مخصص لتشريفه، وبعد شرب القهوة قدم له دولة الشريف حضرات أعضاء بلدية البلد الحرام: وفى مقدمتهم الشيخ الشيبى، ثم حضرات قاضى مكة، ومفتها، ونائب الحرم، والسيد عبد الله الزواوى رئيس قومسيون عين زبيدة وقومسيون المعارف وغيرهم من العلماء والاشراف والأعيان، فبدى سموه لهم شكرانه وعظيم امتنانه، ثم امتطى جواده قاصداً مكة، وسار بمن كان معه من وسط جنود القوة الشاهانية المقيمة بها، وكانت قد اصطفيت على جانبي الطريق الى ثكنة (قشلاق) الحميدية لأداء واجب التعظيم وأمامها حضرات فومنداهما وضباطها بالتشريف الكرى، وفى هذه الفترة كانت الموسيقى تصدح بالسلام الخديوى .

ودخل مكة حفظه الله من باب جرول حيث كان حرس الحمل واقفا لاداء واجب السلام، وسار في طريق الشبيكة والناس على جانبيه كأنهم البنيان المرصوص والكل ينهل الى الله يحفظ هذه الذات السنية ، ثم مر امام التكية المصرية ودار الحكومة الحجازية ودار البلدية وكانت كلها مزينة بأحسن زينة ، ووصل الى باب الحرم الشريف فخر يوم الخميس ثالث دى الحجة وصلى الصبح مع الامام المالكي ، ثم طاف طواف القدوم ، وخرج الى السعي بين الصفا والمروة حيث اصططعت الحجاج على اختلاف أجناسهم وفي مقدمتهم الحجاج المصريون على طول المسعى ، وكان كل امرئ عليهم ساعياً لله ارتفعت أصواتهم مكربين مبتهائين وأفتدتهم ترفع الدعاء الى رب الارض والسما بحفظ هذه الذات العباسية المحروسة ، وأعينهم تذرف دموع الفرح لمشاهدته أنوار مليكهم المحبوب ، الذي استولى بعدله وفضله ورحمته وعمته على القلوب ، فيألهامن ساعة كمت ترى فيها هذا المليك الفخيم ولا عرش يقله ، ولا تاج يظله ، وقد تحرد عن حامية الملك بل عن مظاهر الدنيا بأجمعها وسعى بين يدي الله سبعة أشواط كانت قلوب الناس في أنفاسها تسعى بين يديه الكريمةتين 'يا لهامن ساعة ما كنت تسمع فيها الا زغردة الساء وآى الدعاء ومظاهره الرعية الصادقة بالاخلاص والولاء ، حتى كأنما الكل أهل بيت واحد خرجوا لاستقبال والدم وسيدهم وعائلهم وولى نعمتهم بعد غياب طويل . وأحسن ما يدكر في هذا المقام أن سيادة الشريف أشار عليه بالسعى راكباً لعدم المحظور شرعاً خصوصاً وهو في تعب الشديده بعد هذا السفر الطويل ، فامنع سموه قائلاً « ما على لو غرت قدمي ساعة في سبيل الله » .

و بعد السعى قصد حفظه الله دار الامارة في سوق الليل ، وكانت قد أعدت لاقامته مدة وجوده بمكة . وكان دولة الشريف قد استأذن جنابه العالى عند دخوله الحرم الشريف وسبق اليها استعداد المقدمه السعيد . ولما وصل الركاب العالى كان دولته في انتظاره على باب السراى العامرة ، فرحب به ترحيباً يليق بمقام الزائر وكرم المزور ، وصعد مع سموه الى قاعة الاستقبال الكبرى و بعد تكرار آيات التهاني انصرف دولته مودعاً بكل شكر واحترام .

وهذه السراى كان قد بناها الحاج محمد على باشا والى مصر سنة ١٢٢٨ لتكون داراً لحكومة الحجاز ، ولما ترك ولايتها جعلت مقر الأمانة مكة الى الآن لذلك لم يردوله الشريف أجمل مناسبة يجدد بها الذكرى الطيبة لهذه العائلة الكريمة العظيمة الا تقديم أثر من آثارنا بغير القرن الثالث عشر الهجرى الى هذا الحفيد الحليل ، ليمرأى عظمة أرواقته بعض آيات آبائه الأكرمين : وفي هذا إشارة لطيفة الى عدم سسيان دولة الشريف ما كان لمحمد على باشا على عائلته الكريمة من اليد البيضاء ، لانه هو الذى عين فى امانة مكة جد هم محمد ابن عون سنة ١٢٢٩ ، ومن ثم وهى فى أيدي سبيه الى اليوم .

وما طلعت شمس هذا النهار المبارك حتى اطلقت المدافع من قلاع مكة ترحيباً بعمد الجباب الحدوى ، و بعد الظهر تبادل سموه الزيارة مع سيادة الشريف ، ثم تشرف عطوفة المأمم بأعمال الولاية بزيارته حيا به العالى ، وفى الساعة الرابعة بعد الغروب نزل حفلة الله للطواف ببيت الله المعظم .

أما دولة الوالده فاتها حفظها الله ركبت من بحيرة معيتها فى فجر اليوم المذكور و وصلت الى مكة قبيل الغروب ، ودخلتها فى موكب من أحرار أى الرأءون وسمع السامعون بين اطلاق المدافع وعزف الموسيقىات وهتاف الحويع المحتشدة على الطريق ، وما زال موكبها الحليل سائرأ حتى وقف أمام باب الصفا حيث نزلت دولتها الى دار باناجا (١) باشا التى كانت أعدت لاقامتها فيها مدة وجودها بهذا البلد الامين . و بعد هزيع من الليل طافت دولتها طواف القدوم ، ثم سمعت فى عرتها مع صاحبات الدولة والعصمة الاميرات الفخيمات . وما زغت شمس يوم الجمعة رابع دى المحجة حتى أخذ الا لاف من الناس يهرون على باب الدار الحدوى : هذا رافع يده للدعاء ، وذلك باسط كفه للعطاء ، وتسابق كبار المصريين لكتابه أسمائهم فى سجل التشرىفات قياما بواجب تحية القدوم . وفى صحوة النهار رككب سموه قاصداً دار الولاية لرد الزيارة الى عطوفة القأم بأعمالها ، فاستقبل سموه بكل ما يمكن من مظاهر الاجلال والاحترام . وكانت

(١) وهذه الدار أيضاً من آثار محمد على باشا كان قد بناها والده على الحجار المرحوم أحمد باشا يكن

فرقة من الجنود الشاهية مصطفة على جانبي الطريق الى بابها ، ولما وصل ركابه العالى عزفت الموسيقى بالسلام الخديوى ، فأسرع عطوفة القائم الذى كان ينتظر على بابها مرحباً بمقدم سموه ، ثم استصحب جنابه العالى الى قاعة الاستقبال شاكراً له تفضله بهذه الزيارة ، وبعد شرب القهوة قدم لسموه حضرات العلماء والمأمورين الملكيين والعسكريين وحضرات أعضاء المجلس البلدى والاعيان والتجار الذين حضروا استعداداً للتشرف باستقبال جنابه الفخيم ، وكانت الموسيقى الشاهية طول هذه المدة تطرب الحاضرين بنغماتها الشجية . ثم انصرف برعاية الله مودعاً بكل حفاوة واعظام لزيارة التكية المصرية ، فاستقبل بميليق بمقامه الرفيع ، وتفقد محالها ومخازنها ومطبخها وبازل حفظه الله فأكل من خبزها ، وبعد أن أعطى التسيهات اللازمة زياده العناية بأمر الفقراء وشدة الاهتمام بهم ، رجع الى دار الامارة وزار دوله الشريف .

ولما قرب وقت الظهر قصد حفظه الله الحرم الشريف لصلاة الجمعة ، وكانت أعدت له الفبة التى فى أعلى بئر زمزم فمرشت بأصناف السجاج جيداً معجمية والبسط الفاخره . وكنت فحين سبق اليها الشرف القيام بخدمة استقبالها : فدخل سموه من باب الصفا يخف به عدد عظم من الأشراف وبعض ضباط الحرس الخديوى ، فزغرد النساء اللاتى كن فى محلهن من المسجد على يمين الباب فرحاً بمقدمه السعيد ، وهالك علت الأصوات من ارجاء المسجد بالتكبير والتهليل مما لم يسبق له مثيل : نعم علت الاصوات الى رب السموات الذى عظم شأنه وتجللى سلطانه وظهرت ربوبيته هائلاً كمل مظاهرها . فاذا قلت ان العالم كله ملك فلنا ولكن مكة عاصمته ومظهر سلطانه وجبروته ، والكعبة بيته ومكان عظموته ورحمته . وأى مكان فى أطراف انسكوبه لا يبلغ مسطحه ثمانية عشر الف متر مربع مع أنه يحتشد اليه زمن الحج فى وقت واحد نحو نصف مليون من النفوس ، والكل يدعون الله قلب واحد ولسان واحد ، وهم وان اختلفت جسياتهم ونبأنت لغاتهم يتوجهون الى قبلة واحدة ، ويتحركون فى صلاتهم بحركة واحدة ، وهم لا يرجون غير رحمة الله الواحد الأحد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

ولما صعد الخطيب المنبر صعد معه أحد الاغوات وجلس على الدرجة التي تلى قدميه : وهذا بلا شك عادة قديمة كانت للمحافظة على الخطيب أثناء اشتغاله بالفاء الخطبة حتى لا تنسرب اليه يد أئيمة ، وأظن أنهم استغنوا عن ذلك فيما بعد بعمل ابواب للمنابر خصوصاً وقد صارت الخطبة لغير الامراء والرؤساء . وعقب هذه الخطبة التي لم تخرج عن مثيلاتها في دواوين الخطب البسيطة ، أعم الجباب العالي على الخطيب بحلقة سدية ألبسه اياها سمادة حسين محرم ناشدا ، ثم صلى الخطيب بالناس تحت جدار الكعبة المكرمة بين المعجن ونامها الشريف . وكانت السماء في أثناء الخطبة قد تلبدت بالغيوم ثم فاضت بغيثها المدرار أثناء الصلاة فلم يتحرك الناس عن مراكرهم واستبشروا جميع الخلق بهذه الرحمة التي كانت قد انقطعت عن بلاد الحجاز من ست سنوات ، وكان هذا أحسن فالحج الجباب العالي الحديوى . وبعد الصلاة خرج حفظه الله من باب الصفا بين صفوف الحرس الحديوى الذى حال بين سموه وبين أولئك الألوف المتراخمة لمشاهدة محياه الشريف ، وأستهم تلهج بالدعاء له ، وخصوصاً أهل جزيرنا العرب الذين فرحوا بهذا الغيث الذى أكرم الله به وفادة ضيفه الكبير .

وفي صباح يوم السبت خامس دى الحجة قصد حفظه الله زيارة الاماكن المباركة فى ركب من حاشيته ملائكين وعسكريين ، فذهب الى المعلاة (المعلى) ، وبعد زيارة ما فيها من الاماكن المباركة أمر فوزعت الصدقات على من كان هناك من جيوش الفقراء والمعوزين ، ثم امتطى جواده وصعد بحاشيته الى طريق الحجون فرعلى السلخانة وقصد جروول لزيارة الحمل المصرى ، فاستقبل استقبالاً فخماً ، وقدم لسموه أمير الحاج جميع ضباط ومستخدمى الحمل فتشرفوا بلحم راحته الكريمة ، وبعد أن أوصاهم بحفظه الله بزيادة العناية بواجباتهم فى هذه البلاد المقدسة اعطى صهوة جواده وسار تحيطه المهابة وتلازمه الكرامة الى زيارة مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم مولد سيدنا على كرم الله وجهه ، وبعد ذلك قصد حفظه الله دار الارقم المخزومى فزارها وعاد الى السراى العامرة .

و بعد ظهر هذا اليوم استقبل الحجاب العالى كثير من الرائر بن من علماء وأعيان مكة ومن بينهم أعضاء قومسيون عين زيدة وفي مقدمتهم حضرة رئيسه السيد عبد الله الزاوى .
 وفي الساعة الخامسة العربية بعد غروب اليوم المذكور قصد ريادة بيت الله الحرام ،
 ففتح بابه ووضع اليه المدرج الممرى ، وأوفد ما فيه من الشموع حتى صار كانه قطعة من نور على نور .
 فصعد حفظه الله على المدرج ، يتبعه دوله الامير كمال الدين باشا ورجال حاشيته عسكر بين وملكين ، وهناك صلى ركعتين لله تعالى في القبلة التي في مفاتحة الباب (وكانت مصلى النبي صلى الله عليه وسلم) ثم اتجه الى الجدار الشمالى فصلى ركعتين أيضاً ، ثم الى الجدار الشرقى فصلى مثلهما ، وكان الجميع يصلى كذلك ، والكل في غاية ما يمكن من الخشوع للهاء هذا الماكوت الاتظم والرهبوت الأخم الدين تصغر أمامهما النفوس الكبيرة حتى يكاد يتصل وجودها بالعدم : ولولا ما كنا اشاهده من تحرك الحسوم في هيئة الصلاة ، ورفع الايدي بالدعوات ، واضطراب الشفاه بالتضرعات ، وما كنا نسمعه من دقات القلوب أمام هذه العظمة اللامتناهية ، لحسبنا أنفسنا في حياد غير هذا الحياه : وفي الحميمة فمدكنا في هذه الساعة في عالم آخر . نعم كما في بيت الله ، وفي حضرة الله من غير ما واسطة ، وليس فيا الرأس يحرص ، ولسان يضرع ، ودعوات ترفع ، وعيون تندمع ، وقلب يلمع ، واخلاص يشمع . و بعد أن أمضا على هذه الحال ساعة خرجنا وقلوبنا تفيض أقدا مناعن السعى لحفظات تزيد في تمتع النفس بهذه التحليات العظمى ، وعاطفة الادب تدفعها بموجبات الاحترام والاحتشام . و بعد نزولنا من البيت المعظم طاف حفظه الله حول الكعبة ، ثم زار مقام الخليل ابراهيم ، ثم عاد الى مقامه شاكر الله على توفيقه لزيارة بيته الكريم .

وفضى جناحه العالى يوم الأحد في استقبال كثير من الناس على اختلاف أجناسهم ، وفي المساء أولم وليمة فاخرة لسيادة الشريف وأنحاب السعادة أبحاله الكرام ووكيل الولاية ونحو عشرين من عليا القوم والأشراف وكبار المأمورين وحضرات الغاضى والمفتى وشيوخ الحرم ومديره وقومندان العساكر الشاهانية ورجال المعية السنية ، وبعد العشاء انتقلوا الى البهو الكبير وكان حفظه الله يؤاسهم بلطعه ومكارم أخلاقه . . . و بعد شرب القهوة قام عطوفة أمين بك

أفندي وكيل الولاية والقائم بأعمالها، وارتحل خطابه غاية في البلاغة جمعت الى جزالة اللفظ رفة المعنى . ومما جاء فيها بعد ترحيبه بمقدم الجباب العالي الى هذه الديار المندسة : أنه منذ وجوده في مركز الولاية وهو يدرس بكل اعجاب وافتحار أعمال المرحوم محمد علي باشا في ولاية الحجارة ، ومما عمله فيها من ترتيب ونظام ، وما حبس على أهلها من الأوقاف الواسعة ، وما ربط لهم من المرتبات الحسيمة التي لا تزال ترسل اليهم من حكومة مصر سنوياً فينال منها الكبير والصغير ، وتساعد على حياة كل بأس ومير . وبعدهما انتهى ذلك الخطيب من خطابه البليغ شكره الجباب العالي فصاحته ولطمه وأدبه . ثم أخذوا في السمر الى منتصف الليل ، وانقض عند الجمع وكأهم السنة شكر للجباب العالي على عظيم كرمه ، وحسن لقائه ، وجميل ملاطفته ، وواسع معرفته ، وكبير آدابه . وقضى حفظه الله يوم الاثنين سابع ذى الحجة في استقبال كثير من الزائرين ، ثم تراور سموه مع دوله الشريف ، وفي المساء طاف بالكعبة المعظمة ، ثم رجع الى دار الامارة ، وأمر حفظه الله بالاستعداد الى الخروج لعرفة .

الطريق القديم والحديث

من مصر الى الحرمين

كانت مصر ولا تزال طريق المسلمين الى حج بيت الله الحرام ورياره بيه عليه الصلاه والسلام ، في نصف الكرة الأرضية الغربية باعتبار أن مكة المكرمة هي قلب ^(١) العالم ، أو النقطة المركزية التي ينبعث منها أنصاف أقطار الى محيط جميع دوائر الأقطار : فالاندلس الذي كان يسكن في غرب أوروبا ، والمغرب الذي في غرب أفريقيا ، ومادونه من مسلمي البربر ، والسنغال ، وبلاد السودان الغربية والشرقية كانوا اذا قصدوا الحج الى بيت الله الحرام

(١) واليهود يقولون ان قلب العالم في المكان الذي نه تابوا العهد بالقدس ، والنصارى يقولون انما هو في كنيسة الميامة ببيت المقدس وفيها كرم من الرمان يطلع فطرهائحو ثلاثين أو أربعين سبيماً مرفوعة على قاعدة من الرمان أيضاً ، ويرحمون ان هذه الشجرة موضوعة في المركز الخميني للكرة الأرضية .

سافروا من بلادهم الى مصر بحرا أو برا، ولهذه الغاية كان يقصدها كذلك كثير من أهالي الشام والترك والقوقاز والفرج وبجاري وقازان وغيرهم من مسلمي شمال روسيا وسيبيريا وجزائر البحر الأبيض المتوسط . ويحتمل الكل بالماهرة قبل شهر رمضان، ثم يسرون منها الى قوص ومسافتها ٦٤٠ كيلو متر كانوا يقطعونها برا أو في النيل في نحو عشرين يوما، ثم تسافر فوافلهم منها في الصحراء الشرقية مدة ١٥ يوما يقطعون فيها نحو ١٦٠ كيلو متر الى عيذاب أو الى الفصير على البحر الأحمر . وكان كل من هاتين الفريتين ميناء لمصر الشرقية من قديم الزمان، أي أهمها كانتا من مصر بالامس مكان ميناء السويس الآن . وكانت الاولى منهما أهم من الثانية، وكلتاها كانت في أيدي عرب البجاه^(١) الذين كانوا يتولون نقل الحجاج

(١) قبائل البجاه أو البجة يقال لهم من البربر، وكانوا يسكنون في صحراء مصر الشرقية من سواكن الى قرية يقال لها الحرية في صحراء قوص وهذه الصحراء عامرة بمعادن الرمد والذهب والفضة والحديد وفيها معابر وآبار تدعى لاسجراحها، وهي طعاماً من عهد قدماء المصريين وبعضها من عمل محمد علي باشا وإلى مصر وكاتب العرب يسخر منها المعادن (وخصوصاً البر) في القرن الاول والثاني للهجرة وذلك باتفاق مع ملك البجة الذي كان ممره اسوان . وكان سال المسلمين منه ومن قومه أدى كبير فأرسل المؤمنون اليه عبدالله بن الحظم فكاتب له منهم وفئع، ثم وادعهم وكاتب بينهم وبين كون رؤسهم كتابا يذكر لك طرره . لمعرف مقدار السباح الاسلامي مع أهل الدمه وكيف أنه كان لا يفرق بينهم وبين المسلمين في المعاملة :

هذا كتاب كتبه عبدالله بن الحظم مولى أمير المؤمنين صاحب حشش المرأة عامل الامراء في اسحاق ابن أمير المؤمنين الرعيدي أعياه الله ، في شهر ربيع الاول سنة ثمان مائة وثمانين ، يسكنون من عبد المير عظيم البجة ناسوان ، انك سألني وطلب الى أن أؤمك وأهل بلدك من البجة وأعقد لك ولهم أمانا على وعلى جميع المسلمين ، فأجبتك الى أن أعقد لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما اسقمت واسفاهوا على ما أعطيتني وشرط لي في كتابي هدا، وذلك أن يكون لك وحملها من منبهي حد اسوان من أرض مصر الى حد ما بين دهلك وناصع ملكا للمؤمنين عبد الله بن هارون أمير المؤمنين أعمره الله تعالى ، وأنت وجميع أهل بلدك عميد للمؤمنين ، الا أنك تكون في بلدك ملكا على ما أنت عليه في البجة ، وعلى أن تؤدي اليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة ، وذلك مائة من الامل أو ثلثمائة دينار واربعة داخله في باب المال ، والخيار في ذلك لأمير المؤمنين ولولائه ، وليس لك أن تحرم شيئاً عليك من الخراج ، وعلى أن كل أحد منكم ان ذكر محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به أو قبل أحد من المسلمين حراً أو عبداً فقد برئت منه الدمة دمه الله ودمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودمه أمير المؤمنين أعمره الله وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب ودراريهم ، وعلى أن أحد منكم ان أعلن النصارى على أهل الاسلام بما لا أودل على عورة

على ألبهم في هذا الصحراء، وكانت أخلاقهم على غاية من الفطاعة، لاشفقة فيهم ولا رحمة، وربما بلغ بهم الأمر إلى تغيير طريق الماء على المسافة لغرض شنيع وهو أن ركابها يموتون عطشاً فيستولون على متاعهم .

وفي هذه الصحراء قبر العارف بالله أنى الحسن الشاذلى قرب مكان يقال له (أمتان) توفي فيه سنة ٦٥٦ في طريقه من المغرب الأقصى إلى الحجاز ودفن به . وأهل هذه الجهة يعملون له مولدات سنوياً من أول ذى الحجة إلى التاسع منه ويمصرون يارته في هذا المولد كثير من أهل الصعيد والعربان والمغاربه .

وكان الحجاج يقيمون في عيذاب أو القصير نحو شهر من الزمان في انتظار الغلايك التي تحملهم إلى جدة ويسمونهم جلانا (واحدتها جلبة) ، وهي سفن صغيرة غير محكمة الصنع وشراؤها في الغالب من القصير . وكان أصحابها يتعسفون بالحجاج فيشحنونها بأكثر من حمولتها : وكثيراً ما كانت تعرق في وسط البحر عن عليها من الحجيج الذين يذهبون بحية مطامع أولئك الاشرار ، ومن وصل به طول عمره إلى جده وصلها في نحو أسبوعين يتفاب في أنسائها بين تحكم الملاح ، وتبرم الرياح ، وانزعاج الماء ، واضطراب الهواء .

ولمذحج من هذا الطريق ابن جابر الأندلسي سنة ٥٧٩ فقطع المسافة بين القاهرة وجدة في نحو شهرين ونصف ، قضاه في أسوأ حال ، بين مشقات وأهوال ، مما هو مبین في

من عورات المسلمين أو أثر لعنتهم فقد مضى دمة عهد وحل دمه ، وعلى أن أحداً منكم أن قتل أحداً من المسلمين عمداً أو سهواً أو خطأ حراً أو عبداً أو أحداً من أهل دمة المسلمين أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل دمتهم مالا لئلا يلهو أو يسلد الاسلام أو يلد أو ية أو في شيء من البلدان رآ أو محرراً ، فعليه في قتل المسلم عشر ديات وفي قتل العبد المسلم عشرين وفي قتل الدمي عشر ديات من ديارهم ، وفي كل مال أصد حوله للمسلمين وأهل الدمة عشرة أصدافه ، وإن دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاحراً أو ممبياً أو محارباً أو حاد فهو آمن فيكم كما حدكم حتى يخرج من بلادكم ، ولا يؤووا أحداً من آبي المسلمين من أناكم آت فعليكم أن تردوه إلى المسلمين ، وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صاروا في بلادكم بلا مؤنة تلمهم في ذلك ، وعلى أنكم أن رتم ريف صعد مصر الحارة أو محاربين لا يظهروا سلاحاً ولا تدخلوا الدائن والقرى بحال ولا تسمعوا أحداً من المسلمين الدحول في بلادكم والمجارة فيها رآ ولا محرراً ولا تحبوا والسبل ولا سطموا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الدمة ولا تسرقوا لمسلم ولا دمي مالا ، وعلى أن لا تدموا شيئاً من المساحد التي أبناها المسلمون بصيحه وهجروا سائر بلادكم طولاً وعرضاً فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا دمة لكم وناقني الكتاب لا يخرج عن هذا المعنى .

رحلته . وفي سنة ٧٢٥ سافر ابن بطوطة من مصر الى عيذاب ولكنه لم يجد فيها مركباً
تحملة الى جدة مع من قصدها من الحجاج لان السفن التي كانت عيناؤها أحرقت في واقعه
حصلت هناك بين الترك وعرب البجاة، فعاد منها الى مصر، ومنها الى بلاد الشام، ثم الى بغداد
وسافر منها مع الحمل العراقي في السنة التالية .

وكان يسكن في هذه القرية (عيذاب) حاكم : حاكم بدوى من طرف شيخ قبائل
الباجة وآخر تابع لحاكم مصر، وكامياً خذان عوائد مرور عشرة جنميات عن كل حاج مغربى
وسبعة على الحجاج الآخرين، ويمتسان ما يتحصل بينهما وبين أمير مكة ! واستقرت هذه
المكوس حتى أطلبها صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٩٠ زمن الشريف مكث بن عيسى
ورب له شيئاً عوضاً عن نصيبه، ثم أعادها لأشراف من بعده على الداخلين من الحجاج إلى
مكة، حتى ألزم الملك الناصر محمد بن قلاوون الشريف عطيفة بن أبى عمى سنة ٧٢٦ ما طلبها في
نظير ما ربه اليه من الفمخ الدي كان يحمل اليه في مكة كل سنة .

والطريق بين قفط والمصير قديم جداً، فتحه رمسيس الثالث في القرن الثاني عشر قبل
الميلاد لتداول التجارة بين مصر و بلاد اليمن والهند و بلاد العرب الذين كانوا كثيراً
ما يهاجرون منها الى مصر طلباً للتجارة أو للعيش فيها . وفي سنة ٣٢٠ قبل المسيح أخذت هذه
الطريق أهمية عظيمة زمن بطليموس في بلاد نفوس، وصار بالمصير هي الميناء الوحيدة التي
تصل تجارة البحر الأبيض المتوسط بالحيط الهندى والعكس، وهو الذى حفر أغلب
الآبار التي في هذا الطريق وبنى على طولها محازن للتجارة وأقام بحوارها قلاعاً ورسب لها
الحمر الارم لحراستها، وهو الذى بنى مدينة نرئيس وقامت على أنقاضها فيما بعد قرية
عيذاب (أنظر عيذاب في الخطط التوفيقية) . وفي هذه الجهة إلى الآن أطلال مدينة قديمة
ذهب بعضهم إلى أنها أطلال مدينة أوفيرا التي كان سليمان بن داود يرسل بنى إسرائيل
اليها في القرن العاشر قبل المسيح لاستخراج الذهب من ضواحيها وورد ذكرها في التوراه
في الإصحاح التاسع من أخبار الملوك الاول .

ومارال هذا الطريق هو الطريق الوحيد للحجاج المصري من القرن الاول الى سنة ١٤٥٠ التي سافرت فيها شجرة الدر مع قافلة الحاج الى مكة لأول مرة عن طريق البر على العقبة . وفي سنة ١٦٠٠ أخذ هذا الطريق الأخير أهميته حيث سيرا الظاهر بيرس البندقداري قافلة الحاج منه وأرسل معها الكسوة التي عملها للكعبة ، والمفتاح الذي أمر بصنعه لبابها الشريف ، ومن ثم أخذ يفل دهاب الحجاج عن طريق عيذاب ، ولكنها استقرت طريقاً للتجارة بين الشرق والغرب .

ويظهر أن عيذاب ابتدأت تسقط أهميتها شيئاً فشيئاً نسبة زيادة أهمية الفصير ، نظراً لأن لها حليجا طبيعيا يجعل مياهها على الدوام في أمن من التغيرات البحرية حتى تلاشى أمرها بالمره ، ولا تزال أباضها في جنوب الفصير بمسافة عشرة كيلومتر .

ولمداهم العزيز محمد علي باشا بطريق الفصير عند سوق العساكر المصرية الى بلاد المحازلرب الوهابية ، فهدسله وأصلح آباره ، واستقرت عبايته به بعد ذلك لاشتغاله باستخراج ما فيه من معادن الذهب والنحاس .

وهذا الطريق مطروق الى الان ويبدو وب كثيره تسمى مطارق : وأول محطة له بئر عنبر ، ويسبر اليها المسافر من ناأومن فقط : وهذه المراكات ساقية قديمة أصلحها المرحوم إبراهيم باشا نحل محمد علي باشا ، وبنى بجزارها سيلا لسقيا المواشي ، والى جانبها مكانا لدهاب معنودة لاستراحة المسافرين ، وقصر في الرزاحة الى حادم هذه البئر ستة جنهات سسويألا تزال تصرفها المالىه الى من يوم بأمرها . ومن هناك يسير الطريق الى الشمال الشرقى في درب يسمى مطرق جيف الكلاب (لأن هناك مغاير مصر بقديمة كان بها جنث كلاب كثيرة محطة) حتى يصل الى محطة اللفيطة ، ويقمها أناس من قبيلة العشابات من عرب العبايدة وهم خدم البجاة ، وفي هذه المحطة نحيل وحمله آثار بعضهم عهد البطالسة . ولا يزال الطريق حتى يصل الى محطة الوكاله وها آثار قديمة . ومنها يسبر في مطرق يسمى مطرق جيف العجول (وهناك مغاير كانت بها عجول كثيرة محطة من التي كان يمد سها فدماء المصريين) ، ثم في مطرق الحمامات وفيه خزانات مياه طبيعية ، ثم في

مطارق الكافر (وفيه آثار فرعونية و أثر حلزونية من الرخام ينزل اليها بمائة وثلاثة وأربعين درجة) . ومن هناك يستمر الطريق الى بئر الاسكيز (التي حفرها عندما وصلت جنودهم بجرأ الى القصير ، ومنها ساروا الى تلك الجهة متعفين عساكر العرناوين وقت احتلالهم لمصر) ، وماء هذه البئر يبعد عن سطح الارض بنحو أربعة أمتار . ومنها يسير الطريق الى العنبرة ، وبها ينبع معدني مياهه كبريتية ، ويقصده بعض الناس للاستشفاء به ، وهناك مستنعات كثيرة ينبت فيها السمار ، والحكومة تبيعه سنوياً للمصريين . ومنها يستمر الطريق الى القصير . ولقد كانت هذه المدينة في القرن الماضي عامرة أهلة بالسكان الذين كانوا يزيدون عن عشرين ألف نفس ، وكانت من ضمن محافظات انظر المهمة .

وما زالت طريق القصير مستعملة للتجارة حتى عملت السكة الحديدية من القاهرة الى السويس في مدة سعيد باشا عوضاً عن العربات التي كان سيرها محمد علي باشا سنة ١٨٤٥ م بواسطة الخيل في طريق الصحراء لحمل السياح من القاهرة اليها ، وكان لها ديوان مخصوص يسمى ديوان المرور على يسار الداخل الى الموسكى ، وهو معروف الآن بسوق الخضار القديم . ومع كل هذا استمرت القصير مهمة بين مصر العليا والمخار تنقل منها الحبوب الى جدة ، وينقل من هذه اليها السجاد والفلل والبن والسالمكي وخلاف ذلك من واردات الهند وغيرها . وكانت لها سوق كبيرة في قنأ ، حتى إذا حفر قناة السويس وصارت ترسل كل هذه الحاصل الى أور و بأرأساً ، فلتت أهميتها وأصبحت من نحو عشرين سنة مأمورية صغيرة تابعة لمديرية قنأ وإن كانت إدارتها في يد مصلحة خفر السواحل .

وكان بعض الحجاج يسافرون من السويس الى جدة بواسطة المراكب الشراعية ، وفي طعون مسافتها في نحو عشرين يوماً . ولكن غالبهم كان يسير راعن طريق العنبرة مع الحمل أو مع غيره من القوافل التي كانت تقوم بها عربان مصر من أولاد علي وغيرهم ، فيصل الى مكة في نحو خمسين يوماً . وأول من رتب ركب الحجاج على هذا الطريق وعقبه عند رحيلهم من الركة الأمير جمال الدين الاستادار عندما سافر ولده شهاب الدين أميراً للمحمل سنة ٨٠٩ فكان إذا وصل الركب الى عجرود (وهي محطة قبيل السويس) يأمر الأمير بكتابة كابر

الحاج ويرتب كلا في مكان معين من القافلة بجماله وذو به وخدمه ، ثم يجمع الركب من الطليعة الى الساقية ، ويضبط أطرافه ونواحيه بجماعة من العسكر بعد أن يسير أصحاب الحمول والاموال في وسط الركب .

وطريق البر شاق جدا وخصوصا في المنطقة التي بين السويس والعقبة ، وهي لا تهل عن ثلثمائة كيلومتر ، كلها أرض رملية ناعمة تسوح فيها اخفاف الخمال قبل اقدام الرجال ، ولا يهتدون فيها الى الطريق الا بواسطة نواطير أشبه شئ بطواحين الهواء أقيمت لهذه الغاية . وماء هذا الطريق قليل وعناؤه كثير ، وقد كان في بعض القرى التي عليه محازن للميرة والذخيرة ومؤن الخمال وامتعة الحجاج الذين كانوا يرسلونها اليها قبل سفرهم على سبيل الامانة في نظير اجرة مخصوصة تتوفرها عليهم مشمة حمائها في الطريق ، وكان في هذه القرى فرق من الجنود لحراستها . وبالحمد فانابورد لك اسماء المحطات التي كان يقطعها الحاج في طريق البر من القاهرة الى مكة ، ومسافة الركوب بين كل محطة والتي يليها بمسافة الحمل التي هي اسرع من المواقل الأخرى لا يتظام سيرها واحكام أمرها وجوده جمالها : من القاهرة .

ساعة

٠٦ الى بركة الحاج .

١٤ » الدار البيضاء ، وبها قصر عباس باشا الاول ويلها الدار الخضراء .

١٢ » عرود ، وتوجد في الجنوب الغربي من السويس على مسافة عشرين كيلومترا منها ، ومن هناك كان يرجع المرضى والمقطعون والمشيعون .

٠٨ » الباطور الاول ، والثاني ، والثالث ، والارض في هذه المسافة رملية ناعمة متنقلة من جهة الى أخرى عند هبوب الرياح بشدة .

٠٦ » العلوه .

١١ » جنادل حسن ، وأرضها رملية .

١٢ » قرية نجل ، وفيها نخل وشجر وقاعة وخان من عمل الغوري ، وساقية من عمل الملك الناصر حسن والى جانبها ثلاثة احواض تسع ٣٠٠ قرية

ساعة

الي

تملاً في زمن الحج . وكان يرسل إليها أربعة من الثيران من طرف الحكومة فلا تزال تدور في الساقية ملء الحيزمان حتى ترجع مع فواصل الحاج الى مصر .

١٢

»

نثر فر يص ، وسهيت أخيراً بئر أم عباس لان والدته عباس باشا الاول اصلحتها وماؤها عطن .

٠٧

»

العقبة ، و يصعد اليها المسافر بمنحدر من مسافة طويلة من الغرب حتى يصل الى قمتها ، فاذا أراد أن ينزل الى الجهة الشرقية صار يزل لأصاعدا وصاعدا نازلا في أرض حجرية تارة ، وأخرى رملية ناعمة ، وأخرى خشنة أوزا طيبة ، الى أن يمر في مضيق لا يسع الا جملاً جملاً ويسمى قطع لاز . وطريق هذا القطع حلزوني تمر به أصلاً ابن طولون في القرن الثالث الهجري ثم محمد بن قلاوون في القرن الثامن ثم عباس باشا الأول في القرن الثالث عشر ، ومع ذلك فان المسافر فيه لا بد أن ينزل عن دابته ويسير على قدمه حتى يقطع العقبة في ست ساعات نزولاً وضعفها صعوداً . ومن دون هذه العقبة قرية العقبة ويسمونها أَيْسَلَة^(١) وفيها

(١) هي بلدة قديمة جداً وكانت عاصمة من زمن مدين وكانت في مدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام . مياء كثيرة للمراكب التي كانت تعد الى الشام من اليمن والهند وفارس واطلع بها طريق البر من اليمن الى بصره . ولما مات سليمان رحب الطريق الاول الى ما كانت عليه في نقل التجارة رأ ، وكان فيها أسواق كثيرة بل كانت مكرراً للتجارة بين مصر وبلاد العرب وفارس والعراق . ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم الى عروبة تبوك في السنة التاسعة للهجرة أتاه اسرؤة صاحبها وصاحبه وأعطاه الحرية فكسله عليه الصلاة والسلام عهداً هده صورته « بسم الله الرحمن الرحيم هدا أمة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحى من رؤيته وأهل أيلة سبهم وسيارتهم في البر والبحر لهم دمة الله ودمه النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر من أحدث منهم حدثاً فيه لا يحول ماله دون نفسه وأنه لطيفة لمن أحده من الناس وأنه لا يحل أن يجمعوا ماء يردونه ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر . هدا كتاب بهم من الصاب وشرحيل بن حسنة نادن رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وفي سنة ٥٦٦ اسولى الافرنج عليها في الحروب الصليبية فسار اليها من مصر صلاح الدين الايوبي وأخذ معه مراكب مفصلة على الجمال حتى وافي مياهها فأصلح مراكبه وأمرها في

يفصل أمير الحاج جميع المقطوعين الذين لا يمكنهم الاستمرار على السفر لمرضهم أو لفقرهم ، و يعطيهم المؤنة اللازمة من البقسماط ثم يستأجر لهم سنبوكا يسير بهم إما الى مصر أو إلى جدة ، وكثيراً ما كانوا يصلونها بعد نزول الناس من عرفة . ومن العتبة يتجه الحاج الى جهة الجنوب .

» ٠٩ ظهر حمار ، وفي طريقها مضيق بين جبلين على البحر لا يسع إلا جملاً جملاً .

» ١٤ الشرفا ، ويسمونها أم العظام .

» ١٢ مغاير شعيب ، وبها نخل و ساتين ومياه عذبة .

» ١٤ عيون القصب ، وبها ماء ونخل وشجر سنط وعبل .

» ١٢ المويلح ، وفيها قلعة أشأها السلطان سليم العثماني بها بعض الجند لحراستها ، ومناخها رطب غير جيد للصحة ، وسكانها يتجرون في الفحم الذي يصنعونه من شجر الطرفا الذي ينبت بكثرة في الوديان المحاورة لها . ومنها طريق الى تبوك مسافته مائة كيلو متر .

» ١٢ سامي (كفافه) ، وفي طريقها مضيق شق العجوز تسير فيه الجمال جملاً جملاً ، وبهذا الوادي شجر الدوم والسنط والطرفا .

» ١٢ اصطبيل عتر ، وهو مكان متسع محاط بالجبال وفيه ثلاثة آبار .

» ١٢ الوجه ، سيأتي الكلام عليه في طريق المدينة ، ومنه ينشعب الطريق الى العلا شرقاً ، وإلى ينبع جنوباً ، وإلى المدينة المنورة جنوباً بشرق .

الحجر وحاصر المدينة برأ ونحراً حتى أحدها عموة وطرده الافريح منها . وهي الآن قرية صغيرة في أيدي عرب الحويطات وفيها قلعة بناها السلطان مراد الرابع بها خمس الخود لحراسها ، وعدد سكانها لا يزيد عن مائة نفس ، وفيها نخيل وأشجار وماؤها حار ويررع بها الخسروات . وبين العقدة ومعان نحو مائتي كيلو متر شرقاً ، والطريق صيقة ونحترق حال السراة التي يكسوها الحليد طول الشتاء . وبين بيت المقدس شمالاً نحو ٣٠٠ كيلو متر في صحراء مليئة المياه وطريقها وعرة . وبينها وبين السويس نحو ٣٠٠ كيلو متر .

- ساعة الي
- ١٦ » عكرة ، ولا ماء فيها .
- ١٢ » الحنك ، ولا ماء فيها .
- ١٢ » الحوراء ، وفيها مضيق تسير فيه الجمال حملاً جملاً ، وأرضها ذات رمل ناعم .
- ١٥ » الخضيرة ، وفيها معادن نحاسية وأرضها صلبة .
- ١٠ » ينبع ، ويدخلها المحمل واكباً باحتفال عظيم ، وهي ثغر المدينة المنورة على البحر الأحمر ، وستحكم عليها في طريق المدينة .
- ١٨ » السميقة ، وماؤها ملح .
- ١٠ » مستورة ، وماؤها حلو .
- ١٤ » رابغ ، وهي قرية بينهما وبين البحر نصف ساعة ، وفيها قلعة بها بعض الحد لحراستها ، وفيها محازن تحفظها مؤن ركب المحمل ودخاؤه وفيها صهاريج عذبه وهي المينات لمكة ، ومنها تنفر ع الطريق إلى المدينة ثلاثة أفرع : الطريق السلطاني ، والطريق الفرعي ، وطريق العابر .
- ١٢ » نزالهندي أو المضمية (وبعضهم يكتبها القديمة) ، وهي قرية على البحر ماؤها ملح ومنها يتجه الطريق إلى الجنوب الشرقي .
- ٠٦ » خليص ، وبالقرب منها عيون ماء كثيرة يحيط بها مزارع وبساتين .
- ٨ » عسفان ، وهناك نزل ماؤها حلو يسمونها نزال التلة ، ويقولون إن ماءها كان مرأفتل فيه النبي صلى الله عليه وسلم فصار عذبا ، وفي طريقها ممران على طول نحو كيلو متر لا يسمان الا جملاً جملاً .
- ١٥ » وادي قاطمة (وادي مر) أو مر الظهران ، ومنه إلى قبر السيدة ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم إلى العمرة الجديدة (التنعيم) وهي حد الحرم من هذه الجهة وأقرب حدوده إليه ، ومنه إلى الزاهر ثم إلى

ساعة	٤
مكة المكرمة .	
المجموع	٣٣٧

وعلى حساب ان الحمل يتقطع في الساعة الواحدة أربعة كيلومترات ، تكون المسافة من مصر الى مكة من طريق البر ألفاً وأربعمائة كيلومتر تقريباً ، كانوا يقطعونها في نحو أربعين يوماً على الأقل .

أما الآن فالحاج المصري يركب السكة الحديدية الى السويس ويبحر منها الى جدة بغاية الراحة ومنها الى مكة فيصل اليها في أقل من أسبوع . ومن الناس من يسافر الى المدينة أولاً بطريق السكة الحديد الحجازية ، وبعد الزيارة يسافر مع القافلة الى مكة أو يرجع الى مصر ومنها الى جدة . ومنهم من يسافر بعد الحج الى المدينة بطريق البر ، ومنها يعود الى ينبع فالطور ، أو يركب السكة الحديد الحجازية الى الشام ولكنه في هذه الحالة يصادف كثيراً من المشقة في ضرورة عودته الى الطور لمضاء الحجر الصحي هناك : لذلك يرى الكثيرون أن أحسن حل للصعوبة التي في طريق الزيارة أنهم يعودون بعد الحج الى مصر ، وبعد انقضاء مدة الحج التي يلزمها الحجر الصحي عادة يسافرون الى المدينة بالطريق الحديدي ويعودون منها الى مصر مباشرة .

مكة المكرمة

مكة وتسمى بكة وأم القرى ، مدينة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٣٣٠ متر وهي على عرض ٢١ درجة و ٣٨ دقيقة وفي طول ٤٠ درجة و ٩ دقائق ، وتصعد عماريتها الى عهد ابراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام . وكان يعيش بنوه في الخيام والمضارب حتى عاد قصي بن كلاب من الشام في القرن الثاني قبل الهجرة ، فبنى فيها المساكن والبيوت حول الكعبة ، ومن ثم أخذت تزيد في عمارتها الى الان . وهي عاصمة (قصبة) بلاد الحجاز وفيها محل حكومته التي تنقسم الى قسمين : الاداري وهو في يد الشريف أمير مكة ويسمونه سيد الجميع ، والمالي والعسكري وهو في يد الوالي الذي يكون تركياً في الغالب : وعليه فالشريف ينظر في الفضايا

الجسمية ويحكم فيها على حسب نظامات أربابها ان كانوا من الالهالى أو من الأعراب ، أما القضايا الصغيرة فيحكم فيها القاضى الذى يعين من قبل السلطان .

وهذه المدينة تمتد من الغرب الى الشرق على مسافة نحو ثلاثه كيلومترات طولاً ، وما يقرب من نصف ذلك عرضاً ، فى وادئ مائل من الشمال الى الجنوب منحصر بين سلسلتى جبال تكاد ان تتصلان ببعضهما من جهة الشرق والغرب والجنوب ، أعنى على أبواب مكة الثلاث . ولذا لا تشاهد أبنيتها للقادم عليها الا وهو على أبوابها . والسلسلة الشمالية منها تتركب من جبل الفلج (الغلق) غرباً ، ثم جبل فيقمان ثم جبل الهندى ثم جبل لعلع ثم جبل كداء (فتح أوله ومد فى آخره) وهو فى أعلى مكة ، ومن جهته دخل رسول الله البلد حين الفتح . أما الجنوبية فانها تتركب من جبل أبى حديدة غرباً يتلوها جبلا كدى (بضم أوله وألف لينه فى آخره) وكدى (بالصغير) باحراف الى الجنوب ثم جبل أبى قبيس الى شرفيهما ثم جبل خندمة . وكل سفوح هذه الجبال من جهة الحرم تراها عامرة بالبيوت والمساكن التى تتدرج عليها الى قلب الوادى ، ويبلغ عددها نحو سبعة آلاف بيت منها الكبير والصغير يحشد فيهما من الحج ٢٠٠٠٠٠ ألف نفس على الأقل ، واداً كان الحج بالجمعة كان الناس أضعاف ذلك . ومساكنها على شبه مساكن جدة ، ويكثر فيها ما يسمونه بالادوار المسروقة ولا حوش لها فى الغالب الا ما كان أعظمها وكرائها ، وأعظم مساكنها بالفرارة . وأحسن موقع فى مكة شعب جبالا ارتفاعه وسعة طرفه ومساكنه وفيه بيوت كثيرة جميلة على الطراز التركى يسكنها موظفو الولاية من الأتراك وفيه دار عظيمة للشرىف عبد المطلب وداران عظيمتان للسيد محمد السعاف الذى له أملاك واسعة فى مكة والمدينة . ومع ذلك فليس بمكة على قدم عهدا بالحضارة وعظم مكاتها فى نفوس الناس من زمن بعيد جداً شئ لا يدكر من آثار العماره المديعة مما هو موجود بكثرة بمصر والشام اللهم إلا بيت الشرىف ناصر^(١) باشا الذى هو فى خامسة المنظر وجمال الصناعة العربية بمكان عظيم ، ويصح أن يكون أحسن بيت فى مكة .

(١) الشرىف ناصر باشاولى عهد أمارة مكة وهو الآن نال ساه وهذا البيت بناه الشرىف عبد المطلب .

وضمن هذه المساكن بعض الدور القديمة، فترى دار ابن عباس في المسعى على يمين السالك الى المروة ، وفي الشرق الشمالى للحرم آثار دار أبي سفيان المشهورة في الجاهلية والاسلام، وهي مهدمة لا عناية للقوم بها ، ولو لاحظوا أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل لها يوم الفتح شأنًا كبيراً حيث جعلها حرماً محترماً كل من دخلها من المشركين كان آمناً لكان المجلس البلدى بمكة أعارها شيئاً من عنايته .

والحرم الشريف بين هذه البيوت مائلاً الى الجهة الجنوبية مما يلي جبل أبي قبيس . وفي هذه الجهة دار الخيزران ، يتلوها شرقاً شعب بنى هاشم ويسمونه شعب على ، ثم شعب المولد، ثم شعب بنى عامر ، وفي هذه الجهة كانت مساكن نبي عبد المطلب في الجاهلية وفيها الآن كثير من الأشراف . أما باقى قرى يش فكانوا في الجهة الاخرى من الحرم خصوصاً جهة الشمال ، ومن دونهم باقى أهالى مكة .

ويتوسط مكة طريق يقطعها من الغرب الى الشرق وهو كرشوارعها ، ويختلف اسمه باختلاف الجهات التي يمر عليها : فادا ابتدأ من جرول يسمى حارة الباب ، ثم الشبيكة ، حتى اذا وصل الى الحرم من جهة الشمال سمي الشامية ، فادا انعطف الى الجنوب على يمين الحرم سمي السوق الصغير ، ثم جياذوفيه البوستان والتلغراف والتكية المصرية ودار الحكومة العثمانية ويسمونها بالحميدية ، والى جوارها إدارة الصحة وقشلاق الطوبخية والمطبعة الأميرية . فادا وصل الى الصفا سمي المسعى ، ثم الفشيشية ، ثم سوق الليل ثم الغزة ومنها الى باب مكة الشرقى أو باب المعلى . أما الشوارع التي في شمال الحرم فهي الشامية وفيها سوق المدينة ، والفرارة ، والنقا ، والسليمانية ، والجدرية ، والبراضية . وليس بمكة على كرها ميادين عمومية ، اللهم الا سحن المسجد الحرام الذي بسعته يؤدى وظيفة الميادين الكبرى . وهذه الطرق تختلف سعتها من مترين الى خمسة عشر متراً وتراها في زمن الحج عاية في الوساخة والمذارة مما يوجب على المجلس البلدى في مكة أن يعتنى بنظافتها خصوصاً في مدة الموسم ، مع عدم إهماله أمر النور ليلاً خدمة للدين والاسامية . وفي مدة الموسم يرى أهل البلاد لاسيما الأعراب يضعون دائماً أسداتين من الفطن في فتحتى مناخرهم بعد أن يغمر وهما بدهن المرو ويسمونهما الصبايم ، ويربطونهما بخيط يملفونه في رقبتهم ، حتى اذا

آسواء عدم وجود فذارة رفعوها وأرسلوها على صدرهم . وهم لوعلموا أن هذه السدادة صررها أكرس بمعها لا بطلوا استعمالها : لأن وظيفة الخياشيم إنما هي لتنقية الهواء من الادران وتسوقه الى الرئتين نقياً . ولو دخل الهواء العاسد الى الرئتين من طريق الفم فانه يدخل اليهما ماء فيه من المادد الغريبة فيتصل معها بالدم وهما لك يكون تأثير الضرار والعياد بالله . أما الطبقة الرافية وخصوصاً من الأعراب فانهم يضعون طرف صمادتهم (كوفيتهم) على فمهم وأنفهم ، ويثبتون في عمامتهم أو عمامهم انقاء الرداء والروائح الكريمة .

وينصدم مكة زمن الحج أنواع العالم الاسلامي من جميع أطراف المسكونة : فتري بها الأزياء المتباينة وانسجن المختلفة ، حتى ليجدر بها أن تسمى بالمعرض الاسلامي . ولقد رأيت فيها رجلاً يابانياً من كبار قواد اليابان^(١) قد أسلم وفدى اليها التأدية ورخصة الحج . وقد اعتاد الشوام والمغاربه سكنى الجهة الشمالية من مكة زمن الموسم ، والافغان والسليمانية^(٢) (أهالي قندهار) في الجهة الشمالية الشرقية ، والهود والحاوة في الجهة الشمالية الغربية ، والبن واثركستان والضاعستان في المسفلة ، والعجم في شعب علي ، وماسوى ذلك في وسط المدينة . وأهالي مكة يبلغ عددهم^(٣) نحو ١٥٠ ألف شخص منهم حمسون ألفاً من الأهل والباقيون من الأعراب كما نراه في الجدول الآتي :

ألف
٥٠ أهالي

٢٥ أعراب وعاليهم بحاريون وعميون وحضارم (من سكان حضرموت)

٢٠ بحاريون

١٢ هنود

١٥ جاوه

(١) وأهل مكة يسمونها العمان والنسبه اليها العمانى ومنها الشال العمانى المشهور .

(٢) نسبة الى رجل اسمه سليمان صاحب طريقة شائعة في بلادهم .

(٣) العدد في بلاد العرب لم يحصل لحد الآن بصفة رسمية وكل ما يعلم عنه إنما هو على

وجه القريب وما وسماءها أخذناه من مأموري الدولة وغيرهم ممن يوثق بأقوالهم .

١٠ سلبانية وأفغان

٥ شوام

٥ مغاربة

٨ أجناس مختلفة

١٥٠ المجموع

وأغلب هؤلاء الاغراب يشتغلون بالامور المالية وخصوصاً التجارة : لذلك تبّه أمرهم وأصبحت مالية البلاد في أيديهم . وإناذ كركك بعض البيوت القديمة التي توطنت منهم في مكة من زمن بعيد وفيها كثير ممن اشتهر بالوجاهة والثروة :

من الهنود — بيت خوقير . فتا . الدهلوى . الساب . حكيم . الرزة . الاقرو . ميره . الملقى . عبد الشكور . عبد الحق . بشاره . المرزا . أحمدود . كمال . جان . شلهوب . نور . الطيب . دستاويه . خوج . الوشكى . سنبل . خوجه بكر . المسكى . الياس . الزرعه . الفرع . الحجيمى . الخ .

ومن الحاوه — بيت البتاوى . المنكابو . الزينى . أرشد . العنتيانا . العلمباب . قدس . دوم . الخ .

ومن البخاريين — بيت كشن . الفاشقى . الايديجان . الخ .
ومن الحضارم — بيت باحارس . ناجنيد . باناجا . باحكيم . بادرعه . باعيسى . باعشن . الخ .

ومن الشوام — بيت هاشم . الحرى . الخشيفانى . الخ .
ومن الترك — بيت الدرابزلى . الفرملى . الخ .
ومن المصريين — بيت الفطان . الزقزوق . الرشيدى . الرواس . القزاز . الاباصى . الخ .

وفداختلف بعضهم في أصل هذه البيوت ولكننا ذكرناها على ما هو مشهور من نسبتها ، على أن الغرض من ذكرها هنا إنما هي لكونها غير عربية ليس الا .

ومن اختلاط هذا الاجناس بعضهم ببعض بالمصاهرة أو المعاشرة صار سواد أهل مكة خليطاً في خلفهم، خليطاً في خلفهم : فتراهم قد جمعوا الى طبائعهم وداعة الاناضولى، وعظمة التركي، واستكانة الجاوى، وكرياء الفارسى، ولين المصرى، وصلابة الشركسى، وسكون الصينى، وحدة المغربى، وبساطة الهندى، ومكر اليمنى، وحرارة السورى، وكسل الزنجى، ولون الحبشى . بل تراهم جمعوا بين رفة الحضارة وقشف البداوة : فيبتلى الرجل منهم قد أسك برفة حديثه معك، ووضعت بين يديك، ادهوقداستوحش منك وأغلظ في كلامه، حتى كأن طبيعة البداوة تغلبت فيه على طبيعة الحضارة فلم يطق ما تسكله في حضرتك .

وقد وصل هذا الخلط الى أزيائهم التى تراها مجموعة مختلطة من أزياء البلاد الاسلامية : عمامة هندية، وقمطان مصرى، وجبة شامية، ومنطقة تركية فيها خنجر تراه على الخصوص في حزام الاشراف مفضصاً أو مذهباً بشكل جميل جداً وكثيراً ما يكون مرصعاً بالاحجار الكريمة . ومع هذا، تدترى الرجل الصانع العمير يلبس القميص وعلى ياقته الظرافة المشغولة بالحرير، وعلى رجل سراويله شىء يشبه الركامة وهو حافى الرجل (مثلاً) . غير أنك لا تلاحظ ذلك في طبقة الأشراف التى ترفعت عن هذا الخليط، فلم يدخل في مادتهم غريب، ولم يتغلب عليهم خلق جديد، بل خلفهم هو هو بعينه العربى البحت الذى ورثوه عن أجدادهم وألوه بما وطروا عليه من كريم العنصرو دكاء المحتد . وعلى العموم فأخلاق أهل مكة عاينة فى الكمال وخصوصاً فى الطبقة العالية منهم رضى الله عنهم ولا يؤخذ على مجموعهم خسة بعض السوقه فيهم .

والذى يؤسف له أن هذا الخلط وصل الى لغتهم : فتراهم يتكلمون فى الغالب بلغة يكثر فيها الحشوم من كلمات عربية مشوّهة، أو فارسية، أو تركية، أو غيرها . وهم ينوّنون المضاف فيقولون فى هذا حق فلان مثلاً « هذا حق فلان » مع إبدال الفاف جيماً مصريه، ومنهم من يمد الحرف المنون فيقول « هذا حقون فلان »، أو يؤثث لفظه فيقول « حفة فلان »، ولا يحدفون النون من الفعل فى صيغة الا مر للجمع فيقولون « هيا صلون المغرب واركبون » بدل صلوا واركبوا . ويسنعملون الترخم فى غير المنادى فيقولون « قم اعنا » أى قم لعندنا، ويقولون فى الايىل بكسر الباء، وفى الحبل البلى تفتحها، ويقولون « كيّمنا » أى كملنا

(خلصنا)، ويقولون «وصابتي» في وامصيتي، «واللّمن» في اليمن . ومما يكثر سماعه منهم قولهم «دحين» في هذا الحين، و«ازهم فلان» في ادع فلانا . ويعبرون عن الرجل بلفظ (زامه) ويجمعون الرجل على أوادم^(١) . ويقولون «زكّنه» أي اضربه . «وقل كذا» أي اعمل كذا . ويقولون «أبيض» للاستحسان . «وسنّع» في صنّع أو أفن . و«اتجمعص»^(٢) يعني اجلس . و«فصخ»^(٣) حداك أي اخلع بعالك . ويقولون «مشلح» للعباءة . و«شايه» للنفطان . و«امرح» اجر . و«الودّان» للفدان من الارض . و«الثّواده» للكوفية و«زكّس عليه» أي أكد عليه . و«زِلْ» بمعنى سرّ، «واندر» بمعنى أخرج، «والا» بمعنى نعم ، و«اغد» في رح . ويستعملون قولهم «أشكل» لافعل التفضيل من الحسن فيقولون هذا الشئ أشكل من هذا، يعني أحسن منه ويستعملونها أحيانا بالكثرة فيقولون هذا أشكل من هذا يعني أكثر . ويسمون «الاولاد» بالزور، فيقولون بزور فلان أو بزيران فلان أي أولاده . ويستعملون لفظ «هرّج» في معنى كلم فيقولون ما هرجته أي ما كلمته . ويستعملون لفظ «صاقن» التركية للاحتراس والنبية، و«قربوز» للبطيخ . ويستعملون غير ذلك كثيرًا من الكلمات التركية والفارسية مثل «روشن» للشبّاك . ويقولون عن حياض مجرى عين زبدة باران : وهو اسم لرجل أعجمي قام بعمارة هذه الحياض وان كان تبادر لدنّي لاول وهله أنه لفظ فرساوى (Bassin) ظننته أنه من وضع بعض المهندسين الاتراك الذين كانوا يعملون في اصلاح هذه العين ، كما استعملوا بعد ذلك من هذه اللغة ألفاظاً كثيرة في المدينة المنورة بعد وصول السكة الحديدية اليها : فيقولون «البيليت» لتذكرة السكة الحديد (Billet) و«استاسيون» للمحطة (station) و«شماندفير» للسكة الحديد (chemin de fer) و«العاجون» للعربة (Wagon) و«الرسويل» للمستخدمين (personnel) وهكذا من الالفاظ التي لم يسمح الوقت لاستقصائها

(١) مفردة آدم ومعناه بالعبرية اسان .

(٢) لعلها محرفة عن قمعز .

(٣) محرفة عن فسح .

وهذا كله مع كثرة أعلامهم النحوية وعدم مراعاة الفواعل الصحيحة التي لا يهتمون بها في تقويم السننهم أو أعلامهم . واني بينما كنت محزوبا لتأخر اللغة العربية في مشرق أنوارها ومظهر اعجازها إذ عثرت على ترجمة فرنساوية لكتاب (١) عمرو بن العاص الذي أرسله الى عمر بن الخطاب لما استولى على مصر يصفها له فيه ويشرح له السياسة التي سيتخذها فيها وقد شرهذه الترجمة الكاتب الفرنسي الشهير المسمى أوكتاف أو زان (Octave Uzanne) في جريدة الفيجار والفرنساوية الشهيرة ، وعلته عنها برمته جريدة البروجريه الفرنسيه المصريه ، مع التعليقات التي علمها عليه المسمى أوران ، والتي وصف فيها هذا الكتاب بأنه من أكرآيات البلاغة في كل لغات العالم ، وقال عنه انه من الفرائد في إيجازه واعجازه ، واقترح وجوب تدريسه في جميع مدارس المسكونه ، حتى يتعلموا منه مع فود الوصف ومناة التعبير صحة الحكم على الاشياء ، وكيفية تنظيم الممالك وسياسة الاستعمار . وانا اذا سأستهناشديد الاسف على ضياع هذه اللغة من الوسط الذي لا تزال فيه هذه العترة الشريفة الفرشية ، التي نزل بلغتها القرآن ، وصار معجزة الاسلام فصاحت به و بلاغته ،

(١) وتسميا للفائدة تذكر لك هذا الكتاب الطبع وهو (اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر ترنة عبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكسفها جبل أعبر ، ورمل أعمر . يحيط وسطها النيل المبارك المدوات ، ميمون الرواح ، يحري بالريادة والقصان كحري الشمس والقمر ، له أو ان تظهر به عيون الارض ويبايعها فندر حلاله ، ويكثر محاحه ، وتعظم أمواجه . فقيص على الحاسين ، فلا يمكن التحلص من المرى بمصها الي بعض الا في صغار المراكب . وحفاف القوارب ، ورواري كائن الحابل ، (قطع السحاب) وري الاصيل . ودا تكامل في رباته تكس على عقبه ، كاول ما بدا في حربه وطى في درته . فممد ذلك تخرج مله محقورة . ودمه محقورة ، يحرقون بطون الارض ، ويسدرون بها الحب ، ويرحون الماء من الرب ، ليقبهم ما سعوا من كدهم ، قاله منهم ميرجدهم ؟ ودا أحدى الررع وأشرق ، سقاء من فوق الندى وغدام من تحت الترى . فيما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، اد هي عبرة سوداء ، فاد هي زمردة خضراء ، فاد هي دياحة زرقاء ، فسارك الله الخالق لما يشاء . والذي يصلح هذا البلاد ويبيرها ويقر فاطها فيها ، ألا يقلل دول خسيسها في رئيسها : والا يستأدى خراج الثمر ، الا في أوامها ، وان تصرف ثلث ارتفاعها في عمل حسورها وترعها . فادا تقرر الحال مع العمال على هذه الاحوال ، تصاعف ارفعاع المال ، والله تعالى موافق الملك والمال .

وكتب بها ابن العاص هذا الكتاب وهو في بداوته ، وعلى شأته الاولى ، هذا الكتاب الذي بعثته من ادراجه مدينة العصر العشرين ، من دفاتر الغابرين ، وأعطته ما يليق به من التجلة والاحترام ، فقد يجب علينا أن نفتخر بان كتاب ابن العاص بقي في مصر ملازماً لذلك الوصف الطبيعي الذي وصفها به عمرو من ثلثه عشر قرناً ولا يزال قائماً بها الى الآن بل الى آخر الزمان ، وقد أثرت بلاغته في المصريين الذين هم والحمد لله الآن في مقدمة الناطقين بالضاد حتى لكأنني بمصرهم في أيامنا هذه وقد اتملت اليها فصاحة الخطباء ومثانة الكتاب و بلاغة الشعراء في عصر الحضارة الاسلامية . وعسى أن يكون هذا خير دال أو فال خير لبنها يكون لهم من ورائه إن شاء الله شأن كبير ومقام خطير .

وغالب أهل مكة يتكلمون بالتركية ، ومن المطوفين من يتكلم بلغات مختلفة كالهندية والأوردية والحاوية والفارسية والصينية . أما أهل البادية فلغتهم عربية صرفة لا يكاد يفهمها اذا سمعها يتكلمون بها . ولكل قوم منهم لغة مخصوصة تختلف في لفظها باختلاف القبائل فمنهم من يقلب القاف زايًا فيقول (زربة) في قرية . وعتيبة تقلب الكاف سيناً فيقولون (سواسب) في كواكب و (سلبب) في كليب و (سبد) في كبد . أما بنو شيخان فينطقون بالكاف جيما فارسية (معطشة) فيقولون (چواچب وچليب) وهم كذلك يعلمون القاف جيما فارسية فيقولون في قرية (چرنة) وهكذا . والعرب لا ينطقون بالقاف بل يلفظونها جيما مصرية ومنهم من يقلب الميم باء كقولهم نكة في مكة ومنهم من يقلب الثاء فاء فيقولون فئم في ثم ومنهم من يغير الحركات في الكلمة كقول الحجازيين الحجج وفول مجد الحجج وهكذا .

وعلى كل حال فلا يزال في عرب اليوم أثر ما كان في لغاتهم المديعة من الكشكشة (١)

والكسكسة (٢) . . .

(١) الكشكشة هي اضافة شين على كاف المخاطب فيقولون في عليك (عليكش) وفي بك (بكش) وكاب في قبائل ربيعة وحير . ومنهم من يقلب الكاف شيناً فيقول غلش في عليك و (ليش اللهم ليش) في ليك اللهم ليك .

(٢) والكسكسة وهي قلب كاف المذكور سيناً فيقولون (مس وعلس) في مك و عليك .

والمنعنة (١) والمجمعة (٢) والجمعة (٣) والاستنطاء (٤) والطمطمانية (٥) والوتم (٦)

نما هو مشروح نكتاب مميزات لغات العرب لحفنى بك ناصف المصرى .
وأهل مكة كلهم مسلمون ، ولا يدخلها غير مسلم من السنة التاسعة للهجرة التى نزلت
فيها الآية الشريفة (يا أيها الذين آمنوا إنا ننبأكم أن المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم
هذا) . وكان على بنادى فى الموسم الذى أعقب نزول هذه الآية الشريفة بقوله : (ألا لا يحج
بعد عامنا هذا مشرك) . وكان المراد بذلك مع المشركين من الحج ، وعدم دخولهم البلد الحرام
الذى بها تيمم مناسكهم ، لانهم مع ما كانوا عليه من سوء الضمير وخبث الطوية ، كانوا يلقون
بذر الشقاق والغل بين قبائل العرب المسلمين ، ويوغرون صدورهم ، بقصد التفرقة
التي يكون من ورائها الضعف . فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت
العرب فى أطراف الجزيرة بعد عشرة أيام من بيعة أبى بكر ، وذلك بتأثير المشركين منهم ، حتى
بلغ من أمر هؤلاء أن ادعى البوثة منهم طليحة فى الشمال ، ولهيعة فى اليمن ، ومسيلمة الكذاب
مع سجاح فى النجاشة (شرق بلاد العرب) وقام غيرهم بالدعوة لنفسه فى وسط البلاد .
هنالك استنفز أبو بكر المسلمين الى قتال أهل الردة ، وبعث اليهم بأحد عشر لواء ، وأمرهم

(١) المنعة هى قلب الهمزة اذا وقعت فى أول الكلام عينا فكانوا يقولون (عك) فى الك ،
(وعك) فى أ ب ، (وعلم فى أ س ل) وكاتب فى قيس ونعيم .

(٢) المجمعة أو (المجمعة) هى قلب الحاء عينا مثل دولهم (عى حى) فى حى (والاعم الامر خير
من الاعم الابيض) فى اللحم الاحمر خير من اللحم الابيض ، وكاتب فى هديل .

(٣) الجمعة هى قلب الياء حينا وكاتب فى نضاعة ومهم المائل :

يارب ان كتب فمات حجاج (حجي) * فلا يزال سابق بأتيك مع (نى)

(٤) الاستنطاء هو قلب العين نونا كقولهم أنطى فى أعطى وكاتب فى سعد .

(٥) الطمطمانية وكاتب فى حمير هى قلب لام العريف ميم كقولهم (طاب امهواء) فى طاب
الهواء (وايس من اميرام صيام فى امسفر) فى لاس من البر الصيام فى السفر ، وهذا موجود فى فلاحى
مصر فيقولون (امسارح) فى البارح .

(٦) الوتم هو قلب السين ناء نحو قولهم (المات بالاب) فى الناس بالناس . ومارن كاتب قلب الميم

ناء والباء ميم فيقولون (مات الميم) فى مات الميم .

أن يحاربوهم ولا يقبلوا منهم غير الاسلام . فساروا وألبوا في قتالهم بلاء حسناً ، وخصوصاً جيش خالد بن الوليد الذي كان له الفضل الا كبر في رجوع الناس الى الاسلام .

وبعد وفاة أبي بكر سار عمر على طريقه في تطهير بلاد العرب ممن كان على غير دين الاسلام ، لانهم أهل البلاد الذين هم عزها وبهم يكون خيرها وأشرها وبهم تكون سعادتها أو شقاوتها . وسار على سنده من أتى بعده من الخلفاء الى اليوم . لذلك ترى الآن أهل الحرمين أنفسهم يببالغون في مراقبة الأجانب الذين يفدون الى بلادهم فلا يتعدى جدة وينبع وصنعاء جنوباً ومحطة العلا شمالاً أحدهم الا جاب بالمرء وان فعل ما هو الا مورط بنفسه الى حتفه من أهل البلاد . ولذلك فان الأجانب من عمال السكة الحديدية الحجازية ما كانوا يغادرون هذه المحطة ، لجهة الجنوب ولول ضرورة .

أما أفراد الفرنجة الذين قصدوا مكة أو المدينة في أزمنة مختلفة ، وكتبوا عنهم ما كتبوا على حسب نزعاتهم سياسية أو دنية أو عمرائية أو جغرافية ، انما كانوا يترجون بزي المسلمين بعد أن يعرفوا اللغة العربية ، ويدعون أنهم على الدين (١) الاسلامي ونحصر بالذكر منهم

(١) ولا أرى اثناً لهذا الامر غير أن أدكر لك صورة الاعلام التي رعى الذي اسجرحه يرتعون لنفسه من مكة (وكان سمي نفسه عبد الله بن السمر) أوهم فيه محرره أنه على دين الاسلام وقد أخذت صورة هذا الاعلام بالخطوط عرافيا ووصفت في صفحة ١٥٢ من كتابه الذي عناه (سياحتي الى مكة) وهاك هي نصها .

— اسم الله الرحمن الرحيم —

والصلاة والسلام على النبي . القائل علماء أمتي كاسياء بني اسرائيل . عليه وعلى آله أجمعين . ندوة العلماء الاعلام . وعمده الفصل الخامس . حلال المشكلات ومزيل المعصيات سداً وأحيانا في الله الشيخ ابن دأكور حفظه الله آمين .

وبعد اهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقد ورد اليها من أراد الله له بالسعادة الدنيوية والاخرية عبد الله بن السمر بدحو له في الاسلام فأعما المطر في حاله فوجدناه مؤمناً حملاً راعياً عاه الرعة في الاسلام . هذا ممن يلزمه الاعساء بشأنه من عرض أحكام الاسلام عليه وتعلمها له ولو كانت مدة جلوسه سبع ذلك لعلنا معه ما يكون سداً لكل خير ولكنه أسرع بالمسير فلم يركب كل من له رعة في الاسلام ان يقوم بشأنه من تعلم ما يحاج اليه وقد أشار لي بأن الرعة اليكم أكثر فأترجى على ساداتكم أن تقوموا بشأنه لاحرماً الله وانكم من الاحر ودمتم في خير وسرور .

محمد عابد ابن المرحوم الشيخ حسن
معي المالكية

٧ ربيع الثاني

سنة ١٣١٢

بوركارا السويسرى ، وورتون الانكليزى ، وهـو رجب الهولابدى ، وكورتلمون الفرنساوى ، وأولهم هو أسبهم الى التورط بنفسه فى بلاد العرب . وبوركارا سويسرى الجنس لوزانى المولد (Lausanne) وفد الى مصر ودخل الازهر بعد أن ادعى الاسلامية وسمى نفسه ابراهيم المهدي ، وتعلم فيه العربية ثم سافر الى بلاد العرب وأقام بها نحو سبع سنين ، وكتب عنها كتابه الذى هو أحسن ما كتبه الفرنجة فيها خصوصا فى صفة بلاد العرب وفبائلها ، ومات فى مصر على زبد الاسلامى ، ودفن فى قراقة باب الفتوح بجوار قبسة الشيخ بونس ، ولا يزال قبره موجوداً بها ومكتوب على شاهد ترشبه هذه العبارة :

هو الباقي

- « هذا قبر المرحوم الى رحمه الله تعالى الشيخ حاج »
- « ابراهيم المهدي بن عبد الله بوركارا اللوراني تاريخ »
- « ولادته ١٠ محرم سنة ١١٩٩ وتاريخ وفاته الى رحمة »
- « الله بمصر المحروسة في ٢٦ دى الحجة سنة ١٢٣٢ هـ . »

ومن عوائد اشراف مكة ان كراءهم يرسلون أولادهم وهم فى نعومة أظفارهم الى البادية وخصوصا الى قبيلة عدوان التى توجد فى شرق الطائف وهى قريبة من سعد التى أرضع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدشئون فيها على البداوة التامة مع الأمية الصرفة حتى اذا ترعرعوا عادوا الى مكة وقد تعلموا بعض لغات البائل وحفظوا من اشعارهم وأخذوا من عوائدهم وطبائعهم ، وأحسن ما تراه فيهم الروسية والحريدى فى المول والفعل وهذه العادة قديمة جدا فى القوم ، ومما يدكر عن الرشيد انه رأى ولده المعتصم وهو صبى يتأفف من الذهاب الى الكتاب فمنعه منه وأرسل به الى البادية فما زال بها حتى عاد منها عارفا بلغتها عالما باخبارها حافظا لكثير من اشعارها وقدولى الخلافة وهو على أميته .

ومن عادة شريف مكة أن يجلس للحكم فى دار الامة كل يوم من الساعة الخامسة تنهارا الى قبيل العصر ، فتعرض عليه المسائل الهامة وهناك يستعد الى التوجه الى الحرم فى ركبة

بسيطة فيصل إلى العصر، وكثيرا ما يجلس بالحرم حتى يصلى المغرب ثم يعود إلى قصره فيتناول العشاء مع من يريد من بنيته وخاصته وضيوفه .

ومن عادته أنه يجلس صباح يوم الجمعة في دار الامارة للمقابلات، فيفد عليه والى وكبار الموظفين ثم أعيان مكة وجوهرها، وبعد السلام عليه يذهبون إلى السلام على والى .
ومن عادته أن يصلى الجمعة في الحرم حتى اذا كان في الطائف ينزل منها في موكبه فيصل إليها فيه وبعد العصر يعود إلى مصيفه .

ومن عادة أهل مكة التأق في المأكول والمشرب واللباس، وتكثر في لباسهم الألوان الزاهية الباهية وخصوصا الأحمر والأخضر والأزرق والوردى . وترى في مساكنهم كثيرا من أدوات الزخرف والزينة والرياش الثمينة وخصوصا البسط العجمية النادرة المثال .
ومن عادتهم تقديم الشاي في أى وقت تحية للقدام عليهم ، واقامة المآدب في حفلة يسمونها قيلة (لعلها آتية من الميلولة) ويتناخرون بكثرة صنوف الطعام المتغايرة في شكلها وطعمها وليس لأطعمتهم نظام مخصوص فمنها الهندى والعربى والشامى والمصرى والتركى .
ويفعد المدعوون في هذه الولائم على سباط يمد على الأرض وتخدم عليهم الألوان لوانا بعد آخر ، وبعد فراغهم من الطعام يجلسون للسمر أو سماع بعض الأغاني وآلات الطرب كالعود أو القانون أو الرباب ثم يصرفون . وعالبا تكون هذه الحفلات في ضواحي مكة كالزاهر والشهداء وهنالك يكررون إليها ويقضون يومهم في سرور وحبور وألعاب رياضية كالمسابقة بالحرى أو ألعاب السكره أو النرد أو الشطرنج مثلا .

ولأهل كل حارة من حارات مكة عادة مع أمبرها: ذلك أن يجتمعوا ويدعوا الشريف إلى وليمة يقيمونها كل سنة في أحد منازعاتهم خارج مكة ، فادأقبل منهم ذلك عتین يوم الوليمة وفيه يذهب مع خاصته الدين يدعوهم للتوجه معه في موكب نفيم تحرى أمامه خيالة الأعراب والبيشة ، والباس يهتفون له نفوهم دائما - (يعيش) حتى اذا وصل مكان الدعوة جلس مع من أراد . وفي وقت الغداء تمد الموائد على النظام الافرىكى والتركى والعربى ويجلس الشريف ويدعو خاصته للاكل معه ، وبعد الطعام تلعب الأعراب بألعاب الفر وسية : تارة

بالحناجر وأخرى بالسيوف إلى آخر النهار . وبعد فترة من الليل يعود الشريف في موكة إلى مكة .

ومن عوائد أهل مكة أنهم يأكلون مرتين في اليوم : واحدة في نحو الساعة التاسعة صباحاً ، والأخرى بعد صلاة العصر . وهم يميلون إلى الأبهة والنفخنة كثيراً ، ويميل صغارهم كبيرهم في التظاهر بالكرم والشجاعة ، خصوصاً في شهر رمضان . وقد كانوا يفطرون في الحرم بعد صلاة المغرب ، فيمدون فيه الموائد هنا وهناك ، لا سيما في رمن الحر ، ولكن الشريف عون الرفيق أبطل هذه العادة (وحبراً فعل) : لأن فضلات الأكل كانت توسخ المسجد فتكثر فيه الحشرات والعطط وغيرها . ومن عوائد كثير منهم أنهم يشربون وجبات صبيهم ثلاث شرط في كل جهة . وسأؤهم يدخن بالترجيلة ، والزائر يشوفهم كثيراً ، وبعضهم يخرج إلى الأسواق عملاءه واسعة سوداء في الغالب ، وبرقع كثيف فيه فبان صغيراً فيما يمايل العينين ، وفي أرحلهم أحفاف ضخمة لونها أصفر عالماً .

وأفراحهم وما آتمهم غاية في البساطة : ومن عوائدهم في زواجهم أنهم يدعون الأهل والمحمين مساءً ورحلاً ، فأتى الرجال ويجلسون في الأماكن المعدة لهم خارج البيت ، ووقت العشاء يمد لهم سباط مستطيل يجلسون عليه جميعاً مرة واحدة فيأكلون ثم ينصرفون . أما النساء فمدخلن البيت فيجدن على باب قاعة الجلوس قصعة كبيرة مملوءة بمعجون الحناء ، فتحني المرافيد أمن يديها ثم تدخل إلى المكان وبعد السلام تجلس على هذه الحال مع باقي النسوة ، ولا يزالن يجادن أطراف الحديث إلى منتصف الليل ، وهناك يزفن العروس إلى عملها ، ثم يمدن إلى بيوتهم بعد أن يضعن في عنقهن عفوداً كثيرة من زهر الفل أو تمر التفاح وهو في قدر البندق .

أما ما آتمهم : فعند موت الميت تصرح امرأة من أقرب الناس إليه صرخة واحدة أو صرختين إعلاناً بالمصيبة فتتوافد عليها النساء ، فيجدن قصعة الحناء بجوار قاعة الجلوس فتحني كل واحدة منهن يد أمن يديها ثم يدخلن القاعة ، وبعد أن يعزبن صاحبة الفقيد كلمات قليلة يجلسن يأخذن في الحديث في شؤون محتلمة ثم ينصرفن . أما الميت

فيأخذه بعض أقاربه ويدفونه بغير احتفال كبير ، وبعد دفنه يتوارد الرجال على أهله فيعزونه وينصرفون لوقتهم . ومن عوائدهم انهم يحتفلون احتفالاً كبيراً بجنم أولادهم للقرآن الكريم ويسيرون بهم بموكب عظيم في طرق مكة . ويحتفلون في منتصف شهر صفر بمولد السيدة ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عند مدفنها بالزاهر على مسافة نحو سبعة كيلومترات من مكة على طريق المدينة ، فينصبون خيامهم في تلك الصحراء ويتفخرون بكثرة الطعام والشراب . ويحتفلون بمولد النبي صلى الله عليه وسلم في ربيع الاول . ويعبرون عن المولد بالحوّل : فيقولون حول ميمونة ، وحول النبي . وفي شهر رجب يحتفلون بزيارتهم للمدينة المنورة .

ومن عاداتهم الاصطياف في الطائف ويرتفع عن سطح البحر بمسافة ١٥٥٠ متر ، والهدى فوق جبال كرا ويرفع عن سطح البحر بمسافة ١٧٦٠ متر وفيه جنان كثيرة تحرى من تحتها الانهار فيها ما يشتهون من اثمار وأزهار . وأشهر مصيف في الطائف يسمى شراوهولا شراف ذوى عون أنشأه الشريف عبد الله باشا وسماه باسم شرامصر ، ثم حدائق المثناة وهي لذوى غالب : وهي أحسن حدائق الطائف ومشهورة بخوخها وعنبها ، وماؤها أعذب مياه تلك الجهة . وللطائف طريقان : طريق القافلة ^(١) ويبعد عن مكة نحو ٣٦ ساعة ، وطريق ^(٢) المغال على جبل كرا وهو على نحو نصف هذه المسافة . ومدينة الطائف ^(٣) مشهورة بطيب هواؤها وليس أحسن منها الا جبل الهدى الذى يبعد

(١) مكة . بئر البارود (شمالى مى) . وادى اليمامة . السولة (وهي مداسوق عكاظى الحاهلية) . البية مدبر . أم حمس . الحيم (القيم) . الطائف .

(٢) مكة . مى . عرقه . وادى سمار . وادى العمان (ومنه يندى بحرى عن ريبة) . نهوة شداد . وادى خريف الرأس . أبو حراجل . السكر . مجمع الدروب . عن المثل الهدى (وفي جبل الهدى كثير من القرود الصغيرة والوحوش الصارية من سباع وغيرها) . وادى محرم (وهو ميقات احرام أهل الشرق واليمن وحصر موت وعثمان) . بئر السكر . الطائف .

(٣) ويحيط بالطائف سور عليه عدة أبراج أشهرها القلعة الى باها عثمان المصايب عامل الوهايين على الطائف ، وفيها يسجن المفسون الى الطائف من رجال الدولة العلية : وأشهر من سجن فيها ومات بها زمن السلطان عبد الحميد شيخ الاسلام خير الله أفندي (الذي أفى تلج السلطان عبد العزيز) ، ومحمود باشا الداود (صهر السلطان عبد العزيز) ، وأحمد مدح باشا الشهير ناني الدستور .

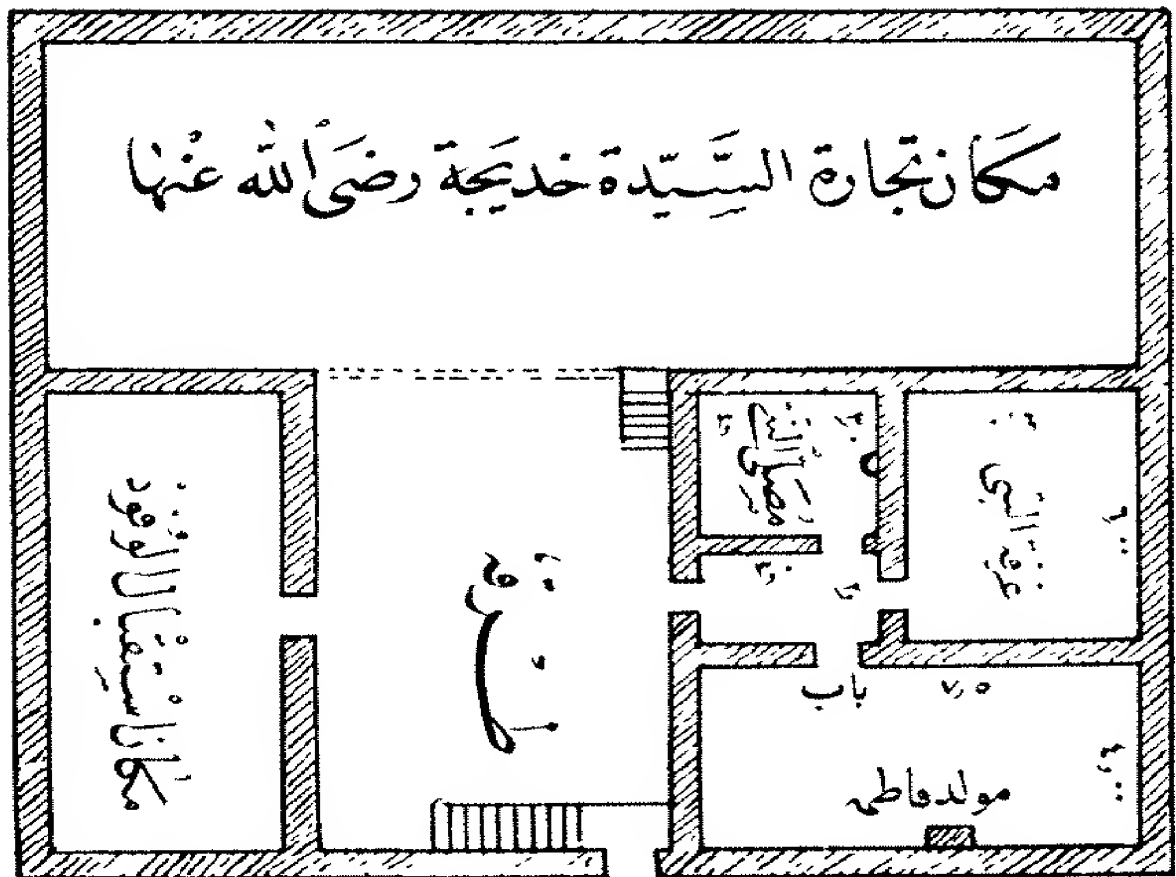
عنها نحو ثلاث ساعات الى مكة، وأهله مشهورون بجمال خلفتهم وعمومة بشرتهم وينسبون ذلك الى شربهم من نهر هناك يسمونه المعسل بالعون في حلاوة طعمه . وفي الطائف قبر السيدين : الطاهر ، والطيب ، ولدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبر سيدنا عبد الله بن العباس ، ويقصده اليمانيون لزيارته قبل الموسم وله على الخصوص عندهم احترام كبير . وكان بهاز من الجاهلية معبد اللات والعزى ، وكانت تدين مهمات قياف وغيرها من المبائل المحاوره للطائف . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب اليهم في أول نبوته وطلب منهم نصرته فأبوا عليه ذلك .

ويتخلف عن الحج كثير من أهل مكة ويفيمون فيها للمحافظة على دورهم من اللصوص الذين يكثرون في هذه الآونة فيقطعون ليلهم سهرأً بين اطلاق سادقهم من كل الجهات اعلانا بأنهم يفظون لكل من قصدهم سوء .

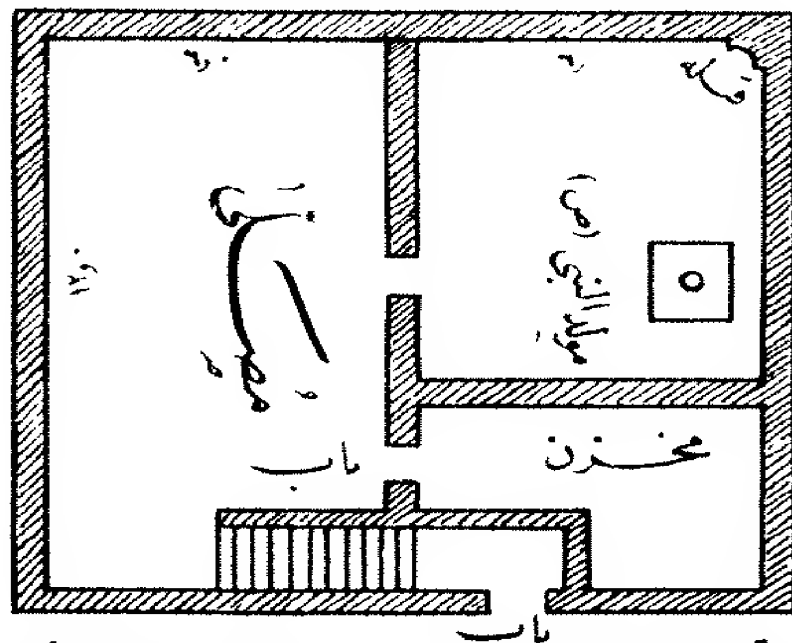
ويوجد بمكة وخارجها مزارات كثيرة منها مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد علي ، ومولد فاطمة ، ودار الخيزران .

أما مولد النبي صلى الله عليه وسلم فهو في شعب بني عامر أو شعب المولد : وهو مكان ودار تقع الطريق عنه نحو متر ونصف ، ويزل اليه بواسطة درجات من الحجر توصل الى باب يفتح الى الشمال يدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثني عشر متراً في عرض ستة أمتار ، وفي جداره الايمن (الغربى) باب يدخل منه الى فبة في وسطها (بميل الى الحائط الغربى) مفعصور من الخشب ، داخلها رحامة وقد فخرجوها لتعيين مولد السيد الرسول عليه الصلاة والسلام . وهذه القبة والفناء الذي خارجها لا يزد مسطحهما عن ثمانين متراً مربعاً ، وهما يكوّنان الدار التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان السيد الرسول وهدب هذه الدار لعفيل بن أبي طالب ، فباعها ولده لمحمد بن يوسف الثقفي (أخى الججاج) ، فلما بنى داره

والداماد ومدح مدقوان حاب نصهما فكان يقال له الجزيرة خارج السور على مسافة من باب سيدنا عبد الله بن العباس . وقد أقيم على قبرها أحيراً قمة فحيمة سنة ١٣٢٧ وقرشت بالرياش التيمية بمعرفة شعبة جمعية الاتحاد والترقي بمكة .



رسم نظري تقريبي لبيت السيدة خديجة المشهور بمولد السيدة فاطمة (بمكة)



رسم نظري تقريبي لمولد النبي (ص) اودار عبد الله بن عبد المطلب (بمكة)

المشهور بدار ابن يوسف وكانت بجوارها أدخلها فيها ، حتى اشترتها الحيزران أم الرشيد وفصلتها وبنتها على ما كانت عليه وجعلتها مسجداً ، وهي باقية كذلك الى يومنا هذا .
و يقرب من مولد النبي صلى الله عليه وسلم مولد سيدنا على رضى الله عنه وهو على شكل سائقه الا أنه أصغر منه .

أمام ولد السيدة فاطمة في درب الحجر : وهو دار خديجة بنت خويلد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها ولدت جميع أولادها منه . وقبل بعثته صلى الله عليه وسلم كان يعمل في تجارتها الى الشام ثم اختارته لنفسها لما كان عليه صلى الله عليه وسلم من كمال الصفات وصفات الكمال ، فتزوجها في سنة ٢٨ قبل الهجرة أعني قبل بعثته بخمس عشرة سنة . وماتت خديجة بمكة رضى الله عنها قبل الهجرة أربع سنين وهي في الرابعة والستين من عمرها . وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق أيضاً ، فيزل إليها بجملة درجات توصل الى طريقة ، على يسارها شبه مصطبة مرتفعة عن الارض نحو ثلاثين سنتيمتر ومسطحها نحو عشرة أمتار طولاً في أربعة عرضاً وفيها كتاب يقرأ فيه الصبيان القرآن الشريف ، وعلى عينيها باب صغير يصعد اليه بدرجتين يدخل منه الى طرفه ضيقة عرضها نحو مترين وفيها ثلاثة أبواب : الذي على اليسار لغرفة صغيرة يبلغ مسطحها ثلاثة أمتار طولاً في أقل منها عرضاً ، وهذا المكان كان معداً لعبادته صلى الله عليه وسلم ، وفيه كان ينزل الوحي عليه ، وعلى عين الداخل اليه مكان منخفض عن الأرض يقولون انه كان محل وضوءه عليه الصلاة والسلام . والباب الذي في قبالة الداخل الى الطريقة يفتح على مكان واسع يبلغ طوله نحو ستة أمتار في عرض أربعة ، وهو المكان الذي كان يسكنه صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة رضى الله عنها . أما الباب الذي على اليمين فهو لغرفة مستطيلة عرضها نحو أربعة أمتار في طول نحو سبعة أمتار ونصف ، وفي وسطها مائدة صغيرة أقيمت على المكان الذي ولدت فيه السيدة فاطمة رضى الله عنها ، وفي جدار هذا الغرفة الشرقي رف موضوع عليه قطعة من رحي قديمة يقولون انها من رحي السيدة فاطمة التي كانت تستعملها في حياتها . وعلى طول هذا المسكن والطريقة الخارجية والمصطبة من جهة الشمال فضاء مرتفع بنحو متر ونصف يبلغ طوله نحو ستة عشر متراً وعرضه نحو سبعة أمتار ، وأظن أنه المكان الذي كانت السيدة خديجة تحزن فيه تجارتها .

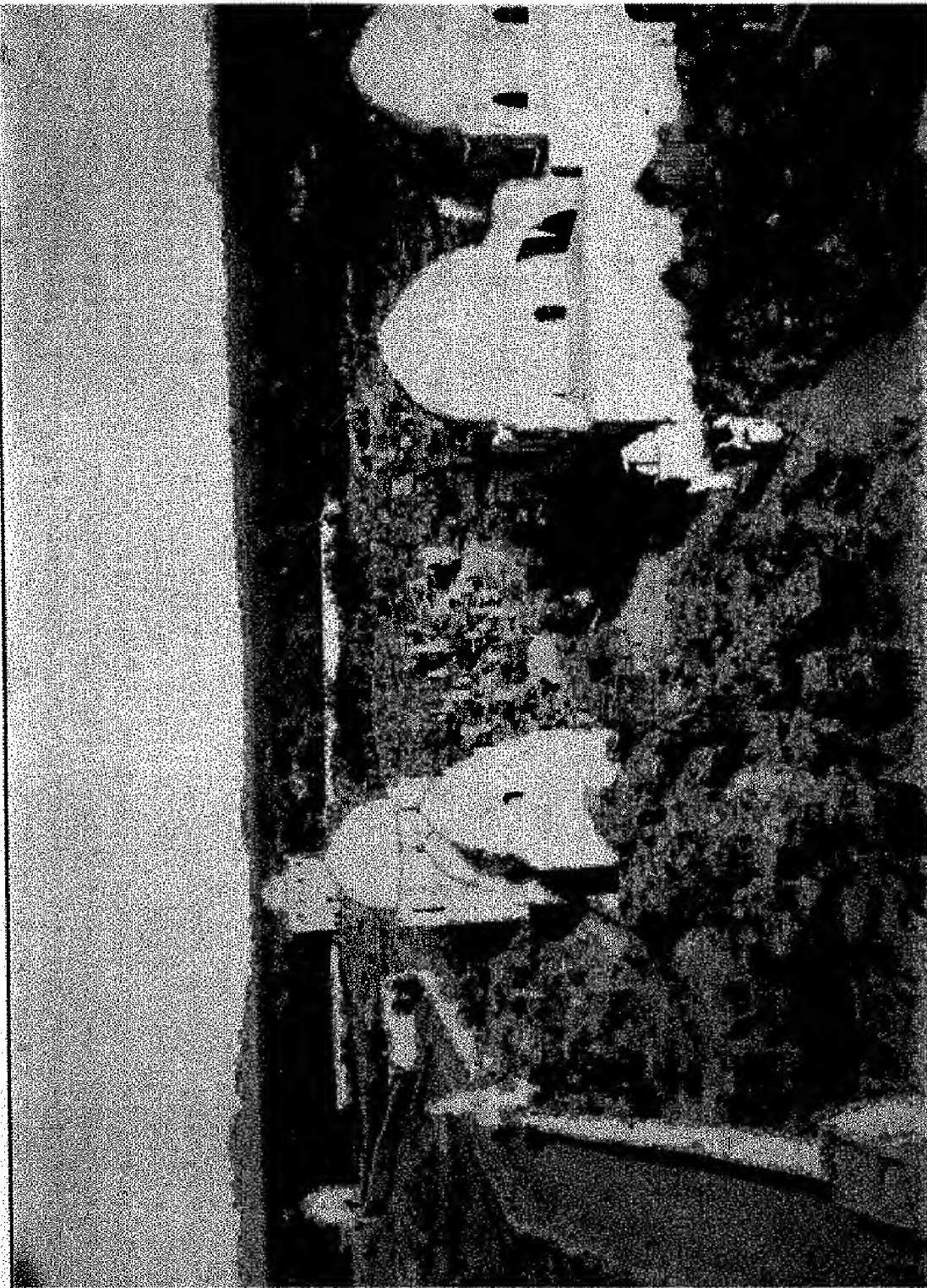
وهذه الدار التي كانت مقر آل صلى الله عليه وسلم ومحل اقامته في مكة ومبعثه الى الخلق كافة اذا انعمت بها نظرك وامنت فيها وكرهك لا رها الا البساطة بنفسها : دار تحتوى على أربع غرف ، ثلاث داخلية : منها واحدة لبنته ، والثانية له ولزوجه ، والثالثة له ولربه ، والرابعة يعزل عنها له ولعموم الناس . يا لله ما هذا الترتيب الحيل وما هذا النظام البديع ؛ بل ما هذه الآداب الكرى والكمالات الحيوية العظمى التي صيغت في شكل هذه البساطة المتناهية ؛ تأمل قليلا تر أن هذا النظام هو بداته ما قضت به المدينة العصرية لولا أنه يعمل فيها بشكل تعددت صفاته وكثرت حاجياته ! هذه هي دار السيد الرسول الذي أرسل للناس كافة ! نعم هذا هو منزل هذا النبي الامي وذلك هو نظامه في بته : ذلك النظام الذي وان كان محرداً عن مظاهر العظمة والمهامة فمدا كنسى بحلى الحلال والكمال ! اللهم انى آمنت بك وبرسولك هذا الذي لم يتخذ دينك وسيلة الى عيش الا غنياء وحياة العظماء ، بل كان حسبه من عيشه ما كان يقوم بحياته التي إما كانت كلها خيراً أو بركة و غناً وسعادة للناس أجمعين .

ولما هاجر صلى الله عليه وسلم الى المدينة استولى على هذه الدار عفيف بن أبي طالب ، ثم اشتراها منه معاوية بن أبي سفيان فجعلها مسجداً ، وعمرت في زمن الناصر العباسي . وقد وضع في حائط الطرقة الخارجية على يسار الداخل لوح من الرخام مكتوب عليه بالحروف البارزة : « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمار مر يد مولد الرهراء البتول فاطمة سيدة نساء العالمين ست الرسول محمد المصطفى المختار صلى الله عليه وعلى آله وسلم سيدنا ومولانا الامام المفترض للطاعة على الخلق أجمعين ، الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، أعز الله أبصاره ، وضاعف اوقداره ، وجعل منافعه ومشغلاته وأجره عائد على مصالحه ثم على مصالح هذا الامام الشريف المقدس الطاهر النبوى ، على ما يرى الناظر المتولى له في ذلك من الحظ الوافر ، والمصلحة لهذا المار بدو المولد المقدس المذكور بعد ذلك ابتغاء وجه الله تعالى » طبيا الثواب الدار الآخرة . تفبيل الله ذلك منه وجزاه عليه أجر المحسنين . وذلك على يد العبد الفقير الى رحمة الله تعالى على بن أبي البركات الذوراني الأبارى في سنة أربع وستين ومائة ومن غير ذلك أو بدله عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين الى يوم الدين آمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آل الطاهرين . »

ثم عمرها بعد ذلك الأشرف شعبان ملك مصر ثم الملك المظفر صاحب اليمن ثم السلطان سليمان في سنة ٩٣٥ .

أما دار الأرقم المخزومي المشهورة بدار الخيزران فهي في زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا: وهي الدار التي كان يحتج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر بعثته هو ومن آمن معه ، وكانوا يصلون بها سراً حتى أسلم عمر رضى الله عنه فقويت به عصبيتهم وجهروا بالاسلام والصلاة . وباب هذه الدار يفتح الى الشرق ويدخل منه الى فسحة سماوية طولها نحو ثمانية أمتار في عرض أربعة ، وعلى يسارها ليوان مسقوف على عرض نحو ثلاثة أمتار ، وفي وسط الحائط التي على يمينها باب يدخل منه الى غرفة طولها ثمانية أمتار في عرض نحو نصف ذلك مهر وشة بالحصير وفي زاويتها الشرقية الحنوية حجران من الصوان موضوعان فوق بعضهما مكتوب في أعلاهما بالحرف البارز « بسم الله الرحمن الرحيم في بيوت أدن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاصال هذا محتباً رسول الله ودار الخيزران وفيها مبتدأ الاسلام أمر بتجديده الفقير الى مولاه أمين الملك مصلح انتفاء ثواب الله ورسوله ولا يضيع أجر المحسنين » . ومكتوب في الثاني : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا محتباً رسول الله صلى الله عليه وسلم المعروف بدار الخيزران أمر بعمله واشاءه العبد الفقير لرحمة الله تعالى جمال الدين شرف الاسلام أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الاصفهاني وزير الشام والموصل الطالب الوصول الى الله تعالى الراجي لرحمته أطال الله في الطاعة هاه وأباله في الدارين مناد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة » .

ومن الأماكن المقدسة عار حراء : وهو الغار الذي كان يتعبد فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، ومساحته تقرب من ثلاثة أمتار في مترين ، ويوجد في قمة جبل النور الذي على يسار السالك الى عرفة ، وفيه نزل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم لأول مرة . ثم جبل ثور وهو الى الجنوب من جهة المسفلة وعلى ساعتين منها ، وفيه الغار الذي اختفى فيه رسول الله مع صاحبه أبي بكر حين قصد الهجرة الى المدينة ، ومساحته نحو مترين مربعين . ثم المعلي . وهي مقبرة مكة وتوجد خارج بابها الشرقي ، وفيها ضريح السيدة خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وهو داخل قبة تجددت سنة ١٢٩٨ ، وفي القبة مقصورة من خشب الجوز



حیات المعانیمة المکرمة فیها قوتا السیة امنة والسیمیدین
وعلی اھما قبا عبد المظاہر فی طابریة غیر حرامین فی حشرها

أقيمت على قبرها الشريف، وإلى جانبها مقصورة صغيرة مدفون فيها ستة عشر شخصاً من الأشراف . وحارج هذه القبة إلى الغرب قبر السيدة الكبيرة حرم ساكن الجنان محمد على باشا، وكانت قد أتت إلى الحج سنة ١٢٦٦ هـ ماتت ودفنت بهذا المكان . وقباله قبة السيدة خديجة إلى الجنوب قبة السيدة آمنة ^(١) بنت وهب والد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبحوارها مقصورة دفن فيها الشريف محمد بن عون . وفي شمالها قبة أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وبحوارها قبة جده عبد المطلب، وكلتاهما تحددتا في سنة ١٣٢٥ هـ . وفي هذه القرافة قبر سيدنا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وكانت له قبة هدمها الشريف عون الرقيق فيما هدم ولم تشيد بعد، وفيها قبر أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين وكان قد حضر إلى مكة حاجاً في سنة ١٥٨ هـ مات ودفن بالمعلى ولا يعرف مكانه . وفيها غير ذلك كثير من قبور الصحابة والتابعين والصالحين رضوان الله عليهم .

ومن المزارات بمكة أيضاً مسجد الحن، ومسجد الراية، ومسجد الاجابة، ومسجد البيعة، ومسجد أنى نكر، ومسجد عمر، ثم جبل أبي فريس وفيه مسجد بلال، ومسجد الشقاق النمر، وزاوية السنوسى ^(٢) الذى له فى الحجاز شأن كبير ومقام خطير ومعظم الأعراب على شيعته .

(١) ذكر ياقوت فى معجمه أن آمنة بنت وهب أم النبى صلى الله عليه وسلم دُفِنَ بالأنواء وهي قرية من أعمال الرى من المدينة، بها وبين الحجة مما إلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً . والسبب فى دفنها هناك أن عبد الله والد الرسول كان حرج إلى المدينة فمات ودفن بها . وكانت فى كل عام تخرج إلى المدينة لزيارة قبره، ولما أتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب سبب خرب راثرة له ومها عبد المطلب وأم أيمن حاسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صارت بالأنواء مصرفة إلى مكة ماتت ودفنت بها .

(٢) أهالي مكة أغلبهم على طرقة السنوسية، وكثير منهم على طريقة يسمونها الرشدية وهم أتباع الشيخ إبراهيم الرشيدى، والادريسيه وهم اتباع الشيخ أحمد بن إدريس، والمرغية وهي شائعة فى السودان ومصر .

وفي مكة مكان للتغراف والبوستة بناه المرحوم عثمان باشا نوري عند بنائه لدار الحكومة (الحميدية) وغيرهما منذ كان واليا عليها الاول مرة سنة ١٨٨٢ ميلادية . والتغراف في هذه المدينة لا نظام فيه للمرة لعدم وصول غالب الاشارات التي ترسل من وإلى أربابها ! ولعل ذلك ناشئ من كثرة الاعمال في زمن الحج : أما البوستة فشئ لا نظير له للمرة في بوسطات العالم : فان المكاتب تحضر في زمن الموسم من جدة الى مكة على الحال في عدة زكايب ، فتلقى في طريقة مكتب البوستة الضميمة ، ويأتي المطوفون أو صبيانهم أو الحجاج أنفسهم فيفررونها ويأخذ كل ما يعثر عليه صدقة باسمه أو باسم معارفه ، وعليه فاغلب الخطابات لا تصل الى أربابها . وأظن أن هذا النظام أو اللانظام لا مبرر له للمرة ، لأن الحكومة العثمانية في استطاعتها أن تكثر من عمال البوستة في موسم الحج وإذا فرضنا أنها عيت بصفة ظهورات عشرين عاملا لهرز هذه المكاتب مدة الموسم وتوزعها على أربابها فلا يكلفها ذلك شيئا يذكر . ولو قلنا ان الزمن الماضي كان زمن فوضى لا نظام له فانا لا يمكننا أن نقول هذه الكلمة في الحكومة الحاضرة ، وإن أمكننا فلا نحب أن نقولها . وليست هذه الحال خاصة مكة ، بل تراها بالمدينة وينبع وجدة ، وعليه فمرجو من حكومة الحجار العناية بتنظيم البوستة قياما بواجب رد الامانات الى أهلها حتى لا تضيع الفائدة المقصودة منها .

وفي شوارع مكة كثير من المهاوى البلدية التي ترى في دوائر هادكا وكراسي من الخشب مقاعد هامة مصنوعة من شبكة من الليف أو الخوص المجدول وأحسنها في جهة جياد ، فيجلس عليها المجاح وخصوصاً فيما كان منها خارج البلد مدده الصيف ، ويشربون بها الشاي (ويسمونه الشاهي) ^(١) والقهوة ^(٢) والرجيلة التي يجهزونها بالتمباك الحمي عادة لكثرة استعماله هناك . ولقد رأيت بعض الهنود يمر على هذه المهاوى وهو ينادي قائلا « كابوس

(١) وأظن ان هذه الكلمة نسبة الى شاه الفرس لاسعماله هذا الشراب كقولهم شراب ملوكي مثلاً وربما أتى من هذه النسبة اسم ذلك القماش الحريري المشهور « شاهي » .

(٢) القهوة عندهم من الشاي ، وكبرائهم يصيغون عايبها كثيراً من المسهاب مثل الخهان والقرنفل وبعض المطريات مما يحمل لها سكرة لطيفة جداً ويسمون بها دوش ومن أعاني البدو: يادوش ما اسمك دوش اسمك دواء السكل كد عليه .

كابوس» (مكبساتي) ، فاذا استدعاه أحد من فيها فرشه على دكة وأخذ يكسه بمهارة فائقة نحو نصف ساعة على الأقل في نظير قرش أو قرشين . ويقرب من هذه القهاوى عادة سوامر يوم فيها بعض أناس في الغالب من اليمنيين يتغنون بأغنية جميلة تطرب منها النفوس وكلها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم . وفي بعض الأحيان ترى هؤلاء المغنين متنقلين في طرق مكة .

وفي مكة ثلاث تكايا أو كرها وأخرها وأنظمها أو كثرها موزداً التكية المصرية: وهي بناء فخيم شيده المرحوم محمد علي باشا جد العائلة الكريمة الخديوية في مكان دار السعادة التي كانت محل حكومة بني زيد من الأشراف، كما كانت دار الهناء محل حكومة بني بركات وكانت توجد مكان دار الشريف أبي عي نجاب باب الوداع . وفي هذه التكية محازن وطاحونة ومحبر ومطبخ ومكان نظيف منظم لحضرة مديرها وأمكنة لمستخدميها، ويطبخ بها يومياً الشوربه للعفراء والمعمورين الذين يهدون الى بابها صاحبها لآخذها مع ما هو مرب لهم من الخبز الذي تقوم به حياتهم و يبلغ عددهم يومياً نحو خمسمائة شخص أو يزيدون (١) .

وفي مكة فلعمنان تحكان على المدينة ويسكن بها عساكر الدولة ، وهما قلعة جيا دالتى بناها الشريف سرور سنة ١١٩٦ هـ في الجهة الجنوبية، وقلعة الهندى التى بناها الشريف غالب سنة ١٢٢١ في الجهة الشمالية . وفيها حمامان على مثال الحمامات الرومية بمصر : واحد بالعمرة بنائه محمد باشا وزير السلطان سليمان سنة ٩٨٠ هـ ، والثانى بالقشاشية ويسمونه حمام السبي . وهما مطبعة للولايه وسمى باسمها . ويصدر فيها جريدته بالتركية والعربية اسمها (حجاز) وهي شبيهة بالرسمية وكل ما فيها تهرباً يتعلق باخبار الحكومة واعلامها .

وليس في مكة كتب حانات تذكر اللهم الا كتب حانه بسيطة في باب أم هانئ تسمى كتب حانه شروانى زاده محمد رشدى باشا والى الحجاز سابقاً، وأخرى في باب الدُرَيْبَة قرب

(١) وهذا العدد زاد حسب شرط الواجب في هذه الحج الى ثلاثه أصعافه، على انه ربما يقصد التكية من القراء في الموسم ما يريد عن ذلك كثيراً لأنها أعظم ملجأ للناس في مكة ولو كانت ادارته أوف الخرمين تريد في ميرانية هذه التكية ولو في مدة الحج كان ذلك من خبر أعمالها .

باب السلام تسمى بالكتبخانة السلطانية ، أسسها السلطان عبد المجيد وكونها من
شئات كتب الحرم وغيرها مما أرسله اليها من الاستاتة . ولكل كتبخانة من هاتين
فهرست بخط اليد ومفسر يوم بشؤونها . والكتب التي بهما محوية وفهنية وأدبية وتاريخية
وعالها باللغة العربية وفيها شئ بالفارسية والاوردية (الهندي) والتركية والجاوية (لغة الملايو) .
وفدكان بمكة كتب كثيرة مهمة وكانت موضوعة في دواليب في دائر حائط الحرم ،
سرق بعضها والسيول التي أغرقت المسجد وخصوصاً في سنة ١٧٤٤ صعدت الى هذه
الخزائن وأتلفت منها شيئاً كثيراً ، وكان في ذلك أكرم مصيبة على العلم والعلماء لاهم
ومدواهم اماً لا يصلحه الزمان ولا يعوضه الانسان .

وفيها مدرستان المدرسة الصولية ، بناها المرحوم الشيخ رحمة الله الهدي الشهير
(صاحب كتاب اطهار الحق) ، ويدرس فيها القرآن الشريف وعلم التجويد وشئ من اللغة
العربية والاعمال الحسابية والهندسية ، ويصرف عليها من تبرعات أهل الهند ، وهو أمر
لائت له ولا تدوم معه حياة مدرسة نافعة مثلها : لذلك أخذت في الانحطاط ، والامل
في حكومة الحجاز الموض بها ونامثالها . ثم المدرسة التي يومها حضرة الاستاذ الفاضل
الشيخ يوسف محمد الحياط ، وهو من علماء مكة الامثال ، ويدرس فيها ما يدرس في الاولى
بنوسعة ، وعمايه مولا بالامير بها كبيرة ولدك فالامل في نجاحها عظيم . ولقد قرأت بعدد
٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٨ من جريدة المعيد الغراء بملا عن جريدة صباح أن الحكومة
العمانية افتتحت مدرسة بمكة المكرمة محضو روالى والشريف وحمهور من الوجهاء
والاعيان فعمى أن يكون فيها الخير المرجو لأم القرى بل لأم العواصم الاسلامية .

ولو كان مولا بالامير يفضى بان يتخرج المطوفون من مدرسة مخصوصة يدرسون فيها
ما هو خاص بوظيفتهم لكان في ذلك أكر خدمة دينية ، لان جل الموجود منهم الآن يجمل
مأمورينه الكرى . وليت بعضهم يقف عنده هذا الحد بل يلتقى في دهن الحاح ما ليس من الدين
في شئ كسأله الكنفاني والزلباني مثلاً : وهما حجران في طريق جدة الى بحرة يزعمون أن
واحد منهما كان كنفانياً والآخر كان زلبانياً وكانا يغشان الحجاج مسحهما الله حجرين !!

ومسأله الناقة والحجام والحجامة بجبل عمر : ذلك أن هناك صخرة تشبه ناقة باركة وإلى جوارها حجران زعمون أن النبي كان هذا المكان يناقته فأى رجل حجج مع امرأته وامسك بالناقة التي لم تنهض برسول الله صلى الله عليه وسلم فمسخها الله معها على هذه الصورة !! ومسأله سارق الصندوق وهو صخرة إلى جهة جبل النور تنرب من صورة رجل يحمل صندوقاً يزعمون أنه كان سارقاً له فمسخه الله عليها !! وأمثال هذا كثير مما تحجب العناية بآلاته خدمة للدين المتين . والادهى من ذلك أنهم يحرفون الفاظ القرآن الكريم عمداً أثناء الطواف ، بتمخيمهم مالا يحوز تفخيمه أو ترقيمهم مالا يصبح ترفيقه ، بل منهم من يقلب الحرف ما آخر لتفر يبه إلى نطق السامع إن كان تركياً أو هندياً أو فارسياً ، فيقولون مثلاً « وكما عذاب النار » في قوله تعالى « وفاء عذاب النار » و « مه مد رسول الله » في محمد رسول الله و « يا أرحم الراحمين » في يا أرحم الراحمين و « اللوهم » في اللهم ومحو ذلك مما لا يحوز شرعاً ولا اجتماعاً .

ويدرس في الحرم الشريف بعض العلوم العربية والتفسير على الطريقة المديعة العفجية ، ويقدر عدد الطلبة ببضع مئات جلهم من الجاهل الدين يفرون إلى هذه البلاد من المظالم التي تتساقط على رؤوسهم من حكومة الادهم ، فتراهم يشغلون وقت الدرس في الدراسة ووقت القضاء منها يعملون فيه عملاً ينوم بحياتهم .

ويبلغ عدد المدرسين العاملين نحو الثلاثين ، وعنايتهم بالتعليم قليلة جداً ، وذلك لانه لا موارد لا رزاق ولا ن مرتباتهم التي تصرف لهم من طرف الدولة لا تقوم بأودهم ، لأنها تختلف من مائة إلى خمسمائة قرش غنائى سنوياً . ولما في الحكومة الجديدة ، حكومة الدستور ، حكومة العلم ، حكومة العمل ، وفي كبرهمة دولة السريف عظيم الامل في اسفال حال العلم بهذه البلاد في زمن قري ب إلى حال هيد القوم في دينهم وديارهم .

وتجارة هذا البلد كلها أو جلها في يد الا عراب خصوصاً الهنود ، وعالها من صنف العطريات والسبح والسجاجيد والامشة الحرير به الهنديه والشامية . والصناعة فيها غير مهمة وهي لا تخرج عن صياغة بعض قطع ذهبية أو فضية وخصوصاً في عمل الدبل التي يدعون

منفعها للبواسير شفاهم الله ! ! والحدادة عندهم بسيطة جداً ولكن هادقة في عمل الأسلحة وفيها من المصانع فاحورة لعمل الدوارق والملل وكل ذلك في يد الأجاب أيضاً . أما الاهالى فأغلبهم يعيش من مهنة التطويف أو التظاهر بالشعار الدينى ، ولا تروج تجارتهم الا زمن الحج ، وما يأتىهم فيه من رزق يعيشون منه طول عامهم . غير أن كثير أمهم يرحلون مكة بعد الموسم الى الجهات التى بها أناس ممن سميت معرفتهم بهم فى الحج ، فيفدون عليهم ببعض الهدايا ثم يعودون وقد أخذوا أضعاف ثمنها منهم .

والنقود التى تستعمل فى مكة هى النفود التركية والمصرية فضية أو ذهبية ، والروية والفروش الهندية والريال الشينكو وأبوطيره والريال الترم^(١) (الهاوى) وهو على أشكال مختلفة ، والحنه الانجليزية والفرنساوى والروسى . وليس لهذه النفود قيمة ثابتة هناك ، بل راهم يستعملونها على الدوام فى مصالحتهم ، فياً أخذونها منك بأقل من قيمتها ويعطونها لك بأكثر مما تساوى ، وهذا عيب كبير من عيوب المعاملات ! ! ولعل أرباب الأمر والنهى يجتهدون فى إزالته قريباً . والريال أبوطيره هو أكثر النفود استعمالاً عند الأعراب وفيتمه عندهم كالريال الشينكو والمصرى . ومما ياسب ذكره هنا أى أعطيت مره قطعة من النفود ممسوحة قليلا الى طفل صغير أعراى فردها الى قائلها هذه رطاء : وهى كلمة بدوية صرفة كان لها وقع عظيم على سمعى ' والأعراب لا يعرفون قيمة هذه النفود ، وإذا وجد معهم شىء منها يتوجهون به الى التاجر ويقولون له « سوبهده من الصنف الفلانى على أمانتك » ، ولا تهمهم جودة الصنف بل تهمهم الكثرة منه .

وأسواق مكة كثيرة : منها سوق الشامية فى شمال الحرم وهى أشبه شىء بالأسواق التركية ولها سقف من الخشب على مثال الخان الخليلى بمصر لولا أن شوارعها أضيق ، وهذه السوق أضيق بالمارين خصوصاً عند مرور الجمال بها . وفيها يبيعون السبع والأفشة الهندية والتركية وغيرها ، وفيها كثير من الفصوص الفيروز والياقوت والعقيق الذى يبيعه

(١) هذا الريال صرت باسم شركة هولندية ومع عدم استعماله فلا يزال ذكره يرد في أحوال بعض الذين يشهدون بشيدهم (أدبانية) « شرم رىم حالى عداى » .

على الخصوص حجاج اليمن في شوارع المدينة بأثمان رخيصة جداً .
ثم السوق الصغير وهو تجاه باب إبراهيم وأغلب ما فيه للغذاء ، كالخبز واللحوم والبقول الجافة
والخضر التي يؤتى بها من الأودية المحيطة بمكة كوادى فاطمة شمالاً ، ووادى الليمون شرقاً ،
ووادى العبيدية (العبادية) والحسينية جنوباً . وكثير من هذه الخضرياً تى مع الفاكهة من جهة
الطائف وجبال كراء ، وفي هذه السوق دكاكين كثيرة يبيعون فيها الأسماك المفلية التي يؤتى بها
من جدة ، وهى فى الغالب مضرّة جداً بالصحة لتعقمها من الحرارة وطول زمن البهل . وفى
شرق المسجد سوق الليل وهى سوق كثره محلطة فيها جميع احتياجات الحاج . وفى كل هذه
الأسواق ترى مدة الموسم حركة لا تفتطع يأتى من ورائها ربح عظيم لأهل البلد . ومدار حركة
الأشغال الشاقة فى مكة على العبيد منهم الحمالون والخطانون والحمارون والجمالون والسفهاءون
والخدامون . ولقد كان للرقيق بمكة سوق كبيره أخذ أمرها ينجح شيئاً فشيئاً حتى كاد
لا يكون له أثر بالمرة . وكانوا يسمون المسكان الذى يبيعونه فيه بالذكاة لأنه كان فى حوشه دكة
يُحَسِّنون عليها ما يراد بيعه منه .

ومهدد المماسمة أقول ان ما يصرفه الحجاج بمكة ليس بالشىء الذى يستهان به ، لأننا اذا
فرضنا أن متوسط عددهم يبلغ سنوياً مائتى ألف نفس ، وأن متوسط ما يصرفه الواحد
منهم مده اقامته بمكة خمس جنيهات ، فيكون مجموع ما يصرفه الحجاج فى مكة على أقل مدير
مليوناً من الجنيهات فى نحو شهر من الرمان : فى أجرة مسكن وبعض المسأكل وأجره مطوف
وزمزمى وبعض هدايا يشتريها للدوية وأهله . ومع هذا كدفاً بعض أهالى مكة لا ينظرون
الى الحاج (مطع النظر عن كونه ضيف الله وفى بلد الحرام) بالعين التي يحب عليهم أن ينظروه
بها ، وعلى الأقل من الجهة الاقتصادية التي هى مصدر حياتهم . لأنهم مع احترامهم له يسيئون
معاملته ويرون فى ماله كلاً مباح لهم ، ويتقوّلون فى ذلك الا حادىث التي لا يخرج معناها
عن قولهم « الحاج رزق لأهل الحرمين ورزق الحاج على الله » ! ولعل هذه المعاملة السيئة
كانت فى ذلك الرمن السبي زمن الاستبداد الذى كان المطوفون فيه يوفدون أغنياء الحجاج
فى سوق المرايدة ، حتى يرسو أمرهم على أيهم يتولى شؤونهم ، كما حصل لبعض سراه

المصريين في سنة ١٣٢٦ ولا حول ولا قوة الا بالله !!

وجو مكة كثير الحرارة قليل الامطار ، ومع ذلك ففقد تحصل فيه سيول كثيرة من الأمطار التي نزل بكثرة في الجبال العالية المحيطة بالطائف . وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمل في شمال مكة قناطر لحزمياه هذه السيول عن هذه المدينة ، واصرافها من الجهة الشرقية نحو المسفلة الى خزان كبير في الجهة الجنوبية يسمونه بركة الماجن ، وهناك تستعمل للأعمال الزراعية . ولا تزال لهذه السيول أضرار جسيمة مكة ومبايها .

وأهواء مكة تختلف في هبوبها جملة مرات في الساعة الواحدة . ولهذا يقول المكيون « إن الله خلق سبعين هواء جعل منها في مكة سعاء وستين وفي العالم كله هواء واحدا » : ذلك لأن الهواء يدور في جو المدينة بين جبالها المحذفة بها كالتدور والدوامه على سطح الماء . فيينا تراهد دخل الى المساكن من المنافذ الغربية ادا به انقطع عنها ودخل من الشرفيه أو الشمالية أو الجنوبية وهكذا ، ولذلك تجدمسا كهم كثيرة الوافذوعالبا الى الجهات الاربع حتى لا تحرم من الهواء من أى جهة كان . والهواء المحرى عندهم وهو الغربى أحسنها وألطفها لانه يأتي من جهته البحر ، ثم هواء الشام وسموه الشمال والشمال ، أما الجنوبى والشرقى فهما حاران .

ويفسد هواء مكة في أيام الحج لكثرة الساكنين فيها وعدم العناية بنظافتها ، وتكثر فيها زمن الشتاء أمراض الصدر ويدر فيها التدرن الرئوى ، وفي زمن الصيف تكثر الاحتفانات الدماغية وضربات الشمس وأمراض العين والكبد والجهاز الهضمى والدوسنتاريا خصوصا بين الاطفال و يسببها عندهم أكل السمك العفن والقواكه الغير ناضجة ، وفي زمن الحر تكثر فيهم الحميات لاسيما عند فساد مياه الشرب ، ويكثر فيهم مرض الحدرى ويموت بسببه سنويا أكثر من اثنين في الالف . ومما يحذر نادره ان الكوليرا لم تظهر في مكة الا سنة ست وأربعين ومائتين وألف هجرية أى في نحو سنة ١٨٢٥ ميلادية ، وفدت اليها مع حجاج الهند ولا تزال تمسديها معهم . ولو كانت الحكومة تعتنى

اشدة الحجر على حجاج الهند والحاو في جزيرة قمران^(١) قبل دخولهم الى جدة بزمن لا مكسها الحيلولة بين حجاج بيت الله الحرام وهذا الداء الويل . والاوثة الكبيرة التي حصلت بمكة في زمن الحج وفتكت بالحجاج فتكاد ريعاً كانت في سنة ١٨٩٠ ميلاديه وسنة ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٥ وسنة ١٩٠٢ وفي مكة مستشفى معروف الآن باسم شفقانة الحاصكية وهو من خيرات حاصكي سلطان روجة السلطان سليمان العاتوني . وفيها أربع أجزا حانات : اثنتان في طريق المسعى و واحدة في مصلحة الصحة بحياد والراعة أشبه شيء بـ كان عطارة بسيطة فيها من الادوية مافسد عالبه وأصبح ضرره أكثر من نفعه وعلى كل حال فالعناية بالمسائل الصحية بمكة فابلتجداً . لأن يقتهم بالطب المديم الذي مداره على الكي والفصد والحمية الشديدة و بعض أوصاف العطارة الشرقية كالمر والصبر أكثر من نفعهم بالطب الحديث .

وفد كان الحباب العالي الحديوي حفظه الله وكر في اتحاد مستشفى بمكة ورتب له طبيباً وأجزاءياً فلم يتيسر لهما القيام بأمور يتهمها واكتفى الحال مؤقتاً بالخدم التي تقوم بها مأموريه الأوقاف الصحية زمن الحج ومقرها فيها يكون في التكية المصرية والحق يقال ان لها أثر ايد كرفيشكر . ومصاريف هذه المأموريه تبلغ سنوياً فوق السبع مائة جنيه مصري ومع هذا فاننا نسمى الخدم التي تقوم بها مأموريه الحمل المصري الصحية لعامة الحجاج لا فرق بين مصري وغيره .

وأهل مكة يشربون من ماء الآبار التي فيها مثل زمزم أو التي في ضواحيها كـ الزاهر والعسملاي والحمرانه وغيرها، أو من الصهاريج التي تملأ من مياه المطر أو ماء اليمانيع، أو من عين زبيدة التي يجري ماؤها الى المدينة في قنوات تحت الأرض لها خزانات في شوارعها

(١) جزيرة قمران وامة في البحر الاحمر شمال الحديدة بمسافة أربعين ميلاً وعلى مسافة ٨٠ ميلاً من جدة . وفيها أحدية كثيرة ينسأ الدولة العلية بحيث أصبحت وافية بالمرص المقصود منها . ولو كانت الدولة لا تدع الهود والحاو يدخلون الى ميناء جدة الا اذا كان معهم حوار بطيف من قمران لكان ذلك أنفع للاد هائل للاد العالم بأسره ولا كفى المسامون ما تلصقه الافريح بمكة من انها نورة الاوثة التي تغشى في بلاد العالم سامحهم الله .

علاؤها منها السمانون و فر بهم . وهذه العين لها أهمية عظيمة جداً وهي من أجل الآثار التي تنسب الى السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد رضى الله عنهما . وكان السبب في إسمائها أن هذه السيدة البارة رأت في حجبها ما كان ينال أهل مكة وحجاج بيت الله الحرام من العناء الشديد والاهوال الكثيرة لقلة الماء في تلك الأحياء ، فأمرت رحمها الله بأجراء الماء الى أم الفري من عين حنين التي توجد فيما وراء عرفة الى جهة الشمال الشرقي ، على مسافة نحو خمسة وثلاثين كيلومتراً من مكة . وهذه العين تخرج من جبال طاد وسير في وادي حنين الذي حصلت فيه (سنة ٨ للهجرة بعد فتح مكة) تلك الواقعة المشهورة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من هوازن ونقيف ، وبنت فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم نبأ عظيماً ، كما أبلى المسلمون فيها بلاءاً حسناً . وفيها قتل دريد بن الصمة وهو من أكرر رجال الخاهلية المشهورين ، فقتله رجل من المسلمين يسمى ربيعة بن رفيع السلمي .

وقد اهتمت زبيدة بهذا العمل الحليل اهما ما كبراً وأرسلت اليه العمال من جميع الاطراف ، فسوا لهذا الماء محرى عظيماً وأوصلوا به محرى آخر من وادي النعمان من الماء الذي ينزل اليه من جبال كرا التي تبعد عن عرفات شرقاً الى الجنوب نحو ابي عشر كيلومتراً ، وسبروا اليه سبع قنوات أخرى من الجهات التي تسقط اليها السيول حتى تساعد ماء المحرى الأصلي الذي عندما وصل الى جنوب مي نفرل في الصخر خراخرا كبيرا يصب فيه يسمى بئر زبيدة ، ومنه سببت قناة الى مكة . ومن هذا المحرى امتد فرعان : واحد الى عرفات ، والآخر الى مسجد نمرة يسير الماء فيهما من الحج .

وفي نهاية القرن السابع الهجري طم محرى هذه العين وتهدمت قناتها وانقطع مأوها عن المدينة ونال الناس من جراء ذلك جهد عظيم . ودكر القاهلي في تاريخ مكة أن الأمير جويان « نائب السلطنة بالعرفات عن السلطان أبي سعيد بن خريز » (لعله خداسده) ملك التتار « أراد أن يعمل عملاً نافعاً في أم الفري فطلب اليه أن يعمر عين زبيدة ، فأرسل رجلاً من خاصته اسمه نازان لتعميرها فأتى في سنة ٧٢٦ وفيها جرت مياه العين الى سفائيتها التي بناها في المسمى وسمها باسمه . ويظهر أن هذا الاسم تغلب على باقي السفايات التي بمكة حتى صار يطلق على كل واحدة منها

اسم بازان الى الآن .

وما زالت هذه العين حياة لاهل البلد الحرام وحجاج بيت الله المعظم حتى أهمل شأنها وتهدم بنيانها وانقطعت مياهها مرة أخرى فيما بين سنتي ٩٣٠ و ٩٧٠ ، ونال الناس من ذلك أهوال ما كانت تخطر على البال ، حتى بلغ ثمن زق الماء (قربة صغيرة تسع ٣ لترات نفرياً) بعرفة في غضون هذه المدة ليرة ذهبية: وسبب إهمال هذه العين في المدة المذكورة أن ملوك مصر هم الذين كانوا يعتنون بها ويفومون بعمارتها في الغالب . فلما تغيرت الأحوال ودخلت مصر مع أرض الحجاز سنة ٩٢٣ ضمن أملاك الدولة العلية التي كانت تشغل كل وقتها كثرة حروبها الخارجية ، أهملت الدولة ترتيبها الداخلية حكومتها ، خصوصاً ما كان يعيذاً عنها . ولكن أهل الحرمين الشريفين قاموا في سنة ٩٦٩ وانتمسوا من السلطان سليمان إصلاح هذه العين . وهالك رجته كريمة صاحبة السمو والملوكاني مهرماه سلطان أن يشرفها بأجراء هذا العمل المروور من مالها الخاص ، وعينت مديراً للقيام بهذه المهمة ، وسلمته الأموال اللازمة لها ، فسافر من وفته الى مكة وشكل مجلساً من أهل الرأي فيها ، وأمر بحفر الماء وتنظيف فروعها وبناء ما تهدم من محراها ، ولما وصل الاصلاح الى ثمر زبيدة بنى أراد رحمه الله أن يغير محراها الى مكة ، فاضطر الى النزول في هذا الجبل الصخري على مسافة نحو خمسة وعشرين متراً من سطح الارض ، في مسافة طولها أكثر من كيلومتر ، ثم سيرها في حوض الجبل القبل حتى أوصاها الى مكة سنة ٩٧٩ .

وينقسم هذا الحرى من البياضية شرقى باب المعلى الى أربع شعب تتخلل المدينة من جهة الى أخرى . و يبلغ عرض هذه القناة نحو متر وربع في ارتفاع نحو متر ونصف ، وتفر من سطح الارض وتبعد عنه على حسب ارتفاعها وانخفاضها ، ولها حزانات تملأ منها السفاءون . وفضل ماء زبيدة يسير الى المسفلة حتى يصب جنوب مكة في بركة المساجن وهناك يستعمل في سقي بعض البساتين والمزروعات التي لبعض الأشراف .

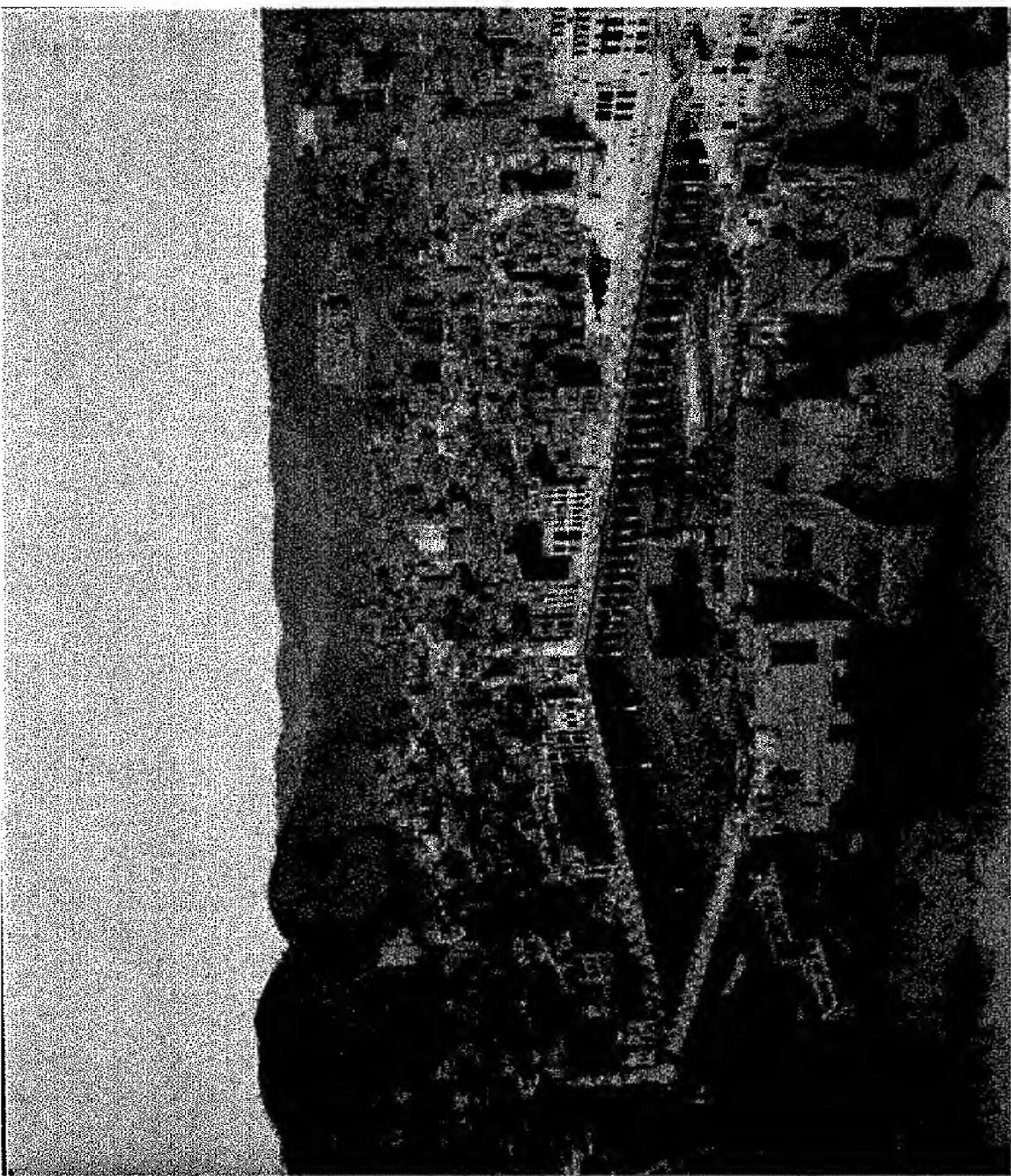
وكثيراً ما تعبت السيول بهذه القناة فتصلحها أمراء مكة بالأموال التي ترد اليها من الدولة أو من أصحاب الهمم والخيرات من المسلمين . وآخر ما حصل لها من ذلك على أثر السيول التي

وقعت في سنتي ١٣٢٧ و ١٣٢٨ فهدمت نقطا كثيرة منها، وطمحراها بما تحلف اليه من الرمال والاحجار ، فقام حضرة صاحب الدولة الشريف حسين باشا أمير مكة وجمع الناس وطهره وأصلح ما اعتل منه . وكان للجناب العالي الخديوي العباسي أكبر فضل في ذلك لانه بمجرد ما بلغ مسامعه الكريمة خبر هذه الفاجعة التي أصيبت بها أم القرى ، أرسل بألفي جنيه مصري لهذا العمل الجليل ووعده بغيره كلما اقتضت الحال لمساعدته جزاء الله خيرا .

وهنا يجدر بنا أن نلاحظ على بلدية مكة أن الفتحات التي في أعلى هذه العين من جهاتها المكشوفة في مكة وفي أعلاها يستعملها الناس في غسيل ملابسهم وخلافها ، مما لا ينطبق على القوانين الصحية ولا تسمح به الشريعة الغراء الاسلامية !! وهل يسمحون لي أن أقول لهم ان ذلك ولا شك العلة الوحيدة لكثير من الأمراض التي تنفث في مدينتهم : وعليه فيجب أن تكون العناية بأمر هذه الفتحات كبيرة ، وأن يضرب على أيدي من يبعث بها أوسدها في وجوههم بالمرّة، وهل فاتهم قول صاحب الشريعة المحمدا (النظافة من الإيمان) .

ويا حبذا لو يأمر دولته مولانا الشريف بوضع طلمبات على فوهات مياه محرى عين زبيدة في مكة ومنى وعرفة ، وعلى نثر زمزم ، وتكون هذه الطلمبات كبيرة بحيث تكفي لحاجة الحجاج من جهة ، ومن أخرى تجعل ماءها بعيدا عن التلوث بأنواع البكتريا التي تكثر منها الحميات في الحجيج وتودي في الغالب بحياة الكثيرين منهم .

وعندي نصيحة للذين من عادتهم العناية بأمر ماء الشرب : ذلك أنهم اذا أرادوا الحج أخذوا معهم ما يكفيهم من المياه المعدنية أثناء الطريق ، أما مدة وجودهم في مكة والمدينة فحسبهم على الماء المخصص لشربهم ، ولو أضافوا على كل لتر منه عشر نبط من محلول مركب من واحد في الألف من رمونات البوتاسا كان أحفظ لصحتهم . وهناك طريقة أخرى لتنقية الماء تنقية تامة ، وهي أن يؤخذ أقراص محبزة تسمى أقراص (فياروجورج) ذات ثلاثة ألوان : الاول أزرق والثاني أحمر والثالث أبيض . فيذاب أولا قرص أزرق ثم آخر أحمر في لتر من الماء المراد تنقيته ، وهناك يتم اتحادهما هذا الماء فتدور جميع الحرائم التي فيه في مسافة عشر دقائق ، ثم يوضع فيه القرص الأبيض فيتحد مع اليود الذي به ويعمل معه



BOEHNE & ANDERER, CAIRO

نسخه مکه و الحرم بالقطر غرافيا من جهته الى قبرين

تركيباً عديم الطعم ، وبهذه الطريقة يكون الماء صالحاً للشرب . وإذا لم يكن لاهذا ولا ذاك فعليهم بفلتز سفرى يمتصون به الماء ولو في الصحراء .

هذا وأرجو قبل قفل باب الكلام على مكة أن يسمح لي حضرة القارىء بكلمة أسوقها اليه : ذلك أنى زرت القدس الشريف فرأيت به لكل نوع من النصارى واليهود على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم من الأديرة والكياومنازل الضيافة شيئاً كثيراً جداً ، تمهدت فيها سبل الراحة والحياة للناس أجمعين : فالعمير يحذفها مكاناً محاماً لمدة أسبوع على الأقل ، يرى نفسه فيه آكل شاراباً ثمناً كسباً مخدوماً مشكوراً من غير ما يتكلف لذلك قرشاً واحداً ، والغنى يحذفها راحتاً في نظير أجر يدفعه يومياً لا يزيد عن الأجر الذى يدفعه فى لو كادته سيطرة ، ومن الأغنياء من يخذها مسكناً فقط ويتدارك أكله بنفسه . وهذه الأماكُن التى قامت بها شركان البر والاحسان من الممالك المختلفة على اختلاف جنسياتها ومذاهبها كثيرة جداً ، وأكثرها لليهود ثم للروس ثم للأروام ثم للأرمن ثم للكناز والفرساو بين والألمان . وقد أقام الألمان هناك أخيراً داراً للضيافة وللصحة على جبل الرحون صرفوا عليها أكثر من سبعين ألف جنيه : وهى دار رحية فسيحة شامخة البنيان ، وطيدة الأركان ، وضع فى مدخل سلمها تمثال امراطور وامراطورة الألمان ، وافتتحت هذه الدار رسمياً بحضور ولى عهد المملكة الألمانية الرئيس أيل فى شهر ابريل سنة ١٩١٠ م . وعدا هذه الدور والأديرة والملاجئ ترى هناك لكل جنس من النصارى واليهود المستشفيات العظيمة المشيدة والمدارس الفاخرة ، بحيث تكاد ترى بحوار كل بيت من بيوت المدينة مدرسة : هذه للألمان وتلك للكانزوغبرها للروس وخلافها للفرساو بين وسواها لليهود ، بل تجد لكل ورقة من هذه الأمم مدارس مخصوصة للبنات والبنين على أحسن طراز جديد ، والتعالم فيها على أحسن بر وجرام كافل لحياة المتعلمين . اللهم إن هذه هى الحياة الصحيحة وهذا هو الوجود بكامل معانيه ! وهل لاخواننا المسلمين فى جميع أقطار المسكونة أن يقوموا بعمل مثل هذا بمكة ينتفع به الفقراء من حجاج المسلمين ، ولهم من مساعدة الحكومة العثمانية ما يوصلهم الى هذه الغاية الجليلة التى يكون من ورائها راحة حجاج بيت الله الكريم ؟

وبهذه المناسبة نقول ان الجنب العالى حفظه الله بعد عودته من حجه المبرور ربط في تكيق مكة والمدينة كثير أمن المرتبات الشهرية والسنوات الى عدد عظيم من أشرف وعلماء وأهالى الحرمين الشريفين ، لازالت تتوالى عليهم فيوضاته وإحساناته لأنهم أولى الناس بمثل هذه العماية السامية . ولعله حفظه الله يأمر فيكون له بهما أثر فخير دائم يشكره عليه الله والباس على توالى الايام . وياحبذا اذا كان المبلغ الذى جمع من السادة المصريين على دمة اقامة تذكار لحج الجنب العالى الخسدى يقوم به دار للضيافة بمكة لفراء حجاج بيت الله الحرام عموماً والمصريين منهم خصوصاً ، ويقوم مصلحة الاوقاف بما يصدر عنه هذا الا كتاب والله الموفق للصواب .

تاريخ مكة

يصعد تاريخ مكة الى سيدنا ابراهيم الخليل صلوات الله عليه . وفي سنة ١٨٩٢ قبل المسيح أمره الله بالهجرة بولده اسماعيل وأمه هاجر (كما ورد في التوراة) ، فذهب بهما الى هذا الوادى الذى لم يسكنه أحد لعدم توفر الماء فيه ، اللهم الا أولئك العمالق الذين كانوا يسكنون غالباً فى الوادى الواقع شماله ويقال له الحَجَّون : وهم قوم نزحوا الى هذا المكان من جهة البحرين وكان ملوكهم فيها يمتد الى شبه جزيرة سيناء . والبالليون يسمونهم « ماليق » فأضاف عليهم العربايون لفظ عم (يعنى أمة) فصارت « عم ماليق » فخرها العرب الى عماليق ، والمصريون يسمونهم المكسوس أى الرعاة .

فلما عثرت هاجر على نر زمزم التى أصبحت حياة جديدة لهذا الوادى نزلوا اليها وسألوها الاقامة معها على أن يكون الأثر لها ولولدها ، فقبلت ذلك وكانت قد ابتنت لها

بيتاً تأوى اليه مع اسماعيل . وكان ابراهيم يتردد لزيارتهم من فلسطين فأمره الله تعالى بتطهير هذا البيت وجعله مصلى للناس : قال تعالى « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا إلى ابراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » . ثم أمرهما الله برفع قواعد هذا البيت ، وهناك هدمه ابراهيم ، ورفع مع إسماعيل على قواعد الكعبة المكرمة : قال تعالى « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، رينا تقبل منا لك أت السميع العليم رينا وإذ جعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا لك أت التواب الرحيم » . ثم أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج فقال « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » . ومن ثم اتسدت شهرة ذلك البيت المعظم تداع في القبائل الحاضرة والحاضرة ومنه أنى لفظ مكة أو مكاهي كلمة بالية سمعتها العمالق ومعناها (البيت) .

ورجع ابراهيم إلى قومه ، وبقي اسماعيل في خدمة البيت حتى مات ، فتولى خدمته من بعده بنوه إلى أن داخلهم الضعف فتغلب العمالق عليهم ، وصار أمر البيت اليهم . وما زالت السلطة في يدهم حتى وفدت جرهم على مكة من طريق اليمن بعد قطع سد مأرب ، في نحو منتصف القرن السادس قبل الميلاد وعليهم مضاض بن الحارث ، فزاحمهم وغلبهم على أمرهم ، وصارت لهم الكلمة والسلطان في مكة بل وفي الحجاز بأكمله . فلما كرس سلطانهم وعظمت شوكتهم عثوا في الأرض فساداً فوق فيهم وباء نال منهم ، وضعف أمرهم وتغلب عليهم بنو إسماعيل واستردوا أمر البيت منهم وطردوهم من مكة ، فساروا إلى أرض جهينة (شمالى يبيع) ، وفي ذلك يقول شيخهم عمرو بن الحارث .

وكنا ولاه البيت من عهد نابت^(١) * بطوف بذاك البيت والامر ظاهر
 كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
 لى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والحدود العوائر
 وما كادت تنحصر السلطة في بني إسماعيل حتى أت خزاعة وتغلبت عليهم ، ووليت

أمر البيت من سدانة (خِدمة البيت) وسقاية (سقى الحجاج) زمناً طويلاً بما كان لها من العصبية ، رغمًا عما كان في بني اسماعيل من الرقي الادبي والسمو النفساني : لانه كثيراً ما كان ينبغ فيهم رجال يرهنون بحسن معرفتهم وكمال فضلهم على ذكاء أصلهم وكرم محتدهم ، مثل كعب بن لؤي الذي اشتهر ببلاغته وفصاحته . وهو أول من جمع الناس في يوم العروبة^(١) (يوم الجمعة) وكان يخطبهم فيه بما يرشدهم الى طريق الفضائل ويبعدهم عن ارتكاب الرذائل ، وقد اشتهر أمره بين العرب وعظم قدره فيهم حتى كانوا يؤثرون نعام موته الى عام الفيل ، وهو من لا يقل عن أربع مائة سنة .

وما زال أمر البيت في يد خراعة حتى رجع قصي بن كلاب من الشام ، وكان ذهب اليها مع أمه صغيراً : وهو من أحفاد كعب والبطن الرابع والعشرون من اسماعيل . فجمع قبائل قريش لما كان فيه من حسن السياسة والذكاء وقوة المعارضة بعد أن كانت تفرقت وأخذت الشجعاء تدب فيما بينهم ، وسعى أصاله رأيه حتى اشترى من خزاعة حجابة البيت (الاستئثار بمفاتيح الكعبة) ثم أجلاهم بما وجدله من العصبية عن مكة الى بطن مر (وادي فاطمة) ، ومن ثم كبرشأه ونبه أمره وعظم سلطانه واجتمعت له السقاية والحجابه والرفادة واللواء (راية الحرب) ، ولم تجتمع في رجل قبله . وقصى أول من أطعم الحاج وسقاه لانه ضيف الله وجاره ، وبذلك سارت الركبان بسيرته وتحديث الناس بنباهته . وكان له رأي شديد وفكر رشيد . وهو الذي بنى دار الندوة قرب البيت وجعل بابها اليه ليجمع فيهم مع قومه للبحث في شؤ ونهم والافرار على ما يتم من أمرهم فاصبح به ملك قريش عظيماً وشأنهم جسيماً ، حتى كان لهم بعد ذلك خراج على القبائل والعشائر يؤدون له اليهم ويتفرجون به منهم . وكان لمصى ولدان : عبد الدار وعبد مناف ، وقد شرف الاخير على صغره وزاد فضله عن أخيه الاكبر . فأوصى أبوه لعبد الدار بما كان في يده من السقاية والحجابه والرفادة واللواء والندوة ، حتى يتكافأ مع عبد مناف في شرفه الذي وصل اليه بعقله وفضله .

(١) كاب أيام الاسبوع عند العرب في عصر الجاهلية الاولى كما يأتي : أول (الاحد)

أهون ، جبار ، دنار ، مؤنس ، عرويه ، شبار .

ولما مات قصي استولى عبد الدار على ما أوصى له به أبوه . وانتقل ذلك الى بنيه من بعده حتى ظهر بنو عبد مناف عليهم ونازعوهم ما في أيديهم ، وكادت تدور رحى الحرب بينهم ، وانتهى الامر بنحكيهم بعض القبائل ففسموا بينهم شرف هذه الامتيازات : فكان لبني عبد مناف السعاية والرفادة ، ولبنى عبد الدار الحجابة واللواء اللذان مازالا ينتفلان فيهم الى فتح مكة . وكانت مفاتيح الكعبة مع عثمان بن طلحة فأخذها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما دخل البيت أراد أن يحجزها عنه ، فنزل قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » ، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه قائلا « ها كم خذوها خالدة تالدة » ، وعدموت طلحة سلمها رسول الله الى أخيه شيبه فبقيت في بنيه الى الان .

ووصلت قر يش في الحاهلية الى محذ كبير وشرف عظيم ، وانتهى شرفها الى عشرة أطن منها كانوا يقتسمون امتيازاتهم القومية من دينية وسباسبية واجتماعية وتشريعية . وكانت هذه الامتيازات يتوارسها الا بناء عن الا بناء وانتهى أمرها قبل الاسلام الى من سئذ كرم : كان العباس بن عبد المطلب (من هاشم) يسقى الحجيج واستمر ذلك في الاسلام . وكان أبو سفيان ابن حرب (من بني أمية) عنده العباب ، وهي رايه حرم بهم لا يخرجها الا اذا حى وطيسها فيسلمها الى من يجمعون عليه الرأي لملها . وكان للحارث بن عامر (من بني نوفل) الرفادة ، وهي ما كانوا يخرجونه من أموالهم لاعانه الممطع من الحاج . وكان لعثمان بن طلحة (من بني عبد الدار) السدان والحجابة واللواء والندوة . وكان ليزيد بن زمعة بن الاسود (من بني أسد) المشورة في الأمور الهامة . وكان لأن نكر الصديق (من تيم) الديات والمغرم ويعال لها الأشناق وكانوا يعضون على حكمه فيها . وكان خالد بن الوليد (من بني مخزوم) على خيل قر يش وكانت له القبة : وهي ما كانوا يجمعون فيه سلاحهم وذخيرة حربيهم ، وكان لعمر بن الخطاب (من بني عدى) السفاره فيما كان يقع بينهم وبين غيرهم من العرب ، فيمضي عنهم ما راه من مصلحتهم . وكان لصفوان بن أمية (من جهمج) الايسار وهي الا زلام (١) .

(١) واحدها زلم وهي أقذاح ثلاثة كاب للعرب بالكعبة مكسوب على الاول أمرني ربي وعلى الثاني سباني ربي والثالث ليس عليه شيء . وكاب العرب اذا أراد أن تمضي في أي أمر من أموره دهبوا الي الكعبة واسمسموا بالارلام فيعتزع لهم صاحبها فيمضون على ما قسم لهم بها .

وكان للحريث بن قيس (من بني سهم) الحكومة والاموال التي يقدمونها لأصنامهم .
 أما بنو هاشم فقد علا أمرهم وعظم شأنهم خصوصاً في مدة عبد المطلب بن هاشم جد النبي
 صلى الله عليه وسلم الذي كرسلطانه بعد واقعة القيل ، وذاعت شهرته وهاتاه القبائل
 وقصده العرب من جميع جهات الجزيرة . ولما ظهرت نوة سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد
 المطلب وتحلى الاسلام بظهوره المنيع ، وعدم تقدمه السريع ، كمل لبني عبد مناف فضلهم
 وتم بهذا الشرف سعادتهم .

حكم الاشراف بمكة

من أكر الحوادث التاريخية بمكة هجرته صلى الله عليه وسلم منها الى المدينة ، وفتح
 لها بعد ثمان سنين من الهجرة . ومن ثم صارت مكة تابعة له وخلفائه من بعده .
 وكانت حكومة الاسلام في مدته عليه الصلاة والسلام ديموقراطية «شورية» على
 حسب الشريعة الغراء ، وكذلك في عهد خلفائه الراشدين ، حتى انضمت الخلافة الى
 مظاهر الملك فشاهاشي من الاستبداد .

وكانت حكومة الحرمين تتبع في جميع أدوار حياتها مركز الخلافة الاسلامية . وأول من
 تولى إمارة مكة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد رضي الله عنه ، ولده عليها رسول
 الله بعد الفتح ، عند خروجه لواقعة حنين في الثالث الاول من سنة ٨ للهجرة . وانتقلت الخلافة
 بعد الخلفاء الراشدين الى الامويين في سنة ٤٠ هـ وفي اناسها استولى عبد الله بن الزبير على مكة
 بضع سنين حتى استردها منه الحجاج بن يوسف الثقفي الى الامويين سنة ٧٣ . وفي سنة ١٣٢
 انتقلت الخلافة للعباسيين وما زالت في أيديهم الى سنة ٣٥٨ . وتولى أمر مكة في هذه المدة نحو
 مائة أمير من أشراف وغير أشراف . وفي هذه السنة انتقل حكمها الى الفاطميين وفيها دخلها
 جوهر القائد ، ثم دخلها مولاه المعز لدين الله العبيدي ومن ثم كانت البلاد الاسلامية من بغداد
 الى حلب الى البصرة يخطب فيها للخليفة العباسي ، ومن حلب الى الحرمين وسائر بلاد العرب

يخطب فيها للعباسيين : والسبب في ذلك أن جعفر بن محمد بن الحسن الثائر بن موسى الثاني ابن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن علي أمير المؤمنين كرم الله وجهه تغلب على مكة في السنة المذكورة ، وخاف من العباسيين فدعا للمعز لدين الله العبيدي صاحب مصر ، فكتب له المعز بولاية مكة وبه اتشدأت حكومة الأشراف عليها .

واستقرت في بنيه من بعده الى سنة ٤٥٥ حيث وليها حفيد أخيه هاشم : وهو محمد بن جعفر بن عبد الله بن هاشم ، وتولى أمرها بنوه من بعده الى سنة ٥٩٧ . ويقال لهم الهواشم ، وكان حكمهم جورا وظلما حتى أن آخرهم الشريف مكث بن عيسى ضرب ضريبة على حجاج بيت الله الحرام مقدارها سبعة دنانير ، كان يتقاضاها في عيذاب أو في جده على كل شخص يقد الى مكة عن طريق مصر . فاستنغاث الناس بصلاح الدين الأيوبي ، فاتفق مع مكث على الغائها ، ورتب له بدلها في كل سنة ثمانية آلاف أردب قمحا . ومن هذا الوقت اتشدأ الخطباء في مكة يدعون لصلاح الدين عقيب دعائهم للخليفة العباسي ولا مير مكة .

واستولى على مكة بعد مكث الشريف فماده سنة ٥٩٧ وهو الحلفة السابعة من أحفاد الشريف عبد الله أحى الشريف جعفر بن محمد بن الحسن الثائر وكان قتادة من أهل النخوة والشجاعة والهمة العالية ، واتسع ملكه من اليمن الى المدينة . الا أن أهل اليمن تغلبوا على مكة في مدة ولده حسن لسوء سلوكه ، ومارالت في أيديهم الى سنة ٦٣٠ ، وبعدها تغلب الشريف راجح بن قتادة عليها وصارت الاماره بعده فيها كالكرة يتلقفها القوي من بنيه أو بني اخوته . وكانت حكومتها تتبع ملوك مصر باره وملوك اليمن أخرى لاشتغال ملوك مصر عنها بالحروب الصليبية ، خصوصا بعد موت الملك الكامل الذي كان يدعى له في خطبة الحرمين هكذا : « صاحب مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ، ورب العلامتين ، وخادم الحرمين الشريفين ، المحترمين : الملك الكامل خليل أمير المؤمنين » . وأول من استقل من ملوك اليمن لذلك العهد نور الدين بن عمر بن علي بن رسول ، وكان عاملا عليها للملك الكامل صاحب مصر ، ولقب

نفسه الملك المنصور . وما زالت حكومة مكة في هذا الارتباك والاختباط حتى آل أمرها الى الشريف أبي نعيم بن حسن بن علي بن قتادة سنة ٦٦٧هـ ، فخطب لبيرس ملك مصر فاقره عليها وحج من سنته . وما زال أبو نعيم حتى وقعت له مع العسكر المصري حروب ألجأته الى التنازل عن الامارة سنة ٧٠١ الى ولديه حميضة ورميثة ، فغلبهما عليها أخوهما أبو الغيث بن أبي نعيم . وفي مدته حج السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٢هـ ، واستقر بها حتى غلبه على الامارة أخوه حميضة سنة ٧١٤هـ وقتله ودعى اخوته الى وليمة عنده وقدمه اليهم مصلوقا ، وعلى رأس كل واحد منهم عبد شاهر اسيفه . وما زال حتى تغلب عليه أخوه رميثة سنة ٧١٨هـ فهرب ومات في هربه . وفي سنة ٧١٩هـ حضر الى مكة جيش مصري وقبض على رميثة وأتى به الى ملك مصر الملك الناصر بعد أن ولي مكانه الشريف عطيفة بن أبي نعيم . وفي سنة ٧٢٢هـ أطلق الملك الناصر رميثة وأشركه مع أخيه في ولايته مكة ، وذهب عطيفة الى مصر ومات بها سنة ٧٤٣هـ ، وانفرد رميثة بالامارة حتى جعله الملك الكامل شعبان ملك مصر لولده الشريف عجلان بن رميثة سنة ٧٤٦هـ ، وعزله عنها السلطان حسن بن محمد الناصر سنة ٧٦٠هـ ، إلا أنه رجع اليها بأمر من الملك المنصور محمد وما زال بها حتى مات سنة ٧٦٦هـ . وتولى بعده الشريف أحمد بن عجلان ، وفي مدته صدر أمر الملك المنصور بلفو المكس الذي كان يؤخذ على الاشياء التي كانت تدخل الى مكة ، وعوض أميرها عنه مائة وستين ألف درهم وألف أردب قمحا ، وأمر فنقش ذلك على باب الصفاة . واستمرت الامارة في بنيته حتى صدر أمر سلطان مصر بأن يكون الشريف حسن بن عجلان نائبا عنه في ولايته الحجاز وابنه الشريف بركات أميراً على مكة : وكان بركات عالما فاضلا محدثا ، وقد استدعاه الملك بارسباي الى مصر فوفد اليها معظماً مكرما وأخذ عنه كثير من علمائها ، ثم رجع الى مكة ومات بها سنة ٨٥٩هـ وتولى مكانه الشريف محمد بن بركات : وكان رضى الله عنه على أحسن ما يكون من العدالة والانصاف وحسن السيرة والرفق بالناس ، وقد سافر الى مصر سنة ٨٧٧هـ مدة السلطان قايتباي فاستقبل بما يليق به من صنوف الاعظام والاجلال ، ثم رجع اليها معززا مكرما . وفي مدته حج السلطان قايتباي سنة ٨٨٤هـ وشيد فيها لصق الحرم من الجهة الشرقية مدرسته التي

تغلب عليها ذوو غالب ولا تزال في أيديهم الى اليوم .

وما زال محمد بن بركات على أماره بمكة وولاية الحجاز حتى مات سنة ٩٠٣ هـ وتولى بعده ابنه الشريف بركات ، وما زالت الامارة تنتقل من يده الى يداخوته حتى استعمل بها في سنة ٩١٠ هـ . وفي سنة ٩١٨ أرسل اليه السلطان الغوري بدعوه الى مصر ، فاعتذر وأرسل بالبيان عنه ابنه الشريف أناعى وعمره ثمان سنين ، فأكرمه السلطان كل الاكرام وردده الى أبيه معززا وأشركه معه في أمر مكة والأقطار الحجازية .

ولما استولى السلطان سليم على مصر سنة ٩٢٢ أقرهما على مكة ، وسار للغياه الشريف أبونعى بمصر ، فأكرم مثواه ، وأرسل معه أمرا يقتل حسين أعا الكردي الذي كان على جده من قبل الغوري . فلما وصل الى جدة قبض على الاغا وأغرقه وولّى غيره مكانه ، ومن هذا الوقت صارت بلاد الحجاز واليمن تابعة للدولة العلية .

وكان الشريف أبونعى من خيرة الاشراف عتقلا وحاميا وعلميا وفضيلا وادارة ودرايه ، واليه ينتهى سبب اشراف بنى حسن (الدين يحكمون الان) و بنى زيد ، و بنى بركات (الذين كان لهم الحكم قبل محمد بن عون) ، و بنى نعمة (وهم متفرقون في بلاد العرب) . وفي سنة ٩٩٢ مات أبونعى وتولى بعده ابنه الشريف حسن : وكان عالما فاضلا كاملا أدبيا سار في ادارته بلا دعه على هيج أبه في العدالة والكرم ومكارم الاخلاق ومحامد الصفات ، وهو رأس سلسلة الاشراف الحسينيين الذين منهم محمد بن عون جد العائلة الحاكمة الآن .

وهو الذي بنى دار السعادة بمكة في سنة ٩٦٧ وكانت محل إمارته وإمارة خلفائه زمنا طويلا ، ومما جاء في وصفها وتاريخ بنائها قول بعضهم :

ان بينا بناه خير مليك * أسس الملك ككفه وأشاده

فاق في وصفه وحسن بناه * كل قصر لاهل العلا والسياده

جاء تاريخ وصفه في نصيف * أنابيت الملوك دار السعاده

وما زال الشريف حسن قائما بأمر ولاية الحجاز حتى مات سنة ١٠١٠ وأخذت

الشرافة تنتقل في نبيه و بنى اخوته حتى توليها الشريف زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن ابن أبي نعي سنة ١٠٤٣ : وكان ذاهمة عالية وشجاعة تامة وادارة حسنة ، وما زال قائما بولايتها خير قيام حتى مات سنة ١٠٧٧ . وتولى بعده ولده الشريف سعد ولكنه خرج من مكة مقهورا ومكث بعيدا عنها احدى وعشرين سنة ، تولى امرها فيها الشريف بركات ابن محمد بن ابراهيم بن أبي نعي ، ومات سنة ١٠٩٤ ، وأعقبه عليها ولده الشريف سعيد بن بركات ، فغلبه عليها الشريف سعيد بن سعد بن زيد . ثم عزل عنها ، وأعقبه الشريف عبد الله ابن هاشم ، ثم أحمد بن غالب الذي مات سنة ١١١٣ ، فرجع الى الامارة الشريف سعد بن زيد ، وأخذ يتناوب الولاية هو و ولده الشريف سعيد جملة مرات . ومات الشريف سعد بعيدا عن مكة بالعبادية سنة ١١١٦ ، و بقيت الولاية في يدا ننه الشريف سعيد حتى مات سنة ١١٢٩ : وكان جليل القدر عظيم الفضل بعيدا لآمال شجاعة مهيبة . وأخذت الامارة بعده يتداولها بنوه و بنواخوته حتى عليهم عليها الشريف يحيى بن بركات ، ثم انه الشريف بركات بن يحيى فيما بين سنتي ١١٣٤ و ١١٣٦ . ثم رجعت الى نبي سعيد ، وما زالت فيهم حتى توليها حفيده الشريف سرور بن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد في سنة ١١٨٦ . وهو مشهور بعلا الهمة وجلال الصفات والشجاعة الفائقة : حارب عرب الشروق و قبائل حرب و انتصر عليهم جملة مرات و انقادت اليه جميع بلاد الحجاز ، و امتد سلطانه على جهات كثيرة من بلاد العرب . وما زال في الامارة حتى مات سنة ١٢٠٢ وتولى بعده الشريف عبد المعين بن مساعد ، الا أنه تنازل عنها بعد أيام قليلة الى أخيه الشريف غالب . وفي مدته استفحل أمر الوهابية ، و وقعت بينه و بينهم حروب كثيرة كادت الغلبة تكون فيها لهم ، لولا أن الدولة العلية كلفت محمد علي باشا و الى مصر كبح جماحهم ، فارسل اليهم جيوشا مصرية على رأسها ولده طوسون ، ثم ولده ابراهيم الذي فرق جموعهم و استولى على بلادهم بعد أن أخذ رئيسهم عبد الله بن سعود أسيرا و أرسله الى والده بمصر . وفي سنة ١٢٢٨ جاء محمد علي الى بلاد الحجاز فاستقبله الشريف غالب من جدة ، وسار في خدمته الى مكة . وكان كل منهما على خوف من صاحبه ، و انتهى الأمر بأن قبض محمد علي على الشريف غالب و بنيه

وأرسلهم الى مصر عن طريق القصير ، فوصل القاهرة في ١٧ محرم سنة ١٢٢٩ وقول فيها بالاحترام اللائق ، وبقى بها الى ١٩ شعبان حيث سافر مع أولاده حسب الارادة السلطانية الى سلاطيك وأقام بها الى أن توفاه الله سنة ١٢٣١ ، وفيها عادت أولاده الى مكة بمقتضى أمر سلطاني .

وكانت مدة أماره الشريف غالب على مكة ٢٧ سنة قضاهما كلها في حروب الوهابية . وكان رحمه الله على الهمة ، كبير الشهامة ، كثير الدهاء . ولما نفي الى مصر ولّى محمد علي مكانه الشريف يحيى بن سرور في أواخر ذي القعدة سنة ١٢٢٨ ، ومن هذا الحين صارت بلاد الحجاز تابعة لمصر .

وكان على أعمال العرب الشريف شنر من جهة محمد علي ، فنمت بينهما الضغائن ، فقتل يحيى شبرا أمام باب الصفا وهرب الى بدر . وتولى على مكة الشريف عبد المطلب ابن غالب ، بأمر من أحمد باشا يكن ، ولكن محمد علي باشا أصدر أمره بتعيين الشريف محمد بن عون ، وكان اذ ذاك نزىلا عليه بمصر ، وكان سبق له أن تولى إمارة بركة وعسير من قبله . فسار الشريف عبد المطلب الى الطائف وجمع جموعا من العرب وحارب بها أحمد باشا ، ولكنه انهزم وطلب الأمان من الشريف محمد بن عون ، فأمنه هو والشريف يحيى وأرسلهم الى مصر بناء على أمر محمد علي ومعهما عبد الله بن فهد وآخرون . ولما وصلوا اليها أكرمهم محمد علي كل الاكرام ، وبعد سنة أعادهم الى مكة الا الشريف يحيى فانه استبقاه ومات بمصر سنة ١٢٥٤ . وبعد ذلك وقع نفور بين أحمد باشا يكن والشريف محمد فاستحضرهما محمد علي ثم أعاد أحمد باشا الى مكة وحجر الشريف محمد بن عون بمصر ، وبقى فيها حتى خرجت ولاية الحجاز من قبضة محمد علي سنة ١٢٥٦ زمن السلطان عبد الحميد ، وصدرت الاوامر السلطانية بتولية ابن عون أماره مكة . وكان رحمه الله عاقلا ذا دهاء وهيبة وذكاء ، ميمون الطالع عالما يحب العلم والعلماء ، ومكث زمنا طويلا وهو يدبر أمر الحجاز بحسن درايته وإدارته . وفي سنة ١٢٦٣ سار الى نجد لاجل دفتنه فيصل بن تركي أمير الرياض ، وتم أمرهما بالصلح بعد أن قرر على فيصل خراج الدولة قدره عشرة آلاف ريال

كل سنة، واستقر في ولاية مكة الى أن توفي في ١٣ شعبان سنة ١٢٧٤ . وتعين بعده ولده الشريف عبد الله باشا كامل : وهو أول شريف منح رتبة الوزارة ولفب باشا وكان تربى في الاستانة وتعلم فيها العلوم الشرعية والتفسير والحديث وفنون الادب . فوصل جدة بعد أن انجلى عنها امراكب الاكابر سنة ١٢٧٥ ، وهناك قابله المندوبون البريطانيون وطلبوا منه أن يساعدهم في وصولهم الى مكة ، فاعتذر عن احتمال هذه المسؤولية ، ثم قال لهم : وماذا تريدون من بلد لا زرع فيه ولا نبات ولا ماء ووربما بالك من مرض يذهب بحياتكم لعدم اعتيادكم على مثل هوائه ، في حين أنكم في غنى عنه ؛ فافتنعوا بحجابه وعادوا الى بلادهم وسار هو الى مكة . وفي سنة ١٢٧٧ ذهب الى المدينة لاستقبال سعيد باشا والى مصر ، ورجع معه الى القاهرة ، ثم عاد الى مكة بعد أن صادف من الاجلال وكال الاعظام ما يليق بمقامه ، واستقر في الامارة الى أن توفي في ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٤ . وتعين أخوه الشريف حسن باشا مكانه ، فقدم اليها من الاستانة ، وكان على جانب عظيم من التقوى والصلاح والزهد والورع ودعاة الأخلاق ، واستقر حكمه الى سنة ١٢٩٧ ، حيث قتل أثناء دخوله جدة وكان ذهب اليها في موكب حافل : فتقدم اليه رجل افغانى كأنه يريد تقبيل يده وطمعنه في خاصرته ، فتوفي بعد يومين مأسوقا عليه من عموم أهل الحجاز ، ونقل الى مكة رضى الله عنه وأهلها يلهبونه بالشهيد . وتولى بعده الشريف عبد المطلب للمرة الثالثة ولكنه عزل عنها سنة ١٢٩٩ لكثرة الشقاق الذى كان بينه وبين الاشراف ، وتعين بدله الشريف عون الرفيق بن محمد بن عون ، فاخذ في تمكين قدمه في مركز الشرافة وعمم نفوذه على العرب والمأمورين من الأتراك حتى كانت الولاية كأهم من المأمورين عنده ، الا في زمن ولاية عثمان نوري باشا الأولى فإنه ضرب فيها على يديه ، ولكنه نقل من ولاية الحجاز بسعى عون الرفيق ومؤازريه في الاستانة . ومن وقتها خلا له الجو : فكان يعطى ويحرم ، ويسعد ويشقى . ويمنع وينعم . وقد كان ينزع الى مذهب الوهابية أو ما يقرب منه : فهدم كثيراً من قباب المزارات ، وخصوصاً فى المعلامة ومن ذلك قبة سيدنا عبد الله بن الزبير ، بل وصل به الحال الى أن أمر بهدم قبتي السيدة آمنة والسيدة خديجة الا أنه ما عثم أن استرجع أمره .

وكذلك أمر فاز يلت ملك الرحي التي كانت في مولد السيدة فاطمة (دار خديجة) رضى الله عنهم، وكانوا يزعمون أنها هي التي كانت تطحن عليها في حياتها، وأمر أيضاً بتوسيع باب غار حراء في جبل ثور وهو الذي خيم على بابه العنكبوت بعدما آوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع رفيقه أبي بكر عند هجرتهم من مكة إلى المدينة: وكان بابه لا يسع الا نهرا واحدا يدخل منه زاحفا على بطنه: وكان الناس يزعمون أن لا يدخله الا السعيد وأما الشقي فلا. فاراد بتوسيع هذا الباب ازالة هذا الوهم القاسد. الا أنه لم يكن له على كل حال أن يغير شكله الطبيعي مثل هذا من أجل الآثار ومن الاشياء التي كان الانسان يقتدر فيها تلك المعجزة التي خدمت الطبيعة فيها أشرف مخلوق حتى حيل بينه وبين أعدائه. وقد كان يميل سماحه الله إلى الرفه بكل أنواعه فكان عنده على الدوام المطربون بالالات والعرايحية (الطبالون) والضاربون بالوبة وحملة ما يعال في معاملته للناس انه كان بها نواها. واستقدم أنومو بيلامن أوروبا كان يركه في طريق الطائف ولكنه مات بموته. وأشياء يستأجها شمال جرول (بمكة) وهو المكان الذي يخيم عنده المحمل المصري، وجلب إليه أشجارا كثيرة من مصر والهند والشام وغيرها وساق اليه الماء من عين زبيدة، وبعالاه كان في مدته جسة من الخناث لم يسبق له بطير في مكة. أما الآن وقد انصرفت عنه المياه ومد جفت أشجاره وذهبت أزهاره وأصبح كقطعة من غابه في الصحراء سمع فيها الغربان، وترعى فيها العقبان، سبحان مغير الأحوال بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

ومات الشريف عون بالطائف يوم الاثنين ١٦ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ واخلف الناس في أسباب موته ؟؟ وكانت الشرافة بعده لأخيه الشريف عبداللهد باشا الذي كان يقيم في الاستانة، ولكن صدرت الارادة السلطانية بسمي راتب باشا والى الحجار بنوجيه الامارة الى الشريف على باشا بن عبد الله بن محمد بن عون الذي كان قائما بالمشريف في مكة، وما زال على غاية الوثام والاتحاد مع راتب باشا حتى حصلت حركة الاستانة وقام الدستور مقام الاستبداد وعزل راتب باشا لجوره وظلمه وخرج مدحورا الى الاستانة ومنها منفيا الى رودس بعد أن صودر في جميع أمواله. أما الشريف على باشا فانه ظل بالطائف

متظاهراً بمشايعة الحكومة الدستورية الجديدة، وفي يوم الخميس ١٨ شوال سنة ١٣٢٧ . حدثت فتنة بين بعض أهالي مكة والعساكر الشاهانية قتل فيها من الطرفين نحو عشرين رجلاً ، وقيل انها كانت بإيعاز الشريف علي باشا . وفي اليوم الثاني شاع في مكة عزل الشريف علي وتعيين الشريف عبد الله باشا الذي كان مقبياً بالاستانة ، ثم جاء الخبر بوفاة وتولية الشريف حسين باشا ابن علي بن محمد بن عون وكان مقبياً في الاستانة منذ سبع وعشرين سنة . فلما حضر الى مكة قام الشريف علي منها بعائلته قاصداً الاستانة ولما وصل الى السويس نزل الى مصر ولا زال بها الى الآن . أما الشريف حسين فانه قام بالأمر حق قيام مهمة لا تعرف الملل ، وضرب على أيدي قبائل العرب الذين كانوا يتحفزون للخروج على الدولة : فكان حفظه الله يرسل بعسكره مع نخله هذا الى جهة في حين ما يرسل بنجل آخر مع فرقة أخرى الى غيرها وهكذا حتى هدأت البلاد وضرب الأمن بحرايه في جميع أطراف الحجاز . ومما يذكرك له بالثناء الخليل انه أمر بجعل أجرة الخيل من مكة الى المدينة الى ينبع أربعة وعشرين ريالاً محمداً بعد أن كانت أكثر من سعين ريالاً في مذهب سلفه . وبالجملة فحكمه عدل وقوله فصل ونسيره فضل نفع الله به الدولة والماله وجعله ممثلاً لشرف بيت النبوة بجاد جده الامين . ولقد تشرفت بمعرفته مدة وجودنا بجمعية الجباب العالي بمكة فوجدته أيساً ودعياً كريم الأخلاق ، حسن السجايا ، قد جعل الوقار رؤياه ، وكل الادب جلال محياه . وفي أوائل عام ١٣٢٩ زحف الشريف حسين بخيله ورجله الى عسير لمساعدة الدولة العلية في محاربة الادريسي وعمى أن يجعل الله على يده اصلاح ذات البين وحفن دماء المسلمين فيكون له بذلك أكبر فضل في العالمين .



﴿ جدول بأسماء من تولى مكة من زمن الفتح الى اليوم ﴾

﴿ مأخوذ من السالنامة الحجازية المطبوعة بمكة سنة ١٣٠٦ بتصرف قليل ﴾

سنة هـ	تاريخ	سنة هـ	تاريخ
٥٨	عتاب بن أسيد .	١٣	الحارث بن حارثة .
١٣	عثمان بن محمد بن أبي سفيان .	١٣	قنفذ بن عمير بن جدعان .
١٣	الحارث بن خالد المخزومي .	١٣	نافع بن الحارث الخزاعي .
١٣	عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب .	١٣	خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة .
٦٤	يحيى بن حكيم .	١٣	أحمد بن خالد .
٦٤	عبد الله بن الزبير بن العوام	١٣	طارق بن المرتفع .
٦٤	«تولى الخلافة في مكة من سنة ٦٤ الى سنة ٧٣»	١٣	الحارث بن نوفل القرشي .
٧٣	الحجاج بن يوسف الثملي .	٢٢	علي بن عدي بن ربيعة .
٧٥	مسلمة بن عبد الملك بن مروان .	٢٢	الحارث بن نوفل القرشي .
٧٥	الحارث بن خالد المخزومي .	٢٢	عبد الله بن خالد بن أسيد .
٧٥	خالد بن عبد الله القسري .	٢٢	خالد بن العاص بن هشام .
٧٥	نافع بن علفمة الكناني .	٢٢	عبد الله بن عامر الحضرمي .
٨٧	يحيى بن الحكم بن أبي العاص .	٣٩	نافع بن الحارث الخزاعي .
٨٧	عمر بن عبد العزيز بن مروان .	٣٩	أبوفتادة الأصباري .
٩٧	خالد بن عبد الله القسري .	٣٩	القثم بن العباس .
٩٧	طلحة بن داود .	٣٩	عتبة بن أبي سفيان .
٩٧	عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد .	٣٩	مروان بن الحكم .
٩٧	محمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن .	٣٩	سعيد بن العاص .
٩٧	عروة بن عياض .	٦١	عمرو بن سعيد المعروف بالأشدق .
٩٧	عبد الله بن قيس بن مخزومة .	٦١	خالد بن العاص المخزومي .
٩٧	عثمان بن عبيد الله بن عبد الله بن سراقه .	٦١	عبد الله بن خالد بن أسيد .
١٠١	عبد العزيز بن عبد الله بن خالد .	٦١	عمرو بن سعيد الأشدق .

تاريخ التولية سنة هـ	تاريخ التولية سنة هـ
١٠١	عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس . عبد الواحد بن عبد الله .
١٦٩	ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومي . محمد بن هشام بن اسماعيل المخزومي .
١٨٧	نافع بن عبد الله السكناني . يوسف بن محمد الثقفي .
١٢٥	عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز .
١٢٦	عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك . أبو حمزة الخارحي .
١٣٢	عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي . مروان بن محمد بن الوليد . الوليد بن عروة السعدي . محمد بن عبد الملك بن مروان .
١٣٦	داود بن علي بن عبد الله بن عباس . عمر بن عبد الحميد بن عبد الرحمن . العباس بن عبد الله بن معبد . زياد بن عبد الله الخارثي .
٢٠٢	الهيثم بن معاوية العتكي الخراساني . السري بن عبد الله بن الحرث .
٢٠٣	محمد الحسن بن معاوية . السري بن عبد الله .
٢١٨	عبد الصمد بن علي بن عبد الله . محمد بن ابراهيم الامام . ابراهيم بن يحيى بن محمد بن علي . جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله . عبيد الله بن القثم بن العباس .
١٤٣	الحسين بن علي .
١٤٥	أحمد بن اسماعيل .
١٤٦	حماد البربري .
١٤٧	سليمان بن جعفر .
١٥٨	الفضل بن العباس بن محمد بن علي . محمد بن عبد الله بن سعيد بن المغيرة . عباس بن موسى . عباس بن محمد الامام . عبد الله بن القثم . علي بن موسى . موسى بن عيسى بن محمد بن علي . داود بن عيسى بن موسى بن علي . الحسين بن الحسن بن علي الاصغر . علي بن محمد بن جعفر الصادق . عيسى بن يزيد الجلودي . هارون بن المسيب . حمدون بن علي . يزيد بن حنظلة . ابراهيم بن موسى الكاظم . عبيد الله بن الحسن بن عبد الله . صالح بن العباس بن محمد . سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي . محمد بن سليمان المذكور . الحسن بن سهل . عبيد الله بن عبد الله بن الحسن . صالح بن العباس بن محمد .

تاريخ التولي	تاريخ التولي
٥٥٥	٥٥٥
٣٠١ ابن محارب .	اشناس الجركسي .
٣١٧ حافظ أبو الفضل .	محمد بن داود بن عيسى .
أبو طاهر الفرطلي .	٢٣٢ علي بن عيسى بن جعفر .
الفاضل الشريف أبو جعفر محمد .	٢٣٩ عبد الله بن محمد بن داود .
عيسى بن أبي جعفر .	محمد بن سليمان بن عبد الله .
أبو الفتوح الحسين بن جعفر .	محمد بن المنتصر .
حسن بن جعفر .	٣٨٥ ايتاح التركي .
أبو الطيب بن داود .	٢٤٧ عبد الصمد بن موسى .
الشريف محمد بن حسن بن جعفر	جعفر بن الفضل .
محمد بن جعفر بن محمد .	٢٥٥ اسماعيل بن يوسف .
العاسم بن محمد .	٢٥٢ عباس بن المستعين .
فليته بن العاسم .	محمد بن طاهر بن الحسين .
هاشم بن فليته .	٢٥٢ عيسى بن أحمد بن المنصور .
العاسم الملقب بعمدة الد	محمد بن أحمد بن عيسى .
عيسى الملقب بطب الد	علي بن الحسن الهاشمي .
مالك بن فليته .	٢٥٦ الموفق طلحة بن المتوكل .
العاسم .	ابراهيم بن محمد بن اسماعيل العباسي .
قطب الدين عيسى .	أبو المغيرة محمد بن أحمد بن عيسى .
داود بن عيسى .	أبو عيسى بن محمد .
مكث بن عيسى .	الفضل بن العباس بن الحسين .
العاسم بن مهنا .	هارون بن محمد بن اسحق .
مكث بن عيسى .	أحمد بن طولون .
العاسم بن مهنا .	محمد بن أبي الساح .
نكر بن عيسى .	٢٧٩ عجب بن محلب .
محمد بن مكث .	ابن المهلب .
قتادة بن ادريس .	مؤسس الخادم .

الأمراء	الأمراء	الأمراء	الأمراء
سنة	سنة	سنة	سنة
عبدالله بن محمد الثائر بن موسى .	٨٢١	الشریف الحسن بن عجلان .	٨٢١
المثنى بن الحسن .	٨٢١	بركات بن حسن .	٨٢١
الشریف الحسن بن قتادة .	٦١٧	علي بن عنان بن مغامس .	٨٢٧
نور الدين علي بن عمر بن رسول .	٦١٩	الحسن بن عجلان .	٨٢٨
صارم الدين ياقوت بن مسعود .	٦٢٦	علي بن الحسن بن عجلان .	٨٤٥
طغتكين التركي .	٦٣٠	أبو الفاسم بن الحسن .	٨٤٧
راجح بن قتادة .	٦٥٢	بركات بن الحسن بن عجلان .	٨٥١
الشریف الحسن بن علي بن قتادة .	٨٥٩	محمد بن بركات .	٨٥٩
جماز بن حسن بن فتادة .	٦٥٢	بركات بن محمد وأخوه .	٨٥٩
راجح بن فتادة .	٦٥٢	هزاع بن محمد بن بركات .	٨٥٩
عام بن راجح بن فتادة .	٦٥٢	أحمد بن محمد بن بركات .	٨٥٩
أبو نعي علي بن فتادة .	٦٨٨	بركات بن محمد .	٩١٠
جماز بن شبيحة الحسيني .	٧٠١	حميضة بن محمد .	٩١٠
أبو نعي علي بن فتادة .	٧٤٠	بركات بن محمد وأخوه .	٩٣١
حميضة ورميثة .	٧٤٠	بركات ومعه الله محمد .	٩٣١
عطيفة وأبو الغيث .	٧٤٠	بركات بن محمد وولداه .	٩٣١
نفبة وعجلان انارميثة .	٧٤٠	أونمي بن محمد بن بركات .	٩٣١
الشرم سند بن رميثة ومحمد بن عطيفة .	٧٦٤	حسن بن أبي نعي .	١٠٠٣
أحمد بن عجلان .	٧٦٥	أبو طالب بن حسن .	١٠١٠
عنان بن مغامس .	٧٨٩	إدريس بن حسن .	١٠١٢
عنان وأحمد وعقيل .	٧٩٧	محسن بن أخى إدريس .	١٠٣٢
علي بن عجلان .	٨٠٩	أحمد بن عبد المطلب .	١٠٣٧
محمد بن عجلان .	٨١٨	مسعود بن ادريس .	١٠٣٩
الحسن بن عجلان .	٨١٨	عبدالله بن حسن .	١٠٤٠
رميثة بن محمد بن عجلان .	٨١٨	محمد بن عبد الله مع زيد .	١٠٤١
		ناعمي بن عبد المطلب .	١٠٤١

سنة	الأمراء	سنة	الأمراء
١١٤٦	الشریف مسعود بن سعید .	١٠٤٢	الشریف زید بن محسن .
»	مساعِد بن سعید .	١٠٧٧	» سعد بن زید .
»	جعفر بن سعید .	»	بركات بن محمد .
»	مساعِد بن سعید .	»	سعید بن برکات .
»	عبدالله بن سعید .	»	أحمد بن زید .
»	أحمد بن سعید .	»	سعید بن سعد بن زید .
»	عبدالله بن حسن .	»	أحمد بن غالب .
»	أحمد بن سعید .	»	محسن بن حسين .
»	سرور بن مساعِد .	»	سعید بن سعد .
»	عبدالمعین بن مساعِد .	»	عبدالمحسن بن أحمد .
»	عالب بن مساعِد .	»	عبدالکریم بن محمد .
»	یحیی بن سرور .	»	سعد بن زید .
»	محمد بن عبدالمعین .	»	عبدالکریم بن محمد .
»	عبدالمطلب بن غالب .	»	سعید بن سعد .
»	محمد بن عبدالمعین .	»	عبدالکریم بن محمد .
»	عبدالله باشا ابن محمد بن عون	»	سعید بن سعد .
»	حسین باشا .	»	عبدالله بن سعید .
»	عبدالمطلب بن غالب .	»	یحیی بن برکات .
»	عون الرفیق بن محمد بن عون	»	مبارک بن أحمد .
»	علی باشا ابن عبدالله .	»	عبدالله بن سعید .
»	عبداله باشا ابن محمد بن عون	»	محمد بن عبدالله .
»	حسین باشا ابن علی » » »	»	مسعود بن سعید .
»	» » »	»	محمد بن عبدالله .



﴿ انتهى الجدول وبعض ما فيه يخالف لما جاء بكتاب مرآة الحرمين وغيره من التواريخ ﴾

الوهابية ومحمد علي في الحجاز

— * —

في سنة ١١٤٢ ظهر رجل من عرب بادية نجد اسمه محمد بن عبد الوهاب ، تلقى العلم في مكة على بعض شيوخها وأخذ يذيع عقيدة جديدة في الدين الاسلامي ، تجاوز فيها الحد الذي ذهب اليه الامام أحمد بن حنبل ، بل تعالى في بعض الامور غلوأ كبيراً ، وأخذ يرمي على أحياء العرب حياً بعد حياً يذيع فيهم عقيدته حتى اتبعه كثير من الناس ، وما زال يزداد مريدوه ويكثر تابعوه حتى قوى أمره وخافته البادية . ولما قربت أشهر الحج أرسل الى شريف مكة الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد عشرين رجلاً من قومه ليعرضوا عليه مذهبه ، وليستأذنوا له في حج بيت الله الكريم . فأمر بالقبض عليهم وسجنهم وحكم نكهرهم ففر منهم نفر الى الدرعية ممر الوهابي وأخبروه بما حصل ، فاستأذنه قومه ممنوعين عن الحج الى سنة ١٢٠٥ . وكان في امارة مكة الشريف غالب فاستأذنه في الحج فأبى فقامت لذلك الحرب بينهم . ورغمما عن موت محمد بن عبد الوهاب في سنة ١٢٠٧ فان الحرب ما زالت رحاها دائرة بينهم الى سنة ١٢١٣ ، وحصل في أثنائها خمس عشرة واقعة كانت الحرب فيها سجالات في الاخرة التي تسمى غزوة الحرمه فقد كان فيها للوهابيين النصر المبين . وفي هذه السنة تم الصلح بين الشريف غالب وعبد العزيز بن محمد بن سعود أمير الدرعية « الذي كان يهوم بنصرة الوهابي رغبة في اتساع ملكه حتى ضخم وكاد يستولي على أطراف جزيرة العرب تمامها » وتحددت في هذا الصلح منطقة يهود كل من الطرفين ، وسمح الشريف للوهابيين بالحج في سنة ١٢١٤ . فتحج سعود بن عبد العزيز ومعه خلق كثير . ثم حج أيضاً في عدد عظيم من قومه سنة ١٢١٥ . وفيها حدثت مناورة بين عربان الشريف وقوم سعود أدت الى استئناف الحرب بينهما ، وحصل من جرائها بين الطرفين ثلاث عشرة موقعة استولى ابن سعود في الأخيرة على الطائف سنة ١٢١٧ . وبعد أن تفرق الحجاج في تلك السنة خافه الشريف غالب ففر الى جده مع واليه اشرف باشا . وصار الناس

في مكة لا يقر لهم قرار من الخوف . فعند ذلك قام الشريف عبد المعين بن مساعد وأرسل كتابا الى سعود يطلب منه أمانا لخيران بيت الله الحرام ، على أن يطيعوه ويكون هو عامله على مكة . وأرسله مع وفد من أفاضل أشراف البلد الحرام وعلمائها، فاجتمعوا لسعود في وادي السيل (على مرحلتين من مكة) وعاهدوه على الطاعة . فكتب لهم أمانا في ورقة صغيرة هذه صورته : « بسم الله الرحمن الرحيم من سعود بن عبد العزيز الى كافة أهل مكة والعلماء والاغوات وقاضى السلطان، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد فأتم جيران الله وسكان حرمة آمنون بأمنه، انما ندعوكم لدين الله ورسوله . يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . فأتم في وجه الله ووجه أمير المسلمين سعود بن عبد العزيز، وأميركم عبد المعين بن مساعد فاسمعوا له وأطيعوا ما أطاع الله ورسوله والسلام » . وأرسل هذا الامان اليهم في يوم الجمعة سابع محرم سنة ١٢١٨ . فصعد مفتي المالكية على المنبر وتلاه على رؤوس الاشهاد وقاله الناس بالطاعة .

وفي اليوم الثاني دخل سعود مكة تحريماً ، فطاف وسعى ونحرنحو مائة من الابل ، ثم صعد الى بستان الشريف الذي في المحصب ، وفي ثاني يوم نزل وصعد الى أعلى الصفا وخطب في الناس وتجددت له البيعة . وفي اليوم التالي أمر بهدم القباب التي في المعلى بما فيها قبة السيد خديجة ، ثم هدم قبة مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد أبي بكر وعلى رضوان الله عليهما ، ثم أمر بجمع المؤذنين من الدعاء بعد الأذان وعدم تكرار صلاة الجماعة في المسجد الحرام : فكان يصلي الصبح الشافعي، والظهر المالكي، والعصر الحنبلي، والمغرب الحنفي، وكانت العشاء لجميعهم . وارتحل سعود عن مكة بعد أن أقام بها أربعة عشر يوماً ، وسار بجنوده الى جدة طالباً الشريف غالباً وحاصرها أياماً فلم يتيسر له أخذها لخصانة سورها وقوة مدافعها التي نالت من رجاله كثيراً . ثم ارتحل الى الشرق، فعاد الشريف غالب الى مكة في أواخر شهر ربيع الاول ودخلها ظافراً ولم يعارضه الشريف عبد المعين . وأخذت تهد اليه رؤساء القبائل لمخالفته، واستأنف الحرب مع الوهابيين الى شهر ذي القعدة سنة ١٢٢٠ .

وفيه انعقد الصلح بينه وبينهم على دخولهم مكة لاداء مناسك الحج ثم يعودون الى بلادهم . ومع ذلك فقد كان الشريف غاب عما الى الوهابيين اتقاء لشرهم ، ويتظاهر لهم بما يوافق مذهبهم : فكان أحيانا يأمر بهدم ما نقي من قباب الصالحين بمكة وجدة ، وأخرى ينه باختصار المؤدنين على الاذان دون السلام ، وغير ذلك من الامور التي توافق مذهب الوهابية . وفي سنة ١٢٢١ أحرق سعود الحمل المصري بمكة واشترط شروطا على الحمل الشامي وهو في هديته فلم يقبلها ورجع من غير حرج ، ومن ثم انقطع الحملان عن الذهاب الى مكة . وفي هذه السنة أخذ سعود جميع المجوهرات التي في الحجر الشريفة النبوية بالمدينة المنورة وكانت لا تقدر بثمن ، وطردها من مكة والمدينة وكان من طرف الدولة العلية ، واستبدأ امر الحرميين الشريفين استبداداً مطلقاً . فلما بلغ السلطان محمود كل هذا أرسل الى محمد علي باشا بان يسير جيوشه لقتال الوهابي ، فلم يتيسر له تلبية هذا الامر في وقته ، لانه منذ تولى على مصر في سنة ١٢٢٠ وهو يصل الليل بالنهار في ترتيب داخلتها وتنظيم مالياتها وتقوية حربيها . فلما توالى عليه الأوامر السلطانية بذلك جهز أول حملته وأرسلها الى ينبع تحت امره ولده طوسون باشا في رمضان سنة ١٢٢٦ ، فملكوها وما بعدها الى الصفراء بلا صعوبة ، وهناك حصلت موقعة بينهم وبين عثمان المضايقي حاكم الطائف من قبل سعود وكان معه من الوهابيين عدد لا يحصى ، فانهزم الجيش المصري وتشتت شمله في هذه القفار ، وسار طوسون الى القصير وبقي فيها منتظراً أوامره والده .

وفي محرم سنة ١٢٢٧ جهز محمد علي جيشا وأرسله بجرا الى ينبع وأمر طوسون باشا بالذهاب اليها للمحافظة عليها . وجهز في شهر صفر جيشا آخر وأرسله من طريق الرنحت بقيادة صالح أغا السلحدار ، ثم أخذوا الى ارسال الجنود والذخائر برا وبحرا حتى اجتمع له في ينبع قوة كبيرة . وكان طوسون يكتب الشريف غالبا ويسترشد برأيه ويعمل بتدبيره ، وأرسل الى مشايخ حرب حجاز وافأحسن استقبالهم وأهال عليهم الخلع والاموال ، فساروا في خدمته حتى دخل المدينة المنورة في شهر ذي القعدة وأخرج من كان فيها من الوهابيين ،

وسارت فرقة من الجنود التي في ينبع الى جدة من طريق البحر فدخلوها من غير مقاومة . فلما علم بذلك عسكر الوهابي الذين بمكة خرجوا منها وتركوا قلاعها خاوية . ثم سارت فرقة من الجنود المصرية من جدة الى مكة ، فقاتلهم الشريف غالب بالاكرام التام ، ودخلوها واحتلوا قلاعها . وبلغ ذلك عسكر الوهابي الدين بالطائف فتركوه وساروا الى الدرعية . ولما وصلت البشائر الى مصر باستيلاء العساكر المصرية على المدينة المنورة وجدة ومكة ، أمر محمد علي باشا بتزوين القاهرة خمسة أيام وأرسل مبشرا الى الحضرة السلطانية بهذا الفتح المبين ، فكان لذلك يوم مشهود في الاستانة .

وفي شهر ربيع الثاني سنة ١٢٢٨ مات سعود بالدرعية وتولى مكانه ابنه عبدالله . وفي ١٤ شوال منها سار محمد علي باشا من مصر قاصدا الحجاز ، فوصل الى جدة في أواخره وكان الشريف غالب حاضرا لاستقباله فيها . وما استقر بها محمد علي حتى أتته رسل من عند ابن سعود يطلب الصلح ، فاشتراط أن يدفع له الوهابي جميع المصاريف التي صرفت على العساكر من أول الحرب الى ذلك اليوم ، وأن يأتي هو لا مضاء هذا الصلح بنفسه . وفي اليوم التالي استعرض عسكره أمام هؤلاء الرسل فأدهشهم حركاته ونظامه . ثم سار محمد علي الى مكة وفي خدمته الشريف غالب ونزل في بيت العرطسي ، ونزل طوسون باشا في بيت السقاف بالشامية . وكان كل من محمد علي والشريف غالب على حذر من بعضهما ، فاراد محمد علي أن يخلو له الجوقا مروله طوسون باشا بالقبض على الشريف غالب وأولاده وكان ذلك في أواخر ذي القعدة سنة ١٢٢٨ ، ثم أرسله مع أولاده الى مصر ومنها الى سلايك . وولى مكانه الشريف محيي بن سرور .

ومكث محمد علي بمكة يرب أمورها ويغزو بجنوده كل قبيلة نبذت طاعته أو نقضت عهده ، وبعد أن حج سنة ١٢٢٩ توجه بعسكره الى الطائف ، ووقع بينه وبين الوهابيين في افتتاح سنة ١٢٣٠ جملة وقائع ملك بعدها تربته وربنة وبيشة وعسير . وكان كل جهة يملكها ينظم شؤونها ويعين عليها أميرا من عنده . وما زال ينتقل من اماره الى أخرى في جزيرة

العرب حتى عاد الى مكة في شهر جمادى الاولى ، فرتب بها مرتبات الى كثير من الاشراف وغيرهم على حسب ما تقتضى به المصلحة العامة ، وهى باقية لا ولادهم الى الآن . ثم رجع الى مصر بعد أن عين حسين باشا الارناؤوطى والياً على مكة ، وأقام ابنه طوسون باشا قومنداناً عاماً على القوة العسكرية التى بالحجاز .

وفى شهر شعبان من هذه السنة عقد طوسون باشا صلحاً بينه وبين عبد الله بن سعود على أن يترك الحرب ويحقتنا الدماء وأن يذعن الوهابى لحكومة الحجاز . وأرسل ابن سعود وفداً من عليه قومه الى طوسون ليؤكدها هذا العهد ، فبعث بهم الى والده بمصر فلم يرق فى عينه هذا الصلح . واستقر طوسون باشا فى الحجاز الى ذى القعدة ، ثم رجع الى مصر بأمر من أبيه فوصلها فى شهر ذى الحجة ، وعملت له فيها زينة كبيرة . وكان ولد له فى غيبته ولده عباس باشا الاول . وما زال بمصر حتى توفى سنة ١٢٣١ بالطاعون وعمره نحو عشرين سنة .

وفى محرم سنة ١٢٣٢ أرسل محمد علي ولده ابراهيم باشا الى الحجاز لحوادث الوهابيين . فسار فى عسكر كثيف الى مكة ومنها قصد الدرعية . ولما وصل الى مكان يقال له مرنان وقع بينه وبين الوهابيين قتال شديد انتصر فيه عليهم ، واستولى بعد ذلك على مدينة الشمرى ، ثم سار الى الدرعية فحاصرها عبد الله بن سعود واستولى عليها فى ذى القعدة سنة ١٢٣٣ بعد قتال شديد ، وقبض على عبد الله بن سعود أمير الوهابيين وعلى كثير من بنيهم وأهليه ودويه ، وبعد أن جعل على مدينتهم ساقطها سيّرهم الى مصر . فلما أنت البشائر الى محمد علي زين القاهرة زينة كبرى وأمر باطلاق ألف مدفع . ووصل ابن سعود ومن معه الى القاهرة فى أوائل شهر المحرم سنة ١٢٣٤ ، فدخلوها فى موكب عظيم ، وقال محمد علي ابن سعود نانى يوم فى سرايه بشرا بصدر رحب ، وقدم اليه الوهابى صندوقاً صغيراً فيه ما تبقى عنده من الخواهر التى أخذها أبوه من الحجر الشريفة النبوية : ومن ذلك ثلاثه مصاحف مكللة بالخواهر الثمينة ، وبنائة حبة كبيرة من اللؤلؤ ، وقطعة كبيرة من الزمرد . ثم أرسل عبد الله بن سعود الى الاستانة فصلبوه على باب همايون . وفى هذه السنة حج ابراهيم باشا وعاد الى مصر فعملت له فيها زينة كبيرة مدة سبعة أيام ، ومن ثم صارت بلاد الحجاز من أدناها الى أقصاها خاضعة لحكم محمد علي .

اماما كان من أمر آل سعود فانهم اجتمعوا أمرهم لاسترجاع نجد الى حكمهم بعد ان هدم ابراهيم باشا دار ملكهم فتم لهم ذلك . وكان الأمير عليهم فيصل بن تركي ابن عم عبد الله بن سعود ، فلما استفحل ملكه خافه محمد علي وسير اليه خورشيد باشا سنة ١٢٥٣ ، فاستولى على الدرعية بعد جملة وقائع بينه وبين الوهابيين ، وقبض على فيصل في سنة ١٢٥٤ وأرسله الى مصر ومعه كثير من آل سعود . ووالى الامارة بعده خالد بن سعود ، فثار عليه عبد الله ابن ثنيان واتزعها من يده . فبلغ ذلك فيصلا بعصر وهو سجين بالقلعة : وكانت له صلة بعباس باشا الاول ، فشكا اليه ما يلقيه من تغلب ابن ثنيان على بلاده ووعده ان هو خلاصه من سجنه وصار له الحكم في قومه يصير من رجاله ومن رجال محمد علي . فساعده عباس باشا على الهرب . فسار فيصل حتى نزل على ابن الرشيد أمير شمر ، فاكرم وفادته وسير معه بعض رجاله الى ابن ثنيان . وبلغ ذلك قومه فبادر اليه كثير منهم وساروا معه الى القصيم فحاصرها وأخذ ابن ثنيان أسيرا وما زال في سجنه حتى مات ، وتم لفيصل اسبلاؤه على نجد سنة ١٢٥٨ واستقامت له الامور فيها الى أن توفى سنة ١٢٨٢ ، وله من البنين (عبد الله . وسعود . ومحمد . وعبد الرحمن) . فاستولى عبد الله بن فيصل على الامارة ، فوقع خلاف بينه وبين أخيه سعود الذي فر الى البحرين فساعده أميرها وخرح في قبائل العجمان وسار الى نجد ، والتقى برجال أخيه عبد الله وعليهم أخوه محمد بن فيصل ، فحصلت بينهم موقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الفريقين ، وكانت الغلبة لسعود بن فيصل ففر عبد الله أخوه الى العراق وجمع له جموعا والتقى بحيش أخيه سعود الذي كانت له العلبة عليه أيضا . فمصد عبد الله أطراف نجد يستجد قبائلها فلم يحصل على طائل ، ومن ثم توطدت قدم سعود في الامارة وأخذ يركب كثيرا من المظالم ، ولكن مدته لم يطل بأكثر من سنة حتى عصت عليه قبائل نجد ، وتكررت عليه أيامه ومات حتف أنفه . وتولى الامارة بعده ولداه محمد وعبد العزيز ، فاستجمع عبد الله ابن فيصل قوة واستولى على الرياض عاصمة الامارة . وفر محمد وعبد العزيز الى مدينة الخرج القريبة من الرياض ، وحصلت بينهما وبين عمهما مناوشات انتهت بهدنة بين الطرفين . ثم حصلت بينهما وقائع كانت الغلبة فيها لعمهما عبد الله . وفي هذه الاثناء كانت امارة الرشيد

تتقوى بانقسام الكلمة بين آل سعود ، حتى عسلا أمره . فطمع في اماره نجد وتحرك اغزوة ابن فيصل من الحائل وحصره في الرياض مدة انتهت باستيلائه عليها وأسر عبد الله بن فيصل وأتى به الى الحائل معززا مكرما فاقام فيها نحو سنة ثم طلب الرجوع الى الرياض ، وبعد وصوله اليها توفي فيها . وكان ولداً أخيه سعود (محمد وعبد العزيز) في الخرج . وكان ابن الرشيد غير مستريح منهما فترقب الفرص فيهما حتى قتلهما واستولى على نجد . اما الرياض فكان فيها ولداً فيصل محمد وعبد الرحمن وكان لهما الأمر في بلدهم خاصة وتوفي محمد واستفل بالامر عبد الرحمن . وكانت بلاد القصيم بعد زوال حكم آل سعود مستقلة بيد أميرها حسن بن مهنا ورامل بن سليم فحصل بينهما وبين ابن الرشيد خلاف وقع بسببه حرب كانت الغلبة فيه لابن الرشيد وكان عبد الرحمن بن فيصل قد سار لمساعدة أهل القصيم فلما حصل الظفر لابن الرشيد واستولى على القصيم التجأ عبد الرحمن بن فيصل الى الكويت وهي في اماره ابن صباح واستجمع له قوة لقي بها ابن الرشيد ، فظهر عليه ابن الرشيد و بذلك صار له الحكم في كل نجد . وأقام عبد الرحمن في الكويت و ردت له الدولة العثمانية مر بيا يصله من البصرة حتى مات ، وله من البنين عبد العزيز ومحمد وسعد .

وكانت حصلت فتنة بين مبارك بن صباح وأخوته فمكثهم ففرت أولادهم مع خالهم يوسف ابن ابراهيم الى البصرة . واستغاثوا بالدولة العثمانية فلم تلتفت اليهم . فاستنجدوا بأمير نجد عبد العزيز بن الرشيد فكتب عبد العزيز الى الحكومة العثمانية بان ترخص له بالزحف على الكويت والاستيلاء عليها مدعيان ابن صباح قصد الاستيلاء بالاكيز وتسليم الكويت اليهم . وقصد بذلك اغراء الحكومة العثمانية به وانعلا بها عليه . فقبلت الحكومة كلامه وامدته برجالها وحصل بينه وبين ابن صباح واقعة كبيرة كان النصر فيها لابن الرشيد . فبلغ انتصاره الى الحكومة العثمانية وأخبرها انه قتل ابن صباح « وكان خبره غير صحيح » وطلب منها أن يستولى على الكويت . فجهزت العسكر لذلك من البصرة ، وعندها طلب ابن صباح ان يكف الحكومة عداها عنه وتدع الطرفين لبعضهما . فلم تلتفت الدولة الى ذلك فقام عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل من الكويت بجيشه ، وهجم على عامل ابن الرشيد

في الرياض فقتله واستولى عليها وحصنها بسورتين، ثم حصلت بينه وبين ابن الرشيد وقائع كثيرة كانت تارة له وأخرى عليه، واستولى بعدها على أغلب بلاد نجد إلا الحائل وجبال شمر فأنها بقيت في يد ابن الرشيد إلى الآن .

وهنا يحمل بناءً أن نذكر كلمة عن أسيرة الرشيد لتمام الفائدة فنقول :

كان عبد الله بن الرشيد أميراً على شمر وكان له ثلاثة بنين وهم طلال ، ومتعب ، ومحمد . ولما مات تولى بعده ولده متعب ، فقتله بدر و بدر ولدا أخيه طلال واستوليا على الإمارة ، فقتلها عمهما محمد واستولى عليها : وكان رجلاً عاقلاً كريماً سارت الركبان بسيرته وتحببت الناس بلباهته خصوصاً بعد أن انتهى حرب الوهابية وأسرع عبد الله بن سعود وتشتت آل دودو . لذلك أخذت سلطة محمد بن الرشيد تمتد في أطراف نجد خصوصاً بعد أن اشتعلت نار الشحنة بين بني فيصل بن تركي . ومات محمد بن الرشيد ولم يعقب ولداً فتولى الإمارة عبدالعزيز بن أخيه متعب ، فقتله سلطان وسعود ولدا حمود بن الرشيد واستوليا على الإمارة معاً ، ثم وقع بعد ذلك خلاف بينهما فقتل سعود أخاه سلطاناً وأفرج بالولاية . وكان لعبد العزيز بن متعب ولد صغير اسمه سعود هرب به حاله السهمان بعد قتل أبيه إلى المدينة ، وأقام بها مدة طويلة ثم سار منها بحيش كبير بتواطؤ مع قبائل شمر ، وهجموا على سعود بن حمود في الحائل وقتلوه واستولى سعود بن عبدالعزيز بن متعب على إمارة شمر ولا يزال فيها إلى الآن .

✱

الحرم المكي

كان الحرم المكي في مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم على حدود المطاف الآن ، وهي حدوده القديمة من عهد إبراهيم عليه السلام . فلما كثرت سواد المسلمين زاد فيه عمرو عثمان شيئاً مما اشترياه من الدور التي كانت حوله ، وزاد فيه عبد الله بن الزبير عندما بنى الكعبة ، وأقام ما كان تروم منه . وكذلك زاد فيه الوليد بن عبد الملك وعمه ، وعمارته تذكراً ، وهو

أول من نقل اليه أساطين الرخام: واهتمام الوليد بالعمارات لا ينكر، يعرفه من شاهد قبسة الصخرة بالقدس الشريف ورأى ما بقى فيها من آثار الموزاييك الذهبية وغيرها من أعمال القيشاني التي تدهش العفل ويحار فيها الفكر. ويوجد في المسجد الاموي بدمشق الى الآن شئ من أثر عمارته لم تصل اليه يد الحريق، وبه أعمال موزاييك ذهبية بدعة جداً على حائط الصحن الجنوبي والغربي.

ولما حج الخليفة محمد المهدي سنة مائة وستين رأى أن البيت ليس في وسط المسجد فاشترى كثيراً من البيوت خصوصاً في الجهة الشرقية القبلية وزادها في المسجد، وأدخل اليه كثيراً من الارورارات التي كانت فيه وكانت في ملكية الغير، ثم أتى من بعده ابنه الهادي فأكمل ما بقى في مدة والده.

وكانت دار الندوة عامرة بالحرم تجاه الكعبة من الجهة الشمالية الغربية، وكان ينزل بها الخلفاء والامراء في حجهم في صدر الاسلام، ولكنها أهمل أمرها في منتصف القرن الثالث الهجري فأخذت تهدم بناؤها، فكُتِب في ذلك الى الخليفة المعتضد العباسي فأمر بها فهدمت في سنة إحدى وثمانين ومائتين وجعلت مسجداً وفيها قبلة الى الكعبة، ثم جعلوا لها قبة عالية، ثم غير شكلها فيما بعد الى شكل آخر، واستقر مقامها يصلي فيه الامام الحنفي الى أن أتى الامير كلدي أمير جدة في سنة ٩٤٧ هـ فهدمها، وبنى المقام مربعاً ذا طبةتين: الاولى للامام والمصلين، والثانية للمؤذنين والمبلغين وهو على هذا الشكل الى الآن.

وفي سنة ٨٠٢ احترق الرواق الشرقي، فأمر الملك الناصر فرج بن برقوق ملك مصر بتعمير ما خرب منه، ووضع بدل الاعمدة الرخام التي احترقت أعمدة من الحجر الشميسي. ومن ثم كانت تقوم بعمارده الحرم ملوك مصر، وحسبك العمارة التي قام بها السلطان قايتباي في سنة ٨٨٦.

وفي سنة ٩٧٩، مال الرواق الشرقي من الحرم ميلاً محسوساً فأمر السلطان سليم الثاني بأن يرسل المعمار يون والمهندسون والصناع من جميع الاصناف لعمارة، فأرلوا سقفه

جميعه وأساطينه كلها وهدموا محيطه وبنوه على الترتيب الحالى، وأقاموا أعمدة الرخام بين أساطين حجرية متناسبة الوضع، وبنوا عليها قبا بأبدل السقوف التى كانت تطحنها يد الرطوبة المتخلفة من الامطار، مع ما كان يكثر فيها من الحيوانات التى اشتهرت بعداوتها للأخشاب كالارضسة والسوس وغيرهما من الحشرات المضرة . وفى أثناء هذه العمارة مات السلطان، وكان الذى انتهى منها الجانب الشرقى والشمالى فقط، أعنى من باب على الى باب العمرة . ولما تولى السلطان مراد خان أمر بنعيم العمارة على الوجه الذى كان قد أمر به والده، فتمت على أحسن حال بالشكل الذى تراه الآن . وليس لمن بعده من السلاطين بهذا الحرم الا عمارات ترميمية أو سكيلية .

وفى هذه العمارة زل العمال أرضية الشارع الموصل الى المسفلة، بحيث صار يصرف ماء ساه يدخل الى الحرم من مياه السيول التى كثيرأما كانت سبباً فى بعض أركانها وهدم بنيانه . وكانت الزيادات التى تتحلف من الدور التى دخلت فى ترسع الحرم الشريف فى كل عماراته يبنى بعضها مدارس وبعضها أروقة بسكن فيها فراء طلبة العلم فى المسجد، وكان لها أوقاف جمة، ولكن كثيرأما تغيرت أوقافها واستبدلت بغيرها وأخرجت من يد واقف الى يد غيره أقوى منه، ومن ذلك مدرسة قايتباى التى لا تزال الآن على يسار الداخل من باب السلام، فانها بعد أن كانت مدرسة تدرس فيها علوم الدين ولها أوقاف بمصر تصرف غلاتها عليها، ضعفت أوقافها شيئاً فشيئاً، فملوها من دار علم الى دار ضيافة كان ينزل اليها أمراء الحاج المصرى، ثم صار يسكنها بعض أشرف ذوى غالب وهى فى أيديهم الى الآن . ولا يزال المحملان المصرى والشامى بوضعان أيام وجودهما بمكة لصق حائطهما الذى من داخل الحرم، وبحوارهما من الخدم ما يهوم بحراستهما . وعلى يمين باب السلام مدرسة يقال لها المدرسة السليلية بها كتب بخانه تقدم الكلام عليها فى مكة .

والحرم من داخله على شكل مربع (منتظم تقريباً) وفى وسطه (بميل الى الزاوية الجنوبية) الكعبة المكرمة . وطول ضلع الحرم المقابل للحطيم وهو الذى فيه باب الزيادة مائة وأربعة وستون متراً، وطول الذى يقابله وهو الذى فيه باب الصفا مائة وستة وستون متراً،

وضلعه الذى فيه باب السلام مائة متر وثمانية ، والذى يقابله وهو الذى فيه باب ابراهيم مائة وتسعة أمتار : فيكون مسطحه من الداخل سبعة عشر ألفاً وتسعمائة واثنتين من الامتار المربعة ، وهو ما يزيد عن أربعة أقدنة وربع . أما من الخارج فتوسط طوله مائة واثنتان وتسعون متراً ، وعرضه مائة واثنتان وثلاثون متراً (وهذا حسب تحقيق المرحوم محمد صادق باشا أمير الحاج المصرى) . ويحيط بالحرم من داخله أربعة أقدنة وثلاثمائة وأحد عشر عموداً ، يتخللها مائتان وأربع وأربعون اسطوانة من الحجر الشميسى الاحمر ، تقوم عليها قباب على محيط المسجد . وعلى بعض هذه العمد كتابة محفورة فيها ، تدل على ما كان لبعض الملوك من العماره فى المسجد أو من الاعمال التى فيها نفع للمسلمين كإبطال المكوس ونحو ذلك : ومن هذه الاعمدة عمود يقرب باب الحزورة لا يزال مقوشاً عليه عهد كتبه الاشرف شعبان سلطان مصر بإبطال المكوس التى كانت تأخذها أشرف مكة على الحجيج . وأغلب هذه العمد مطلى بالجبس : لأن بعض أمراء مكة ساء بهم الله كانوا اذا أرادوا بعض العهود المحفورة عليها ، عمدوا الى تلك النقوش وكسوها بعجينة من الجبس فلا يظهر لها أثر .

وأبواب الحرم ثمانية فى الجهة الشمالية : وهى باب الدريسة ، وباب المدرسة ، وباب المحكمة وباب الزيادة ^(١) ، وبجواره الى الغرب باب الفطحي ^(٢) ، وباب الباسطية ^(٣) ، وباب الزمامية ، ثم باب عمرو بن العاص ^(٤) . ويليه من الجانب الغربى ثلاثة أبوابها باب العمرة ^(٥) وباب ابراهيم ^(٦) ، ثم باب الحزورة ^(٧) . ويليه من الجهة الحنوية سبعة أبواب : أولها باب أم هانئ ^(٨) ، وباب العجلة ^(٩) ، (ويسمونه باب التكية) ، وباب الرحمة (أو المحاهدة) ،

(١) لأن هذه الجهة رادت فى المسجد فى عمارته الاخيرة . (٢) نسبة الى الفطحي صاحب نار يع مكة وكانت له مدرسة يقيم فيها . (٣) لأنه محاور لمدرسة عبد الباسط . (٤) وكان يسمى الباب العميق وباب السدة . (٥) لأنهم يخرجون منه الى العمرة ويقال له باب بى سهم . (٦) وهو نسبة الى رجل خياط كان يسكن بجواره . (٧) وكان يسمى باب بى الحكم ، والحزورة اسم لسوق فى الحاهلية كانت فى هذا المكان ودخلت فى الحرم عند توسعته . ويسمونه باب الوداع لأن الناس يخرجون منه عند سفرهم . (٨) وهى روجه هيرة بن عمرو المحروم ولها كان لها بيت هناك أدخل فى الحرم .

(٩) وكان يقال له باب بى نعيم .

وباب أجياد أو (السنبلة)، وباب الصفا، وباب بني مخزوم، ثم باب بازان^(١). وبلى ذلك من الجهة الشرفية أربعة أبواب : وهي باب بني هاشم (أو باب علي)، وباب العباس^(٢) (أو باب الجنائز)، وباب النبي^(٣)، ثم باب السلام^(٤) وهو الذي يدخل الحاج منه إلى الحرم عند طواف القدوم. ومجموع هذه الأبواب اثنا عشر باباً، ولكن منها ما لم يدخل واحد ومنها ما لم يدخلان أو ثلاثة أو خمسة فيكون مجموعها تسعة وثلاثين مدخلا.

وفي رحبة باب ابراهيم تجد آلافاً من فقراء حجاج الدكارنة واليهود والمغاربة وفيهم كثير من المقعدين^(٥) الذين لا يفدرون على الحركة، فيمضون هناك أيامهم عائشين من حسنة أرباب الخير، وربما كان منهم بالمسجد ما تلجئهم الضرورة إليه مما لا يصح التوسع في شرحه. وهذا أمر لا يليق بكرامة حرم الله ! فهل لحكومة الحجاز أن تفكر في أمر هؤلاء البؤساء وتقيم لهم دار ضيافة يأوون إليها ولو في مدة الموسم، وعسى أن ديوان الأوقاف بمصر أو الاسنانة يتدارك ما أهملته حكومة الحجاز فيكون له الثواب الجزيل.

وفي المسجد ست منارات : الأولى مارد باب العمرة وهي من أعمال الخليفة المنصور العباسي في عمارته للمسجد سنة مائة وثمانين، ومارد باب السلام، ومارد باب علي، وماردة الخرورة وهي من أعمال المهدي العباسي في عمارته للمسجد سنة مائة وثمانية وستين،

(١) لقربه من سقاية ناران ويسمونه باب العملة.

(٢) لأنه مقابل لدار العباس وسمى باب الحائر لأنه يخرج منه إلى الملعى.

(٣) لأنه كان صلى الله عليه وسلم يدخل المسجد منه لقربه من دار حديجة.

(٤) وكان يسمى في الخاهلية باب بني عبد شمس وعرف الآن باب بني شبة. وسمى باب السلام لدخول

الناس منه عند طواف القدوم الذي هو تحية المسجد الحرام.

(٥) أعلت هؤلاء المقعدين من عبيد أهل مكة الذين إذا وصلوا إلى الشيوخوة أو اعترتهم غاهة تعمد بهم عن العمل طردهم سادتهم تخلصاً منهم، فيلجئون إلى بيت الله الحرام ويعيشون من لقيات أهل الخير حتى يبولاهم الله بأحدى الحسينيين : من كات القاصيه فقد أراحهم الله من دسائهم، وان كات العافيه استردهم سادتهم إلى خدمهم. ولا بد لحكومة الحجاز من أن تزي رأيها في هؤلاء العساء فتجمل لهم ملجأ يأوون إليه خدمه للاسباية. ويهده المناسبة نقول لك ان أهل مكة يعملون مثل ذلك في حمرهم أو خيلهم التي يقعد بها كبر السن أو المرض : فيسكنونها في شوارع مكة تلجس القمامة من طرفها وما يصح منها أحده أصحابه لاسعمال. في خدمهم مرة أخرى !

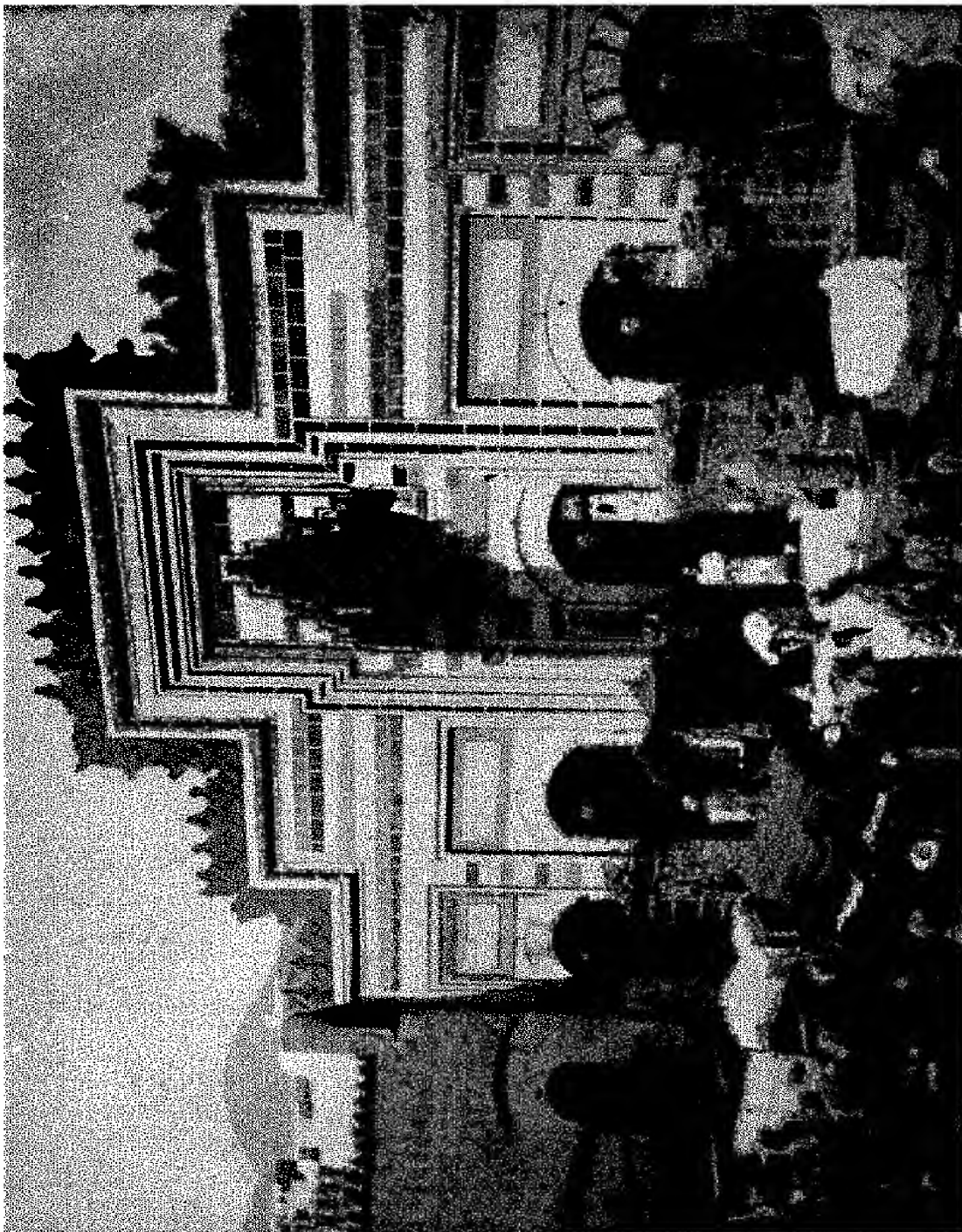
[illegible]

ومنارة باب الزيادة وهي من أعمال المعتضد العباسي سنة مائتين وأربع وثمانين، ومنارة السلطان قايتباي . وقد حصلت في جميعها ترميمات وزيادات في مدة العماراة التي قام بها السلطان سليم الثاني في المسجد ، وكلها باقية لآن يؤذن عليها في الاوقات الخمس . وشيخ المؤذنين أو الميقاتي يؤذن على فبة زمزم ، وفيها مزولة مثبتة في حائطها الجنوبي ، من عمل رجل من مراكش أهداها الى الحرم ، وهي عاية في الضبط والاحكام وعليها ميقاتهم في النهار . فاذا دخل الوقت بدأ الرئيس بالادان فيتبعه المؤذنون الذين على المنارات بأصوات يحركها الهواء على طبلة الادن فتحدث لها اهتزازات في القلب يمتلئ منها خشية ورهبة وخشوعا وخضوعا .

وعلى حدود المطاف خلف كل ضلع من أضلاع البيت ، سفيفة قامت على أعمدة من الرخام : فالشامية مصلى الامام الحنفى ، والغربية للامام المالكي ، والجنوبية للامام الحنبلى ، أما الامام الشافعى فيصلى في مقام ابراهيم أو في المطاف مما يلي الكعبة مباشرة جاعلا بابها على يساره . والحنفى يتدى بالصلاة في جميع الاوقات ويتلوه المالكي ثم الشافعى ثم الحنبلى ، الصلاة الصبح فيبدأ بها الشافعى ويتأخر بها عنهم الحنفى . ومما يلاحظ في الحرم ان أهل كل جهة من العالم الاسلامى يجلسون عادة في الجهة التي يستقبلون فيها الكعبة في بلادهم : فالاعجم تجدهم عند باب السلام ، والشوام والأتراك يسهو بين باب الريادة ، والمصريون وراء المنام المالكي ، واليمانيون والحاوذه واليهود وراء المنام الحنبلى . ومن أعرب ما شاهدت ان بعض المصريين يستعمل هناك البوصلة التي عملت للصلاة بمصر ولوحظ فيها الاتجاه لجهة مخصوصة ، ولا يمكن أن تؤدي وظيفة الا في البلاد التي على اتحاد مصر من الكعبة ، أما اذا وضعت مثلا في طريق المدينة أو اليمن أو الطائف فانها لا تؤدي وظيفتها المرة ، فليهم ذلك من مجله .

وللحرم صحن كبير غير مسقوف تقطعه مماشى محجوره ، وما يها أرض بها زلط دون القولة يسمونها الحصباء ، وأول من حصب أرضية الحرم عمر رضى الله عنه . والكعبة في وسط صحن المسجد يميل الى الجنوب ويليها من الشرق مقام ابراهيم . وفي جنوبه الشرقى قبة زمزم التي بناها

باب الصفا بالخرم المكي



أبو جعفر المنصور في سنة مائة وخمسة وأربعين وفرش أرضها بالرخام، وعمقها المأمون ، أما الشبكة التي على فوهتها فقد أمر بعملها السلطان أحمد العثماني . وشرقي زمزم إلى الشمال باب شبية، وهو بأكية كبيرة قامت وسط الحرم في حدود المطاف، على عمودين من البناء المكسو بالرخام، في المكان الذي كان به باب المسجد في مدته صلى الله عليه وسلم . وفي شمال المقام المنبر، وهو من الرخام غاية في حسن الصناعة أهداه إلى الحرم السلطان سليمان القانوني ، ومكتوب على بابه بالخط الذهبي الحيل (انه من سليمان وانه سم الله الرحمن الرحيم) . وأول من وضع المنبر في المسجد الحرام معاوية بن أبي سفيان حين قدومه إلى مكة حاجا . وكان الخلفاء قبله يخطبون على أرضية المسجد تحت جدار الكعبة أو في الحجر ، ثم أهدى إليه سنة مائة وسبعين منبر من خشب جميل من صناعة مصر لمناسبة حج الرشيد الذي خطب الناس عليه في حجه في السنة المذكورة . وفي خلافة الواثق أمر بعمل له ثلاثة منابر: واحد وضع في الحرم، والثاني في عرفة، والثالث في منى ، وخطب في حجه عليها جميعها . وقد كان الخطباء إذا أرادوا الخطبة في الحرم وضعوا المنبر لصق جدار الكعبة بين الركن الأسود والركن اليماني، فاذا أراد الخطيب أن يحط استلم الحجر أولاً ثم دعا وصعد المنبر . وبعد الخطبة كان ينقل المنبر إلى مكانه بجوار زمزم ، فلما أهدى السلطان سليمان إليه منبره الرخامي بقي مكانه واستقرت فيه الخطبة إلى اليوم . وفي حوائط المسجد الحرام من الداخل أبواب بعضها منافذ لبعض المدارس على الحرم، وبعضها مخازن في يد خدمة المسجد أو الزمزمة، وهؤلاء يستعملونها أحيانا للاستحمام كبراء الحجاج فيها بماء زمزم أو وضوئهم منها .

والحلمة فشكل (١) الحرم المكي على بساطته في بنائه نفيم جدا، ووضعه صحي ،

(١) ومما نراه على شكله تقريبا جامع عمرو بمصر القديمة، ومسجد أحمد بن طولون بالقاهرة وإن كان في مساحته أكبر من الحرم: ويقال أن هذا المسجد بني تماما على شكل مسجد في مدينة سر من رأى، وهي بلدة كانت تبعد عن بغداد بحولتين مئلا، وكان اسمها أولا سمرافكبرها المعظم بالعمارة وبني له فيها قصراً جميلاً وسماها سر من رأى . وفي وسط صحن مسجد ابن طولون قبة عالية تحميها مئذنة وصفت على شكل مربع بقرب وضع بيت الله المعظم من المسجد الحرام وتسميها العامة بالكعبة، ونحوار هذه القبة من جهة القبة مئذنة (بصح الأول وسكون الثاني) من الخشب يزعمون أنها من سفينة نوح ولكم سألهم الله إذا كانوا وصعدوا ذلك الكباراً لشأن هذه الكعبة المزورة فهل يمكنهم أن يرشدونا عن الرمان والمكان اللذين عثروا فيها على آثار أول سميعة في العالم ؟

وصحبه الكبير يؤدي بلا شك للمدينة وظيفة الميادين الكبرى، كما سبق لك بيانه في الكلام على مكة .

وشيخ الحرم هو الوالى عادة ، وللحرم الشريف نائب، وقائم للنائب، ومدير يقوم بشؤونه . وعدد خدمة الحرم الشريف ٧٠٠ نفس : منهم ١٢٢ خطباء وأئمة للمذاهب الاربعة . و ١٠٧ مدرسون . و ٤٥٥ مؤذنون . و ١٠٠ مشدون . و ١٢ فراشون . و ٨ وقادون . و ٢ كناسون . و ٣٠ بوابون . و ١١ جبادون (ملاءون) من نثر زمزم . و ١٠٨ غسالون لقناديل الحرم . وهناك وظائف أخرى أخصها وظائف الاغوات وعددهم ٥١ وهم يقومون بخدمات مختلفة فى الحرم ، وأول من رتب الاغوات فى الحرم المكي للخدمة فيه هو الخليفة أبو جعفر المنصور . أما الذين يقومون بخدمة الكعبة المكرمة فهم سدنتها من نبي شيبة . والخدمة فى الحرم وراثية غالباً ما عدا شيخه ومديره فانهما يعينان من طرف السلطنة العظمى ، ووظيفة الاول تكاد تكون سياسية أكثر منها ادارية . والخدمة فى الحرمين الشريفين محترمة جداً ويتشرف بالنسبة اليها الخلفاء والسلاطين من زمن بعيد الى الآن . ويوجد ضمن رتب الدولة العلية العالية رتبة مخصوصة اسمها « خادم الحرمين » .

الكعبة المعظمة

كان الله تعالى يرسل رسله الى خلقه فى ظروف مخصوصة ليعلموهم واجباتهم فى دينهم وديناهم ويرشدوهم الى طريق الخير الذى به تتم السعادة الحقيقية . فاذامضت على ذلك فترة من الزمن خبط الناس فى سيرهم وخلطوا بين عمل صالح وآخر سيئ ، حتى اذا تغلب عليهم عامل الفساد بطبيعة الحال ساء أمرهم ونسوا رساله ربهم اليهم وضلوا ضلالاً مبيناً . ولما كان من طبيعة الوجود ضرورة وجود خالق قوى قادر ، صار كل انسان يتخذ له معبوداً على ما يتجسم فى ضميره ويتعظم فى وجدانه : فكان هذا يعبد البارز عمه انها القادرة على كل شئ . وذلك يعبد الشمس لان بها نظام العالم ، وآخر يعبد الاحجار لانها هيولى هذا الوجود : وهؤلاء الاخيريون

في أي القبائل تختص بشرف وضعه في محله ، وكاد يفضي الأمر إلى إشهار السلاح فيما بينهم . وكان صلى الله عليه وسلم يعمل معهم وعمره اذذاك خمس وثلاثون سنة ، وكان له فيهم شأن عظيم لحسن سيرته وكمال أخلاقه ، وكانوا يسمونه بالأمين ، فارتضوه حكماً . فطلب رداء ووضع فيه الحجر وأمر القبائل فامسكت بأطرافه ، ورفعوه بالجرح حتى إذا وصل إلى مكانه من البناء في الركن الشرقي وضعه فيه بيده الشريفة : وهذه الفكرة السامية والسياسة الرشيدة انتهت الشجناء من بين القبائل ، وهم له شاكرون وبشدة ذكائه متحدون . وكانت النفقة قد قصرت بهم فبنوا الكعبة على ما هي عليه الآن . وكان الحجر أولاداً خلائفها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة رضي الله عنها : « لولا أن قومك حديثو عهد بآل سلام لهدمت الكعبة فالزقتها بالارض ، ولجعلت لها باباً شرفياً وباباً غربياً ، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فان قرىشا استعصرتها حينما بنت الكعبة » . فلما ولي عبد الله بن الزبير أمر مكة ، سبى يزيد بن معاوية إليه الحصين بن نمير في عسكر ككثيف . فالتجأ ابن الزبير إلى المسجد الحرام ، فضربه الحصين بالمنجنية فاصابت بعض مقذوفاتها الكعبة فهدمتها واحرقت كسوتها مع بعض خشابها ، حتى إذا بلغه هلاك يزيد رجع عن معه عن مكة . ثم رأى ابن الزبير أن يهدم الكعبة ويبنيها على قواعد إبراهيم مستنداً على حديث عائشة السابق ذكره . فهدم الكعبة وأتى لها من اليمن بالحصص التي فيهاها ، وادخل الحجر في البيت ، والصق الباب بالارض وجعل قبالة إلى الغرب باباً آخر ليخرج الناس منه ، وجعل ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً . ولما فرغ من بنائها طيها بالمسك والعنبر داخلاً وخارجاً من أعلاها إلى أسفلها وكساها بالديباج . وكان انتهاء هذه عملية هذا البناء في ١٧ رجب سنة ٦٤ للهجرة . فلما كانت خلافة عبد الملك بن مروان سبى الحجاج بن يوسف الثقفي إلى ابن الزبير فحاصره في مكة ، ورماه بالمنجنية حتى استشهد رضي الله عنه في سنة ٧٣ . ودخل الحجاج مكة وكتب إلى عبد الملك بما جرده ابن الزبير في الكعبة ، فولاها عليها وأمره أن يعيدها كما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهدم الحجاج من جانيها الشامي (الشمالي) قدر ستة أذرع وشبر ، وبنى ذلك الجدار على أساس قرىش ، ورفع الباب الشرقي وسد الغربى ولم يغير من

بأقيها شيئاً ، ثم كبس أرضها بالحجارة التي فصلت عنها .

وعليه فالكعبة الآن على بناء ابن الزبير من جوانبها الشرقي والجنوبي والغربي ، وبناء الحجاج من جانبها الشمالي . ولم يطرأ عليها بعد ذلك إلا العمارة التي تغير فيها سقفها في زمن السلطان سليمان سنة ٩٦٠ هـ ، ثم العمارة الترميمية التي حصلت في زمن السلطان أحمد سنة ١٠٢١ هـ وتاريخها محفور في قطعة من الرخام مثبتة في الشاذروان على يد المعين وهذا نصه « بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أمر بعمارة سقف البيت الشريف وبتجديد ميزاب الرحمة وتقوية جدار بيت الله الحرام السلطان أحمد في شهر محرم سنة ١٠٢١ هـ » . ثم أعقبتها العمارة التي قام بها السلطان مراد الرابع على اثر السيل الهائل الذي حصل في سنة ١٠٣٩ هـ ووصل ارتفاعه الى مترين فوق أرضيتها ، فهدم من حوائطها الشمالي والغربي والشرقي ، أما ما عمر فيها بعد ذلك فشيء لا يذكر .

شكل الكعبة

الكعبة الآن من الخارج على التعديل الذي رجع اليه الحجاج ، وهو ما كانت عليه مدة النبي صلى الله عليه وسلم ، ذات شكل مربع تقريباً ، مبنى بالحجارة الزرقاء الصلبة . ويبلغ ارتفاعها خمسة عشر متراً ، وطول ضلعها الذي فيه الميزاب والذي قبالة عشرة أمتار وعشرة سنتيمترات ، . وطول الضلع الذي فيه الباب والذي يقابله اثنا عشر متراً . وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ، ويصعد اليه بواسطة مدرج يشبه مدرج المنبر . والمدرج الحالي من الخشب المصفح بالفضة أهداه الى الكعبة أحد أمراء الهند ، ولا يوضع في مكانه منها الا اذا فتح بابها للزائرين في الاحتفالات الكبرى : وهي غالباً لا تزيد عن خمس عشرة مرة في السنة . وفيما عدا ذلك ترى هذا المدرج بجوار فية زمزم من جهة باب شيبة ، ويصعدون اليها

يسلم صغير من الخشب . وفي الركن الذي على يسار باب الكعبة الحجر الاسود على ارتفاع متر وخمسين سنتيمتراً من أرضية المطاف .

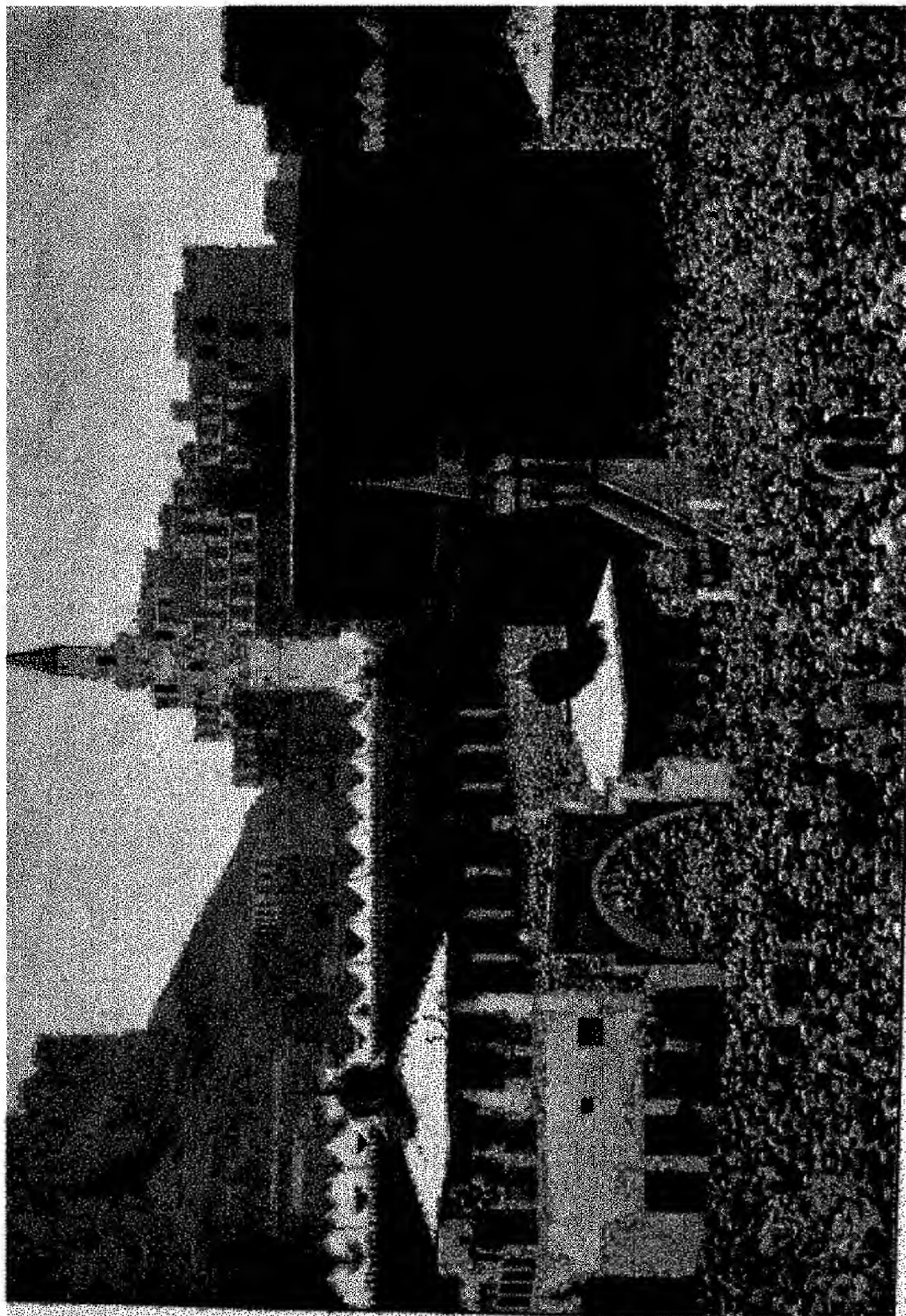
ويحيط بالكعبة من خارجها قصبة من البناء في أسفلها ، متوسط ارتفاعها خمسة وعشرون سنتي متراً ، ومتوسط عرضها ثلاثون سنتي متراً ، وتسمى بالشاذر وان ، وهي من أصل البيت تركت خارجة عنه في بناء قريش لها قبل الاسلام لاختصارهم في بنائها .

والشاذر وان معناه ما يحيط بالسلسيل ، وكانوا يطمعون في العمارات المصرية القديمة على محيط النافورات التي كانت في وسط الفاعات الكبرى .

وعلى ظني انه هنا من أثر عمارة الحجاج ، أقامه ليقى جدار البيت المعظم من تأثير الامطار والسيول التي كانت ولا تزال تنزل بكثرة الى المطاف : ودليلنا على ذلك انما هو لفظه الفارسي الذي لا بد أن يكون من وضع عملة من الفرس استحدثهم الحجاج بن يوسف اعمارها . ولا يبعد أن يكون ذلك من عهد ابن الزبير ، يؤيده ما ورد في الاغانى من أن ابن سريج سئل عن من تعلم الغناء على الفاعده التي كان يغنى عليها مع انها ما كانت معروفة عند العرب ، فقال إنه تعلمها من عملة من الفرس كان ابن الزبير استحدثهم لبناء الكعبة ، وكانوا تغنون بأغنية لطيفة فأخذها عنهم وأضاف نعماتها على النغمات العربية وغنى بها . وعلى كل حال فالشاذر وان والميزاب لفظان أعجميان ، ولم يرد ذكرهما على مدته صلى الله عليه وسلم .

و يسمون زوايا البيت الخارجة بالاركان : فالشمالى منها يسمونه بالركن العراقى لانه الى جهة العراق ، والغربى يسمونه الشامى لانه متجه الى جهة الشام ، والغربى يسمونه اليماني لاتجاهه الى اليمن وفيه حجر يسمونه الحجر الاسعد ، والشرقى يسمونه الركن الاسود لان فيه الحجر الاسود : وهو حجر صقيل بيضاوى غير منتظم ولونه أسود يميل الى الاحمر وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء ، وهي أثر لحام القطع التي كانت تكسرت منه ، وقطره نحو ثلاثين سنتيمتراً ، ويحيط به اطار من الفضة عرضه عشرة سنتي مترات ، والمسافة التي بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم ، وهو ما يلزمه الطائف في دعائه واستغاثته .

ويخرج من منتصف الحائط الشمالى الغربى من أعلاه الميزاب (المزارب) ويقال له



SOEHNE & ANDERER, CUNEO

المعظمية منظر الحرم المكي في أوقات الصلاة من الحج

ميراب الرحمة ، وهو من عمل الحجاج وضعه على سطحها حتى لا تقف عليه مياه الامطار : وكان من نحاس فغيره السلطان سليمان القانوني سنة ٩٥٩ بأخر من الفضة ، وتجدد في سنة ١٠٢١ مدة السلطان أحمد بغيره من الفضة المنقوشة بالماء الزرقاء تتخللها النفوش الذهبية ، وقد رأيت به محفوظاً في دار الآ نار السلطانية الخصوصية بالاستانة . وفي سنة ١٢٧٣ أرسل اليها السلطان عبد الحميد يزاً من الذهب وهو الموجود بها الآن .

وقباله الميزاب من الخارج يوجد الحطيم : وهو قوس من البناء طرفاه الى زاويتي البيت الشمالية والغربية ، ويبعدان عنهما بمسافة مترين وثلاثة سنتيمترات ، ويبلغ ارتفاعه متراً وسبعمائة متراً ونصفاً ، وهو مغلف بالرحام المنفوش وفي محيطه من أعلاه كتابة محفورة بالحط المعلق فيها آيات قرآنية وتاريخ من قام بعمارته . ومسافة ما بين منتصف هذا القوس من داخله الى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربع وأربعون سنتياً ، والقضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت هو ما يسمى بحجر اسماعيل (تكسر الحاء وسكون الجيم) وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً في الكعبة في بناء ابراهيم ، والباقي كان زريبة لغنم هاجر وولدها ، ويقال ان هاجر واسماعيل مدفونان به .

أما الكعبة من الداخل فشكلها مربع مشطور الزاوية الشمالية ، وهي التي على عين الداخل ، وهذه الشطرة باب صغير اسمه باب التوبة ، يوصل الى سلم صغير يصعد به الى سطحها . وبوسطها من الداخل ثلاثة أعمدة من العود القاقلي ، عليها معاصير ترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الاسود من اخرى . وقطر كل عمود نحو ثلاثين سنتي متراً . وهذه الأعمدة من زمن عبد الله بن الزبير ، وقيمتها أكرم من أن يقدر لها ثمن ، ويقال ان عليها كتابه محفورة فيها ولكني لم أرها . وقد ذكر أنه كان بالكعبة قبل الاسلام ستة أعمدة ولا أدري ان كانت من البناء أو من الخشب . ويعطى سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردي عليها ربعات مكتوب فيها « الله جل جلاله » ، قد أهداها اليها السلطان عبد العزيز رحمه الله ، وفي قبالة الداخل من الباب محراب كان يصلي فيه النبي عليه الصلاة والسلام .

ويحيط ببناء البيت من الداخل إزار من الرخام المجزع على ارتفاع نحو مترين ، وقد وضع في الحائط الغربي ألواح محفور في الأول منها : « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت المعظم العبد الفقير الى رحمة ربه يوسف بن عمر بن علي رسول ، اللهم أيد ديارك يا كريم بعز يزورك واغفر له دنوبه برحمتك يا كريم يا غفار يا رحيم » . ومكتوب حول هذه اللوحة : « رب أو زعني أن اشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه لي تار يخ سنة ثمانين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » . وإلى جواره لوحة مكتوب فيها : « أمر بتجديد سقف البيت الشريف وجميع داخل الحرم وخارجه مولانا السلطان ابن السلطان محمد خان سنة سبعين وألف » . ثم لوحة أخرى فيها « ربنا تقبل منا لك أمت السميع العليم ، تقرب الى الله تعالى بتجديد رحام هذا البيت المعظم المشرف العبد الفقير الى الله تعالى السلطان الملك الاشرف أبو النصر برسباي خادم الحرمين الشريفين بلغه الله آماله وزين بالصالحات أعماله بتار يخ سنة ست وعشرين وثمانمائة » . وفي لوحة أخرى « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعسامة البيت المعظم الامام الاعظم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله أقصى آماله وتقبل منه صالح أعماله في شهر ر سنة تسع وعشرين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » . ثم لوحة أخرى منقوش فيها « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت العتيق المعظم الفقير الى الله سبحانه وتعالى خادم الحرمين الشريفين مؤمن الحجاج في الرين والبحرين السلطان ابن السلطان السلطان مراد خان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان خلد الله تعالى ملكه وأيد سلطته في آخر شهر رمضان المبارك المسطر في سلك شهر سنة أربعين بعد ألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية » . وفي الجدار الشرقي لوح مكتوب فيه « أمر بتجديد داخل البيت السلطان الملك أبو النصر قايتباي خلد الله ملكه يارب العالمين ، عام أربع وثمانمائة من الهجرة » . وفي الجدار الشمالي مكتوب على باب التوبة هذه الآيات .

قد بدد التعمير في بيت الاله (١) * قبله الاسلام والبيت الحرام

(١) من هذا الشعر يمكنك أن تحكم على مقدار تأخر اللغة العربية ببلاد العرب وخصوصاً في القرامص منها حوالي القرن الحادي عشر للهجرة .

أم خاقان الورى مصطفى خان * دام بالنصر العزيز المستدام
بادرت صدقا الى التعمير ذا * انما كان بالهام السلام
وارتجت من فضله سبحانه * أن يجازيها به يوم القيام
قال تاريخاً له قاضى البلد * عمرته أم سلطان الانام

بمباشرة أحمدك في سنة تسع ومائة وألف . وبلغني ان في البيت حجراً مكتوباً بالكوفي
ويقال انه قديم جداً وانه من القرن الاول للهجرة ، وان صبح ذلك كان من عمل الحجاج
ابن يوسف . وبجانب الباب على يسار الداخل طاولة من الخشب مغطاة بستارة من الحرير
الاخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة ، وهو من الاطلس الاخضر المزركش
بالفصص ، يأتي اليها سنوياً من مصر مع الكسوة الشريفة . ومعلق بسقف البيت كثير مما
بقى من الدخائر التي أهديت اليه ، ومن ذلك عدة مصايح ذهبية وفضية لا تقل عن
مائة ، ومنها مصباحان ذهبيان مرصعان بالجواهر أهداهما للكعبة السلطان سليمان القانوني
سنة ٩٨٤ .

وتفتح الكعبة في العاشر من المحرم للرجال ، وفي ليلة الحادى عشر منه للنساء ، وفي ليلة
الثانى عشر من ربيع الاول للدعاء للسلطان من غير ان يدخلها أحد من الزائرين ، وفي صبيحته
للرجال ، وفي مساءه للنساء ، وفي العشرين منه لغسيل الكعبة بحضور الشريف
والوالى ، وفي أول جمعة من رجب للرجال ، وفي تاليه للنساء ، وفي صباح تاليه للرجال ، وفي
مساءه للنساء ، وفي ليلة النصف من شعبان للدعاء للسلطان ، وفي صباح تاليه للرجال ، وفي
مساءه للنساء ، وفي يوم الجمعة الاولى من رمضان للرجال ، وفي تاليه للنساء ، وفي السابع عشر
منه للدعاء للسلطان ، وفي آخر جمعة منه كذلك ، وفي نصف ذى القعدة للرجال ، وفي تاليه
للنساء ، وفي عشرين منه لغسيل الكعبة ، وفي الثامن والعشرين منه لا حرامها (أعني
احاطتها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرضية المطاف) . وتفتح في
في موسم الحج غير مرة لمن يزورها من الحجاج نظيراً أجر يأخذه سدتها . وتفتح الكعبة

أيضاً بعد الحج في نحو العشرين من ذى الحجة لغسيلها .

ولغسيلها احتفال كبير يحضره الشريف والوالى وأعيان مكة وعظماء الحجاج : وكيفية ذلك أن يدخل دولة الشريف في مقدمة الداخلين اليها ، وبعد أن يصلى ركعتين يؤتى اليه بجرادل الماء من عين زمزم ، فيغسل أرضها بمقشاة صغيرة من الخوص ويسيل الماء من ثقب في عتبتها ، ثم يغسلها بماء الورد ، وبعد ذلك يضمخ أرضيتها وحوائها على ارتفاع الايدي بالخلق وأنواع العطر كدهن الورد والمسك ، وفي أثناء ذلك يكون البخور بالند والعود صاعداً من جميع جهاتها . ثم يقف الشريف على الباب و يلقى على الحجاج الذين يكونون قد وقفوا آلافاً مؤلفة في المطاف الى باب شعبة تلك المقشاة التي كانت تُغسل بها الكعبة وهي مقشاة صغيرة من الخوص طولها نحو ٣ سنتيمتراً ، فيتزاحمون عليها وينلقفونها بحال غريبة جداً ، ومن يحصل منهم على واحدة كأ أنه حصل على أثمن شئ في العالم ، بل تكون عنده خيراً من الدنيا وما فيها ، ويحفظها على سبيل الركة أثر أشرفاً من بيت الله المعظم . وقد يأتى بعض القوم وخصوصاً المطوفين والزمازمة بمقشاة كثيرة يغمرونها بالماء ، ويدعون أنها من التي غسلت بها الكعبة و يبيعون منها على الحجاج كل واحدة بنصف ريال على الأقل !!

الكعبة قبل الاسلام وبعده

كانت الكعبة قبل الاسلام نحو ٢٧ قرناً ذات منزلة سامية عند العرب باجمعهم ، لا فرق بين وثنيهم ويهودهم ونصاراهم . وقد تحاورت مكانها جزيرة العرب الى بلاد الهند وكانوا يعتقدون ان روح شبهه أحد آلهتهم (وهو الاقنوم الثالث من تماثيل بودا) قد تقمصت في الحجر الاسود ، حين زيارته مع زوجته لبلاد الحجاز ؟ (انظر سياحة بريتون في بلاد الحجاز) . ويسمون مكة (مكشيشاً) أو (موكشيشانا) يعنى بيت شيشا أو شيشانا وهما على ما أظن من أسماء آلهتهم .

وقد ورد في مروج الذهب في الكلام على البيوت المعظمة « ان الصابئة كانوا يعتقدون ان الكعبة كانت من البيوت السبعة المعظمة عندهم ، وكانوا يعتقدون انها بيت لرحل وانها باقية ببقائه على مرور الدهور وكرور العصور » . وكانت أغلب بلاد الشرق تدين بدين الصابئة وعلى الخصوص بلاد المعجم والهند والسكدان التي منها ابراهيم ، ولا يزال مذهب الصابئة فيها الى الآن . وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم حكاية عن ابراهيم : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهْدني ربي لا كُنت من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا أكر فلما أفلت قال يا قوم اني برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين » . وقد ذكر المقرئى في باب فرق الخليفة ان من الصابئة فرقة كانت تسمى السكاظمة أصحاب كاظم بن تارح ، وان منهم من كان يزعم أن الشمس اله كل اله ، وان السيارات السبع آلهة وكانوا يسمونها المدرات . وكانوا يقيمون لها الهياكل يعبدونها فيها . وذكروا بعض المؤرخين انهم كانوا يحيطون معابدهم بحرم لا يطؤه الغرباء . وعلى ظنى انهم أخذوا هذا الحرم من الدائرة التي تحيط بهلك كل كوكب من هذه الكواكب لئلا يتعدها اليه نجم آخر : وبهذا كان نظام^(١) جميع العوالم . ولا يبعد انهم كانوا يطوفون حول هياكلهم : وربما أخذوا ذلك من دوران هذه الكواكب حول الشمس بما يفيد تبعية الدائر للشيء الذي يدور حوله . كما لا يبعد انهم كانوا يطوفون بهياكلهم أسابيع لعلاقة ذلك بالكواكب السبعة ، يعنى انهم كانوا يطوفون حول كل هيكل من هياكلهم سبعة أشواط لكل كوكب شوطاً : فافرها ابراهيم في دينه وجعلها كلها لله وحده . ولا يحى ان

(١) لا يحى أن نظام العالم انما هو تتجاذب أحرامه مع بعضها سواء كانت ثمانية أو مبحركة بنسب مخصوصه تحفظ نظامه ، ثم تحفظ هذا النظام العريب الذى هو من أكر الادله على واحد الوجود وقدرته . ولكل سيار من هذه الاحرام دورة مخصوصة لا يتعدها اليه نجم آخر الادوات الادبائ فان دوائرها غير منتظمة . لذلك ترى الناس اذاراً واشتتاً مهابطسواقيه الطون وتقولوا فيه الاقوال وتوقعوامه الالهوال : لانهم يحشون مصادمته في سيره بأحد النجوم الى ربما صادفها في طريقه فتحل المواربه في هذه العوالم ويكون من ذلك الاضطراب الذى يعقبه الماء .

ولما كانت هذه الاحرام مدهشة في نظامها وكانت مصدراً لحياة العالم الارضى بما ترسله اليه من الحرارة والنور، كان الناس يعتقدون أنها مؤثرة بنفسها ، فاتخذوها من قديم الزمان آلهة لهم . وحتى الاحتار التي كانت تنفصل منها الى الارض أخذوها فعمدوها وكان منها الوثنية . ولذلك اشتمل الناس من زمن بعيد في استخدام تأثير الكواكب في تبيين حقائق الماضي والمستقبل ، فكان منه علم التنجيم . واشتمل آخرون في استخدامهم في تمييز مطالبهم فكان منه علم الاوقاف والارياح والسحر ، الذي أخذوا منه أخيراً تأثير الفوس القوية على الصيغة مما وصلوا به الى علوم أخرى جديدة يسمونها ميونزم وهسوترم وما في معناها مما يعرفون عنه بالتسويم المايطسي . ومن الناس من حمل ملاحظته قاصرة على حركات هذه الحجوم وابيادها وأصواتها وحرارتها وجميع ما يتعلق بها نظرياً ومادياً ، فكان من ذلك علم الفلك الذي بد لنا على قدرة واحد الوحود وعظمة هذا الواحد المعهود . وتخصيص عبادة الناس لهذه الكواكب السبعة ، لأنها هي التي تكون النظام الشمسي الذي منه أرضنا التي نعيش فيها . وكانوا يعرفون عن أفلاكها بالسماوات السبع ويرتبونها على حسب ابعادها من الارض كما تراه في قول الشاعر :

زحل شري صريحه من شمس * فتراهرت بمطارد الافكار

والعلم الحديث يعد سيارات هذا النظام سبعة أيضاً ولكنه يجرح منها الشمس والقمر : لان الاولى مركز هذا النظام ، والثاني تابع لها . ويصيرون عليها ستون وأورانوس . ولعل هذه السماوات المعودة هي المقصودة بقوله تعالى ليه الكريم في سورة المؤمنين « هل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم » وقال تعالى في سورة الطلاق « الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن » وقد تكرر ذكر خلق السماوات السبع في القرآن الكريم لتبين انها اعماهي خلق من خلق الله الذي يحب أن يكون متردداً بمادة الناس له .

ولقد كان عصر لمادة الكواكب الشأن الاول ، وخصوصاً للشمس الى كانوا يعتبرونها الههم الاكبر ويسمونها أمون وبمصر كان يسمونها أوروريس ، ثم للقمر ويسمونها إيريس . وكانوا يقيمون لها الهياكل الصخمة في كل جهة ، وأحجها وأكرها هيكل الكرك ، وهو باق الى أيامنا هذه يقرأ الناس في صفحات حلاله وعظمته آيات الرقي المصري القديم في العلم والصناعة . والبابليون كانوا يمدون الشمس ويسمونها بعلوس ، والقمر ويسمونها عشتور . وقد ذكر رولسون العالم الاثري الانكليزي انه كان يوجد في بابل هيكل يسمى بريس نمروود وكان مبنياً من سبع طبقات ارتفاعها ١٥٦ قدماً وكل واحدة منها ملونة بلون مخصوص : فالاولى كانت ملونة باللون الاسود رمزاً لرحل والثانية باللون البرتقالي رمزاً للمشتري والثالثة بالاحمر رمزاً للمريخ والرابعة بالذهبي رمزاً للشمس والخامسة بالاصفر رمزاً للزهرة والسادسة بالارزق رمزاً لمطارد السابعة باللون الفضي رمزاً للقمر . ولقد أخذ السوربون دياتهم عن الكلدانيين لانهم اقرب الناس اليهم كما أخذوا عن المصريين تشييد العمارات الهائلة لعبوداتهم مما ترى آثاره الآن في بابل (هذه الكلمة مركبة من بعل بمعنى شمس وبك بمعنى هيكل) ثم هيكل بعل في تدمر وهيكل الشمس في حيران وهيكل ايزيس في بطر وغيرها . والذي أراه أن الفينيقيين هم الذين أدخلوا الى بلاد اليونان دياتهم في عبادة النجوم عند

فتحهم هذه البلاد لحارثهم في نحو القرن العشرين قبل المسيح . وهؤلاء أخذوا ديانتهم من الامم التي كانت تصلها بهم الرابطة التجارية كصر وخصوصاً آشور وبلاد الكلدان التي ظهرت في علم الملك على جميع الامم الي كاب تمش في زمنها حتى كانت روما بعد بناء الرومان لها في القرن الثامن قبل المسيح تحول على ارضها وتستمد من علومها وعلومها مدة طويلة من الزمن .

وكان لكل أمة من هذه الامم أقوال في معبوداتهم وحكايات ناشئة عن أوهام وحيالات مما يسمونه خرافات، وكان دور حول اثبات القوة والتأثير لمعبوداتهم . واشتهر اليونانيون بكثرة هذه الحكايات لكثرة معبوداتهم منها وألقوا فيها المؤلفات ويسمونهم مثلوحيا : ويسمون لكل من هذه الآلهة قوة مخصوصة يتصف بها : فيقولون مثلاً ان أورابوس هو السماء محسمة ورحل بن السماء والمشتري بن رحل وهو الآلهة لقوته وقدرته ولكثرة ما أنتج منها ويقولون ان ستون اله البحر والريح اله الحرب وعطار داله الصاحبة والرهرة الهه المال الخ . وكان اليونانيون يقيمون لهذه المعبودات هياكل مربعة يسمونها سيكوس ويحيطون لها بان من الشرق وليس فيها مذبحات غيره ويحيطون هذا الهيكل بماء يسمونه الخوش المقدس ، وحول هذا الخوش كانوا يقيمون معابدهم التي يدخ الناس في محيطها قربانهم من غير أن يحسروا أن يخطوا خطوة واحدة نحو الهيكل بل ولا نحو الخوش الذي يحيط به . وكانوا يحيطون هذه المعابد بساتين يسمونها بالنساتين المقدسة كانوا يرعون فيها أشجار المأكلة للكهنة وشجر الريقون ليأخذوا منه الريب الذي كانوا يضيئون به معابدهم وهياكلهم . وكانت المصريون تحيط معابدها مثل هذه العنات المروسة من الريقون ومن ذلك ما نراه الآن من اسم عربة الريقون التي تحوار المطرية والتي كانت حرماً لهيكل عين شمس الذي كانوا يسمونه هليوبوليس .

وكان اليونانيون يحيطون هذه النساتين المقدسة بمعابد مقدسة أيضاً تطلق فيها الحيوانات الي كانوا يقدمونها الي آلهتهم على حرثها . وهذه المعابد حدود لا يتعداها أحد من الناس بل ولا تجسر يد أن تمتد الي ماني داخلها . ولودخل اليها أحد الخناة كان في حمايتها ووقت الحكومة نفسها منه في حدودها حتي اذا خرج منها أمسك به وأحرث عليه القصاص . واستمرت هذه العادة في كنائس الصراية الي القرون الوسطى : فكان اذا لحا اليها أي انسان صار في حمايتها ولا تقوى أيدي أولئك الملوك الجبابرة على أخذه منها .

وأكر هذه الهياكل اليونانية هيكل المشتري (Jupiter) في أوليه لانه أكر الكواك التي تترك منها هذه المجموعة الشمسية حجماً وأكرتها بوراً . وكانوا يحجون اليه في كل اربع سنين مرة وكانت لهم هناك ألعاب يقومون بها لمعبودهم هذا مشهورة بالألعاب الاولمبية ومجموعها ٢٩٣ مرة تنندي من سنة ٧٧٧ قبل المسيح وتنتهي في سنة ٣٩٤ بعده وهي السنة التي اعتنق فيها الامبراطور تيودوس الديانة المسيحية وأحلها محل ديانتهم الاولى . وكان القوم في مدة هذه الألعاب المقدسة يوقفون الحروب التي تكون قائمة بينهم حتي اذا انتهوا من حجم عادوا اليها .

وعليه فلا بد ان الكلدانيين الذين أخذ عنهم اليونانيون ديانتهم مباشرة أو بواسطة الفتيقيين كانوا هم أيضاً يحيطون معابدهم بمثل هذا الحرم المحترم الذي استعمله ابراهيم حول الكعبة لما بناها بنتاً لله تعالى بمبده الناس فيها عبادة صحيحة في حجم اليه ، وسار فيه العرب على ملته زمناً ثم تطرق اليها شيء من الوثنية تختلف قلته أو كثرته باختلاف معتقدات القبائل . وما زالوا كذلك حتي آتى

الاسلام فأزال معالم الوثنية بالمرّة ورجع بالناس في حجهم الى ملة ابراهيم .
ولما ببى سليمان عليه السلام هيكّل بيت المقدس أحاطه بحرم وتقضى بأن لا يدخله أحد غير
الكهنة فلما نعلت المسيحية عليه هدمه حتى اذا فصح المسلمون اطيّاه بناءه عمر مسجداً ولا يزال
المسلمون والنصارى يدخلون اليه : هؤلاء راثرون وأولئك متعدون وأما اليهود فلا يزالون يحترمونّه
ولا يدخلون من بابه مطلقاً . ولكبرهم نسوا أو تناسوا سب ذلك المنع لاهم يحملون علته الآن
حتى لا تظأ أقدامهم بالصدفة حجراً من حجارة هيكلم الذي هدمه بحتصر ثم أتى من بعده
طيطوس فأحرقه ، وما هو على طي الا ذلك الميع الاول : ولآن يسمونه بالحرم القدسي .
وكاتب قبائل العرب تصرت الحمى لمراعيها وتحمل له حدوداً لاتتمداها القبائل الاخرى . وكان
الرجل منهم اذا أصبح عربياً اتحد له متسعاً من الارض وحمله حمى له يتر بمرتته فلا يدخل اليه أحد بل
ولا يحس أحد أن يمدى على ما يقرب منه من الاراضى لا برعى ولا بصيد لانيها في حوارته . وكان كليب ملك
ريضة يحمي أرساً واسعة اسمها العاليه وحملها حمى له فلما دخلت تحت رايه قبائل معد كاهها وصار أعز
العرب حمى منازل السحاب فلا يرعاها غير الله وماشته . واتفق أنه رأي ذات يوم ناقة ترعى في
حرمه وكاتب لامرأة رييلة على حساس صهره ومن ببى عمه فقتلها . فقتله حساس بها دوداً عن
حوارته هو أيضاً ، وكان من ذلك ما كان من حرب النوس الى وقت بين بكر وتعل مدة أربعين سنة .
ومن ذلك ما ورد من أن عامر بن الطفيل سيد ببى عامر بن صعصعة والذي كان من أشهر فرسان
العرب وأنعمهم نبأ لما وفد على النبي صلى الله عليه وسلم في سنة عشرة للهجرة طلب منه أن يجعل له
الامر من بعده ان هو أسلم . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لك من هذا الامر شئ فمضب
عامر وقال والله لا ملائها عليك خيلاً ورحلاً وذهب فرس في طريقه بالطاعون فمال الي بيت امرأة
من سلول ومات فيه فدفعه قومه هناك وحملوا على قبره أنصاباً ميلاً في ميل وحملوا دائرتها حرماً
يحمي فيها الضعيف والمطلوم فلا يجرعها عليه من يقصده ، وان قمل قام أصحابها في وجهه وكانوا
عليه . ولقد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الحرم وقال «لا حمى إلا لله ورسوله» . وحمى عليه
الصلاة والسلام بالمدينة ما يسمونه بالقيع المحمي وحمله لحيل المسلمين وقد كان مسدي للناس
ومصيداً لهم وعرضه ميل وطوله أربعة فراسخ . وقد حمى عليه الصلاة والسلام المدينة فقال حرام
ما بين لا بتيها : وهما حرتان واحدة الي شهاها والاخرى الي حموها . ولما دخل عليه الصلاة والسلام
مكة عام الفتح حمى دار أبي سفيان وحملها حرماً وأمن كل من دخل فيه من أعدائه . وبعد فتح مكة
أرسل صلى الله عليه وسلم نعيم بن أسيد الحراعى لحدأ أنصاب حرما ومشاعرها على ما وصفا عليه ابراهيم .
ومن ذلك العهد اقتصر العرب على حمى بيوتهم فترى الرجل منهم لآن مهما كان ضعيفاً يدفع عن دخل
في يسه مهما كافه ذلك لانه أصبح في حمايته ولو كان طاله من أقرب الناس اليه . وحسب الرجل منهم
أن يقول له آخر أنا في وحكم حتى يدخل في هذه الحماية ، بل حسب عدوه منه أن يقول له أنا في وجه
فلان ولو كان عائلاً حتى يكون على بنته من أنه صار في حمايته يطاله بها ان هو أخفر حقاً من حقوقها .
وهذه الحماية بهذا المعنى لا توجد في أية أمة أخرى وما نسمعه في مثل بلادنا من حاية الامم الاجنبية لبعض
المستضعفين من غير رعاياهم هو غير ذلك بالمرّة . ومن هذا توسع الناس في استعمال الحرم فأطلقوه
على البيت الذي لا يتعدى حدوده أحد بغير اذن صاحبه احتراماً له . ثم أطلقوه على امرأة الرجل نفسها

لحرمتها على غيره . وأخذ الأتراك طحرم فأضافوا عليه كلمة لك بمعنى مكان فقالوا حرملك بمعنى مكان الحرم وقصروهم على مكان النساء من البيت حتى لا يكون لمن يحترق دائرته أي عذر في الدخول فيها وانتهاك حرمتها . وقد كان قدماء اليونان والرومان يردون في بيوتهم دائرة مخصوصة للحرم معمّل عن الرجال يسمونها جناسي (Gynécée) ولا أدري إذا كان أصل هذه العادة عندهم ديبياً أخذوه عن المنطقة التي تحيط بمسوداتهم من الكواكب ففصلوا عن غيرها وتعلمها في عرلة تامة عنها . ثم جعلوها حول هياكلها في الأرض كما هي حول منارها في السماء . ومن هذا تلك الهالة التي لا ير اللون يرسموها من النور حول رؤوس الديين والقديسين للدلالة على أنهم في حابة الله الواحدة الاحترام . ثم ما لبثوا أن صربوا هذه المناطق (١) حول مسوداتهم الصغرى مدفوعين إليه تعامل الحب والاحترام والغيرة . ومن هذا اتحد الملوك من قديم الزمان وهم آلهة الأرض على ما كانوا يرسمون إحاطة قصورهم بحرم واسع لا يجوز انتهاكه لغير ذويهم أو من يباشرون خدمتهم . واسمعت هذا الحرم في الاسلام وكانوا يسمونه حريمًا ومنه حريم دار الخلافة بمعداد : وهو الذي جعله المصور العباسي حول قصره بها في منتصف القرن الثاني للهجرة وكان اسمه قصر الخلد وكان عبارة عن ثلث المدينة على سمتها وعظمتها وكان له سورين حدوده كات دور الناس من ورائه . وكان لهذا السور عدة أبواب بعضها خاص بالخليفة وبعضها الخاشية وأخرى لدخول الناس : منها باب سوق الثمر وباب عمورية وباب العتة التي كان يقبلها الملوك أو أرسلهم عند قدومهم إلى دار الخلافة . وهذا الحرم لم يكن لأحد أن يتقدم إلا بأمر الخليفة أو أستاذ داره . ولما أرسل المأمون طاهر بن الحسين من حراسان لحاربة أخيه الأمين بمعداد أوقع بحوشه ثم حاصر هذه المدينة سنة ١٩٧ ونزل بأعلاها من العرب وحمل مرله بها حرما كل من لحا إليه صار آمناً وسماه بالحريم الطاهري . وما زال هذا الحرم محترماً في مدة ولديه عبدالله وعبيد الله . ولأن ترى قصور الملوك محاطة جميعها بحرم واسع يصل بينها وبين ما يحيط بها من الدور والمباني وقد تطفوا في تسميته فسموه ميداناً : وبقدرة ما تكون هؤلاء الملوك دستورين تكون هذه الميادين مساحة لرعاياهم : أنظر للعيادين التي حول قصر كسحمام بلو ندره وشو سرون بقنا والوفر بباريس وغيرها تراها كلها مع ما يحيط بها من الرياض والعياص منزهات عامة للناس على اختلاف طبقاتهم وقد كات قبل معرفتهم للدستور أوسع من مراعى الآساد وأحي من منازل الاسداده . بل انظر إلى سراي يلدز وقد كان يحم السماء أقرب منها للعتناول زمى السلطان عبدالحميد الثاني كيف أصبحت بعد الدستور روضة الأمة بل روضة العامة . ولم يكن قرب الملوك الدسورين من رعاياهم باناحة هذه الاحياء من رمن ليس بعيد الا لا مادهم عن المطالم التي تتمتع منها الامم . والاسلام هو الذي منم هذه الاحياء حتى لا يكون فاصل بين الرعية ورعايها . واليك برهان صغير على ذلك : أتى رجل من عظماء الفرس بمدفع المسلمين لبلادهم إلى المدينة ليشاهد عمر الذي فتح ملك الرومان والدرس في أيام قليلة . وكان يصور انه من أكر الملوك فحامة وعظمة فسأل عن ابن الخطاب فقالوا له اطره تحت تلك الشجرة وأشاروا إلى سدره في الحلاء . فلما بلغه رأى رجلاً في مرقعه قد توسد ناله وهو مستغرق في نومه . فعجب الرجل من أن يكون هذا هو الذي ملك هذه البلاد وقهر ملوكها فنام هكذا من غير سباح يحوطه أو حرس يحرسه ثم ما لبث أن فكر وقال « حكم فمدل فأمنب فمب يا عمر » .

(١) وعليه فليعذرنا الاورديون اذا أخذنا عنهم هذا الحجاب وصرباء على سائلاً واحتراماً لمن أو

بمباراة أخرى غيرة عليهم .

العبادات كلها انما هي مستمدة من شىء واحد: هو الاحترام الحقيقى والاخلاص الصادق ، وانما المدار فى صحتها على جهة توجيهها . وكل مشرع فى العالم لا بد له أن يراعى الزمان والمكان فى تشريعہ ويراعى تلك العوائد المتأصلة فى النفوس لعدم قدرته على ازالها مرة واحدة ، ولنا فى تدرج الاسلام فى تحريم الخمر أكبر برهان على ذلك وحسبنا صراحة النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله لعائشة عن نبيان الكعبة : لولا أن قومك حديثو عهد بالاسلام لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد ابراهيم .

وليس ذلك بغريب فشريرة كل قوم مستمدة من الشرائع التى قبلها باختلاف يسير أو كثير فى بعض موادها . وشريرة ابراهيم انما كانت مستمدة من شرائع عمالة الشمال الذين كانت لهم فى العراق دولة زاهية راقية فى القرن الخامس والعشرين قبل المسيح . وقد عثر المقابون لهم أخيراً فى اطلال بابل وأشور على آثار كثيرة تدل على مدنيتهم وحضارتهم وفيها شىء كثير من شرائعهم . وتوجد الآن مجموعة كبيرة من هذه الآثار فى متاحف برلين ولودره . ومما ينسب الى هؤلاء العمالة اهم أول من عرف علم الفلك وحركات النجوم والافلاك لانه كان عندهم علماء دينيا محضاً ، ولذلك فقد فشاهذا العلم فى الصائفة على اختلاف أجاسهم .

ومن الصائفة أخذ العرب علم النجوم واشتغلوا به كثيراً حتى ان ابن قتيبة ذهب الى تفضيلهم فيه عن المعجم . ومن علم الفلك عرفوا علم الانواء (جمع نوء) ، وهو ما يسمونه الآن بعلم الظواهر الجوية ، وكانوا يعرفون منه تغير الزمن ووقت نزول المطر واختلاف هبوب الهواء . وللعرب فى النجوم خرافات كثيرة: منها قولهم ان سبب دوران بنات نعش (الدب الأكبر) ان الجدى قبل والدهن نعشاً فمن يدرن حوله حتى اذا الحفنه اقتصصن منه . وهذا على ما أظن أخذوه من خرافات اليونانيين التى تفوق غيرها فى هذا القليل ، وكانت سبباً فى رقى الخيال عند كتاب القرنجة وشعرائهم الذين لا يرلون رمزون بها فى أقوالهم ، وللفنوم فيها كتب خاصة يسمونها (متولوجيا) . ولما فشت فى العرب عبادة الاوثان عبدوا النجوم فى أشخاص هذه الاصنام: فعبدوا اللات ويرمزون به الى الزهرة ، والعزى ولعلمهم كانوا يرمزون به الى الشعرى ، وهبل وكانوا يرمزون به الى زحل .

و يصبح أن لا تكون لا شواطط الطواف السبعة علاقة بذلك وانها إنما كانت بهذا العدد لان عدد سبعة عند الر ياضيين هو العدد الكامل . وعلة ذلك كما ورد في كتاب (عين النبع على طرد السبع للإمام الصفدى) ، ان السبعة جمعت العدد كله . لان العدد أزواج وافراد : والا زواج فيها أول وثان . والاثنان أول الا زواج والا ربعة زوج ثان : والثلاثة أول الافراد ، والخمسة فرد ثان ، فاذا اجتمع الزوج الاول مع الفرد الثانى ، أو الفرد الاول مع الزوج الثانى ، كان سبعة . وكذلك اذا أخذ الواحد الذى هو أصل العدد مع الستة التى هى عند الح كماء عدد تام ، يكون منها سبعة التى هى عدد كامل ، لان السكالم درجة فوق التمام . وهذه الخاصة لا توجد فى غير السبعة : ولذلك يفصلون بينها وبين الثمانية بالواو فيقولون واحداً ثانياً ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية وتسعة وعشرة الخ : ومن ذلك قوله تعالى فى سورة السكف « ويقولون خمسة ستة سبعة وثمانية وتسعة وعشرة الخ : ومن ذلك قوله تعالى فى سورة السكف « ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب و يقولون سبعة وثامنهم كلبهم » . ومن هذا استعمل الناس السبعة اذا أرادوا المبالغة فى العدد فيقولون اذ كر الله سبع مرات ، وصل على النبى سبع مرات ، وصم سبعة أيام ، واغسل نجاسة السكب سبع مرات ، وارجم سبع جمرات ، مما هو مستعمل كثير فى العادات : وكان من ذلك السموات السبع ، والسيارات السبع ، والارضون السبع والسبع المثانى . ولما نبى جوهر الماهرة جعل لها سبعة أبواب يمينا ، ومن ذلك تيمنهم وقت الاحتفال بالحمل بدورته سبع مرات . ومما هو مشهور عند العامة السبع حبوب ويعملون منها تائم لبيدهم ، والسبعة معادن ويستعملونها فى عقايرهم ، ومما يدكر فى مبالغاتهم قولهم : فلان يعرف السبعة السن وقطع السبعة بحور ، ولف السبعة أقاليم . ويقولون لا أعطيك ذلك ولو عملت السبعة ، وانفة الاطفال فيها شئ من ذلك : فيقولون الذئبات وديله سبع لفات . الخ الخ . وكأن استعمال السبعة فى المبالغة لم يقتصر على العرب بل تعداهم الى الفر محبة الذين أخبرونا بأدوار العمر السبعة ولا يزالون يتحدثون بعجائب العالم السبعة .

على ان هذا كله لا معول عليه عند السادة الفقهاء : لانهم لا يبحثون فى أصل الاعداد التى وردت فى عباداتهم كعدد ركعات الصلاة وأشواط الطواف وغيرها . ولعنهم يأخذون

أمر الله بها قضية مسلمة محترمة ويصدقون بما أُمروا به من غير بحث عن علة أو سبب .
ولقد ذكر المسعودي ما يفهم منه أن العرب كانت تحترم مكان الكعبة قبل بناء إبراهيم لها : فانه قال عند الكلام على قوم عاد لما أصابهم القحط « وهم من العرب البائدة وكانت مساكنهم من بلاد اليمن الى حضرموت بجنوب بلاد العرب » ماملخصه : انهم كانوا يعظمون موضع الكعبة وكان ربوة حمراء ، فوفدوا الى مكة يستسقون ، ولكنهم عكفوا فيها على شرب الخمر ، فقالت لهم جرادة جارية معاوية سيد العماليق مخاطبة رجلا منهم اسمه قيل ولعله كان رئيس الوفد :

ألا يا فيل ويحك قم فهيم^(١) * لعل الله يطرنا غما

فيسقى أرض عادٍ إن عادا * قد آمنسوا لا يبينون الكلاما

الى آخر ما قالت : ومن هذا يفهم أن مكان الكعبة كان محترما في القوم قبل بناء إبراهيم لها .
ورعا كان هناك معبد قديم للعماليق تلاشى أمره قبل وصول إبراهيم الى تلك الجهة ، وبنى المؤرخون على أساسه أقوالهم في بنيان الكعبة قبل إبراهيم : فمال بعضهم ان آدم بناها قبله ، وقال آخرون غير ذلك ؛

ويظهر أن هذه الجهة كلها كانت مقدسة عند العرب : يؤيد ذلك تسمية قدماء المصريين بلاد الحجاز بالبلاد المقدسة .

والفرس كانوا يحترمون الكعبة ويعتقدون أن روح هرمز حلت فيها وكانوا يحجون اليها من زمن بعيد جدا وفي ذلك يقول شاعرهم بعد الاسلام :

ومازلنا نحج البيت قدما * ولبقى بالاباطح آمينا

وساسان بن بلك سار حتى * أتى البيت العتيق يطوف دينا

فطاف به وزمزم عند بئر * لاسماعيل تروى الشارينا

وقال غيره :

زمزم^(٢) الفرس على زمزم * وذلك من سألها الا قدم

..... (١) الهينة الصوت الحي . (٢) اجتمع وتكاثر .

واليهود كانوا يحترمون الكعبة وكانوا يتعبدون فيها على دين ابراهيم . والنصارى من العرب لم يكن احترامهم لها بآفة من احترام اليهود إياها . وكان لهم بها صور وتماثيل : منها تمثال ابراهيم واسماعيل وفي أيديهما الأزام ، وصورة العذراء والمسيح . وقد وضعت العرب أصنامها عليها على تغاير معبودات القبائل والعشائر حتى اجتمع على سطحها من الأصنام ٣٦ صنما . وأول من أدخل عبادة الاوثان الى مكة ووضع الأصنام على الكعبة عمرو بن لُحَيٍّ كبير خزاعة حينما ولي أمر البيت ، وكان سافرا الى الشام فاخذ عنها عبادة الاوثان ، وأخذ عن النجوديين عبادة هبل واللات ومناة وكانت من آلهتهم كما تدل عليه النقوش الموجودة على آثارهم . وتبعته في ذلك قبائل العرب فسكنت كل قبيلة تأتى بصنمها وتضعه عليها . ومع شيوع الوثنية في العرب فانها كانت فيهم أقل منها في سواهم ، لانهم لم يكونوا يعبدون الاوثان لدانها ولا لصنماتها كما كان الشأن في وثني الهند والصين والرومان والمصريين وغيرهم ، بل كانوا يعبدونها لتقر بهم الى الله زلفى .

وما زالت الكعبة على هذا الشأن حتى دخل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح في السنة الثامنة للهجرة فامر بارأله ما عليها من الأصنام . وفي حديث أسامة انه صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة فرأى صور اعداء عجماء فجعل يحجوها . وقد ذكر الازرقى عن ابن عائذ عن سعيد بن عبد العزيز أن صورة عيسى وأمه نمتا في الكعبة حتى رأهما بعض من أسلم من نصارى غسان . وقال عمر بن شبة : حدثنا أبو عاصم عن جرير قال سأل سليمان بن موسى عطاء : أأدركت في الكعبة تماثيل ؟ قال نعم أدركت تماثيل مريم في حجرها انها عيسى مزوفا (انظر صفحة ٦٠ من كتاب بلوغ الأرب في ما رآه العرب) .

هذا كان شأن الكعبة في الجاهلية وقد أجمعت الناس مع اختلاف دياناتهم على احترامها واتخذها كل منهم معبدا يعبد الله فيه على حسب دينه أو مذهبه ، وهذا في باب لم يقع له نظير في الوجود بالمرة ، اللهم الا بيت المقدس الذي يحترمه المسلمون والنصارى واليهود ، وان كان لكل مكان يتعبد فيه على حدته . وهل تريد برهاننا على شرفها واحترامها غير هذا الإجماع من قوم كانوا قطع النظر عن اختلاف دياناتهم اذا جمعتهم كلمة فرقتهم أخرى ؟

ولقد بلغ من سمو مكانة الكعبة في النفوس أن جعلوا لها حرماً من جميع جوانبها واسع الأطراف بعيد الكفاف، لا يدخله إلا لسان الا وهو مُحَرَّم، وكل من دخله صار آمناً : قال تعالى محتجاً على أهل مكة « أو لم يروا أننا جعلنا حرمًا آمناً ويُخطف الناس من حولهم » . ولم يقف احترام هذا الحرم على تأمين الانسان ، بل تناول الحيوان ، بل تناول البسات ، بل لم يقف احترام الناس لها في حدود حرمتها . وقد كان بمكة قبل الاسلام حزب يقال له حلف الفضول ، اجتمع اليه بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو عبد العزى وبنو زهرة وبنو تميم ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يحدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى رد اليه ظلمته . وقد حضر هذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال فيه : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعى به في الاسلام لاجبت » .

ومسافة ما بين دائرة هذا الحرم ونقطتها المركزية التي هي الكعبة من جهة الشمال والشرق والجنوب تبلغ تقريباً خمسة عشر كيلومتراً ، أما من جهة الغرب فتبلغ ثلث هذه المسافة . وعلى حد الحرم من الجنوب مكان يقال له أضاه (على وزن نواه) ، ومن الغرب بميل قليل الى الشمال قرية الحديبية (وهي التي تمت بها بيعة الرضوان) ، ومن الشرق على طريق الطائف مكان يقال له الجعريه ، اعتمر من كليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن وراء هذه الدائرة دائرة أخرى يُحرم منها كل من تجاوزها قاصداً الدخول الى مكة ، وهي وان كانت حلالاً إلا أنها تعتبر فناء للحرم : ولا شك أنه لوحظ في أبعاد الحرم عمران الجهات الثلاث الاولى ، حتى اذا قصد مكة منها من أرادها بشرّ ، فانه لا يصل الى حدود حرمتها حتى يكون أهله قد استعدوا الحربه ودفعه عن حوزتهم . أما الجهة الغربية وهي جهة البحر فليس فيها من القبائل ما يخشى من عدوانه : لذلك جعلوا حد الحرم فيها من التنعيم ، وهو مكان على مسافة نحو خمسة كيلو مترات من مكة . وعليه فيقات الاحرام أشبه شئ بالجمعة التي يصلح المرء فيها من شأنه عندما يريد متما بلة ملك من الملوك . وحد الحرم هو فناء بيت الملك ، حتى اذا دخل اليه أكمل استعدادده للتشرف بلقائه : فتراه وقد أخذ منه الاحتشام كل مأخذ ، يسير الى قاعة

الاستقبال بغاية ما يمكن من الادب ، حتى لكانه على مرأى منه ومسمع . وقد شاهدت ما يماثل ذلك في طوب سراى بالاستانة العلية : رأيت حجارة منصوبة الى اليوم على أبعاد مختلفة في الحوش الداخلى لهذه السراى ، وفي الفناء الذى كان مخصصاً لحلوس السلطان من بنى عثمان فى الزمن الخالى ، وكان القادم على السلطان من الامراء والسفراء اذا حاذى كل حجر من الاحجار المذكورة يسلم بسلام مخصوص ، حتى اذا وصل اليه قبّل الارض بين يديه .

ولقد بلغ من شأن السكبة فى الجاهلية أن الناس كانوا يحجون اليها من جميع أنحاء البلاد العربية وغيرها . وكانت أشهر الحج عندهم شوالا وذا الفعدة وذا الحجة . وكانوا يحجّون الشهر الذى يكون فيه الحج وهو ذوالحجة ، والذى قبله لانه وسيلة اليه ، والذى بعده لانه تابع له : لان الحاح كان يسافر فيه الى بلاده فوجب أن يكون فيه آمناً على نفسه وماله . وترى ذلك فى أسماء هذه الشهور نفسها ، فذوالفعدة يعنى الشهر الذى يتعدون فيه عن الحرب ، وذوالحجة هو شهر الحج ، والحرم هو ما حرموا فيه القتال . وكانوا يحرمون أيضاً شهر رجب ويسمونه شهر الله الا صم ، أى الذى لا يسمع فيه صوت سلاح ولا صوت مستغيث ، على خلاف فى أنه هو الشهر الذى يمكاه من السنة القمرية الحالية كما كان عند مضرأ وهو شهر رمضان كما كان فى عرف ربيعة . وذلك لان ربيعة كانت تسكن فى شمال بلاد العرب الى العراق ، وأظن ان هذا كان من الاسباب التى حملتهم على تأخير شهر رجب الى رمضان ، حتى يتمكنهم السفر فيه الى مكة ومنها الى اليمن ، فيمضون بها شوالا يتاعون فيه ما يريدون من تجارتهم ثم يعودون الى أداء حجهم ، ويرجعون الى بلادهم وهم فى أمن على أنفسهم وأموالهم ، لان حركتهم كلها كانت فى الاشهر الحرم : لذلك تراهم يقولون رجب مضر ورجب ربيعة لتعيين وقت كل منهما . وربما وقع تحريم رجب فى شهر شعبان فى سنى السىء ، فينادى الناس بذلك فى الموسم بقوله « اللهم انى أحللت رجب القادم وحرمت شعبان » . فتمضى العرب على ذلك فى سنتها . ولذلك فانهم يعبرون عن شهرى رجب وشعبان بالرجبين كما كانوا يعبرون عن الحرم وصفر بالصفرين .

والعرب كانت تنسى الشهور حتى توفى بين السنين القمرية والشمسية فكانوا يؤخرون

سنينهم كل ثلاث سنين شهراً (هو تقریباً الفرق بين السنين القمرية والشمسية في هذه المدة) .
وكان السبب في ذلك جعل زمن الحج ثابتاً في فصل من فصول السنة كأحد الربيعين ، حتى
يتيسر لهم القيام به في غير وقت الحر أو البرد الشديدين ، وخصوصاً في الزمن الذي تتوفر فيه
مادتهم التي يتجرون بها من أصواف وأوبار وسمن ودهن وماشية وما في معنى ذلك . وهذا
كله لا يتوفر على الدوام في شهر مخصوص من السنة القمرية كما لا يخفى .

وكان يتولى ذلك منهم النساء وهم من نبي كنانة وكانوا يسمونهم الفلانس . وقد
استدأت مضر في نسء الشهور في القرن الثاني أو الثالث قبل الهجرة . وكانوا يعملون ذلك
فقط في آخر شهري المحرم ورجب : فكانوا يؤخرون المحرم إلى صفر أو رجبا إلى شعبان
فيكون شعبان رجباً ، والذي بعده شعباناً ، والشهر الذي بعده رمضاناً وهكذا حتى
يستوفوا كل أشهر السنة . وفي ذلك يقول شاعرهم :

ألسنا الناسئين على معد * شهور الحل نجعلها حراما

وبهذه العملية كانت السنة القمرية تدور معهم مرة في كل ثلاثين سنة تقريباً . وفي
سنة عشر للهجرة كانت شهور السنة القمرية دارت ورجعت إلى أصلها في مكانها الطبيعي من
فصول السنة . فأشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله في خطبة الوداع بعرفة في
السنة المذكورة « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض » .
وحرّم الله السىء في هذه السنة . فقال تعالى : « إساء السىء زيادة في الكفر يضل به
الذين كفروا يخلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً » .

والعرب كانوا يسمون شهر رجب بالفرديعزلة عن الأشهر الحرم الأخرى . وربما
كانوا يستعملون رجبا لحجهم الأصغر^(١) يعني العمرة ، وهم يقولون الآن الحج الرجبي ، ولا
يزال هكذا يستعمل في الموالد بمصر ، فيقال المولد الرجبي أي الأصغر . على أن عدة الأشهر
الحرم كانت عند غطفان ثمانية أشهر في السنة ، وكانوا يسمون ذلك البسل (فتح الباء وسكون

(١) جاء في تفسير الألويسي في الكلام عن قوله تعالى « ألحج أشهر معلومات » انه الحج

الاكبر وان الحج الاصغر هو العمرة .

(السين) يعنى التحريم ، وفى ذلك يقول لهم اعشى بنى قيس :

أجارتكم تبسل علينا مُحَرَّم * وجارتنا حلٌّ لكم وحليلها .

ومعنى تحريمهم لهذه الشهور انهم كانوا يحترمونها، ويلفون فيها السلاح، ويتروكون الغزو الذى كان عليه مدار حياتهم ، وهولا يزال كذلك الى الآن فى كثير من أطراف جزيرة العرب . وكانت هذه الشهور كلها هدنة بين القبائل ما جمعها حتى لا يقف العداء حجر عثرة فى طريق الحاج منهم . ولذلك كانت العرب تستفصح من الحروب الاربع التى وقعت لها فى هذه الاشهر، ويسمونهم بالفجار أى التى حروا فيها، وفى ذلك يقول خدّاش بن زهير العامرى

فلا توعدينى بالفجار فانه * أحل ببطحاء الحجّون المخازيا

وقد أقر الاسلام الحرمه فى الاشهر الحُرُم : قال تعالى « يسألوك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله » . وسبب نزول هذه الاية أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش الى محلة ، وأعطاه كتابا وأمره أن لا يفتحه الا بعد مسيرة يومين . فلما فتحه وجد فيه : « امض حتى نزل بنخلة وأتنا من أخبار قريش عما اتصل اليك منهم » . فقال لأصحابه من كان منكم له رغبة فى الشهادة فلينتلق معى فانى ماض لا مرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن كرد ذلك فليرجع فان رسول الله قد نهانى أن أستكره منكم أحدا . فضى معه الفوم وكانوا ثمانية حتى نزلوا المحلة ، فربهم عمرو بن الحضرمى فى قريش ومعهم تجارة ، وكان ذلك آخر يوم من رجب، فقتلوا ابن الحضرمى وأسروا رجلا من قومه وهرب بعضهم الى مكة ، ثم ساقوا العير فمدموا بها على المدينة، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » . ولما بلغ ذلك قريش أقدم منهم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أبحل القتال فى الشهر الحرام ، فنهت هذه الاية الشريفة تحريم القتال فى الاشهر الحرم . ثم نزل بعد ذلك قوله تعالى « فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » .

وكانت قبائل العرب تجتمع قبل الحج : أهل الشمال فى بدر ومجنة بمر الظهران : الذى هو على بعد نحو مرحلة من مكة الى الشمال الغربى . وأهل الجنوب فى ذى الحجاز : وهو على مرحلة

من عرفة شرقاً الى الجنوب . وأهل الشرق في عكاظ : وهي واقعة فيما بين قرن المنازل والطائف ، وتبعد برحلتين كبيرتين عن مكة (مائة كيلومتر تقريباً) ، وقد اتخذها العرب سوقاً بعد الفيل بخمسة عشر سنة واستمرت الى سنة ١٢٩ هـ ، ثم أظلت اكتفاء بسوق عرفة ومكة . وعليه فقد كانت هذه الاسواق (١) بمثابة معارض للتجارة ومؤتمرات للآداب ومكارم الاخلاق . وأظنك تحكم معي بأن العرب من أسبق الناس اليها ، بل سبقتها بها الحكومات المتقدمة قرون عديدة .

نعم سبقهم اليونانيون الى مثل هذا الاجتماع في الجمازيونات (Gymnasiums) التي كانوا يقيمونها لطلابهم ، وأخصها تلك التي كانت في ألوُسبسية في القرن الثامن قبل المسيح

(١) وأشهر هذه الاسواق بعد عكاظ سوق دومة الحنديل في صحراء نجد ، ثم محبة ودو الحار . وقد كان للقوم غير ذلك محالٍ خصوصية للمناظرة والمداكرة والمحاضرة في كل حي من أحياء العرب . وكان في مكة قبل الاسلام دار الندوة ونادي قريش بمحوار الكعبة . فلما جاء الاسلام كان أغلب اجتماعهم في المساجد : فكانوا يحطون فيها وينشدون أشعارهم وكلها كانت حثاً على الفصيلة ومكارم الاخلاق . وكان القوم في المدينة يجتمعون في تقيفة من ساعدة لانها كانت لسعد ابن عباد سيد الانصار ، وخطب أتي بكر وعمر بها يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أشهر من أن تذكر ، لما كان لها من التأثير الذي حمط للإسلام كيانه ووطد بنيانه . ولاشتمال مركز الخلافة مدة الراشدين بالصوحات ، كثرت بالكوفة والبصرة دور العلم بطبيعة الحال لقرنها من مدينة الفرس وحضارتهم . وطهر الخط الكوفي بها خصوصاً بعد أن وضع أبو الاسود الدؤلي الحركات ووضع لهم نصر بن عاصم الاعحام (القبط) في ولاية الحجاج بن يوسف . وقد كانت الحروف العربية قبل ذلك مقوطة ، ولا حاجة لابتداء الصعوبة التي كانت تفتري القراء في تعيين مثل الباء من التاء من الياء ، فكان ذلك أول خطوة في رقي الكتابة العربية فتشأ عن ذلك كثير من المشتغلين بها مما كان داعية لاهتمام الناس بالعلوم العربية من لغة ونحو ونثر ونظم والشرعية كالحديث والفقه وغير ذلك ، فظهر فيها كثير من العلماء والشعراء والخطباء . وكان لهم فيها أندية للمناقشة والمفاخرة . وأكبرها كان في البصرة وهو المريد وكانوا يسمونها بمكاظ البصرة ، وفيه حصلت حملة معاذرات بين الشعراء وعلى الخصوص بين جرير والفرددق والراعي في مهاجاتهم بعضهم البعض . وكثيراً ما كانت هذه المفاخرات تحصل في محالٍ الخلفاء لاسيما في زمن معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد وهشام بن عبد الملك . وكان محالٍ المصور والمهدي والرشيد والمأمون ومحالٍ الخلافة في قرطبة بالاندلس حافلة بمفاخرات الشعراء ومحادلات العلماء مما كان سبباً لشجدة القرائح ونمو المدارك وكثرة المباحث التي بصجت بها العلوم على اختلاف أنواعها وكانت سبباً لترقي الدولة الاسلامية في القرون الثلاثة الاولى الى أوج عرفانها وحضارتها وعمرائها .

وكان لهم تاج يسمونه بالتاج الأولي يلبسونه لمن برز في هذه الألعاب ، التي كان الغرض منها تربية الحسوم وإعداد الامة لان تكون أمة حربية . ثم انتهى بهم الامر بعد ضخامة ملكهم أن استعملوا هذه المنتديات لعرض معلوماتهم وبنات أفكارهم . وما زالت حتى صارت تطلق الآن على دور التعليم في أوروبا وخصوصاً في ألمانيا . ومن هذا ترى أن أسواق العرب كانت أعم من أمثالها عند غيرهم .

وكانت سوق عكاظ تقوم في صبح هلال ذي القعدة ، وقد قصدته رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة بعد البعثة ليدشر في القمائل دين الاسلام . وفيه تقابل صلى الله عليه وسلم هُش بن ساعدة واحترمه كثيراً . وكانت عكاظ أكبر أسواق الجاهلية لانها تلي أكثر جهاتها سكاناً وأعظمها قوة ومنعة ، وكانوا يبيعون فيها ويشترون ويتناشدون أشعارهم ويتفاخرون بما لديهم من نسب عظيم وعمل خطير ، خصوصاً في القرن الأول قبل الهجرة . وكان لهم محاسن تحكم يعرف للناس مكانتهم وشجاعتهم وفصاحتهم وآدابهم ، ورعاً كان فيه العدو ويشهد لعدوّه بالسبق من طريق الحق . وكثيراً ما كان هذا الاحتكاك السلمي يؤدي الى المصالحة بعد المكافحة فتتال الاساية من وراء هذا الاجتماع خيراً كثيراً . وكانت كلمات السانين من هؤلاء الشعراء تؤخذ وتعلق داخل الكعبة ككرماً لهم واشهاد آمن الناس بأنهم من المعوقين . وأشهر هذه المعاملات وأكبرها بلاغة سبع^(١) كان معظمها ولا يزال مدرسة لسحو النفوس ومعالي الهمم وقد ترجمت الى كثير من اللغات الاجنبية ليتعرفوا منها كثيراً من عوائد العرب وأخلاقهم قبل الاسلام : وكانوا يسمونها بالمذهبات^(٢) .

(أنظر صفحة ١١٦ من الجزء الثالث من العقد الفريد لابن عبدربه طبع بولاق)

(١) وأصحاب السبع المعلقة على ترتيب بلاغتهم هم : امرؤ القيس بن حجر ومات سنة ٩٤ قبل الهجرة . ورهير بن أبي سلمى ومات سنة ٥٢ هـ . والامة الدياني ومات سنة ١٩ هـ . وعمرو بن كثوم ومات سنة ٢٣ هـ . والحارث بن حلزة ومات سنة ٣٤ هـ . وطرفة بن العبد ومات سنة ٨٤ هـ . وعنترة العبدي ومات سنة ٨ هـ . وبعضهم يلحق بأصحاب المعلقة أعشى قيس ، وليد الذي مات سنة ٥٤ هـ هزيرة ويشعره صرب الامثال في الاسلام .

(٢) ذكر صاحب جمهرة أشعار العرب ان أصحاب المذهبات هم : حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، ومالك بن عجلان . وقيس بن الخطم . واحيعة بن الحلاح . وأبو قيس بن الاسد . وعمرو بن امرئ القيس . وكلهم من الاوس والخزرج .

فئة من مذهب امرئ القيس ومذهبة زهير مثل لانهم كتبوها عاء الذهب وعلقوها في
البحرام، وبقى بعضها فيه الى يوم الفتح وحرق أغلبها فيما حرق من الكعبة قبل الاسلام.
ولم تقتصر هذه السنة على الجاهلية بل وجدت في الاسلام : فقد كتب هارون الرشيد عهدا
بالخلافة الى ولده الامين من بعده ثم الى ولده المأمون ، وأرسل به فعلق في الكعبة الى زمن
الامين فاستدعى به ومرقه . ثم صار بعد ذلك كل من قام بشرف الخدمة في البيت الحرام من
الملوك والسلاطين يتيمن بكتابه اسمه داخلها بجوار ذكر الأثر الذي له فيها .

وما زالت الكعبة محترمة في الجاهلية حتى أنى الاسلام وجعلها الله في السنة الثانية للهجرة
قبلة للمسلمين حينما كانوا (وكانوا يصلون الى بيت المقدس) ، قال الله تعالى لنبيه ورسوله
محمد صلى الله عليه وسلم « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلولا يك قبلة ترضاها فول وجهك
شطر المسجد الحرام وحينما كنتم فولوا وجوهكم شطره » . فكان كذلك ، ومن ثم صارت
الكعبة قبلة لهم في صلاتهم تنوجه اليها وجوههم ، وتعوذ في قبالتها بجاههم ، في أى نقطة كانوا
من هذه الكرة الأرضية ، لافرق بين شمالى وجنوبى وشرقى وغربى بعيد أو قريب ، وبذلك
أصبحت الكعبة عندهم مركز الدائرة التى يرتبطون بها جميعا بحبل دينهم المتين : دين التوحيد ،
دين المساواة ، دين الاخاء ، دين الحرية الصحيحة ، ولها في نفوسهم من الاجلال والاعظام
مالا يعمى على تعبيره لسان ، أو يتخيله جنان ، لافرق في ذلك بين أهل مذهب ومذهب
آخر . بل ترى المسلمين على اختلاف مذهبهم يصلون حولها وراء أى امام كان : وهذا
لا يدل فقط على التسامح الموجود بين المسلمين ، بل فيه أكبر برهان على توحيد الغاية
التي يرمون اليها في عبادتهم ، والتضامن الذى يجب أن يكون بينهم ، وهذا التسامح لانراه
موحودا بالمرة بين مذاهب الديانات الأخرى .

وقد جعل الله تعالى الطواف بالكعبة من فرائض الحج الذى هو فرض عين على كل
مسلم يستطيع اليه السبيل في أى زمان ومكان ، وفرض كفاية كل سنة على عموم
المسلمين يسقط بقيام البعض به فان أهملوه أنما جميعا .

ومن الغريب ان كل من يقع بصره لاول وهلة على الكعبة تراه في دهشة كبيرة ، لالكون
بصره وقع على شئ لم تعود النظر اليه ، ولكن لما يعتربه من الخشية والرغبة ! ! فترى هؤلاء

المشاهدين تأخذهم هزة كبيرة من هذا المنظر المهيّب ، ومنهم من يقف لحظة في مكان التأدب المستكين المتصاغرا امام هذه العظمة الكبرى ، ومنهم من يصرخ بصوت الخوف ولسانه يلهم بكلمات منفصلة عن بعضها ، ومنهم من يحش بالبكاء فلا تسمع له غير نحيب يختنق معه صوته وتتقطع منه أنفاسه . وعلى كل حال فدرجة خوف الانسان من ربه على نسبة مع قوة دينه ومثانة يقينه .

— الطواف —

الطواف هو قطعك ما يحيط بالكعبة من دائرة المطاف سبع مرات وتسمى أسبوعاً^(١) ويقال لها أشواط ويشترط في الطواف الطهارة التامة ، ويبغى أن لا يكون في يدك مثل نعال أو غيرها من الأشياء الوسخة . وتتدى كل شوط من الحجر الاسود ، فاذا حاذيته تفرست منه وفباته ان أمركم والا توجهت اليه قائلاً : « اللهم اني نويت طواف بيتك المعظم سبعة أشواط فيسرها لي وتقبلها مني » ، ثم تسير مسلماً بيدك قائلاً « بسم الله الله أكبر » . وتطوف جاعلاً البيت على يسارك من وراء الحجر ويميداعن الشاذران .

والمطاف على شكل دائرة يضاوية من الشمال الى الجنوب ، وقد فرشت أرضه بالرحام من مدة بعيدة ، وأصلحت مدد السلطان سليمان القانوني . وهو على حدود الحرم في عهده عليه الصلاة والسلام . ومسافة ما بين آخره والكعبة من جهة الغرب والجنوب نحو ١٩ متراً ، ومن جهة الشمال والشرق نحو ١٢ متراً ، وفيه لصق البيت مما يلي باب الكعبة الى الشمال جزء

(١) بحث في كتب اللغة عن لفظ أسبوع فلم أحده يصرف الا الى سبعة أيام الاسبوع أو الى سبعة أشواط . الطواف مع ان سمع القوم كثيرة وقد مر بك شيء منها : فتأدر لدهي أن لهذه التسمية علاقة من المسميين وأن القوم ربما كانوا يطوفون في أحد أيام الاسبوع سبعة أشواط لكل يوم شوطاً وربما كان يدعوهم الى ذلك حيق ربههم الذي كانوا يستعملونه وهم يبيدون عن مكة في الحصول على عيشهم في هذه البلاد التي تصيق بطييعها عن القيام بحياة أهلها . فلما جاء الاسلام لم يهرق يديها ، وحملها كلها واحدة ، ولم يجعل لها رماً معيناً يؤدونها فيه .

وأشواط الطواف سبعة من رمي ويميد يؤيده قول تبع حسان مالك حمير .

ثم طافاً باليد سبماً وسبماً * وسجداً عند المقام سجوداً

انظر داليه فيما يأتي من هذا الكتاب وهي الي وصف فيها دهابه الى مكة في القرن الثالث قبل الهجرة بقصد هدم الكعبة ورجوعه عن فكره واحترامه لها وكونه اياها وطوافه حولها .

مربع منحط عنه ، سعته نحو مترين من كل جهة يسمى المعجن : وهو ما كان يعجن فيه اسماعيل المؤنة التي كان يستعملها ابراهيم في بناء الكعبة وقد وجدنا فيه كتابة محفورة في قطعة من الرخام مثبتة في الشاذروان هذه صورتها « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة المطاف الشريف سلطان الانام الامام الاعظم ، المعروض الطاعة على سائر الامم ، أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله آماله ، وزين بالصالحات أعماله ، في شهر سنة ستة وثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله » .

وعليه فقطر دائرة المطاف من الشمال الى الجنوب نحو ٥١ مترا ، ومن الشرق الى الغرب نحو ٤١ مترا ، والكعبة تقريبا في وسطها . فاذا اعتبرنا أن متوسط ما يقطعها الطائف حول الكعبة مائة متر في كل مرة ، ففي السبعة الاشواط يقطع سبعمائة متر . وادعرت ان الحاج يطوف مرات متعددة في اليوم الواحد أقلها مرة قبل كل صلاة من الصلوات الخمس أو بعدها ، علمت أن الحاج بين شاب وشاب وصبي ذكر أو أنثى يقطع في طوافه اليومي على رجليه نحو أربعة كيلومترات على الأقل ، بل منهم من يقطع أضعاف ذلك قبل وبعد الصلاة الواحدة .

وذكر ابن بطوطة في رحلته انه رأى وزير غرناطة وكبيرها أبا القاسم محمد الازدي يطوف كل يوم سبعين أسبوعا ، ولم يكن يطوف وقت القيلولة لشدة الحر : فكأنه كان يقطع في طوافه كل يوم سبعين كيلومترا .

وللطواف مرشدون يقال لهم المطوفون . ولكل مطوف حجاج مخصوصون على حسب تباير البلاد وتقاسيمها : فترى للأتراك أو الهنود أو البخاريين أو المصريين مثلا مطوفين خصيصين بهم ، بل لكل قسم من أقسام البلاد مطوف معلوم يتوارث عن أبيه خدمة حاجه ، تعيينه امارة مكة لهذا الغرض ، وكانوا قبيل الدستور كالملتزمين يحتكر كل منهم رسمياً صنفاً من أصناف الحجيج لا يمكنه أن يتعداه الى غيره ، لا هم كانوا يشترون من أصحاب السلطة بمكة هذه الالتزامات : ولذلك كان لبعضهم سلطان على حاجهم يأمرهم وينهون ولا تأخذهم فيهم شفقة ولا رحمة ، حتى اذا جاء الدستور أزال هذا التحكير ،

وأطلق الحرية للحجيج يطوفون مع أى شخص أرادوا .

وكيفية التطوف أن يجمع المطوف في الغالب حجاجه قبل الصلاة أو بعدها ويسير هو أو واحد من صبياناه على رأس كل جماعة منهم ، فيطوف بهم حول الكعبة وهو يتلو أدعية الطواف بصوت عال ، فترد عليه الجماعة التي تتبعه . وربما كان المطوف ولدا صغيرا لا يزيد عمره عن ست سنين أو سبعة : فيحمله بعض الطائفين على عاتقه ويطوف به وهو يلقيهم الدعاء على هذه الحالة . ومن الطائفين من يطوف وحده ويكون دعاؤه بينه وبين ربه . وبعد صلاة الصبح والعشاء على الخصوص ترى المطاف مزدحما بجماعات الطائفين بحيث لا يمكن أن ينحرك الرجل إلا بحركة المجموع من كثرتهم . فإذا حاذوا الحجر الأسود انقض بعضهم عليه لاستلامه ولا يزال يراحم بمنكيه حتى يصل إليه . ولكن البعض الآخر يكتفى بالإشارة من بعد وخير أفعـل . ومن لم تكن لهم قدرة على المشى من الطائفين يجلسون في محفة يحملها أربعة على رؤوسهم أو أكتافهم ويطوفون بهم حول الكعبة ، وأغلب هؤلاء من الهنود وخصوصاً البنغاليين أو الجاويين : لأن سواد حجاجهم ممن جاوزوا الثمانين ، يأتون إلى هذه الأماكن المقدسة رجاء موتهم بها ، وهم يرون في ذلك كل سعادتهم ويعملون له طول حياتهم : لذلك تجدهم يمشون الجسدين بؤرة الأمراض التي تنفـش في الحجيج لأن حالتهم الصحية تتأثر بأى مؤثر بسيط وليس فيهم من القوة ما يقوى على دفعه وربما كانت حالتهم المعاشية تساعدهم على دفعه على الفتك بهم !! ولقد ذكر أهل السنة للطواف فضائل كثيرة وحشوا على الكثرة منه ، وقالوا إن لم يتيسر للإنسان ذلك فإنه يحمل به أن يجلس في المسجد مستقبلا الكعبة مشاهدا فيها .

وبعد الطواف يذهب الطائف إلى حجر اسماعيل فيصلى به ركعتين سنة الطواف يختمه بهما ، وإن لم يستطع ففي مقام إبراهيم . وهو قبة قامت على أربعة أعمدة وأحاطت بها مقصورة نحاسية مربعة يبلغ طول كل ضلع منها نحو ثلاثة أمتار وستين سنتيمتراً وهي على آخر المطاف تجاه باب الكعبة وفي داخلها الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم حال بناء الكعبة ، وبه أثر يقال إنه أترق قدميه ، وذُكر أن أترق قدمي إبراهيم في هذا الحجر إنما كان باستناده عليه عند زيارته لمكة

بعد بناء الكعبة ، وكان هذا الحجر قبل الاسلام موضوعا بالمعجن الى جوار الكعبة ثم أبعاد عنها بعد الفتح حتى لا يكون هناك أثر للوثنية بالمرّة ، ودفن بمكانه الحالي ، وبنى عليه فيما بعد القبة الحالية ، ويقولون ان تحته آلة البناء التي كان يعمل بها ابراهيم في الكعبة . والعرب قبل الاسلام كانوا يعتقدون في هذا الاثر ويحترمون به بل يقدسونه ، وهو المقصود بقول أبي طالب في لاميته :

وموطئ ابراهيم في الصخر رطبة ^(١) * على قدميه حافياً غير ناعل

وربما أخذ العرب قبل الاسلام هذا الاثر من أثر القدم الذي بقية الصعود بجبل الزيتون بالقدس الشريف ، ويزعم النصارى أنه لعيسى عليه السلام وهم يقدسونه ويحترمون . ومن ذلك أنى احترام المسلمين لآثار تلك الاقدام التي ينسبونها الى النبي عليه الصلاة والسلام : كما نراه في قبة السيد البدوي في طنطا ، وفي جامع المؤيد ، ومسجد قايتباي بالماهرة ، وفي قبة الآثار النبوية في الاستانة ، وفي خزانة الآثار النبوية بقبة الصخرة ببית المقدس ، وفي مسجد ابراهيم بحضرة . وعلى صخرة بيت المقدس آثار أقدام غير منتظمة يدعون أنها آثار أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أسرى به ، والى جوارها أثر قدم ينسبونه الى سيدنا إدريس عليه السلام ، والمسلمون هناك يقدسونها جميعاً كما يقدسون أثر قدم عيسى التي تراها في محراب على عتبة منبر المسجد الأقصى ، ويقول النصارى ان المسلمين فصلوها عن أختها التي في قبة الصعود ووضعوها بمكانها هذا . ويقال ان في محطة قدم التي في جنوب دمشق أثر أقدام عائصة في الصخر ينسبونها الى موسى عليه السلام وذكرها ابن جبير في رحلته . وقد رأيت في الفصل الرابع والثلاثين من كتاب محاضرة الاوائل للسكتواري ان أول موضع اهبط الله فيه آدم جبل سرنديب ، وفيه أثر قدم آدم عليه السلام غائص في الصخرة طوله سبعون شراً الخ ؟ ؟ ؟ وعليه فلا بد أن تكون فكرة تلك الاقدام أخذتها العرب عن اليهود أو الهنود ان لم يكونوا أخذوها عن المسيحيين وبقى أثرها في المسلمين الى الان .

ولمقام ابراهيم كسوة من الحرير المزركش بالقصب تأتي اليه سنوياً من مصر مع كسوة الكعبة . ويتصل بمقصورته من الشرق سقيفة على طولها ، بعرض متر وثمانين سنتيمتراً ،

يزدحم الناس لصلاتهم فيها ركعتي الطواف ، ثم يذهبون الى قبة زمزم . وباب هذه القبة الى الشرق وفيها بئر زمزم المشهورة وخرزتها من الرخام من عمل السلطان سليمان وهي مرتفعة عن سطح الارض بنحو متر ونصف ، ومن دونها حوض يعصب الملاءون فيه بدلانهم ، ومن هذا الحوض يملأ السفاءون جرارهم ، الا ما كان لخاصة القوم فانه يملأ مباشرة من الدلاء الخارجة من العين . وهذه الحركة لا تكاد تنقضي في مدة الحج أبداً . وللحجيج اعتقاد كبير في ماء زمزم ويتهادون به في آنية من الصفيح أو الدوارق المختومة . ويزعم أهل مكة انه نافع لكل شئ* بدليل حديث « ماء زمزم لما شرب له » . ويدعى بعضهم أنه يشربه اتقاء الجوع فيشبع ، وأظن ان خدمة العين ينالعون في فوائده مبالغته يتجسم معها الوهم عند شاربيه . ومن ذلك يتبع طعمه من أدواق الناس على نسبة اعتمادهم فيه : فهم من يقول انه لا يعادله شئ* في لدته ، ومنهم من يرى انه أحلى من العسل وألذ من اللبن ، ويرى غيرهم خلاف ذلك قال المعري :

تاركت أنهار البلاد سوانح * بعذب وخصت بالملوحة زمزم

والذي يهمهم من ظاهر الحديث المذكور أن هذا الماء نافع لما شرب له من الادواء التي من طبيعته اشفاؤها ، وينسره بذلك حديث « انها شفاء سقم » . وحقيقة فانه ماء فلوى تكثرفيه الصودا والسكر والخير والحامض السكرينيك وحمض الازوتيك والوتاسا ، مما جعله أشبه شئ* بالمياه المعدنية الصحية في تأثيرها ، وفيه قليله ولا تحلوا لكثرة منه من الضرر ، خصوصاً في غير موسم الحج حيث تكون نثرها مهجورة : لان أهل مكة لا يشربون منها للوحتها . وفي هذه الحالة يزيد فيها الحامض الازوتيك بدرجة تجعل ماءها غير صالح للشرب . وربما كانت نصيحة بعضهم بالتخلع (كثرة الشرب) منها بعد طواف القدوم ، لتأثيرها على الجهاز الهضمي بما ينطقه من المواد التي تكون قد انفرزت اليه مدة هذا السفر الشاق ، مما يكون نتيجة رد عمل تنشط به الاعضاء وتصح الجسوم . وقد قال الاطباء ان هذا الماء نافع للسكلي والمعدة والامعاء والكبد .

ولفضل ماء زمزم وشدة اعتقاد الناس في بركته ، تجرأ بعض خدمة المساجد في مصر ،

وادعى تغيراً بالحجلاء من المسلمين بأن عين الماء التي عنده في مسجده لها مفعذ على عين زمزم مكة (كما هي الحال في شهرة العين التي بمسجد الحنفى بالقاهرة !!) ويثبتون هذه الاكذوبة بفريه أشنع منها !! فيقولون ان رجلاً من مصر كان حاجاً فسقطت طاسة من يده في زمزم فلما حضر الى القاهرة عثر عليها في تلك العين ! ولهذا ترى كثيراً من الناس يتبركون بها ويستشفون بمائها .

ولقد بلغ من اعتقاد الناس في عين زمزم (وخصوصاً الدكارنة والهنود) أنهم يأتون قطع طويلاً من القماش ويعرقونها في مائها ثم ينشرونها على حصصاء صحن الحرم ، حتى اذا جفت حافظوا عليها وأوصوا بها لتكون كفناً لهم عند مماتهم . وبلغ من اعتقاد بعضهم فيها أنهم يرجون أن يكون هذه البئر المقدسة مقبرة لهم ، حتى يكون لهم من ركنها وعلى مكائنها مقام كبير في حياتهم الاخرى !!! ولقد حدث في سنة ١٣٢٦ هـ ان احدى بعض الهنود بنفسه فيها حياً على غرة من خدمتها ، فاهتم الناس لهذا الأمر واستدعوا بالعواصيين من جندة للبحث عن جثته ، ولم يعثروا عليها الا بعد عاء شديد . فاخرجوها ونزحوا من البئر كمية كبيرة صلح معها ماؤها ، أما هذا الحاهل فقد ذهب ولا أدري الى رحمة الله أو الى نقمته !!

ولمداً جمعت التوارىخ العربية ان مبدأ ظهور هذه العين من عهد قدوم هاجر مع ولدها اسماعيل الى مكة فكانت سبباً لعمارته . وقد عاضت مياهها من أطول ولاولذلك يسمونها المضمونة ، ونفيت هكذا الى زمن عبد المطلب فحفرها ، واهتم بتوسعتها وتعميقها أنو جعفر المنصور والمأمون وغيرهما ، ولا تزال محل عناية الملوك والسلاطين الى الآن .

والأعراب يكادون يلصقون زمزم بنفس أركان الحج : فان الشخص منهم يضيف زمزم الى البيت الذى يحج اليه في نفس الأمر ، واداحلف فانه يقدم زمزم على مقام ابراهيم في قصه فيقول « والبيت الحرام وزمزم والمقام ما فعلت كذا مثلاً » . وهذا قسم تصعد معرفتها به الى معرفتنا بالعرب من عهد اسماعيل ، لذلك ترى الحجاج من الأعراب يدخلون الى زمزم جماعات وزرافات آخذين في صدورهم كل من كان في طريقهم ، حتى اذا وصلوا الى الحوض الذى بجوار البئر نزحوا ما فيه على رؤوسهم ، فيسيل الماء على ثيابهم الى أن تنقل

جميعها ، ثم يخرجون فرحين مستبشرين تظلهم عصى خدمة العين التي لا تؤثر فيهم بالمرّة دون القيام بهذا الواجب الاقدس .

وليس الاعتقاد في مثل ماء زمزم خاصا بالمسلمين فان للهندو اعتقادا عظيما في نهر الكنج وبحيرة مادن . والنصارى يعتقدون في ماء الاردن الذي يبعد نحو عشرين كيلومترا الى شرق بيت المقدس ويسمونه نهر الشريعة لذلك ترى حجاجهم يذهبون اليه ، ويتبركون بالاستحمام به في المكان الذي تعمد فيه المسيح ، يأخذون من مائه في آنية من الصفيح يتهادون بها عند عودتهم الى بلادهم . وأكثر النصارى اعتقادا في ذلك الروسيون والاقباط أما الافرنج فاعتقادهم في ماء لورده (Lourdes) في جنوب فرنسا لا يقل عن اعتقادهم في ماء الاردن .

﴿ فشل الامراء والملوك في تحويل الناس عن الكعبة ﴾

مما سبق ترى أن الكعبة مشرفة في الجاهلية مشرفة في الاسلام . لذلك اجتهد غير واحد من الملوك قبل وبعد الاسلام في تحويل العرب عن وجهتهم للكعبة الى شئ غيرها . وأول ما ذكر من ذلك أن تبعان حسان ملك ملوك حمير ، وهو عائد من حرب الاوس والخزرج يثرب ، أراد هدم الكعبة وكان يهود ياقنعه من ذلك من كان معه من أحبار اليهود ، فكساها وعاد الى بلاده . وقد كانت غطفان بنت حرما مثل حرم مكة في القرن الاول قبل الهجرة ، قصد تحويل العرب اليه ، وقد كان على العرب ملك اسمه زهير بن حباب ، فلما بلغه ذلك قال لا والله لا يكون ذلك أبدا وأنا حي ثم نادى في قومه وقال لهم ان أعظم مأثرة ندخرها عند العرب أن نمنعهم من ذلك فأجابوه الى مراده وجرى بينهم قتال شديد ظفر فيه زهير وأبطل حرمهم . وفي نحو سنة ٦٠ قبل الهجرة ، دخلت جيوش الحبشة الى اليمن انتقاما من ذي يزن ملك حمير الذي كان يفتك بنصارى نجران من قومه ، فغلبوه على أمره وأخذوا البلاد ودانت لهم رقاب أهلها . ثم فرد ابرهة الاشرم بالحكم فيها ، وبنى في صنعاء القليس - (الكليسه) ، وأراد أن يحول إليها حج العرب فسار بجيوشه الى هدم الكعبة . فلما وصل الطائف عرج على مكة ، وبعث من ساق اليه أموال أهلها وفيها مائتا بعير لعبد المطلب . فأتى

أبرهة وطلب منه أن يردها إليه . فقال له أبرهة « أسكنني في إبلك وتترك بيتا هودينك ودين آباءك وأنت تعلم أني انما بئت لهدمه ؟ » فقال عبد المطلب « أنا رب الابل وللييت رب يحميه » . فأعطاه أبرهة الابل فساها هديا ، ودخل عبد المطلب مكة وهو يخاطب أهلها بقوله :

يا أهل مكة قد وافا كمو ملك * مع القيول على أنيابها الزرد
هذا النجاشي قد سارت كتابه * مع الليوث عليها البيض تنقد
يريد كعبتكم والله مانعه * كنع تبّع لما جاءها حرد ^(١)

وزحف أبرهة على مكة ، فلما وصل قريبا من المزدلفة عند جبال يسمونها جبال النار وجد نوعا من الطير الابليل ^(٢) قد خلق على الجو وأخذ يرميهم بحجارة من سجيل « طين » بمقدار حبة العسدس ، فلما وصلوا مكة فزع فيهم داء الجدري الذي أصابهم ولا شك من مكروب كان كامنا في الحجارة التي كانت تتساقط عليهم من تلك الطيور : وبؤيده قول عكرمة « ان من أصابته الحجرة جدرته » . ولعل هذه الحجارة كانت في بيئة محدورة في بلاد العرب أو في غيرها ، فتشربت من هذه المكروبات وحملت الطيور الى هذه الجهة فكان منها ما كان . وكان مع جيش الحبشة ذلك الفيل الشهير عبد العرب باسم محمود ، وهو لفظ يصح أن يكون هنديا ان لم يكن مغوليا كان يطلق على نوع عظيم الخلقة من الفيلة ولا يزال هكذا مستعملا في اللغات الافريقية (Mamouth) ، فاراد واسوقه على مكة فلم يتمكن من الحركة اليها ومات ، ويقال انه دفن بمكانه المشهور بباب جرول الذي يحجم عنده الحمل المصري ، وكانت له قبة كسرها الشريف عون الرقيق . ولما رأى أبرهة كثرة الامراض التي تفتك بقومه هرب وتشتت شمل جيشه ، وصادف قومه السيل فاغرق أغلبهم ، وهلك الباقي في شتاته ولم يصل منهم الى اليمن الا من آخر بحادثهم . وكان ذلك في عام ولادته صلى الله عليه وسلم ، والعرب تسميه عام الفيل ، وكانت تؤرح به الى الهجرة : فيقولون وقع الامر

(١) حرد يعني عصان .

(٢) وهو مثل صغار المصافير السوداء ونوعه لا يزال موجودا بالحرم يعيش في قباهه . وهو معروف في مكة باسم أنابيل ، ويطلقونه على المفرد والجمع . وهو ما ذهب اليه أبو عبيدة والمراءحيث قالوا لا واحد له من لفظه . وقال بعضهم مهرد مايل كسكين أو أنال كمراب أو اناله بشديد الباء وتخفيفها . وقال آخرون ان أنابيل وصف للطير بمعنى جاءاب .

الفلاني قبل الفيل أو بعده بخمس سنين مثلاً . وذهب ابن الكلبي الى أن وافعة الفيل كانت قبل ولادته صلى الله عليه وسلم بثلاث وعشرين سنة .

ولقد ذكر المؤرخ اليوناني مالالاس (Malala) في تاريخه الذي طبع في اكسفورد سنة ١٦٩١م ، « ان أبرهة الاشرم في حملته على مكة كان يركب عربة يقودها أربعة من القبيلة » وقد قال ابن الزبيرى أبحاثاً يشير فيها الى هذه الحادثة منها هذان البيتان :

سائل أمير الجيش عناماترى * ولسوف يني الجاهلين عليها
ستون العالم يؤوبوا أرضهم * بل لم يعش بعد الاياب سقمها

ومرض الجدري ما كان يعرف ببلاذ العرب قبل هذا الوقت . وذكر المؤرخ بروكوبيوس (Procope) الذي ولد سنة ٥٠٠ من الميلاد ووصل الى رتبة الوزارة في القسطنطينية في سنة ٥٦٢ ، ان أول ظهور الجدري في مصر كان سنة ٥٤٤ للميلاد في مدينة يلوسيوم : وهي مدينة عظيمة أطلالها بين بورسعيد ومياط لآن ، ونقلت جرائمه الى القسطنطينية سنة ٥٦٩ وهي نفس السنة التي ظهر فيها المرض في جيوش أبرهة حول مكة ، ولا يبعد أن الرياح أو الطيور نقلت اليها مكروبها في تلك الاثناء ، فكان منها ما كان . ولا شك أن قوله هذا حجة لان مصر كانت لذلك العهد من أعمال الامراتورية الرومانية . ويؤيد ذلك ما قاله الرحالة بروس (Bruce) الايموسى في رحلته الى بلاد الحبشة فيما بين سنتي ١٧٦٨ و ١٧٧٢ م التي كتب فيها عن كثير مما عثر عليه من الامور التاريخية والجغرافية والتاريخ الطبيعى ، وذكر فيه انه رأى في كتب الحبشة ان أبرهة رفع الحصار عن مكة للمرض الذي أصاب جيشه اذ ذاك ، واستدج من صفاته أنه مرض الجدري الذي انتشر من ذلك الوقت في الشرق وأخذ يفتك في الناس فتكاً مريعاً ، حتى ألف فيه الرازى رسالته المشهورة في الجدري والحصبة . وهذه الرسالة لها قيمة كبرى عند أطباء الأورج لآن تخففت من مصابه كثيراً ، غير أن هذا المرض الخبيث مازال يفتك بنى الانسان حتى اخترع الاستاذ (جونر) (Jonner) الاكليزى مادة تليقح الجدري وأشهر أمرها سنة ١٧٦٩م وباستعمالها خفت هذه المصيبة وأصبحت لا أثر لها تقريباً في البلاد المتقدمة ، الا أنها لا تزال موجودة بكثرة في البلاد العربية لعدم العناية بها . لذلك يجدر

بكل من قصدها أن يلقح جسمه بهذه المادة قبيل سفره اليها . ومن أعجب ما شاهدت بالبلاد العربية عناية صاحب الجمل السليم بعدم قطره مع جمل أجرب خوفا من سريان العدوى اليه ، في حين أن العرب أنفسهم لا يهتمون بفصل الأجرب من بينهم عن اخوته الأصحاء الذين لا يهتمون ان يصيروا طعمة لهذا الداء المهلك !!! والله في خلقه شؤنون .

وفي أيام المقتدر العباسي ظهرت في العراق طائفة القرامطة ، وهم قوم ينسبون الى موالاة محمد بن الحنفية بن علي كرم الله وجهه ، ويكفرون من لم يكن على مذهبهم . وأول من ظهر منهم أبوطاهر القرمطي ، وقد نى دارا في هجر^(١) سماها دار الهجرة ، وأراد أن ينقل الحج اليها : لذلك كان يقصد الطرق الموصلة الى مكة ويفتك بحجاج بيت الله الحرام ، فانقطع الحج في أيامه خشية منه . وسار القرمطي الى مكة في عسكر كثيف أيام الحج ودخل نخيله ورجله الى الحرم ووضع السيف في الطائفين والعاكفين والركع السجود على نغمة منهم ، وقتل في مكة وشعابها نحو ثلاثين ألفا واقتلع باب الكعبة وجرده مما كان عليه من صفائح الذهب ، وأخذ جميع ما في خزانة بيت الله الحرام من الحوهرات الثمينة ، واقتلع الحجر الاسود من مكانه ، واصرف به الى بلاده بعد أن هدم قبة زمزم !! وبقي مكان الحجر حاليا يتبرك الناس بمحله ، وبعد موت أبي طاهر رأى قومه أن من المستحيل تحويل الحج عن الكعبة الى بلادهم . فقام شنبر بن الحسين القرمطي بالحجر الى مكة ، وكان يحيط به برواز من الفضة يضبط بعض القطع التي تكسرت منه حين قلعه ، فوضع في مكانه على الحالة التي تراه عليها الآن .

وفي سنة ٤١١ دخل رجل الحرم بصفة درويش وضرب الحجر بعمود من حديد كان معه . فقامت عليه الالهة وقاتلوه شر قتلة . وكانت قد طارت من الحجر ثلاث قطع مثل ظفر الانسان فاخذت والصقت في مكانها بحيث لا يمكن ملاحظتها . وبزعمهم أن الحاكم بأمر الله العاطمي هو الذي كان أرسل ذلك الرجل حتى اذا كسر الحجر الاسود أمكنه تحويل وجهة المسلمين عن الكعبة الى مسجده بجوار باب الفتوح بالقاهرة .

وانقد ذهب بعضهم الى ان اهتمام عبد الملك بن مروان بعمارة بيت المقدس بالفخامة التي

كان يعمره بها، انما كان لصرف مسلمي الشام ومصر وما والاها شمالا وغربا الى حجههم اليه اذا تمت الغلبة لابن الزبير على بلاد الحجاز. كما رعموا أن المنصور العباسي لما ابتنى مدينة بغداد وشيد فيها قصره المشهور بقصر الذهب بنى الى جواره القبة الخضراء وبالغ في زخرفها ليولى وجوه الناس شطرها، وهي تهمة لا تراها في مكانها لما نعتقده من كمال دينهما ومتانة يقينهما رحمهما الله .

هذا وانى أطن أن ما يحرى للآن على لسان بعض السذج من فلاحى مصر من أنه يحبى يوم ينقطع فيه طريق الحج الى مكة، وعندها يحج الناس الى مقام السيد البدوى فى طنطا، انما كان أثر سياسيا لبعض ملوك مصر يقرب به الى الوهم امكان حصول ذلك، حتى اذا سئحت له الفرصة مضى فى سبيلها. ومع زوال هذه الفكرة بزوال صاحبها فان هذا الاثر السىبقى على السنة بعض السذج للآن !! ومن هذاتلك المرأة التى ذهبت بتسمية بعضهم لقبة الميضاة التى تراها فى وسط سخن مسجد ابن طولون فى القاهرة بالكعبة، ولا أدرى اذا كانت هذه التسمية قديمة على عهد ابن طولون فشك فى علمها أو من وضعيات بعض الجهلاء فترجوا الله أن يغفرها له .

لهذا كله ترى خدمه الكعبة الشريفة كلهم عيوباً تباشر حركة الطائفتين حول الكعبة المكرومة وخصوصا الاعجام الذين ينسب لهم أهل مكة ظالما أنهم لا يتأخرون عن تدريس الحجر الاسود اذا سئحت لهم فرصة تمكنهم من ذلك، ويقولون هم دسوه فى سنة ١٠٨٨ وفى سنة ١١٤٣ وفى سنة ١١٥٥ حتى يصرفوا الناس عنه، وهو أمر ان لم يكن بعيدا عن الصحة ولا شك فى أنه مبالغ فيه : والسبب فى ذلك هو كراهية أهل مذهب المذهب آخر، يؤيده ما قاله العصامى فى تاريخه من أنه رأى نفسه التذارة على الحجر وعلى أستار الكعبة فى سنة ١٠٨٨، وظن أنها عجيبة من دقيق العدس كان الغرض منها الايقاع باهل الشيعة .

أما ما حصل فى سنة ١١٥٥ فاصله سياسى محض : ذلك ان ملك الفرس نادر شاه طومان أرسل الى الشريف مسعود فى تلك السنة يطلب منه ضرورة اقامة صلاة خامسة فى

الحرم للشيعه . فارسى الشريفة بالخبر الى الدولة العلية فاتهمته بأنه مشايخ الاعجام . فتخلصا من هذه النهمة اتهمهم هو بهذه الفعلة الشنعاء حتى يوغر عليهم صدد ورالناس وأمر بان تلعن الرافضة على المنابر ولا يزالون يلعنونهم عليها فى الحرمين الى الآن !!!

هدايا البيت الحرام

لعظم مكانه بيت الله الحرام عند الناس كانوا يتقربون اليه قديما وحديثا بالهدايا الجزيلة والهبات الجليلة والحلى الفاخرة . فكانت تحفظ أولا فى بئر فى الكعبة يسمونها غيبغيب^(١) أو عيب ، ولكن سدنتها كانت تلتمها أولا فاولا . ومما وصل من هداياه القديمة الى عبد المطالب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم غزالان وسيفان من ذهب ، كان ساسان^(٢) ملك الفرس أهدها الى الكعبة (انظر تاريخ ابن خلدون) فضر بهما صفايح وصفح بهما نابها . فلما كان عبد الله بن الزبير حلى أساطينها بصفايح الذهب . وأرسل عبد الملك بن مروان بثلاثين ألف دينار الى عامله على مكة ، خالد بن عبد الله القسرى ليحلى بها باب الكعبة والاساطين التى فى جوفها وأركانها من الداخل . وزاد فى ذلك ولده الوليد فى عمارته للمسجد الحرام . وأرسل الرشيد الى عامله على مكة سالم ابن الججاج ثمانية عشر ألفا من الدنانير فضر بها صفايح سمرت على الباب ، وجعل مساميرها وحلقتى الباب وعتبتها من الذهب . وذكر ان المتوكل العباسى عمل زاوية من زوايا الكعبة بالذهب (ولعلها كانت تشققت فملأها ذهبا ير بطبه طرفها ، ولا يخفى ان هذه المادة تستعمل الآن لمتانتها فى ربط الاجزاء الثمينة بعضها ببعض) ثم كسا عتبة الباب بالفضة ، وعمل له عضادتين من الذهب بدل اللتين أخذهما بعض

(١) العيب فى اللغة المنحرف ولا يمدانهم كانوا يحرون على حافه قرايينهم والجاهليه ولما جاء الاسلام سدت هذه البئر وأزيل ما حولها من الاصنام والانصاب والارلام .
(١) ساسان هو رأس الدولة الساسانية التى حكمت بلاد الفرس من سنة ٢٢٥ ميلادية الى سنة ٦٥١ الى سنوات فيها العرب على بلاد العجم .

أمراء مكة . وذكرا أيضا أن أم المقتدر العباسي أمرت في سنة ٣١٠ هـ فلبست جميع أسطوانات البيت ذهبا . حتى إذا دخلت القرامطة سنة ٣١٧ هـ إلى مكة جردت البيت من جميع ما كان به من الحلى والذخائر .

وفي سنة ٥٥٢ هـ اقتلع الخليفة المقتدى باب الكعبة وصنع عوضه بابا مصفحا بالذهب وعمل من القديم تابوتا له يدفن فيه بعد موته .

وقد كانت أيدي السلاطين والأمراء والملوك لا تقف في أى زمن من الأزمان عن تمسديم الهدايا النفيسة إلى بيت الله الحرام ، كما كانت يد الأشقياء لا تقف عن التطاول إليها ! سواء في ذلك حجبتها أو غيرهم !! ومن جسد بعض الحلى التى عبث بها هؤلاء الأشرار كثير من الملوك والأمراء نخص بالذكور منهم السلطان الناصر قلاوون ثم السلطان سليمان القانوني ثم السلطان مراد الرابع .

كسوة الكعبة

أما كسوة الكعبة فهي من زمن بعيد . وأول من كساها تبع أبو كرب أسعد ملك حمير ، حين مر عليها راجعا من غزوته ليثرب سنة ٢٢٠ قبل الهجرة : كساها بالبرود المنصبة وعمل لها نائوما مفتاحا وفي ذلك يقول مفتخرا :

ورد الملك تبّع^(١) وبنوه * ورثوهم جدودهم والجدودا

ادجينا جيانا من ظفار^(٢) * ثم سرنا بها مسيرا بعيدا

فاستبحنا بالخليل ملك قباد^(٣) * وابن اقلود^(٤) جاءنا مصفودا

(١) تبّع لقب كان يطلق على ملك ملوك حمير وهو في قوة لفظ امراطور الآن .

(٢) ظفار كانت مدينة عظيمة من مدن اليمن واطلاها نافية إلى الآن فيما بين عدن وصنعاء ولها إقليم

يسمى إلى الآن باسمها .

(٣) ملك من ملوك المعجم . (٤) لعله أمير من أمراء العراوى أو الشام .

فكسونا البيت الذي حرم الله ملاء مقصباً وبروداً

وأقنابه من الشهر عشرين * وجعلنا لنابه اقليداً (١)

ثم طفنا بالبيت سبعة وسبعة * وسجدنا عند المقام سجوداً

وتبعه خلفاء فكانوا يكسونها بالجلد والقباطي (قماش مصري) زمنا طويلاً . ثم أخذ

الناس يقدمون اليها هدايا من الكساوى المختلفة فيلبسونها على بعضها ، وكان اذا لي منها

ثوب وضع عليه ثوب آخر الى زمن قصي ، فوضع على القبائل رقادة لكسوتها سنوياً واستقر

ذلك في بنيهِ . وكان أبو ربيعة بن المغيرة قبل الاسلام يكسوها سنة وقبائل قر يش تكسوها

أخرى فسمى بذلك العدل لعدله بين قبائل قر يش في كسوة الكعبة . وقد كساها النبي صلى

الله عليه وسلم بالثياب اليمنية . ثم كساها عمر وعثمان وابن الزبير وعبد الملك بن مروان .

ولما حج الخليفة المهدي العباسي سنة ١٦٠ ، كان على الكعبة جملة كساوى فشكا اليه سدنها

من كثرتها فامر بها فانزلت تخفيفاً عن سفنها ، وأمر بان لا تعلق عليها الا كسوة واحدة

فكان كذلك الى الآن . أما كسوتها من الداخل فمدور في محاضرة الاوائل للسكتواري

أن أول من كسا البيت بالديباج والددة العباس بن عبد المطلب حين ضل العباس صغيراً

فندرت ان وجدته لتكسون الكعبة فوجدته ففعلت .

وكان العباسيون يبالغون في العناية بكسوتها ، وكانت من الحرير الاسود (وهو شعارهم) ،

وكانوا يعملونها بمدينة تنيس المصرية التي كانت لها شهرة عظيمة في المنسوجات الثمينة

(انظر مادة تنيس بالمفريزي) وكانت تغراً لمصر في شمال دمياط فهدمها الملك الكامل

سنة ٦٢٤ لكثرة ما كانت توقع بها مراكب الفرنجة في الحروب الصليبية ، ولما كانت

تتكلفه مصر في المحافظة عليها ، ولا تزال اطلالها موجودة قرب مدينة المطرية (دقهلية) .

وقد قال النما كهي في أخبار مكة : رأيت كسوة مما يلي الركن الغربي (من الكعبة) مكتوباً

عليها «مما أمر به السري بن الحكم وعبد العزيز ابن الوزير الجروي بامر الفضل بن سهل ذي

الراستين وظاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة» ورأيت شقة من قباطي مصر في

وسطها مكتوب في أركانها بخط دقيق اسود «مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين»
 ورأيت كسوة من كساوى المهدي مكتوب عليها «بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدي محمد أمير
 المؤمنين أطال الله نجاهه ، مما أمر به اسماعيل بن ابراهيم أن يصنع من طراز تنيس على يد
 الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة » ورأيت كسوة من قباطى مصر مكتوب عليها
 « مما أمر به عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلحه الله ، محمد بن سليمان أن يصنع من طراز
 تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسleme عامله سنة تسع وخمسين ومائة » وكان من
 أعمال تنيس قرية يقال لها تونة وكانت تصنع بها كسوة الكعبة أحيانا . قال القا كهى :
 ورأيت أيضا كسوة لهرورن الرشيد من قباطى مصر مكتوب عليها « بسم الله بركة من الله للخليفة
 الرشيد عبد الله هرون أمير المؤمنين أكرمه الله ، مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل من طراز
 تونه سنة تسعين ومائة » .

وما زال العباسيون يهتمون بأمر كسوة الكعبة حتى اذا ضعف أمرهم صارت ترسل
 تارة من ملوك اليمن وأخرى من ملوك مصر ، الى ان استقرت فى سلاطين مصر فوقف
 عليها الملك الصالح ابن الملك الناصر بن قلاوون قرىقي باسوس وسنديس من أعمال
 القليوبية . ومن ثم صارت ترسل الكسوة الخارجية السوداء اليها سنويا . وكان كلما يتجدد
 ملك أو سلطان يرسل للكعبة كسوة داخلية من الحرير الأحمر ، وبأخرى خضراء للحجرة
 الشريفة النبوية . فلما استولت الدولة العلية على مصر اختصت بكسوة الحجرة الشريفة
 النبوية وكسوة البيت الداخلية ، واختصت مصر بكسوة الكعبة الخارجية . ومن ذلك
 الوقت صارت هذه الكسوة المباركة ترسل من مصر سنويا : وهى ثمانية ستائر من الحرير
 الاسود المكتوب بالنسيج فى كل مكان منه « لا اله الا الله محمد رسول الله » وطول الستارة
 نحو خمسة عشر مترا ، ومتوسط عرضها خمسة أمتار وبعض سنتيمترات . وكل ستارتين
 تعلقان على جهة من جهات الكعبة ، فتربطان من أعلاها فى حلقات من الحديد غاية فى المتانة
 قد تثبتت فى سقف الكعبة ، ثم تربطان الى بعضهما بواسطة عرى وأزرة ، وتثبتان من
 أسفل فى حلقات وضعت فى الشاذروان ، وهكذا كلما وضعت ستارة تثبتت فى التى

بجوارها بواسطة هذه الازرة، حتى اذا انتهت كلها صارت كالقميص المربع الاسود، ثم يوضع على محيط البيت المعظم فوق هذه الستائر فيادون ثلثها الا على حزام يسمى رنكا، مركب من أربع قطع مصنوعة من الخيش المذهب مكتوب فيه بالخط الجميل العربى آيات قرآنية، كتبها مع غيرها من أعمال الكسوة الشريفة (فى زمن المرحوم اسماعيل باشا خديومصر) الخطاط الطائر الصيت النادرة النابغة المرحوم عبد الله بك زهدى أحسن الله اليه . ومكتوب على الحزام من الجهة التى فيها باب الكعبة « بسم الله الرحمن الرحيم، واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وعهدنا الى إبراهيم واسماعيل، أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . واذ رفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل، ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا ونب علينا، انك أنت التواب الرحيم » ومكتوب فى الجهة التى تليها من جهة الحجر الاسود « بسم الله الرحمن الرحيم قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . ان أول ببت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام إبراهيم . بسم الله الرحمن الرحيم، واذ بوأنالا إبراهيم مكان البيت أن لا أشرك به شيئاً، وطهر بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر، يأتين من كل فج عميق » ومكتوب فى الجهة المقابلة للمقام المالكى « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير، ثم ليفضوا تفهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » ومكتوب فى الجهة الرابعة وهى التى بها الميزاب « فى أيام دولة مولانا السلطان الاعظم ملك ملوك العرب والعجم السلطان محمد الخامس خان ابن السلطان عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان الغازى ابن السلطان عبيد الحميد خان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان ابن السلطان إبراهيم خان ابن السلطان مراد خان ابن السلطان عثمان خان خلد الله تعالى ملكه » .

والكسوة الشريفة تعمل فى مصر سنوياً بإدارة فسيحة بالخرنقش وإدارتها موكولة لمديرها الهمام صديقنا عبد الله فائق لك الذى ترقت الكسوة فى مدته رقيقاً ظاهراً بآهراً بالتحسينات

التي يدخلها عليها من آن الى آخر .

ومصاريف الكسوة تصرف الا آن من المالاية وميزانيتها سنويا ٤٥٥٠ جنيه
مصريا وبيانها هكذا .

جنيه

٥١٥ . ثمن مخيش فضة وملبس بالذهب ١٤٩٣٥ مثملا و ٣٨٠٥٥ مثقالا فضة بيضاء .
١٦٦٤ اجرة شغالة في الزركشة وعدد دم ٤٧ نفراً .

١١١١ ثمن حرير واجرة سيج والذين يشتغلون فيه عدد دم ٧٠ نفراً .

٢٠٠ . ثمن أدوات للتشغيل مثل بفتة وخلافها .

١٥٠ . مصاريف ليلة المهرجان المعتاد عمله للاحتفال بموكب الكسوة السنوى .

٠٠٦٠ عوائد تصرف للشغالة يوم نهاية عمل الكسوة .

٠٨٥٠ ماهيات مستخدمين ومرتبات خدمة ادارة الكسوة .

٤٥٥٠ الحلة

الا أن الحجاب العالى الخديوى بعد عودته من الاقطار الحجازية أمر حفظه الله بزيادة
العناية بالكسوة الشريفة مما زاد في ميزانيتها وسيزيد في بهاؤها ورائها .

ويتبع هذه الكسوة الشريفة ستارة باب الكعبة من خارجها ويسمونها بالرقع ،
وستارة باب التوبة من داخلها ، وكيس مفتاح بيت الله الحرام ، وكسوة مقام الخليل
ابراهيم عليه السلام ، وستارة باب منبر الحرم الشريف وهى من الاطلس المصنوع بالمخيش
الذهبي والفضي .

وعند انمام عمل الكسوة يعمل لها موكب عظيم في نحو منتصف شهر ذى القعدة يحضره
الجناز العالى الخديوى أو نائبه فيسيرون بها في موكب نفيم من المكان المعروف بمصطبة
المحمل الى مسجد سيدنا الحسين رضى الله عنه ، حيث يسلمها حضرة مأمور تشغيلها الى
الحاملى في مجلس يعقد بحضور نائب من قبل سماحة قاضى مصر وبشهادة حضرة أمير
الحاج للسنة المرسله فيها ، وبعد أن يعمل بذلك اشهاد شرعى توضع في صناديق وترسل

مع ركب الحمل الى مكة . ويرسل معها غلايتان من النحاس مملوءتان بماء الورد التقي لفسيل الكعبة المكرمة .

وهناك تسلم الكسوة لحضرة الشيبى القائم بسدانة الكعبة بأشهاد شرعى يحضره العلماء والكبراء فتبقى في منزله الى صباح يوم عيد النحر فيؤتى بها على أعناق الرجال وتعلق على الكعبة بعد انزال الكسوة القديمة ، ويكون المسجد عادة خلوا من الناس لان سوادهم يكون بمنى ، ولا يصبح مكة منهم الا بفر قليل .

اما الكسوة القديمة فيرسل المفصب منها عادة الى سيادة الشريف ، واذا كان الحج بالجمعة يرسل الى جلالة السلطان ، والغير المفصب يأخذه الشيخ الشيبى فيبيعه على الحجاج ، وبحوار باب السلام دكاكين مخصوصة لذلك . وقبيل الحج يقطع الشيبى نحو مترين من أسفل ستائر الكعبة ويعوضها بازار من البفتة البيضاء يسمونه احراما ، وليس لهذا عندى من معنى ، اللهم الا لحاق الوقت لبيعه قبل الموسم على الحجاج ثمن كبير . وكان عمر يزرع الكسوة القديمة كل سنة ويفرقها على الحجاج وتبعه في ذلك عثمان ، الى أن وجد شيئا منها على حائض فأمر بحفر حفرة وألقى فيها الكسوة القديمة وأهال التراب عليها خوفا من أن يلبسها جنب أو حائض ، فقالت له عائشة « ان ثياب الكعبة اذا نرعت عنها لا يضرها من لبسها من حائض ولكن بعها واجعل ثمنها في سبيل الله تعالى وابن السبيل » . ومن ثم صاروا يبيعونها ، وهم يأخذون ثمنها الآن لانفسهم .

ولم يكن يسع استار الكعبة أو كسوة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم للتبرك بهما مما يؤخذ على المسلمين في دينهم الذى لم ينص فيه على شئ من ذلك . لان الاعتقاد في آثار الانبياء والمصالحين شئ قديم في جميع الشعوب . واعتقاد النصارى من الفرنجة في آثار البنا العظيم جدا : فقد حدثني صديقي عزيز بك الفلكى أن خاله (وهى فرنسا واية الجنس كاثولكية المذهب) كان عندها قطعة صغيرة من نعل البنا «بى» التاسع طولها ٢ سنتى متر فى عرض نصف سنتى ، اشترتها باربعين جنهما وغلقتها بصفيحة من الذهب ، وكانت تحملها تسمية ثمينة تتقى بها جميع الامراض والطوارئ السيئة ، على أن محرد الاعتقاد في مثل هذه الامور

لا يخلو من الفائدة الفعلية .

المحمل

ذهب بعض المؤرخين الى أن المحمل يتدى تاريخه من سنة ٦٤٥ هجرية ، وقالوا انه هو الهودج الذى ركبت فيه شجرة الدر ملكة مصر فى حجبها فى هذه السنة ، وصار بعدها يسير سنوياً أمام قافلة الحاج وليس فيه من أحد لان مكان الملوك لا يجلس فيه غيرهم .
والذى أراه أن المحمل قديم جداً وربما كان من قبل الاسلام ، وكان يطلق على الحمل الذى يحمل الهدايا الى الكعبة المكرمة ، وقد سیر رسول الله صلى الله عليه وسلم محملاً الى مكة بهداياه الى البيت المعظم ، ومن ذلك ما نراه فى التواريخ من اسم المحمل العراقى والمحمل اليمنى وما شاهدناه الا أن من محمل ابن الرشيد^(١) ومحمل ابن سمود ومحمل ابن دينار ، وكل ذلك ليس الا جملاً تحمل صرتهم الى الحرمين مغطاة بقطعة بسيطة من الجوخ ، وكذلك محمل النظام ملك حيدرآباد بالهند يأتى مكة مع الحاجين من بلاده حاملاً هداياه الى أهل الحرمين الشريفين . ولقد جاء فى الكلام على دارفور فى تاريخ السودان لنعوم بك شقير تحت عنوان صرة الحرمين ما نصه : « وكانت سلطنة الفور مستقلة عن دول الارض كلها لا تدفع جزية لاحد ما عدا الحرمين الشريفين فانها كانت تخدمهما بمحمل وصرة كل سنة فكان موكب المحمل يأتى^(٢) الى مصر ومعه الريش والصمغ وغيرهما من خيرات البلاد فيبيعها ويتم شتمها ، هو والصرة ثم يستطرد الحج الى الحرمين مع الركب المصرى » .

وعليه فحمل شجرة الدر انما كان يسير امامها حاملاً الهدايا الى أخذتها معها للبيت المكرم فى هودج مزين بأبهى زينة وغاية ما هناك انها عيّنت به ورتبت له كثيراً من الخدم

(١) وأمير محمل ابن الرشيد يسمونه سبهان .

(٢) أما الآن فحمل اس دينار يوجه الى الخرطوم ومنها بالطريق الحديدى الى بورسودان ومنها

يسبح الى جدة .

والحشم ، ومن ثم صار عادة تقوم بها ملوك مصر كل سنة ، وما زالوا يبالغون في زينته من سنة لاخرى حتى صارت كسوته بحيث لا يستطيع الحمل حمل غيرها معها ، (وكسوة الحمل الحالية مع هيكله الخشبي لا تقل عن ١٤ قنطاراً) ، وصار ما كان يحمل عليه من الهدايا يحمل في صناديق على جمال أخرى تسير مع الحملة .

ويعمل للمحمل يوم خروجه من مصر احتفال كبير من أيام الدولة الايوبية . وهذا الاحتفال الآن له يوم مشهود بالماهرة تمشي فيه الجنود الراكبة والبيادة وحرس المحمل وركبه وخدمته من ضوينة وعكامة يتقدمهم أمير الحج الذي يعينه الخناب العالي الخديوى سنويا ، وهو من الباشوات العسكر بين في الغالب ، وبعد أن يدور المحمل دورته المعتادة في ميدان الملعة يمر على المصطبة ، وهي المكان المعد لجلوس الخناب العالي الخديوى يوم هذا الاحتفال ومعه رجال حكومته السنينة من الوزراء والفخام والعلماء الاعلام وكبار وذوات العاصمة ، وهناك يأتي حضرة مأمور الكسوة الشريفة ويده زمام حمل المحمل فيستلمه الخناب العالي منه ويسلمه الى أمير الحاج ، وعندها تضرب المدافع ويسير الموكب تتقدمه أشاير السادة الصوفية ثم الجنود ثم حمل المحمل يتقدمه أمير الحاج ويتلوه المحاملى والحمد لله ثم الفراجية (الطباون) على جماهم . ويستقر هذا الموكب سائرا الى المحجر فالدرج الاحمر ويمر من بوابه المؤيد فالغورية فالعاسين فباب النصر فالعباسية . وهناك يتفرق الموكب وينزل ركب المحمل الى خيامهم التي ضربت لهم في فضاء العباسية ، وينصب المحمل في وسط ساحتها ليزوره من يريد التبرك به حتى اذا كان يوم السفر الى السويس نقلوه مع أدواتهم ودخائرهم الى وابو المحمل الذي يكون مهياً في محطة العباسية ، وبعد الشحنة يسير الى السويس ومنها يبحر الى جدة ، ثم يفصل مكة براً .

وفي سنة ١٣٢٨ سافر المحمل مع قوته على الاسكندرية وعمل له فيها احتفال عظيم يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ حضره الخناب العالي الخديوى ومنها أبحر الى يافا وركب الوابو الى المدينة المنورة ، وبعد الزيارة سافر الى مكة من الطريق الفرعى ، وبعد أداء فريضة الحج عاد الى جدة ومنها الى الطور ثم الى السويس ثم الى القاهرة . والحكومة الآن تهتم في تقرير

قاعدة لسيره في الطريق الاقل كلغة ومشقة .

وللمحل المصري كسوتان : كسوته اليومية وهي من القماش الاخضر ، وكسوته المزركشة ولا يلبسها الا في المواكب الرسمية . وفي أيام وجوده مكة يوضع فيما بين باب النبي و باب السلام كسوته اليومية . فيكون هناك مزاراً للناس على اختلاف أجناسهم ، ولا ينقلونه من هذا المكان الا في مواكب الرسمية . وعند السفر به الى المدينة المنورة يسير اليها ركبته اما بالبر من الطريق السلطاني أو الفرعي أو الشرقي ، وإما من طريق البحر من جدة الى ينبع ومنها برا الى المدينة أو الى الوجهه ، ومنه الى محطة العلا ، ثم يتوجه في السكة الحديدية الى المدينة ، والمحمل الآن يسير في هذا الطريق الاخير لعنت أعراب الطريق البري من مكة وينبع وتشدد هم في طلباتهم وزيادة مرتباتهم .

وعند وصول المحمل الى المدينة المنورة يدخلها باحتفال كبير من باب العبريه ، وهناك يطلق له واحد وعشرون مدفعاً ، حتى اذا وصل الى الباب المصري ترجل كل من في موكبه اجلالاً لمقام الرسول صلوات الله عليه ، فادأ وصلوا الى باب السلام أنى شيخ الحرم واستلم رمام الجمل وأصعده على سلم الباب وأناخه على تلك الصدفة الواسعة ، وهناك يرفع المحمل ويوضع في مكانه من الحرم غربي المنبر الشريف وترفع كسوته المزركشة ويلبسونه الكسوة الخضراء ، ويلبس أمير الحاج ومن معه من المستخدمين لباس الخدمة في الحجرة الشريفة (وهو عمامة وفرجية بيضاء مشدود عليها حزام أبيض) ، ثم يحملون كسوة المحمل بكل احترام ويدخلونها في الحجرة الشريفة من الباب الشامي ويتركونها في جاب من ساحة مقام السيدة فاطمة رضي الله عنها . ولا تزال بالحجرة الشريفة حتى يخرجوها يوم سهر المحمل من المدينة المنورة ، ويوكبون بها في يوم خروجه من المدينة كما كانت الحال في يوم دخوله . وعند عودة المحمل الى مصر يحتفل بقدمه رسمياً احتفال كبير يحضره الجناح العالي الخديوي أو من ينوب عنه ، فيسير الموكب من العباسية الى القلعة من الطريق التي كان خرج منها ، حتى اذا وصل الى مكان الجناح العالي الخديوي في المصطبة استلم سموه زمام الجمل من أمير الحاج وسأله الى حضرة مأمور تشغيل الكسوة ، وعند ها تطلق المدافع ويتم

الاحتفال . وتحفظ كسوة المحمل بمخزن في المالية ، وهذه الكسوة تجدد كل عشرين سنة مرة وتبلغ تكاليفها نحو ألف وخمسمائة جنيه مصري . اما كسوته الخضراء فيكسى بها سنويا بعد عودته ضريح سيدى يونس السعدى (بجبانة باب النصر) وأظن أنه كانت له مدة حياته خدمة في سفريّة المحمل .

واليك كشفاً ببيان ما يصرف من المالية سنويا في تسفير المحمل والمرتبات الجارى صرفها في مكة والمدينة المنورة حسب الوارد في الميزانية الاخيرة .

جـنـسـه

١٢٨٢ . مرتبات وتعيينات لامير الحاج ومستخدمى المحمل .

٢٥١١ . » العربان .

١٤٩٣ . » الاشراف بمكة والمدينة المنورة .

١٩٦١ . » تكية مكة .

١٦٥٧ . » تكية المدينة المنورة .

٢٨٧٩ . » أهالى مكة والمدينة .

٣٠٠٠ . » لمكة والمدينة تصرف سنويا من أوقاف الحرمين والاقواف الخصوصية

والاهلية والخيرية ومن الخاصة الخديوية والمالية .

٢٢٥٠٠ ثمن ومصاريف قمح الصدقة بمكة والمدينة .

١٦٢٩ . » شمع وقناديل للحرمين .

٠٠١٥٥ . » خيام وقرب وخلافها .

٤٢٤٨ . أجره منقولات برأ وبحرأ وأجر جمال .

٦٤٢٠ . فية ما يرسل كل سنة الى الحرمين الشريفين من الزيت والحصر وخلافها

من ديوان الاوقاف .

٠٠٢٦٥ مصاريف ثرية .

٥٠٠٠٠ مجموع المنصرف سنويا .

واذا قارنت هذا المبلغ بما جاء في المقر يزي عند الكلام على قافلة الحاج وجدت أنه نحو نصف ما كان يصرف عليها في زمن الفاطميين . قال المقر يزي : « قال في كتاب الذخائر والتحف ان النفقة على الموسم كانت في كل سنة تسافر فيها القافلة مائة ألف وعشرين ألف دينار ، منها ثمن الطيب والحلوى والشمع راتباً في كل سنة عشرة آلاف دينار ، ومنها نفقة الوفد الواصل الى الحضرة أربعون ألف دينار ، ومنها في ثمن الحمايات والصدقات واجرة الحمال ومعونة من يسير من العسكرية وكبير الموسم وخدم القافلة وحفر الآبار وغير ذلك ستون ألف دينار ، وان النفقة كانت في أيام الوزير المازوري قد زادت في كل سنة وبلغت الى مائتي ألف دينار ولم تبلغ النفقة على الموسم مثل ذلك في دولة من الدول » .

ولقد كان لركب الحمل في الدولة المصرية شأن كبير ومقام خطير ، وكانت مرتبة أميره في المرتبة الثالثة من مراتب الدولة ، وكان صاحبها في عهد المماليك مرشحاً لان يكون حاكماً للعاصمة التي هي اهم وظيفة عندهم بعد وظيفة الوالى والسلطان ، وله رأى مسموع وكلمة محترمة ، وكانت وظيفته مستديمة وتوليته فرمان سلطاني ، وله المكانة العليا والكلمة النافذة في بلاد الحجاز ، وكثيراً ما كان يصدر أمره بعزل وتولية امراء مكة . ولقد بلغ من مبالغة ملوك مصر بالاحتفاء بالحمل أنهم قضوا على جميع حكام البلاد التي كان يمر عليها في طريقه بان يقبلوا خف جمل الحمل عند استقباله وما زالت امراء مكة يقبلونه أيضاً في استقبالهم له الى أن أعفاهم من ذلك السلطان جقمق في سنة ٨٤٣ . وكان الاحتفال بطلوع وعودة الحمل مدة سيره على البر في أواخر زمن اسماعيل من الفخامة بمكان عظيم ، وكانوا عند عودته يبلون السكر فرحاً به في أحواض كبيرة يشرب منها الغادون والرائحون مدة ثلاثة أيام وهي عادة قديمة جداً . وكان يسافر في خدمته غير مستخدميه من أمير وأمين صرة وكتبة وصيارف ، كثير من الخدم والحشم والعكامة والحالة والفرارية والنجارين والفراشين والخميمة والسقائين ، وكان ضمن وظائف الحمل وظيفة اسمها أمين الكساوى والحلويات ومن شأنه توزيع الحلويات والكساوى التي كانت ترسل للعرب

واستعيض عنها الآن بصرف أثمانها لاربابها . وكان يخرج معه موظف رسم مأمور بالذخيرة في عهده الباقية السباط الذي كان يؤخذ لما عساه يحصل في الايام الغير المعتادة التي كانوا يحتاجون فيها للصرف على الحجاج اذا قضت الضرورة . وكان من ضمن خدمته رجل يقال له شيخ الحمل ، وآخر اسمه أبو الفطط ، ثم سائس الهرجلة (الهركله) ومقدم العيط ، ثم سدواق المقاطيع وكانت وظيفة الاول أن يشتري الجمال اللازمة للمحمل ، ويركب وراءه حمل المحمل في موكله للملاحظة في سيره من الخلف كما يلاحظه المحمل في سيره من الامام . أما الثاني فيمولون انه كان يقوم بغذاء الفطط التي كانت تتبع ركب الحمل مدة سفره في البر ، ويقول آخرون انما كان هذا اسمه أما وظيفته فهي التي غبروها بوظيفة امام الحمل . و يقال ان وظيفته كانت من عهد حجاج شجر الدار ، أما الثالث فقد كان رئيسا للصويه والعمامة يستدعيهم عندما تكون هناك حركة مهمة ، فيأتون بغير نظام بين صياح وهياح وكلام . والرابع كان مباشر الدين بمعد هم المرض أو ضيق دات اليد عن الاستقرار مع الركب . وجميع هؤلاء كان تعيينهم بقرمانات مخصوصة بعضهم السلطة وبعضهم من ولازم مصر ، ولهم مراتب بالرتب من عهد بعيد . وقد استغنى الآن عن كثير منهم في سفريه الحمل لعدم الحاجة اليهم مع صرف مرتباتهم لهم ، كما استغنى أخيراً عن وطيفة أمس الصرد التي يؤدها الآن واحد من كتبة المالية تمدده النظارة لذلك .

وكان للمحمل عشرون جملاً لهذا المأمورية . وكان لها صاح في بولاق بجوار شيخ اسمه سيدى سعيد . وكانت الحكومة في الزمن السابق تشتري مع هذا الجمال حملاً تجعله وهداء عنها كل سنة : فيأتي به الجماله قبل موكب الحج ويركبون عليه شيخ الحمل ويسيرون به ومعهم العمامة والضوية وأمامهم الفراجية يحيط بهم كثير من الغوغاء ، ويمرون في الماهرة ثم يذهبون الى باب الشيخ سعيد ويذبحونه هناك . وكان المحمل يأخذ ربه ، والجماله ربه ، وخدمة الشيخ سعيد ربه ، وخدمة الشيخ يوسف الرابع الباقي . وكانوا يذهبون لحمه الى الناس على سبيل البركة مدعين أن لحمه ينفع للصداع وشحمه للبواسير ، ولذلك فانهم ما كانوا يلفون به الى الارض . صدر دبحه ، حتى يهجم عليه الحاضرون من العامة ويمطعون ارباباً بعداهم قبل

ذبحه ويأخذ كل منهم ما تسمح به قُوته . وكان كثيرا ما يؤدي ذلك الى ضرر جسم يستهين به هؤلاء الجهلاء في جانب هذا الاعتقاد السخيف . فلما بلغ ذلك الجناب العالي حفظه الله أمر بإبطال هذه العادة الشنيعة مع صرف قيمة ثمن الجمل الى أربابه جزاء الله عن الدين والاسانية أحسن الجزاء .

✱

حمام الحمى

حمام الحرم المشهور بحمام الحمى ببلاد سطوح المسجد الحرام ومنا فذه وطاقاته . فتجده معششا هنا وهناك ، ويجمع زرافات زرافات في جهات كثيرة من صحن الحرم وعلى الخصوص في الجهة الشرفية ، وله فيها مكان مخصوص فيه أحواض لشربه ، وبحواره مكان يلتقي فيه حب القمح المرتب له من أوقاف مخصوصة . وكثيرا ما تراه في الجهة الغربية ، حيث يوجد غير واحدة من فقراء القوم يبعون حب القمح للحجاج والزوار بقصد إلقاءه الى جيوش هذه الحمامات المستأجرة ، التي تكاد ترفرف على رؤوس الناس ، لا هالم تعرف منهم في حياتها الا كل لطف وأس . وليست هذه الخصيصة قاصرة على نوع الحمام ، بل كل حيوان دخل الحرم فهو آمن ، حتى ذهب بعضهم الى عدم قتل الحية أو العنكبوت في الحرم ، احتراماً له وإكراماً لها فيه . وانفراد الحمام بوجوده في الحرم لا أظنه الا سهوله أسسه وقلة جفائه . ومن أغرب ما يروى عنه أنه مع كثرتة في الحرم لم يشاهد منه شيء على الكعبة الا نادرا جدا . وفي الجهة الشرفية من مكة تحت جبل أبي قبيس يقال لها سائر الحمام يجمع عندها كثير منه ليشرب بحريته ثم يذهب الى حيث أراد . وهذه البئر قديمة جدا وأظنها من زمن الحاهلية . كما أني أظن أن احترام الحمام هنا أيضا من زمن بعيد . وعلى كل حال فهو مكرم للبيت سواء قبل الاسلام وبعده . والقول بأنه من اسن تلك الحمامة التي عششت في الغار على النبي صلى الله عليه وسلم انما يزيد في احترامه واعظامه .

وليس الحمام بمحترم فقط هنا بل هذه عادة قديمة جدا : فبنونوح كانوا يكرمونه لانه أول

من بشرهم بظهور اليا بسمة مدة الطوفان . واحترامه عند النصارى يقرب من درجة
التقديس ، لانه يمثل عندهم روح القدس ، ويقولون انه عندما كانوا يغسلون المسيح في
نهر الاردن وهو صغير جاءت حمامة وحطت على رأسه ، لذلك يرسمونها في كنائسهم وعلى
صورهم الدينية بكثرة . ومن هذا ترى الحمام قد أطلقت له الحرية في كنائس القوم في
أوربا وخصوصا في كنائس ايطاليا والنمسا وبعض كنائس فرنسا ، وقد تعدى هذا
الكنائس الى منافذ المساكن وكرايشها وأسطحها وأشجار الشوارع العمومية وساتينها :
فاذا ذهبت الى فينا أو روما مثلاً وجدت هنا وهناك في كل مكان من غير أن يؤذيه أى انسان .
وأثر هذه العقيدة باق في الحمام الذى لا يزال في مدينة القسطنطينية الى يومنا هذا ، وتراه على
الخصوص في مسجد بايزيد ومسجد أنى أيوب الانصارى ، غير أن أهل الاستانة قد بالغوه
في اكرامه حتى حرموادبحة ، فهم لا يأكلونه أبدا سواء في ذلك مسلموهم ونصاراهم ويهودهم .
أما ما ذكر من أن المسلمين يعتقدون أن حمام الاستانة من ذرية حمام الغار (الذى يقولون عنه
انه كان يخبر الرسول بجميع ما كان يفعله المشركون) ، فانه لا أصل له عندهم ، كما لا أصل في
دينهم لتلك المأثور به التى كان يؤذيها حمام الغار . والشيعية من المعجم يعتقدون مثل هذا الاعتماد
في حمام الحرم ، ويزعمون أنه هو الذى أخرج أهل المدينة المنورة تقتل الحسين رضى الله عنه .

والصينيون يستعملون الحمام من زمن بعيد في استكشاف بحتم على مثل ما يستعمله بعض
الارام الآن في طرقات مصر : فيأتون للحمام يطبق فيه جملة أوراق مطوية مكتوب فيها
شئ من الخير والشر ، فتأتى الحمامة وتستخرج بمنارها واحدة يكون معها ألهم ، ويسمون
هذه الحمامة بالكوب - بن (Pak-pko-Pin) يعنى الحمامة ذات الورقة البيضاء .

ولقد كان الحمام عند الساميين هو الحيوان المقدس للاله عشتورت (Astarte) . وكان
عند الفنيقيين واليونانيين والسوريين يمثل السماء والنجوم . وأظن أن احترامه عند العرب في
الجاهلية لم يأت الا من هذا الطريق . ولذلك كانوا يضعون تمثال حمامة داخل الكعبة بجوار
تمثال هبل : ولقد ورد في سيرة ابن هشام عن صفية بنت شيبة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم
لما نزل مكة بعد الفتح وطاف بالبيت ، دعا عثمان بن طلحة وأمره بفتح الكعبة فلما

دخلها وجد فيها حمامة من عيدان وكسرها بدهن ثم طرحها .
على أنالوصرفما بالنظر عن كون الحمام لطيفاً في شكله ، أبساقى نوعه ، جميل في صورته ،
لطيف في لاسه ، يمثل في عائلته المحبة الحبهمة والشفقة الحسية ، فابصرى فيه درسا عائلياً
كبيرا : يرى الدكر منه مع اشاده بعمالان لحماتهما وحياده عائلتهما عمل المحبين المحمدين ،
حتى اذا فرعامن واجبهما الاهلى نزع الى حياهما الزوجية : فتراهما بين تواق وتعاشق
وتعاقب ، لا يفصلان الا ليتصلا ، ولا يفترقان الا ليجتمعا ، في جلابب جمال ، وأساليب
دلال ، مما لا يرى له مثال ، في زوجين من غروبهما على كل حال .

على أن الحمام له على الانسان خدمه تدكر فتشكر : فقد كان من القرن الثامن قبل المسيح
الى منتصف القرن التاسع عتقر يؤدى وطيفة التلغراف بين الامم المختلفة ، حتى أعلن مرس
وطسون سنة ١٨٤٤م بلمرافهما الكهر باني ، الذي لا يشك أحد في أنه أعاد العالم بأسره
فائده جسيمة ، وكان من أكبر الاشياء التي ساعدت على انقذ القرن العصري وانتشاره سرعه .
ولكن هل هذه الفوائد الجسماء ، تنسينا فضل ذلك الحمام ؟

ولتلكم الفائدة نقول لك ان أول من استعمل الحمام في الزجل هو رجل من حرره
أوجس (من جزر اليونان) ، أنى في سنة ٧٧٦ قبل المسيح الى أن تباله حصر الالاعاب
الاولمية ، واستحصر معه حمامة كات عمده أحدها من بين أفراحيها . فلما بررى هذه الالاعاب
أرسل الحمامة فذهبت الى عشها ، ومن قدومها علم أهل الرجل بجاحه في مأمورته . ومن
ثم استعمله اليونان والرومان والعرب والمصريون في مراسلاتهم . وكان لمصر وخصوصاً
زمن الايوبيين والفاطميين مصلحة للرسائل ، وكانها في كل جهة باب للحمام ، وكله
غريب من جهاب متعددة : فكانوا اذا أرادوا ارسال مكتوب الى أى مكان ، أرسلوه على
جناح حمامة مأخوذة من هذه الجهة . الا أنهم كانوا يرسلون الحبر من صورين على
حمامتين بعد الذي حصل في حصار القرحمة لمكا . ذلك أن المسلمين في عكا أرسلوا رساله الى
صلاح الدين الايوبي بواسطة حمامة من حمامهم ، فتبعها طير حارح وصر بها ، فسقطت في
معسكر العدو الذي عرف منها مواقع الضعف من عدوه . ولعلك تدكر لما نزل لويس التاسع

ملك فرنسا الى دمياط سنة ١٢٧٠ م وسار بجنده الى المنصورة ، أخذ ملك مصر الملك الكامل خيره بواسطة الحمام الزاجل ، فسير اليه جيوشه لوقته فأوقفته عند حده ، وكان ما كان من اهزام جنوده عند المنصورة وأسر لويس وسجنه بها الى أن تم الصلح بينه وبين ملك مصر ، فأطلقه وسافر الى تونس ومات بها . وفي حربه يقول بعضهم .

قل للهرسيس وان أنكروا حبس لويس في معال صحيح

دار ابن لقمان على حالها والقيد ناق والطواشي صبيح

والحمامة تقطع في طرها من سبعين الى ثمانين كيلومترا في الساعة ، ولها صبر على الجوع حملا أيام ولا تكتنأ الا تصبر على العطش .

وكان لهذا الحمام في حصار المانيا لباريس بن سنتي ١٨٧٠ و ١٨٧١ أكبر فصل في ربط أجزاء المملكة الفرنسية معا صحتها .

ورما كانت هذه الحكومات قد قصت أن لا يمس جنس الحمام بسوء حتى لا يكون نوع الزاجل منه عرضة لادى الصيادين وخلافهم فيؤدى مأمورين به وهو في غاية الهدوء والطمأنينة .

ولم دكان عباس باشا الاول والى مصر رجع الى تربية هذا الحمام واسنكث من أنواعه . واكمه مات رحمه الله قبل أن يتم غرضه . وأخذ بعض دوات القاهرة عنه هذه الغية ، واكمهم اقتصر واعلى تربيته وتطيره في محيط ديارهم . وقد يعلمه بعضهم الصبر على الطيران حتى اذا التحم بحمام غريب طار معه الى أن تنفذ فواه ثم يرجع به الى صاحبه الذى يكون فرجه به لا يفدر . وللحمام عندهم أسماء مختلفة فمنها الخز غمدى - والربحانى - والمررز - والفرازى - والالبق - والعنبرى - والغزار - وانه شاقى - وغيرها ، الا أن هذه الغية لم تقف عند أفية الاغنياء بل تعدتهم الى الفقراء وهم الى الان يضيعون فيها وقتهم الذى هم وعيالهم فى حاجة اليه لعمل حيوى مفيد . ولمد شاهدت فى سستان سراى يلدز الداخلى ، بعد خلع السلطان عبد الحميد ، دارا كبيرة من السالك وفيها مالا يحصى من أنواع الحمام وهو من جمال الخلقة بمكان عظيم . وربما كان يتسلى به فى سجنه الذى فضى على نفسه به طول حياته سامحه الله .

الحج

الحج في اللغة القصد ورجل محجوج أى مقصود . وفي اصطلاح المسلمين قصد مكة لاداء المناسك في زمن مخصوص من كل سنة قمرية . و واحدته حجة ، وتطلق على السنة فيقال عمر هذا الصبي سبع حجج أى سبع سنين .

وهو سنة قديمة جدا في الامم ، والغرض منه على كل حال أمر ديني محض ، وان كان الاجتماع فيه لا يخلو من فائدة دنيوية ، تزيد في رقي الامة أدبيا وماديا . وقد كان المصريون قبل أربعين قرنا يحججون الى هيكل معبودهم ايزيس بمدينة سايس (صا) ، وفتح في منفيس ، وأمون في طيبة .

واليونان كانوا يحججون قبل المسيح بحمسين قرنا الى هيكل ديانا في افسوس ، ثم انتقلوا في مبدأ القرن الثاني قبل المسيح الى حج معبد ميسارفا في أثينا ، وجوبيتير في اولمبيا . واليابان يحججون من عهد بعيد الى هيكل عظيم مشهور في ولاية اسجى ، وتجب زيارته عندهم على كل فرد منهم في عمره ولو مرة واحدة : فيتوجهون اليه بلباس أبيض على شكل مخصوص ، وسوادهم مصدونه عراة لبس عليهم الا ما يستر عورتهم ، ويقطعون اليه كل المسافة ركضاً . والصينيون يحججون الى هيكل المعبودتيان من زمن بعيد جداً . والهنود لا يزالون يحججون الى هيكل جاغربات ، أو هيكل الورا في حيدرآباد وهو محفور في الصخر على طول فرسخين ، وكذلك يحججون الى هيكل بودا بحزيرة من اقرب سميلا . وهم يكثر من الطواف حول هياكلهم ، ولهم بحيرات مقدسة يتبركون عياها مثل بحيرة مادن قرب بحر قزوين . واليهود يحججون من القرن الرابع عشر قبل المسيح الى المكان الذي به تابوت العهد ، وكانوا يحججون اليه ثلاث مرات في السنة . وكان ذلك أكثر سبب لعمار اورشليم ، حتى أحرقها الامبراطور طيطوس الروماني وأجلى اليهود عنها سنة ٧٠ مسيحية ، وما زالوا بعيدين عن مدينة بيت المقدس حتى استولت العرب عليها سنة ٦٣٦ م (سنة ١٦ هـ) ، فأقرهم عمر رضى الله عنه مع

النصارى على ما كان لهم في بيت المقدس . ولما قامت الحروب الصليبية قطعت عليهم طريق حجهم الى أن استولت دولة نبي عثمان على اورشليم في سنة ١٥١٧م فأمنت الطرق ومهدت السبل الى بيت المقدس ، وهم يحجون الآن الى قطعة من السور القديم لهيكل سليمان في الجهة الغربية من المسجد الأقصى ويسمونها البراق .

أما النصارى فانهم يحجون الى بيت المقدس من سنة ٣٠٦ للمسيح ، أى منذ سارت هيلانة أم الامبراطور قسطنطين الى اورشليم وابتنت بها كنيسة القبر المقدس المشهورة باسم كنيسة القيامة . وكانوا يخرجون اليه من غرب أوربا باحتفال عظيم ، وكان رئيس الجهة الديني يزود كلا منهم بعضا ورداء من الصوف الخشن فيلبسه لوقته ، وكان لهم على طول طريقهم تكايا وأديرة يأوون اليها مدة سفرهم ، وإذا وصل الحاج الى بيت المقدس يتطهر في نهر الاردن الذي يبعد بنحو عشرين كيلومترا شرقي القدس ، ثم يلتحف برداء يحمله معه ليكون له كفنأ عند موته . فلما استولى السلجوقيون على بيت المقدس قل حجاج الافرنج الى اورشليم وحولوا وجوههم الى كنيسة القديس بطرس وبولس في رومه ، وفي تريف (Treves) بجرمانيا . ويزعمون أن بالأخيرة فيص المسيح الذي كان يلبسه ، وقد بلغ عدد حجاجها سنة ١٨١٤ مليوناً ومائة ألف نفس من الافرنج . وهم يحجون أيضاً الى كنيسة لورده (Lourdes) في جنوب فرنسا بعد أن شاع في أوربا أن السيدة مريم العذراء ظهرت لاثنتين من رعاها هذه المدينة . والزائرون لهذه الكنيسة يشربون من ماء ينبع قريباً منها يسمى باسمها ويعتقدون الى اليوم أن فيه شفاء للناس ويرسلون منه الى جميع أقطار المسكونة للتبرك والاستشفاء . ولم نكثر حجاج بيت المقدس الا بعد عمل السكة الحديدية اليها من يافا .

والعرب كانت تحج الى الكعبة قبل الاسلام بنحو خمسة وعشرين قرناً ، لأنهم كانوا يعتقدون أنها بيت الله على ما كانوا عليه من اختلاف الالهة وتعدد الديانات وتغاير المذاهب . وكانوا يقصدونها سنوياً للطواف بها من غير أن يدعيها لنفسه فريق منهم دون الآخرين ، لأنها كانت عندهم بيتاً لله الذي هو إله العالمين . ورغم أن شيوخ عبادة الاوثان في سواد

فبائن العرب فانه لم يرد عنهم أنهم عبدوا هيكل الكعبة ، وليس ما ورد في أسمائهم من عبد الكعبة (وكان أبو بكر يسمى عبد الكعبة فلما جاءه الاسلام سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله) الا لزيادة اجلالهم اياها ، كما هو الشأن في تسمية عبد المبي عبد المسلمين ، مع كراهيته في دينهم . وكذلك لم يسمع عنهم أنهم عبدوا الحجر الأسود مع احترامهم له ذلك الاحترام الذي لا يمكن تصووره . وكانوا يعتقدون أن هذا الحجر نزل من السماء ، وبه أخذ بعض الفقهاء ، ونحن لا ندري ان كان وصل اليهم من طريق النيارك أو من طريق آخر . وكان لهذا الحجر في العرب شأن عظيم جداً حتى انه لما حصلت الحرب بين اباد ومضرا بنى نزار ، ودارت رحاها على اباد ، فلعنت الحجر الاسود ودفعته بحبل أى فييس فرأت ذلك امرأه من خراة فأخبرت قومه بها ، فاشترطوا على مضرا ان هم ردوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم ، فوفوا لهم بذلك فردوه ومن ثم صارت ولاية البيت في خزاعة .

واحترام الاحجار (١) في الناس قديم جداً : فهم من كانوا يعبدونها الدائما ، ومنهم من كان يجعلها مراً لا لهنهم كما كان الشأن في الدول الراقية في عمرائها كدولة الرومان واليونانيين الذين كانوا يرزونها لمعبوداتهم من الكواكب وغيرها : ولم يكن يبوغهم الى الآن في نحت الاحجار وعمل التماثيل وترزهم في التصوير ، الا لاحترامهم اياه من قديم الزمان ، واسمعنا لهم في الأزمنة الحالية تمثيلا لمعبوداتهم . والصينيون واليابان والهنود لا يملون عنهم في هذه الصناعة ، ولهم فيها دقة غريبة وخصوصاً في الاعمال الخشبية التي يمثلون فيها كثير من معبوداتهم مثل بودا وكونفوشيوس وغيرهما .

أما العرب فمما كانت أصنامهم سادجة مثل جميع طبائع الاشياء فيهم ، وقد كانوا يعبدونها المرهم الى الله زلفى ، وفي عمبة ناب السلام الخارجية الحرم المكي ترى حجراً ضخماً أشبه شئ بدرجة سلم غير منتظمة . نازله في الارض يطئونها بنعالهم ، وأهل مكة يقولون عنه انه صنم من أصنام الحاهلية واسمه اساف ،

(١) وفي باريس بحوزة الدكتور ومحفاسمه حيمه (Musée Guimet) فيه مجموعة كبيرة من الاحجار الدينية وهي أكبر مجموعة في نابا وقد رزتها سنة ١٩٠٦م مع صديقي العاضل على بك رحمة وكيل دار الآثار العربية وسجلنا صاحبها والمأم بادارتها بكل أسن ولطف .

وكان أنبياء بني اسرائيل يقيمون الاحجار في مناسبات كثيرة : منها ما هو تذكار لحادثه من الحوادث الجسمية ، كما فعل يعقوب عند ما تراءى لدرته في يومه ، فانه أقام حجراً تذكاراً لهذه الحادثة الكبرى في مكان سماه بيت إيل (ببيت الله) ، كما أقام حجراً غبره تذكاراً للعهد الذي تم بينه وبين لابان (أنظر الاية الرابعة والاربعين والخامسة والاربعين من الانجيل الحادي والثلاثين من سفر التكوين) . ومن هذاتلك الحجارة التي نصبها موسى في ديل الحبيل تذكاراً لكتابة كلام الرب (أنظر الاية الرابعة من الانجيل الرابع والعشرين من سفر الخروج) ، ثم الاننا نذكر حجراً الذي نصبها يشوع تذكاراً لعبور الاسباط نهر الاردن بنا بوب العهد (أنظر الاية التاسعة من الانجيل الرابع من سفر يشوع) ،

ومن حجاره التذكار أيضاً تلك الحجارة التي يقيمها صغار الحجاج على حافة طريقهم مع العاقلة . فتراهم اذا صادفوا في طريقهم أحجاراً صغيرة نساقوا اليها وأخذ كل بين يديه ما أراد منها ، ووضعها على بعضها حجراً حجراً قائلاً : هذا لاني هذا لأمي هذا لأخي هذا لاختي هذا لصديقي فلان مثلاً . ويسمون كل كوم منها بطوراً ، وهم يزعمون أنه مادامت هذه الرحمة على وضعها كان أصحابها على قيد الحياة ! ! ولولم يكن في عملهم هذا من حسنة سوى تسمية الطريق من الحجارة التي ينعم ثريها بالسان والحيوان الكفي . وقد رأيت بعضهم في مصر يقيم هذه النواطير في طريقهم الى الموالد وكثيراً ما ترى ذلك في جبالات الأرياف قرب بعض الاضرحة . وجبالات النصارى بالارياف لا تخلو من ذلك .

ومن الحجارة ما كانوا يقيمونها للاستشهاد بها : كالخجر الذي أقامه يشوع عند ما أخذ العهد على شعبه قائلاً لهم هذا الخجر يكون شاهداً علينا (أنظر الاية السادسة والعشرين والسابعة والعشرين من الانجيل الرابع والعشرين من سفر يشوع) .

ومن حجارة الشهادة ما يستعمله الناس في الافتراعات ^(١) السرية في أيامها هذه مما هو

(١) وذلك انهم اذا حافوا على حرية الشخص في ابداء رأيه في الاقتراع العلني ، ذهبوا الى الاقتراع السري : وهناك يدار على الاعضاء ثمانية حجارة سوداء وأخرى بيضاء ، فيأخذ المقترع حجراً من هذه الامرار على الرأي المقترع عليه أو من تلك اذا كان مخالفاً له ، ويضع هذا الحجر في كيس يقدم اليه بحيث لا يشعر به أحد . وبعد أخذ جميع الاقتراعات يقدم الكيس الى الرئيس ، وداوود أن الحجارة البيضاء أكثر من السوداء ، الاقتراع انحازا بالبيبة الاصوات والا كان سلباً .

مستعمل على الخصوص في دوائر الحكومات الكبرى كجالس النواب وغيرها .
 وكان المصريون يقيمون الاحجار الجسمية كالمسلات وغيرها نذكاراً للحوادث
 التاريخية الكبرى . وقد اقتفت آثارهم الدول المتقدمة وعلى الخصوص ما يقيمونه منها اعترافاً
 بفضل من ينبغ من أفراد الامة ، وهذه الآثار لا يكاد يخلو منها ميدان من ميادين عواصم
 أوروبا .

وجميع الحكومات من قديم الزمان تقيم الاحجار لتعبين تخومها وتحديد ممالكها . وقد
 عم هذا الاستعمال في تحديد ملكية الافراد حتى أطلق لفظ الحجارة على الحدود ،
 وأجمعت الشرائع كلها على احترامها .

واليهود الى الآن يقدسون قطعة من حائط سور المسجد الأقصى من جهة القبلة
 يسمونها البراق ، ويبلغ طولها نحو ثمانية وأربعين متراً في ارتفاع مترين ، لزعمهم أنها القطعة
 الوحيدة التي بقيت من قاعدة سور الهيكل الاصلى الذي بناه سليمان عليه السلام ، وهدمه
 بختصر وسنحارب وغيرهما من ملوك الاشوريين والرومانيين . وهم يحجون الى هذه
 القطعة مرتين في كل سنة وخصوصاً في العيد الذي يسمونه عيد الدجاج (عيد السربان) .
 ويهود القدس يجتمعون عند هذا السور كل يوم وعلى الخصوص في عصر يوم الجمعة مع
 رؤسائهم الدينيين ، ويستلمون حجارتها باكين شاكين متعجبين متضرعين الى الله بأن يرد عليهم
 ملكهم وأن يعيد الى اورشليم نخامتها وجلالاتها . وقد وصل بهم احترامهم للحجارة ذلك
 الهيكل الى أنهم لا يدخلون في حوش بيت المقدس أصلاً ، بل لا يدخلون من بابه مطلقاً ، خوفاً
 من أن تطأ أقدامهم حجر آمن الحجارة التي تكون ربما تحلفت من هيكلهم القديم ، وألفت بها يد
 الصدفة في أرضية هذا المكان . وهم يقدسون أيضاً جانبا من سور منارة المكفيلة التي بها
 قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب في حرون ، ويجتمعون عندها مساء كل يوم جمعة ويصلون
 ويبتهلون ويستغيثون ، صارخين الى الله تعالى أن يعيد اليهم ملك بني اسرائيل .

وللنصارى اُحجار كثيرة يقدسونها ، ومنها شئ كثير في بيت المقدس . وقد بلغ تقدسها
 منهم الى حد لا يمكن تكيفه . ومن تلك الأحجار الحجر الذي تحت قبة الصعود : وفيه أثر صدر

قدم يعنى يقولون انه أترقدم السيد المسيح عندما صعد الى السماء . وقد شاهدت بنفسى هذا الحجر الذى ملس وكاد يذهب أثره من كثرة لمسهم له وتقبيلهم اياه . وفى أسفل جبل الزيتون من الجهة الغربية مما يلي وادى سدرون (الذى يسميه العامة وادى مريم) قطعة من صخرة خارجة عن سور الكنيسة الروسية الشمالى ، فيها بعض تقعر رأسى ، يقولون ان السيد المسيح أسند ظهره اليها عندما نزل من جبل طور زيتا (جبل الزيتون) الى المدينة . ولقد اجتهدت الكنيسة الروسية فى ادخال هذا الحجر اليها ، فقامت من أجل ذلك قيامة الطوائف الاخرى ، وكادت تحصل لذلك فتنة كبيرة ، لولا أن الامر انتهى بجعلها منطقة عامة للجميع حتى لا يحرم الكل من التبرك بها . وازاء هذه الصخرة الى جهة الشمال توجد صخرة أخرى محاطة بسور للأروام ، يقولون ان السيد المسيح كان جالس عليها اذ ذاك ليشاهد منها صحرة بيت المقدس ، و باب هذا السور يفتح للزيارة فى أيام مخصوصة . وللقوم فى كنيسة القيامة أحجار كثيرة تكاد تهوق حد التمديس : منها حجر يصف الديا الذى تراه فى وسط هيكل الاروام ، وحجر المغسل الذى يزعمون أنهم غسلوا المسيح عليه ، وحجر الكأس الذى نزل به جبريل الى المسيح ووضعه عليه ، وعمود الخلد الذى كان المسيح مربوطا به عند ما جلده أعداؤه ، وحجر الاكليل الذى أجلسوا عليه المسيح وقت ما وضعوا على رأسه اكليل الشوك ، ويوجد فى بيت لحم كثير من هذه الحجارة المقدسة عند النصارى .

ومن الحجارة المقدسة المحترمة عند اليهود والنصارى والمسلمين على السواء ، صحرة بيت المقدس التى كانت محل فربات ابراهيم واسحق ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من أنبياء نبي اسرائيل عليهم السلام ، وكانت فملة للمسلمين قبل الكعبة ، ثم صحرة أيوب (النبي) التى فى قرية الشيخ سعد على طريق السكة الحديدية بين المزيريب والشام ، ويقصد زيارتها والتبرك بها خلق كثير من جميع الافاق على اختلاف جنسياتهم ودياناتهم .

من ذلك ترى أن هذه الحجارة لم تقدس لذاتها ، ولكن لعلاقتها بشئ مقدس محترم : وعليه فالحجر الاسود الذى وضعه ابراهيم عليه السلام فى الكعبة إما أن يكون وضعه تذكاراً لصدعه بأمر ربه برفع قواعده هذا البيت المعظم ، وإما أن يكون للعهد الذى أخذه ابراهيم

على نفسه وولده بجعله هذا البيت مثابة للناس، وإما أن يكون قد أقامه إبراهيم حجة عليه وعلى ولده أن هذا البيت قد استعمل من ملكيتهم إلى الله تعالى ليكون للناس متبلى ومسجداً للطائفين والعاكفين والركع السجود . ووضعه في الركن الاقرب إلى الباب ليكون أوّل حدوده هذا البيت المكرم الذي يبتدى منه الطائفون ، وجعل لونه أسوداً لسهولة تعيينه وتحديد مكانه : لذلك كان هذا الحجر محترماً من إبراهيم ، محترماً من ولده ، محترماً من المسلمين إلى اليوم وإلى الغد . ولا عبرة بما ذهب إليه بعض السائحين الذين قصدوا مكة والمدينة تحت ستار شعار الدين الاسلامي ، وكتب عليهما كل بحسب نزعتهم سياسية كانت أو دينية ، وافترى بعضهم على المسلمين بأنهم في حجهم يعبدون الحجر الاسود الذي هو أثر من آثار الوثنية العربية الاولى ! اواني لا أدكر شيئاً أدحض به هذه الفرية سوى ما رواه الامام أحمد والبخاري ومسلم ورواه ابن أبي شيبة والدارقطني في العلل ، من أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف عند الحجر فقال « إني لا علم لك حجراً لا تضر ولا تنفع » ثم قبّله ، ثم حجج أبو بكر فوقف عند الحجر ثم قال « إني لا علم لك حجراً لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » ، وقال عمر « أما والله إني أعلم لك حجراً لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك » ثم دنا فقبل . على أنه لم يسمع عن عرب الجاهلية مطلقاً أنهم عبدوا هذا الحجر فيما عبدوا من الاحجار بالمرّة ، مع احترامهم له كل الاحترام واجلالهم له كل الاجلال . وعلى كل حال فإن الحجر الاسود عند المسلمين محترم مكرم معظم لا لذاته ولكن لكونه شعاراً لربوبيته تعالى ورمزاً لسلطانه . يعرض عليه المسلمون فيستلمونه ونفيلونه ، أو يسلمون عليه من بعد بكل احترام واحتشام : وعليه فهو في ذلك كالعلام الدول التي لا يحترم لكونها قطعة بسبطة من القماش مرفوعة على قطعة من الخشب أسط منها ، بل لأنها تمثل سلطان الملوك وعظمة الممالك : وهلا حضرت استعراض جيش من جيوش الدول العظام ورأيت الفوم اذا حاذوا علمهم أحوا أمامه رؤوسهم وسيوفهم علامة على الخضوع والاحترام ؟

وما زال الحج عند عرب الجاهلية على ملّة إبراهيم واسماعيل ، ومشاعره^(١) كلها محترمة
عندهم ، حتى اذا عظمت قر يش بعد واقعة الفيل ، وقال الناس فيهم اثمهم اهل الله يدافع عنهم ،
نمخوا بأنوفهم على العرب ، وقالوا نحن ولاد البيت ، وليس لاحد من العرب مثل منزلتنا ،

(١) ولا بى طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم فصيده مشهوره ببلاغتها وهي لاميه التي تبلغ
واحداً وثمانين بيتاً ذكر لك منها هنا بعض قسمه الذي تعرف منه المشاعر التي كانت تعف
من العرب في الجاهلية . قال رحمه الله :

وتَوَرَّ^(١) ومن أرسى شيراً^(٢) مكانه * وراق ليرقى في حرّاء^(٣) ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة * وبالله ان الله ليس بغافل
وبالحجر المسودّ^(٤) اذ يمسخونه * اذا اكتفوه بالصحي والاصائل
وموّطىء ابراهيم بالصخر رطبة * على قدميه حافياً غير باعل
وأشواط بين المروتين الى الصفا * وما فيهما من صورة وتمايل^(٥)
ومن حج ببت الله من كل راكب * ومن كل دى نذر ومن كل راجل
وبالمشعر^(٦) الاقصى اذا عمدوا له * ألال^(٧) الى مفضى الشراج^(٨) العوايل
وتوقفهم فوق الجمال عشية * يميون بالايدي صدور الرواحيل
وليله جمع^(٩) والمنازل من منى * وهل فوفها من حرمة ومنازل
وجمع اذا ما المقرّبات^(١٠) أجزته * سراعاً كما يخرج من وقع وابل
وبالحجر الكرى اذا صمدوا^(١١) لها * يؤمون قذفا رأسها بالجدال^(١٢)

والمصيده موجودة برمتها في الجزء الاول من سيرة ابن هشام

(١) و (٢) و (٣) و (٤) و (٥) و (٦) و (٧) و (٨) و (٩) و (١٠) و (١١) و (١٢)
وهي المواضع التي بها لباسك الحج ، والمشعر الاقصى هو عرفة لانه أعدها . (٦) نفع الهمة
وكسرها حمل عرفه . (٧) مرده شرح وهو مسيل الماء ، ومجي الشراج جمعهاى بحرى واحد
وفي هذا ما فيه من ملاحظة التعبير إشارة الى اجتماع الناس في مكان واحد وهو عرفه . (٨) هي
ليلة المرادف . (٩) هي الحمل الى صمر لاركو و الابل الى عليها رحاها . (١٠) قصدوا .
(١١) الحجارة .

وانفقوا على أن لا يعظموا شيئاً من الحل : فتركوا الوقوف بعرفة والا فاضة منها ، مع علمهم بأنها من المشاعر الحرام وأنهم كان الحج من زمن ابراهيم ، وأفاضوا من جُمع (المزدلفة) ، وقالوا لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاء وابه معهم من الحل في الحرم اذا جاءوا حجاجاً أو عماراً ، وأن لا يطوفوا بالبيت الا في ثياب الحمس (وهم قریش وسموا بذلك لتحمسهم في دينهم أى تشدهم) ، فان لم يجدوا طوافاً بالبيت عراً . فدأت لهم العرب بذلك ، وكانت المرأة في طوافها تضع عنها ثيابها الا درعها .

وقد كان السعى بين الصفا والمروة من لوازم الحج في الجاهلية ، وكان لهم صنم على الصفا يسمى (أساف) وآخر على المروة يسمى (بائله) ، وكان للعرب فيهما اعتماداً سخياف كغيره من الاعتقادات الوثنية ، وكانوا ينحرون عندهما هديهم . فلما جاء الاسلام امتنع المسلمون عن السعى كيلاً يكونوا مثل أهل الجاهلية في وثنيتهم ، فنزل قوله تعالى « ان الصفا والمروة من شعائر الله » : ومن هذا ترى ان الشكل في العبادات لا يعول عليه واعمال المندار فيها على النية . وبالجملة فالشعائر التي كانت مستعملة في الحج من زمن ابراهيم واسماعيل ، واتخذها الناس بمدحاً لمعبوداتهم على تفايرهم في العقائد ، قد أقرها الاسلام وجعلها كلها لله تعالى وحده ، (واعمال الاعمال بالنيات) ، وجعل الحج من فواعد الاسلام : قال عليه الصلاة والسلام « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ، واقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع اليه سبيلاً » . وقد وقف صلى الله عليه وسلم بالناس في عرفة وقال « الحج عرفة » وأفاض منها ، ونزل في ذلك قوله تعالى « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » (يعنى قبل الحمس) ، وطاف المحاح بالثياب التي معهم من الحل ، وأكلوا من طعام الحل في الحرم ، ولا يزال المسلمون يحججون على ما شرع لهم من هذه النسك الى اليوم . ولكن يظهر للمتأمل في طواف البدو الآن وعلى الخصوص أهل الشروق من عتية ومطير ، أن حجهم بالصق بالبيت منه بعرفة : ذلك لان هؤلاء القوم يفسدون على مكة في الخمس الاول من شهر دى الحجة ، فيرتبون مساكنهم شرق المدينة من خارجها ، ثم يدخلون المسجد الحرام جماعات جماعات ، ويطوفون حول البيت طواف القدوم ماسكين بأيدي

بعضهم ، لا يوقفهم في طوافهم زحام المطاف بغيرهم ، بل يأخذون في طريقهم كل من صادفهم فيه وهم يقولون « الله محمد ، لبيك لبيك ، حجيت ، تقبل أولاً تقبل حجيت ، إلا تقبل » . وإذا كان معهم نسوة (ولا يكن في الغالب إلا من المتدمات في السن) ، تراهن في مؤخرتهم ماسكات باكتافهم ، ولا يظهر منهن سوى أعينهن وفي أيديهن القفازات ، حتى إذا وصل الكل إلى الحجر الأسود تعلق المتقدم منهم بكسوة الكعبة ، وأمسك بها بقوة بحيث لا يزحزحه عنها أحد ، وتبعه اخوانه وأزاحوا غيرهم من المستلمين بقوة وصبر لا يعتورهم ملل ، محتملين في ذلك ضرب الضارب وانتهار النهار ، حتى إذا كشفوا الناس عنه واستلموه جميعاً وقبلوه ، أتت نساؤهم لتقبيله ، فيضرب الزوج رأس امرأته لتصطدم جبهتها في الحجر ، فيحصل فيها أثر يكون عندهم علامة الحج (كالوشم عند حجاج بعض النصارى إلى بيت المقدس) ، وعندها يصرخ الرجل قائلاً لزوجته « حجيت يا حاجة » ؟ فتصيح قائلة « حجيت حجيت » ثم تلتفت إلى الحجر الأسود قائلة « حجيت ، خير ربك ^(١) أنى حجيت » ثم ترفع رأسها إلى السماء قائلة « تقبل أولاً تقبل حجيت إلا تقبل غصباً تقبل » . وهذا كله قبل وقوفهم بعرفة ، ومنه ترى أن اعتبارهم أنفسهم أنهم حجوا بمجرد الطواف والاستلام قبل الوقوف إنما هو بعض ما كانت سنته قرىش بعد واقعة الفيل ومحاة الإسلام .

وأخلاق هؤلاء الأعراب في الحرم الشريف بخلاف ما هو معروف عنهم من شدتها فالك تراهم فيه على غاية ما يكون من السكينة واللين والتسامح ، لا يقاتلون إلا هانة الشخصية إلا بالسكوت المطلق عن الإجابة عليها ، وما ذلك إلا لشدة احترامهم حرم الله واجلالهم لبيته المعظم .

ولا شك أن قصد الشارع من الوقوف بعرفة إنما هو وحدة الوجود في مكان واحد ، تجمع أطرافه جميع أولئك الذين وفدوا من الأقطار المختلفة ، وهم وإن اختلفت أجناسهم وتغايرت لغاتهم فقد توحدت وجهتهم وتفردت غايتهم . نعم تجمعهم صحراء عرفة وتضمهم

(١) من تأمل في هذه العبارة ير ولا شك أنها من آثار الحامية ومما يحكم قطعاً أن القوم قبل الإسلام ما كانوا يبدون الحجر الأسود .

الى مؤاد ذلك الحبل حتى اذا اجتمع الشخص بالآخر، عرف كل واحد ما به من أمر صاحبه، فيمسيان وقد اهتم كلاهما بأمر أخيه مما ينصلح به أحوال الافراد وتستقيم به أمور الامم . وكيف لا وقد كان هذا الاجتماع بين يدي الله تعالى وفي حضرته، في يوم يكون الا لسان فيه نكايته عاطمة شريفة : هي الا خلاص بحميته، لا يشوبه رياء ولا يتطرق اليه مرء .

وكان موسم الحج موعدا بين الناس يعضون به أشغالهم ويعضون فيه أمورهم وذلك لصعوبة المواصلات التي كانت بينهم قال بعضهم :

ما أحسن الموسم من موعد * وأحسن الكعبة من مشهد

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يهتم بالحج من مبدأ الاسلام . وقد خرج من المدينة غير مرة حاجا أو معتمرا الى مكة ، وهي في أيدي أعدائه من المشركين ، غير حاسب أي حساب للخطر الذي ربما كان يصيبه منهم . فمنعوه من دخول البلد الحرام . وفي عام الحديبية أناب عنه أبانكر بان يحج بالمسلمين . وفي السنة العاشرة من الهجرة حج بهم صلى الله عليه وسلم حجة الوداع . وفي خلافة أبي بكر أناب عنه في الحج عمر لا شغاله بحروب الردة . وحج عمر بالمسلمين في خلافته سبع أو عشر مرات وهكذا كانت الخلفاء في الغالب يعمون بضرورة الحج في صدر الاسلام حتى يقوموا بأنفسهم على حال رعاياهم ، وقد أفادهم هذا الأمر في سياسة ملكهم داخله وخارجه سياسة عظيمة . ومن كانت مشاغل الملك تحول بينه وبين هذه الفريضة ، أناب عنه على أمانة الحج رجلا من فراته أو من عظماء أمته . وما زالوا ينرا حو في القيام بهذا الأمر ، حتى صار من النادر أن سمع خليفة أو ملك أو أمراء أو وزير اسلامي يقوم باداء هذه الفريضة . ولعل أمراء المسلمين يعودون الى ما كان عليه سلفهم الصالح من احياء هذه الفريضة ، لتحياها بوسمهم وممالكهم . نعم تحياها حياة طيبة : لا هم اذا تثارلوا لحظة الى مرلة الناس في جميع طبقاتهم ، واختلطوا مع العامة منهم فريهم وبعيدهم ، وسمعوا بداءاتهم و نكاء الضرير ، وشاهدوا حاجة البائس ومدار ما يعمل القافة في احشاء هؤلاء المساكين الذين يحول سياج الملك بينهم وبين معرفتهم بحميتهم ، هنالك يشعرون بما يحب عليهم لرعاياهم ويعملون على اعانه الضعيف واعانه اللهيئ . ويتلذذون في ذلك الكراء والعظماء مسوفين بطبيعة تقليد الصغير للكبير

(والناس على دين ملوكهم) : فيصبحون وأممهم في أهنا بال، وأحسن حال، وهذه هي سعادة الراعى والرعية على السواء . نعم يجب على الامراء والعظماء والاغنياء أن يحجوا، حتى اذا وقفوا لحظة في صف هؤلاء التمساء والبؤساء، ترفقت فلوبهم وتحننت أفئدتهم وأصبحوا بعيدين عن عوامل الظلم والاستبداد، قريبين من مؤثرات الرأفة والرحمة . نعم نعم اذا وقف أولئك الملوك في سلك هؤلاء الناس والكل مغلولك بعرش إله واحد عادل، وهو القادر الفاهر، مالوا الى الاشتراكية الحققة واهتموا بحال المغلوكين والمظلومين : فيردون عن هذا ظلامته، ويخففون عن ذلك محنته، ويحولون بين برائن القوى ومهجة الضعيف : وذلك تستقيم أمور الرعية، وتعود الى ما كانت عليه في خلافة الراشدين من الحياة الصحيحة .

ولقد شهدنا في ذلك برهاناً محسوساً : فان الحجاب العالى الخديوى عند ما وقف هذا الموقف أخذ يذكر حال البؤساء من حجاج بيت الله الحرام عموماً والمصريين منهم خصوصاً، مهتماً بأمرهم كل الاهتمام، مفكرافى الواسطة التى تخفف من مصائبهم وتسهل من مصاعبهم . فكنت أسمع منه على الدوام، ووجهه حفظه الله محتقن بدماء الانفعال بعامل الرحمة والحنان، عبارات الاسف على ما يقاسيه البؤساء من حجاج بيت الله الحرام، ويبعث على الطريق التى يكون من ورائها راحتهم وطمأنينتهم . وهذه الفكرة لاتزال تشغل فكره الشريف الى الآن . كذلك كان الخلفاء والامراء فى صدر الاسلام، وكثيراً ما كانوا يحجون . حتى ان الرشيد كان يغزو عاماً ويحج عاماً (وقيل انه حج ماشياً غير مرة)، ولذلك كانت حكومته من أحسن الحكومات نظاماً وأمتناً احكاماً . فلما تاعد الخلفاء عن تأدية هذا الواجب المومى وأهملوا شؤون رعاياهم، استهان الناس بهم، وما زالوا كذلك حتى غلبوا على أمرهم !! نسأل الله أن يعيد الى الاسلام عظمته ومجده .

على ان الحج له تأثير كبير فى الاخلاق : فترى الحاج يتوب الى الله فى حججه، ولا يتم مناسكه الا وهو على اعتقاد تام بغمرة الله له وتفضله بمحودنوبه من صحيفة أعماله . فاذا عاد الى بلاده سار فى طريق الفضيلة ويصعب عليه أن يتركه الى غيره مهما كان شاباً : فان تمثل له شيطان غوايته، جردله وازعاه من نفسه يحول فيما بينهما، وفى الغالب يكون هذا الوازع أقوى

من خصمه الذى يهزم أمامه . وإذا فليس من مذهب حقيقى للنفس أحسن من تربية الحج ، فهو يعم الربى للنفوس الشريرة و يعم المذهب لها . ولقد قرر علماء التربية أخيراً أن الانسان لا بدله من شخص يسهل له طريق عمله ، حتى اذا اطلق فى سبيله فلاشى و يردده عنه : لذلك تراهم يستعملون كل الوسائل فى تحسينهم الى الصبى البليد أو الكسلان الاندفاع فى طريق العمل ولومرة واحدة ، فاذا ذاق حلاوة الاجتهاد صعب عليه رجوعه الى الكسل والبلادة . على أن الحاج ان لم تردعه نفسه عن اقتراف الرذيلة فانه لا يحرم من الناس مؤنبا عليها ، أو معيرا على اقترافها ، فيرجع اذ ذاك عن غيه طوعا أو كرها . وهذا أظنه حسبك فى فضيلة الحج التى لا تماثلها فضيلة ، والتى لو فطنت لها الحكومات الاسلامية لسهلت طريقه على رعاياهم ، حتى اذا كثر سواد الحاجين منهم كثرت فيهم الفضيلة التى تؤدى الى الخير العام والسعادة الحقيقية . ولقد كانت الحكومة المصرية فى الزمن الغابر تخرج الى الشوارع والحارات فى أشهر الحج اناسا يتغنون باباشيد (يسمونهم تخاين) تحرك عواطف الناس الى أداء هذه العريضة ، كما كانت خطباء المساجد تحث عليها وترغب الناس فيها (ولا يزالون كذلك الى الآن) .

المسجد الأقصى

هو ثالث المساجد المقدسة عند المسلمين لقوله عليه الصلاة والسلام (لا تُشَدُّ الرحال الا الى ثلاث : المسجد الحرام - ومسجدى هذا - والمسجد الاقصى) . وهو مسجد الصخرة ببית المقدس . وكثير من المسلمين يزورونه بعد زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقولون لمن زاره فلان قدس (بصيغة الماضى) . وليس لزيارتهم له وقت مخصوص ولا شروط مخصوصة مثل ما فى الحج . ولكنها زيارة بسيطة يؤدونها فى أى زمن شاءوا ، واختيارها فى موسم شمس النسيم انما هو للحاق مولد سيدنا موسى عليه السلام . وأهل تلك الجهة يحتفلون بهذا المولد احتفالا عظيما جدا : ذلك أنهم بعد صلاة الجمعة التى قبل سبت النور

يذهب المتصرف والقاضى والمفتى ومشايخ الحرم الشريف وأرباب الطرق وأرباب الدولة من ملكيين وعسكريين فى آلاف من الناس من عرب وأهلين وحاجين ، ويجمعون حول شجرة الزيتون التى فى حوش الحرم بين مصطبة الصخرة والمسجد الاقصى . وهذه الشجرة ^(١) يسبونها الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقولون انه هو الذى غرسها بمكانها هذا ؟ وهناك ينشرون جملة أعلام يسمون بعضها بعلم النبي ، وبعضها بعلم داود ، وبعضها بعلم موسى ، وبعضها باعلام الصخرة ، ويسير الموكب من الحرم الشريف الى مشهد موسى عليه السلام ، وهو على مسافة ست ساعات من بيت المقدس فى الجهة الشرقية الجنوبية . وهناك ينتهى الاحتفال الذى يبدأ به المولد ويستمر خمسة عشر يوماً فى الجبل وتقام فيه الاسواق لبيع ما يلزم للأعراب الفاطنيين بتلك الجهات .

أما الصخرة الشريفة فقد كانت قبلة للمسلمين بعدما فرضت الصلاة مدة ستة عشر شهراً حتى أمرهم الله تعالى بتوجيه وجوههم الى السكبة المكربة فى السنة الثانية للهجرة . وهى صخرة كبيرة ضربت عليها قبة عظيمة جداً ، فيها من أعمال القيشاني والفسيفساء (الموزاييك) والنقوش الذهبية وغيرها ما يدهش الفكر ويحارله العقل . وهذه الاعمال من عهد عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد . وللمأمون فيها أثر عمارة تشكر . وقد أصلح الحاكم بامر الله قبعتها وضرب عليها قبة أخرى من الخشب لتحفظها من عبث الامطار وتأثير الاجواء . وارتفاع

(١) ويوجد فى الوادي الدايت من المزيريب الى حرش شجرة برعم أهالي تلك البلاد ان عليا ابن أبي طالب عرسها هناك ؟ ولها عدهم مقام كبير ويأتون لزيارتها من جميع الجهات . وكذلك يوجد قرب العزيزية بولاية سيواس صخرة فى رأس جبل يبلغ ارتفاعه ٢٠٠ متر تقريباً يسمونها طاش ديل (تام الحجر) ويرغمون ان سيدنا عليا كان ماراً بهذا الوادي وكان راكفاً فرساً فتأخر فلوه البرعي ولما توارى فى منطف الوادي بطرت الدرس فلم ترفلواها فسهل فسمع فلوهاصوتها فقفر من مكانه فوق الجبل فوق فى الصخرة فجرتها ومات وهناك له قبر معروف ، وفى طريق السالك فى هذا الوادي الى قيصرية صخرة عظيمة يزعمون ان عليا ألقى بها علي حاكم قيصرية الذى كان يقصد ان يسد عليه الطريق ، وفى جوار قرية القنيطرة (من أعمال الشام) حوابعيل على ويرغمون ان علياً لما وفى وصوه على جبل وأطلقوه فسار به الى هذا الجبل وله مسجد يقصد الناس لزيارته وخصوصاً الشيعة .

الاولى منهما وهي السفلى ١١,٥٠ مترا وقطرها عشرون مترا، أما الثانية (العليا) فارتفاعها ثلاثون مترا . ولقد عمرها صلاح الدين الايوبي بعد أن عبث الصليبيون بها وحولوها الى كنيسة وجعلوا هيكلها فوق الصخرة . ثم عمرها السلطان سليمان القانوني . وهذه القبة الآن آية من آيات الصناعة الرومية والعربية القديمة ، مما يستعصى على عمال زمننا الحاضر اصلاح ما اعتل منها . وهي قائمة على قاعدة مثمنة الشكل ، طول كل ضلع منها ٢٠,٤٠ مترا وحوائطها مكسوة بألواح كبيرة من المرمر فيها نفوش طبيعية جميلة جدا ومتناسبة مع بعضها تناسباً غريباً : حتى ليتخيل للسانها مرسومة بيد الرسامين الماهرين لا يد هذه الطبيعة المتواضعة التي لا تريد أن تعلن عن نفسها بأى حال من الاحوال !!! وأرضية القبة من الداخل مفروشة بالرخام المحزق ، وحوله أعمال الموزايك المرمرية من ألوان مختلفة . أما حوائطها من الخارج فكما بالفيشاني الغريب في بابيه ، والفديم منه ثمين جدا ، حتى أن القيشاني الذي رمت به مدة عمارة السلطان سليمان القانوني أقل منه في قيمته . وعلى كل حال فهذا وذاك لا يمكننا أن نعوض ما تعبث به يد الضياع منهما . ولو فقه ذلك حماها وحادموها لما تجرعوا على اغتيالها وبيعها من العرجة السائحين بثمن بحس لا يسمن ولا يغني من جوع !! وفي وسط هذه القبة ترى الصخرة الشريفة : وهي من الجرايت الاسود ، وحولها درزين من الحشب على شكل مربع طولها من الشرق الى الغرب ١٧,٧٠ مترا، وعرضه ١٣,٥٠ مترا و يبلغ ارتفاعه نحو مترين . وفي زواياها جملة محاريب الى القبلة ، يسمون واحدا منها بمحراب ابراهيم ، وآخر بمحراب داود ، وآخر بمحراب على رضى الله عنه ، ولا أدري معنى لهذه التسمية الاخير لانه لم يعرف عن على رضى الله عنه انه قدم بيت المقدس .

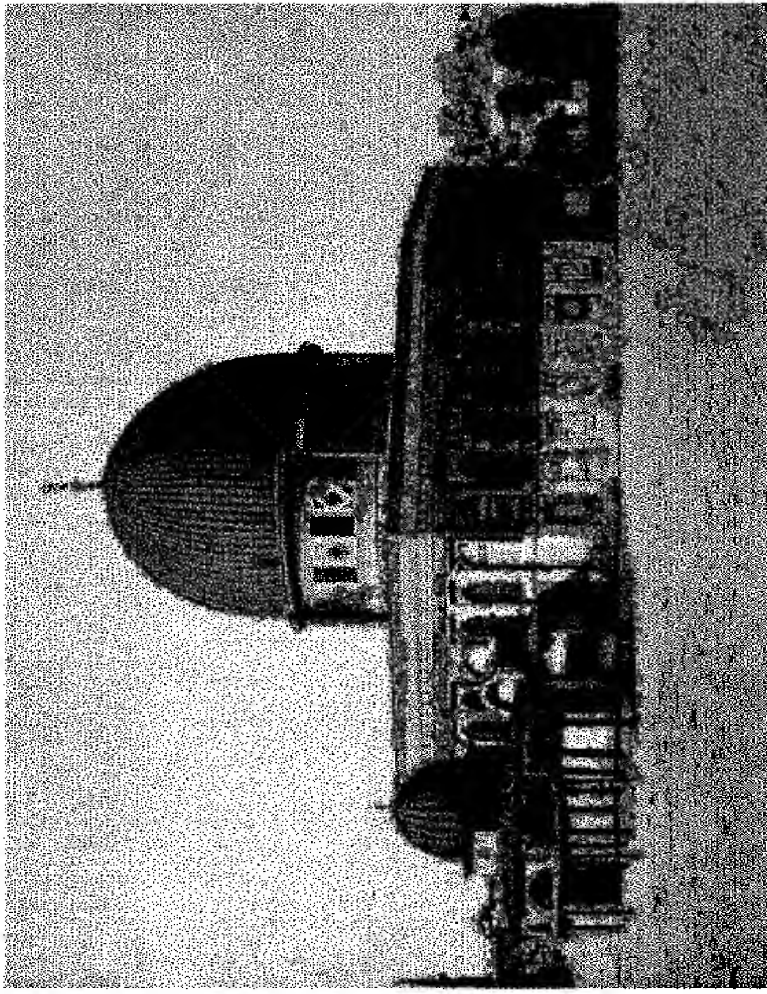
ويبرز من الصخرة لسان الى جهة القبلة يميل الى الشرق ، لهم فيه أقوال كثيرة : منها انه سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء ، وسلم على عمر رضى الله عنه عند قدومه لفتح المقدس !!! وتحت هذا اللسان مغارة صغيرة ، يزل اليها بنحو ١٥ درجة ضيقة . وهي لا تزيد عن أربعة أمتار طولاً في ثلاثه أمتار عرضاً ، والحوائط التي بنيت في محيطها تجعل شكلها مربعا تقريباً . وفي سقف هذه المغارة فوهة تنفذ الى ظهر الصخرة ، كانت مكان الفرايين التي كان

يقدمها ابراهيم وخلفاؤه الى الله تعالى ، ومنها أتى تقديس هذه الصخرة . وفي قبالة هذه القوهة بلاطة من أرضية المغارة تغطي بئر اسمونها جُب الارواح ، وللقوم فيها حكايات كثيرة أشبه شئ بالخرافات ! ولعل لهذه التسمية أصلاً أخذوه من دمء القرايين التي كانت تنزل اليها ، وربما كان القوم يلقون فيها الهدايا النفيسة التي كانوا يقدمونها الى الصخرة ، كما كان الشأن في البئر التي كانت في جوف الكعبة . وعلى ظهر الصخرة من جهة الشرق آثار اثني عشر قدماً : كان النصاري في الفرون الوسطى ينسبونها الى عيسى عليه السلام ، فلما تغلب المسلمون على بيت المقدس قالوا انها آثار قدسي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين سار عليها ليلة الاسراء . ومع ما هي عليه من عدم النظام ، وانها على خط مستقيم فريباً ، وهو مالا يمكن السير عليه لفتحة ما بين الرجلين ، فانها تكاد يكون شكلها واحداً ، وهو مالا ينطبق على شكل القدمين ، خصوصاً وانها أصغر بكثير من الاقدام المنسوبة له صلى الله عليه وسلم مما ذكرناه في صفحة ١٢٥ من هذا الكتاب . ومن هذا وذاك ترى انها كلها موضوع لا أثر لها من الصحة : يؤيد ذلك أنه لم يرد في ديننا الحنيف ما يشير الى شئ من ذلك بالمرّة . وبحوار هذه الاقدام أثر قدم آخر ينسبونه الى ادريس عليه السلام . ويوجد بجانب الصخرة من الجهة الغربية بحوار الدريزين خزانة من الفضة فيها قطعة من الحجر عليها أثر قدم ينسبونه أيضاً الى بيضا صلوات الله عليه ، وفيها أيضاً بعض شعرات من لحية الشريفة .

ويزعمون أن هذه الصخرة معلقة في الهواء ، وانما بنيت تحتها هذه الحوائط حتى لا يفتق الناس بها . واطن أن فكرة تعليق الصخرة مأخوذة عن اليهود ، وربما كان لهم شبه حق في ذلك لكثرة الفضاء الذي حولها ، كالصهاريج وغيرها من السرايب والمغائر . على أنه لا يبعد أن الصخرة الشريفة لا تتصل نقطتها المركزية بالجبل الا في النقطة الصخرية التي تشاهد في الجهة الغربية الشمالية من أرضية حوش الحرم . وعلى ذلك تكون كأنها امتدة في الفضاء على مسافة ستين أو سبعين متراً ما بين رأسها وقاعدتها . وكأن بناء هذه المصطبة حولها إنما كان دعامة لها من جهة ويسهولة الوصول الى رأسها الذي كان مكان القرايين من جهة أخرى .

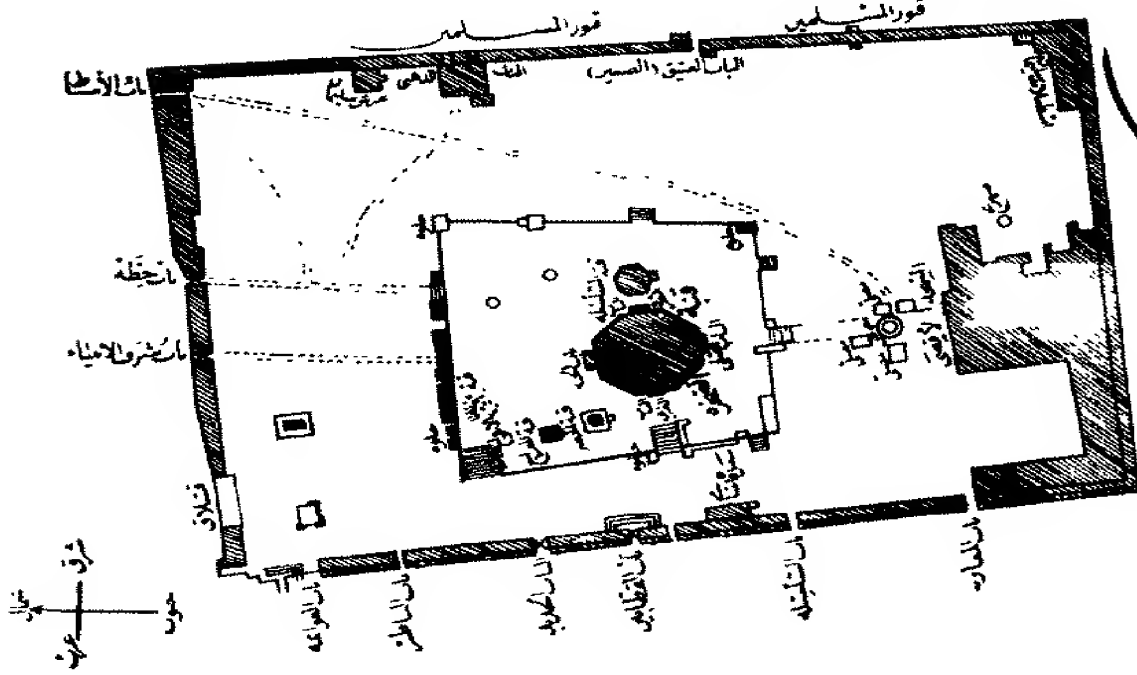
قبة الصخرة والى جوارها قبلة المدينة

BOEHME & ANDERER, CAIRO



وادي مريم

مسجد زون



بيروني

BOEHME & ANDERER, CAIRO

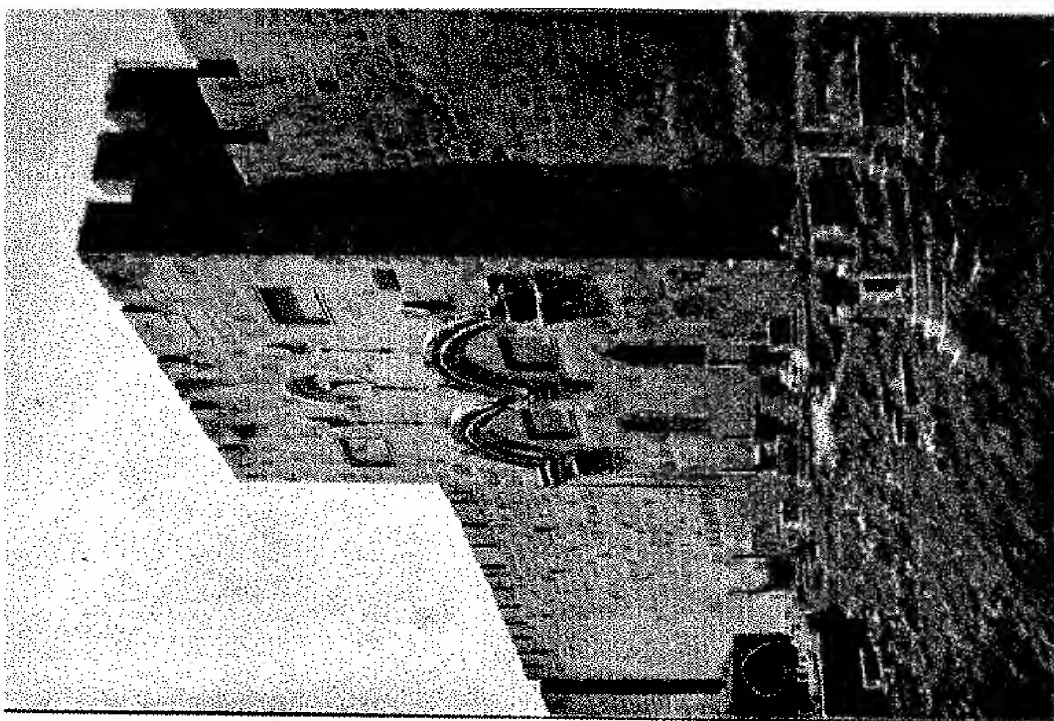
ولقبه الصخرة أربعة أبواب : واحد في شمالها ، والثاني في جنوبها ، والثالث في شرقيها ، والرابع في غربها . والاول منها يسمى باب الجنة . وفي الاضلاع التي ليست بها أبواب توجد شبابيك كبيرة ، فيها أشكال كثيرة من الزجاج الملون ، غاية في حسن الصناعة ، وخصوصاً في تنسيق الالوان المختلفة التي بانعكاسها على جذر القبة تعطى أشكالاً بديعة جداً تزيد في رونقها ، لاسيما اذا كانت الابواب مقفلة !!

ويحيط بالقبة من الخارج فناء كبير أرضه مفروشة بالرخام يسمونه مصطبة الصخرة . وطول هذه المصطبة من الشرق الى الغرب لا يقل عن مائة وثمانين متراً ، وعرضها يزيد عن مائة متر . وترى بها هنا وهناك حول قبة الصخرة جملة قباب صغيرة ، يسمون واحدة منها بقبة المعراج ، يعني أنها ضربت على المكان الذي عرج منه النبي صلى الله عليه وسلم . والثانية يسمونها قبة الخضر . والثالثة قبة الارواح الخ . وعالها في الجهة الغربية من قبة الصخرة . أما الشرقية ففيها قبة السلسلة ، وهو شكل مصغر راقبة الصخرة لأنها قامت على عمد من المرمر : ويؤمنون أنها كانت محل حكومة داود عليه السلام ، ويقولون انه كان بجوارها سلسلة تنزل من السماء اذا أمسك الشخص بها وحلف عليها كذبا انفصلت عنها حلقة فتصعقه لوقته ؟ ؟ ؟

وهذه المصطبة ترتفع عن أرضية الحرم بنحو ثلاثة أمتار ونصف ، و يصعد اليها بثمانية سلالم في كل جهاتها : منها ثلاثة في الغرب ، وستمان في الشمال ، وستمان في الجنوب ، وسلم واحد في جهة الشرق . وسعة الدرجة الواحدة من هذه السلالم لا تقل عن عشرين متراً . ويقوم على طول الدرجة العليا من جميعها خمسة أعمدة قامت عليها أربعة أقواس لا يقل ارتفاعها عن عشرة أمتار ، وهي أشبه شئ بمدخل المعابد الرومانية . وربما كانت من أعمال هيرودوس ملك اليهود ، حين بنائه للهيكل سنة ١٩ قبل المسيح . ويسمون هذه الاقواس بالموازين : يعني التي تزن أعمال الخلق يوم القيامة ؟؟ كما يؤمنون أن الصخرة تكون عرش الله في ذلك اليوم ؟؟؟ ومسلمو القدس يشتركون في هذه الافكار مع اليهود واذا فأصلها يهودي صرف .

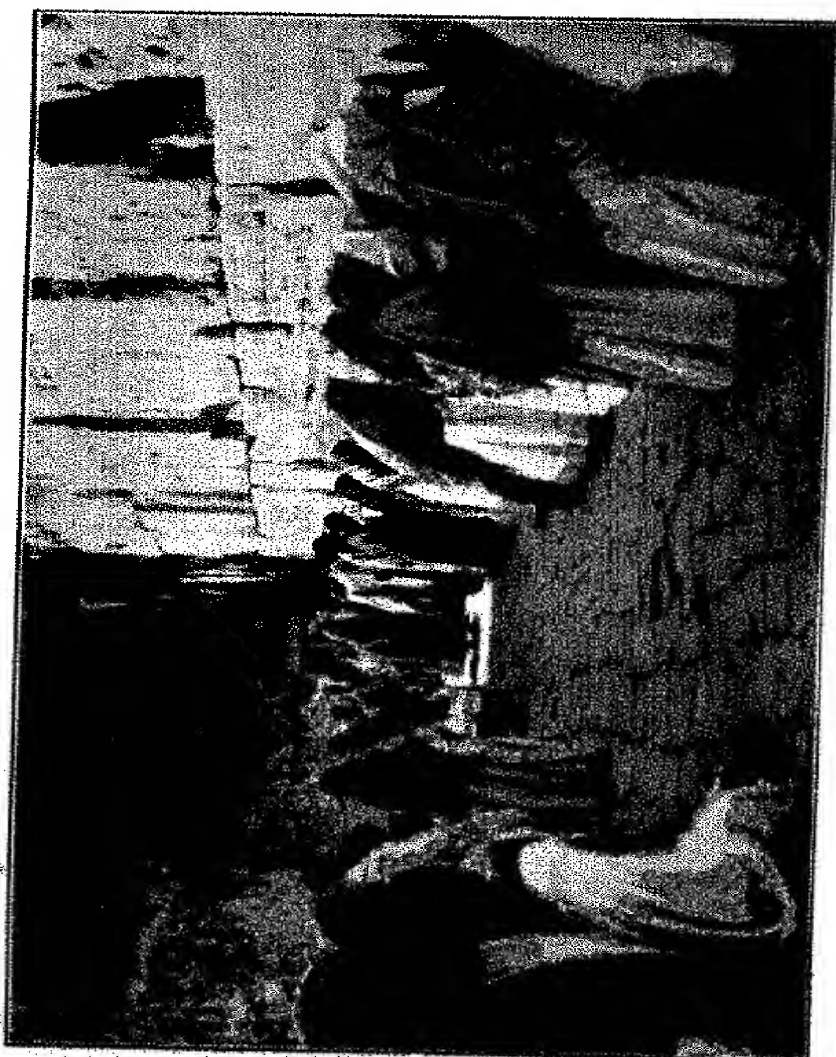
وحول مصطبة الصخرة يوجد حوش الحرم القدسي ، وهو على هيئة مستطيل غير منتظم من الشمال الى الجنوب : وطول ضلعه الغربي ٤٩٠ متر ، والشرقي ٤٧٤ متر ، والشمالى ٣٢١ متر ، والجنوبى ٢٨٣ متر . وفي الجهة الشرقية وبعض القبليّة سور به من اغل ارتفاعه ٨ أمتار تقريباً ، وهو قديم جداً رُممه السلطان صلاح الدين الايوبى ، والسلطان سليمان القانونى . وهاتان الجهتان تشرقان على وادى سدرون (وادى مريم) ، وبعضهم يسميه وادى جهنم ، واليهود يسمونه وادى يوسفات ، وقد ورد ذكره فى التوراة بلفظ يوشافاط ، و يزعمون أن به يحشر الناس يوم القيامة ، وهناك يتسع فناءؤه وتنفسح أرجاؤه ؟ ؟ وهذا الوادى يفصل بين جبل الزيتون وجبل صهيون الذى بنيت عليه مدينة بيت المقدس . أما الجهتان الاخريان (الغربية والشمالية) ففيهما جملة مدارس على محيط الحرم ، أشهرها مدرسة قايتباى فى الجهة الغربية ويسكنها الناس الان ، وأما التى فى الجهة الشمالية ففيها قشلاق للعسكر .

وفى حوش الحرم جملة مصاطب صغيرة يصلون فيها ، وفى كل واحدة محراب الى القبلة . وفى الجهة الغربية قبة جميلة جداً أقيمت على سبيل للاشرف قايتباى . أما الجهة القبليّة ففيها مسجد كبير نعيم يسمونه بالمسجد الاقصى : وليس هو المراد بما ذكر فى القرآن الكريم : لانه كان كنيسة بناها الامبراطور جوستنيان فى منتصف القرن السادس للمسيح ، وحوّلت الى مسجد اسلامى بعد الفتح . وانما كان المراد به المسجد الذى حول الصخرة نفسها كما تقدم . ولما حضر سيدنا عمر رضى الله عنه الى بيت المقدس ، صلى فى الجانب الشرقى الجنوبى للمسجد الاقصى ، وترى مصلاه الى الآن على بساطة تامة فى بنائه بجوار الفخامة التى عليها باقى المسجد . وباب هذا المسجد الى الشمال فيما يقابل مسجد الصخرة ، وطوله من الشمال الى الجنوب ٨٠ متراً ، ومن الشرق الى الغرب ٥٥ متراً ، من غير الزيادات التى أضيفت عليه شرقاً وغرباً . وجميعه مستوف ، ويحمل سقفه أعمدة عظيمة من الرخام المرمر الجليل : ومن ضمنها عمودان بجوار بعضهما الى جهة القبلة من الشرق ، عليهما درزين من الحديد لمنع الناس من الولوج بينهما ، بدعوى أن من يمر من بينهما يكون سعيداً والا كان شقيماً



BOEYNE & ANDERSON (AUS)

الباب الذی بہی للمہجۃ الاقصیٰ



BOEYNE & ANDERSON (AUS)

المہجۃ الاقصیٰ

(كما يقال عن العمودين اللذين بمسجد عمرو بن العاص نسطاط مصر) !!
وفي هذا المسجد من رجميل جداً من خشب الأبنوس المطعم بالسن والصدف أهدها إليه
نور الدين الشهيد محمود بن زكي . وإلى جواره من الغرب محراب صغير في أرضيته حجر به أثر
قدم ينسبونه إلى عيسى عليه السلام .

ويوجد في حوش الحرم وخصوصاً في الجهة الغربية والقبليّة صهاريج كثيرة ، وأبواب
توصل إلى كهوف تحت الأرض : واحد منها بجوار المسجد الأقصى من جهة الشرق :
وينزل إليه بجملة درجات من الحجر ، توصل إلى مكان واسع مربع الشكل ، في وسطه
عمودان كبيران من الحجر الصلد ، يحملان قباباً يستند عليهما سقف المكان ، وفي جوانبه
حوائط بها فتحات مسدودة .

وأهم هذه الكهوف ما يسمونه بالصطبيلات سليمان : وتوجد في الزاوية القبليّة الشرقية
للحرم . وينزل إليها بواسطة سلم صغيرة بجوار السور الشرقي ، وترى في وسطها صدفة كبيرة
بجانبها دخلة فيها أناء كبير من الرخام ، ويزعمون أنه مهدمريم أو محراب مريم ويقولون أن
زكرياء كان يأتيها بالطعام هناك ، وهذه السلم توصل إلى فناء رحيب ، يحمل عرشه
اثنا عشر صفاً من العمد الكبيرة ، يكون مجموعها ٨٨ عموداً ، ارتفاع متوسطها ثمانية أمتار
أو أكثر . وكل هذه العمد تحمل أقواساً عليها قباب تدعم أرضية الحرم . وحول هذا الفناء
حوائط من البناء العتيق ، وفي الجهة القبليّة منه باب مسدود ينفذ على وادي سدرون .
وفي الجهة الشماليّة والغربيّة فتحات مسدودة بعضها صغير وبعضها كبير ، ربما كانت توصل
إلى مثل هذا المكان : مما جعل بعضه فيما بعد صهاريج لخزن مياه الأمطار معروفة بأسماء
من اتخذها لهذا الغرض ، وقد رأيت في زيارتي للقدس سنة ١٩١٠م أمام بعض هذه
الفتحات آثار حفر قديم .

ومن هذا يتضح لك أن أرضية الحرم كلها معلقة على مثل هذه العمد : مما يدل على أن هذا
كله إلهاء وهيكلاً الذي بناه سليمان أو خلفاؤه وسماه الصليبيون بالصطبيلات سليمان .
ولا يبعد أن اليهود استعملت جانباً من هذا المكان وقت الكوارث التي حلت بهم زمن

سنحار يب و تختنصر و طيطوس ، و دفنوا فيه دفائنهم الثمينة ، التي أ كثر الجرائد أخيرا من ذكر العثور عليها أو على بعضها ، و خبّطت في شأنها و وصفها كثيرا سواء بحق أو بغير حق ، و اهتمت الدولة بها اهتماما عظيما .

و للحرم الشريف عشرة أبواب : سبعة منها في الجهة الغربية ، أهمها باب السلسلة في الوسط ، ثم باب المغاربة إلى جنوبه ، و باب القطانين إلى شماله . و في الجهة الشمالية باب شرف الانبياء وهو الذي دخل منه عمر إلى المسجد ، ثم باب الاسباط و يسمونه باب حطة ، و يزعمون أنه هو الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة البقرة « و ادخلوا الباب سجدا و قولوا حطة » . و يوجد في جهة الشرق باب الظاهرية و ينزل اليه بسلاّم توصل إلى دهليز يحيط ببناء مربع ، فيه أعمدة من الرخام من جواربه الغربي و الشمالي و الجنوبي يقوم عليها سقف المكان . و قد أحيطت هذه الأعمدة بدرز من الحديد عليه قطع كثيرة من الخرق البالية ، يضعها العامة تذكارا لريارتهم له . و يقولون ان هذا المكان كان محل حكومة سليمان عليه السلام ، و به إلى الآن عمودان من السماق (نوع جميل جدا من المرمر يندر وجوده الآن) ، يمولون انهما أرسلتا إلى سليمان هدية من لقيس ملكة سبأ . و بجوار هذا المكان باب له منفذان مغلقان على وادي سدرون : القبلي منهما يسمى باب التوبة ، و الشمالي باب الرحمة ، و هذا الباب كان يسمى مدة العماراة التي قام بها هيرودوس في الهيكل باب سوزان ، وهو الذي دخل منه هرقل إلى بيت المقدس سنة ٦٣٩ ميلادية ، و من ثم سمي بالباب الذهبي . و مفاتيح المسجد الاقصى والصخرة من مدة مديدة في يد عائلة الخالدي الشهيرة ، و كذلك في يدهم مفاتيح كنيسة القيامة لعدم اتفاق طوائف النصارى عليها .

أما المدينة فهي واقعة في درجة ٣١ و ٢٧ دقيقة من خطوط العرض الشمالي ، و درجة ٣٢ و ٥٤ دقيقة و ٤ ثانية من خطوط الطول الشرقي ، و متوسط ارتفاعها عن سطح البحر ٧٧٠ متر . و هي مبنية على هضبتين عاليتين احدهما على جبل صهيون والثانية على جبل عكره ، و تنحدر مبانيها نحو الشرق إلى وادي سدرون ، و نحو الجنوب الغربي إلى وادي هنوم . و عدد سكانها الآن ٧٠ ألفا : منهم عشرة من المسلمين ، و خمسة وأربعون من اليهود ،

وخمسة عشر من النصارى من أجناس مختلفة وأغلبهم من الار و ام .
 ولمدينة القدس طريق حديدى ضيق من يافاطوله نحو ٨٠ كيلومترا ، وهو اشركة
 فرنسا وية قامت بعمله فى منتصف القرن الماضى .
 ولقد كانت هذه المدينة فى منتصف القرن الخامس عشر قبل المسيح عامرة ، وكانت
 تسمى يَبُوس وكان سكانها يُسَمُّونَ اليبوسيين .
 وفى مبداء القرن العاشر قبل الميلاد استولى عليها داود ملك بنى اسرائيل ، وكان ملكه فى
 حبرون ، وأتى إليها بتابوت العهد وعَمَّرَ فيها كثيرا وسماها أو ر شليم ، وبنى فى غربها الجنوبى
 مدينته التى سماها باسمه ، وقبره موجود فيها على جبل مور يا ، وخلق ابنه سليمان فزاد فى عمارتها
 وبنى على الصخرة الهيكل المقدس . ولما تسعت مملكة فلسطين بين أسباط بنى اسرائيل ،
 وقعت مدينة أو ر شليم فى نصيب يهودا . وفى مدة بنيه حاصرها سنحاريب ملك بابل سنة
 ٧١٢ ق م ورجع عنها بعد أن هدم جانباً منها ونهب شيئاً من أمتعة هيكلها . ثم استولى عليها
 بختنصر ثلاث دفعات : سنة ٦٠٦ و ٥٩٦ و ٥٨٨ قبل الميلاد . وبعدها نهبها واستولى
 على كل ما عثر عليه من ذخائرها ، أمر بها فهدمت ولم يتركها الا بعد أن جعل عاليها سافلها .
 وفى سنة ٥٣٦ ق م استولى عليها قير وش ملك العجم ، وأمر بها فبنيت وجدد بناء هيكلها
 سنة ٥١٦ ق م ، وأعاد اليه جميع ذخائره التى نهبها الاشوريون . وما زالت أو ر شليم عامرة حتى
 استولى عليها الرومانيون مدة الملك بومبيوس سنة ٦٤ ق م . وفى مدة حكم الرومان ظهر
 فيها المسيح عليه السلام . ولما استولى عليها الملك طيطوس سنة ٧٠ م ، أحرق هيكلها
 وهدم المدينة بعد أن طرد اليهود منها . وما زالت حتى عمرها الملك ادر يان وسماها ايليا . ومنع
 اليهود من أن يبطئوا أرضها ، وجعل الديانة الرسمية فيها المسيحية ، وبنى فيها كنيسة القيامة
 سنة ١٣٨ م . وما زالت مدينة القدس فى يد الرومانيين حتى استولى عليها العرب فى سنة
 ٦٣٦ م ، وكانوا يسمونها بيت القدس ، وأتى إليها سيدنا عمر بن الخطاب بنفسه لفتحها
 وأطلق الحرية المطلقة للنصارى واليهود فى مزاولة دياناتهم والتصرف فى أموالهم ، ومنحهم
 كثيراً من فضله فى عهده الذى كتبه لهم !!! مما يدل على منتهى التسامح الاسلامى الذى

كثيرا ما ينسأه أو يتناسأه أعداؤه خصوصا في هذه الايام . وفي سنة ٩٦٩ م تغلب الفاطميون على هذه المدينة ، ثم استولى عليها السلجوقيون في سنة ١٠٨٦ م ، ثم أخذها الصليبيون في سنة ١٠٩٩ م ، وأقاموا فيها مملكة سموها مملكة القدس ، مكثت في أيديهم - م كل مدة الحروب الصليبية الاولى ، وأحسن ملوكها هو الذي كانت تسميه العرب الردوبيل (Bauduin) ، وما زالت هذه المملكة في يد الصليبيين حتى غلبهم عليها صلاح الدين الايوبي في سنة ١١٨٦ م ، و بقيت في حكم ملوك مصر حتى استولى عليها الاتراك سنة ١٥١٧ م ، وهي باقية بأيديهم الى الآن . وللسلطان سليمان القانوني في هذه البلاد آثار كثيرة تذكره بالشكر ، ولكن أهلها اختلط عليهم الامر فينسبون كل اصلاح له الى سليمان بن داود عليه السلام . ولتمة الكلام على بيت المقدس نقول لك : انه يوجد فيه مزارات كثيرة : منها وراء سور المدينة في الجهة الغربية القبليية في قمة جبل صهيون ، مسجد فيه قبر سيد ناداود عليه السلام ، ويقول بعضهم ان سليمان ولده مدفون معه ، ويقول آخرون بل هو مدفون في مصطبة الصخرة . وبعضهم يقول انه داخلها تحت البلاطة السوداء . ويوجد تحت سور المدينة من جهة الشرق قبر سيدنا عباد بن الصامت وسيدنا شداد بن اويس الانصاري . والى ناحية من هنالك المغارة التي فيها قبر السيدة مريم . وفي جبل طور زيتا قبر سيدنا سلمان الفارسي الصحابي ، والسيدة رابعة العدوية ، وقبة صعود سيدنا عيسى عليه السلام ، وقبر الشيخ حسن الراعي وقبر العزير عليه السلام . وعلى بعد ست ساعات بالعربة من جنوب بيت المقدس مدينة الخليل ، ويسمونها اليهود حبرون . وفيها مسجد مرتفع عن الارض بنحو عشرة أمتار ، وبه قبر ابراهيم وسارة واسحق ويعقوب ويوسف عليهم السلام ، وهذه القبور كلها في مغارة تحت أرضية المسجد ، وهي مغارة المكنفيلة التي اشتراها ابراهيم ليدفن بها ، ولها مزارات على سطحها في أرض المسجد . وعدد سكان هذه المدينة عشرون ألفا منهم ١٥ من اليهود والباقي من المسلمين . وفي الطريق بين الخليل وبيت المقدس مدينة بيت لحم ، وفيها كنيسة نفيسة أقيمت على المكان الذي ولد فيه المسيح . ترى في داخلها على الدوام عسكرا من الجند العثماني لحفظ النظام الذي كثيرا ما يعيث به تشاحن بعض الطوائف المسيحية مع بعضهم .

كيف تحج أيها المسلم

اعلم وفقك الله لطاعته، أن الحج فَرَضَ على المسلمين في أواخر سنة تسع من الهجرة، مرة واحدة في العمر على كل مسلم، حر، مكلف، صحيح البدن، ميسور الزاد والراحلة، قادر على نفقة عياله مدة سفره في حجه، مع أمن الطريق إليه. ويحرم الحج مال حرام، ويكره بدون إذن من له الولاية على من يريده. وتجاوز الانابة فيه عند العجز عن أدائه بحبس أو مرض، فإن زال وجب أدؤه بالذات.

فإذا تيسر لك ذلك كله فسافر على بركة الله لأداء هذه الفريضة. فإدا وصلت إلى ميفات الأحرام فأحرم بنية الحج (أو العمرة^(١) ان شئت أوهما معا) قائلا: اللهم اني نويت الأحرام لحج بيتك المعظم فيسره لي وتقبله مني (وكيفية الأحرام ان يتجرد الرجل من مخيط الثياب، ويلبس ازارا معه رداء وعلان ان تيسر له ذلك. أما المرأة فتلبس ملباسها وتكشف كفيها ووجهها ان لم تخش الفتنة. ويسن تقليم الاظافر وحلق ما شعث تحت البطن «العانة» وتسريح الشعر والغسل قبل الأحرام وصلا ذكركتين بيدؤه بهما). ثم تلي قائلا: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. ولا تزال تكرر التلبية من وقت الى آخر، حتى ادا دخلت مكة قلت: اللهم ان هذا الحرم حرمك والامن أمنك والعبد عبدك، اللهم اني جئتكم من بلاد بعيدة بذنوب كثيرة راجياً أن تستقبلني بمحض عفوك وكرمك وأن تحرم جسدي على النار، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

(١) العمرة في اصطلاح الجميع زيارة البيت الحرام. وهي سنة عند المسلمين وأركانها احرام، وطواف، وسعى. وحلق أو تقصير، واس هار من مخصوص، وكثير من الحجاج اذا وصلوا إلى مكة يذهبون إلى التنعيم، وهو أقرب مكان في الحل على طريق المدينة قبل وادي فاطمة، ويبوصثون من ماء هناك ثم يحرمون بنية الاعتقاد ويصلون ركعتين سنة احرام العمرة، ثم يمدون إلى مكة فيطوفون ويسعون ثم يحلقون أو يقصرون ثم يتحللون.

وصحبه وسلم . فاذا جئت الى الحرم فادخل من باب السلام قائلا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا بالسلام وأدخلنا الجنة دار السلام بفضلِكَ يا ذا الجلال والاكرام . ثم سر نحو البيت من جهة الشرق قائلا : اللهم ان هذا الحرم حرمك وهذا الامن أمنك ، اللهم حرّم جسمي على النار . فاذا وقع بصرك على الكعبة فقل : بسم الله والله أكبر (ثلاثا) لا إله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . وادخل من باب شعبة قائلا : رَبِّ اَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَاَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاَجْعَلْ لِيْ مِنْ لَدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ، وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا . فاذا أتيت الحجر الاسود فاستقبله وقل : بسم الله الله أكرّمك وللحمد ، اللهم اغفر لي ذنبي وطهر لي قلبي واشرح لي صدري وعافني برحمتك فيمنّ عافى . ثم استلمه بيمينك وقبله (ان أمكنك) وانوالطواف قائلا : اللهم اني نويت طواف بيتك المعظم سبعة أشواط لوجهك الكريم ، اللهم يسرّ هالي وتقبلها مني ، ثم اطلق في طوافك قائلا : اللهم ايماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعا لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، اشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، اللهم ان هذا البيت بيتك والحرم حرمك والامن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار فاعذني منها يا عزيز يا غفار ، اللهم اني أعوذ بك من الكفر والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر ومن فتنة الحيا والممات ، اللهم اني أسألك العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدين والديار والآخرة ، اللهم أظلني تحت عرشك يوم لا ظل الا ظلك واسقني كأس نديك محمد صلى الله عليه وسلم شراباً هنيئاً مريئاً لا أظمأ بعدها أبداً ، اللهم اجعله حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً وذنوباً مغفوراً وتجارة لن تبور ، اللهم اني أعوذ بك من الشك والشرك والنفاق وسوء الاخلاق وسوء المنقلب وسوء المنظر في المال والاهل والولد ، اللهم اني عبدك وابن عبدك قد أتيتك بذنوب كثيرة ، اللهم ما كان لك منها فاغفره لي وما كان منها لعبادك فاحمله عني . وكلما قرئت من الحجر الاسود قل : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، فاذا حاذيته فقل مستلماً ان أمكنك أو مسلماً عليه بيمينك

من بُعد : بسم الله الله أكر ، ثم ادع الله تعالى بما تشاء من الادعية السابقة أو بما يحضرك من غيرها ، والاحسبك الذكر والتوحيد والاستغفار ويجمعها قولك : سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ويسن الاضطباع في طواف القدوم : وهو اخراج الذراع الايمن فوق الرداء الذي تشتمل به ، وكذلك يسن فيه الرمل (أى الجرى بخطى ضيقة اشارة الى أن الجسم ممتلى قوة وشهامة ، ولم تؤثر فيه عوامل مشقة السفر في سبيل الله) .

و بعد طوافك سبعة أشواط على هذا النظام توجه خلف مقام ابراهيم وصل ركعتين سنة الطواف ، ثم قل : اللهم انك دعوت عبادك الى يتسك الحرام وقد جئت طائعا لا مرك فاغفرلى وارحمنى ، اللهم اغفرلى ولوالدى وارحمهما كما ربيانى صغيرا ، اللهم اغفرلى ولجميع المؤمنين والمؤمنات الاحياء منهم والاموات . ثم اقصد الملتزم وقل اللهم يارب البيت العتيق أعتق رقابا ورقاب آئانا وأمهاتنا واخواننا وأولادنا من النار ، اللهم أحسن عاقبتنا فى الامور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم انى عبدك وابن عبدك واقف تحت بابك ملتزم لا عتاك متذل بين يديك أرجو رحمتك وأخشى عذابك ، اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واغفر لى دنبنى . ثم اذهب الى بئر زمزم فاشرب منها هنيئا مريئا . ثم توجه الى المسعى فاذا خرجت من باب الصفا فقل : بسم الله الرحمن الرحيم ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ثم اصعد على درجات الصفا وتوجه الى الكعبة فاذا شاهدتها قل : بسم الله الله أكبر والله الحمد ، ثم اسع الى المروة قائلا : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ، لا اله الا الله ولا نعبد الاياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، اللهم انى أعودك من عضال الداء وخيبة الرجاء وشماتة الاعداء وزوال النعمة ونزول النقمة ، ونهرول بين الميلين الاخضرين (وهما عمودان مبنيان فى جدار الحرم : واحد بجوار باب البغلة ، والآخر بجوار باب على ، ومسافة ما بينهما سبعون مترا) قائلا : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم انك أنت الاعز الاكرم ، ربنا آتينا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار يا عزيز يا غفار

يأرحم الراحمين ثم ادع الله بما شئت، حتى إذا أتيت المروة فاصعد على سلمها وتوجه إلى المسمى^(١) وادع بما شئت . وبعده هذا شوطاً من السعى . وهكذا تسمى في الاشواط السبعة . وتستحضر أثناء سعيك ذلك الجهد الذي أصابها جر في هرولتها طلباً للماء عند قدومها بولدها إلى هذه الفلاة ورحمة الله بها بعثورها على عين زمزم، فكان عليها استعمار مكة التي أصبحت قبلة للمسلمين في جميع أطراف الأرض . وإذا كنت مقتنعاً (محرم بالعمرة) حلقت أو قصرت وتحللت (فكسكت احرامك) ، حتى إذا كان يوم التروية (اليوم الذي قبل يوم عرفة) ، أحرمت للحج . أما ان كنت قارناً (أعني محرم بالحج والعمرة معاً) أو مفرداً (محرم بالحج فقط) ، بقيت باحرامك في مكة إلى يوم التروية ، ثم توجه إلى عرفة فتبيت فيها ان لم تكن أردت المبيت بمنى . وتقضى عرفة^(٢) يوم التاسع من ذي الحجة وجزاً من ليلة العاشر في الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل والتلبية والصلاة على النبي والاكثار من تلاوة سورة الاخلاص ومن قولك لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وتكثر من الدعاء والتضرع إلى الله بقبول حجك وغفران ذنبك خصوصاً بعد العصر . ويسن الجمع (تقديم العصر مع الظهر) مع الامام عرفة . فاذا أفاض الامام أو نائبه

(١) المسمى هو ما بين الصفا والمروة وطوله نحو أربع مائة وعشرين متراً، وهو شارع عمومي محاط بالبيوت والمحارن والدكاكين، مما يجعله مزدحماً بالناس زمن الموسم لاسيما عند دخول القوافل بالحجيج إلى مكة، وهنا لك يكثر الساعون وبصافون في سعيهم مشقات كثيرة . وعلى طاري المسمى وخصوصاً من حمة المروة دكاكين للحلاقين يخلق أو يقصر فيها من أراد ان يتحلل من احرامه .

(٢) يكفي في الوقوف بعرفة لحظة من يوم التاسع وليلة العاشر . ولو فاتك الوقوف فقد فاتك الحج من عامك ، فتحلل بعمرة ، وعليك قضاؤه في العام القابل ولو كان حجك فلاً . هذا عند أهل السنة ، أما عند الشيعة من الاعجام فحاجهم لو فاته الوقوف فانه لا يتحلل حتى يقضى حجه في عام قابل : لذلك تراهم يبالغون في الاحتياط لوقوفهم فيقفون في اليوم التاسع والعاشر، ولا يبدلون من عرفة الا بعد قليل من ليل العادي عشر .

ولقد فاتهم الوقوف سنة ١١٤٣ فقاموا بمكة محرمين حتى أدوا الفريضة سنة ١١٤٤، ولكن أهل مكة قاموا عليهم بدعوى أنهم وضعوا نجاسة في البيت وأرغموا الشريف محمد بن عبد الله بن سعيد على اصدار أمره باخراجهم من البلد الحرام فصاروا إلى الطائف وجدة وأقاموا بها إلى الموسم التالي .

من عرفة فانفرمعه الى المزدلفة، وان كنت مالكيّاً فحسبك من اقامتك بهامقدار ماتجمع فيه
 جمارك وهي تسع وأربعون حصاة في حجم الفولة تقريباً، وان كنت شافعيّاً فحسبك الاقامة
 فيها جزأ من نصف الليل الثاني، وان كنت حنفيّاً فبت بها وانزل بعد صلاة الصبح الى منى،
 وارم جمرة العقبة بسبع حصيات تقول في انائها: بسم الله الله أكبر رجماً للشيطان وحزبه،
 اللهم تصديقاً بكتابتك واتباعاً لسنة نبيك وخليتك عليهما الصلاة والسلام . ثم اذبح ان كان
 عليك هدي، ثم اخلق أو قصر وقل: الحمد لله الذي قضى عني سكي، اللهم زدني ايماناً و يقيناً،
 وهناك يحل لك كل ما حرّم عليك في الاحرام الا النساء والطيب . وفي اليوم الثاني ارم جمرة
 العقبة بعد الزوال، ثم ارم الجمرة الثانية ثم الثالثة بسبع حصيات في كل جمرة، وكذلك فعل
 في اليوم الثالث . ثم انزل الى مكة وطف طواف الافاضة، واسع ان لم تكن سعت بعد
 طواف السدوم . ومن الناس من ينزل في عاشر ذي الحجة الى مكة، حتى اذا طاف طواف
 الافاضة وسعى (ان كان عليه سعي) عاد من يومه الى منى، ونزل منها الى مكة بعد زوال اليوم
 الثالث عشر وهذا ينتهي الحج . و يقيم الحجاج في مكة أياماً يصلحون فيها من شؤونهم، ثم
 يمصدون السفر الى الزيارة أو العودة الى بلادهم .



محرمات الاحرام

يحرم على المحرم لبس المحيط وتغطية الرأس وازالة شعره بشف أو حلق، فان فعل شيئاً
 من ذلك متعمداً أو ناسياً فعليه الفدية (بذبح شاة) : الا اذا كان الشعر الذي أزيل منه يسيراً
 لا يتجاوز اثنتي عشرة شعرة فعليه حينئذ أن يتصدق بحفنة من بر . ويحرم عليه أيضاً تقليم
 أظافره، وعليه الفدية ان فعل : الا اذا كان ظفراً أو ظفرين فعليه أن يتصدق بمد أو مدين .
 ويحرم عليه الطيب في بده أو ثوبه أو فراشه أو أكله أو شربه أو في عطوس أو دهان، ويجب
 عليه به الفدية . ويحرم عليه صيد الحيوان أو قتله أو تنفيره أو اذاعه كما يحرم عليه قطع حشيش

الحرم وشجره وعليه به دم . ويحرم عليه الجماع وبه يفسد الحج .
 واذا فات الحاج شئ من أركان الحج أو العمرة أو شروطهما سهوا أو عمدا بطل حجّه
 وعمرته ، وإن فاته شئ من الواجبات وجب عليه دم لكل واجب تركه : وذلك بأن يذبح شاة
 في الحرم ، فإن عجز عن الذبح صام ثلاثة أيام في الحج من وقت احرامه الى يوم النحر ، وسبعة
 إذا رجع الى بلده . هذا إذا كان ترك شيئا منها قبل الوقوف ، أما إن تركه بعده فله صوم العشرة
 الايام بعد عودته الى وطنه . وإن فاته شئ من السنن أو المندوبات فعليه أن يتصدق .



الحائلي	الشافعي	المالكي	الحنفي	
ركن	ركن	ركن	شرط *	الاحرام للعمرة
«	«	«	ركن	طواف العمرة
«	«	«	واحد	السمي في العمرة
«	«	«	شرط	الاحرام للحج وهو يسهل الدخول فيه
سه	سه	واحد	سه	اللبية مع الاحرام واعادتها بعد السمي
واحد	واحد	«	واحد	الاحرام من المقاب
سه	سه	واحد	سه	طواف القدوم
شرط	شرط	«	واحد	البدء بالحجر في الطواف
«	«	شرط	«	ستر المودة في الطواف
«	«	«	«	الطهارة في الطواف من الحدثين
سه	سه	واحد	«	ركعتا الطواف
شرط	شرط	«	شرط	وقوع السمي بعد الطواف
سه	سه	«	سه	عدم الغسل من السمي والطواف
شرط	شرط	شرط	واحد	البدء في السمي من الضم
سه	سه	«	«	التمتع في الطواف والسمي مع القدرة
شرط	«	«	سه	موالات الانواء في الطواف والسمي
ركن	ركن	«	ركن	اليوموف بعرفة هاراً
واحد	واحد	«	واحد	اليوموف بعرفة ليلاً
سه	سه	«	«	الدفع من عرفته مع الامام (العمرة)
واحد	واحد	«	«	اليوموف عند دله
سه	سه	«	«	تأخير جمع المغرب والعشاء عند دله
واحد	واحد	«	«	المذاب يسمى اثاني أيام التشريق
«	«	«	«	رمي الجمار
سه	سه	«	«	عدم تأخير الرمي الى الليل
واحد	ركن	«	واحد	الحلق أو التقصير
سه	سه	«	«	الترتيب من الرمي والذبح والحلق
«	«	«	«	الحلق بالحرم وتوقيته بأيام الحجر
ركن	ركن	«	ركن	طواف الافصة
شرط	شرط	«	«	طواف السعة الاشواط
«	«	«	«	الطواف من وراء الحجر والتادروان
سه	سه	«	«	تأخير طواف الافصة عن الرمي
«	«	«	«	فعل طواف الافصة في أيام الحجر
ركن	ركن	«	«	السمي في الحج
واحد	واحد	«	«	طواف الوداع

* وقيل انه ركن

* الركن عندما رسة اشواط فقط

* الى آخر شهر ذي الحجة

الاحرام

يجب أن يكون الاحرام من الميقات . ولكل جهة ميقات معين : فقدر روى عن عمر وابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مهَلْ أهل الشام الجُحْفَة ، ومهَلْ أهل المدينة من ذى الحَاسِيَةِ ، ومهَلْ أهل نجد من قَرْن ، ومهَلْ أهل اليمن من تَلَمَلَم » والحجفة وتسمى مَهْيَعَة قرية صغيرة على طريق المدينة الى مكة ، وهى شرقى رابغ وعلى نحو ستة أميال منها (ويراد بأهل الشام هنا ما كان شمالى مكة) . ودو الخليفة (آثار على) منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خرج من المدينة المنورة لحج أو عُمْرة ، وكان عليه الصلاة والسلام يحج من هذا الطريق ويهل من هذا المكان ، واداعا الى المدينة دخل من طريق المعرس وهو اطن الوادى . وكان طريقه الى مكة على الصمراء و بدر وعسفان ، ومازله على غير منازل الحاج فى أيام هذه ، و ربما اتفقت فى كثير منها وان اختلفت اسمائها . وأما قرن المنازل فهو مشتبك طريق نجد مع طريق العافله من الطائف الى مكة ، وهو على مرحلة من الطائف ومرحلتين من مكة (وقد كان فى قرن لعدينان مع يحتنصر واحة كبيرة فى القرن الثالث عشر قبل الهجرة انتصروها الاشوريون على العرب ثم جمعوا عنهم الى بلادهم) . امادات عرق التى يحرم منها القادمون من نجد وهى غربى قرن ، والحد الفاصل بين نجد وتهامة ، قال الشاعر .

كَأَنَّ الْمَطَايَا لَمْ تَنْخُ سَهَامَةً * اِذَا صَعِدَتْ عَنْ دَاتِ عَرَقِ صَدُورِهَا

ويللمن «نخ أوله وثانيه جبل على ليلتين من مكة ، وهو فى طريق اليمن اليها ، وأودينه تنحدر الى البحر .

وهذه المواقيت للخارج عن حدودها ، أما الداخل فيها فيحرم من أى نقطة من الحل . ولا بد لنا ان نلاحظ أن جعله صلى الله عليه وسلم ميقات احرام أهل المدينة من ذى الحليفة ، التى هى على نحو عشرة مراحل من مكة ، فى حين أن مهل الجهات الاخرى لا يبعد عنها الا بنحو مرحلتين ، انما هو لزيادة عنايته صلى الله عليه وسلم بالاستعداد للدخول الى حرم الله ،

وأراد ذلك لاهل المدينة لانهم أحب الناس اليه وأقر بهم منه : وانما الاجر على قدر المشقة .
وكثير من الناس اذا عزموا على الحج يحرمون من بيوتهم ، وترى ذلك كثيرا في أهل المغرب .
وقد ذكر أن عبد الله بن عامر والى البصرة لعثمان بن عفان ، لما أكرمه الله بفتح بلاد الفرس
من أدناها الى أقصاها ، حتى وصلت فتوحاته الى حدود الهند شرقا ونحوم سبيلها شمالا والمحيط
الهندي جنوبا ، قال له أحد خاصته : لم يفتح الله لاحد ما فتح عليك : فقال لا جرم لأجعان
شكرى الله أن أخرج مُحْرَمًا من موقفي هذا وأحرم بعمرة من نيسابور .

لباس الاحرام

كان الداس قديما يصنعون ملابسهم من القطن أو الكتان أو جلود الحيوان بحال بسيطة
جدا . والمصريون كانوا يستعملون في أول أمرهم المنزر ثم البرس : وهو قطعة من المماش
تلقى على الكتاف ، وتربط بحزام وترسل الى الركبتين في العامة أو الى أسفل منها في الخاصة .
حتى اذا ترقى الدولة في عمرائها أطلوا من ذلك البرس الى السكعين ، ولبسوا من تحته قميصا
لأحكام له أخذوه عن الانثوبيين^(١) . وكانوا في مبدا أمرهم يلونون ملابسهم بلون واحد
(أخضر أو أزرق أو أحمر) ، ثم اتهموا استعمال كثير من الالوان في ثيابهم مع ما كانوا يوشون
به دوائرها بالاشربة المنقوشة .

أما الاشوريون فقد كانوا يشتغلون بقطعة كبيرة من القماش ، ويمرون بها من تحت ابطهم
الى يمين و يغطون بها الصدر ، ثم يرسلونها على السكف اليسر ، حيث تثبت طرفها اما بعقدة أو
بمشبك (انظر سطر عشرين من صفحة ١١٥٣ من الجزء الثاني من دائرة المعارف الفرنسية
الكبرى) . ثم غيروا هذا الزي بأن لبسوا قميصا صغيرا ومن فوقه شئ يشبه العباءة . والاعجام
كانوا يزيدون على ذلك سراويل واسعة .

(١) هم سكان اثيوبيا : وهي مملكة قديمة كانت في حوض مصر في المنطقة الى بها الحبشة
وما والاها شرقا الى السودان ، وشمالا وعربا الى حوض عظيم من السودان المصري .

واليونان كانوا يلبسون رداء طويلاً واسعاً ويمرون به من تحت ابطنهم الايمن ، بعد أن يلقوا به وسطهم ، ثم يرسلونه على ظهرهم بعد أن يغطوا به كتفهم الآخر . ثم صاروا يشملون به الجسم جميعه : ذلك بانهم كانوا يأتون بهذا الرداء الطويل ويربطون طرفيه ، ثم يدخلون ذراعهم الايمن مع الرأس من فتحة ما بينهما ، بحيث تكون العقدة على الكتف الايسر ، ثم يلف الجسم بباقي هذه الشملة ويسمونها شيون (Chion) ، كما تراه الى اليوم في عرب البادية المصرية خصوصاً عرب المغرب ، ولا شك في أنهم أخذوا هذا الزي من الرومانيين أو الفرطاجيين ، ولبت فيهم على بداوته الاولى الى الآن . وهذا الشكل يوجد منه صور كثيرة على الآثار الرومانية ، وقد شاهدت شيئاً مماثلة تماماً على قاعدة المسلة التي في القسطنطينية في ميدان السلطان أحمد ، وعلى بعض النواويس الموجودة في متحف الاستانة ، وفي النقوش الموجودة في سقف جامع القهرية (القهرية) : وهو أول كنيسة بنيت في الاستانة وحولت الى مسجد بعد الفتح .

أما دار الآثار المصرية فقد شاهدت فيها أن ملابس المصريين في قديم الزمان كانت تنحصر في لبس المزّر : وهو فوطة يلف بها النصف الاسفل من الجسم على هيئة ما يكون الرجل في أيامنا هذه داخل الحمامات العمومية ^(١) ، وأخص بالذكر مزارأيته على هذه الصورة تمثل كفرين المشهور بشيخ البلد في القاعة حرف (١٣) ، وهو باني هرم الجيزة الثاني ، ومن ملوك العائلة الرابعة المصرية التي كانت توجد في القرن الخمسين قبل المسيح ، ثم تمثل (رعنفر) من العائلة الخامسة في القاعة حرف (١) ، ثم تمثل أمور وأمون وهما من معبودات المصريين ، ثم صورة للمسيح بالدخلة الصغيرة للطريقة النمنية تمثله بمزّر بسيط . ويوجد غير ذلك كثير من التماثيل البرنزية والنحاسية التي في دواليب المتحف لا بسة شبه احرام كامل ، وقد شاهدت من بينهما تماثلاً من الفخار للعدراء وهي ملتحفة بشملة تغطي جميع جسمها وانها على يدها .

أما القاعات الرومانية واليونانية التي على يمين صحن المتحف من الدور الاول ، ففيها تماثيل

(١) هذا اللباس شائع للآر في أغلب بلاد السودان وغيرها من البلاد التي لا زال على فطرتها الاولى ، وشاهده على كثير من أعراب البادية في احرامهم وفي غير احرامهم .

الاحرام باشكاله التامة : وترى في وسط القاعة حرف (T)، امرأة رومانية من الرخام الابيض الوردي بهيئة احرام كامل : أعني أنها مملوكة برداء أبيض يغطي كل جسمها ما عدا رأسها . ويهرب منها مثال رجل من الجرايت الاسود ملتحف برداء قد انحسر عن ذراعه الايمن : وهو ما يسمونه في الاحرام بالاضطباع، وفي رجله إعلان لا يغطيان ظاهر القدم، اللهم الاعرؤة يدخل فيها الابهام، ويخرج منها سيران رقيقان يتصالبان على مادون الكعبين، ويربطان فيما دون العقب : وهي ما يسمونها في المحاز بالنعال الشرقية، التي أجمعت المذاهب الاربع على تحية الاحرام بها . وهذه العمل تراها أيضاً في قدم منفصلة عن جسمها، موضوعة على يسار الداخل في القاعة حرف (R) .

ومتاحف القصور الجميلة في جميع انحاء الدنيا غاصة بصور الناس في العهد القديم وهم في لباسهم البسيط الذي عاين لباس الاحرام بل هو بعينه . والآن يمثلون هذا اللباس تماماً في شحيص الروايات التي تشخص الزمن المديم الروماني أو اليوناني، وخصوصاً في تمثيل صور الانبياء والحكماء .

ويقال ان اليهود كانوا يستعملون في معابدهم لبس غير الخيط ، أما الآن فيكشفون بوضع رداء على أكتافهم من الصوف يسمونه تلبيت أو تسيسوت، لينشبهوا بموسى عليه السلام في ساطة لباسه .

ومن هذا ترى أن ملابس الناس في الزمن المديم، بل في جميع أدوار الاعمم الحالية حتى في ابان حضارتها، كانت على هذه الساطة . وليس هذا بغريب، فان آلة الخياطة ما كانت معروفة في تلك الارمان : ولما كان الناس يستعملون أولاً في خياطة ملابسهم شوك الاسماك وشل النحل ، ثم توصلوا الى استعمال الابراخديده، أما البراني من الصلب فانها لم تبتدع الا في القرن الرابع عشر لله سببح، ولم يذع استعمالها في أوربا الا في القرن السادس عشر .

وكان أسقط تلك الملابس شكلاً ونوعاً ملابس الاشور بين الذين هم اخوان الكلدانيين، الذين خرج منهم ابراهيم (لان كلهم من الجنس السامي) : وعليه فلباس الاحرام كان هو هو بذاته ذلك اللباس البسيط الذي كان يلبسه ابراهيم عليه السلام حين أمره الله تعالى بالحج قائلا : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

وما زالت هذه السنة قائمة في حج البيت الى الان . وأما كونه أبيض فلا ن لون البياض شعار الطهارة والنظافة ، والا فالعرض من الاحرام لبس غير المخيط مطلما : اشارة الى أن الانسان خرج الى ربه من زخارف الدنيا وما فيها الى بساطة الوجود و بداوته ، خرج الى ربه من أهة الحياة ورفهها ، وتمثل بين يديه تعالى بحال رجع فيها الى طبيعة الوجود البشري من حيث البساطة التامة ، التي كان مظهرها ذلك الزي الذي يمثل الاشتراكية الحقة بكل معايبها ، فيستوى فيه الصعلوك والملوك ، هذا الزي الذي يستقبل الانسان في مهده و يشيعه الى لحده ، حتى كأنه يقول لربه : اللهم انى قد نزعمت عن نفسى ظاهرها وباطنها رداء قد وشتته الا باطيل وموهته الا ضاليل ، وخرجت اليك وقد جردت نفسى لك مما أملك طامعا في بيل . الا أملك من نعم ان عشت أعود بها الى حياة جديدة كلها فضيلة وخير وبركة ، وان مت أقضى بها في سبيلك ومحبتك وطاعتك ، وأنتقل بها الى دار السعادة الحقيقية فأحشر في زمرة المعبولين والصديقين ، زمرة الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . وهلا رأيت ذلك اللباس الاكثير وسى البسيط (لباس الرهبان) الذى رسم عليه كل من تمثال غليوم الثانى أمبراطور المانيا والامراطورة فرينته ، وأرسل بهما فوضعا في الملجأ الالماني الذى نى في بيت المقدس ؟ وسافر الرس ايتل لافتتاحه رسمياً باليابا عن والده الامراطور في شهر ابريل الماضى سنة ١٩١٠ .

على أنه لا يعزب عن فطنتك وينبوع فكرتك أن الاطباء وجدوا أخيراً أن الانسان لا بدله من تعرض جسمه الى الهواء المطلق ومؤثرات الحوئحوشهر من كل سنة ، يسترجع فيه الجسم قوته ويستعيد نشاطه ، بفضل ملاصقة أو كسجين الهواء لجميع مسام جسمانه : وبهذه العملية يحترق ما في الدم من السكر بون الذى تشبع به أثناء دورته من الفصلا الى تخلفت في الجسم ، فيعود الى القلب دماً نقياً زكياً صالحاً لتغذية الحياة بمادة القوة ، التي تكون بها العافية التامة والصحة العامة ، التي هي فوام الوجود بل الحياة بمجمع معايبها .

لذلك ترى الاور وپاويين ، وعلى الخصوص الانجليز (لا اعتنائهم بصحتهم أكثر من غيرهم) يعمدون كل سنة الى الحبال ، أو الى شواطىء البحار ، فيخلعون ثيابهم الا ما يستر عورتهم

و يقعون على هذه الحال شهر أو أكثر يستعيدون فيه ما فقدوه من قواهم في سبيل العمل طول سنتهم . وكثيرا ما رأيت الفرنجة في هذه الأماكن الصحية على شاطئ البحر ، حفاة عراة معرضين بكل جسمهم للهواء وبرودة الجو وحرارة الشمس جملة ساعات ، وليس عليهم إلا تلك العانة المستعمارة التي يغطون بها السبيلين ، ويسمون ذلك بعلاج الطبيعة أو علاج الهواء ('Cured' air) . ولا غرابة إذا رجعت بنا المدينة الحديثة الى كثير من العوائد التي كان عليها القدماء في بداوتهم مما يسميه الجهلاء خشونة وتوحشاً .

وإذا فلا عرة بما يقوله المخرفون أو المتحاملون على الدين الاسلامي المتعصبون عليه ، من أن الاحرام هو سبب كثير من الامراض التي تعترى الحاج بمكة وعرفة ! ولو أنصفوا لسبوا كل ما يقع لبعض المحرمين من البرودة شتاء والاحتقانات الدماغية صيفاً الى علته الحقيقية وهو الفقر ، الذي يموت منه يومياً آلاف من الناس على قوارع الطرق في عواصم الدنيا المتقدمة . ولقد شاهدت في بعض أسفارى معاصمة من عواصم أوروبا يمشون يموت من البرد والناس حوله ينظرون الى ما يعترى جسمه من انفعالات الموت ، بين ضاحك منه وساخط عليه !! وإذا فالمحرم الذي يحرم بثوب واحد يكون من عادته لبس ثوب واحد ، والافلا حجر عليه أن يلبس ماشاء من غير محيط ، أو يضع على رأسه مظلة ، أو يلبس ماشاء من محيط ويهدى عنه بما يساعد على حياة البائس والفقير .

خروج الحجيج الى عرفة وافاضته منها

في السابع والثامن من شهر ذي الحجة يتبدى الناس في الخروج من مكة الى عرفة على جمالهم أو حميرهم أو أقدامهم ، ويتجهون الى طريق الشرق مارين بالمعل ، ثم يسرون نحو الشرق بميل خفيف الى الجنوب بين جبلين في واد عرضه يختلف من مائة متر الى خمسمائة ، وحركة الناس فيه لا تنقطع في هذين اليومين . وفي نهاية مكة من هذه الجهة « البيضاء » وفيها قصر الشريف عبد المطلب على يمين السالك الى عرفة ، يحيط به بستان أغلب أشجاره

من شجر السدر . و بعد نحو ثلاثة كيلومترات منه تـجـد جـبـل النـور عـلى يـسـارك ، و قـمـتـه عـالـيـة جـد أـقـمـت عـلـيـها قـبـة بـيـضـاء ضـار بـة بـنـور هـا الـى السـماء : و كان هـذا المـكـان يـتـعـبـد الـنـاس فـيـه قـبـل الـاسـلام ، و تـعـبـد بـه النـبـى صـلى اللـه عـلـيـه و سـلـم قـبـل بـعثـتـه و اتـدأ نـزول الوـحـى عـلـيـه فـيـه . ثم تـنـمـط قـلـيـلاً نـحو الجـنـوب ، و بـعـد نـحو حـمـسـة كـيـلـومـتـرات تـصـل الـى مـنـى ، فـتـرى فـى مـبـدأ دـخـولك فـى طـر يـقـهـا العـمـومـى عـلى الـيسـار جـمـرة العـقـبة : و هـى حـائـط مـن الـحـجـار تـقـاعـه نـحو ثـلـاثـة أـمـتـار فـى عـرض نـحو مـتـر ثـنـيـن ، قـد أـقـمـ عـلى قـطـعـة مـن صـخـرة مـر تـنـمـة عـن الـارـض بـنـحو مـتـر و بـصـف و مـن أـسـفـل هـذا الحـائـط حـوض مـن البـنـاء تـسـقـط الـيـه حـجـارة الرـجـم (الجـمار) الـذى يـقـوم الـحـاج بـعـمـليـتـه عـند الـافـاضـة مـن عـرـفـة . و لـقـد كـانـت مـنـى ^(١) مـكـاناً مـقـدـساً عـند عـرب الجـاهـليـة و كان بـهـا لـهـم بـيـت لا صـنـام لـهـم . و هـى الـآن مـكـان مـتـسـع طـولـه مـن الـغـرب الـى الـشـرق ، قـد أـقـمـت فـيـه بـيـوت أـغـلـبـها لـا شـراف مـكـة و أغـنيـائـهـم ، يـسـكن بـعض الـحـجـاج فـيـها بـالـاجـرة عـند ذـهـابـهـم الـى عـرـفـة أو عـودـتـهـم مـنـها ، أـما غـالب الـحـجـج فـانـه يـكـون مـحـيـا بـالعـضـاء الـدى يـحـيـط بـهـا ، و فـى غـيـر المـوسـم لا يـكـون فـيـها أحـد فـى الغـالب . و فـى هـذه المـديـنة شـارـعـان مـتـوازيـان عـلى طـول الوادى . و فـى شـارـعـها العـمـومـى تـرى الـحـمـرتـين الـاخـريـن فـى و سـط الطـر يـق و ا حـدة بـعـد الـاخـرى . و بـعـد هـذه المـساكن الـى الـشـرق تـرى الوادى يـتـسـع مـن الجـنـوب عـلى مـسـافـة اثـنـيـن كـيـلـومـتـر ، و تـشـاهـد بـه تـلـى يـمـيـنك مـسـجـد الخـيـف ، ثم المـصـطـبـة الـتى تـنـصـب فـيـها خـيـم الشـريـف و الـوالى مـدة اقامـتـهـما فـى مـنـى زـمن الـحـج . و مـن ثم يـضـيـق الوادى و يـسـمـى بـوادى حـسـر ، حـتى اذ اوصل الـى المـزدلفـة و هـى عـلى مـسـافـة سـاعـتـين مـن مـنـى أخـذ فـى الـاتـسـاع مـرة أخـرى . و هـالك تـرى عـلى يـمـيـنك المـشـعـر الحـرام الـذى يـحـبـب الـوقـوف عـندـه فـى النـزول مـن عـرـفـة ، و فـى هـذه الـجـهـة ^(٢) مـسـجـد عـلى جـبـل قـزح عـمـّـرـه السـلـطـان قايتـباى ، و مـن هـالك يـضـيـق الوادى ثـانـياً و يـسـمـى بـوادى عُـرَـة (بـضم العـين و فـتـح الـراء و النـون) حـتى اذ اقـرب مـن مـسـجـد نـمـرة (و يـسـمـى مـسـجـد عـرـفـة أو مـسـجـد ابراهيم) انـفـتـحـت أـرجـاءـه الـى الشـمال و الجـنـوب . و هـذا المـسـجـد كـبـير قـد أحـاطـت بـه

(١) لا يـبـعد أن يـكـون العـرب أـخذوا هـذا الـاسـم مـن جـزيرة مـا الـى فـيـها هـيـكل بـودا قـرب حـريـرة سـيـلان .

(٢) المـو حـود مـن هـذا المـسـجـد الحـائـط العـربى (الـدى هـو جـهـة القـلـة) فـقـط .

البواكي في جهاته الاربع من داخله، وعمّره قايّتهاى عمارة تشكر . ونصفه الغربى (الذى الى مكة) فى الحرم والنصف الآخر فى الحِلّ، وبوسطه مجرى ماء يُسَيَّر اليه زمن الحج من محرى عين زيدة . وفى شمال هذا المسجد نفليل الى الشرق ترى العالمين : وهما عمودان من البناء بعيدان عن بعضهما ، بارتفاع نحو خمسة أمتار فى عرض نحو ثلاثة ، قد أقيما فى فضاء الوادى للدلالة على حدود عرفة من الغرب ، وهنالك تحدد الجبل قد حلق على الوادى وقفله أمامك من الشرق بشكل فوس كبير وهو ما يسمونه جبل عرفة . وعلى طرف القوس من جهة الجنوب الطريق الى الطائف على كرا . وفى طرفه من جهة الشمال لسان يبرز الى الغرب يسمونه جبل الرحمة ، وسفحه الحنوى هو حد عرفة من الشمال ، وفيه صخرة عالية كان ينف عليها الرسول صلوات الله عليه فى حجه ليخطب فى فومه : وهى مكان وقوف الخطيب الى الآن . وفى أعلى جبل الرحمة مناره يعلو فيها ليلدة عرفة مصابيح لارشاد السالكين اليه ، وفى أسفله مصلى تسمى مسجد الصخرات لان فى أرضيتها صخور كبيرة الى جانب بعضها يقال ان النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيها ، وبحوارها ترى محرى عين زيدة الذى سيرته الى مكة .

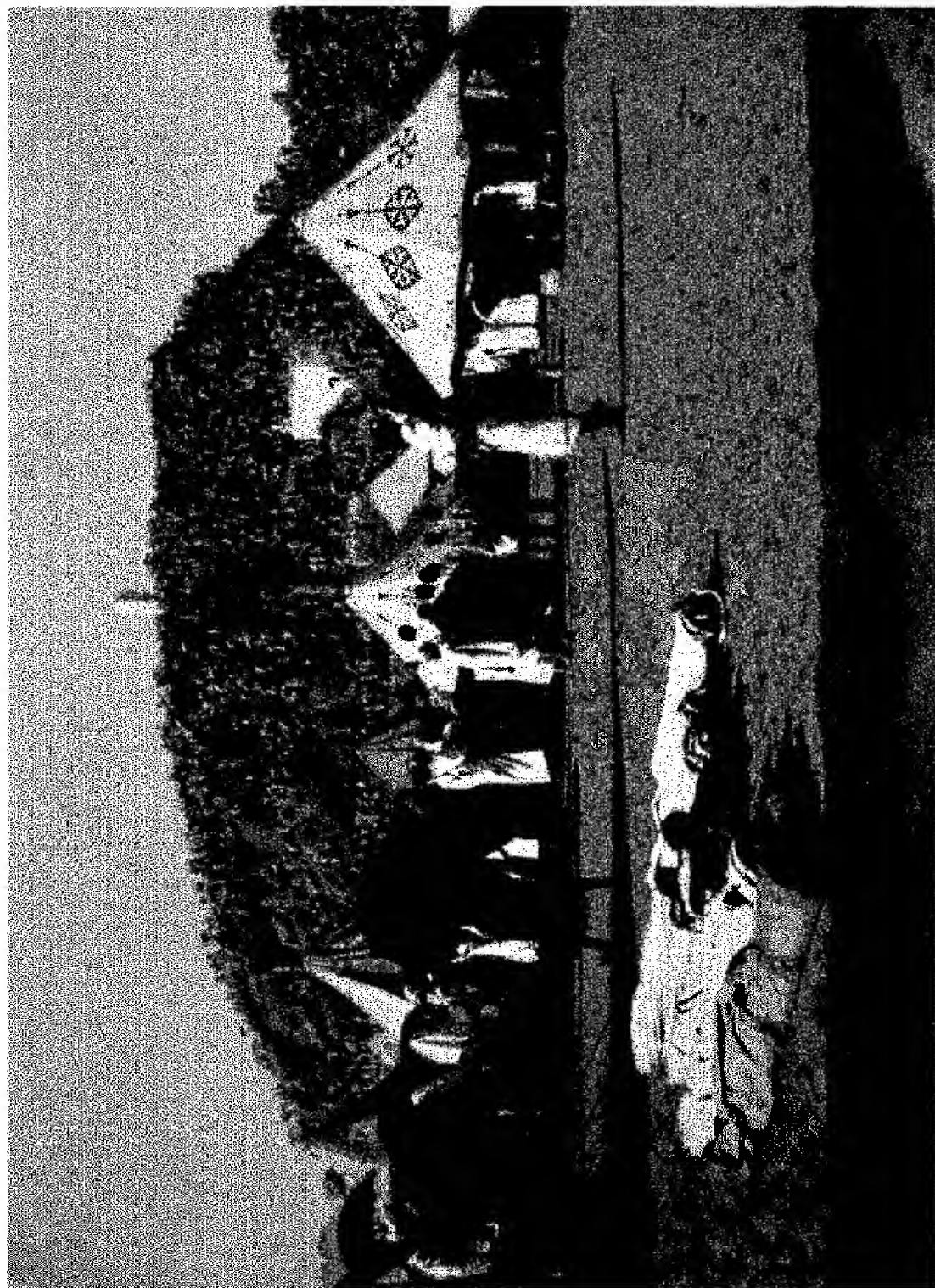
الوقوف بعرفة

عدو سول الحجاج الى هذا الوادى ينزل ركب الحملين يحياهم قريبا من جبل الرحمة يليهما مضارب الحجاج على اختلاف أجاسهم . وعلى سفح عرفة من عاليه الى جبل الرحمة يرى جميع الاعراب محتشدين الى جوف الجبل بعضهم فوق بعض كالحجر المرصوص ، أما باقى الحجيج فانه ينصب الخيام فى بطن الوادى الذى يزدحم اليه الناس حتى لا تكاد يرى فيه مكانا حاليما من واقف أوقاعد ، وجمالهم وحميرهم مربوطة بحوارهم ، وترى الكل فى صعيد واحد ، حتى يتعذر على الانسان السير الى أى جهة أراد ولول ضرورة فى نفسه . ولو كان مولانا الشريف يأمر بتقسيم وادى عرفة الى أحذية أفقية يتسمها شارع رأسى ، ويخصص

كل حذاء لسكنى جماعة من الحجيج ، وجماهم من ورائهم ، وتوضع لذلك علامات من البناء لا يتجاوزها الحجاج في وضع مضاربهم ، ولا الحمتالة في ربط حمالهم ، ويعين لهذا النظام من يحفظه مع الدقة ، لكان له شكر الله والملائكة والناس أجمعين . وفي سعة الوادي ما يضمن لدولته اقامة الكل على الراحة التامة ، لان هذا التراحم انما سببه التقرب من مجرى الماء ، ومن السوق الذي تراه بجوار مسجد الصخرات (ويباع فيه بعض الاغذية الضرورية) . وربما كان لتراحمهم سبب آخر وهو خوفهم من الاعراب ، الذين يكون لهم من سعة هذا الرحاب عون على النهب والسلب . وبسبب هذا التراحم يضل الناس عن أمكتهم اذا تركوها لأمراً ما ، ولذلك تراهم ينادون على بعضهم إماناً سائهم ، أو نالقاط اصطلاح عليها أهل كل جهة ، حتى اذا سمعها واحد منهم أجابه بصوت عال وقصد مصدر الصوت . وهذه الحركة لا تكاد تنقطع مدة الاقامة بعرفة .

ويحذر بدولة مولانا الشريفة إصدار أمره الكريم بالعناية التامة بملاحظة فتحات محرى عين زبيدة ، وتعيين خدمة مخصوصين لها لا يدعون أحد أمن الحجاج بعثها أو يغتسل فيها ، خصوصاً أولئك المحذومين الدين يغتسلون في الحوض الذي يسمونه بحوض المحذومين زاعمين أن فيه شفاءهم ، وهم بعملهم هذا انما يضررون اخوانهم المسلمين بنقل العدوى اليهم . ولا يعزب عن فكره السامي أن علماء البكتريولوجيا ذهبوا الى أن الماء هو أكرم وصل للعدوى وخصوصاً في وباء الكوليرا : سأل الله تعالى السلامة لعاده .

ويوم الوقوف هو التاسع من ذي الحجة مع قليل من ليلة العاشر اتفاق المسلمين . فادا ثبت هذا اليوم عندنا قاضى بالصفة الشرعية وقف جميع المسلمين على اختلافهم في الجدييات والمذاهب من غير أن يكون للشك تأثر عليهم ، الا الشيعة من الاعجام فانهم لو حصل عندهم أدنى شك في رؤية هلال ذي الحجة ، بمعنى أنه لم يشاهد منهم الجم الغفير ، وهو يوم التاسع والعاشر احتياطاً . وفي عرفة ترى الناس مشتغلين كل شأنه ، وهم وان انفصلوا في هياكلهم ، فان قلوبهم مرتبطة ارتباط ذرات الجسم الواحد ببعضها . وبعد صلاة العصر يتحرك الحاملان بحرسهما الى منحدر جبل الرحمة وينهض خطيب عرفة (وهو في الغالب قاضي مكة



BOENKE & ANDERER, CAIRO

التجاني على حبب الالرحمة بفرقايت

الذى يتعين من قبل السلطان) ، فيصعد بناقته من طريق حلزوني الى صخرة في صدر هذا الجبل ، ويخطب بيابة عن خليفة رسول الله خطبة يعلم الناس فيها مناسك الحج ويكثر فيها من الدعاء والتلبية ، ومن دونه مبالغون بأيديهم مناديل يشيرون بها في كل تلبية الى الواقفين دون الصخرة فيقول الكل « لبيك اللهم لبيك » ، بصوت يكاد يصعد بالا حشاء الى عنان السماء ، فيالها من ساعة ترى الناس فيها قد تجردوا بالمرّة عن أنفسهم ، فلا يكادون يشعرون بما يحيط بهم من معالم الحياة ، وقد تغلب وجدانهم على وجودهم وظهرت روحانيتهم على جسمانياتهم ، حتى كأنهم في لباسهم الابيض الطاهر النقي ملائكة لله في هذا الوادى الذى يردد أصواتهم وانتهالانهم الى واجب الوجود ، الى الملك المعبود ، الى الواحد الا حد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فاد اتراجع اليهم صدى هذا الصوت احدث في نفوسهم هزة تدق لها قلوبهم وتضطرب منها أفئدتهم خشية من رب الارباب ومالك الرقاب ، هنالك تسوح النفوس في ظروفيها وبتكش الحسوم على هياكلها من رهبوت هذا الملكوت ، وحشاشات القلوب تنصب من آفاق عيونهم أسفا على ما اقترفوه من ذنوب وعيوب !! وتتلاحق الارواح الى التعلق بأستار رحمت رحمانها ، تائبة مستغفرة ضارعة اليه تعالى تقبلها في ساحه عفرانه ، مؤملة في عظيم كرمه واحسانه ، ولا تلبث أن تتراجع وهي على يقين من قبولها في ساحة الرحيم الرحمن ، وقد وقر في نفوس ذويها حب الفضيلة وبغض الرذيلة ، وحسب الانسان من فضيلة الحج هذه الحسنة الجميلة . ويستمر الناس على هذه الحال حتى اذا غابت الشمس في الافق ، أطلق صاروخ من قبل الخطيب اعلانياً بتمام الموقف . عندها تهجر الحامل بين ضروب المدافع وعزف الموسيقى ، وأصوات الابتهالات ، وكثرة الدعوات ، وانهمال العسرات ، ويكون كل حاج قبل ذلك قد حمل حوله واستعد للافاضة ، فتتفر الناس مرة واحدة من عرفات مسرورين هاتفين بهتاف الفرح والحبور حتى اذا وصلوا الى ذينك العلمين خرجوا من بينهما . وهناك ترى الزحام لا يوصف والناس في حركة هائلة الى المزدلفة . فاذا وصلوها نزلوا بها ، وأقامها الحنفية الى ما بعد صلاة الصبح ، والشافعية الى ما بعد نصف الليل ، أما المالكية فحسبهم من الاقامة بها قد رسا ساعة يجمعون

فيها جمارهم من الحصى الموجود في أرضية واديها : وهي تسع وأربعون حصاة في قدر القولة يتناولها الحاج من رمال تلك الصحراء الواسعة ، ليرجم بها في منى التي ينزل إليها من ليلته . وأغلب الحجاج يقدون مالكا ويسرعون في النزول إليها حتى يجذوا لهم فيها مكاناً يقيمون به على راحتهم . وفي صباح النحر وهو يوم العيد لا كرى يكون عموم الحجاج وصلوا إلى منى . ويخيم الحمل المصري في شمال المصطبة التي فيها نخيم الشريف ، والحمل الشامي إلى جوار مسجد الخيف : وهو مسجد كبير ذو فضاء واسع مربع يحيط به سور متسع ، وإلى حائطه الغربي رواق على طوله ، قام سقفه على أعمدة من البناء . وباب هذا المسجد إلى الشمال ، وفي وسط صحنه تجاه الباب قبة كبيرة أقيمت على مكان يصلي الناس فيه ، وهو المكان الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبحوار هذه القبة مأذنة صغيرة بناها السلطان قايتباي سنة ٨٨٤ ، وبنى بجانب هذا المسجد داراً كان ينزل إليها أمير الحاج المصري فاندثرت ، ولكن المسجد باق على حاله ، إلا أنه يحتاج من داخل سورده وخارجه إلى عناية ذوى الشأن ، حتى يكون نظيفاً بعيداً عن عبث العابثين ، ان لم يكن لموجبات الدين فلموجبات الصحة العمومية ، وخصوصاً في منى التي تكتب فيها صحيفة الحاج الصحية وتساق على أجنحة الرق إلى جميع أقطار المسكونة .

وبمجرد وصول الحجاج إلى منى يقصدون من فورهم حمرة العقبة فيرمونها وينحرون ويحلقون أو يقصرون ثم يلبسون ملابسهم : وعندها يحل لهم كل شيء ماعدا النساء والطيب . ودبائح القران تدبج في شرقى منى وتلقى في حفرة تحفر هناك لهذا الغرض وكلما امتلأت حفرة بجثث القرابين ردمت وحفرت غيرها وهكذا ، ويكون لها بعد الحج رائحة كريهة جداً ، ولو كانت الحكومة تعنى بجمع ما يتراكم فيها من العظام مع ما يتخلف منها حول مكة ، وتبيعه لأحدى الشركات بجدة ، وتصرف ثمنه في تحسين طرق الحجاج ونظافة شوارع مكة لكان فيه فائدة كبيرة . وقد طلبت شركات كثيرة التزام ذلك من الحكومة السابقة فلم يقبل طلبها . أما الحكومة الحالية فاظن انها لا ترى مانعاً في ذلك مادام في مصلحة البلاد

و يفيم الحجاج معنى الى عصر اليوم الثالث عشر من ذى الحجة ، ثم ينزلون الى مكة لاداء
الركن الباقي من أركان الحج وهو طواف الافصة والسعى لمن لم يكونوا سمعوا بعد طواف القدوم ،
ومن الناس من ينزل الى مكة أوّل يوم بعد رمى جمرة العقبة لاستكمال جميع مناسك الحج ، ثم
يرجعون من يومهم الى ممي فيقيمون فيها مع اخوانهم باني وبالك أيام التسري ، ويرجعون في
كل يوم منهما الحمرات الثلاث ، وفي عصر اليوم الثالث ينزلون الى مكة .

الرجم

الرجم في اصطلاح الحجيج رمى غرض مخصوص في منى بسبع حصيات في حجم
العولة، وهذا الغرض يسمى جمرة . والجمرات ثلاث : جمرة العقبة ، والجمرة الوسطى ، والجمرة
الصغرى (ويسمىها العامة ابليس الكبير والوسطى والصغير) . ولكل جمرة مكان
مخصوص (مد كور في وصف الطريق الى عرفة) ، ورميها واجب باطلاق المذاهب : فيرمي
الحاج في أوّل أيامه معنى (يوم الاحية) جمرة العقبة وحدها ، ثم يرمي ثلاثتها في كل يوم من
اليومين التاليين ، فيكون جملة ما يرميه سبع حصيات في سبع (٤٩ حصاة) . ومكان
الجمرات تراه على الدوام عاصاً بالرامين فلا تصل اليه الا بمشقة عظيمة ، وكثيراً ما شاهد بين
هؤلاء الرماة ناساً يَجْمُرُونَ بِتَشَفٍّ شديد ، ومهم من يغفلو في ذلك فيرمي هذا الغرض
برصاص طينجته كأنما يرمي عدواً ألد ، والكل يتخيل أنه انما يرمي ذلك الشيطان الرجيم
الذى لا تحفى عداوته لبني الانسان ، فكانما هم بهذا الرمي يشهرون عليه حر باعوا بالما
سبق من إغوائهم ، و يقطعون كل صلة بينهم وبينه .

والعرب كانوا يرجمون هذه الجمرات الثلاث في حجهم قبل الاسلام ، لانهم كانوا يعتقدون
ان الله تعالى أوحى الى ابراهيم وهو في تلك الجهة بذبح ولده اسماعيل . فأخذه وسار ليصدع
بامر ربه فوسوس له الشيطان بأن لا يفعل ، فأخذ حصيات ورماء بها ، وكان ذلك في
المكان الذي به الجمرات الاولى ، فتركه وسار الى هاجر وأخذ يقبح لها عمل ابراهيم ، فاخذت

حجارة ورمته بها، وكان ذلك في مكان الحجرة الثانية . فذهب الى اسماعيل يشنع له عمل أبيه، فأخذ قبضة من الحصى ورماه بها، وكان ذلك في مكان الحجرة الثالثة . لذلك كانت ترجم العرب هذه الامكنة مشخصين ذلك الشيطان، وتابعهم عليه الاسلام، ولا غرابة في ذلك : لان الناموس الطبيعي يقضى بأن يكون كل معنى من المعاني مصدره المادة . وعليه فهذا الرمي المادى يوصل بلا شك لمعنى دقيق جليل في ذاته : هو تربية مأسكة جديدة في شخص الرامي وهي مخالفة شيطان النفس والاتعاد عن مسالك الشرور .

والرجم أمر قديم في الامم : قال الله تعالى في سورة الشعراء في احابه قوم نوح على اصباحه لهم « لئن لم ينته يانوح لتكون من المرجومين » . وقال تعالى في سورة هود في جواب أهل مدين على بصيحة نبيهم شعيب لهم « قالوا يا شعيب ما نعنه كثيرأ مما تقول وانا لترك فيما ضعينأ ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزير » .

وكان الرجم في بني اسرائيل ، وقد ورد في الآية ٢٤ و ٢٥ من الاسحاح السابع لسفر يشوع مانصه : « فأخذ يشوع عخان بن زارح والقصة والرداء ولسان الذهب وبيده وبناته ونوره وحميره وغممه وخميته وكل ماله وجميع اسرائيل معه، وصعدوا هم الى وادى عحور، فقال يشوع كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم ، فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة » .

والنصارى يرمجون مكان شجرة التين التي لعنها المسيح حينما أراد أن يأكل منها ولم يجد فيها ثمراً ، أنظر آية ١٩ من الاسحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى . ومكان هذه الشجرة على طريق الذهاب من بت المقدس الى نهر الازدُن في الوادى الذى ينزل على يسار جبل الزيتون .

والعرب كانوا يرمجون في الحاهلية من سخطوا عليه حياً وميتاً . فكانوا يرمجون الزانى المحصن حياً لشناعة عمله، وتاعتهم عليه الشريعة الغراء ، كما كانوا يرمجون قبور من ينفمون عليهم : وهم يرمجون من القرن الاول قبل الهجرة الى الآن قرأى رجال في المغمس بن مكة والطائف، لانه كان يقود جيش أبرهة الى مكة، فسات في هذا المكان قبل وصوله اليها .

الحجاج يزعمون الحمرات بالبحرمة الوسيطى

KOSHE & ANDERER CURIO



قال جرير يرمي جوالفرزدق :

اذا مات الفرزدق فارجموه * كما يرمون قبر أبي رغال

والمسلمون يرمون قبر أبي لهب خارج مكة لانه عدو نبينهم صلى الله عليه وسلم ، ويرمون قبر أبي جهينة في طريق العمرة لانه كان من حكام مكة الظالمين ، ويرمون قبر يزيد بن معاوية ^(١) لسوء سيرته وشناعة فعلته مع آل البيت رضوان الله عليهم ، ويرجون قبر مسلم ابن عوف ^(٢) في ثنية المشلل بين مكة والمدينة ، لانه فتن باهل المدينة ولم يراع حرمة رسول الله في صحابته وجيرته . وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب عند ذكر اليمن وملوكها ، انه يوجد في طريق العراق الى مكة نحو النظامية ، موضع يعرف بقبر العبادي ^(٣) ترجمه المارة ؟

(١) قبر يزيد بن معاوية بدمشق الشام في حارة الحالية شرق مقبرة الباب الصغير يفصل بينهما طريق . وهو مكان مسور يبلغ طوله نحو ثمانية أمار في عرص أربعه وعليه تل من حجارة الرحم يبلغ ارتفاعه نحو ستة أمار ، وأهل دمشق يعصونه . ويهدم الماسة أذكر لك اني ررت في هذه المقبرة قبر معاوية بن أبي سفيان وهو في قمة بسيطة وقد دفن الى حوارده بعض التابعين ، وقبر عبد الملك بن مروان نحوارة يحيط به سور مهدم من الطوبالي ولا سقف له !! وهما لك سرخيالي عظم ملكهم وقجامة سلطانهم وكبير ابيتهم وحليل مطهرهم في حياتهم وهو مالا يطق على ما نراه من حقارة ممارهم الحالية التي لم تقم لها من مدأ حكم العباسيين قئمة ! سبحان من يبدد الملك بمر من يشاء ويدل من يشاء .

(٢) مسلم بن عقبة هو أعور بني مرة سيرة يزيد بن معاوية الى مكة لقيل عبد الله بن الزبير وأمره أن يحمل طريقه على المدينة ، وكان أهلها قد سدوا طاعته ، وقال له ان هم أطاعوك اتركهم الى مكة والا حاربهم وأوقع بهم . فلما وصل اليها أقبلوا أنوارها في وجهه وكانوا قد خندقوا عليها لما بلغهم تحركه اليهم . فدخلها عوة في يوم الثلاثاء ٢٧ دي الحجة سنة ٦٣ وأحد يقبل في صحابة رسول الله وتابعيه حتى قتل منهم يماً وأحد عشر ألأاً وهب المدينة ثلاثه أيام : ويسمون ذلك اليوم المشثوم يوم الحرة . ثم ارتحل عن المدينة فاصدا مكة فبات في الطريق ودفن في ثنية المشلل . فأتت أم ولد ليزيد بن عبد الله بن ربيعة ، وكان قد قتل ولدها مسلم فيمن قتل ، فبشث قبره وصلبه على المشلل ورحمه ولا يزال قبره يرحم للآن .

(٣) لعله أبو منصور المبادي المشهور بالامير والمولود بماداحدى قري مرو سنة ٤٩١ هـ وقد ورد في دائرة المعارف « انه مات في طريقه الى خورسان من سداد وكان غير موثوق به في دينه وله رسالة يبيع فيها شرب الخمر » . وربما كان له في الحملة التي مات بها ما أسخط أهلها عليه فرجموه ولا يزالون يرمونه

القربان

القربان شئٌ كان يتقرب به الناس من قديم الزمان الى الله تعالى، وكان يختلف نوعه باختلاف الازمنة والامكنة . وأول ما وصلنا من أمر القرايين أن قابيل بن آدم قرَّب الى الله شيئاً من ثمرات أرضه ، وقرَّب أخوه هابيل ذبيحة من أبقار غنمه : قال الله تعالى « واتل عليهم نبأ ابنتي آدم بالحق اذ قرَّبا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » ، وبعد الطوفان بنى نوح مذبحاً لله قرب اليه فيه كثير من الحيوانات وكان يحرقها على المذبح . وكان ابراهيم يتقرب الى الله تعالى بالخبز والحجر ، وقد أمره الله أن يذبح له عجلاً وعزاً وكبشاً وحمامة وبعرة (انظر سفر التكوين آية ١٧ و ٩) ، كما أمره أن يقتدى ولده الذبيح بكبش يذبحه قرباناً ، وذهبت على سنته العرب قبل الاسلام ، ثم المسلمون من بعدهم في أخصيتهم . وكان بنو ابراهيم يقربون الى الله الذبائح ويحرقونها ، حتى أتى موسى فقسم الذبائح الى دُموى وغير دُموى : وهذا القسم الاخير كان ينحصر في الماشية التي كانوا يطلقونها في البرية لله تعالى ، ومنها أتت السائبة ^(١) والبحيرة ^(٢) والحامى ^(٣) عند العرب : وهي التي كانوا يطلقونها لاصنامهم ، وما زالت فيهم حتى حرّمها الاسلام . ولا يزال شئٌ من هذه العادة عند بعض خدمة الاضرحة في أرياف مصر : فانهم يرسلون عجلاً صغيراً في حقول بلادهم معلنين أنه عجل هذا الولي ، ولا يزال سائباً على حرثته في حقول البلد وما جاورها يأكل مما يشتهي منها ، وأربابها لا يجسرون على طرده أو اهانتة خوفاً من الولي الذي هو في حمايته ،

(١) السائبة الناقة اذا ولدت عشر اناث ليس بينها ذكر سبت فلم يرك طهرها ولم يحز وبرها ولم يشرب لبنها الا صيف وتهمل لأهلهم .

(٢) البحيرة هي بنت السائبة يحلى سبلها مع أمها بعد أن تشق أدنها .

(٣) الحامى هو الفحل اذا نتج له عشر اناث متتابعات ليس بينهما ذكر حمي طهره وخلى

في ابله يضرب فيها فلا ينتفع به بعير ذلك ، والعرب يلحقونها بالوصيلة : وهي الشاة التي أتت عشر اناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهما ذكر .

حتى يأتي مولده فيأخذه الخدمة سعيئاً معلوفاً و يذبحونه و ينتفعون به (وعجل السيد أشهر من أن يذكر ، كما أن فحل العزب لا ينكره أحد) . أما الذبائح الدموية فكانت تنقسم الى ثلاثة أقسام : الذبيحة المحرقة ، و ذبيحة التكفير عن الخطايا ، و ذبيحة السلامة . وكانوا يحرقون الاولى ولا يبقون منها شيئاً الا جلد هافياً أخذه الكاهن . والثانية كانوا يحرقون منها جاساً والباقي يأكله الكهنة . أما الثالثة فكانت اختيارية ولحمها حل لهم . وكانوا يشترطون في هذه الذبائح أن تكون خالية من العيوب . و اذا عجز الانسان عن تقديم ذبيحة من ذوات الاربع كان يكتفى بتقديم ذبيحة من الطيور .

أما الذبيحة عند المسيحيين فهي محصورة في لحم المسيح ودمه اللذين يقدمهما الكاهن في صورة خبز وحمز للمتناولين منهما .

فلما فشت عبادة الاوثان والكواكب في الناس كانوا يقدمون اليها شيئاً من نباتات حقولهم ، و يحرقونها على هياكلهم ، ثم آل أمرهم الى استعمال النباتات العطرية كاللند والعود وأمثالهما من الاصماغ ذات الروائح الحسنة . و فشا استعمالها بعد ذلك في الحفلات الدينية على اختلاف أنواعها .

وكان قدماء اليونان يذبحون الملح في قرايينهم لانه كان عندهم رمزاً للصداقة ، كما كان رمزاً لحسن القرى . وكانوا يضعونه مع حب الشعير في سلة و يقدمون منه شيئاً الى الحاضرين : و يظهر أن عادة بعض المصريين من رش الملح في مجتمعاتهم على رؤوس الناس محتلطاً في الغالب مع حب القمح ، وكذلك ما يرشونه منه في أسبوع المولود ، انما هي مستمدة من هذا الاصل . أما الرومان فكانوا يقدمون الذبائح الى آلهتهم بكثرة ، وكان الحاضرون يأخذون من لحومها تركاً . و يفرقون منه جاساً على من لم يكن حاضراً من ذويهم وأهلهم : وهي عادة باقية في حجاج الهند والجاوه المسلمين الى الآن . وكانت كهنتهم وقت تقديم ذبائحهم يرشون على الحاضرين بواسطة غصن من شجر الغار عسلاً وماء . وترقى الناس في ذلك حتى صاروا يرشون ماء الورد في اجتماعاتهم ، ولا تزال هذه العادة مستعملة في الحفلات الدينية على اختلاف مذاهبها الى الآن .

ولم تقتصر ذبائح القربان على الحيوانات ، بل بالغ كثير من الامم فيها ، حتى كانوا يقدمون ذبائحهم من البشر كالغنيقيين والكنعانيين والصور بين والفرس والرومان والمصريين وغيرهم ، وما زالت هذه العادة الشنيعة فاشية ، وعلى الخصوص في أور ويا حتى صدر قرار من مجلس الاعيان الرومانى بمنعها سنة ٦٥٧ ميلادية . ومع ذلك فقد استمرت في بلاد الغال وبلاد الجرمان الى ما بعد هذا التاريخ بمدة طويلة .

وكان المنذر بن امرى* القيس بن ماء السماء ملك الحيرة يقدم الى معبوده العزى الذبائح من البشر ، ولا شك أنه أخذ هذه العادة عن وثى الفرس .

وقد كان قدماء المصريين يقدمون الى النيل (وكان من معبوداتهم) في يوم ١١ بؤونه من كل سنة عادة من فتياتهم ، وبعد أن يزبنوها باحسن زينة يغرقونها فيه استمطارا لرحمته بهم . وما زالت هذه العادة السخيفة حتى أبطلها عمرو بن العاص ووافقه عليها ابن الخطاب رضى الله عنهما ، كما هو مبسوط في المفريزى في الكلام على مفاييس النيل وزيادته . وكثير من المعجائز المصرية الى الان يعلمان عروسة من الطين ويغرقها في اناء من الماء في هاته الليلة التى يسمونها ليلة النمطة ، ويزعمن أن ماء الااء اذا زاد ثانى يوم عما كان عليه ، كان النيل عاليا في سنته والا فلا . ولا شك أن هذه العادة صورة بسيطة من التى أبطلها عمرو . ومن هذا ترى أن المسلمين كانوا أسبق الامم في تحريم الذبائح البشرية . وهم يسوقون ذبائحهم الى البيت الحرام بمكة في حجهم وسمونها هديا ومعناه الهدية . وهو ما من البدن (الا بل) ، أو البقر ، أو الغنم ، والا بل أحسنها ، ويشترط ألا يكون عمرها أقل من خمس سنوات ، وألا يكون عمر البقر أقل من سنتين ، والغنم أقل من سنة . وقد قسموا الهدى الى واجب في دم الكفارات ، ومنسوب في دم الشكر . واشترطوا أن يكون دبح الهدى بمنى في أيام النحر وهو الا فضل أو بمكة في غير أيام انتشار بقى ، وأن يفرق لحمه على الفقراء من عباد الله .



BOCHME & ANDERSEN, COPENHAGEN

منظر عمومی ملتی وایکجان میمون قیما

الآثار في منى

يوجد في منى غير مسجد الخيف غار قريب في الجبل الجنوبي يسمى بغار المرسلات، كان يتعبد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام، ونزلت فيه سورة المرسلات، ويقصده الناس للزيارة والتترك به. وفي الجبل الشالى منها مغارة يقولون ان ابراهيم عليه السلام سكن فيها مع هاجر، ويبلغ طولها ٤ متر وعرضها متران ونصف، وعلى يمين الداخل فيها كهف تفر في جوف الجبل. ومن خارجها مصلى في مكان يقولون عنه انه مذبح اسماعيل، وبجوارها صخرة كبيرة في جوف الجبل فيها فلح كبير، يزعمون أن تلك السكين التي أراد أن يذبح بها ابراهيم ولده فلتت من يده رحمة بالذبيح فغاصت في هذا الصخر ففعلته على ماترى، وهذا الاعتقاد باق بمكة الى يومنا هذا ! ولو ادعوا أن هذا الفلح انما هو ناشئ عن حادث طبعى، واختاره ابراهيم مذبحاً ليسيل فيه دم ولده حتى يسمع صوته في عالم السموات اعلانا بصدقه بامر الله وكمال طاعته له، لكان أولى. وبقرب هذه المغارة يقيم حجاج الهند ولهم فيها اعتقاد هائل : فتراهم هناك وقد فرشوا على الحصباء خارج خيامهم وداخلها شطرات نيشة من لحم الاضحية، وبعد جفافها في الشمس يحتفظون عليها يأخذونها معهم الى بلادهم هدية مباركة مقدسة لمن كان عزيزا عليهم. وأظن أن هذه عادة قديمة للعرب كانوا يقومون بها في أيام منى ومنها سميت بايام التشريق أى التفديد. وهى الثلاثة الايام التي تعقب يوم النحر، وقد مر بك في باب القران مثل ذلك في عوائد الرومان ولعلمهم أخذوها من اليونان، وهؤلاء أخذوها ضمن العوائد الكثيرة التي أخذوها عن الهند أنفسهم فيكون أصلها منهم ومرجعها اليهم. ولو علموا أن أجرهم من ذلك انما هو ما يصيبهم من الامراض التي تنشأ عما يحدث من مكروباتها الضارة. لكانوا ألغواها الى بطونهم من يومها، خصوصاً وسوادهم في حاجة اليها لكثرة الفقراء فيهم. وعلى كل حال فقراء حجاج الهند في غاية من الوساخة، ومن وسطهم تظهر الامراض والاوشة وفتك بهم فتكاذر يعبأ ولا قدرة لهم على مقاومتها لان غالبهم في سن الشيخوخة.

خروج الجناب العالى الى عرفة

وافاضته منها

فى صباح يوم التروية خرج الجناب العالى من مكة الى عرفة ، راكباً جواداً كريماً وهو
بملايس احرامه . وسار فى موكب رهيب ، ومن خلفه رجال معيته الكريمة من ملكيين
وعسكريين ، يتقدمهم دولة البرنس كمال الدين والكل محرمون . وكان فى رفقة سموه سعادة
عبدالله بك نجل الشريف . ومعه كثيرون من عليّة الاشراف وحضرة مكتوب بجى الولاية
وياوران دولة الشريف ، وفى مقدمة هذا الركب الميمون فصيلة من عساكر الحرس
الخدوي السوارى بزار يقهم تخفق عليها البنود ، ومن ورائها فرقة من جند البيشة على هجنهم
وهم يضربون نوتهم ويوقعون عليها أناشيدهم ، ويحيط بالركب جميعه فرقة أخرى من الحرس
الخدوي . ولما تجاوز حفظه الله المعلى ، مر على جنود الدولة وهى واقفة وقفة الاحتشام لتقديم
واجب السلام والاعظام ، وطلقات المدافع تدوى فى فضاء هذا الوادى احتفاء بمقدمه
الشريف فحياهم سموه تحية الشاكر ، وسار حتى اذا حاذى جبل النور ، وقف برهة مستقبلاً
فيها هذا الاثر النبوى الكريم ، قرأ فيها الفاتحة ودعا الله تعالى بما شاء . وما زال حتى وافى
صيوان الشريف الخصوصى بمنى ، وقد كان خصص لجنابه العالى ، والى يمينه الصيوان
الخدوي يتلو صيوان دولة البرنس ، ثم صواوين دولة الشريف والوالى وحاشيتهم . وكانت
خيم المعية السنية ، وبقى الحاشية قد انصبت فى الجانب الآخر من الطريق على يسار السالك
الى عرفة . وبعد ما استراح حفظه الله فى صيوانه ركب قبل الزوال وسار فى حاشيته الكريمة
الى مسجد الخيف فصلى به الظهر ، ثم سار لزيارة دولة الوالدة بمنزل دولة الشريف الذى جهز
لاقامتها فيه بمنى ، وعاد سموه الى مقره بعد صلاة العصر ، وما زال هناك والمحمل وجيوش
الجميع تمر بين يديه الكرى بمنى الى عرفات ، حتى ركب حفظه الله بعد صلاة الصبح يوم ٩
ذى الحجة فى موكبه الحافل قاصداً عرفة ، وسار تحذوه العظمة والفخامة ، وفرقة الاعراب من

أمامه تضرب نوبتها ويوقعون عليها بنشيدهم الرخيم ، وأصوات الخلق فيما بين ذلك تملو بالتلبية وراء التلبية . وقد عرج جنابه العالى فى طريقته على مسجد نعمة ، وبعد زيارته سار الى عرفة ، فوصلها فى الساعة الرابعة العربية نهرا ، ونزل الى الصيوان الذى أعده لسموه دولة الشريف فى الجهة الجنوبية من هذا الوادى . وكان الى جواره صيوان دولة الوالدة وخيم حاشيتها ، يتلوها خيم المعية السنية ، والى جانبها غراب صيوان مولا بالشريف وخيم حاشيته ، وأمضى الجنب الخديوى يومه معتكفاً فى صيوانه ، وبعد صلاة العصر بنحو ساعة ركب جواده وسار الى يساره دولة الشريف ، ومن خلفهما دولة الرنس وعطوفة وكيل الولاية وجم غفير من كبار الاشراف ورجال الدولة ، حتى وقفوا حذاء جبل الرحمة ، وما زالوا واقفين هناك حتى أفاض الناس فافاضوا معهم .

وكانت افاضة الجنب العالى حفظه الله من عرفات من الفحامة بما لم يشاهد له مثيل بالمرّة : فانه بمجرد ما تحرك الحملان سار حفظه الله والى جانبه حضرة الشريف ، ثم من فى معيتهما من الامراء والعظماء يحيط بالجميع سياج من الحرس الخديوى يتلوه آخر من حرس الشريف . ثم انتظم الموكب فسار وفى مقدمة الركب كوكبة من عسكر البيشة بهجنهم ، وفى وسطهم فرقة منهم تدق نوبتهم ، والباقيون يتغنون بنغمات تدخل رنائها فى القلوب فتملؤها سرورا وحبورا . ومن ورائهم شزيمة من عسكر الحرس ، يتلوها الجنب العالى وحضرة الشريف يتلوها حاشيتهما ، ومن ورائها فرقة الموسيقى العربية تعرف بنغماتها الشجية ، ثم رجال الاشراف من حضر وبدو . وسار الجميع فى هذا الموكب الرهيب حتى وصلوا الى المزدلفة ونحن على غاية ما يكون من الراحة .

وكان موكب دات الجلال والعظمة والدولة الجنب الخديوى ، وصاحبات الدولة الرئيسيات يسير بعد ركب الجنب العالى . وكان مما يأخذ بالالباب بهاء وسناء : فكانت جنود الحرس المشاة والخيالة تحيط بعرباتهم ، يتقدم الجميع فرقة من عسكر الدولة وجند البيشة بموسيقاها ، يتبعها هودج الحاشية ، وآلاف المشاعل فى جوانب الركب تملأ الجو نورا ، وغناء الضوية والخدم وزغردة نساء الجميع تزيد الافئدة سرورا .

وقد قطعنا المسافة من عرفة الى المزدلفة في ساعتين ، كان الجناز العالى فى انائهم محل أنظار الناس على اختلاف أجناسهم . والمصريون منهم يرفعون له كلما ر عليهم أصوات الدعاء وعبارات الولاء . وكانت قد أعدت هناك الخيام ونصبت الصواوين لنزوله حفظه الله اليها مع دولة الوالدة وحاشيتهما ، فقصوا فيها ليلة النحر فى صفاء وهناء . وبعد صلاة الصبح نزل جنازه العالى فى موكبه الى منى ، فرمى جمرة العقبة ، وذبحت الضحايا الكثيرة بحضوره حفظه الله ، وتحلل من احرامه (لبس ملابسه العادية) ، ثم نزل الى مكة بموكب حافل ومعه دولة الشريف ، فصليا العيد فى الحرم الشريف بالمقام المالكى ، وطاقا طواف الاقضية ، ثم تناول سموه طعام الغداء فى دار الامارة ، وعاد بعد صلاة العصر الى منى فى موكبه الفخيم .

أيام الجناز الحديوى بمنى

— والاحتفال بتلاوة فرمان الشريف بها —

ما برغت شمس يوم الجمعة ١١ ذى الحجة الموافق ٢٤ ديسمبر حتى التفت الجنود التركية والمصرية حول المصطبة الكبرى التى كانت عليها سرادقات سمو خديوينا المعظم ودولة الشريف وسعادة وكيل الولاية ، يتقدم كل فرقة موسيقاها استعدادا للتشريفات بحفلة تلاوة فرمان دولة الشريف . وفى الساعة الثانية العربية تنهار اصطفت رجال المعية السنية فى الجهة اليمنى من الصيوان الكبير المعد للجناز العالى الحديوى . وكان دولة الشريف أرسل بعض حاشيته لملأ الوفا الحامل للفرمان والخلمعة السنية ، ثم سار الى صيوان الجناز العالى وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث ، حتى اذا وصل الوفا الى سلم المصطبة ، خف الجناز العالى ومعه مولانا الشريف نحو السلم ، واستقبلا الفرمان بتقبيله ، ثم قصد الكل الصيوان الحديوى وجنازه العالى فى مقدمتهم . ولا يخفاك ما فى هذا الترتيب من المعنى الدقيق اللطيف الذى يشير الى علو مكانة جنازه الرفيع ، وأن مقامه هنا هو المقام الاول ، ومنزله هو المنزل

الاجل . فجلس حفظه الله فى صدر المكان ، وعن يساره دولة الشريف ثم نائب الوالى ثم أنجال الشريف ثم عليه الاشراف ، ومن خلفهم مشايخ القبائل العربية وصاحبها الفضيلة مفتى وقاضى مكة وكثير من علمائها وأعيانها ، ثم رجال العسكرية العثمانية وفى مقدمتهم سعادة ناظم باشا قومندان قوة الحجاز . وجلس على يمين الجنب العالى دولة البرنس كمال الدين باشا ، ثم أصحاب السعادة شفيق باشا وعزت باشا وخيرى باشا ثم موظفو المعية السنية ، يليهم مستخدمو قوة الحمل الشريف المصرى . وهناك توسط ساحة الصيوان عزتو مكتوب بجى الولاية وأخذ فى تلاوة القرآن الذى كان يمسك بطرفه اثنان من التشرىفات فتلاه بالتركية ، وعند ما أتى على لفظة الخلعة السنية التى قدمها جلاله السلطان (محمد الخامس) الى دولة الشريف فسكها أحد المهندسين من غلافها الاطلسى وألبسه اياها . وبعد تلاوة القرآن قام كاتب يد الشريف وتلا ترجمته المرسله معه بالعربية : وخوها أن مولانا السلطان حفظه الله لما يعلمه فى دولة الشريف من أصله الرأى ، وعناو الكعب فى حسن الادارة ، وكمال الدراية ، ومحاسن الاخلاق ، وواسع المعرفة وكرم السجايا ، ومحامد الخصال ، ومعالى الفضائل ، وبجبه لدولته مركز الشرافة العظمى ، وهو يرجوه على الدوام مساعدة حجاج بيت الله الحرام ، والقيام بكل ما فيه راحتهم وصحتهم ، مع تأمين الطرق وتسهيل المواصلات والضرب على أيدى الخارجين من الاعراب عن الصراط السوى المستقيم . ولقت نظره الى الدقة فى صرف المرتبات وتوزيع الصدقات على أربابها بكل ضبط ، مع مساعدته لما مورى الدولة من عسكريين ومليكيين على أداء وظائفهم . وكان كلما ذكر اسم واحد منهم ألبسوه كركا ، حتى اذا تمت الحفلة أمر الجنب العالى فاديرت أكواب الشربات على الجميع ، وبعد شرب القهوة اصرف الشريف مودعا من الجنب السامى بكل تحلة واحترام .

ومما يجمل بنا ذكره تلك الالقاء التى وردت فى هذا القرآن موجهة من قبل صاحب الخلافة العظمى الى دولة الشريف حتى تعرف مكانته السامية : « جناب الامين الامجد ، الاجل الاوحد ، المقتنى آثار أسلافه الاشراف ، من آبائه الغر صناديد آل عبد مناف ، وأجداده الحميدى السير الجيلى الاوصاف ، فرع الشجرة الزكية النبوية ، طراز

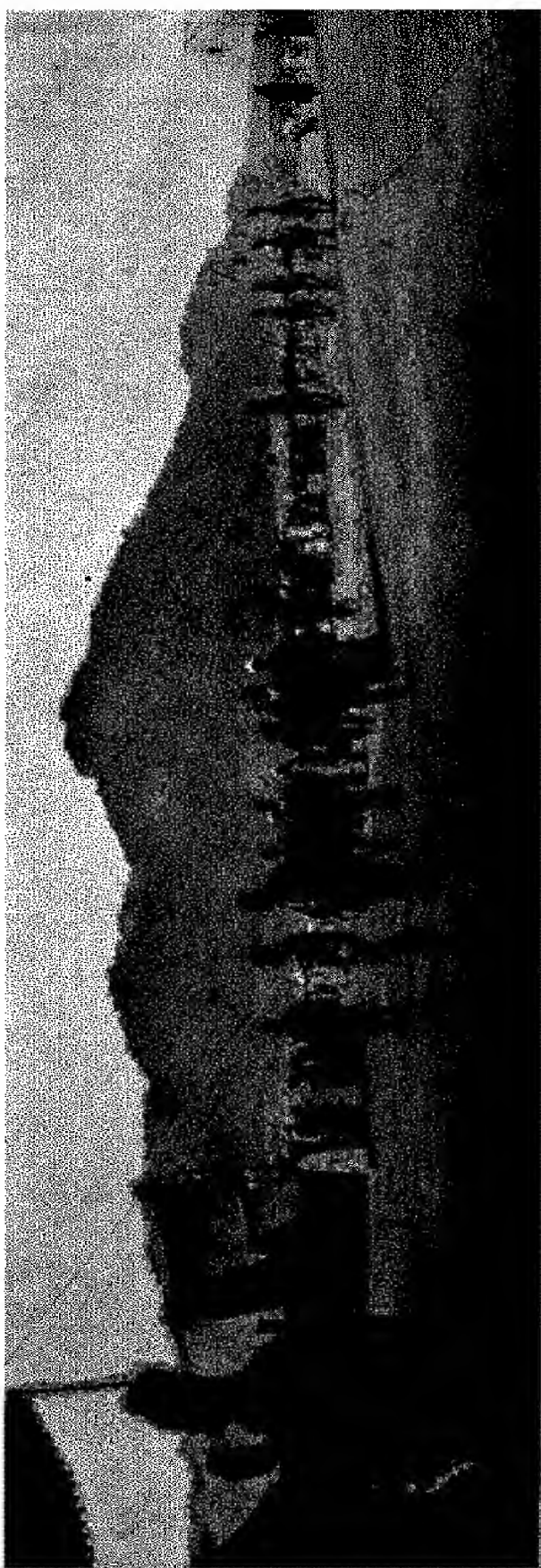
العصبة العلوية المصطفوية، المنتقى الى أشرف جرنومة علا عنصرها ، والمنتسب الى أنفـس أرومة غلا جواهرها ، زبدة سلالـة الزهراء البتول ، عمدة آل بيت الرسول ، المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى من أعظم وزراء سلطنتنا السنية، الحامل لبشاني الافتخار المرصع العثماني والمجيدى ، وزيرى سمير الفطانة أمير مكة المكرمة الخ »

وعلى هذا يجدر بنا أن نسوق اليك شيئاً من الالـقاب التى كان يكتب بها الى أمير مكة فى عهد الدولة العـركسية : فقد ورد فى صبح الاعشى فى رسم المكاتبـة الى أميرها هذه العبارة : « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى ، الاميرى ، الكبيرى ، العالى ، العادلى ، المؤيدى ، العضدى ، النصيرى ، الذخرى ، العونى ، المقدمى ، الاوحدى ، الظهيرى ، الزعيمى ، الكافى ، الشريفى ، الحسينى ، النسيبى ، الاصيلى ، العلافى (الحسينى مثلاً) ، عز الاسلام والمسلمين ، سـعد الامراء فى العالمين ، جلال العترة الطاهرة ، كوكب الاسرة الزاهرة ، فرع الشجرة الزكية ، طراز العصبة العلوية ، ظهير الملوك والسلاطين ، سيب أمير المؤمنين ، لازال حرمة أميناً ، ومكانه مكينا ، وشرفه يبيض له بمجاورة الحجر الاسود عند الله وجهاً ويضئ جبيناً ، صدرت هذه المكاتبـة من المجلس العالى تحمل اليه سلاما تميل اليه الركائب الخ » .

ومنـه ترى ما كان وما يكون لمركز الشرافة العظمى من جليل المقام وعظيم الاحترام لدى الملوك والسلاطين . وليس هذا بغريب فى بابـه فحسب هذه الاسرة فخراً أن

عائلة اشرف مكتـة اقدم اسرة^(١) شـى يفتى فى العالم

(١) لان هذه الاسرة الشريفة تصعد حلقات سلسلهـا من عرشك الى نبيـا محمد صلى الله عليه وسلم : وكل فرع من فروع هذه الشجرة الكريمة النبوية ، يترك الوالد له الى ولده من مـدا الاسلام الى يومنا هذا ، نسبته الى هذه العترة المباركة ، اراثميا لا يصاهيه عنده فى منزله شىء بالمره . ويوجد كثير من هذه الفروع فى بلاد الاسلام وعلى الخصوص مصر التى كانت محط رحال آل البيت رضى الله عنهم ، ولكل فرع سلسله نسب توصلهم الى أحد سبطي النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : السادة الحسينيون ، أو الحسينيون مثلاً . وهذه النسب مسجلة فى دوائر مخصوصة عند قـب الاشراف ، ولاربابها مراتب تصرف اليهم سنويا فى مواعيد يعلن عنها فى الجرائد اليومية . ومن هذا تعلم من غير شك أن نسب هذه العائلة بوصولـه الى النبي صلى الله عليه وسلم يصعد الى أربعة عشر قرناً تقريباً .



SOEHNE & ANDERER, CAIRO

البحر العالمی الخدیوی و هو متوجہ لدرزناة الدیة الشریف الی کانف انتظام امام مخیم منی

وبعد تلاوة فرمان خرج سمو أفندينا الخديو وحفظه الله مع دولة الشريف الى رصيف المصطبة ، وفي أثرهما جميع رجال المعية السنية و رجال الشريف والدولة وموظفو المحمل الشامى ، حيث استعرضت جنود القوة الحجازية يتبعها حرس المحمل الشامى ، ثم الحرس الخديوى يتبعه حرس المحمل المصرى . أما الترتيب والنظام فى القوتين الاخيرتين فقد كانا مما دهش له جميع المتفرجين من ملكيين وعسكريين وخصوصاً رجال الدولة : حتى أن رئيس قوة الحجاز رأى أنه لا يحسن سكوته عن الاعتراف بذلك ، وأبدى اندهاشه من النظام العسكرى المصرى . وكان دولة الشريف وسعادة وكيل الولاية يبديان إعجابهما مما شاهداه ، وشكر اللجناب العالی الخديوى عنايته الكبرى برقى حكومته السنية . ومما يذكر بالمناسبة

وحيث ان السابيين والمؤرخين قد حققوا بالاجماع أن نسبه عليه الصلاة والسلام يصعد الى عدنان فلا يكون هناك أى شك في تحقيقهم نسه اليه . لان الانتساب كان من الحصصات التى امتازت بها العرب على سائر الامم ، وهو من خصائصهم الى الآن . وكما كان انتسابهم الى جدأعلى (أعى كلما كانت حلقات سلسلة نسبهم أكثر) كان محدهم أعظم ، وأصلهم أكرم . وقد أجمع المسلمون من مبدا الاسلام الى يومنا هذا على صحة هذا النسب العالی ، وهم يحفظونه عن طهر قلب من نمومة أظفارهم وهاك هو : محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصى بن حكيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وحيث انه من الثابت فى التاريخ أنه كاب لعدنان واقعة مع بحصر في مبدا القرن السابع قبل المسيح ، فتكون المسافة بين حلقة السلسلة الحالية (أى الموحودة فى يومنا هذا) والحلقة العدنانية نحو ٢٦ قرناً . واد احرينا السابيين الدين أوصلوا نسب عدنان لاسماعيل بن ابراهيم ، وقالوا ان عدنان بن اده بن ادد بن الهميسع بن سلامان بن بنت بن حل بن قيدر (ثابت) بن اسماعيل ، كانت المسافة بين الحلقة الحالية من هذا النسب الكريم والحلقة الاسماعيلية أكثر من سبعة وثلاثين قرناً .

على أنالو وفقاً بنسب هذه الاسرة الشريفة عند الحلقة النبوية ، فانها تكون أعرق الاسر (العائلات) الموجودة على طهر السسيطة حسباً ، وأقدمهم نسباً : لان الاسر التى يحترمها التاريخ فى أوربا وبجلها المرجحة عامة ، ويمطون شأنها لحد اصالتها فى حسبها ، وعراقته فى نسبها ، لم تطهر الا بعد أسرة الاشراف بمكة بقرون عديدة : اذ لا يخفى ان أسرة التربون (Bourbon) التى هي أقدم أسرة أوربية ، والتى تشتمل حكمها فى فرنسا وايطاليا واسبانيا ، لم يبدئ تاريخها الا فى سنة ٩١٣ بمدا الميلاد . ويلوها أسرة هابسبورج (Habsbourg) التى لها الحكم الآن فى النمسا ، ويسدى تاريخها من سنة ٩٥٤ ميلاديه . ثم أسرة السمواي (Savoie) التى منها ملوك ايطاليا الحاليون وتبدي من سنة ١٠٢٧ . ثم أسرة ملوك آل عثمان وتبدي من سنة ١٢٧٧ . ثم أسرة قيصرية روسيا وهى أسرة رومانوف (Romanov) وتبدي من سنة ١٥٤٧ ميلاديه .

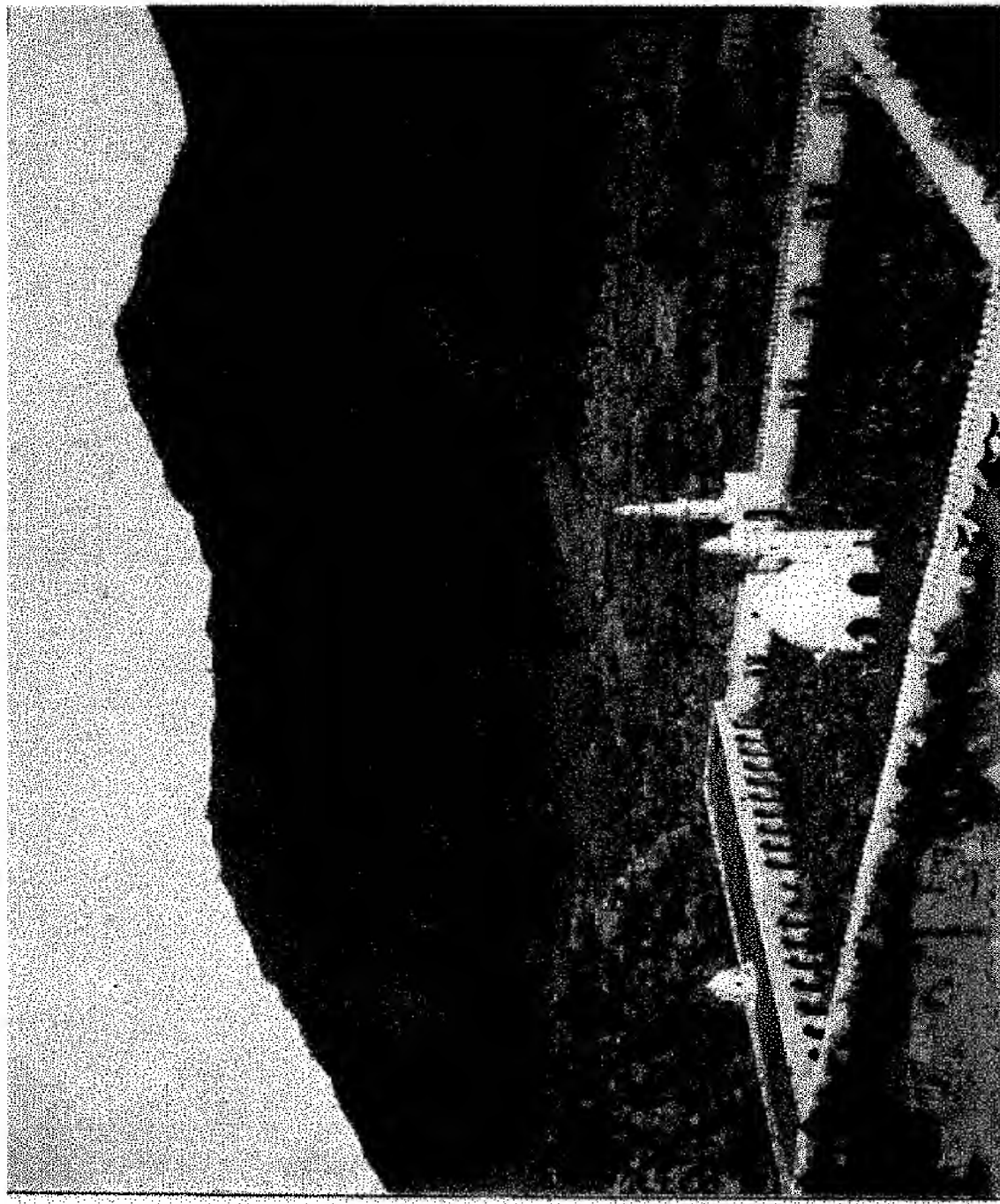
للجناح العالى أثناء ذلك ، أنه لاحظ منه التفاتة فرأى عسكر على بن دينار (سلطان دارفور) ، مع رئيسهم الذى أتى بحملهم ، وراء صفوف الناس من بعد ، فارس فاستحضر رئيسهم ، وبعد أن لطفه وحياء بما يليق بكرمه ، أمره بحفظه الله بان يسير بجنده فى هذا الاستعراض ، فسار يتقدم رجاله الذين كانوا يحركون حراهم على نغمة الموسيقى بحماسة كأنهم يتحركون الى حرب أو طعان .

وفى نهاية الاستعراض قصد الجناح العالى صيوانه ، وبعد ما استراح قليلا ابتدأت التشرىفات العديدة للجناح الرفيع : فتقدم العسكرون يتلوهم الملكيون من رجال المعية السنية وغيرهم ممن حضر لاداء هذا الواجب من وجهاء المصريين ، ثم موظفو الحمل المصرى ، وتشرف الكل بلثم راحته الكريمة ، داعين له بطول العمر وكمال السعود والرفاهية ، مهنئين بفرصة الحج الشريف . ثم تلا ذلك العدد الكثير من الاشراف وعظماء مكة وغيرهم من كبار الحجيج ، وكانوا يقدون على سموه بواسطة دولة الشريف ، فيقدمهم الى جناحه العالى تارة أحد أبحاله الكرام وأخرى أحد رجال تشرىفاتة أو ياورانه . وكان حفظه الله يقابل الجميع بصدر رحب ، وثرع باسم ، ووجهه باش ، مما جعل الكل يخرج من حضرته داعياً شاكرام . وفى أثناء هذه المقابلات كانت تعزف فى أطراف المصطبة موسيقات الحرس الخديوى ، والحمل المصرى ، والشامى ، وموسيقى القوة العسكرية الموجودة بمكة ، والى جانبها المزمار البلدى ، تتخلل نعماتها طلقات المدافع وهتاف الحجيج بصوات السرور والخبور من كل جانب بما لا يمكن وصفه .

وبعد تمام التشرىفات قصد الجناح العالى صيوان الشريف لرد الزيارة وتقديم واجب التهانى ، فاستقبله دولته من خارج الخيمة بكل ما يمكن من واجبات التبجيل والتعظيم وأجلسه فى صدر المكان وجلس عن يسار سموه . وهناك دخل رؤساء الديوان الخديوى يتبعهم جميع الموظفين المصريين وعسكريين وملكيين لتهنئة دولته ، وكان الجناح العالى حفظه الله يقدمهم لسيادته واحداً واحداً كلاً باسمه ، وبعد شرب الشرابات انصرفوا الى أماكنهم ، وتوجه الجناح العالى محاطاً برؤساء معيته الكريمة الى خيمة وكيل الوالى ، فاستقبله بغاية

مستجد الحرف والمعماريات الجاهلية

BOEHME & ANGERER, CAIRO



الاجلال والاحترام ، و بعد تناول المرطبات وشرب القهوة توجه حفظه الله الى صيوانه ومكث فيه يستقبل وفود المهنيين الذين كانوا يتقدمون اليه بواسطة دولة الشريف أو بعض حاشيته .

و بعد الظهر زار دولة الشريف ومعه عطوفة وكيل الوالى معسكر المحمل المصرى ، فقو بلا بما يليق بمقامهما من الاحترام بين اطلاق المدافع وعزف الموسيقى بالسلام الشاهانى . و بعد صلاة العصر ركب الجنب العالى ومعه دولة الشريف فى موكبهما الفخم لرمى الجمرات ، ثم عادا الى مقرهما . وفى المساء كان الجنب العالى الخديوى قد أعد وليمة فاخرة لسيادة الشريف ومعه ثلاثون من عظماء قومه ، و بعد صلاة العشاء حضر المدعوون يتقدمهم سيادة الشريف فاستقبلهم الجنب العالى بما جبل عليه من الاليناس ، وكان رجال التشرىفات الخديوية يقومون بالخدمة اللازمة ، و بعد مأكلوا مالذ وطاب هنيئاً مريئاً رفعت الموائد ، وجلس القوم للسمر ساعة من الزمان ثم خرجوا شاكرين للجنب العالى كرمه ، ذاكرين فضله وآدابه ، داعين مبتهلين الى الله بان يكثروا أمثاله فى أمراء المسلمين وملوكهم . وكانت فى أثناء هذه الحفلة موسيقى الحرس الخديوى تشف أسماع الحاضرين ، وسسهاام الالاب النارىة تشق كبد السماء فتزىد درارىها زينة على زينتها ، وسواقىها النارىة تنثر فى فضاء الارض تبرها المتلهب فىريدها نورا على نورها . وكان آلاف المتفرجين من عرب وعجم ومغاربة ومصريين وسودانيين وأتراك وجاوه وهنود وغيرهم ، فرحين مبتهجين مهللين مندهشين لهذه المظاهر البديعة التى لم يسبق لها نظير فى منى بل ولا فى جميع هذه الديار . وكان أكثرهم دهشة من سبق له الحج قبل هذه السنة : وحقىقة فان هؤلاء هم الذين كانوا يحسون بالفارق بين الحج فى السنين الماضية ومظاهره فى هذه السنة المباركة . وما زال الناس فى سرور وحبور الى نصف الليل ، ثم انصرفوا وكلهم داعى بعزة الاسلام ونصرة أمراءه وتوفيقهم .

وقد أمضى الجنب العالى يوم ١٣ ذى الحجة فى زاور مع دولة الشريف و وكيل الولاية واستقبال بعض الزائرين ، و بعد صلاة العصر نزل الى مكة فى موكبه الفخم . وبالجملة فقد كان سموه بمى محطاً للرحال ، ومكاناً لتحقيق الآمال ، ومنهال للخيرات ،

ومصدر اللحنات ، وكان صيوانه على الدوام غاصاً بالزائر من عظماء الحجيج على اختلاف أجناسهم .

مواكب الشريف

يركب دولة الشريف في مواكبه الرسمية على النظام الآتى :

تتقدم فرقة من الخيالة والقرابة ، ثم جماعة من المهجانة من عرب البيشة ، ثم بعض السياسات تلوم الجنائب : وهى جملة أفراس عربية يتلو بعضها بعضاً ، يقود كلا منها سائسان : واحد الى اليمين والآخر الى اليسار ، ومن وراء الأفراس بعض البغال ، وعلى الكل الرخوت الذهبية . ويعقب ذلك عربة يحرها زوج من الجياد ، ومن خلف العربة بمسافة خمسين مترأ دولة الشريف على فرس مرخوت ، يحيط به الخدم والحشم وغيرهم من الخزنحية (الخزندارية) ، ومن على يساره مائلا الى الورا قليلا حامل الشمسية على حصانه : وهى شمسية كبيرة من الحرير المزركش بالقصب ، والكثير المذهب ، وقطع التبر المثقب (الثرثر) ، يتخلل ذلك كثير من الفصوص الكريمة الجميلة . ولهذه المظلة وضع خاص بها : تكاد تكون نصف كرة منتظمة ، قطرها نحو متر ونصف ، وقائمها من المعدن الابيض ويطول حتى يرتكز في ركاب حامله أثناء السير ، ويثبت في الارض أمام صيوان الشريف اشارة الى وجوده في محله ، وهذا يغنى عن رفع العلم عليه وان كان للشريف علم أحمر خاص به .

ويسير من وراء الشريف الجم الفقير من السادة الاشراف ، يتلوم أعيان مكة على خيلهم أو حميرهم ، والكل بلا بسهم الرسمية ونياشينهم ، يتخلل ركابهم الخدم والحشم والعبيد ، ومن خلفهم ضاربو النوبة : وهم موسيقيون عربيون راكبون على خيلهم يضربون بالزمار البلدى والنقرزان ، يحيط بهم عرب البيشة على هجنهم وهم يتغنون من وقت الى آخر باغنية حماسية

على نعمة الموسيقى ، ولا يزال الموكب سائراً على هذا النظام حتى يصل الى المكان الذي يقصده دولة الشريف .

ونظام هذه المواكب عادة قديمة في ملوك الشرق : وقد كانت تتركب فيها على المثال المتقدم الخلفاء من العباسيين والفواطم وملوك الجراكسة وغيرهم مما تراه مبسوطاً في المقرئ وغيره . وكانت هذه الشمسية تسمى عند الفاطميين بالمظلة وحاملها كان من كبار القوم وله مكانة مخصوصة ، ويسمى بحامل المظلة ، وبعضهم يسميه حامل القبة . وقد رأيت في تاريخ السودان لشقير بك في الكلام على دارفور ، أن أميرها علي بن دينار يركب في احتفالاته الرسمية بما يقرب من هاته المواكب . وهاك نص عبارته تحت عنوان ركوب السلطان « وقبل الظهر بساعتين يركب السلطان جواداً مزركش العدة ، وأمامه العساكر الحاملون الاسلحة المارية مشاة ، ومن ورائه الخصيان راكبين الخيول ، وبينه وبين الخصيان بعض الحياض بسروج الرهط كاملة العدة يقودها السياس خلفهم صفّاً واحداً ، وعن جاني السلطان نفر من المشاة يتناوبون حمل مظلة واسعة تظله وتظلّل جواده ، وهي مصنوعة من نسيج متين مطرز بالقصب ومبطّن باطلس مختلف الالوان كل شقة بلون ، تتدلى من أطرافها شراريب قصب ، ولها يد طويلة من خشب متين مغشاة بنسيج ملون كل شر بلون » اهـ .

سفر الحجيج من مكة

بعد النزول من عرفة ينتظر الحاج في مكة صدور أمر الشريف بسفر الحاج منها ، ولا يكون ذلك في الغالب الا في الاسبوع التالي لنزولهم من حجه . والفرص من هذا التأخير وراج تجارة هذا البلد . فاذا جهز الانسان نفسه سافر الى المدينة المنورة ، أو الى بلده ان كان سبق بالزيارة قبل الحج أو شغله عنها شاغل : فينزل مع القافلة الى جدة ومنها الى حيث يريد .

وعلى كل حال فالك ترى مكة اذ ذاك في حركة هائلة بالجمالة وجمالهم وهي مجهزة للحمل غادية رائحة ليلًا ونهار في طرق مكة وعليها شقادفها ^(١) ومحفاتها وسحلياتها : لان هذا هو الموسم الوحيد الذي يستقدمه هؤلاء الاعراب حياتهم بواسطة هذه الابل التي هي رأس مالهم الوحيد، بل هي حياتهم بجميع معانيها : فهم من البانها ولحومها يأكلون، ومن أوبارها وجلودها يلبسون، وبروثها وبعرها يدفنون، وهي مركبهم ومحملهم في هذه المسافات الواسعة الشاسعة، التي لا يمكن غيرهما من جنس الحيوان أن يقوم بالمأمورية التي تقوم هي بها في وسطهم : ذلك لان الحمل سفينة الاسفار في القفار، وله قدرة على احتمال مشقات الحياة الصحراوية، خلقه الله مقوس الظهر لا احتمال الاثقال، وجعل خفقه واسعا مدورا طريا حتى لا ينزلق على الاحجار ولا يسوخ في الرمال، يحتمل العطش أياماً (وزعم بعضهم أنه يحتمله شهرين) : لان القدرة الالهية جعلت له أربع معدات لهضم الغذاء، يعقبها تجويف كبير يخزن به الماء، فاذا نفذ ما فيه رجعت اليه عصارة مائية من الاوعية الكثيرة التي حوله مما يأتي اليها من رشح البدن (وتقدر بعشرين لتراً) . ويساعده على احتمال العطش انه كغيره من المجترات، له خاصة اخراج الغذاء من معدته الى فيه، بواسطة ضغط عضلات المعدة على بعضها، فتقلص وتطرد الغذاء الى فيه فيلوكه : ومن هذه العملية تتنبه غدد الفم واللسان والزور فتفرز من اللعاب ما يلطف من غلته ويخفف من عطشه . والحمل يحتمل الجوع أيضاً

(١) الشقدف عبارة عن سريرين من الحشب وقاعدتهما من الحمال على مثال العجرب، وعلى حافة كل سرير من الحشب الخارجي والحلبي شبكة من عيدان اشجار السنط بحيث اذا ضم السريران الي بعضهما على ظهر الحمل بحال متينة يكونان قبة يغطونها بئشي من الحشيش وركابها يصعدون عليها في العال بعض الاكلة المعرية والتركبة في الراك من الشمس والمطر . ولو كانوا يغطونها في الشتاء بئشي من المشمع كانت الفائدة أكبر وأعظم . والشقدف يسع نفرين ويمكنهما أن ياما فيه كما يمكن أن يجلس فيه الراك على راحته بواسطة مخدات صغيرة خفيفة يصمها على ما يحب . والحمة هي كرسيان من الحشب اذا ضما الي ظهر الحمل جلس فيهما راكبان على مثال حلوسهما على الكراسي ووجههما الى رأس الحمل، وأغلب ما ترى المحمات في الرك الشامي . أما السحلية فهي سرير من أسرة الشقدف شد على ظهر الحمل مستعرضاً ويجلس فيه بران وهي في العال من غير مظلة ويرك فيها الفقراء من الناس وخصوصاً من اليهود الذين يحملون حرارة الشمس .

أياماً متعددة بتغذيته من الدهن الذي في سنامه ، ولهذه المزية الكبرى استُخدم في الحروب من زمن بعيد جداً ، ولِفرق الهجّانة المصرية في فتوحات السودان شأن يذكّر فيشكر . وغذاء الجمل في بلاد الحجاز امان الحشيش أونوى البلح أو اللبن ، وقدر أيت بعضهم يلقمه الثريد المصنوع بمرق اللحم ، وبلغني ان عرب السواحل تلقمه السمك نيئاً . والعرب يقولون ان أنثى الجمل تعرق من جميع جسمها ، أما الذكّر فانه لا يعرق الا من دوماته وهي شعر بين أذنيه ، والبدو يشبعون فتيلة قد يحتمهم بعرق جمالم فتصير سريعة الاشتعال بمجرد ضرب الزناد عليها . وجمال الحجاز صغيرة ضئيلة في الغالب ، والتي اقبال حرب منها هي المتعودة على الحمل . أما التي لغيرها من القبائل وخصوصاً البعيدة عن مكة والمدينة فانها غير معتادة على الاحمال وبعاني ركابها مشقة جسمية وخصوصاً ركاب الشقّادف . ويوجد غير الحمل في مدن الحجاز وعلى الخصوص في مكة والمدينة كثير من الحمير الحساوية (الحصاوية) المتينة ، ويؤتى بها من بلاد الحسا في شرق بلاد العرب . ومع ما هي عليه من السرعة في السير . فانها تحتمل المشى في هذه الصحراء ثلاثة أو أربعة أيام متتالية . ويمكنها أن تمشى في اليوم نحو مائة كيلو متر من غير أن ترى عليها أثراً كبيراً من التعب . وغالب هذه الحمير لا يخرجوها من الرص . ويوجد هناك أيضاً بغال متينة يؤتى بها على الخصوص من بلاد الشام أو العجم . والخيل في هذه المدن قليلة ، وهي تتحمل أيضاً مشقة السفر هناك أياماً متوالية ، وجسدها ليس بالجيد لان الجنس الطيب محصور في جهة نجد ولا يهرطون فيه إلا بأثمان غالية ، وعلى كل حال فان الجنس الطيب من الخيل في نجد قليل الاّن جداً : لان الانكليز بالهند يشترون منه كل سنة عدداً كبيراً يستعملونه في الغالب في المسابقات و يأخذون من نسله من أفراسهم نسلاً مختلطاً قوياً متيناً .

الطريق الى المدينة

تقوم قوافل الحجاج من مكة الى المدينة المنورة : فيسيرون في واحد من أربع طرق على حسب تبعية المقوم والجمالة اليها . وهذه الطرق هي : السلطاني — والفرعي — والغاير — والشرقي .

والطريق السلطاني هو أحسنها سيراً وأكثرها ماء . فاذا قامت القافلة منه خرجت من باب العمرة وسارت الى الشمال الغربي وتمر على المحطات الآتية :

وادي فاطمة — ويجرى فيه ماء عذب يأتي من السيول التي تنزل من جبال الطائف ، وبه مزارع كثيرة ، ويسكن فيه عرب الاشراف من ذوى حسين وذوى غالب ، ويسكن في المنطقة التي بينه وبين مكة الى بحرة بنو لحيان .

عسفان — مأوها قليل وفي طريقها عقبة لا تسع الا جملاً حملاً ، والعرب التي تسكن في هذه الجهة بشور (بشر) وحران .

خليص — بها بئر التفلة ومأوها غزير ويسكنها قبائل زبيد ، ويقرب منها واحة بها مياه جارية وفيها بساتين ونخيل .

القديمة — (القضية) قرية على البحر ومساكنها كواح صغيرة ومأوها من الحفر التي يخزنون فيها ماء الامطار ، وأهلها من زبيدو يشتغلون في الغالب بصيد البحر ومنها يتجه الطريق نحو الشمال .

رابع — وهي قرية على البحر الاحمر وفيها قلعة بها بعض الجند العثماني ، ومأوها من الحفر والآبار وأهلها من زبيد . ويأتي الى مياهها بعض السفن الصغيرة لمشتري ما يصيده أهلها من الاصداف وغيرها ، ويزلون اليها خفية كثيراً من الدخان وغيره من الاشياء الممنوعة وعلى الخصوص الاسلحة وما يلزمها من زخيرتها . ويبيعونها بأثمان رخيصة جداً .

مستورة — مأوها غرض (ومنها طريق الى بدر، الى الصفراء بمحونه الملف) ، ويسكن هذا الطريق قبائل صبح في بدر ، والاحامدة في الصفراء .

بئر الشيخ — وتسكنها قبائل صبح . والمياه على طول هذا الساحل لا ترغى الصابون .
ديار بني حصاني — مأوها غرض ويسكنها صبح ، والحوازم .

الحسراء — وهي قرية بها نهر عذب وفيها بساتين ونخيل ويكثر فيها البرتقال والليمون والموز والحناء ، ويزرع بها كثير من الخضر كالقثاء والبطيخ وغير ذلك ، ويسكنها الحوازم ، ومنها ينشئ الطريق الى الشمال الشرق .

الجديدة — وهي قرية مأوها عذب وبها قبر ولي الله سيدي عبدالرحيم^(١) البرعي المصري ويسكنها قبائل الحوازم والاحامدة . ومنها يميل الطريق قليلا نحو الشرق .
بئر عباس — ويسكنها جاب من الحوازم وصبوح والاحامدة ومأوها قليل ، ومنها يميل الطريق الى الشرق قليلا .

بئر ويش — ويسكن هذه الجهة قبائل الاحامدة والرّحّة (بكسر الراء وفتح الحاء) .
آبار على — ويسكنها قبائل عوف وعمر و ومأوها عذب وهي على مسافة نحو خمسة كيلومتر من المدينة المنورة ، ويترك فيها القوافل شقادهم وسحاليهم حتى لا يدفعوا عليها قوشانات في دخولها المدينة . ومن يريد أن يدخلها بحمله دفع عليه الرسوم المعتادة من جيبه . وربما طلب منه الجمال أكثر من اللازم فليتبدر .

الطريق الفرعي

والطريق الفرعي يتسدى من رابع متجها الى الشمال الشرق ويمر على المحطات الآتية :
وادي حرشان .

نقر الفار — وهو محجر ضيق منحدر نمر منه الجمال جملا جملا ويسكنه بنو سالم .

(١) وهو المقصود بقول بعض الشاذيين في أغنياتهم «يا سمد قل للنبي عبدالرحيم نحاش» ولعل المرض دهمه في طريق المدينة فمات ودفن بهذا المكان وله ديوان شعر مطبوع كله مدائح في الرسول

- بئر رضوان - وماؤها عذب .
 أبو ضباع أو أم ضباع - وماؤها عذب ويسكن فيها بنو عوف .
 الرياض أو وادي الريان - وماؤها عذب وشجرها كثير ويسكنها بنو عمرو .
 القدير - وفيه مجرى ماء .
 وادي المعظم - ماؤه عذب .
 بئر الماشي - ماؤها حلو ويسكنها عوف .
 آبار على .
 المدينة .

طريق الفاير

وطريق الفاير يتبدى من رابع أو من مستورة ويقطع جبل الفاير الى الشمال وهو أقل هذه الطرق مسافة . فاذا وصل المسافر الى الفاير صعد من عقبة عالية تشرف على هاوية عميقة طريقها ضيق جداً بحيث لا يسع الا دابة دابة . وهذا الطريق خطر في صعوده وهبوطه وخصوصاً على الركاب ، ومع ذلك تسير فيه الدواب بسهولة لانها متعوده عليه ، ومسافة الصعود الى ظهر هذه العقبة لا تقل عن ست ساعات . ويسكن الفاير ومنحدراته (١) قبائل اللهبة ومسروح وهم اشر العرب على الحجاج . وهذا الطريق يسمونه الطريق المدني ، لان اهل المدينة يستسهلونه في حجهم لقربه : فيركبون هجنهم أو حيرهم أو خيلهم ويسرون فيه قوافل ، قوافل . ولهم منازل ينزلون فيها حيث يكون الماء ويقيمون بها ريثما يأكلون ويصلون ثم يستأنفون السير الى مكة . وكثير من الحجاج الاقوياء الخفاف الاتقال وخصوصاً من المصريين كانوا يصحبونهم من المدينة الى مكة ، أو من مكة الى المدينة عقب أيام التشرى مباشرة وينتظرون بالمدينة حتى اذا جاءت القوافل اليها انصرفوا معها الى ينبع .

وكل حارة من المدينة تكون قافلة تسير تحت زعامة شيخ هذه الحارة ويسمون ذلك

(١) جل القبائل الموجودة في هذه الطرق الثلاثة بطون من حرب .

ركباً فيقولون «ركب فلان حضر الى مكة أو قام منها في يوم كذا» . وكذلك الحال في زيارة أهل مكة للمدينة المنورة قبيل شهر رجب .

﴿ الطريق الشرقى ﴾

والطريق الشرقى يخرج من مكة من باب المعلى ويتجه الى البياضية ثم يسير في طريق شمال طريق منى ويتجه الى الشرق ويمر على المحطات الآتية :

بئر البارود - مأوها عذب .

وادي الليمون - ويكثر فيه شجر اللامون والدارنخ والليمون الحلو ، ويزرع فيه البطيخ والخضر . وفيه ماء جار ينزل اليه من جبال الهدى ويسير في مجرى مبنى الى بساتينه وغياضه . ومنه يتجه الطريق نحو الشمال .

الحفائر - (الضريبة) مياهها عذبة وقرية من سطح الارض .

بركة سمرة - لا ماء فيها مدة الصيف .

بركة المسلح - (حارة) مأوها غزير وعذب وبساتينها كثيرة .

الحبيط - (الضيعة) .

سُقَيْنَة - (صفينة) وبها نخل وآبار عذبة .

السويرة جية - (السويرية) قرية يسكنها سادات من بني حسين وبها آبار ومزارع كثيرة .

الحجرية - ويبعد الماء عنها بنحو ربع ساعة .

غُرَابَة - أو غراب وفيها مياه كثيرة على عمق ذراع أو ذراعين من سطح الارض .

الغدير - أو الحنك وبعضهم يكتبها الحنق وفيها بركة كبيرة تملأ من مياه الامطار .

سيدنا حمزة -

المدينة المنورة .

وعربان هذا الطريق من الزيود^(١) واللّهبة^(٢) وعُتَيْبَة^(٣) ومَطِير^(٤) والرَّحَلَة^(٥) وهم أبعد الأعراب عن الحضارة .



نظام القوافل

قلنا ان الحجاج لا يخرجون من مكة الى المدينة الا في ركب القافلة التي تكون جَمَاطَها من أهل الطريق الذي يسرون فيه . وغالباً ما تكون جمال الحاج تابعة لجمال واحد وهو الاحسن ، أما لو كانت تابعة لجمالين فتكون مشغوليته أكبر وتعبه بينهما أعظم . وعلى كل حال فعلى الحاج أن يجتهد في تخفيف أحماله وأنقاله . فإذا اكملت شحنة القافلة نهضت الجمالة بحمالهم وأخذوا يقطرونها في بعضها قطاراً واحداً أو قطارين بجوار بعضهما ، وفي المقدمة يكون غالباً أكبر الركب وجاهة وعصبية . وجمال كل رجل تسير من خلفه مقطورة في جماله ، ومنهم من يرى تقدمها على جماله حتى تكون على الدوام تحت نظره خوفاً عليها من عبث العاشين . والجمال عندهم ينقسم الى قسمين جمال الشقذف : ويركبه اثنان ومعهما اللازم من فراشهما ومؤتتهما اليومية ، وجمال الحمل ويقال له العصم يحمل المتاع ويركب فوقه رجل واحد أو رجلان ان كان المتاع قليلاً . وأجرة العصم في الغالب ثلثا أجرة جمال الشقذف الذي يكون من الجمال المتينة القوية حتى

(١) اليهود شعبة ينسبون الى سيدنا ريد بن علي بن العابد بن . ومن عوائدهم أنهم لا يحسنون بل يسلحون حلدعاتهم وقصيدهم ، ويموت من جراء ذلك منهم خلق كثير ، وأطفال مكة يعيرونهم بذلك .
(٢) اللّهبة مشهورون بالعدو والحياة .

(٣ و ٤) هما من أكبر قبائل بلاد العرب قوة ومعة وأكثرها عدداً وأمسها شجاعة ، وأغلبهم لا يلبسون الا المنزعة ، وساؤهم على حارب عظيم من الشجاعة . وقد بلغ من المرأة العيبية أو المطيرية أنها تمسك بيد الفرس وهو يمدو وتجري معه ثم تصمط على ديله بيدها وتقذف بنفسها فوق ظهره ، وهي كذلك ترك الحمل في عدوه .

(٥) وعرب الرحلة لا يقيمون في محل واحد بل تراهم كما يشير اليه اسمهم منقلاً وراء السكالك من مكان الى آخر .

يتيسر له حمل ما فوقه . وليس لهذه الاجرة من رابطة بل يقدرها الشريف كل سنة باتفاقه مع الوالى ، على حسب أهوائهم واتحت رحمتهما بضيوف الله ، ثم ينادى بها المنادى فى الاسواق ، ولذلك تراها كالترمو منر ترتفع وتنخفض على نسبة مطاعم ولاية الامور بحكمة . ولقد كانت أجرة حمل الشفد فى سنة ١٣٢٨ ست ليرات عثمانية من مكة الى المدينة الى ينبع ، أما قبل الدستور فقد بلغت ١٣ جنيتها مصرى او نصفاً ، كانت تؤخذ من الحاج فى مكة بواسطة المطوف ، وهذا عدا ما كان يصيبه من الجمل فى طريقه من طلبه زيادة على الاجرة المذكورة مدعياً بأنه لم يصله شئ من أجرته .

وعليه فاذا كان الحاكمون فى بلاد العرب من الاخير البعيدين عن المطاعم ، كانت الجمالة على اخلاقهم ، والعكس بالعكس (والناس على دين ملوكهم) .

والمطوفون بعد أن يتفقوا مع الجمالة على حمل حجاجهم يسافرون غالباً الى المدينة فى قافلتهم بحجة المحافظة عليهم ، وكثيراً ما يفررا الجمالة بضعاف الحجاج فيأخذون الاجرة منهم ويخبرونهم بان الجمال خارج البلد ، ويرجونهم فى أخذها من هناك حتى يوفروا عليهم دفع القوشان (كلمة تركية معناها المكس ، وهو عوائد تأخذها الحكومة على الجمال الخارجة من مكة أو جدة أو المدينة أو يدع ، وليست لها قيمة مخصوصة بل ترتفع وتنخفض على نسبة مطاعم ذوى الكلمة هناك . وربما بلغت ريالين أو أكثر قبل الدستور مع أن الذى يرد لخزينة الدولة منها ستة فروش عثمانية فقط) . فاذا خرج الحجاج المساكين من مكة لا يجدون الا جمالا ضعيفة ضئيلة ينالهم منها مشقات جسيمة ، وكثيراً ما يتركونها ويسرون على أقدامهم جل مسافة الطريق أو كلها .

والقافلة لا تنتظم عادة الا بعد أول محطة حيث ينظم الجمالة جمالهم ويرتبون قطاراتهم التى لا يخالفونها طول سفرهم .

والجمالة فى الغالب نحيفوا الجسم رفيعوا الساقين قصار القامة يكاد أن لا يكون فى جسمهم عضل بالمرّة ، أما عظمهم فهو الحديد أو أشد صلابة ، ولهم قدرة على العدو بحيث لا يلحقهم فيه أحد : ولقد رأيت رجلاً منهم يعدو وراء جمل شارده حتى تعلق بذيله فعاقه عن الجرى ثم أمسك

بزمامه . أما ملا بسهم فهي قيص عليه حزام من الجلد به عادة سكين طويلة أو سيف صغير ، وفي يدهم عصا غليظة قصيرة يسمونها المطرقة وعلى رؤوسهم تلك الصمادة (الكوفية) ^(١) التي يلقونها عليها بأشكال مختلفة . وبعض عرب الشروق واليمن يستعملون غير الطاقية شيئاً من الخوص يشبه البرنيطة الواسعة ان لم يكن هوهي و يسمونها الظلة .

وبعض الجمالة يلبس بعلا في رجله وفيها من حرارة الارض وحصبائها . أما نظافة ملا بسهم فلا يمكنني أن أقول لك عنها غير أنها اذا اتصلت بجسومهم لا يخلعونها مطلقاً حتى تنخلع هي عنها ، وهذا لا يكون الا اذا أكل عليها الدهر وشرب . والمترفون منهم يغيرون ملا بسهم كل سنة مرة في موسم الحج ، وبعضهم يلبس عليها عباءة من الصوف أيام الشتاء تقيهم شدة البرد يسمونها مشلحاً . ولون هذه الملابس كلون الجبال أو الرمال : فتراها صفراء قائمة أو حمراء طوبية ، وربما كان اختيارهم لهذه الالوان حتى لا تُرى بسهولة من بعد بل يشكل فيها الأمر على الراي . وفي ذلك ما لا يخفاك من الفكرة التي أساسها الخبث والغدر !! وربما أخذ من هذا الغطية الاستحكامات الجديدة في أوروبا وبابطبة ترابية تشبه أرض المنطقة المحيطة بها . وبعض كبراء الحجيج يعطون جمالتهم عباءة من الجوح الاحمر فيفرون بها فرحاً عظيماً ويقع في نفوسهم موقماً حسناً ويتباهون بها على أقرانهم .

والجمالة بعد الاعداد عن مكة يلحفون للحجاج في السؤال ، ويلفظون لهم في الافوال : فترى أصواتهم هنا وهناك قائلين لركابهم « جرجوش - هله - سكر - جرش » . فيجيبه هذا الحاج أنت أخذت ، ويقول الآخر ما بقي شيء أو ما في معنى ذلك . وهناك يكثر بينهم الاخذ والرد الذي ينتهي بأخذ الجمالة ما يريدون . وكثيراً ما ترى في الطريق بعض أعراب من غير جمالة القافلة ومعهم جمال ضئيلة وهم ينادون (يارو يكب يارو يكب) ويكون ذلك غالباً في المحطات الالهة بالسكان : وتصغيرهم للركاب في نداءهم لا يخلو من معنى ينطبق على حقيقة من يركب معهم من هؤلاء الذين لم تسمح لهم ذات يدهم بالاستعداد على ركائبهم قبل سفرهم ، ولهذا فانهم يتساهلون في أجرتها كثيراً . وترى ذلك على الخصوص في طريق عرفة .

(١) أظن ان لفظ الكوفية : نسبة الى الجهة التي كانت تعمل فيها وهي الكوفة .

وعلى طول طرق القافلة ترى كثير من حجاج القور (التكرور) مشاة باطفالهم ، وكثيرا ما ترى الام حاملة طفلها في شبه كيس ملتصق بظهرها بحيث لا يظهر منه غير رأسه ، وعلى رؤوسهم بعض أمتعتهم ، وفي أيديهم صفيحة أشبه بالسكشكول يضعون فيها غذاءهم . وإذا كانت لهم حاجة الى السؤال سألو اركاب القوافل بلطف وأدب ، ومارأيتهم يطلبون غير الماء لانه يصعب عليهم حمله ، وخصوصا في مدة الصيف الذي تجف فيه القرب وتنشف الركايا . فاذا مرت القافلة قرب بيوت قبيلة من القبائل وجدت كثيرا من الاعراب ينادون على البطيخ الكبير يقولهم برطيخ ، وعلى صغيره يقولهم الخربز (وأصلها قاربوز بالتركية) ، وينادى بعضهم الما الما ، خُبْزُ خُبْز . الثمر ، الفجل الخ الخ ، فاذا قربت من ديارهم وجدت شزيمة من أولادهم يحيطون بك وأيديهم ممدودة للعطاء وهم يتغنون بقولهم : يا حاج سلامات ، يا فندي سلامات ، يا بو ياسلامات ، ان شاء الله سلامات ، ان شاء الله عرفات ، ان شاء الله بركات و بعضهم يقول : حج حجيج (حج الحجيج) بيت الله : والكعبة ورسول الله الخ . وكاني بالحالة واللفظة تهضم في أكفهم والحسنه تضيع بين أصابعهم لا يعرفون الكرامة الا وقت امتداد يدك بها اليهم ، فاذا انقضت حركتها صارت كماها ما كانت !! وهذا امر لا ينطبق على ما هو مشهور في الطبع العربي من دكره للنعمة وحفظه للجميل . ولهم أغنية يتغنون بها في طر يقهم ، وهي في الغالب على النعمة العراقية والرومية التي أخذوها عن حجاج الانراك والشوام . وجمالهم ترناح اليها وتسمع لها فتسببها لحظة ما هي فيه من التعب والعناء . وهذه الاغنية لا يكاد يعرفها من سماعها لانها أقرب الى الرطانة منها الى العربية ، على أنها لا تحلو من معان دفيقة لطيفة وأغلبها غرامية تمثل حكاية محب ومحبوب أو عاشق ومعشوق ومنها ما هو مدح في المطايا ودونك شيئا منها :

« يا حبيبي لو ترى حالي واللى جرى لى بعد فراقك

والله ما غبت عن بالى ولا نسيت الحصفاه ذاك »

« ياسيدوايش غر بك في دايرة الحفا والشوك ، يارهيف ، يامرود العين ، ياريت خدى

ينقسم نعلين ، الله يحاسبهم كما حاسبونى ، كما رمونى بجوف الوقيدة وانا حى » .

« لو اهنى بالحج واوفى جماره ، واقف على العيرات ساجدين مع الربيع ، (الجبل المرتفع) صبح أربع تسمى شعيب الخضارة ، مع مثلهن يمسى بوادى الربيع ، مع مثلهن كل تهنى بداره ، وادى النعيم الى عذوقه مهايبع » .

« يا الله ياراد كل غريب بلاده والذوق (النوم) بعد القسا (القسوة)

(يعنى التعب الشديد) ، حمت اللّمن (المن) والشام وكل دايره جيت من وراها ، لى فى اللمن سيدولى فى الشام باشا ، ان جيت عند اللى فى اللمن بيتى السيدى ملكنى ، وان جيت عند اللى فى الشام ييجى الباشا يحكىنى » . وينطقون بالقاف جيا غير معطشة وصغار الججاج من المصريين لهم أغنية يتغنون بها فى طريقهم وعلى الخصوص ساؤهم . وهى لا تخرج عن ذكر الطريق للحج و ذكر البيت وعرفة وزمزم ، وخصوصاً ذكر النبى عليه الصلاة والسلام . وكلها عبارات بسيطة ليس فيها شئ من المعانى العالیهة نذكر لك شيئاً منها :

« أنا ممدح محمد ، والحسن والحسين والقاسم أحمد ، بلغ العاشقين يارب زيارة محمد ، مديح باشتياق أنا ما ممدح الا النبى ، ياهنا الى ان وعد .
يا ليلة ان برّزوا و باتوا لبرّه ، و بات قلبى فى حنين ، و يطلب من الله يرجعوا سالمين ، بنصره من الله ، ياهنا الى ان وعد .

وان جيت حبيبي يا وور وان جيت حبيبي ، لا كنسك وأرشدك وبالشمع أقيدك ، مروق بنحوخه يا بحر ، يا بحر مروق بنحوخه ، لا يمك عكار ، ولا ريج بدوخه ، تحت ظل القلوع أبوشال وجوخه ، فى رابع نوى الاحرام ولبس احترامه ، يانهار الهايوم خلوه يفك احترامه ، يافرح قلبى يوم طلوع الجبل ، والخطيب على الجبل ، والمبلغ يرقى ، يافرح قلبى ساعة النفرة ، وفرحت عيوننا ونزلنا بفرحه ، وفوتنا من بين العالمين كان الفجر لايج ، يوم دخولنا منى ونصبنا الخيم وذبحنا الذبايح ، وافكرنا العيال وبقى الدمع سايل ، و بعد

ثلاث أيام حملنا مكة، وطفنا طواف الوداع وبرزنا، والجمال حملنا، وعلى أبواب ابراهيم سرنا، وصلنا قبلة المصطفى والاعتاب زمره، حول مقام النبي، قال الطواشي منين يا جماعة، زوروا النبي زوروا وأطلبوا الشفاعة .

والخداء قديم جداً في العرب . والمؤرخون يقولون ان أول من حدا الجمال مضر بن ربيعة وكان حسن الصوت ويملك كثير من الابل، وذهب بعضهم الى أن توقيع الجمال في سيرها هو الباعث الاول على وزن الشعر فيهم . ولهم لكل سير من سير الجمال بحر مخصوص : فاذا سارت الهويثا فالرجز واذا أسرع فالخبب . وقد كان الخلفاء يأمرؤن شعراءهم فيحدون لجمالهم . ومن ذلك أن عبد الملك بن مروان كان راكباً جملاً في سفره (ولعله في حجة) وجعله يحدو بقوله :

يأيها البكر الذي أراك * عليك سهل الارض في ممشاكا

ويحك هل تعلم من علاكا * ان ابن مروان علاذراكا

خليفة الله الذي امتطاك * لم يعمل بكر مثل ما علاكا

ووقت تحميل القافلة وتنزيلها تكثر السرقات من الجمالة أنفسهم . وقد يتفق جمالك مع جمال آخر فيحضر في هذا الوقت الذي يلبيك فيه بصريحه وصياحه في حين ما الاخر ينقض على عفشك ويسرق منه ما تصل اليه يده ، حتى اذا هدار وعك شعرت بما نقص من متاعك . وهنالك يكثر الصياح فيقول هذا : خرجي ، ويقول الاخر : ملابسي ، وغيره يصيح : لحافي وهكذا ، وبعد هرج ومرج من غير فائدة يسكت الصائحون شاكين أمرهم الى الله ، ويشغلون بتجهيز شؤونهم . وليست الجليلة قاصرة على هؤلاء بل ترى الصراخ من انحاء القافلة بتمامها فهذا يصيح قائلاً : يا حاج فلان ، وذلك ينادي : يا حاجة فلانة ، وآخر يقول : اندر ، وغيره يومئ به يشاهد الحرامي فيقول : شايفك ، وآخرون يشتغلون بنصب خيامهم فيدق هذا بمطرقة ، ويتصارع الآخرون مع جاره الذي زحزحه عن مكانه ، وهو في أثناء ذلك يزعم مع الذي من وراءه لانه يزاحمه على محله . وتسمع فيما بين ذلك أصوات الاعراب هذا يقول : الخطب الخطب ، وآخر يقول : الما الما

وهكذا ، ومأمم الاسارقون ما تصل اليه أيديهم ، ويفرون من حيث لا يشعرون بهم أحد .
 وبالجملة فتستقر هذه الجليلة صاعدة في هذا الفضاء الى عنان السماء نحو ساعة من الزمان ، أعني
 ريثما ينزل الحجاج حمولهم ، وينصبون خيامهم ، ويمهدون فراشهم بين رحلهم ،
 ويحيطونها بشقادفهم التي تلتف بها جماهم وجمالهم . وهناك يبدأ هذا في جلب الماء
 بنفسه أو بواسطة جماله ، وآخر يستقضي الخشب ، وغيره ينصب القدر لطبخ بعض الاغذية
 الجافة كالعدس والارز واللحم المجز ، وذلك في المحطات الصغيرة التي لا تطول
 الاقامة فيها ، أما المحطات الكبيرة فيشترون منها اللحم الطري الذي يذبحه بعض أعرابها ،
 و بعد العشاء يشربون قهوتهم وينامون بعد أن يعطوا الجمالة عشاءهم . والرفقاء من الحجاج
 يتناوبون السهر على حراسة غفشهم ، ومن يسهر منهم تراه على الدوام يصرخ بكلمات
 الاضطراب والانزعاج كقولهم ، « شايك ، ابعده ، لا تقرب » وهكذا . والحجاج يقضون
 حاجتهم بين رحلهم في الغالب ، ومن ابتعد عنها لا بد أن يكون معه أنيس يحرسه عند اشتغاله
 بنفسه ، والا فانه لا يحرم واحدا من الأعراب ينقض عليه ويضربه في رأسه بعصا يابسة
 قصيرة تخدم معها أنفاسه !! وهناك يشلحه من ملابسه أو يكتفى بقطع كمره من حزامه أو
 من ذراعته . فاذا استغيبه صحابته قاموا للبحث عنه فيجدونه إما فاقد للحياة فيوارونه التراب
 على حاله !! وإما فاقد للشعور فيأخذونه ويقومون بشأنه ، وقليل ما ينجو من هذه الضربة .
 وعلى كل حال فالناس في القافلة تراهم جلوسا أقياما ماعاشيتهم وخدمهم وجمالهم وتبعهم
 بلا فارق بين الجميع ، بل ترى السيد على الدوام يبالغ في السؤال عن خدمه والاهتمام بشأنهم
 حتى لكانه يتقرب بذلك منهم : وهناتحقق مسألة السادة الصوفية (سيد القوم خادمهم) .
 وقد يقطع الجمالة بعض الجمال من القافلة أثناء سيرها ، ويتظاهرون باصلاح حمولها حتى اذا
 ابتعدت القافلة عنهم أوقعوا بركابها وهم يستغيثون ولا يفتأون ، وسلبوهم متاعهم ، وكثيرا
 ما يجهزون عليهم ، ويفرون بجماهم الى حيث أرادوا . والادهي من ذلك كله ما يهدد القافلة من
 خطر هجوم بعض القبائل التي في طريقها عليها ، أو على الأقل وقوفهم في وجهها فلا يدعونها تمر
 الا بعد أن يأخذوا منها ما يرضيهم باسم أجره المرور في أرضهم ، وربما كانت لهم مع المقوم

وكبار الجمالة مناقشات حقيقية أو ظاهرة تنتهى على الدوام باقناع المقوم لحججه باعطائهم ما يطلبون .

وبالجملة فركب القوافل لاضمانه بالمرّة ، وهو بين أيدي المقومين والمطوفين كالطيرة الضعيفة في يد الطفل ان شاء أكرمها وان شاء أهال عليها المصائب والمتاعب من كل جهة ، لانهم طبعاً في هذا القضاء ، أرباب الحكومة والقضاء . وهم الذين يفضلون فيما عسى أن يقع من الحجاج من الشغار أو الصغار الذي هو شأن الطبقة السافلة منهم على الدوام ، لاسيما صغار الحجاج المصر بين الذين لا تسمع منهم على طول الطريق الا عبارات تافهة أو مشاجرات أساسها شئ لا قيمة له بالمرّة بما أدت الى أخذ البعض بخناق الآخر ، وذو والعصبية منهم هم الغالبون . أما اذا كان الشجار بين بعض الحجاج والجمالة ، فان كان الحاج ضعيفاً احتمل الالهانة لأول مرة ، والادافع برفع لسانه ويده بسرعة يعتبره رد فعل بالاعتذار اليهم والاستكانة لهم ، ولا يعدم الحاج المتشاحن في هذه الحال من اخوانه من يعنفه على شجاره مع الجمالة منتصراً اليهم لا بلسان الحق ولكن بعبارات الملق والمداهنة اللذين أساسهما الجبن والنفاق والعياذ بالله ، مما يجعل روح ذوى الاحساس الرقيق تردد بين حناجرهم وخناصرهم !! واذا آمن يريد بنفسه خيراً فعليه أن يصم أذنيه ويربط لسانه عن أمثال هذه المهارة ، فترتاح روحه ويطمئن قلبه وان كان ضميره في ألم مستقر .

وعلى كل حال فيجب أن يكون الناس في طريق القافلة كلهم عيوناً تحافظ على حياتهم ومتاعهم . وعندى أنه يجب على حجاج كل قافلة أن تكون لهم بصيرة على أنفسهم : فيرتبون أمورهم وينتخبون لما فلتهم رئيساً منهم قبل قيامهم من مكة . وهذا الرئيس يرتبهم في خارجها فيعين منهم خفراء بالنوبة يقومون بحراسة القافلة في أثناء سيرها وفي اقامتها . واذا حدث حادث في القافلة أثناء المشى أوقف سيرها ونظر فيما فيه صالحها : وهذا أظنه أولى من تسليم زمام أمرهم الى مقومهم . وما على حكومة الحجاز اذا رتب لكل قافلة خفراء من العسكر تقوم بحراستها في نظير رسوم مخصوصة تتقاضاها من ركاب القوافل ؛ فذلك يكون فيه شئ من الضمان للحجاج ، اللهم الا اذا صادفوا منه ضعفاً على اباله .

من غص داوى بشرب الماء غصته * فكيف يصنع من قد غص بالماء
على أناس معنا ونحن نكتب هذه الكلمات أن حكومة الحجاز مهتمة بتسيير السكة
الحديدية بين مكة وجدة . فإذا تحققت هذه الامنية سهل على الحجاج الطريق الى الحرمين
الشريفين بواسطتها . وهنا نرجو من حكومة الحجاز أن لا تجعل هذه السكة ضيقة مثل السكة
التي بين الشام والمدينة ، حتى لا تصادف شيئاً يعوق سرعة سير القطارات عليها ، والله تعالى
يوفقها بجنه وكرمه الى ما فيه الخير العام .

سفر الجناب العالى

من مكة الى الوجه

أمضى الجناب العالى بمكة يوم ١٤ ذى الحجة وهو يستقبل زواره ، ويفيض نضاره ،
على البائسين والمحتاجين ، بعضهم بواسطة رجال المعية السنية ، وبعضهم بواسطة حضرة
مأمور التكية الذى أحيل عليه البحث فى الالتماسات الخاصة بالمرتبات اليومية أو الشهرية .
وفى ظهر ذلك اليوم أمر حفظه الله فسارت حملة الحاشية الكريمة الى بحرة تحت قيادة حضرة
الامير الاى على بك اسماعيل ومعهما كثير من فقراء الحجاج المتقطعين مصريين وغير مصريين
ممن صدرت الارادة السنية بتسفيرهم الى بلادهم بناء عن التماسهم على نفقة الخاصة
الخدوية . ثم قامت فى عقبها حملة دولة الوالدة فوصلت حفظها الله بحرة فى منتصف الساعة
الثالثة بعد الغروب .

وبعد صلاة العشاء طاف الجناب العالى طواف الوداع ، وركب سعوه وفى ركابه
المخيم من بقى فى خدمته من رجال معيته ، وبمجرد ما خرج من باب مكة وجد دولة الشريف
وحضرة وكيل الوالى وكثيرا من الاشراف والكبراء قد اجتمعوا لوداعه ، وساروا فى
موكب ساعة شاكرين له همته السامية ، وآدابه العالية ، مكررين آيات الثناء على فضائله

وفواضله . فشكرهم جنابه العالى مودعا . وسار وفي خدمته أصحاب السيادة أنجال الشريف وسعادة مكتوب بجى الولاية والشريف ناصر الذى تعين من قبل الشرافة العظمى مهندارا لجنابه السامى مدة وجوده فى أرض الحجاز ، ووصل ركابه العالى بسلامة الله الى بحرة فى منتصف الليل . وأمضى فيها يوم ٢٧ ديسمبر ، وبعد صلاة العشاء ركب الى جدة .

وكان حفظه الله كلما مر فى طول الطريق على طابية ، وجد عسكرها نزلوا من طوابيهم لأداء واجب التعظيم ، وضرب ثيهم منبثا الطابية التى بعدها بقرب تشریفه اليها . ولما اقترب من جدة وجد سعادة قائم مقامها وحضرة قومندان عساكرها مع كثير من أعيانها فى انتظار تشریف جنابه العالى ، وسار الكل فى ركابه حتى وصل الى سلم الكورنتينة فى نحو منتصف الليل . وهناك سلم عليهم سموه شاكرهم عنايتهم وآدابهم ، وركب الزورق البخارى الى وابور المحروسة مع بعض رجال معيته . وكانت دولة الوالدة قد سبقت اليه مع حاشيتها ، أما باقى رجال الحرس والمعينة السنية فقد نزلوا الى وابور الرحمانية الذى كان فى انتظارهم .

وفى صباح يوم ٢٨ ديسمبر قابل الجناب الخديوى فى يخته أصحاب السيادة أنجال الشريف وسعادة قائم مقام جدة وحضرة قومندان عساكرها ، ثم قناصل الدول الموجودين فى هذا الثغر ، وكانوا قد أتوا بصفة رسمية لتوديع جنابه العالى ، فشكرهم سموه على آدابهم ، وأرسل تelfرافات الامتنان والشكر الى جلالة السلطان ، ومقام الصدارة العظمى ، ودولة الشريف ، وحكومة الحجاز ، على ما لاقاه حفظه الله من كمال العناية منذ حضوره الى هذه الاراضى المقدسة . وفى هذه الاثناء كان ينظر حفظه الله فى أوراق حكومته التى أتت الى جدة مع آخر بريد . وبعد ان أصدر أوامره السنية فى الشؤون الهامة ، أمر حفظه الله فسارت مركب المحروسة وقت الظهر تماما قاصدة الوجه : وهى ميناء فى ساحل بلاد الحجاز على البحر الاحمر ، وتبعد عن جدة شمالا بمسافة ٢٤ ميلا فوصلها ركابه العالى ظهر يوم ٢٩ ديسمبر ، وفى يوم ٣٠ وصلت مركب الرحمانية ، وهناك أخذ فى اجراء الاستعداد اللازم لسفر سموه برا من الوجه الى محطة البدائع للسفر منها الى المدينة المنورة بطريق السكة الحديد الحجازية .

الوجه والسفر من الى المدينة المنورة

الوجه قرية على عرض ٢٦ درجة و ١٤ دقيقة وطول ٣٦ درجة و ٢٧ دقيقة ، وفيها نحو أربعين بيتاً صغيراً . وعدد أهلها لا يزيد عن خمسمائة نفس : كلهم تقريباً عائلة واحدة تسمى عائلة البدوي ، ويشرف على القرية تلة من ورائها ، عليها قلعة حصينة ، وفي هذه القرية على صغرها ثلاثة مساجد يقصدها في أيام الجمعة كثير من العربان التي في ضواحيها من قبيلة بلي . وكانت لقرية الوجه أهمية عندما كان يمر عليها ركب الحمل مدة سفره على البر : فقد كانت تنصب فيها الاسواق وتفرق فيها العوائد على العربان . أما الآن فحياة أهلها من صيد الاسماك وتجارة السمك والاصواف التي تأتي اليها من وراء الساحل والفحم الخشبي الذي يؤتى به من داخل البلاد . وأغلب تجارتها مع السويس ، ومنها تقوم اليه في كل خمسة عشر يوماً بواسطة على إحدى مراكب الشركة الخديوية . ولما كانت الوجه محطاً لرحال الحمل المصري وممرًا للحجاج المصريين كانت ادارتها وماوليتها شاملاً من المويلح وضبا والعقبة في يد الخديوية المصرية ، وكان يعين عليها محافظ من طرف حكومة مصر مع قاض للنظر في الاحكام الشرعية ، وكان لها جند يحرسون الطرق ، حتى اذا انقطع الحج من هذا الطريق عادت ادارة هذه البلاد الى الدولة العلية .

ولقد كانت هذه القرية مدة وجود الجناح العالي بياها على أكمل ما يكون من معالم الافراح : فكنت ترى الرايات الحمراء على بيوتها وعلى سوارى فلايكها ، والعلم العثماني كان يخفق طول هذه المدة فوق قلعتها . وفي الليل كانت القرية تلوح كأنها الثريا زهاء وبهاء لمصابيح الزينة التي كانت على دورها ، وخصوصاً دار القا مقام والقاعة ، وبالجملة فقد كانت البلد في حركة هائلة لم ترها طول عمرها .

ومن سنة ١٣٢٧ رجع الحمل المصري الى الوجه من جدة لتأدية واجب الزيارة بالطريق الحديدي من محطة العملا . وسبب ذلك تعرض عربان الدرب الطويل ودرب ينبع له

بغير حق . ولعلمهم يرجعون عن غيهم فيعود الى مجراه الاصلى .

وفي يوم السبت الموافق آخر شهر ديسمبر نزل الجنب الخديوى الى البر ، وكان في انتظاره حضرة قائم مقام الوجه وسليمان باشا بورقادة شيخ قبائل بلى والمتعهد بحملة الركاب العالمى ، فركب حفظه الله الهجن مع حاشيته وسار الى جهة الشرق فى ركب حافل من عليّة عربان هذه الجهة ، وفي مقدمتهم نحو خمسين نفر آمن عرب عقيل على هجنتهم (وهم جنود للدولة من العرب مثل جنود البيشه) وفي أيديهم مزاريق مرفوع عليها العلم العثمانى ، وعلى رأسهم ضابط برتبة صاغ قول أغاسى ، وأمامهم فرقة منهم تضرب نوتهم بالنقرزان (النتره زان) على طول الطريق . وما زال حفظه الله سائرا بموكبه وفي خدمته حضرة قائم مقام الوجه وبعض مأمورى الدولة هناك فى وادى قال له أبو عرايش ، حتى وصلوا بعد مسيرة أربع ساعات ونصف الى ماء يسمى رأس حرامل ، وفيه مكان يسمى الرحبة . وقد كانت حملة الخيام سبقت اليه واستعدت فيه لقدومه الشريف ، فتصد سموه سرادقه ونزل من فى معيته كل الى خيمته .

أما دولة والدة حفظها الله فنذكر بكت مع صاحبات السمو والعصمة كريمى الجنب العالمى ، ودولة الرئيس فاطمة هانم أفندى ، ودولة والدة الرئيس نازلة هانم أفندى حلیم و بعض حاشيتها ، عربات صنعت بصنفة خصوصية للسير فى طرق الجبال بحركل واحدة منها ثمانية من الجمال ، ومن ورائها نختر وانات تحملها البغال ، على جملة اشكال ، حتى اذا تبين من هذه استرحن فى تلك . وكان خلفهن هوادج لمن كان فى معيتهن من القلقوات ، يتلوهن باقى حملة الركاب الخديوى من حرس وخدم وحشم ، يتقدمهم رجال المعية السنية . وما زالت هذه الحملة سائرة حتى وصلت الى المكان الذى فيه المخيم الخديوى فى مسافة عشر ساعات .

وفي يوم أول يناير ركب سمو الجنب العالمى بعد صلاة الفجر وسار بركبه فى وادى السيرير حتى نزل فى مخيمه بوادى أبى الفزاز ، وبه ماء يسمى باسمه ، ومسافة السير اليه على نحو اليوم السابق .

وفي هذا الوادى يكثر شجر العِشار والشرّاة (نوع من السنط) والفَرْيَظَة (نوع من الحلقة يرتفع عنها وتأكّله الابل) والدوم والاراك (السواك) ، وكذلك يكثر فيه نبات العوسج والخروع والضُرْمَة (تشبه الحلقة الا انها قصيرة) والرْمَث (نبات كالشيع) والخِرْمَة (مثل البتونيا) والسيال والحنظل وله عندهم فوائد كثيرة وخصوصاً في قطرانه الذى يستخرجونه منه . والعرب يدقون خشب السيال مع الحنظل ويعملون به شريطاً يضرّون عليه بزبادهم فيورى ناراً ، وهم فى غنى به عن الكريت .

وفي يوم ٢ يناير ركب الجناح العالى بعد صلاة الفجر وسار بموكبه الى مكان يقال له مسيل النجد ، وفيه ماء اسمه البداء ، ومنه تبدى الارض فى الارتفاع نحو الشرق ، فنزل فيه حفظه الله وقطع اليه المسافة مع ركبه فى مثل الايام السابقة . وقد وجدنا هناك أورطة من سوارى الجيش العثمانى كانت قد أدّت لحراسة جنابه الرفيع من قبل الدولة العلية ، وكانت تريد السفر الى الوجه لانتظار سموه ها والسير فى ركابه العالى فلم تتمكن ، لانها كانت تظن أن سموه يشرفها بعد هذا التاريخ .

وفي يوم ٣ يناير سار ركب الجناح العالى فى وادى النجد ، ومعه فرقة من خيالة الدولة حتى وصل الى خَشَمِ سَلْع ، فنزل به وبات فيه مع باقى ركابه ، والمسافة اليه كالمسافات السابقة . ويكثر فى هذا الوادى شجر العِشار والطلح (نوع من السنط) والماء فيه قليل .

وفي صباح اليوم الرابع من يناير ركب حفظه الله بعد صلاة الصبح وسار صاعداً من عقبة سَلْع (وسمونها البوق لانها على شكلها) الى شرفة المعجد فى أرض صخرية يكثر مدرها ، ويضخم حجرها ، ويصعب السير فيها على الخيل والبغال ، والحُمُر والجمال ، بل وعلى النساء والرجال ، حتى ان أحدهم سوارى الترك كان يسرع فيها بجواده فاهلب به وارطم رأسه بحجر فانكسر وأخذ الدم يتدفق من أم ناصيته ومن وجهه وأذنه ، بما فقد معه شعوره وكاد يموت حتف أنفه ، لولا أن الدكتور الحسنى طبيب الحرس الحدودى كان قريباً منه ، فقفذ بنفسه عن راحلته ، وتبعته باجزخاتى الخصوصية فضممنا

جراحه ، واشممناه بعض المنعشات التي أفاقته لوقته ، فركب جواده بين اخوانه الذين
بلاحقوا اليه ، وهم شاكرون لرجال الجناح العالي عنايتهم به واستعدادهم لمثل هذه
الطوارئ ، ذاكرون لهم حسن خیرتهم وعالی همهم .

ولم دشاهدت في الحبل الذي كان على يساري ما بعد مدخل البوق أثر كتابه بالخط الكوفي
محموره حفرًا بسيطًا في صخرة مشرفة على الطريق ، فرأيت منها هدهد الكلمات : « اسم
الله ما شاء الله باسم الله . . . المستنصر بالله » واني لا أدري اذا كان ذلك كتب في مدة
المستنصر بالله الفاطمي في مبدا المصنف الثاني من القرن الخامس للهجرة ، وقما وقع تنصر
ذلك الغلاء الفاحش الذي بلغ فيه ثمن الارdeb النعج مائه وعشرين ديناراً والذي أكل
الناس فيه بعضهم بعضاً . ادلا يبعد أن يكون هجرها في ذلك الوقت جماعة الى المدينة المموره
وساروا من هذا الطريق وفيدوا ناريج مروهم والاشاره لعلّة هجرتهم ، تذكر اسم الخليفة
لذلك العهد . كما يصحح ان يكون ذلك حصل في مدة المستنصر بالله العباسي الخليفة بغداد في
سنة ثمانمائة وثلاثين هجرية . على مدة الملك الكامل صاحب مصر . والذي حلف
صلاح الدين الابوين في عمارته للصليبيين : ان لا سعد أنه سبّ في هذا الطريق ورفقه من
عساكره ليرود الطريق من الشام الى بيت الله الحرام . ويدت بنيه عليه الصلوة والسلام ،
خصوصاً بعدما كان الاورج قد ملكوا أيتله (العتبة) ، واجلاهم عنها صلاح الدين في
سنة ٥٦٦ هـ وربما كانت هدهد المعثات هي التي سهلت طرق تق البر لحج شجره الدر .

و بعد ذلك أخذ الوادي في الانحراج ورسم أمامنا فوسا حتى نجعلها انه أوفل امامنا . ولم
نزل سائرین فبه الى الشرق حتى وصلنا الى مدخل بين جبلين شاهدين أحمرين (لون كرونات
الحديد) ، تتخللها طينيات قائمة سوداء أو صفراء عتال بعضهما مع بعض في موزاة واحدة في
الجبلين مما يحكم معه الرائي لاول وهلة انها جبل واحد قد تفرق عن بعضه بحادث طبيعي ،
ويسمون سلسلة هدهد الجبال حرّ العوير قال الشاعر :

واشرق أنجال العوير هاعل * اذا خبت النيران بالليل أوفدا

﴿ وقال أيضا ﴾

حتى وردن رَكِيَّات العوير وقد * كاد الملاء من السكتان تشتعل

والعوير احدى لابتى المدينة اللتين حرم عليه الصلاة والسلام ما بينهما فقال « حرام ما بين لانتها » . وفي الصحاح « انها حرتان بكتنفهما » . ويظهر أن يران هذا الحبل البركاني كانت تظهر أحبا نامن قبل وبعد الاسلام . والعرب تعرف ذلك كما قال الفطامي في شعره السابق من قصيدة مدحها يزيد بن معاوية . ويسمون بارها سارا الحجار وقد ورد ذكرها في الحديث الشريف .

وفي الظاهر وصلنا الى رأس الخرد . وهي قمة عالية سوداء تنرف على واد صيفي فرشت أرضه بحجاره صوانية حمراء وصفراء ، وفي حبه الشمالية ثمر للسول فيه بعض شجر الطرفاء وسات الارطى « تأكل الابل » . ويكثر في هذا الوادي المعتزان الذي يعطره روائح الركيه . وبارها سائر في هذا الوادي الصيق ونحن في شدة . يكون من الخرد حتى رلنا منه الى واد متسع يسمى وادي الذهب ، وليس فيه ماء . واكل يكثر فيه شجر العصاء وهو نوع من الطرفاء باره شديد يصربها المثل . وصعدا منه الى وادي بولي (أنى بلى) وهو واد حصباؤه كثيرة ، ومدراة كبيرة ، ورابطه كالمطبخ في حجمه ، وفيه يكثر شجر اشراه والسنط . ومن هنا بأحد الطريق في العلو ، والحال في الدنو . وقد صرب لونها الاحمر الى السواد ، وأخذت تنجزأ الى اشلاء هرمية دكرنا . مصر انى تحلت صورته الى أفئدتنا ونحن في سايانا الى الله تعالى ورسوله باحمل صورده ، وأختم مثال ' ' وهل هي الا وطننا العزيز بالدى بحجته يكمل الايمان ، ويرضى النديان ، نعمد كرا هذا الوطن العزيز ونحن في ركاب ملبكه ، وفي خدمة هذا الروح الامين الذى منه حياته وفيه خبراته ، وبركاته . نعمد كراة في هذه القفار ، انى ترسل علمها الشمس شواطأ من بار يشوى وجوه السفار . نعمد كراة ، وذكرا رياضه وغياضه ، ونحن نسير في أرض منها المدر ، وعرسها الحجر ، وثمرها الصخر ، وزهرها الوعر ، ومساكنها الفقر ، وساكنها الفقر ، ونسجها

لهيب الحر ! نعم دكرنا مصر وذكرنا نيلها ، وظلالها ، وليس هناك ماء الا ما يتصيب
عرقا من جسمونا ، حتى ~~احس~~ كأنها شماع باستور ، أو مرشح شوقي ، وليس من ظل
الاطل عوسجة أو طلحة يكاد يلهب من شدة ما يحيط به من الحرارة في شهر يناير !! نعم
ذكرنا مصر هنا وذكرنا أهلها وما فيهم من أخلاق قويمة ، وعواطف كريمة ، وسجايا سليمة ،
وآداب لا يصل إليها الا عراب !!!

وما زلنا سائرين في هذا الوادي حتى وصلنا الى مضيق دخلناه فوجدناه كثير التماريح ،
يلتوى بعضه على بعض كطريق الثعبان ، وأرضه غير معتدلة ، وفيها ثنيات كثيرة ، صادفت
المربات فيها مشقات كبيرة . وينتهي هذا الطريق بعقبة كثود صخرية في أرضها تنوعات
جمعة يصعب السير فيها على كل من مر بها !! لذلك انتظر فيها الحناب العالى حفظه الله لمساعدة
قافلة الركب الحديوى في المرور منها ، وبحسن نظره الثاقب وهمته العليا ، مر الركب جميعه
منها على أحسن حال ، وسار الى مخيمه الذى نصب في مكان اسمه النجوة وراء هذا العمبة
التي تدعى قبيلة بلى أن جدها مدفون فيها .

وفي صباح يوم ٦ يناير ركب الحناب العالى وتمتعته عربات دوله الوالدة وبقى حملة الركاب
الحديوى ، وسار حفظه الله في هذا الوادي الذى يسمونه وادي حلاوة . ومن هنا أخذت
الحبال تتقطع أشلاء على جانبه حتى انتهينا الى مفرق بين جبلين ، فصعدنا اليه بمنحدر رملى ميله
يبلغ ٣٠ فى المائة ، ونزلنا من الحناب الآخر فى واد واسع أرضه رملية خشنة ذات لون أحمر .
وما زال سائراً بهذا الوادي حتى نزل منه الى وادي العلا الذى يسير من الشمال الى
الجنوب ، ويكثر فيه شجر الطرفاء ونبات الحمض (تأكله الابل) وان كانت أرضه
مسيخة ، وفى وسطه محطة البدايع التى وصلها حفظه الله فى الساعة العاشرة صباحاً .
وكان فى انتظار ركابه العالى ، سمادة محاسبجى المدينة المنورة وحضرات مدير وخازن دار
الحرم الشريف ، واليكباشى وؤادك الذى تعين مهمندار ألقنا به الفخيم ، وأصحاب السيادة
الشريف شحات وكيل اماره مكة المنورة ، والشريف محسن والشيخ عبد الله شيخ ناحية
العوالى ، والشيخ ابراهيم أسعد شيخ خطباء الحرم المدنى ، والسيد حسن أسعد ، والشيخ

يحجي الدفتردار امام الحرم الشريف ، وعزتو حضرة صالح بك وكيل ادارة السكة الحديد الحجازية ، وحضرات قائم مقام محطة العلا وشيخ عربانها وقاضيه وشيخ مشايخ عربان عنزة وشيوخها وشيخ قبيلة بنى سليم (من حرب) .

و بمجرد ما شرف الركاب العالى تقدموا جميعا نحو سموه بواجب التحية والتعظيم ، وهنثوا جنابه الفخيم ، بقدميه بسلامة الله . فشكرهم حفظه الله ، وسار معهم الى صيوانه الخصوصى . وكانت قد اصطفيت على طريقه فرقة من الجند البيادة العثمانى و امامها حضرات ضباطها لاداء واجب السلام . و بعد أن استراح جنابه العالى قليلا استقبل وفود المهنيين بما جبل عليه من اللطف والايناس ، فخرج الكل شاكرين ذاكرين ما لقوه من آداب سموه . وأمضى حفظه الله ذلك النهار بالبدايع بين توارداى التهانى من كل جهة ، واصدار الاوامر بالاحسانات على فقراء هذه القبائل ، وخصوصاً من كان فى ركابه العالى منها ، كما أصدر أمره الكريم بتوزيع الكساوى على من كان فى خدمة الركاب الخديوى من الضاوية والسقائين والعكامة والفراشين والخميمة : وبالحملة فقد كان يوما كله حسنات ودعوات وابتهالات بحفظ جنابه الفخيم . و بعد ظهر ذلك اليوم أمر حفظه الله بسفر الحرس السوارى الخديوى وبعض بلوكات البيادة الى محطة العلا لانتظار عودة جنابه الرفيع بها ، كما أمر تجهيز قطار مخصوص يقوم مساء ذلك اليوم الى المدينة المنورة بحجاب من الحرس والخدمة وبعض رجال المعية السنية ومعهم الخيام والصواوين اللازمة لنصبها فيها .

أما قطار الجناب العالى ودولة الوالدة فقد تحرك من البدايع صباح يوم ٧ يناير .

وما زال القطار الاول سائراً فى وادى الحمض حتى وصل صباحا الى محطة الجداعة وهناك استوقفه باظرها ، لان السيول كانت قطعت جسر السكة على بعد ٢ كيلومتر منها . وقد أخطر الجناب العالى تلغرافيا بهذا الحادث ، ولكنه حفظه الله بمجرد وصوله الى محطة هديّة (قبيل الغروب) ، أوقف قطاره هناك ، وسار بالفاطرة الى محطة الجداعة التى تبعد عنها بنحو عشرين كيلومترا ، وبعد أن تقدم الى القطع وراه بنفسه عاد قائلاً (ليس من الممكن اتمامه قبل يومين) ، ولذا أمر سموه تأخير القطار الاول الى

محطة هديه ليكون الكل في حماه ، حفظه الله .

وهـ د ية مكان به محطة مبنية بالحجر الاصم الازرق على شكل فلعسة صغيرة في محيطها من اغل لتكون مكان دفاع للعمال ، وسط هذه الجبال ، اذ الزم الحال . وبجانبها بناء كبير عليه أحواض من الحديد لتستقي منها المطارات ، ويصعد الماء اليها بواسطة آلة رافعة تدار بالنزول (موبور) كما هو الشأن في جميع المحطات الرئيسة في هذا الخط . ومن خلف هذا البناء عشتى بعضها بالحجر وبعضها بالطوب التي يسكنها عمال المحطة وبعض العساكر المحافظين على السكة الحديد . وعلى حاشي الطريق الحديدى ، فوق درود الحبل الشرقى والغربى ، فلعمان يصعد الى كل منهما فرد فول من عسكر الدولة لحماية المحطة ويقيم بها طول النهار ، وينزل في المساء الى سكناهم من هذا العشتى . وهناك يصنعون الخبز لا بنفسهم وقد رأيناهم يعملون بحال نظيفة . وهو أشبه شئ مما كانوا يصنعونه بالصامولى عند العساكر المصرية .

وانتدأ مصيدا جميعا للفتنا عبر باب السكة الحديدية مشمولين برعاية الحباب العالى الحديوى حفظه الله . وما أسفرت نسمة يوم ٨ يابى رحتى أخذنا كل يستعد لهذا العيد السعيد ، الذى هو عند مصر الختبقى . ولكنه حفظه الله رأى عدم تكليف عبيده المحلصين بمالا يسعه حال هذه المادية ، وعندها أجمع الرأى تكليف هذا العاجر كتابه كلمة اخلاص رفعهاها الى أعتابه السنية وهما هي نصها .

ولى العمه ومليك الامه ،

انا الرجوا أن يسمح لنا سيدنا ومولانا بان ردّنى هذا اليوم السعيد ، الذى هو عند مصر والمصريين أكر عيد ، صدى صوب رعينك حينما كانوا وأبنا وجدوا ، فى اسهالهم الى الله تعالى يحفظ شحخصك المحبوب ، الذى استولى بفصله وكرمه على الارواح والقلوب . نعم رفع لا عتناكم السنية ونحن ها فى هذه البعثة الطاهرة ، بين يدي الله تعالى ورسوله ، ما سكتة ضمائرنا لذاتكم العلية ، من صادق الاخلاص والعمودية . نعم رفع لسموكم ما بين جنوبا من أفئدة كما صادق ولا لحناكم العالى ، حتى اذا شرفت بتقبيل الاغاب الكريمة ، تضرعت الى الله تعالى بان يحفظ هذه الطلبة العباسية ناجا على مفرق الزمان ، وأن يجعل من فضلها

ونوالها نعمة في عتق كل انسان .

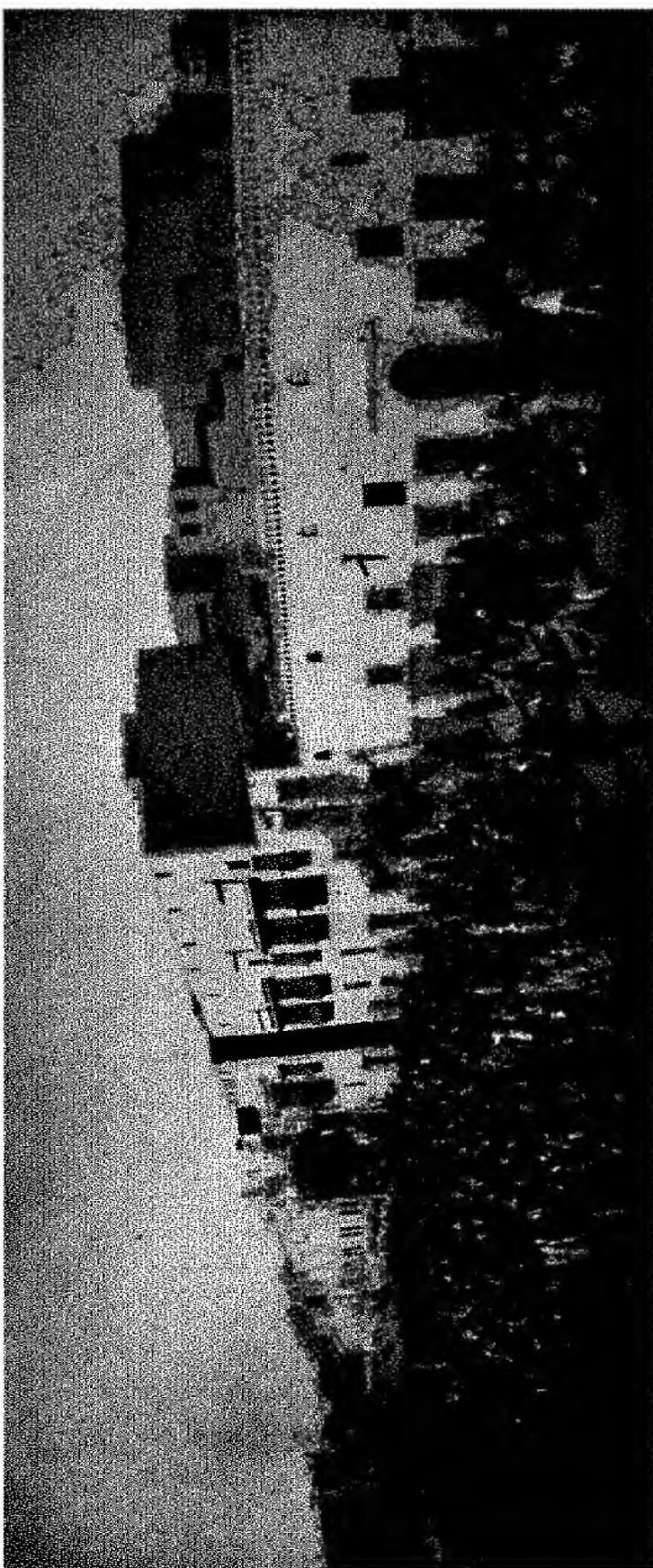
مولاي ،

انقد بارحت دار ملكك ، وخرجت الى الله تعالى ورسوله ، فابي الا أن يظلك السحاب في هذه الغفار ، وأن تغسل طرفك الامطار ، وتبت مع خطاك حياة هذه الديار ، بعد أن قضت سبع سنين لا صرع فيها ولا باب : وهل هذا أيها العزيز الا برهان الله الا كره قبوله لك بوردته لعباده ؟

وبعد ان أتممت حجك المروور ، وسعيت سعيتك المشكور ، عمت شطر رسول الله المصطفى . فعلوت من البحار ، وامتطيت صعب الغفار ، ثم ركبت سنام المحار ، حتى اذا كنت على مرحله منته صلى الله عليه وسلم ، أراد من فصله وكرمه ، ان يقع بك في حرم حبيبه كما يقع بك في حرمه : فانزل الغيث مدرارا ، وسير المحار أمطارا ، وأسأل من سيولها أهارا ، أوقفتك في طرفك لحظة شهت فيها يسيل اللادك يسعى بين يديك ، ليروى فيضه مواطئ أقدامك ، في هذه البراري التي يشهد أهلها بانهم لم يروا مثل سنتهم هذه في خبرها ورتها . وهل تريد يا مولاي دليلا غير هذا يعبر لك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بانك قدمت عليه وعلى قومه خير مقدم ، وزات منه في المكان الاول المحترم ؟

وانا أسأل الله تعالى بعد تمتعك بزيارة السيد المصطفى أن يردك الى بلادك ومن معك من آل بيتك الا كرمين في أكمل صحة وأتم عافية ، تكافؤكم عن الله تعالى وترعاكم عن رسوله ، كما رجوه جل شأنه أن يشرك معا على نعمتك التي تسير في محوحتها ، وأن يحمدك على نوالك الذي سقيا في ظلاله ، وأن يحجز بك عما خيرا الجراء .

وفضينا هذا اليوم المبارك في وسط هذه الغلالة ، التي لم تر في أرضها أثرا لدى حياة ، اللهم الاعمال الطريفة الحديدي . فيا الله من هذه البلاد التي لا يرى بها من جنوبها الى شمالها ، ومن غربها الى شرقها ، غير حجارة حجرية ، وجبال صخرية ، وهود رملية ، واحفاف من بحار الرمال ، تسوح فيها الاقدام كما تسوخ في الماء ، لولا أنها تتخلص من هذا بسهولة ولا يدين لها على الحركة في تلك 'ياشكر انك ربي وحمدك على نعمتك التي أعمت بها على عبادك في جميع



الكرسي المذبحي وبنو إسرائيل المدينت في نخوة مصر النج

BOENNE & ANDERER CAIRO

الاقطار والامصار ! فقد جعلت في طبيعة أرضهم ما يكفل لهم حياتهم : فليس من أرض حتى في منازل الثلوج ومر اقد الجليد الا وفيها فصل يثبت فيه النبات ، ويقدم لاهلها شيئاً من لوازم الحياة ، الالهذه الارض التي أسكنت في جوفها من ذرية خليك ، فاقام بها بيتك وقام بنوه بشرف خدمته ، فهوت اليهم قلوب زائريه من العرب الى أن أصبح يأتيه الناس من كل فج . حتى اذا أرسلت من ذريتهم الطاهرة ، وسلالتهم العاطرة ، نبك الامين ، ورسولك الامي الذي هجر الى هذه الديار أهله ووطنه ، ليتمكن من القيام برسالتك ، والدعوة الى طريقتك ، ضرب الكفر ضربة لم تقم له بعدها قائمة . ونشر في الناس هذا الدين القويم الذي أنقذهم من همجيتهم الاولى ، وفك ما كان في رقابهم من سلاسل المظالم وما كان في أرجلهم من قيود الذلة والهوان . وسار على أثره الشريف سخاته والقائمون بعدهم بخلافته : فنام شأن الاسلام واستولى المسلمون في أقل من ربع قرن على ملك الرومان ، واليونان ، والفرس ، وبلغوا سويداء الهند ، ومحاهل افريقيا ، وصحارى بلاد المغرب . وما زالوا كذلك حتى امتد ملكهم في القرن الثاني من بلاد الصين شرقاً ، الى مدينة پواتيه (Portier) قرب باريس غرباً . وبالجملة فقد جمعت حكومتهم بين دفتيها ملك الرومان ، واليونان ، والفرس ، والمصريين ، والاشوريين ، والبابليين ، والفينيقيين ، والقرطاجيين ، والبربر والفرنجة ، وغيرهم ، واستقرت دولتهم الطويلة العريضة نحو سبعمائة سنة وهي كالشكاة تيردياجير المعمورة تنراس المدينة الصحيحة التي من أجل آثراها وهو ما لا ينكره عليه أعداؤها . رقى الاخلاق والاخذ بناصر الفضيلة التي انما هي عمار الكون ، ونظام الوجود .

فيالله من كان يظن أن هذه العميا في القفار يخرج من جوفها هذا النور الذي أضاء الكائنات ، وتلك اليد القوية التي ضربت على أيدي المظالم التي كانت تسقطها الملوك على رؤوس رعاياهم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً في القرون الوسطى ؟ من كان يظن أن أحقاد هذه الرمال ، وأجلاف تلك الجبال ، تنشئ هذه المدينة التي يرفل في بحبوحتها العالم أجمع ؟ هذه المدينة التي خدمت العلم خدمة تذكر فتشكر : بخدمت العلوم الطبية ، والكيمياء والطبيعية والفلكية والنباتية والرياضية ، حتى أن فرنسا كانت تستمد من مدرسيهم ، كما هو الحال في

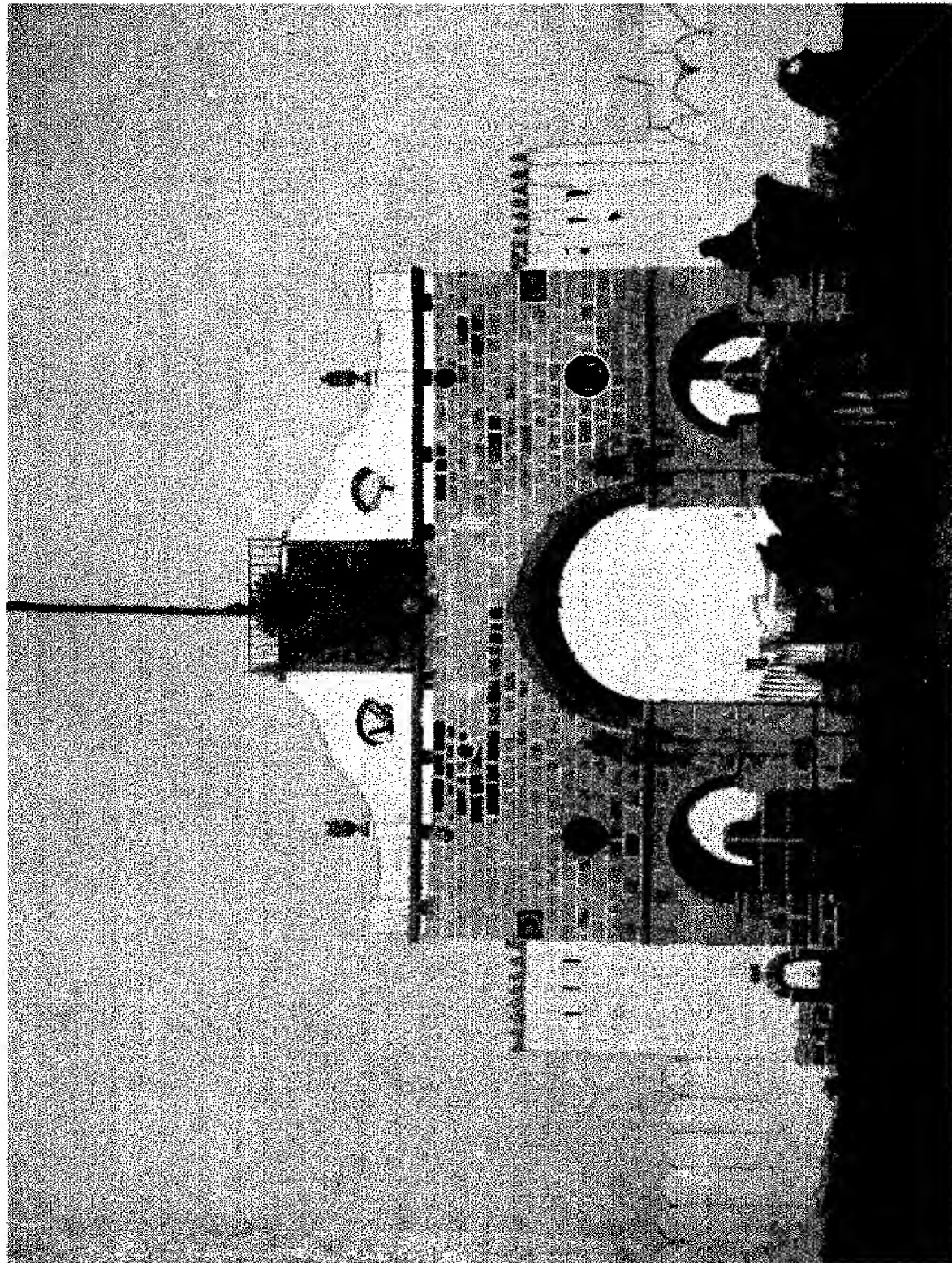
الممالك الشرقية الآن مع أوروبا !! ولقد بلغ من عمران الدولة العربية في الشرق والغرب ما لا يبلغه عمران أى دولة قبلها : انظر الى الامويين في دمشق والاندلس ، والعباسيين في بغداد ، تر من رقيهم في الصناعات ومعارج العرفان ما لا يفوى الا فرنج على انكاره ، ودونك كتاب مدنية العرب (Civilisation des Arabes) تأليف « جوستاف لوبون » فانك ترى فيه المعجب والمطرب !! فهل تريد بعد ذلك كله برهاناً على صحة دين الاسلام وحجة على حقيقة من اهتدينا بهديه واتهجنا سبيله ؟

لذلك كان من اللياقة ، ان لم نفل من الواجب ، التوجه لزيارة هذا السى المصطفى ، الذى قضى حياته جميعها فى سبيل خدمة الانسانية العامة ، واثارة سبلها المدلهمة ، بمشكاة هذا الدين المتين ، دين الحرية ، دين الاحاء ، دين المساواة ، دين العدالة ، دين الفضيلة ، دين الحياة الصحيحة .

وفى ظهر اليوم التاسع من يناير وصل الخبر باستعداد الخط . فأمر حفظه الله بتسيير القطار الاول فقام من محطة هدية فى الساعة الثامنة عربى نهاراً ولما وصل محطة الجداعة (وهى فى الكيلو ١١٥٦) سار اهلها حتى غادر مكان القطع الذى كان طوله نحو الفى متر ، والذى أملت فى اصلاحه عساكر الدولة التى استدعيت اليه من المدينة بلائذ كرفيشكر . ومياه هذا السيل كانت آتية من جبال الطائف ، مما يدل على كثرة الامطار التى نزلت فى تلك الجهة ، ونزل منها بحجار كثيرة الى مكة والمدينة والى الطرق التى بينهما .

واستقر القطار سائراً فى وادى النعام الذى يتبدى من محرى السيل ، ويكثر فيه شجر السنط ، ومر على محطة النعام ، ثم محطة عنتر وفيها قلعة قديمة على قمة الجبل الغربى ، ولعلها كانت على طريق الحاج أيام سيره على البر . وهذا الجبل يسمونه أيضاً جبل عنتر ، ولا أدرى لهذه التسمية من سبب ، غير أن ديار عبس كانت شمال المدينة مع شرق ، وربما كان هذا الوادى من منازلها أو كان لها فيه واقعة باسم بطلمى المشهور الذى مات قبيل الاسلام . وكان عليه الصلاة والسلام يسر بحديث الناس فى سيرته . وما زال القطار سائراً حتى وصل الى محطة الحفيرة والى عصا التسيار للمبيت بها .

باب العبرية (الباب الرثاوى) بالمدينة المنورة



أما الجنب العالى فقد بات فى المحطة التى قبلها وتسمى محطة البوير .
والمحطات من هدية الى المدينة المنورة لم تسكل عملية البناء بها ، وكان العمل فيها جاريا
على قدم وساق ، وكان يعمل فيها كثير من المصريين وأغلبهم من مديرية قنا وجرجا ، وهم
فى شدة الفرح بمقدم ما يملكهم الحبوب . وكانت العساكر على طول السكة الحديدية يقفون
فى كل محطة لاداء واجب التعظيم للجنب العالى الحديوى من البدايع الى المدينة . وقد كان
عدد العساكر بهذا الخط قبل تشرىف الركاب العالى ثلاث أوط عثمانيسة للمحافظة عليه ،
فزادوا عليها أربع أوط قبل تشرىفه أيضاً للمحافظة على ركابه الفخيم ، فكنت تراهم
منتشرين هنا وهناك وفوق الحبال على طول السكة .

ومازلنا حتى مررنا على القطع الثانى الذى كانت أحدثته السيول فى الحسكر قبيل المدينة
المنورة بمحومة كيلومترات . وهناك شاهدنا قبة سيدنا حمزة رضى الله عنه ، ثم أهله
مآذن الحرم الشريف . وعندها أخذت الاعناق تتطاول ، والابصار تتجاول ، فى هاتيك
الارجاء ، مستطلعة أنوار القبة الخضراء . حتى اذا تجملت لنا فخامتها امتلات القلوب
افراحاً ، والصدور اشراحت ، والعيون فورة ، والافئدة مسرة ، وراوات الارواح أن تخرج
عن نظامها ، وتطير من جسومها ، الى نور الانوار ، وسيد البرار ، ومصدر سعادة العالمين فى
جميع الامصار ، لولا أن الجسوم كانت تتعاقبها ، ناهضة بركابها ، ضاربة آباط وابورها ،
مهالة ، مكرة ، داعية ، ملبية .

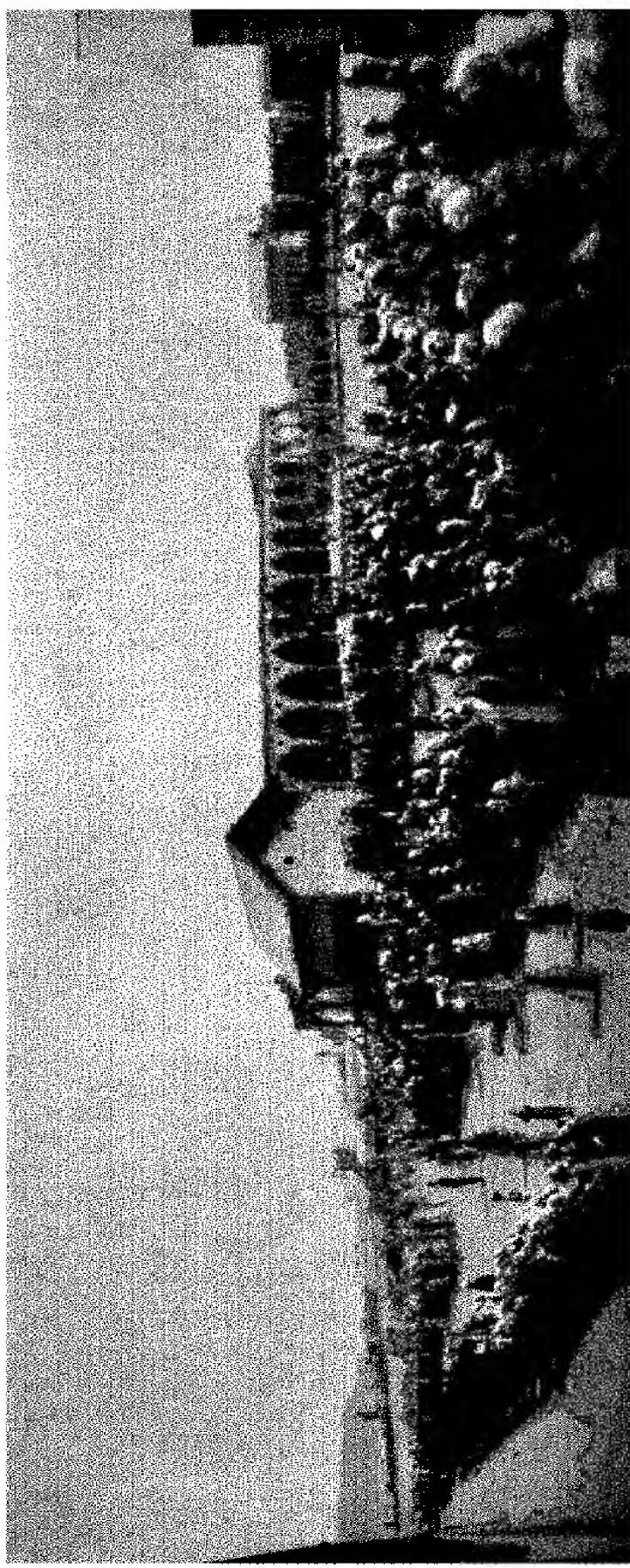
هم نعم كنت ترى الارواح ترفرف بظروفها ، والقلوب تزحف فى تجاويها ، لتسبق
الركاب ، الى ذلك الجنب . وهناك كنت ترى هس العجنان ، وحقيقة الوجدان ،
يتطيران ، من أطراف اللسان ، فى صورة تحيات خالصات ، وتسليمات سنيات ، الى سيد
الكائنات . وجميع الحواس متهيئة الى التمتع بهذه المنحة الكرى ، والنعمة العظمى ، والعين
تفتخر عليها بشرف سبقها الى هذه السعادة التى لانهاية لها ، ممتنة عليها بانها هى التى زفت اليها
شرى الوصول ، الى غاية المأمول .

ومازال القطار حتى دخل بين بساين المدينة ونخيلها الغربية . وأخذ يسير بنا الهوينى حتى
وصلنا الى محطة المدينة المنورة فى الساعة الخامسة عرى نهاراً . وكان العدد الجم من الالهالى

ساء ورجالا على جانبي الطريق الحديدي الى المحطة التي اكتظت ساحتها بفود الناس على اختلاف طبقاتهم، وفي مقدمتهم سعادة علي رضا باشا محافظ المدينة وقومندان عموم القوة العسكرية الموجودة بها، ومعه كثير من المأمورين العسكريين والملكيين الذين كانوا يقومون بامر النظام العام استعداداً لمقدم الجناب العالي الخديوي. وكانت عالية التوم على رصيف المحطة يتقدمهم حضرات شيخ الحرم ونائبه ونيب الاشراف وصاحب الفضيلة قاضي ومفتي المدينة.

وفي الساعة السادسة تماماً صرحت المدافع ايذاناً بوصول الركاب العالي فتشارفت الاعناق، وتماذدت القامات، لمشاهدة الفطار من بعد، وما زالت الابصار تلمحه حتى وقف في رحبة المحطة (لان رصيفها ما كان كمل بناؤه). وهناك صعد سعادة المحافظ الى صالون الواوور لتأدية واجب الاعظام، وتبليغ جنازه العالي سلام الدولة العلية، ونهاى الحكومة المحلية. ثم صعد شيخ الحرم ونيب الاشراف، وبعد واجب السلام نزل حفظه الله من العطار، وسلم على اعيان المدينة الذين قدمهم حضرة المحافظ الى جنازه العالي واحداً بعد الآخر، وسار ومن خلفه سعادة المحافظ ودوله الرئيس كمال الدين ورجال معيته السنية يتلوهم شيخ الحرم وأعيان المدينة المنورة بين صفوف العساكر التي كانت تؤدي التعظيم، وموسيقاها تضرب السلام الخديوي، ودخلوا من باب العميرية: وهو باب عال مشيد يبلغ ارتفاعه نحو عشرين متراً منقوش بالليقة الذهبية ويسمونه الآن بالباب الرشادي تيمناً باسم صاحب الخلافة العظمى. وما زال الكل سائراً حتى وصلوا الى الصيوان المخصوصي الخديوي الذي كان قد نصب في مقدمة خيام حاشيته الكرامة داخل سور المدينة الكبير. فاستقبلهم جنابه العالي بكرمه وابتسامه، كما استقبلوه بصفوف بحياتهم ونهايتهم. ولقد كان الصيوان الخديوي حافلاً بكراء القوم، وكانت رؤساء المعية السنية يقدمون اليهم كل ما فيه راحتهم. وهناك قام الشعراء والخطباء، هؤلاء يرتلون آي الثناء والدعاء، وأولئك يصوعون النهاى، في اسلاك المثلث والمثلثي، حتى كان يحيل الينا ننايين وفود العرب على الرشيد، في يوم عيد. ومما يذكرون آداب القوم أنهم لما فرقت عليهم السيكرات أكرروا المقام على التدخين، وبعد ساعة انصرفوا شاكرين، وبكرم الجناب الخديوي متحدثين.

استقبال الجنرال العلي النجدي في محطة القطار الجديدة بميدان المنيرة



الجناب العالى الخديوى بالمدينة المنورة

لما استراح الجناب العالى من عناء السفر ، امتطى صهوة جواده بعد صلاة العصر ، وقصد الحرم الشريف لاداء واجب الزيارة ، ومعه دولة البرنس وفضيلة الاستاذ المفتى وسعادة محرم باشا وبعض رجال المعية السنية . فدخل حفظه الله من باب السلام ، وبعد تأدية الزيارة وصلاة المغرب بالحرم الشريف ، أدى واجب الخدمة بالمقصورة الشريفة ، ثم قصد زيارة دولة الوالدة وكانت اقامتها مدة وجودها بالمدينة فى بيت شيخ الحرم ، الذى هو دار عثمان ابن عفان رضى الله عنه ، ثم عاد حفظه الله الى مقامه فى معسكره .

وقد كنت توجهت الى الحرم مع بعض اخوانى من المعية السنية ، وكان يبعد عن مخيمنا الذى كان بجوار باب العنبرية بنحو ثلث ساعة سيرا على القدم . فدخلنا كالعادة من باب السلام ، وصلينا ركعتين فى الروضة الشريفة تحية للمسجد ، ثم خرجنا الى الرواق القبلى واتجهنا الى المقصورة الشريفة ، وتمثلنا بمنتهى ما يمكن من الخضوع والاستكانة امام أول باب منها ، تجاه مسار من القضة جعل فى مقابلة الكوكب الدرى الذى وضع فيها بحاذى الوجه الشريف . هنالك وقفت النفس بالمركز الذى ينبغى لها لقاء هذا الجلال وهذه العظمة : فكنت ترى الروح بمجموعه ، والقلب بنخشوعه ، والطرف بدموعه ، واللسان بخضوعه ، ترفع عبارات السلام ، الى سدة سيد الانام . وبعد أن دعونا الله بما شاء الله ، انتقلنا الى مقام سيدنا أبى بكر بالشباك الذى يليه ، فسلمنا ودعونا . ثم انتقلنا الى مقام عمر بجواره ، فسلمنا ودعونا . ثم اتجهنا الى حائط المقصورة الشرقى ووقفنا بباب فاطمة ، فسلمنا ودعونا . ولست فى حاجة لأن أردد القول بان جلالة المكين ، ونخامة المكان ، لهما على الانسان ، مهما كان تأثير يقف به فى موقف الخاضع الخاشع !! وعلى كل حال فالكل يرى نفسه فى موقعه هذا قد وصل الى غايته ، وبلغ منتهى سعادته .

وكان الجناب العالى مدة وجوده بالمدينة المنورة يكثر من الصلاة فى الحرم ، ولا اذكر أنه

انقطع عنه في صلاة الفجر والعصر والمغرب والعشاء . وكان حفظه الله يؤدي شرف (١) خدمة اسراج القناديل في الحجرة الشريفة مساء ، واطفاؤها صباحا ، طول مدة الاقامة بها . ولقد سعدنا بالدخول في معيته السنوية الى هذه المأمورية الشريفة غير مرة : فكان قبل صلاة المغرب نلبس فروجيات بيضاء ، ونشد عليها أحزمة ، ونلف على رؤوسنا عمامة على نظام خدمة الحجرة ، ثم نتشرف بالدخول ، من باب البتول ، وبعد مرورنا على حرم السيدة الزهراء ندخل من باب في غربه الى الحجرة الشريفة . تقدم متلّمس ، وطرف منخفض ، وقلب خافق ، وفؤاد مضطرب ، ومثال متأدب . وجدان متغلب ، وروح ينكش خضوعا ، ونفس تذوب خشوعا ، وحشاشة تتصبب دموعا ، وألباب ترفع لا عتاب ذلك الجناب ، آيات السلام ، بكل اجلال واعظام . وبعد تأدية ما يسهه الله تعالى من شرف الخدمة ، نخرج من باب في الجهة الشرقية ، الى حجرة السيدة فاطمة رضي الله عنها ، وبعد أن نقرأ ما تيسر من القرآن بآرحة المسكان ، والجنان واللسان ، لا يستطيعان تصويبر ما كان . وغاية ما كنا نشعر به عقب هذه الزيارة ، انما هو قوة تجددت في روحنا الذي امتلأ سرورا وحبورا ، وراحة تمددت في وجودنا كما نرى فيها كل عين وسعادة .

وفي يوم الثلاثاء بعد صلاة الفجر في الحرم الشريف ، أدى الجناب العالى خدمته بالحجرة الشريفة ، ثم قصد زيارة البقيع وهو مقبرة المدينة ، فابتدأ بزيارة قبّة سيدنا عثمان بن عفان وهي في الشرق ، ثم قبّة سيدنا الامام مالك وهي في وسطها ، ثم قبّة سيدنا ابراهيم ابن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قبّة زوجات الرسول عليهن رضوان الله ، ثم قبّة (٢) سيدنا العباس وسيدنا الحسن بن علي في الزاوية القبليّة الغربية بالبقيع ، وهي أنفخ القباب الموجودة

(١) هذه الخدمة يقوم بها الامراء والعطاء وغيرهم من أعيان المسلمين في زيارتهم للرسول عليه الصلاة والسلام . ولا تكون الا بصريح من شيخ الرأفة النبوية الذي يصدر فرمانا لمن يتشرف بالاتظام في سلك هذه الخدمة . ومن عادة هؤلاء الامراء ان يلبسوا عمامة ، في أثناء المدة التي يكونون بيدين فيها عن المدينة . اناسا من أهلها يقومون نادائها عنهم في مقابل مرتب يرسلون به اليهم سنويا .

(٢) بجوار هذه القبّة قبر بطل القوقاز الشيخ شامل الذي توفي سنة ١٢٨٨هـ .



باب السلام باجرم المذني

به، ومقصورة سيدنا الحسن فيها فخمة جداً : وهى من النحاس المنقوش بالكتابة الفارسية، وأظن أهم من عمل الشيعة الاعجام . ثم زار حفظه الله كثيراً من قبور الصحابة والتابعين والصالحين . و بعد الظهر زار التكية المصرية وأثنى على مأمورها لما رآه من حسن نظامها، ثم ركب حفظه الله وقصده دار الحكومة العثمانية ليرد الزيارة الى سعادة محافظها، فاستقبل بما يليق بمقامه العالى من مظاهر الاجلال والا عظام .

وفى يوم الاربعاء بعد صلاة الفجر واداء الخدمة فى الحجر الشريف، قصد الجناب العالى زيارة مسجد قباء مع بعض رجال معيته السنية ، ثم عاد حفظه الله قبيل الظهر الى المسجد الشريف ، فصلى الظهر فيه ، ثم رجع الى مخيمه وأمضى نية النهار فى استقبال زائريه من رؤساء المدينة وأعيانها .

وفى يوم الخميس أدى الخدمة على حسب عادته، ثم قصد يار دسبد احمره ، وكان السيل قد قطع طريقه على زائريه ، ولكن ذلك لم يوقف همه جماله العالى عن سبده عريته . وسدع بحواده فى الماء الذى كان على ارتفاع نحو متر، فاصداً عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حفلى بزيارته ، ووصل الى معيته، ولا عرو وعزائم الملوك ملوك العرائم .

وفى يوم الجمعة بعد اداء جماء السامى خدمته بالخمره السرته صباحاً رجع الى المعسكر الحديوى، واستمر الى قبيل الظهر فى استقبال زائريه، ثم قصد الحرم الشريف لصلاة الجمعة . وبعد هارار دولة الوالد . ثم قصد منزله الشريف وأمضى يومه فى توزيع الصدقات ، واسداء الاحسانات ، والغار فى ترتيب المرتبات ، لدوى الحاجات ، من أهل المدينة والخابورين، مصريين وغبر مصريين . وكان فى اناء ذلك يصدر أوامر الكريمة بتجهيز حملة ركانه العالى للسفر الى تنوك فى اليوم البالى . وبالجملة فمد كان حفظه الله مدداً قامته بالمسدية محط الآمال، ومكان الاعظام والاجلال ، من جميع الطبقات، وكانت موسيقى المحافظه الحربية تحضر يومياً سهاراً و ليلاً أمام الصيوان الحديوى وتشف الاسماع بنعماتها الشجية .

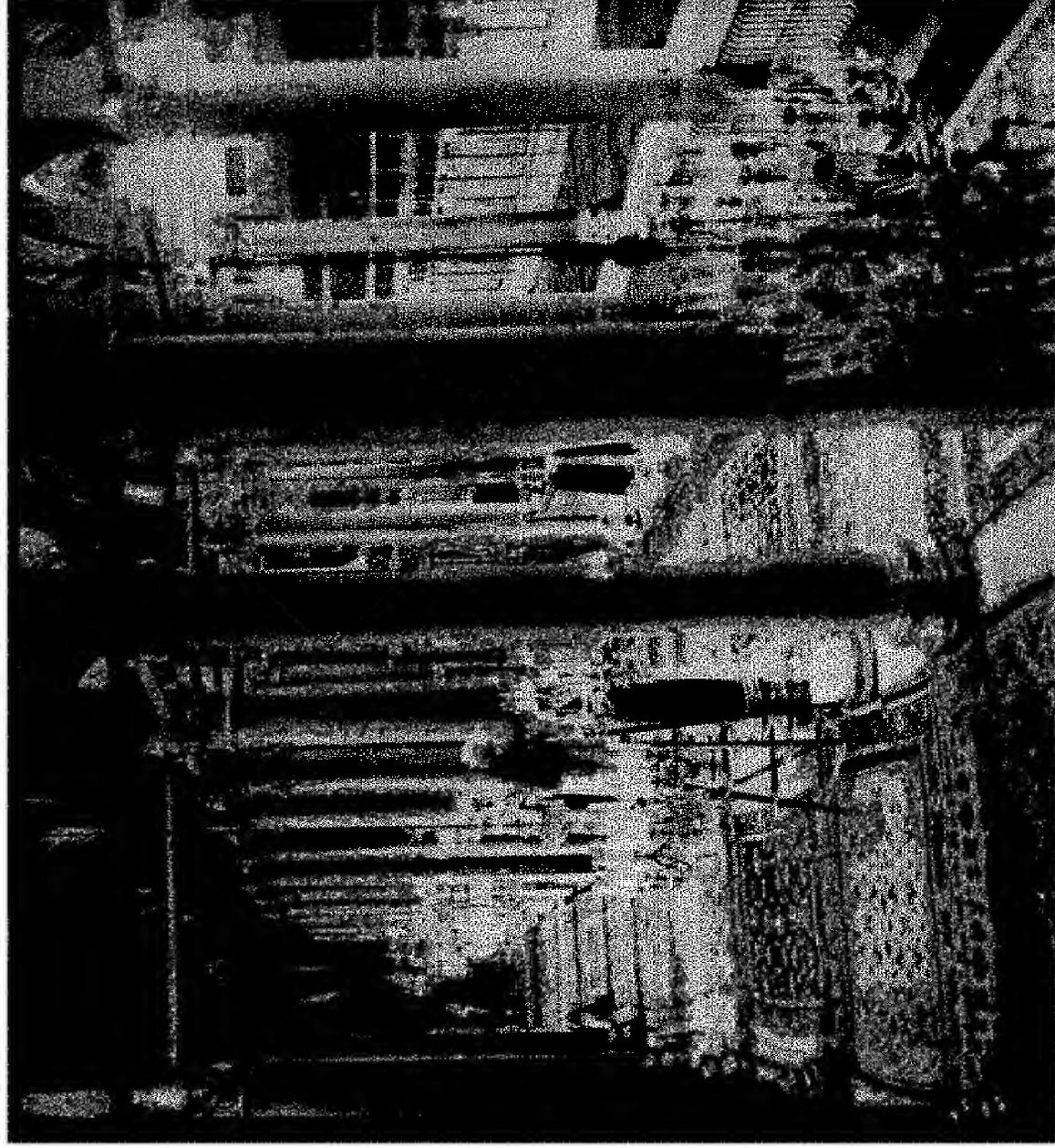
الحرم المكنى

الحرم المكنى وهو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، واقع في وسط المدينة بميل الى الشرق، وهو لطيف الشكل، جميل المظهر، على هيئة مستطيل، متوسط طوله من الشمال الى الجنوب مائة وستة عشر متراً وربع، وعرضه من الشرق الى الغرب من جهة القبلة ستة وثمانون متراً وخمسة وثلاثون سنتيمتراً، ومن جهة الباب الشامى ستة وستون متراً. وينقسم في وضعه الى قسمين المسجد والصحن: والمسجد يتدى من قبلة عثمان، أعنى من الحائط المبلى الى الصحن من جهة، وفي طول ما بين باب الرحمة وباب الساء من جهة أخرى. وهذا القسم جميعه مغطى بقباب ترتكز على أقواس قامت على عمد من الصوان المكسو بطبقة من المرمر الموشى بماء الذهب. والقسم الثانى وهو الصحن، ويسمونه الحصوة، شكله مستطيل الى الباب الشامى ويحيط به من جهاته الثلاث، أروقة ثلاثة فيها أعمدة تحمل أقواسا رفعت عليها قباب تناطح السحاب!

وعدد جميع أعمدة الحرم الشريف بما فيها المتصلة بجوائطه يبلغ ثلثمائة وسبعة وعشرين عموداً، منها ٢٢ داخل المصورة الشريفة. وفي مدخل الباب الشامى للمدرسة المحمدية، وفيها كتابان لتعليم القرآن على الطريقة القديمة في ريف مصر، غير أن القرآن لا يحفظ فيها عن ظهر قلب بأجمعه^(١). ويوجد في الدور الثانى كتاب يقال انه يدرس فيه غير القرآن المحيد شئ من الحساب. ولهذا المدخل باب للحرم من الداخل يسمونه باب التوسل. والى جانبه فى جهة الغرب محل للاغوات المخصصين لخدمة الحرم الشريف، وفيه ميضاتهم وامكنة راحهم. والى جواره مخزن الزيت المخصص لتوفير الحرم، ثم باب للمدرسة (على

(١) لا يوجد في بلاد العالم الاسلامي من يحفظ القرآن بأجمعه عن ظهر قلب الا مسلمو مصر، ويلهم أهل المغرب، أما باقي الجماعات الاخرى فيقرءونه علاني المصاحف. وتتمار فقهاء مصر بحسن الترييل: لذلك تراهم ملحوظين من الاحرام اذا شحصوا للداعية بلادهم، وخصوصا في الاسانة.

الزفة الشريفة ويا مليها غراب من الحرم النبوي



ما أظن)، وهذه الابواب الثلاثة في الرواق الشمالى . وفي وسط الصحن يميل الى الشرق حظيرة صغيرة سُورَت بدر بزين من الحديد ، وفيها بعض نخل صغيرة تبت حول نخلة عالية يقال انها أثر نخلة كانت في هذا المكان للسيدة فاطمة رضى الله عنها . وقبل هذه الحظيرة بئر مأوّهالذي دُاسمها بئر النبي وبعضهم يسميها زمزم المدينة . ومن وراء هذه الحظيرة اقيمت شبكة من خشب الشيش على طول الرواق الشرقى عملت في عمارة السلطان عبد المجيد ، اشارة الى أنه محصص^(١) للنساء ، ففيه صلاتهن واقامتتهن في الحرم . وفي جنوب هذا الرواق دكة للاغوات المخصصين لخدمة الحرم الشريف : وهي مصطبة مسطحة نحو ١٢ متر طولاً في ٨ متر عرضاً وترتفع عن الارض بمسافة نحو أربعين سنتيمتر ، وكانت في عهده صلى الله عليه وسلم مكاناً لاهل الصفة^(٢) وهم قوم من العفاة والمتقاعدين كان يصرف اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما كان يقوم بحياتهم من غذاء وكساء ، وكان منهم أبو هريرة وأبوذر الغفاري رضى الله عنهما . ونحو هذه الدكة من الجنوب دكة أخرى أصغر منها متصلة بالمقصورة الشرقية من جهة الشمال ، وكان يتعبد في مكانها النبي صلى الله عليه وسلم . ويفصل بين الدكتين طريق الى باب جبريل شرقاً ، وعلى يمين الداخل منه دكة صغيرة يجلس عليها شيخ الحرم ، والى جوارها محزن خاص بالمقصورة الشرقية التي توجد في الجهة القبليّة الشرقية من الحرم .

والروضة الشرقيّة في غرب المقصورة الشرقيّة : وهي مسافة ما بين القصر الشريف ومنبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه لقوله « ما بين قرى^(٣) ومنبرى روضة من رياض الجنة » وهي تبلغ ٢٢ متر طولاً في نحو ١ عرضاً . ويفصل الروضة عن زياتى عمر وعثمان اللتين في جنوبها ، در بزين من النحاس الاصفر ارتفاعه نحو متر .

والروضة على الدوام عاصية بالناس لشرف مكانها . وفيها مما يلي هذا الدر بزين

(١) ربما كانت هذه الجهة محصية لصلاة النساء من صدر الاسلام يؤيده تسمية الباب الموصل اليها باب

النساء من زمن بعيد .

(٢) وكان بالمدينة غير الصفة دار تسمى دار القرى أو دار المصيف كانت توجد في الحبوب

العربي للمسجد وكانت محصية أيامه صلى الله عليه وسلم لمرور صيوغه اليها .

(٣) وفي رواية أخرى : ما بين ياتي ومنبري الخ

ربعات قرآنية كثيرة ، وعدد كبير من المصاحف المختلفة الحجم ، منها ما هو بحرف الطبع ، ومنها ما هو بخط اليد الجميل ، وإلى جانبها نسخ كثيرة من دلائل الخيرات ، وكل ذلك موقوف عليها للقارئ من الزوار . وفي غرب الروضة الشريفة قبلته صلى الله عليه وسلم ، وهي آية من آيات الله في كمال بهجتها ، وجمال صنعها ، وهي على استقامة المقصورة الشريفة من جهة القبلة ، وضعها عليه الصلاة والسلام يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عندما أمره الله تعالى بالصلاة إلى الكعبة المكرمة . وإلى غرب القبلة المنبر الشريف ^(١) وهو من الرخام المنقوش بالليقة الذهبية الفاخرة وعلى غاية في الجمال ودقة الصنعة ، أرسل هدية من السلطان مراد الثالث العثماني إلى الحرم سنة ثمان وتسعين وتسعمائة للهجرة ، فوضع في مكان المنبر الذي كان به لقاء قباي ، وهو نفس المكان الذي كان به منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومما ينبغي الإشارة إليه أساسيتنا الجمعة في المسجد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والتحية ، وكان الزحام شديداً ، وبعد أن زار الخطيب المتصورة الشريفة واستأذن للخطبة ، من الحضرة النبوية ، على حسب عادتهم حضراً لبساً قاووقا يسمونه كودابان ^(٢) ، تحف به الاغاوات من كل جانب ، ثم صعد المنبر ومال إلى جهة اليمين أعنى إلى المقام الأشرف الأقدس النبوي ، وبعد أن سلم بغاية الأدب ، حمد الله وجعل خطبته كلها مبنية على سرد كثير من الأحاديث الشريفة في موضوع الحج والزيارة ، وضرورة

(١) وكان صلى الله عليه وسلم بخط على حذع بحلة ، ثم عمل له منبر من خشب الأثل مركب من ثلاث درحات أو أربع ووضعت في مكان الحذع الذي دُفن في شرق المكان الذي كان فيه حذاء عمود القبلة العربي . وكان معاوية أصاب درحتين على هذا المنبر فأحرق في حريق المسجد الأول الذي حصل في سنة ٦٥٦ هـ ، وما بقي منه وضع في صندوق ودُفن في حوار الحذع ، ووضعت مكانه منبر من عمل الملك المطهر صاحب اليمن ، ثم استبدله بغيره الظاهر بيرس ، ثم غيره الملك المؤيد بآخر أحرق في الحريق الثاني سنة ٨٨٦ هـ ، وعمل بدله الملك قايتباي المبر الذي نقل إلى مسجد قباء (ولا يزال به إلى الآن) بعد أن استبدلوه بالمراخالي

(٢) وقد رأيت الخطيب في المسجد الأقصى يلبس مثل هذا القاووق في الخطبة وهو من لباس القرن العاشر الهجري في الدولة التركية .



ROENME & ANDERER, CAIRO

القبلة المنبوتة بالروضة الشريفة

توحيد القلوب ، وتقوية الوصلة والرابطة بين أفراد المسلمين . وكان يستند في نصائحه على أحاديث نبوية : فكان يقول مثلاً ورد عن فلان عن فلان عن نبيكم هذا ، ويشير بيده إلى الحجرة الشريفة ، ثم يسرد الحديث فكان لخطبته تأثير على القلوب لا يمكن تكييفه ولا توصيفه . ويوجد بالحرم النبوي للخدمة فيه نحو ألف نفس منهم ٤٦ خطيباً ، يتولى الواحد منهم خطبة الجمعة مرة واحدة في السنة ، طبقاً لترتيب مخصوص لا يتعدونه ولهم وكلاء كثيرون يتناوبون الخطبة عند غياب الخطيب ، و ٣٨ اماماً ، و ٦٢ مساعداً يتناوبون الامامة في الصلاة ، و ٥٠ مؤذناً ، و ٢٦ مساعداً مؤذن ، و ٥١ كناساً ، و ١١ بواباً ، و ٢٦ ضائعاً وحاجباً وخياطاً و خلائفهم ، و ١٠ سقائين ، و ٤ ملائين ، و ٥٧٠ لغسيل ونظيف وتعبئة قناديل الحرم . أما الذين يقومون بحراسة الحجرة الشريفة والخدمة فيها فهم الاغاوات ، وأول من رتبهم للخدمة نور الدين الشهيد ، وكانوا اثني عشر ، واشترط أن يكونوا من حمالة القرآن الكريم وحفظته ، وجعل عليهم شيخاً منهم ، وزادهم يوسف صلاح الدين الابوبى اثني عشر آخرين . ومن ثم أخذت الملوك والسلاطين يزيد في عددهم إلى الآن ، وقد وصل عددهم في بعض الايام إلى أكثر من مائة شخص ، ولهم أوقاف مخصوصة ومراتب تأتيهم سنوياً من الاستانة وغيرها . ولهم دور بالمدينة يسكنون بها . وأغلب خدمة الحرم الشريف من غير مراتب ويعيشون من خيرات ذوي البر والاحسان . والقاعدة في خدمة الحرم الشريف : أن من يموت منهم تورع وظيفته ومرتبه على أولاده جميعاً : فاذا مات الخطيب مثلاً وكان مرتبه مائة قرش تعين بنوه في مركزه ووزع مرتبه عليهم وتولى العمل مكانه أكبرهم وهكذا في الخدمة : لذلك ترى مراتب الكل غير كافية عما يشهرون .

والحرم مقروش بأنواع السجاد المعجمي الثمين ، وفيه شئ كثير من الاسطة المصنوعة بقورقة هر كه الشهيرة ، وخصوصاً في الروضة الشريفة . والحملة فهو آية من آيات الله في نظافته ، ولطافته ، وحسن بهائه وروائه ، حتى أن الذي يدخله لا يود أن يبارحه مطلقاً .

وله خمسة أبواب : باب السلام ، وباب الرحمة في الغرب ، والباب المجيد في الشمال ، وباب النساء ، وباب جبريل (أو باب البقيع) في الشرق . وتقفل هذه الابواب

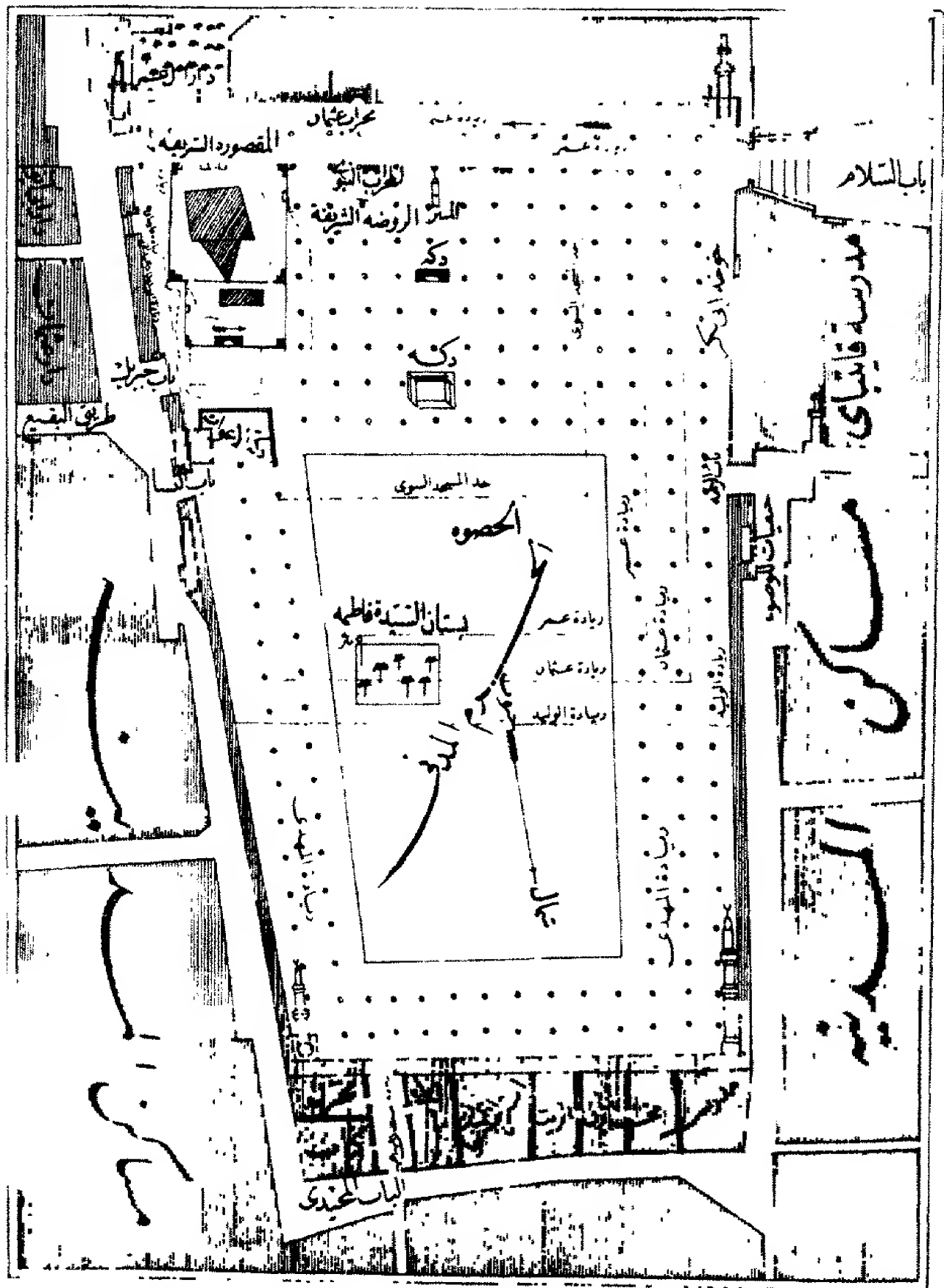
كلها بعد صلاة العشاء الى قبيل الفجر ، وهي سنة من عهد عمر رضى الله عنه . ويوجد بجوار باب الرحمة وباب السلام من الخارج حنفيات للوضوء من عمل السلطان عبد الحميد كما توجد أمكنة للحاجة على بعد منها .

﴿ أصل الحرم المدني وعمارتها والزيادة فيه ﴾

الحرم الشريف يحتوى الآن على منسجده صلى الله عليه وسلم ، وعلى بيت عائشة التى دخل عليها فيه فى الشهر السابع للهجرة ، وعلى حجرات زوجاته رضى الله عنهن ، مع الزيادة التى زيدت فيه . وكان يحيط بمنسجده الشريف فى مدته صلى الله عليه وسلم مساكن زوجاته وأصحابه رضى الله عنهم ، فكانت مساكن أزواجه فى الجهة الجنوبية وفى بعض الشرقية من الحرم ، وكان يفصل بينه وبينها طريق عرضه خمسة أذرع .

وكانت دار أبى أيوب الأنصارى ، ودار عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، جهة الشرق ، ولا تزالان موجودتان الى الآن ، وإن كانت صورتها قد اختلفت عما كانت عليه فى صدر الاسلام . وفى زاوية دار عثمان المائلة للحرم الشريف حجرة فيها شباك عليه لوحة من الخارج مكتوب فيها (مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه) ويسكن شيخ الحرم عادة فى هذه الدار .

وكانت منازل آل عمر رضى الله عنهم الى جنوب المنسجد الشريف ويوجد الى الآن بستان ملاصق للحرم فى اتجاه الحجرة الشريفة من جهة القبلة جعل حرما له ، وبه باب فى خارجه مكتوب عليه (ديار آل عمر) . وكان محوارها من الغرب دار العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دار مروان بن الحكم وكانت على عين الداخل من باب السلام . وكان فى غرب المنسجد دار أبى بكر رضى الله عنه ، والى جوارها شمالا مماليك باب الرحمة دار عبد الرحمن ابن عوف . وهذه الدور كانت لها فتحات على المنسجد ، فرأى صلى الله عليه وسلم أن يسدها فقال (لا يبقين فى المنسجد خوخة الا خوخة أبى بكر) فسدت جميعها الا خوخته رضى الله عنه : ولا يزال فى جدار المنسجد شمال باب السلام باب صغير (لخزن تجاه المفصورة



الشريفة) يمثل هذه الخوخة، وموضوع عليه لوحة كبيرة مكتوب فيها الحديث المذكور بخط غاية في الجمال .

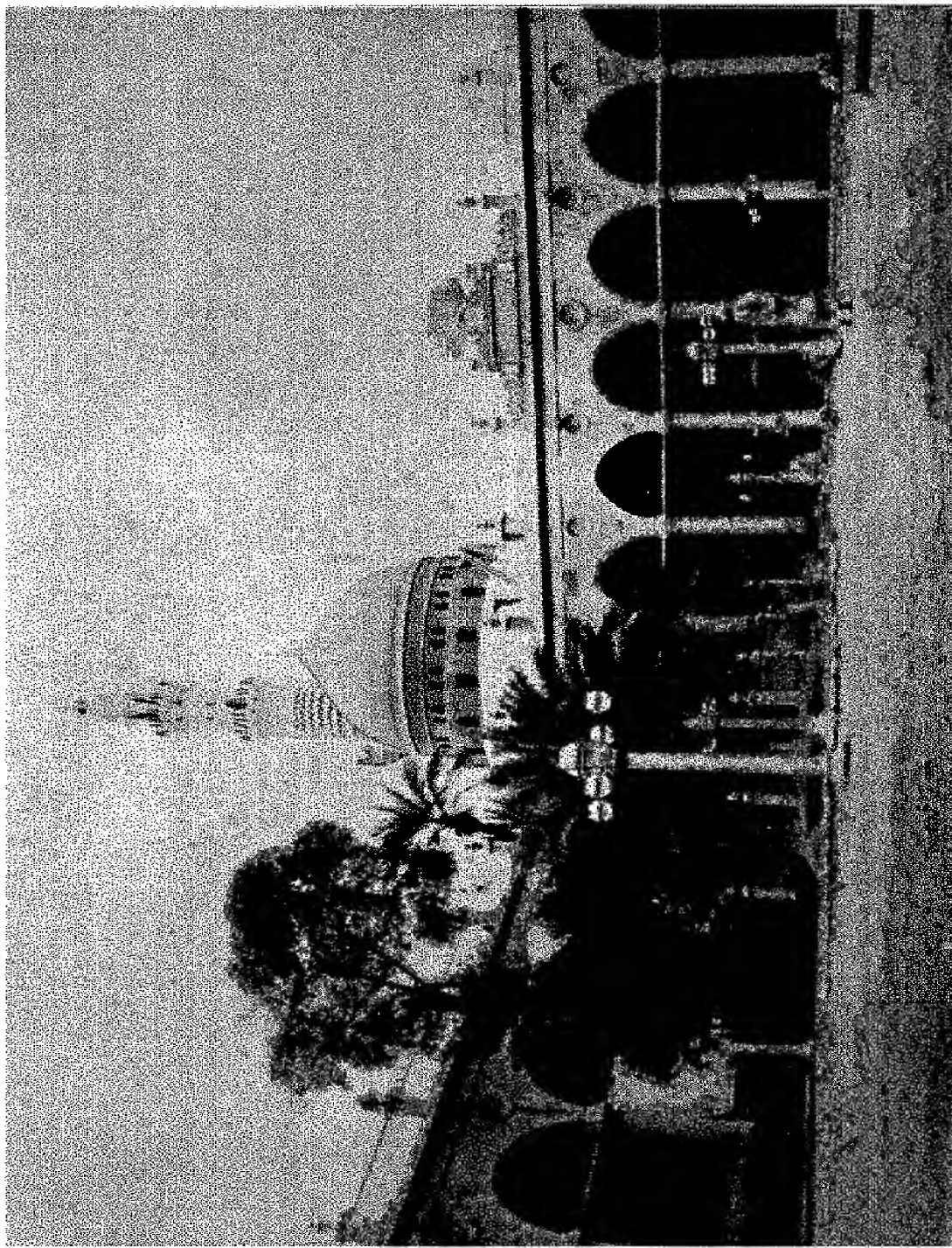
وأول من جدد في عمارة المسجد النبوي عمر رضى الله عنه ، فبنى حوائطه وغير بعض أساطينه ووسع فيه قليلا . أما عثمان فقد زاد فيه الى قبلته الجنوبية وبناه بالجص والحجارة ، وفي سنة ثمان وثمانين أرسل الوليد بن عبد الملك لعامله على المدينة عمر بن عبد العزيز فزاد في المسجد شرقاً وغرباً وجنوباً ، وأدخل فيه حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وبنى له أربع مآذن ، وفرش أرضه بالرحام ، ووشى حوائطه بالفسيفساء (الموزاييك) وكساسة ققه بالذهب ، وجعل أساطينه من المرمر ، ثم زاد فيه المهدي العباسي سنة مائة وستين ، وقام بعمارته أحسن قيام . ثم عمره الخليفة المستعصم ، ثم الظاهر بيبرس . وفي سنة ثمان وسبعين وستمائة أقام الناصر قلاوون فبة الحجرة الشريفة ، ولم يكن لها قبلة قبل ذلك . ثم عمره الاشرف برسباي سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة . ثم الظاهر برقوق سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة . وفي سنة ست وثمانين وثمانمائة انقصت صاعقة على المسجد فأحرقتة جميعه بحال مربعة لم ير الرءاءون مثلها ، ولم يكن أهل المدينة أن يقوموا في وجه النار التي لم تكن تبقى على شئ في طريقها ، إلا أنهم لم تمس الحجرة الشريفة بشئ بالمرة !! و بمجرد ما بلغ هذا الخبر السلطان قايتباي ملك مصر ، أمر في الحال أن ينقل الى المدينة جميع عماله الذين كانوا يشتغلون في الحرم المكي ، وما زالوا يشتغلون بهمة فائقة في الحرم المدني حتى أتموه على أحسن هدام ، على هذا القوام الحالي ، وبنوا الحجرة الشريفة على المخامة والحال اللذين تراهما عليها الى الآن ، وأقاموا على القبلة الشريفة قبلة أخرى أعلى منها ، وبنوا في الجهة الغربية من الحرم على شمال الداخل من باب السلام مدرسة عظيمة وأوقف عليها قايتباي الاوقاف الكثيرة وتسمى بمدرسة قايتباي الى الآن . وقد رأيت له باباً كان أرسل من مصر أثناء هذه العمارة ووضع على باب السلام ، ولما وسع هذا المدخل في عمارة السلطان عبد الحميد ، نقلوه الى الباب الحميدي : وهو من الخشب الثمين المقطى بالقطع النحاسية المنقوشة أو المكتوبة ، بل هو من أنحر ما يرى الناظرون من الصناعة المصرية القديمة التي قبرت من

عهد بعيد !! وفي سنة ٩٨٠ عمره السلطان سليم الثاني ، وبنى فيه بين المنبر الشريف ومدرسة قايتباي قبلة جميلة وشاهها بالسيفساء المنقوشة بماء الذهب وكتب اسمه على ظهرها بالخط الثلث الجميل ، يشاهده السالك من باب السلام الى الحجرة الشريفة . وفي سنة ١٢٣٣ بنى السلطان محمود القبة الشريفة ، ثم أمر بترميمها ودهانها باللون الاخضرى سنة ١٢٥٥ ، ومن ثم سميت بالقبة الخضراء . وفي سنة ١٢٧٠ أمر السلطان عبد المجيد خان رحمه الله بعمارتها وزيادة فيه الى الشمال ، فكان ذلك وتمت عمارته على ما هي عليه الان ، وشاه بالنقوش والزخارف التي تفوق حد الوصف ، وكتب على جداره مبتدأ من باب السلام الى الشرق ، سورة الفتح بالخط الثلث المحوَّف ، وفي السطر الذي تحتها سورة أخرى بخط أرفع منه ولكنه أكثر تعليقاً ، ومن تحته سطر آخر أصغر من الذي فوقه ، فيه أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، وقصيدة البردة مكتوبة في محيط قباب المسجد ، وفي الزوايا التي تركز عليها هذه القباب أسماء الله ورسوله وآله وبعض صحابته . وكل ذلك مكتوب بخط غاية في جماله وحسن تنسيقه ، وكما لوضعه : وحسبك أنه أثر ذلك الخطاط الشهير المرحوم عبد الله بك زهدى الذي أوفده السلطان عبد المجيد الى المدينة لهذه الغاية ومكث فيها بضعا وعشرين سنة يعمل في بيت رسول الله بما آتاه الله من إحكام في صناعته ونبوغ في مهنته . وقد ورد في مرآة الحرمين أن هذه العمارة صرف عليها نحو مليون ليرة عثمانية . وليس هناك أثر^(١) يذكر لمن بعده من الملوك سوى ما أدخل اليه من أسلاك النور^(٢) الكهر باني في زمن

(١) رأي عند صديقي الفاضل الشيخ مصطفى الحريري الخطاط الشهير بمصر لوحة مأخوذة بالقوط عراف من خط المرحوم عبد الله بك زهدى على باب الحرم المدني فيها هذه الايات :

مصباح باب الله طه المرتجي * بحر المكارم ملجأ الطلاب
سلطاننا عبد العزيز لحابه * ليفوز بالآمال والآراب
وعدا لسان مقاله متمثلا * اذ كان حادما هذه الاعتياب
ان الوسائل للملوك بابهم * ووسيلتي العظمي بهذا الباب

(٢) ومدة ريارتنا للمدينة كان الحرم الشريف مناراً بالربوت والشموع على عادته لان المهندس الكهر باني المخصص للمباشرة الالة التي تنير الحرم كان أصيب منها بما أفقده الحياة فأوقف عملها الى أن يسحصر لها مهندس آخر من الاستاذ^{١١}



منظر الحرم النبوي من داخل الصحن والبصرة الشريفة
وبستان الرشيدة فاطمة زهراء العبدتها

السلطان عبد الحميد ، وابتدأت الأمانة به في الحرم الشريف رسمياً في يوم الاحتفال بافتتاح السكة الحديد الحجازية بالمدينة المنورة في ٢٥ شعبان سنة ١٣٢٦ .

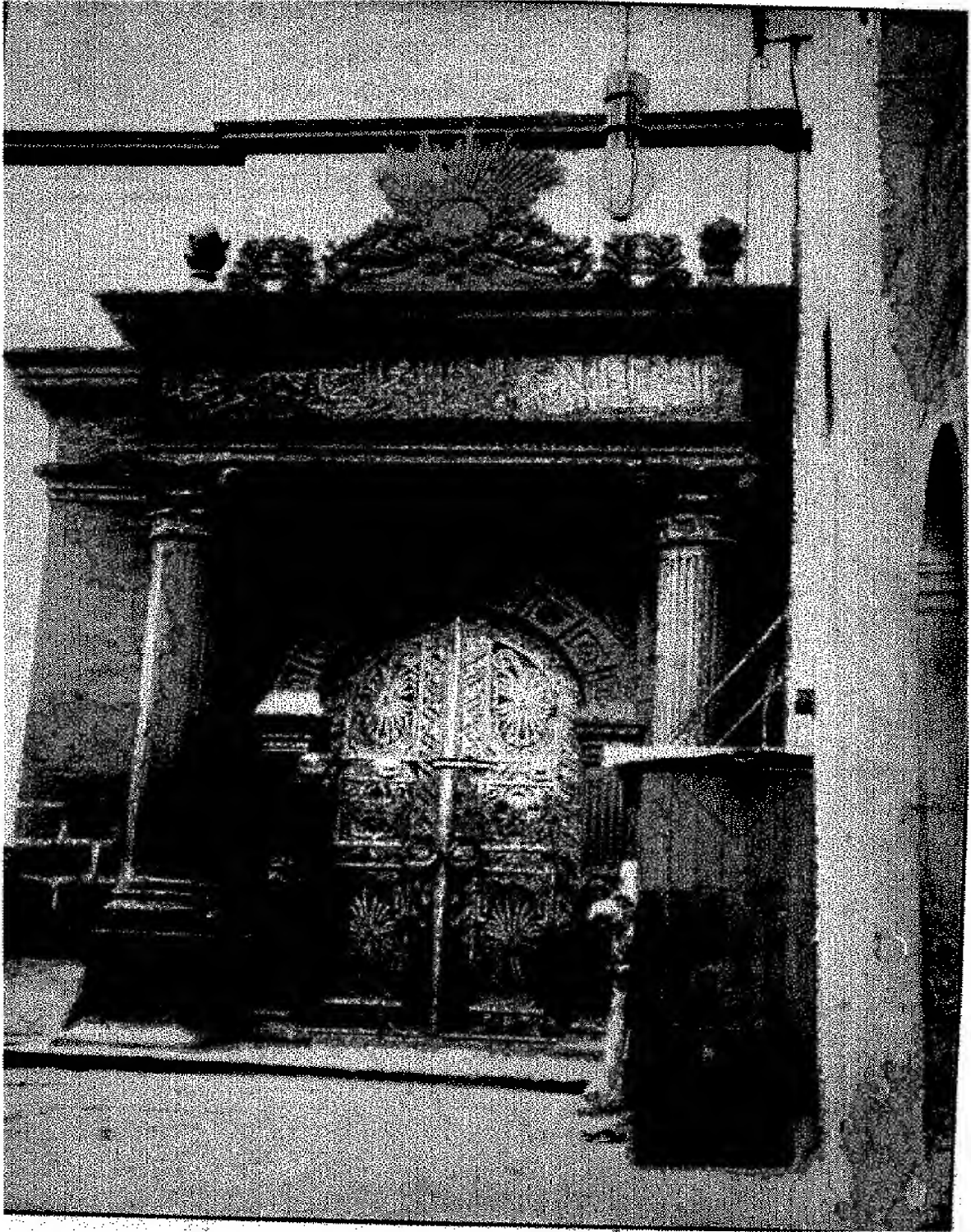
والمقصورة الشريفة من نحاس أصفر غاية في حسن الصناعة ، عملت في مدة العماراة التي قام بها قايتباي في سنة ٨٨٨ ، ولها باب على الروضة الشريفة يسمى باب الرحمة أو باب الوفود ، وإلى جانبه من جهة الجنوب شباك يفتح عليها يسميه الحجاج شباك التوبة ، وهو الذي يذكرونه في قسمهم فيقولون « وحياة النبي الذي وضعت يدي على شياكه » ، ولها أيضاً منفذ إلى جهة القبلة في المواجهة الشريفة و يفتح عند الأمور الهامة للدعاء والاستغاثة . ويتصل بهذه المقصورة من جهة الشمال مقصورة السيدة فاطمة ، وهي على استقامتها من الغرب ، وتدخل عنها بمسافة متر ونصف من الشرق .

وطول المقصورة النبوية الشريفة من ضلعها الجنوبي والشمالي ١٦ متراً ، ومن الشرق والغربي ١٥ متراً . وفي زواياها الأربع أعمدة مزوية عظيمة ، بنيت من الحجر الصلد على ارتفاع السقف ، وعليها ترتكز قواعد القبة الشريفة . أمام مقصورة السيدة فاطمة الزهراء فطولها من الجنوب ١٤ متراً ونصف ، ومن الشمال ١٤ متراً فقط ، ومن الشرق والغرب نحو سبعة أمتار ونصف . وهي تنصل بالمقصورة الكبرى من الداخل بابين : أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب ، قد أقيم فيما بينهما ضريح على المكان الذي دفنت (١) فيه السيدة فاطمة على قول الكثيرين . وفي داخل المقصورة الكبرى الحجرة الشريفة وهي المكان الذي توفي به رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ للهجرة ودفن فيه عليه الصلاة والسلام في اليوم التالي : لقوله صلى الله عليه وسلم « ما قبض بي إلا دفن حيث قبض » ، ورأسه عليه الصلاة والسلام إلى الغرب . ولما توفي أبو بكر في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة دفن إلى جانبه من جهة الشمال ورأسه إلى قدمي الرسول عليه الصلاة والسلام . ولما طعن عمر رضي الله عنه استأذن من

(١) وكانت وفاتها بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم بنحو شهرين ، وتقول بعضهم أنها دفنت بمسما المعروفه إلى الآن باسمها في الراوية المروية القلبية من البقيع .

عائشة أن يدفن مع صاحبيه ، فأذنت له ، فلما مات يوم الاربعاء ٢٧ ذى الحجة سنة ٢٣ للهجرة دفن الى جوارهما ، ورأسه محاذية لمنكبي أبي بكر رضي الله عنهما . وقد أقيمت على هذه القبور الثلاثة مقصورة من البناء على شكل ذى خمسة أضلاع ارتفاعه أكثر من ستة أمتار . وأوّل من بنى هذه المقصورة عمر بن عبد العزيز في عمارته للمسجد ونزل أساسها الى غور بعيد ، وجعلها على الشكل المزوّر المتقدم حتى لا تكون مثل الكعبة في تريعها خوفاً من أن يتخذها الناس قبلة لهم . وكانت الحجرة الشريفة تسع قبراّ رابعاّ ويزعمون أنه مكان قبر عيسى عليه السلام بعد نزوله من السماء في آخر الزمان ؟؟؟ وقد قيل فيه لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة لو أتيت المدينة وأقيمت بها فان مت دفنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه رضي الله عنهما . فقال والله لأن يعذبني الله عز وجل بكل عذاب الا النار أحب إليّ من أن أعلم أني أرى نفسي لذلك أهلا ! فانظر الى درجة أدب الرجل وتنسكه مع ما كان فيه من سعة الملك الذي خلق على أطراف المعمورة بأجمعها رضي الله عنه .

وفي سنة ٥٥٧ بلغ نور الدين زنكي أن الصليبيين الذين كان مشتغلا بمحاربتهم كانوا يعملون لسرقة الجثة الشريفة ، فأمر بإحاطة الحجرة الشريفة ببناء آخر ، نزل بأساسه الى مناسيع الماء ، ثم صب الرصاص على دائره حتى صار بحيث لا يمكن أن تتناول يد الزمان وقد وضع على هذا البناء ستر من الحرير الاخضر مكتوب فيه « لا اله الا الله محمد رسول الله » يحيط بها أحجية مكتوب فيها قوله تعالى « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » وفيما بين ذلك دوائر مكتوب فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحيط بهذا الستر (على ارتفاع مترين ونصف تقريباً) حزام من الحرير الاحمر عرضه نحو ثلاثين سنتيمتراً مكتوب فيه نقشب الذهب اسم السلطان الذي أمر بعمل الستر الشريف . وهذه الكسوة ترسل من الدولة العلية عند تولية كل ملك من ملوكها ، والكسوة الحالية وصلت الى الحجرة الشريفة بعد اعلان الدستور . وأوّل من كسا الحجرة الشريفة الخيزران أم هرون الرشيد ، عندما قدمت في حجة الزيارة النبي عليه الصلاة والسلام .



باب الرحمة بالحرم المهدني

وصارت من بعد هاسنة الملوك والسلاطين . وبين بناء المقصورة والشبكة النحاسية الخارجة طريقة متوسطة سمعتها نحو ثلاثه أمتار من جهاتها الشرقية والغربية والقبلية ، وفي زاوية هذه الطريقة من الجنوب كرسى موضوع عليه مصحف شريف كبير ، أهداه الى الحجرة الشريفة الحجاج بن يوسف الثقفي ، ويقولون انه من المصاحف الستة التي كتبها عثمان بن عفان .

وسماء هذه الطريقة مملوءة بثريات من الذهب والفضة ، وخصوصاً في الجهة الجنوبية فيما يقابل الوجه الشريف : فان فيها كثيراً من المشاكي الذهبية ، منها إحدى وثلاثون مشكاة مرصعة بالماس والزمرد والياقوت ، ومعلقة بسلاسل النضار . ومجموع مصابيح الحجرة الشريفة مائة مصباح وستة .

وفي مقابلة الوجه الشريف على جدار المقصورة حجر من الماس البرلاني في حجم بيضة الحمام الصغيرة ، يحيط به إطار من الذهب المرصع . ويقدر وزن ثمنه في ذاته بثمانمائة ألف جنيه ، أما في شرف سبته الى الحجرة الشريفة فقيمته أكبر من أن تقدر بثمن ، ويسمونه بالكوكب الدرى لشدة تألقه وعظيم سنائه وبهائه . وهو مثبت في لوحة من الذهب ورصع يحيطه بمائتين وسبع وعشرين قطعة كبيرة من الجواهر الثمينة . وهذا الكوكب أهداه للحجرة الشريفة السلطان أحمد خان الاول ابن السلطان محمد خان من سلاطين آل عثمان في مبادئ القرن الحادى عشر الهجرى . وقد علق تحته كف من الذهب المرصع بالجواهر ، وفي وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدرى ، أهداه اليها السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الاول في سنة سبع وأربعين وألف للهجرة . وهناك لوح كبير من الذهب منقوش فيه بخط جميل جداً بحجارة الماس البرلاني « لا إله الا الله محمد رسول الله » أهدته اليها صاحبة السمو والمعصمة عادلة سلطان بنت السلطان محمود سنة ألف ومائتين واحد و تسعين هجرية .

وفي هذه الحجرة الشريفة غير هذا ، كثير من الجواهر الفاخرة التي لا تقدر بثمن : منها قطعة كبيرة على مثال الكردان مكتوب فيها بالماس اسم السيدة فاطمة الزهراء

وهي موضوعة على مقصورتها الداخلية في الجانب الشرقي ، والى جوارها عقده من اللؤلؤ الكبير الحجم ، لا يماثله شئ في عظمه وجوهره ، وعقود أخرى من المرجان النادر المثال .
ويوجد فيها شمعدانات من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة ، منها اثنان كبيران طول الواحد منهما نحو مترين ، أهدهما اليها السلطان عبد المحيد خان في سنة أربع وسبعين ومائتين وألف ، وشمعدانان آخران أهدهما السلطان محمود . والى جانب هذه الشمعدانات مكانس من اللؤلؤ ، ومراوح مرصعة بالأحجار الكريمة ، وعصاقي ومباخر مرصعة ، وهذا عدا ما يوجد في خزائن الحجرة الشريفة من المصاحف المجوهرية والتحف الفاخرة ، وكثير من الأحجار الكريمة والجواهر الثمينة التي لم تكن مشغولة ، وغير ذلك من الأساور والأقراط وخلافها . وبالجملة فقد قدر ثمن مال الحجرة الشريفة من الذخائر بسبعة ملايين من الجنيهات .

ولقد كانت الملوك والكبراء والعظماء يهدون لها في كل الأزمان كثيراً من الجواهر الفاخرة والذخائر الثمينة . وكثيراً ما كانت تتناول إليها الأشرار من ولادة المدينة مثل جهماز ابن هبة الذي نهب في سنة إحدى عشرة وثمانمائة من ذخائر الحرم المدني ما قدره السهمودي بعشرين قنطاراً من الذهب . وتبعه في ذلك الشريف حسن بن زبير المنصوري سنة ٩٠١ هجرية فأخذ منه شيئاً كثيراً . وفي مبدا القرن الثالث عشر الهجري كانت الحجرة الشريفة عامرة بما لا يحصى من الذخائر الثمينة ، فنهبا الوهابي سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف ، و ناع بعضها الى الشريف غالب بمبلغ خمسين ألف ريال ، و بعد تميم الصلح بين ابن سعود وطوسون باشا اشترى منه هذا الأخير بعض ما نهبه أبوه من آثارها الذهبية بمبلغ ألفي جنيه مصري ، وردها للحجرة الشريفة . وكذلك رد إليها محمد علي ما أعطاه اليه الوهابي من ذخائرها وأهداها هو بشمعدان كبير من الذهب الخالص وشمعدانين من الفضة مكتوب عليها « العبد المذنب محمد علي والى مصر سنة ١٢٢٨ » . وأهداها عباس باشا الأول شمعدانات من الفضة وثريرتين (نجفتين) من الفضة : واحدة ذات ٣٦ شمعة معلقة في الحراب العثماني ، والاخرى ذات ثلاثين شمعة معلقة تجاه الوجه الشريف ، وثريرات

وشمعدانات أخرى من البلور. ولسعيد باشا وبعض كريمات العائلة الخديوية بالحرم الشريف هدايا أخرى. وآخر ما قدم للحجرة الشريفة لهذا العهد واليب ثمينة جدد أقدمتها البهادولة والدة الجناح العالي الخديوي لتحفظ فيها هذه الآثار الكريمة جزاها الله خيرا .

وتخدم الحجرة الشريفة يغسلونها في السنة ثلاث مرات : واحدة في يوم ربيع الاول ، والثانية في أول رجب ، والثالثة في الثامن عشر من ذي القعدة . ويكون لذلك احتفال كبير ، وماء غسلها يفرقونه في قوارير على أكابر المسلمين للتبرك به .

﴿ بحث فيما كان عليه بيته صلى الله عليه وسلم بالمدينة ﴾

من ينظر الى المقصورة الشريفة الحالية ، ويعلم أنها أقيمت على مكان بيت النبي صلى الله عليه وسلم (المشهور ببيت عائشة) ، ويفكر في أبوابها ، وتسمية كل باب باسم مخصوص ، ويضيف الى ذلك أن بيت السيدة فاطمة كان بجانب بيته صلى الله عليه وسلم ، وأنه كان فيه شباك بطل على بيت أبيها ، وكان صلى الله عليه وسلم يستطلع أمرها منه حتى تسدّه محبة في استقلال كل بيت عن الآخر ، يحكم معنى أن وضع بيته مدة وجوده صلى الله عليه وسلم كان على نحو الشكل الآتي :

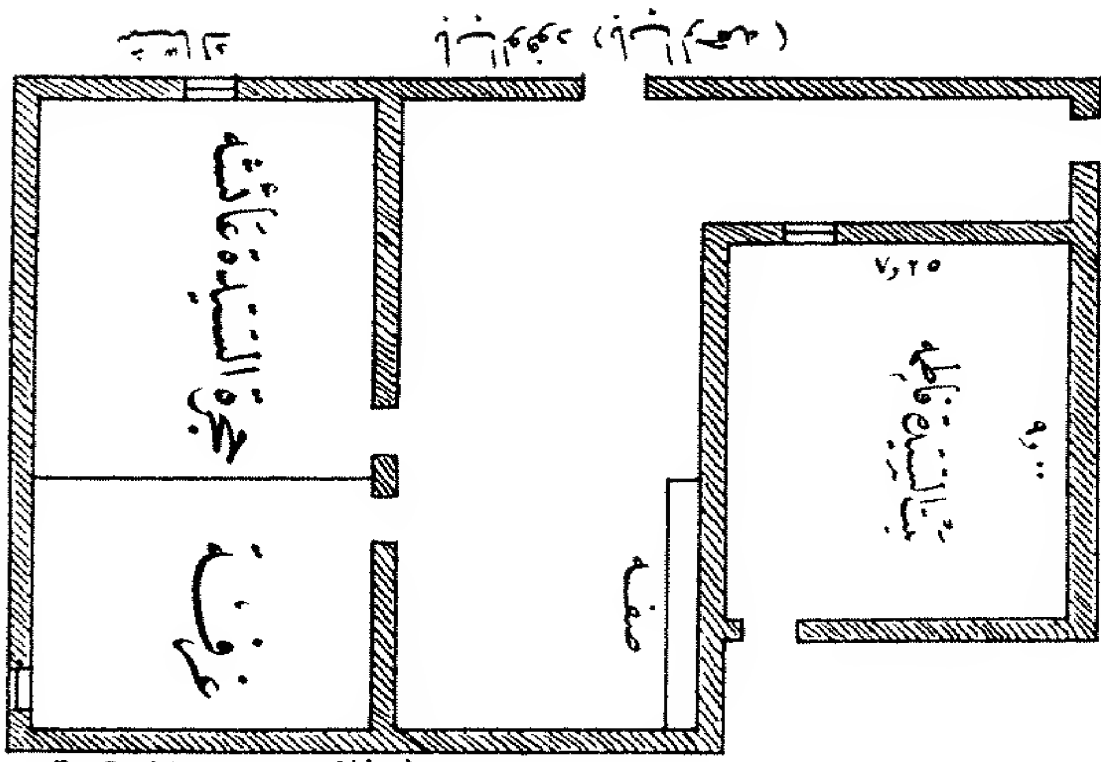
والذي ساعدني على هذا الوضع ما ورد عن مالك رضي الله عنه « قسم بيت عائشة باثنين ، قسم كان فيه القبر ، وقسم كانت تكون فيه عائشة ، وبينهما حائط ، وكانت عائشة رعا دخلت حيث القبر فضلا (يعني سافرا) ، فلما دفن عمر رضي الله عنه لم تدخله الا وهي جامعة ^(١) عليها ثيابها » .

ومن ذلك تعلم أن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان به حجرتان . أما بابه فقد قال بعضهم انه للشام ، وقال آخرون انه للغرب ، ولكن يستنتج من رواية ابن سعد أن له بابين حيث قال : « لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا (الصحابة) كيف نصلي عليه ؟ قالوا ادخلوا من ذا الباب ارسالا ارسالا فصلوا عليه واخرجوا من الباب الآخر » ،

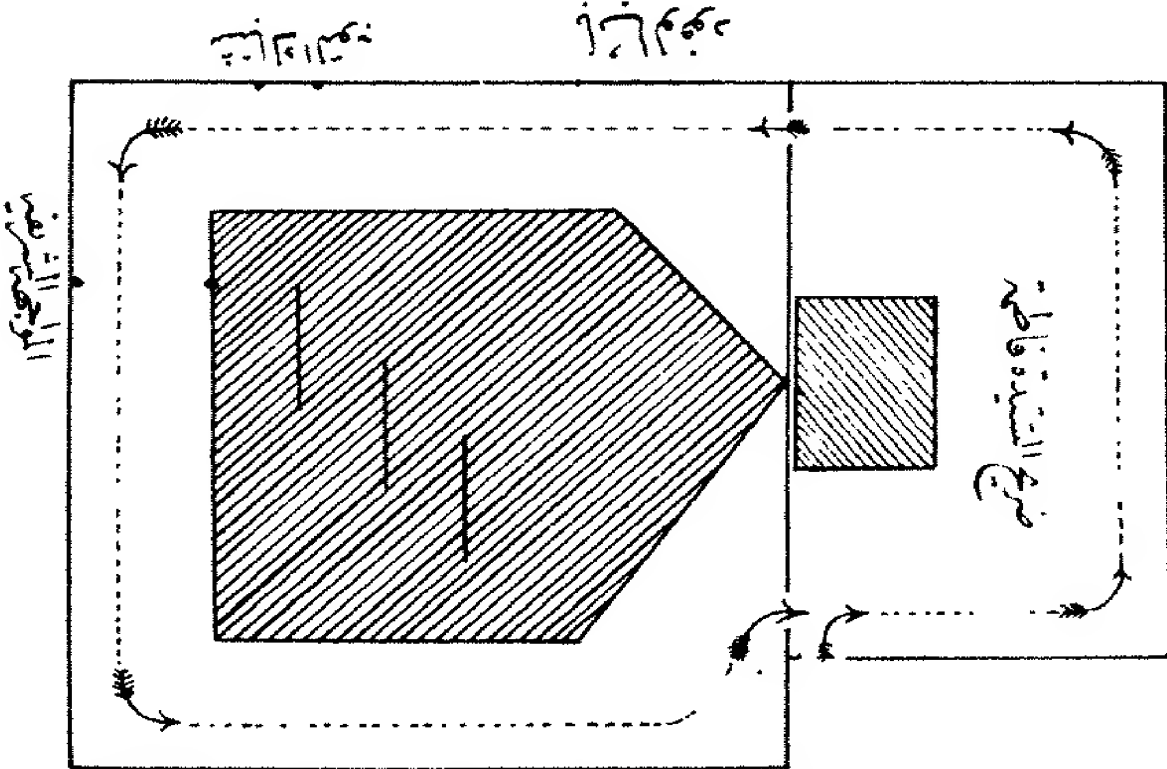
(١) أنظر حفظك الله ورعاك الى هذا الادب العالي والحياء العالي الذي بلغ بكمال القوم رسوان الله عليهم والحفاطة على الحجاب حي على الاموات وحتى مع عمر وهو ميت .

الناحية

شمال



رسم وضعي بقبر النبي لمزل النبي (ص) بالمدينة



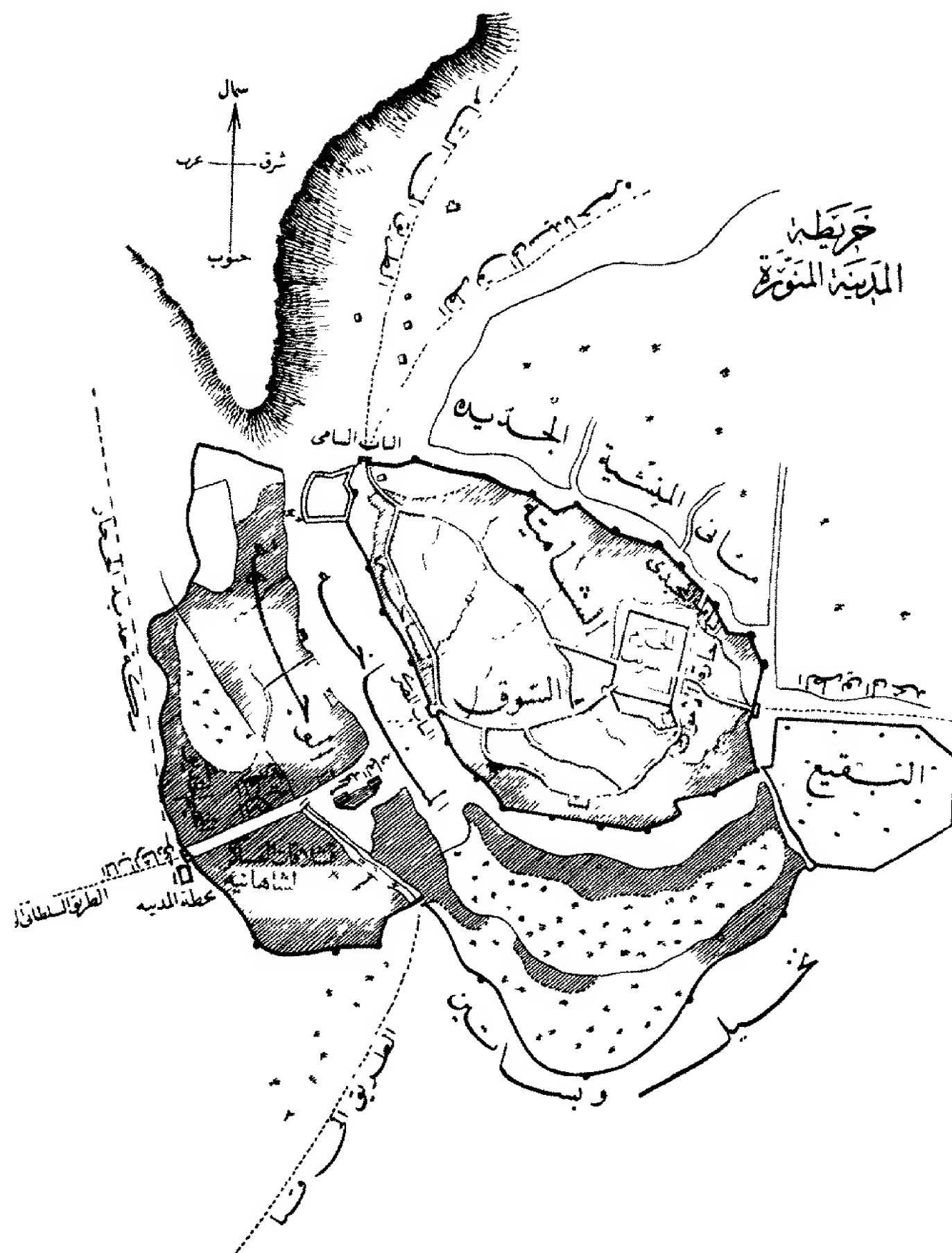
رسم للمقصود الشريفه الحاليه التي بها قبره عليه الصلاة والسلام والى جواره قبر الجسد تم قبر عرضي الله عنهما .

ومما ورد أيضاً أن بيت السيدة عائشة كان به صُفَّة الى منزل فاطمة ، وكان به فتحة الى القبلة يؤيد ذلك قول ابن ذبالة : « كان بين بيت حفصة ومنزل عائشة الذي فيه القبر الشريف طريق ، وكانت اتها ديان الكلام وهما في منزلهما من قرب ما بينهما » . وحفصة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم و بنت عمر بن الخطاب وكان يدها كما لا يخفى على عمن خوخة آل عمر ، أى في جنوب بيت عائشة الى الشرق .

وإني لم أجسر على هذا الوضع الا بعد تدقيق شديد في أقوال الصحابة والتابعين الذين كانوا يتحرون كل واقفه عليه الصلاة والسلام ، وخصوصاً في بيته الذي أجمع المسلمون على أن موضع قبره صلى الله عليه وسلم فيه أشرف بقعة على سطح الارض . وعلى كل حال فهذا استنتاج لى أو رده لك وأنت حر في تحسينه أو توهينه ، ولو بدون دليل تقميه عليه .

وعليه فيكون بيت السيد الرسول مدة حياته في المدينة على الرسم (الموضوع في جنوب المفصورة الشريفة) وهو أكثر بساطة من مسكنه في مكة . وكان من دونه كما سبق منازل أزواجه رضى الله عنهن : وكان محيطها مع منزل عائشة مببياً باللبن ، وفواطعها الداخلة من الحر يد المكسو بالطين والمُسوح الصوفية : ومن ذلك يمكنك أن تحكم على مقدار بساطته صلى الله عليه وسلم في مسكنه . بحيث انه ما كان يتعدى في أى حال من الاحوال الضروري لحياته ، وحياة أزواجه . وقد ورد عن عطاء الخراساني أنه قال : « أدركت حُجَر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فحضرت كتاب الوليد يُقرأ يا مر ناد خالها في المسجد فما رأيت يوماً كان أكثر با كياً من ذلك اليوم ، فسمعت سعيد بن المسيب يقول « والله لو دذت أنهم تركوها على حالها ، ينشأ ناس من المدينة و يقدم قادم من الآفاق فترى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته ، ويكون ذلك مما يزهده الناس في التكاثر والتفاخر فيها » .

ومع هذا فإني اذا أعمت النظر في هيئة المسكان على بساطته ، وفكرت في وضعه الصحي ، وكيف كانت منافذه منقية للهواء ، وأبوابه داعية الى السهولة في الدخول والخروج وخفة الحركة مع وفرة الزمن والسرعة الى المقصد ، مما شرع فيه الآن في العمارات الكالية ، عرفت ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من القناعة ، والزهد ، وحسن



الذوق . ومن يتأمل في ذلك برّ فيه خير درس للناس يتعلمون منه كمال وضع الامور في مواضعها ، من غير زيادة عن الحاجة ولا نقص عن الضروري ، وهناك يرى الغنى في ماله فضلة يساعد بها الفقراء من عيال الله : فتبادل عاطفة الحنو والشفقة فيما بينهم ، وثبتت قدم المحبة في أفئدتهم ، فيصبح الكل بين محب ومحبوب ، وشاكر ومشكور ، وحامد ومحمود ، وهناك تزول عوامل الحسد وتموت شياطين التنافر والبغضاء ، ويتحد الكل على العمل ، بل ويعمل الكل للكل ، ويكون الناس على اختلاف طبائعهم وعوائدهم كأعضاء جسم واحد تعمل كلها حياته ووجوده ، وإذا يكونون قد قاموا بالأمور التي وجدوا من أجلها وهي خدمة الانسانية .

*

المدينة المنورة

المدينة المنورة، أو مدينة الرسول ، واسمها طيبة ، وكانت تسمى قبل الهجرة يثرب ، ترتفع عن سطح البحر بنحو ٦١٩ متر ، وهي واقعة على طول ٣٩ درجة و ٥٥ دقيقة شرقاً ، وعلى عرض ٢٤ درجة و ١٥ دقيقة من شمال خط الاستواء ، (أعني على عرض خط دراء التي توجد فيما بين اسما واسوان) ، ودرجة حرارتها في الصيف تصعد الى ٢٨ درجة سنتجراد ، وتنزل في الشتاء الى عشر درجات فوق الصفر نهاراً ، والى خمسة تحت الصفر ليلاً ، وكثيراً ما يرى فيها الماء متجمداً في آريته عند الصباح في زمن الشتاء ،

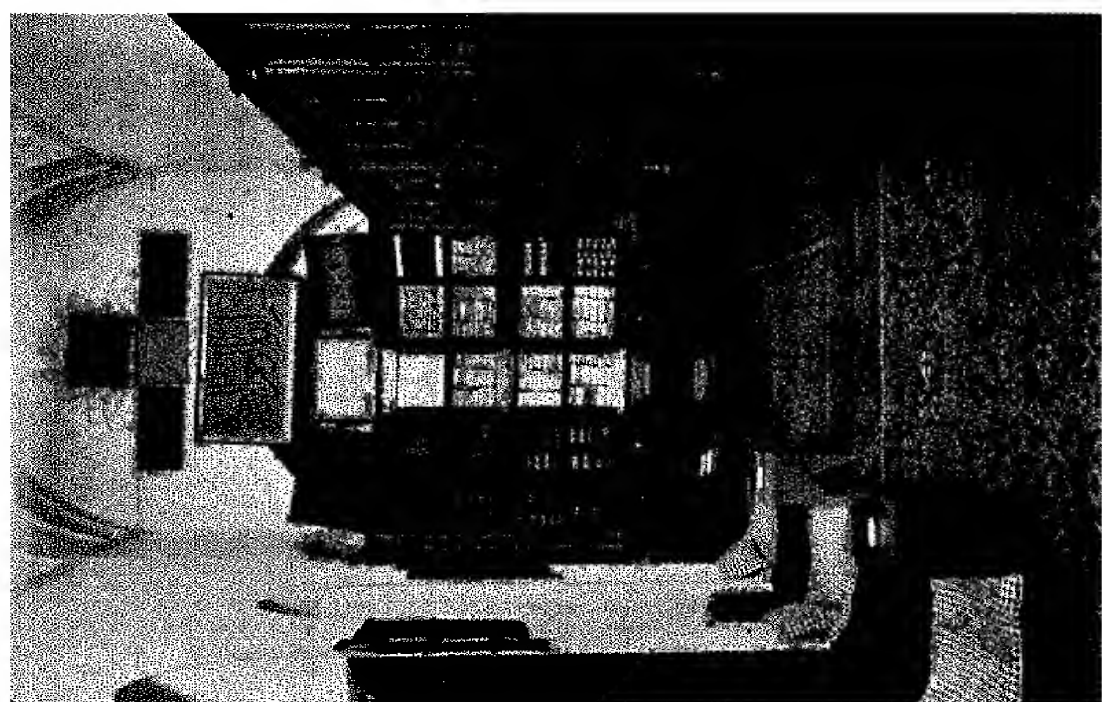
وإد اصح ما ذهب اليه بعضهم من أن كلمة يثرب محرفة عن الكلمة المصرية (إتريبس) . كان لنا أن نذكر في أن الذين بنوها انما هم العمالقة بعد خروجهم من مصر ، ولنا في يهوديتهم ما يؤيد قول من ذهب الى أن موسى في طريقه الى فلسطين ، أرسل فرقة من قومه لتكتشف له تلك الجهة ، فساروا اليها ، وبلغهم موته فبنوا مدينة اتريبس وأقاموا فيها . وعليه فعمران المدينة يبتدىء من سنة ألف وستمائة قبل المسيح أو الفين ومائتين واثنين وعشرين قبل

الهجرة : وعلى ذلك يمكننى أن أقول أن لفظ طيبة ان كان مستعملا اسمها من قبل الاسلام فلا بد أن يكون مصرى أيضاً .

والمدينة مركز لواء وكانت الى عهد قريب ملحقة بولاية الحجاز وجعلت الان متصرفية قائمة بنفسها (كما بلغنى) وفيها عاملان كبيران يقومان بادارة شؤونها وهما : شيخ الحرم ، والمحافظة ، وهذا الاخير فى يده السلطة العسكرية التى هى الان أهم السلطات فى بلاد الدولة العلية . ويتبع المدينة قضاء الوجه ، وقضاء ينبع ، والكور ، وتبا ، ودومة الجندل ، والفرع ، ودو الرمة ، ووادى القرى ، وقرى عرينه ، والسيال ، والرهط ، وكحل ، ومدين ، وفدك ، وخير . وفى المدينة وكيل لشريف مكة ينظر فى قضايا العربان اسمه الشريف شحات .

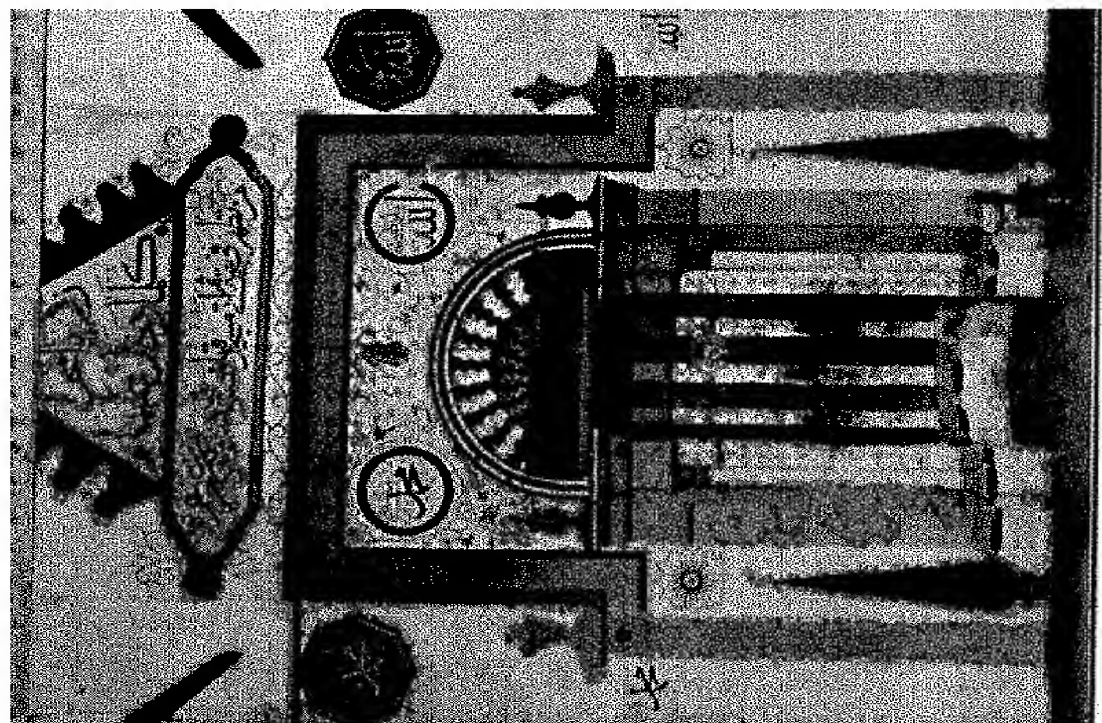
والمدينة مبنية فى وسط وادى شاسع يمتد الى الجنوب ، واغلب مبانيها من الحجر المحلوب اليها من المحاجر القريبة منها . وفيها نحو ١٢ ألف بيت ، وشكل الابنية فيها هو بعينه ما رأينا به مكة وجدة ، لولا أن منازلها أصغر ، وشوارعها أضيق ، وخصوصاً ما كان منها حول الحرم الشريف ، وكان يجب أن يكون حوله ميدان متسع يساعد على تنقية جو المدينة من جهة ، وعلى سهوله الوصول الى الحرم من جهة أخرى . وأحسن شارع فى المدينة غرب الحرم ، ويسمونه بحارة الساحة وهى أطول حاراتها ، وفيها أحسن مبانيها ، وبها مكان المحافظة فى قلعة على السور الداخلى . ومما ينبغى ذكره أنى رأيت بهذه الحارة منزلاً (للسيد هاشم) مشغولاً بأعمال الاويمة بما استوقعنى أمامه باهتاً لجمال صنعته ودقتها ، وهى من صناعة جاره ، وكل أسف أقول ان هذه الصناعة البديعة قد انقطعت عن المدينة بالمرّة . وفى هذه الحارة زقاق يدخل منه الى مقام سيدنا عبد الله والرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان قد أتى الى المدينة قبل الاسلام لعمل له مقامات بها ، ودفن عند أخواله من بنى النجار فى بيت رجل منهم يقال له النابغة . وهذه الحارة تسمى الابواء ، أو زقاق الطوال ، وفيها ما زل آل أسعد .

وأغلب حارات المدينة يسمونها الضيقها أزقة : منها فى شمال الحرم ، زقاق البقر ، وزقاق الخياطين ، وزقاق الحبس ، وزقاق عنقبنى ، وزقاق السماهيدى ، وزقاق البدور : وزقاق الاغاوات ، وفى جنوبه زقاق ياهو ، وزقاق الكبريت ، وزقاق القماشين ، وزقاق



BOEHME & ANDERER, CAIRO

كتبه
سيد سلطان محمود بالمدنيته المنورة



BOEHME & ANDERER, CAIRO

محارب جديد

حيدر ، وزقاق الحجامين ، وزقاق مالك بن أس الخ .

وعلى كل حال فخارات المدينة نظيفة وضيقة يساعد كثيرا على تلطيف الحرارة فيها زمن الصيف ، كما هو الشأن في أغلب بلاد الشرق . وسوق المدينة يتدى من الباب المصرى الى الحرم الشريف في شارع ضيق طوله . . . ٥ متر تقريبا يقطع على المارة تقابل جملين فيه مع بعضهما ، والحركة فيه تكاد تنحصر في مدة الحج ، والموسم الربيعي : وهو موسم الزيارة الرسمية في بلاد العرب . وتجارة المدينة مدارها على وارداتها الخارجية ، لاسيما واردات جاوه والهند والشام ، وعلى الخصوص في الاقمشة القطنية والصوفية والحريرية والسبع والليف الابيض والحناء والسط والسجاجيد والحنابل (الالكلمة) المعجمية والهندية والمغربية والاباضولية ، وانماها أعلى منها في مكة بل وفي مصر ، وانما ابتاع الحجاج لها على سبيل البركة وسهولة الصرف في هذه الجهات . وتجارة البلح فيها هي أكر التجارات وأوسعها لان ضواحيها فيها كثير من البساتين وفيها نخيل كثيرة تنتج نحو سبعمين صنفا من التمر وأحسنها البلح العنبري ، ثم الجلبى ، ثم السكرى وهو أكثرها حلاوة ، ثم ملح السبع ، ويكثر نخله في جهة الحيف بين المدينة والحراء وكيفية تجهيزه : هي أن ينظم في خيط ثم يلتقى به في الماء المغلى زمنا ثم يجفف في الشمس . ولقد اشترينا منه شيئا من دكاكين أقيمت خارج الباب المصرى بالمناخة ، وكان البائع روج تجارته باحاديث يسردها ، ويسبها الى النبي صلى الله عليه وسلم ، في مدح بعض أنواع البلح المتقدمة . فعجبت من أن القوم لا يستحون من الكذب على الرسول حتى وهم بين يديه الشريفتين ، وقلت له يا هذا ، انا اشترى منك بلحا لأحاديث وأوريته أن مصيبة المسلمين أساسها الجرأة في التمول على الله ورسوله !! فاعتذر الرجل بجهالته قائلا انه أخذ هذا عن غيره من الباعة السابقين أو بعض المتشبهين . ويبيعون البلح بالكيلو ووزنها ٦٠٠ درهم ، أما كيلو الارز فزنتها ٣٠٠ درهم . والسمن يبيعه بالرطل وهو ١١ أو ١٢ أوقية ، والرطل ٢٠٠ درهم ، والاربد ١٢٠ أقه .

وفي المدينة كتبانات كثيرة أحسنها كتب خانة شيخ الاسلام عارف حكمت ، وهي قريبة من باب جبريل الى جهة القبلة ، وهذه الكتب خانة آية في نظافة مكانها وحسن تنسيقها

وترتيب كتبها، وأرضها مفروشة بالسجاد العجمي الفاخر، وفي وسط حوشها نافورة من الرخام، فيها حنفيات للوضوء، وفيها كتب ثمينة جداً لا يقل عددها عن ٤٠٤٠٠ كتاب. ولقد رأينا بها شيئاً من غرائب الصناعة النادرة في بابها: وهو كتاب أشعار فارسية مكتوب بالخط الأبيض الجميل لملأ شاهی، وبيننا نحن معجب من جودة الخط واتقان الصناعة وظافتها وحسن تنسيق حروفها على صغرها ودقتها، لفت نظرنا حضرة مدير الكتبخانة الى أن حروف الكتابة انما هي ملصوقة على الورق. فتأملناها فوجدنا شيئاً يبهر الطرف لرؤيته ويعجز اللسان عن نعته، خصوصاً عندما أخبرنا أنهم كانوا يكتبون هذه الكتابة ثم يفصلونها عن ورقتها بظفرهم، ثم يلصقونها على ورقة أخرى!!!

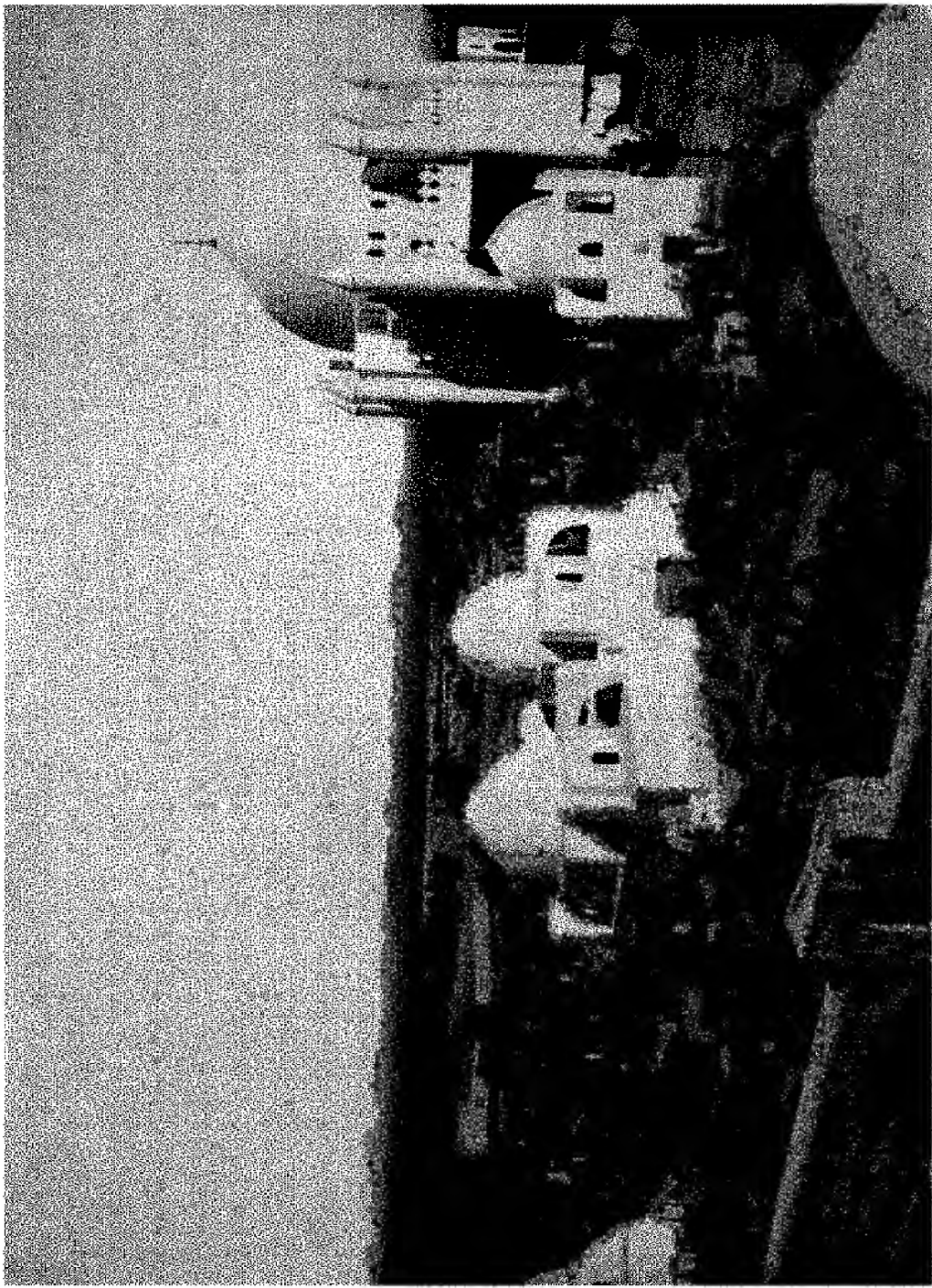
وفي باب السلام كتبخانة للسلطان محمود ومقدار الكتب التي فيها ٤٥٦٩ كتاب وهي وان كانت أصغر من كتبخانة عارف وأقل منها نظاماً إلا أنها جميلة ومرتبعة. وفيها كتبخانة للسلطان عبد الحميد الأول بها ١٦٥٩ كتاب، وفيها أيضاً كتبخانة بشير أغا، في زقاق الحياطين بها ٢٠٦٣ كتاب وقد بلغني أن هناك كتبخانات أخرى منها واحدة في رباط عثمان حافلة بنقائس كتب مذهب مالك، ويفدر مجموع هذه الكتب بثلاثين ألف كتاب من الكتب النادرة المثال. ولو جمعت كل هذه الكتب في دار واحدة وعمل لها نظام مخصوص لكان ذلك أفجع والفائدة منه أكر.

وفي المدينة جريدة اسمها (المدينة المنورة) تصدر باللغة التركية والعربية على مطبعة بالوزد كما كان هناك داع لصدورها، ومديرها حضرة الفاضل الشيخ محمد مأمون، وكانت تصدر مدة وجود الجناح العالي بها، شارحة حركاته اليومية، وباشرة كل ما كان يقدم لذاته السنوية من المدائح نظمًا ونثرًا، ومن ضمن ما رأيت فيها قصيدة لحضرة مديرها تهنئة للجناح العالي قدومه قال في مطلعها

البدر في أفق العلياء قد طلعا * وكوكب السعد في اسعاده سطعا

وليس في المدينة من المدارس ما يستحق الذكر، إلا أن فيها ١٦ مكتبة لتعليم مبادئ

العلوم البسيطة، والذي يدرس في الحرم شيء بسيط من الفقه والتفسير.



BOEHME & ANDERER, CAIRO

ألتق مع وحتبة المدينة المنورة وفي قبة سيدنا عثمان على ايسر وعلى عيسى ما فتى الامم ملكك
 ثم قبة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ثم قبر سيدنا ابراهيم النبي ثم القبة الكبرى وفيها قبر
 سيدنا العباس وسيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما جميعين

وفي المدينة حما مان تركيان أحدهما داخل المدينة: وهو من عمل السلطان سليمان القانوني والثاني بالمناخه . وفيها تسكيا أهمها التكية المصرية، والباقي يسمونها رباطات، لها مرتبات قليلة لا تفي بحاجة من يسكن فيها من الفقراء والمعوزين وللمدينة المنورة حرم مثل حرم مكة يبلغ قطره دائرة نحو اثنين كيلومتر، ولا يجوز لأحد الصيد فيه إجلالاً له وتعظيماً.

وفي المدينة وضواحيها مزارات كثيرة أشهرها مسجد قباء، ومسجد سيدنا حمزة، والبيع: أمام مسجد قباء فيبعد عن المدينة بمسافة خمسة كيلومترات، وهو أول مسجد بنى في الإسلام، ساه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنوب الغربي للمدينة عند دخوله إليها في هجرته، وقد جدد بناءه السلطان عبد الحميد الأول، وبوسط صحنه قبة أقيمت على مراكب ناقته صلى الله عليه وسلم حين قدومه إليها في هجرته من مكة. وأمام مسجد سيدنا حمزة فإنه يوجد في شمال المدينة في وادي أحد: وهذا الوادي مشهور بالواقعة التي حصلت بين المسلمين والمشركين في ١٥ شوال سنة ٣ للهجرة، وأبلى فيها المسلمون بلاءً حسناً، واستشهد فيها سيدنا حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم وكسرت فيها راية النبي المني وشيخ وجهه وكلمت شفته السفلى، ودخلت حلقتان من مغفره في وجنته: وقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أن أبا عبيدة بن الجراح نزع إحدى الحلقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت تتيته، ثم نزع الأخرى فسقطت ثيته الثانية، فكان ساقط الثيتين. وهناك قمة يقال لها قمة السن فيها حجر به حفرة صغيرة يزعمون أنها المكان الذي سقط فيه السن الشريف وقد كان أهل المدينة يملأونها بعد انتهاء هذه الواقعة بهض قتلهم لدفنهم فيها، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم قائلًا: «ادفونهم حيث صرعوا». وعليه فندفن حمزة في مصرعه الذي عاينه إلى الآن قبة يقال لها قبة المصراع، شرق مسجده الحالي الذي نقلت جنته إليه فيما بعد لما عذب السيل بقصره الأول. ومن حوله قبور الشهداء الذين قتلوا في هذه الواقعة وعددهم نيف وسبعون. وفي نهاية الوادي إلى الشمال جبل أحد وهو جبل صخري من الجرانيت، وهو وان كان من السلسلة الجبلية التي تخترق بلاد العرب إلا أنه يكاد يكون

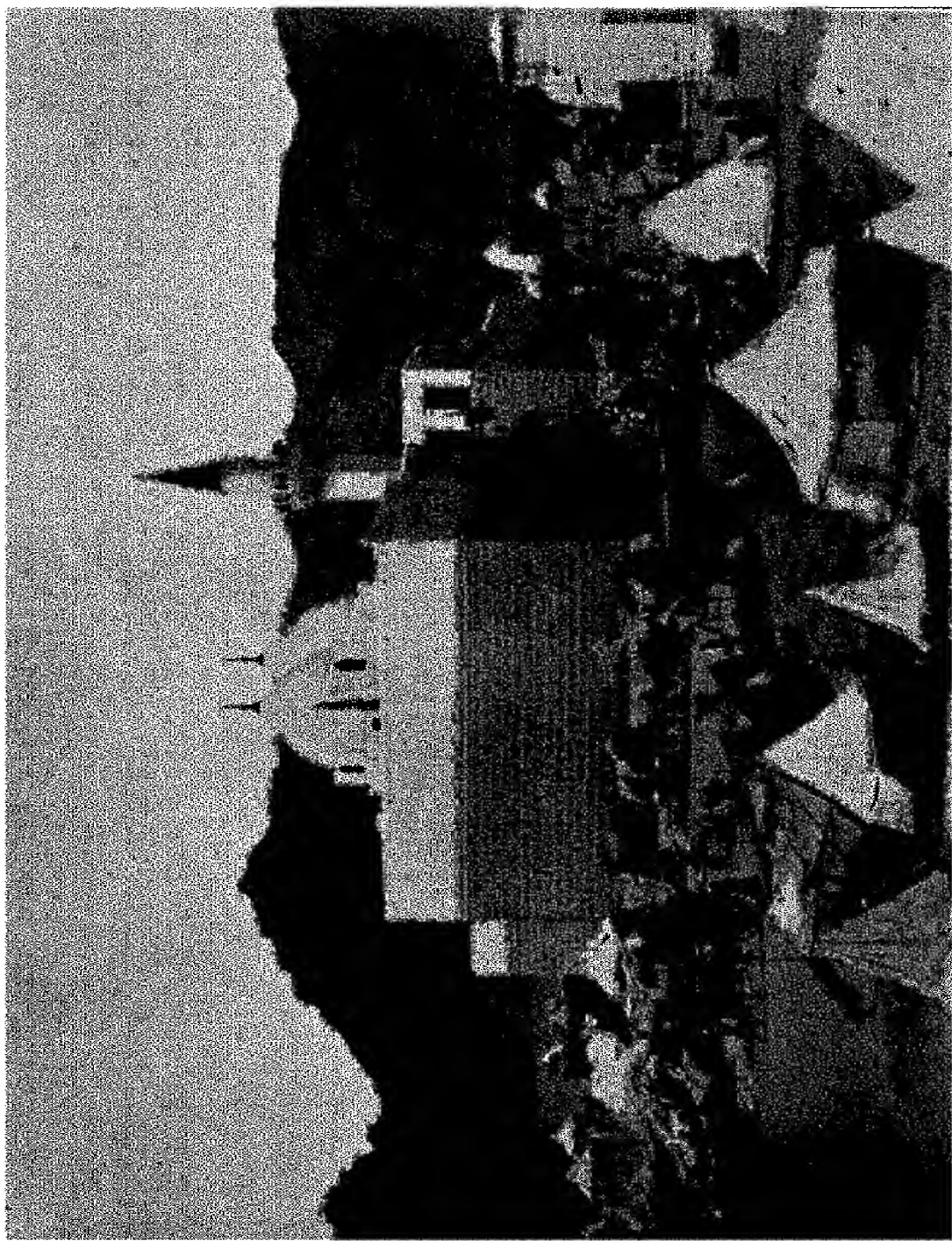
منفصلاً عنها وطوله من الشرق الى الغرب نحو ستة كيلومترات .

والبقيع له عند المسلمين مكانة عظيمة ويقال له بقيع الغرقد ، لانه كان يكثر فيه هذا النوع من الشجر ، و به دفن نحو عشرة آلاف من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ، وكثير من آل بيت النبوة صلوات الله عليهم : منهم سيدنا علي زين العابدين بن سيدنا الحسين وولده محمد الباقر وولده جعفر الصادق ، والاخيران في قبة سيدنا العباس . وكان بالبقيع قباب كثيرة هدمها الوهابيون .

ومن مزارات المدينة المباركة مسجد الراية ، ومسجد الفتح ، ومسجد الهبلتين ، ومسجد الشقياء ، ومسجد الغمامة (بالمخاضة) ، ومسجد علي (في طريق قباء) ، ومسجد المائدة (أمام البقيع من جهة الشرق) ، ومسجد الاحزاب (وراء جبل سلع الذي هو على يسار الخارج من الباب الشامي) ، ثم مسجد عروة .

وأهل المدينة يشربون من آبار كثيرة منها : بئر الاعواف ، و بئر أس بن مالك ، و بئر رومة التي اشترها عثمان بن عفان لشرب المسلمين منها في صدر الاسلام . وفيها بئر القويم ، و بئر العباسية ، و بئر صفية ، و بئر البويرة ، و بئر فاطمة ، و بئر عروة . وكان أهل المدينة في السابق يهدون من ماء البئر بن الاخيرين للملوك وكبار المسلمين . وفي قباء بئر اسمه ونها بئر الحاتم ، وهي بئر اريس التي وقع فيها حاتم النبي صلى الله عليه وسلم من عثمان بن عفان وهو خليفة ، وكانوا ذلك الوقت يختمون به على مكاتباتهم ، وكان يمشه (محمد رسول الله) .

وماء المدينة الذي عليه مدارس سقيها من العين الزرقاء التي توجد غرب مسجد قباء ، وماؤها عذب لذيد : وسميت بالزرقاء ، نسبة الى مروان بن الحكم الذي أجراها بأمر معاوية رضي الله عنه وقت أن كان عاملاً له على المدينة ، (وكان يسمى الاررق لزرقه عينيه) ، وهي موضع عناية كل الملوك والسلاطين الى هذا الزمان . ويمد ماء هذه العين مجرى مأخوذ من عين في قباء أيضاً بسمونها عين النبي ، وماؤها يسير الى المدينة في قناة مبنية بناء متيداً . وقد تفرع من هذا المجرى فروع كثيرة في جهات المدينة ، وبنى لها خزانات تنزل عن سطح الارض نحو عشرة أمتار عملاً منها



سید سیدنا حمزہ و حوالہ زوار المہدیہ

السقاءون الماء ويوزعونه على مساكن المدينة . وقد ينزل الناس بواسطة سلام من حجر الى هذا المجرى فيملئون جرارهم من حنفيات مثبتة فيه، وبهذا ترى أن مياه هذه العين نظيفة وبعيدة عن التلوث وهو السبب الوحيد في عدم تعرض المدينة غالباً الى الاوبئة التي تحصل في الجهات الاخرى من بلاد العرب التي لم يعتن بالماء فيها: مثل مكة ومنى وجدة وينبع . وهذه العين كان يقوم بتعميرها امرء المسلمين . وقد تخرست في أوائل الحكم العثماني ، ومكث أهل المدينة زمناً طويلاً وهم في ضيق شديد حتى عمرها السلطان سليمان سنة ٩٣٢ . ثم جرفها السيل سنة ٩٩٠ فأمر بتعميرها السلطان مراد خان ، واشترى نزل الغر بالى وألحقها بها . وفي سنة ١١١١ أمر السلطان مصطفى العثماني فاشترت نزل العقد ألحقت بها أيضاً . وما زالت حتى بناها السلطان سليم سنة ١٢١٢ . ولما حاصر الوهابيون المدينة خربوها ، فاصلاحها محمد علي باشا ثم جددوها السلطان عبد الحميد بما صارت معه عظمة الفائدة كبيرة المنفعة جزاهم الله خيراً .

وفي ضواحي المدينة عدا العين الزرقاء عين كهف ، غربي جبل سلع ، وعين الخيف وتجري من عوالي المدينة ، وعين الوادي بجوار قصر حمزة ، ثم عين السلطان وهي مالحة وتجري من قباء الى المدينة ، فتظهر بالوعاتها ومحاربيها ثم تسير الى بساتين المدينة من خارجها . ويوجد في المدينة بالحفة الشمالية حدائق كثيرة بالقرب من السور : منها حديقة الداودية ، وحديقة الزكي ، والسايل ، وبضاعة ، وبضيعة ، والطرباويه ، والفيروزية ، والزينية ، والدر وبشية ، ونرحاء ، والتواينة ، والجودية ، والكاتبة ، والسمانية . وفي داخل السور الحدائق الرومية . وفي الجهة الشرقية بساتين وكرم كثيرة من النخيل . وفي جهة قباء وذى الحليفة والعوالي شجر كثير من المزارع والبساتين ، والاخيرة مشهورة بثمرها . ويزرع فيها كثير من الخضراوات مثل الكرنب والقمبيط (القريبط) والكرات أبوشوشة والخرشوف والبابية والملوخية والباذنجان والفوطه والقرع واللوبيا والفاصوليا والرجلة والسبانخ والخبيزة والكرفص والبقدونس ، ومن الفاكهة البطيخ والقاوون والخوخ والرمان والعنب والموز والتمر والليمون والبرتقال والليم (وهو نوع من الانرج كبير الحجم) .

وحول المدينة وديان كثيرة . وينزل فيها كثير من مجارى السيول التى تسير بها الى بساينها وخصوصاً فى الجهات المنخفضة منها . وقد ترتفع مناسيب هذه السيول فى بعض السنين فتضر بالمدينة وضواحيها ضرراً بليغاً . وفى خلافة سيدنا عثمان فاض وادى مهر وز فيضانا كاد يقوّض أركان المدينة فأمر ببناء سددين عند بئر مدرى ، وحول بذلك مجرى السيل الى وادى بطحان . وفى سنة ١٥٠ نزلت السيول بكثرة على المدينة فأزعجت أهلها وأغرقت صدقاتها ، وكان ذلك فى خلافة أبى جعفر المنصور فأمر ، فبيت السدود فى أعلى المدينة فتحولت السيول الى جهات أخرى . وفى سنة ٧٣٤ فاض وادى القناة فأغرق الجهة الشمالية من المدينة الى جبل أحد ، وانقطع الناس بسببه عن زيارة سيدنا حمزة ستة شهور . وفى سنة ١٣٢٨ نزل السيل الى المدينة وتكونت مياهه عند جبل أحد وبلغ عمقه نحو نصف متر . وأهل المدينة يبلغ عددهم ستين ألفاً منهم كثير من المحاورين الاجاب ، وأكثرهم من الهنود والأتراك والشوام والمغاربة والمصريين . ومن أشهر عائلات المدينة عائلة أسعد وهم سادات ، وعائلة برى وهم مغاربة ، وعائلة السمهودى وهم مصريون . ولكبار أهل المدينة مرتبات من الدولة ، وكثير منهم مرتبات من الحضرة الخديوية . وأغلبهم يعيش من وراء خدمة الحرم وخصوصاً فى الموسم ، ومنهم كثير من المرشدين الى محال الزيارة ويسمونهم مزورين ، وهؤلاء يؤدون فى المدينة وظيفة المطوفين فى مكة . ومنهم من يعيش من التجارة البسيطة ، والمصريون يتجرون فى الحبوب كالقمح والعدس ويأتون بها من طريق القصير . وأهل المدينة يعبرون عن الجهات بالشام للشمال ، والبحرى للغرب (لأنه الى جهة البحر) والشرقى للشرق ، والفلبى للجنوب (لأنه جهة القبلة) . ومنهم أخذ المصريون هذه التسمية واستعملوها فى غير محلها فى اطلاق الفلبى على الجنوب ، لأن القبلى عندهم أعما هو الشرق الجنوبى كما لا يخفى .

ومن عادات أهل المدينة الرياضة والتنزه فى البساتين خارج المدينة ، فيخرجون اليها يوم الثلاثاء والجمعة بعد صلاة العصر جماعات جماعات ويعودون فى المساء ، وقد يخرجون الى هذه الرياضة من أول اليوم ومعهم غداؤهم فيمضون نهارهم فى أحد البساتين التى بضواحي المدينة



التكية المصرية بالمدينة المنورة

BUCHHEIM & ANDERSEN COPENHAGEN

في سرور وحبور: ويسمون هذه الفُسْحَة مَقِيالا .

ومن عاداتهم القديمة أن كل واحد منهم يُقدِّم كل سنة في ليلة السابع والعشرين من ذي القعدة مقدارا من الخنطة على سبيل الهدية الى الحجرة الشريفة ، و بعد أن يغسلها وينظفها جيداً يضعها في كيس جديد من القماش اللطيف الأبيض ، حتى اذا وصل الى الباب الذي في المقابلة الشريفة ، استغاث برسول الله ، ثم وضع الكيس بكل أدب داخل الحجرة الشريفة . وهذه الاكياس يأخذها خدمة الحجرة المطهرة ، ويهدون منها الى عظماء المسلمين على سبيل البركة .

ومن عاداتهم استقبال الزوار من خارج المدينة من غير سا بقة معرفة بهم . وكل واحد منهم يدعو الى ضيافته ما استطاع من ضيوف رسول الله ، فيأتيهم الى منزله ويمهد الفراش ويجهز الطعام اللازم لهم ، ويقضي مدة اقامتهم في المدينة وهو في خدمتهم بصدق واخلاص ، غير ملتفت الى أي أجر يصيبه منهم : وان فعلوا فليس على كل حال الا أقل مما يجب بالنسبة لهم . ومن اكمل عاداتهم أن ربة المنزل مهما بلغ من شأنها هي التي تشتعل بداخليتها ، وتفوم بطهي الطعام بنفسها ولا تباشر ذلك الا وهي على وضوء تام .

ومن عاداتهم في مواليدهم ان الطفل اذا مضى عليه أر بعون يوما غسلوه ونظفوه وألبسوه ملابس جميلة بيضاء ، و بعد أن يعطروه يأخذوا أهله وهم في أحسن زينة لهم الى الحجرة الشريفة ، فيأخذوا الخدمة ويضعونه فيها و يعطونه بستارتها ثم يدعون له بخير ، و بعدها يسلم الولد الى أمه فتأخذه فريحة هاشة باشة .

ومن عاداتهم أنهم لا ينوحون اذا مات لهم ميت ولا يبكون ، بل يأخذونه ويدخلون من باب الرحمة حتى يصلوا به الى الحجرة الشريفة ، فيصَلُّون عليه ويخرجون به من باب جبريل الى البقيع ، فيدفنونه مكبرين مصلين على الرسول ، وهذا لك يفق صاحب الميت على باب الجبانة فيعزيه الناس : وهي عادة قديمة من يوم وفاة سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه ، فانه بعد دفنه وقف أخوه سيدنا الحسين رضي الله عنه على باب البقيع واستقبل تعازي المعزين .

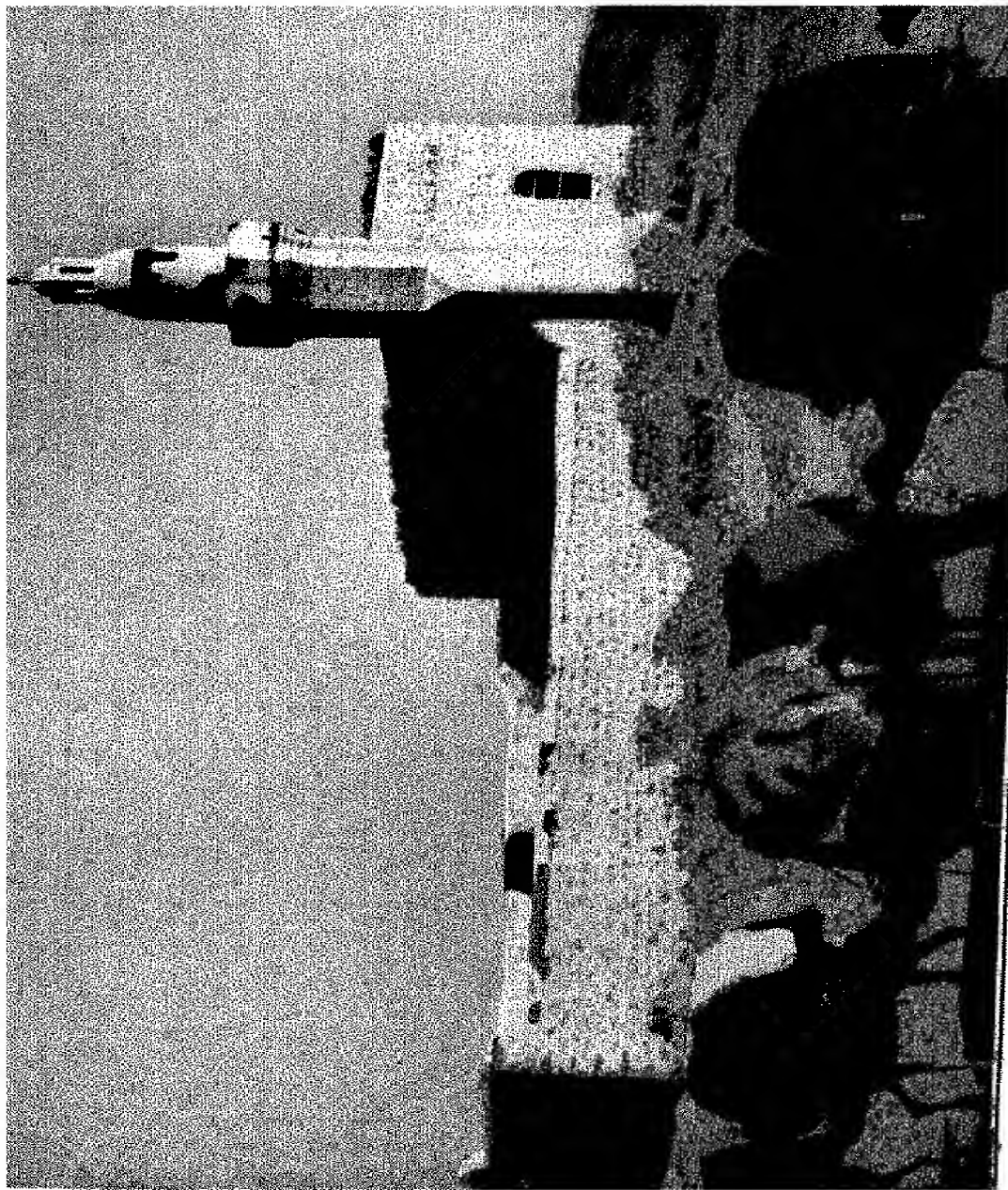
ومن عاداتهم أنهم يخرجون يوم الخميس نساء ورجالا بعد صلاة العصر الى البقيع ، ويلقون

على القبور رشيئاً من الرياحين وهي سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم .
ومن عاداتهم في شهر رمضان انهم يتوجهون الى الحرم قبل المغرب بنحو ساعة ويجلسون
حول الحجرة الشريفة، ويمضون بقية نهارهم في قراءة القرآن الشريف والذكر والصلاة على
الرسول . فاذا ضرب مدفع الافطار يكون حضر لكل واحد منهم صينية فيها افطار خفيف
كالقطير والجبن والزيتون والبلح والحلوى وما أشبه ذلك فيفطر كل منهم مع من يدعوه الى
طعامه من الغرباء، ثم يعطى بقية أكله الى من هنالك من الفقراء . ويقضون في هذه الفترة نحو
ربع ساعة، وبعدها تقام الصلاة فيصلون المغرب ثم يعودون الى منازلهم مع من يصادفهم من
الضيوف، فيتعشون ثم يعودون الى المسجد لصلاة العشاء، وبعدها تبتدى صلاة التراويح:
فينقسم المصلون الى خمسين أو ستين جماعة، لكل منهم امام مخصوص، يضعون في مقابلته
شمعدانين بهيئات مختلفة يدل كل واحد على ما اذا كان الامام يطول في صلاته أو يتوسط
أو يقصر، فيصلي كل انسان وراء من يريده، وبعدها ختام التراويح بحرى احتفال الشمع:
ذلك انهم في رمضان يخرجون ما في خزائن الحجرة الشريفة من الشمعدانات الذهبية
والفضية، فيعملونها امام هذه الأئمة كما بينا، وبعدها الصلاة يعيدونها الى الحجرة الشريفة
باحتيال كبير . ويتشرف بحمل هذه الشمعدانات من يحضر من الامراء والاعيان بدعوة
خصوصية ترسل اليهم من شيخ القراشة النبوية . وصلاة الصبح فيها شىء من ذلك .
أما صلاة العيد فيصلوها في المسجد النبوى امامان بجماعتين واحد شافعى والثانى حنفى،
وبعد الصلاة يتشرف الجمع بزيارة السيد الرسول ثم يعودون الى منازلهم ويقضون أيام العيد
في تزاور وسرور ورجور .

وكانت المدينة في القرون الثلاثة الاولى للهجرة في غاية الرقى الادبى والمادى . وكانت
بساتينها عملاً الفضاء المحيط بها وعلى الخصوص من الشمال والشرق والجنوب . وكان للقوم
بهار يابض زاهرة، وقصور فاخرة، وفي وادى العقيق الذى كان يغزى رماؤه، ويهر رواؤه،
وتزهو أرجائه، ويكثر زهره، ويفوح عطره، وبحنى نمره . وكان أغلبها لازواج رسول
الله صلى الله عليه وسلم . ومن أماكنه المشهورة الزُّغابة، وأيضاً، والغابة، وحصير، والخليفة

مسجد عروقة بالمدرسة المنورة

BOENNE ANDEREN, CAIRO



والجثجثة، وكلها كانت لعبد الله بن الزبير وبنيه . ثم حُمراء الأسد وكان بها قصور لغير واحد من القرشيين ، وحاخ وكانت للعلويين وفيها يقول الاخوص :

لها منزل بروضه خاخ * ومصيف بالقصر قصر قباء

ومن أشهر أماكنها تسمية الشريد، والغراء، والمعرّس، والبيداء . وكان في جميعها منازل الاشراف من فر يش، وخصوصاً على سفح جبل عير على عين المفل من مكة . وكان في الجهة الاخرى مكان اسمه الجّماء، وتجاهها في ضيق حرّة الوبرة على أربع أميال من المدينة الى ضفة نيرة ، أرض عروة بن الزبير وبها قصره المشهور بقصر العقيق، وبئر المشهورة باسمه والتي فيها يقول الشاعر:

كفنونى ان مت فى درع أروى * واستقوا لى من عروة ماء

وكان يوجد أسفل هذا القصر، تحاه الجّماء ، مكان يقال له العرّاصة وبه كان قصر سعيد ابن العاص الذى يقول فيه أبو قطيقة :

القصر دو النحل فالجاء بهما * أشهى الى القلب من أبواب جيرون

ويقال ان آثار هذا القصر موجوده الى الآن . وكان سعيد عاملاً للمعاوية على المدينة وكان هذا القصر فى أيامه آية فى جماله ونخامته ، بل كان آية من آيات القرن الاول الهجرى ، وأعجوبة من أعاجيبه ، حتى فضله الشاعر عن أبواب جيرون (دمشق) التى كانت فى ذلك العهد عاصمة الخلافة ، ومكان خামنها وأبهتها . وهى الى اليوم آية من آيات الله فى جمالها وبهاؤها : لان القادم عليها من الجنوب يخترق الغوطة وما أدراك ماهيه ، جة زاهيه . وادا قدمها من الغرب يخترق المرج وهو نزهة الزائرین، وبهجة الناظرین .

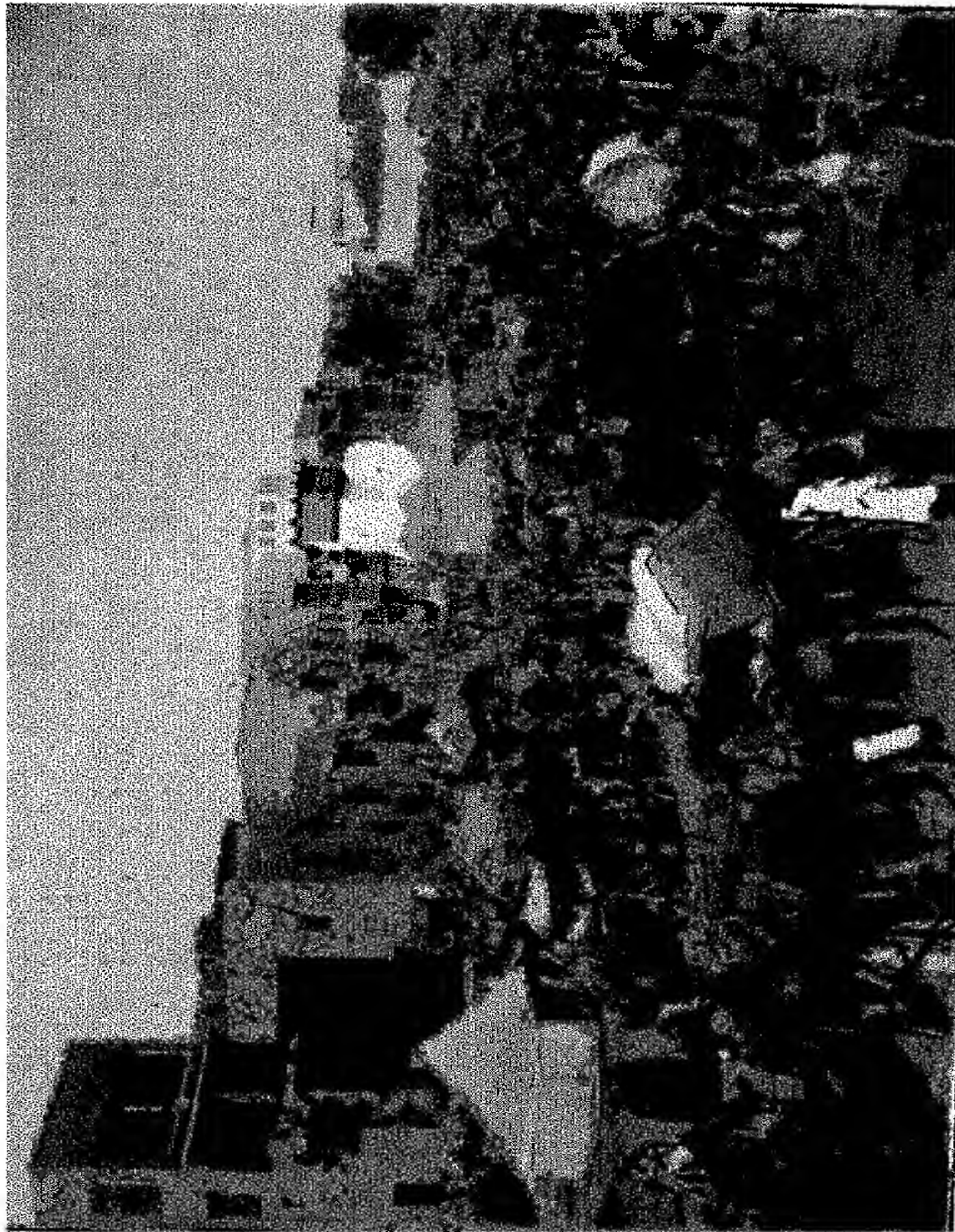
ومن القصور التى كانت مشهورة بوادى العقيق قصر عاصم، وقصر محمد بن عيسى، وقصر يزيد بن عبد الملك بن المغيرة، وقصر جعفر بن سليمان، وقصر أبى هاشم، وقصر غنبة بن عمرو بن عثمان بن عفان، وقصر غنبة بن سعيد بن العاص، وقصر عبد الله بن أبى بكر بن عثمان بن عفان، وقصر خارجة، وقصر عبد الله بن عامر، وقصر مروان بن الحكم . وآثار هذه القصور يوجد منها الى الآن شئ كثير يدل على عظمة وادى العقيق ونخامته . وفى ذلك يقول الشاعر:

ألا أيها الركب المحثون هل لكم * بأهل عقيق والمنازل من علم
 فقالوا نعم تلك الطلول كمهدا * تلوح وما يغنى سؤالك عن علم
 ويظهر أن أول من شيد البناء في المدينة هو عثمان بن عفان: فقد شيد داره فيها بالحجارة
 واليكنس وجعل أبوابها من الساج والعرعر، وكان له بوادي القرى وحنين من الضياع
 ما قدره بعدموته بمائة ألف دينار. وفي أيامه اقتنى أصحابه بالمدينة الضياع الواسعة والدور
 الفسيحة، وابتنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع بناءها ووسع فناءها وجعل في أعلاها
 شرفات، وابتنى المقداد داره بالجرف على أميال من المدينة وجعلها بحصص الظاهر والباطن.
 ونخامة العمارة بالمدينة لم تبتدى بها إلا بعد الخلفاء الراشدين: لأن الخلافة لما آل أمرها
 إلى الأمويين أخذوا يهلون العطايا على قریش وعلى سادات الانصار والمهاجرين بالمدينة
 حتى يستملوهم اليهم أو على الأقل يشغلونهم بأنفسهم عنهم: فكثرت ثروتهم وغزرت مادتهم
 وأخذوا يقدون بنى أمية في سعة العيش ورفه الحياة في المأكول والملبس والسكن: فشيدوا
 العمارات الفخيمة وحفروا الآبار في تلك الصحراء وغرسوا فيها البساتين والرياض وسيروا
 إليها الجماعات (جمع جماء وهي محرى الماء العزير)، وصيروا المدينة روضة زاهرة وجنة
 باهرة، وما زالوا في رفاهة هذا العيش حتى اذا ضعفت الخلافة في مبدأ القرن الرابع الهجري
 انقطعت أعطيائهم فتغير حالهم، وانقضت سحابة رفهم، وسبحان من له الدوام.

وضعفت المدينة بضعف الخلافة العربية فصارت عرضة لهجمات الاعراب
 وغزوات البدو، فقام عضد الدولة أبو شجاع وزير الطائع لله وبنى سوراً حول المدينة
 سنة ٣٦٠. وبقي هذا السور حتى تداعت أركانه في منتصف القرن الخامس فبناه الأمير
 جمال الدين وزير صاحب الموصل وصاحب رباط الاعجام بالمدينة. وزاد فيه نور الدين بن
 زنكي سنة خمس مائة وثمان وخمسين أثناء عمارته للحجرة الشريفة. ثم بناه الملك الصالح بن
 قلاوون سنة ٧٥٥، ثم السلطان قايتباي سنة ٨٨١، ثم السلطان سليم العثماني سنة ٩٣٩.
 وعمره محمد علي باشا إلى مصر بعد حرب الوهاية، وهو الذي فتح فيه الباب المصري.
 وجده السلطان عبدالعزيز سنة ١٢٨٥ وجعل ارتفاعه نحو ٢٥ متراً، وبنى فيه ٤٠ برجاً

قافلة الحجّاج بالنساحة بالمدينة المنورة

BOHME & ANDERER, CAIRO



تشرف على ضواحي المدينة للدفاع عنها ، وهذا السور باق للآن ، وهو في طريق باب العنبرية ، وعلى محيطه المزاغل والأبراج المشحونة بالمدافع والذخائر الحربية لصد هجمات الأعراب الذين كثيرًا ما كانوا لا يزالون يعتدون على حرم رسول الله .

وأما سورها الخارجى فليس بذى أهمية تذكر ، وهو مهديم في كثير من جهاته . وفيما بين السورين يعنى فيما بين الباب المصرى وباب العنبرية ، واد كبير متوسط عرضه ٤٠٠ متر يقال له المناخة ، وسميت بذلك لأن أغلب الحجاج ينبغون جهالهم فيها ، ويقمون بهامدة الزيارة ، وفيها مقام ركب المحمل المصرى مدة وجوده بالمدينة . وحول المناخة ، من جهتها الخارجية ، أبنية كثيرة أحسنها ما كان على الشارع العمومى : وهو شارع محطة السكة الحديدية ، ويسمى الآن بالشارع الرشادى ، وفيه التكية المصرية ، ولها مرئيات من مصر ، وتعمل بها الشورى يومية للفقراء على النظام الذى تقدم فى تكية مكة ، وفيه قشلاق العساكر الشاهانية ، وكلاهما من بناء المرحوم إبراهيم باشا جد العائلة الخديوية .

وللمدينة ثمانية أبواب وهى : الباب المحيدى ، والباب الشامى ، وباب الكوفة ، وباب العنبرية ، وباب قوبه ، وباب العوالى ، وباب الجمعة . وتقل أبواب المدينة فى وجه الزائرين من الحجاج إذا تحقق أنهم ملوثون بالوباء ، ولكنهم يفتحون لهم طريقاً من الباب المحيدى إلى باب الحرم ، فيزورون ويسافرون بعد يوم أو يومين على الأكثر ، موافقاً لهم التى يجب أن تكون محمية خارج البلد . وذلك ترى أهل المدينة على الدوام بعيدين عن الاوبئة بالمرة ، ولكنهم فى هذه الحالة لا يفتحون للحجاج إلا ما واحداً من الحرم : فيستراكم بعضهم على بعض ويزدحمون فى الطريق الموصل إلى هذا الباب حتى إذا وصلوا إليه ، أخذوا يتدافعون للدخول إلى المسجد ، وهناك يجدون مئبداً من فى داخله متدافعين للخروج منه ، فتلتحم القوتان ، ولا يزالون حتى يظهر فرقى منهم على الأخر ، فيهمجمون عليهم ويطئونهم بأقدامهم ويموت من جراء ذلك خلق كثير كما حصل فى سنة ١٣٢٦ هـ . وعليه فيجدر بمشيخة الحرم فى مثل هذه الأحوال أن تجعل باباً من الحرم للداخلين وآخر للخارجين ، وذلك يتوفر عليها وعلى الناس مثل هذه المشقة .

ومناخ المدينة صحى جدا وربما كان ذلك من الاسباب التى ساعدت على رقة أهلها ولطافة أمر جنتهم التى اذا أضفت اليها ما هم عليه غالباً من الصلاح والورع والادب وحسن المعاشرة، حكمت لهم بانهم أحسن أهل بلاد العرب على الاطلاق فى مكارم الاخلاق: وليس ذلك بعجيب فمجاورتهم للسيد الرسول اكسبتهم كثيراً من أخلاقه الكاملة . على أن من يفكر فى أن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما اختص أهل المدينة بالمهجرة الى بلدهم، يحكم حكماً قطعياً بأن مكارم الاخلاق فيهم من زمن بعيد ، وقد زادها الاسلام جمالاً على جمالها وكمالاً على كمالها . وحسبك ان السيد الرسول بعد ان أدى مأموريته من اظهار الدعوة ونشر راية الدين الاسلامى وتقوية دعائه، محال لا يدخل معها الوهن الى أى جانب من جوانبه، أظهر فى حجة الوداع أنه لا يريد الموت الا بين ظهرانى الانصار الذين نرى اليوم من خلفهم على سندهم رضى الله عنهم أجمعين .



محمد رسول الله

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم . ولد صلى الله عليه وسلم بمكة ، فى دار أبى يوسف المشهورة الآن بمولد النبى ، بعد قدوم أصحاب القيل بنخمسين يوماً على الاصح ، وبوافق ذلك ثمانياً خلو من شهر ربيع الاول سنة ٤ هـ قبل الهجرة . وكان أبوه عبد الله غائباً بحجة يثرب ومات ودفن فيها ولم ير ولده . أما أمه فهى آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم بن مرة بن كعب .

وفى السنة الاولى من مولده تسلمته حليمة السعدية لترضعه ، فذهبت به الى قومها فى البادية وكانت تغنيه بقولها :

الحمد لله الذى أعطانى * هذا الغلام الطيب الاردان
قد ساد فى المهد على العلمان * أعينه بالبيت ذى الاركان

ومكث صلى الله عليه وسلم عند حليلة الى السنة الرابعة من عمره . فردته الى أمه وفيها ذهبت به الى أخواله بنى النجار بالمدينة . فماتت بالطريق بمكان يقال له الابواء . وقدمت به أم أيمن الى مكة . فكفله جده عبد المطلب وكان يحبه حبا جما الشدة ذكائه، وفرط نباهته، وقويم سيرته، وعظيم أدبه ، ولما كان يتوسمه فيه من رفيع المنزلة وكبير المستقبل . ولما كان عمره صلى الله عليه وسلم ثماني سنين مات عبد المطلب، فكفله عمه أبو طالب وضمه اليه، وخرج به الى الشام وهو في الثالثة عشرة من عمره، ومن ذلك الحين أخذت تظهر للناس مواهبه وجلال صفاته، مما كان داعية الى احترامهم إياه واجلالهم لقدره . ولما بلغ الخامسة والعشرين خرج الى الشام في تجارة لخديجة بنت خويلد مع غلامها ميسرة . وعاد اليها بربح عظيم كان برها ناجديداً على صدقه وأمانته . فلما رأت ذلك خديجة خطبته الى نفسها ، وكانت أعظم نساء قريش فضلاً وأكثرهن مالا وأوسطهن نسباً : لأنها بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن حكيم . فتزوج بها في هذه السنة ولم يتزوج عليها في حياتها . وماتت رضى الله عنها بعد خمس وعشرين سنة من زواجها منه، وقد ولدت له القاسم والطيب والظاهر ورقية^(١) وأم كلثوم^(٢) وزينب^(٣) وفاطمة^(٤) . ولم يكن له أولاد من غيرها الا ابراهيم^(٥) فانه من مارية القبطية، التي دخل بها سنة سبع للهجرة .

أما صفته صلى الله عليه وسلم فقد قال علي^{رضي} فيها ما نصه :

لم يكن رسول الله بالطويل الممّقط^(٦)، ولا بالفصير المتردد^(٧)، وكان ربة من القوم، ولم يكن بالتجعد ولا بالتسبط، ولم يكن بالمطهّم^(٨)، ولا بالمكّكّشم^(٩)، أبيض مشرب (بحمرة)، أدهج العينين^(١٠)، أهدب الأشفار^(١١)، جليل المشاش^(١٢)، والكسد^(١٣)، أجرد^(١٤)

(١) أم كلثوم ورقية كانتا روحا عتبة وعتبة أبي أي له فطلقاها . فتزوجهما عثمان بن عفان واحدة بعد الاخرى . أما ريب فكانت تحت أي العاص بن الربيع . وتوفيت ورقية سنة ٢ زينب سنة ٨ وأم كلثوم سنة ٩ للهجرة . (٤) ولدت فاطمة سنة ٨ قبل الهجرة ، ودخل على بها في السنة الاولى ، وولدت الحسن سنة ٤ ، والحسين سنة ٤ ، وتوفيت سنة ١٢ هـ .

(٥) ولد ابراهيم سنة ٥٥ . (٦) كثير الطول . (٧) المتاهي في القصر . (٨) الكثير السم .

(٩) مدور الوجه تدويراً تاماً . (١٠) واسع العينين . مع شدة سوادها . (١١) طويل شعر الخفون .

(١٢) عظيم رؤوس العظام . (١٣) مجمع الكسعين . (١٤) قليل الشعر .

ذو مَسْرَبَةٍ ^(١)، شثن الكفين والقدمين ^(٢)، اذا مشى تَقَلَّعَ ^(٣)، كأنما ينحط عن صَبَبٍ ^(٤)، أجود الناس صدراً ^(٥)، وأصدقهم لهجة وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله .

وعاش صلى الله عليه وسلم بين قر يش عاقلاً حكيماً، شجاعاً كريماً، برأرحياً، كثير التقوى والزهد والورع، بعيداً عن كل ما يؤخذ على الناس في سيرتهم، صادقاً في قوله وفعله، عظيم الهمة، كبير المروءة : لذلك كان له في قومه منزلة كلها إكبار وإعظام . وكانت قر يش ترجع إليه في مشورتهم، ويرضون بحكمه فيهم، حتى أطلقوا عليه اسم الصادق الأمين .

ومع أنه كان أمياً (لا يقرأ ولا يكتب)، فقد كان ذكياً بليغاً فصيحاً جرت كلماته بحرى الامثال، وأخذت عباراته بمقائيد الحكمة، وخصوصاً بعد الاسلام . وبالندك ذلك شيئاً منها، حتى ترى ما فيها من كبير معناها، وعظيم مغزاها، مع قلة ألفاظها، مما هو مذكور بكتب الحديث والتسير والادب :

اليد العليا خير من اليد السفلى . ترك الشر صدقة . ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء . الدال على الخير كفاؤه . كل معروف صدقة . حبك الشيء يعنى ويصم . البلاء مؤكل بالمنطق . الحرب خدعة . رأس الحكمة مخافة الله . ابدأ بمن تعمل . فضل العلم خير من فضل العباد . المرء كثير بأخيه . انما الاعمال بالنيات . الغنى غنى النفس . الحياء خير كله . الناس معادن كعادن الذهب والفضة . لا خير لك في صحبة من لا يرى لك ما يرى لنفسه . ما أملك ناجر صدق . خير الامور أوسطها . ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . اقبلوا عثرات الكرام . كادت الفاقة تكون كفراً، اعمل لديالك كالك اعيش أبداً واعمل لا خرتك كالك تموت غداً، الخ الخ بجلال هذه الصفات كان عليه الصلاة والسلام مستعداً بطبعه الى ما أكرمه الله به من النبوة وهو في سن الاربعين : فأخذ ينزل عليه الوحي شيئاً فشيئاً بما تدرج معه الى احتمال هذا التاموس الاعظم .

(١) شمريين الصدر والسرة (٢) سمين الكمين من غير قصر (٣) رفع رجليه (٤) منحدر (٥) لا يصن بعلفه وفصله .

وكان الناس قبل الاسلام مختلفين فيما بينهم متفرقين في عصبياتهم ودياناتهم متغايرين في شرائعهم : كثرت فيهم فروع الصابئة ، والمجوسية ، والوثنية ، والبراهمة ، والبوذية ، وتعددت الفرق في الديانات السماوية فاقسمت اليهودية الى ربانيين وقرائين وسامريين وغيرهم . وافترت النصرانية الى مالا يحصى من الفرق التي منها اليعقوبية والنسطورية والاربوسية والارثوذكسية : فكان من ذلك الانقسام العام في المسائل الاجتماعية والامور الحيوية . فادى ذلك الى انحلال أجزاء الامبراطورية الرومانية ، واختلال أعضاء المملكة الفرسية ، لكثرة ما كان يقوم في داخلتهما من المجادلات التي كانت تؤدي الى شديد المخاصمات . وبذلك استعدت النفوس الى شريعة جديدة توحد بين جميع هذه العناصر في معتقداتها ومعاملاتها : فأرسل الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة ، بدينه المتين ، وقرآنه المبين . وما زال يجاهد في سبيل بناء هيكل الاسلام بثبات جأش وصبر لا يعرف الملل ، محتملا في ذلك تلك الاهانات التي كان يلقاها من قومه ، حسداً منهم له ، وألفة من دخولهم في دائرة قيود هذا الدين الجديد : وقد كانوا يعيشون طول اوار حياتهم لا تجمعهم الا كلمة الفوضى ، ولا يحوطهم غير سياج الحرية المطلقة .

وما زال فيهم صلى الله عليه وسلم بثباته ، وحسن بصيرته ، وكبير حلمه ، مع ما كان له فيهم من حرمتهم لشخصه واجلالهم لصفاته التي لم يروا فيها من نعومة ظفره صغيرة يأخذونه بها أو يحاسبونه عليها . فامن به ثرها جروا^(١) معه الى المدينة ووضعوا ايدهم في يدا انصاره ، وما برحوا ينصرونه في جميع مواقفه على أعدائه ، حتى انتهى أمرهم بتصديقه والابمان بما أتى به من عند الله وأهم هذه المواقف كانت غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة ، وأحد في الثالثة ، والخندق في الخامسة ، وخيبر في السابعة ، وفتح مكة وغزوة حنين في الثامنة ، وغزوة تبوك في التاسعة . ومن هذه المواقف تعلم المسلمون منه صلى الله عليه وسلم تعبئة الجيوش ، وسياسة الحروب ، والثبات في ساحات النزال ، والشجاعة النفسانية في جميع المواقف ، والصبر على الشدائد حتى هابهم الناس وأكبروا منزلتهم .

(١) كان عمره صلى الله عليه وسلم وقت الهجرة ٥٤ سنة وهاجر معه صاحبه أبو بكر وحده الى المدينة ثم استرسل الناس في هجرتهم اليها .

وما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يناهض أهل جزيرة العرب في سيرهم، ويكافحهم في تقويم أخلاقهم وتربية نفوسهم، حتى نشأت فيهم أخلاق جديدة، وآراء سديدة، وآمال بعيدة، وصلوا بها في أيام قليلة إلى ضم عروش الأكاسرة والقيصرة إلى عرشهم، الذي إنما كان حجراً بسيطاً في هيكل ملكهم وبنیان سلطانهم .

واستقر رسول الله بين المهاجرين والانصار بسلك بهم سبيل الفضائل، ويبعد بهم عن طرق الرذائل، وينفرهم مما كان فيهم من العوائد الشنيعة التي تخالف نظام الانسانية : كؤاد البنات، وشرب الخمر، وقتل النفس بغير حق والاستقسام بالآلام، وعبادة الاصنام، ولعب الميسر، والكذب، والنفاق، والرياء، وغصب مال الغير، وسوء معاملة المرأة، وعدم الرفق بالرفيق، حتى فشا فيهم محبة البنات، ونبذوا المسكرات، وعرفوا معنى الحياة، ودانوا بالتوحيد، ووقرت في نفوسهم فضيلة الصدق والصراحة والرحمة . ما زال فيهم صلى الله عليه وسلم يعلمهم الشجاعة النفسانية والادبية، ويسمو بنفوسهم إلى منازل الحياة الحقيقية، حتى عظمت فيهم الآمال، ومالوا إلى جلائل الاعمال، في خدمة الانسانية، التي جاء دينهم لنصرتها والنهوض بها من وهديتها، واعلاء كلمتها، والوصول بها إلى الغاية التي خلقت من أجلها : فكثرت بينهم المعلومات التي أدت إلى وضع نظام تشريعي سماوي، كان ينزل عليه في ظروف مخصوصة كما اقتضت الحال، مما هو في القرآن المحيد . وكان عليه الصلاة والسلام يشرع للناس فيما لم يصل اليه به وحى، مما هو مجموع في كتب الحديث : فكان من ذلك شريعة قوية متينة تناسب كل زمان ومكان، لا يعتريها الباطل من أي جهة من جهاتها . وحسبنا دليلاً على ذلك أن نابليون بونابرت استخدمها القانون الفرنسي الذي هو روح التشريع الحديث في أوروبابا جمعها، وإلى كتب الشريعة الاسلامية الآن ترجع قضاة أوروبيا ومشروعهم في كثير من الامور التي لم ينص عليها في قوانينهم . فكان بذلك صاحب هذه الشريعة الفراء أكبر رجل في الخلية خدم الانسانية خدمة لا ينكرها الا كل لئيم أو كاذب . عرف صلى الله عليه وسلم انه ليس للوصول إلى هذه الخدمة سبيل الا بمحاربة أعدائها، فكتب إلى رؤوس الامم التي تحيط ببلاده منهم ملوك الروم، والفرس، ومصر، واليمن ،

والحبشة ، يدعوهم الى الاسلام ، ويطلب منهم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى تسجلت على الناس دعوته . ثم اتى بدأ يأخذ أهفته ضدهم لم يقبل رسالته . فدانت له بلاد العرب من أدناها الى أفصاها، وصالحه على الجزية كثير من الامم التي في شمالها شرقا وغربا . وفي السنة العاشرة من الهجرة كانت الامة العربية استعدت الى الهوض بدين الله ونشره في جميع الاقفاق ، ونمت بذلك مأموريته صلى الله عليه وسلم ، فخرج حجة الوداع ، وسجل دعوته على المؤمنين في خطبته بها ^(١) في عرفة . ثم رجع الى المدينة ، وفي أواخر صفر اعتل جسمه صلى الله عليه وسلم ، وقبضه الله اليه في يوم ١٢ شهر ربيع الاول سنة احدى عشرة للهجرة ، ودفن في بيته حيث هو الا ن بمسجده الشريف صلوات الله عليه وسلامه .

أبو بكر

هو عبد الله بن أبي قحافة بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب . وفي مرة يحتمل نسبه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولد بعد عام الفيل بثلاث سنين . أما صفته فهي كما وصفته ابنته عائشة : « كان أبيض ، نحيفاً ، خفيف العارضين ، أنجناً ^(٢) ، لا يستمسك ازاره يسترخي عن حنويه ، معروق ^(٣) الوجه ، عائر العينين ، باني ^(٤) الوجه ، عاري الا شامع ^(٥) »

وكان تاجراً ، وعرف قبل الاسلام بزهده ، وورعه ، وتواضعه ، وسعة خلفه ، وصدقه ، واتعاده عن المنكر ، حتى أنه لم يشرب الخمر مطلقاً في حياته . فلما جاء الاسلام ورأى أنه دين الحق لم يكن لنفسه سلطان عليه ، فكان أول مصدق من الرجال برسالة صديقه محمد صلى الله عليه وسلم .

(١) كانت خطبة الوداع في يوم الجمعة ، وفي هذا اليوم نزل قوله مالي اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً . وهذا هو سبب اهتمام الناس بالحج في السنة التي يصادف الوقوف فيها يوم الجمعة . وقد ورد في فضل الحج بالحكمة أحاديث كثيرة . (٢) منحنيًا (٣) قليل اللحم (٤) بارر (٥) الاشامع أصول الاصابيع التي تنصل بظهر الكف .

ولما أسلم أخذ ينصر رسول الله ويساعده ويدعو الناس الى دينه، فنقمت عليه قريش وأخرجته من مكة . فاراد الهجرة الى الحبشة، فلقية ابن الدغنة، وهو سيد القارة، وعاد به الى قريش، وقال لهم: كيف تخرجون رجلاً يُكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فآثر كوه يعبد الله في داره . فقبلوا منه ذلك على أنه لا يجتمع بمحمد صلى الله عليه وسلم . وأتى ابن الدغنة أبا بكر فاخبره بذلك وقال له: اما أن تقتصر في دارك واما أن تردمتي، فاني لا أحب أن تسمع العرب اني أخفرت في عقد رجل عقدت له . فقال أبو بكر: « اني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى ورسوله » . ومكث رضى الله عنه بمكة، وما زال ينصر رسول الله بنفسه وماله حتى هاجر معه الى المدينة، مع ما كان يحقق بهما من خطر أولئك الذين كانوا يناوئون الرسول، وينبذون طاعته، ويتكرون رسالته ويظهرون عداوته . وما زال ابن أبي قحافة بالمدينة قائماً بنصرة صاحبه مختصاً بصداقته، حتى مرض رسول الله مرض الموت، فامر به بالصلاة بالمؤمنين . ولما توفي صلى الله عليه وسلم هلع المسلمون وهالهم الامر، فقام فيهم خطيباً وقال في كلام له « من كان يعبد محمداً فمحمد قد مات ومن كان يعبد الله فالله حي لا يموت » . ثم تلا قوله تعالى: « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً » . فسكن روح الناس وثابوا الى رشدهم واحتملوا مصيبتهم في نبيهم . ثم بايعه الناس في سقيفة بني ساعدة فخطب فيهم قائلاً: « قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان أحسنتم فاعينوني، وان أسأت فقوؤموني » .

وقام أبو بكر في حكمه بامر المسلمين خير قيام . وكان رضى الله عنه في خلافته أزهد الناس وأورعهم وأتقاهم . وكان يلبس الشملة والعباءة حتى انه لما وفد عليه زعماء العرب وملوك اليمن ومنهم ذوالكلاع الحميري، وعليهم الحلل المقصبة والبرود المذهبة أكبروه وهاجوه وذهبوا مذهبه . وارتدت العرب في أول خلافته عن الاسلام فراراً من قيوده التي ساوت بين الكبير والصغير، والسوقة والامير . فجرد لهم عزيمته واستنفر الناس عليهم وحاربهم بثبات متين وجأش رابط، حتى أرجعهم الى دين الله ورسوله . وبعد ما فرغ من حرب أهل الردة سير

خالد بن الوليد الى العراق من أدناه، وعياض بن غنم من أعلاه، وأمرهما أن لا يضرا بسواده ولا بفلاحيه : فسار خالد ووقعت له واقعة الحفيرة المشهورة قرب البصرة، وانتصر فيها على جيوش الفرس بعد ان قتل رئيسهم هرمز، ثم قصد الحيرة فصالحه أهلها على الجزية، ثم سار الى الانبار وصالح أهلها على ما صالح به أهل الحيرة، واستخلف عليها الزبير بن بدر. وسار الى عين النمر فالتفت به جيوش المعجم فهزمهم وسبي من كان به، وفي جملةهم نصير أبو موسى فاتح الاندلس. ثم سار الى دومة الجندل وأخذها عنوة. وما زال ينتقل فاتحاً منصوراً من بلد الى بلد حتى وصل الى تخوم الشام، فاجتمعت عليه الروم وعرب باديتهما، فنصره الله عليهم ثم رجع الى الحيرة ومنها الى مكة لا داء فرضة الحج.

أما عياض فانه اخترق نفق حانه بلاد كردستان وارمينية ثم انضم بأمر عمر الى جيوش أبي عبيدة في حصاره لدمشق لاهميتها وحصانة موقعها.

ولما كثرت الفتن على المسلمين انشأ أبو بكر بيت المال وجعل عليه أبا عبيدة، وجعل على القضاء عمر بن الخطاب، وعلى الحرب خالد بن الوليد، وكان يكتب له على بن أبي طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت.

وفي سنة ١٣ هـ جريّة بعث أبو بكر البعوث الى الشام فمقدلوا الى يزيد بن أبي سفيان وكان يحمله له أخو دمعاً وية، ثم عقد لواء آخر الى أبي عبيدة بن الجراح، ولواء لشرحبيل بن حسنّة، ولواء لعمر بن العاص. فاجتمعوا في اليرموك ووقعت لهم فيها واقعة كبيرة مع جنود الروم الذين أحاطوا بهم من كل جانب. وكان أبو بكر أمدهم بخالد بن الوليد ونصرهم الله في هذه الواقعة نصراً مبيناً. ثم سار كل لواء الى جهة من جهات الشام، وسار خالد وأبو عبيدة الى دمشق وحاصروها. وفي أثناء حصارها وصلهم كتاب عمر بموت أبي بكر، وفيه عزل خالد عن الجيش وتأمير أبي عبيدة عليه.

وكان أبو بكر رضى الله عنه جليلاً الصفات، قدوة في مكارم الاخلاق، كثير الزهد، وكان يعيش بالكفاف : وحسبك ما ورد من ان امرأته اقتصدت من قوت عائلتها ما كان منه في عدة أيام قدر يسير من الدقيق، وأرادت أن تشتري به شيئاً من الحلوى.

فلما علم به أبو بكر أمر فاعيد الى بيت المال لانه فضل عن قوت عائلته، وأسقط من نفقته بمقدار ما نفقت كل يوم . وكانت هذه النفقة تصرف اليه من بيت مال المسلمين ، لانه ترك تجارته لتفرغه للاشغال بامرهم . وكان مرتبه ٢٥٠ ديناراً في السنة وشاة غير كاملة كل يوم . فلما وجد المسلمون أن ذلك لا يكفي عائلته أكملوه الى ٣٠٠ دينار في السنة مع شاة أكملها كل يوم . أما سيرته مع المسلمين ورفعهم وحسن سياسته فيهم وتعهده لمصالحهم، فما لا يفضل فيه راع مع رعيته . وكان رضى الله عنه كثير المصالح لعماله بالانابة في أعمالهم، والا تتعاد بالناس عن مواقف العن، والتعفف عما في أيديهم . وأفضل ما يذكر في تاريخه اهتمامه بجمع القرآن من صدور الخطاط، ومن بعض الصحف قبل أن يدخل عليه تغيير أو تبديل : والسبب في ذلك أن عمر ذهب اليه وقال له « ان القتل قد استحر يوم الائمة بالناس، واني لا خشي أن يستحر الميل بالفراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن الا أن يجمعه، واني لا رى أن يجمع القرآن » . ورأى أبو بكر رأى عمر فقال لريد بن ثابت : قد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه . فجمعه زيد من الرقاع وصدور الرجال، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى قابل ربه ، ثم حفظت عند حفصة بنت عمر .

وما زال أبو بكر رضى الله عنه قائماً بامر المسلمين حتى مرض في أوائل جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ . فامر علياً يصلى بالناس، ومات رضى الله عنه في يوم ٢٨ من الشهر المذكور، بعد أن عهد الى عمر بالخلافة من بعده ، ودفن الى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام . وكان له من البنين عبد الله وعبد الرحمن ومحمد، ومات عبد الله في خلافته خلف سبعة دنانير فاستكثرها عليه . وكان له من البنات أم كلثوم وعائشة^(١) أم المؤمنين رضى الله عنها .

————— . —————

(١) دخل بهار رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة الاولى للهجرة ومات رضى الله عنها سنة ٥٨ منها .

عمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن فرط بن رباح بن عبد الله بن رداح بن عدى ابن كعب، وفيه يجتمع سببه مع النبي صلى الله عليه وسلم، وكنيته أبو حفص، ويلقب بالعاروق وهو أول من سمي بأمر المؤمنين. وكان أعسر يسر (يعمل بكفى يديه)، طويلاً، أصلع، ولونه شديد الحمرة. ولد رضى الله عنه سنة أربعين قبل الهجرة. وكان في صغره يرعى الغنم لأبيه ثم اشتغل بالتجارة وسافر حمله مرات في الجاهلية إلى الشام وغيرها في تجارته أو سفارته لقومه. وقد ذكر ابن عساکر أنه أسرى في بعض أسفاره بدمشق، فتخلص من أسرته وفر إلى مكة. وكان شجاعاً مهيئاً بعيد النظر في الأشياء مشهوراً بالصدق والامانة والشهامة الأدبية شديد أى قوله وعمله. وكان في أول الاسلام من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأسلم قبل الهجرة بأربع سنين. وكان أسلم قبله تسعة وثلاثون شهراً كانوا في أشد ما يماسونه من فريش، وقد هاجر كثير منهم إلى الخاشة وغيرها. ومن كان منهم عكة كان يستخفى عن الناس، وكان المسلمون يجتمعون سرّاً في دار الأرقم الحزومى تحت الصفا، فقال عمر للنبي صلى الله عليه وسلم «يا رسول الله على مَ نحفى ديننا ونحى على الحق وهم على الباطل»؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنا قليل وقد رأيت ما نفيا». فقال عمر: «والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالسكر إلا جلست فيه بالإيمان». ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفين من المسلمين، حمزة في أحدهما وعمر في الآخر حتى دخلوا المسجد. فنظرت قریش إلى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة شديدة، ومن يومئذ ساء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعاروق؛ لأنه باظهاره للاسلام فرق بين الحق والباطل.

ومن ثم أخذ المسلمون وفي معدمتهم عمر يبتون في الناس دينهم، وينشرون فضله علانية ويكافحون قریشا غير مباين بما كانوا يصادفونه منهم من الاهانات وسوء المعاملات، حتى أدن الله رسوله بالهجرة. فهاجر الناس محتفين بالأمر فانه لما هم بالهجرة وكان خامس من

هاجر الى المدينة، تقلد سيفه وتنكب قوسه وأخذ في يده اسهما ومضى الى الكعبة، ورجال قر يش في فنائها، فطاف بالبيت سبعا ثم أتى المقام فصلى ثم وقف على الناس وقال «شاهت الوجوه لا يرغم الله الا هذه المعاطس . من أراد أن تشكله أمه و يؤتم ولده ويرمل زوجه فليلقني وراء هذا الوادي : فتابعه أحد الا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم، ومضى لوجهه» . ومكث عمر مع رسول الله في المدينة صادقاً في صحبته، أميناً في خدمته، متفانياً في نصرته، متشدداً في تأييد دعوته، حتى اذا بلغته وفاة رسول الله صلوات الله عليه ، وضع الناس لهول هذه المصيبة، جزع من صدمة هذه النائية جزعاً شديداً . ولكنه لم يلبث أن ثبته الله تعالى وذهب بأبي بكر الى سقيفة بني ساعدة ، وكان قد اجتمع فيها الا بصاريرون خليفة منهم . فدعمر يده الى أبي بكر وبايعه وتبعه المسلمون حتى تمت له البيعة . وما زال عمر لأبي بكر صاحباً متيناً ومشييراً أميناً وناصراً أميناً حتى مات أبو بكر بعد أن عهد بالخلافة اليه . فلما بايعه المسلمون صعد المنبر وجلس حيث كان يضع أبو بكر قدمه تواضعاً، وخطب الناس وقال في خطابته : أيها الناس من رأى فيّ منكم اعوجاجاً فليقوم به . فقام رجل وقال والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لمؤمننا بنسبوفنا . فقال عمر الحمد لله على أن في أمة محمد من يقوم اعوجاج عمر بسيفه .

ابتدأ عمر عمله في الخلافة باهتمامه باجلاء المشركين عن جزيرة العرب بعد أن عوضهم عن أملاكهم بما يزيد عن قيمتها، لانه كان يخشى وقوع الفتنة منهم بين المسلمين . وكان قد أرسل بعزل خالد بن الوليد عن امارة الجيش في الشام لانه كان يوجس منه خيفة . وأقام بدله أبا عبيدة في امارته، وأشار عليه بالاهتمام بفتح دمشق لانها حصن الشام وبيت مملكتهم . فسار اليها مع خالد وحاصرها بعد أن أقفل طرقها في وجهه من يأتي لددها . وكان معهما عياض بن غنم وعمر وبن العاص والقعقاع بن عمرو وشرحبيل بن حسنة . وكان كل واحد منهم على جهة وألوا جميعاً في حصارها بلاء حسناً . وانتهى أمرها بأن فتحت من الجهة التي فيها ابن الوليد : لانه استغفل الحرس وتسلق السور ليلاً مع بعض رجاله وفتح الباب لجنود المسلمين ، وكان ذلك في أواخر سنة ١٣ للهجرة . ومن ثم أخذت جيوشهم تفتح ما حولها من البلاد : ففتحت بعلبك وحمص وما والاها شمالاً من بلاد السواد . ثم فتحوا بلادها غرباً الى بيروت . وسار عمرو بن

العاص جنوباً إلى بيت المقدس فاتحاً الجميع ما في طريقه من البلاد، وشددا الحصار على أهلها فقالوا له اننا لنرضى بفتح غير ابن الخطاب . فكتب له فخر إلى الجابية وهي قرية من أعمال دمشق ، وقابله فيها أمراء الجند منهم : أبو عبيدة و خالد و يزيد بن أبي سفيان و ابن العاص . وهناك وفد عليه وفد إيلياء وقالوا له انهم نواب في الصلح عن قومهم ، فكتب لهم عهداً بذلك وجعل عليها علقمة بن محرز ، ثم سار إليها ودخلها ليلاً و بنى مسجد الصخرة وجعل قبلته إلى الكعبة بعد أن طهره مما تراكم به من القمامة التي كانت الروم تلقها عليه ، ثم عاد إلى المدينة . وكان ذلك في سنة ١٦ هـ .

واستمر أبو عبيدة في الفتح ففتح حماة واللاذقية وقسرين وحلب وأطاقية . وفي سنة ١٧ هـ دانت للمسلمين بلاد سوريا والشام وجنوب الأناضول من أقصاها إلى أدناها . فأخذوا يرتبون أمور البلاد في داخلتها ، ويضعون لها نظاماً في حكومتها . ولكن قيصر الروم لم يسمعته وجمع جنوده و جدد قوته وهاجمهم من جهة قسرين في جيش هائل ، إلا أنه لم يلبث أن انهزم مدحوراً وغنم المسلمون سلب جيشه ، وبهذه الموقعة قضى على حكم الروم في هذه البلاد . وسار ابن العاص إلى مصر فتم له فتحها في سنة ٢٠ هـ وأقام فيها يرتب أمورها وينظم أحوالها وسير منها نفر آمن قومه إلى برقة و بلاد النوبة فافتتحوها .

هذا ما كان من فتح الشام ومصر . أما ما كان من فتح العراق ، فان عمر رضي الله عنه كان سير إليها بأبعبيد الثقفي . فسار حتى عبر الفرات بمن معه من المسلمين ، وهناك حصلت بينه وبين الفرس واقعة عظيمة استشهد فيها أبو عبيد في عدد كبير من قومه . فأرسل عمر سعد بن أبي وقاص في جند من المسلمين ، فسار حتى وصل إلى الفادسية : وهي مدينة في جنوب النجف بميل إلى الغرب . وكان موقعها فيما بين البادية وسواد العراق ، وكان معه عدد عظيم من لحق به من المسلمين من الشام وغيرها ، منهم النعمان بن مقرن وحنظلة بن الربيع التميمي والمغيرة بن زُرارة والاشعث بن قيس وعاصم بن عمرو وعمرو بن معد يكرب والمغيرة بن شعبه .

وهناك قابلهم رستم قائد جيوش الفرس بما لا يحصى من الجنود . فحصلت بينه وبينهم جملة وقائع أبلى فيها الطرفان بلاءاً عظيماً ، وكانت نتيجة قتل رستم وانهزام الفرس ودخل سعد

القادسية سنة ١٥ هـ . ثم سار منها الى المدائن وهي عاصمة الاكاسرة وموقعها على دجلة على مرحلة من الجنوب الغربي لبغداد، ويسمى بالفرنجا كتيڤون (Ktésiphon) ويسمى بالفرس (بهرسير) ، فحاصرها وافتتحها بعد شهرين ، وهرب كسرى الى حلوان ثم الى أصفهان . وغنم المسلمون من خزائنه مالا يحصى ، وجعلوا ايوانه مسجداً وكان ذلك في سنة ١٦ هـ . وأقام سعد بالمداين الى سنة ١٧ هـ ، وفي غضون ذلك فتحت جنوده تكريت والموصل ، ثم تحول الى الكوفة بعد أن اختطها بأمر عمر .

وجمع كسرى فل الفرس وشتاتهم الى نهاوند ، فلما بلغ عمر ذلك سيرا النعمان بن مقرن في جيش من المسلمين ، فأتى اليها وحصر الفرس فيها وقطع عليهم خط رجعتهم ، وحصلت بينه وبينهم معركة تشيب لهولها الولدان ، كانت دماء الناس فيها تجري في ساحة الوغى كأنها الالهة : فزلق جواد النعمان فصرعه ، فكتم أمره من عرف ذلك من المسلمين وثبتوا في قتالهم الى الليل ، فانهزمت جيوش الفرس واشتت شملهم . وسار المسلمون في أثرهم حتى وصلوا همذان ، فصالحهم أهلها على أن يكفوهم شر الفرس من جهةهم ، وهرب يزدجرد ملك الفرس الى بلاد التار ولا زال فيها حتى مات في خلافة عثمان . وفي واقعة نهاوند قتل كثير من عظماء المسلمين : منهم طليحة الاسدي وعمر بن معد يكرب الزبيدي .

بعد ما استقر أمر المسلمين في بلاد الفرس أرسل سعد بعياض بن غم الى الجزيرة ، وكانت جنود الروم قد اجتمعت في أعلاها ، فافتتح بلادها الى حدود كردستان وأرمينية شرقاً ، وبلاد الشام غرباً ، وكسر جنود الروم ومزقهم كل ممزق ، ثم عاد الى حمص مات بها رضى الله عنه .

وكان عمر قد سير عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي سنة ١٨ الى فتح أرمينية وعززه بسلطان أخيه من جهة ، وبجبيب بن مسلمة القهري من جهة أخرى . فساروا حتى وصلوا بالفتح الى شمال جبال القوقاز : وبعد أن ضربوا الجزية على أهل هذه البلاد انجلوا عنها الى الجنوب ، خوفاً مما كانت تستلزمه سعة أطرافها ونغورها من كثرة الجند والمرابطة وما كانوا يخشونه من تجمع جيوش الروم عليهم في هذه النواحي القاصية .

ولمادانت للمسلمين بلاد الفرس والعراق والجزيرة والشام وسوريا ومصر وبرقة والنوبة، أخذ عمر في تقوية ثغورها، وتنظيم داخليتها، وترتيب مالياتها، وربط خراجها، ووضع جزيتها: فدوّن الدواوين، ووضع السجلات لضبط حسابات كل مصر وأعطياتها، وقيد محركاتها. وجعل للحسبة ديوانا يفتش على أعمال التجار حتى تكون الناس في أمن من غشهم، وضرب النقة ومن الدراهم^(١) الفرسية وعلى نقشها (سنة ٥١٨ هـ) وزاد على بعضها الحمد لله وعلى الآخر محمد رسول الله. وكان رضى الله عنه ينتخب للولايات العمال من أحسن الرجال، ورتب البريد بينهم وبينه يوافقونه بأموالهم ويوافقهم برأيه فيها. وكان قبل قيام البريد من الجهات ينادى المنادون فيها « من كانت له إلى أمير المؤمنين شكوى فليرفعها إليه فان البريد قائم من غده » وكان رضى الله عنه لا يعين في القضاء إلا أكثر الناس ورعا وزهداً، وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وكان على قضائه أبو موسى الأشعري، ولما ولاه القضاء كتب له الكتاب الآتى:

« بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فان القضاء فرضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم اذا أدلى اليك، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نادله. آس بين الناس في مجلسك ووجهك وعدلك، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يئس ضعيف من عدلك. البيّنة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين: الا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً. ولا يمنعك قضاء قضيت به بالامس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه، فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم. اعرف الامثال والاشباه، وفس الامور عند ذلك: ثم اعمد الى أجلها الى الله وأشبهها بالحق. واجعل للمدعى حقاً عائباً أو بينة: حداً ينتهى اليه، فان أحضر بينته أخذت له بحقه، والا وجهت عليه القضاء، فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ للعدو. المسلمون عدول بعضهم على بعض: الا مخلوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيماً في ولاء أو قرابة: فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات والایمان.

(١) لان الدماير لم تصرف في الاسلام الا في عهد عبد الملك بن مروان.

اياك والقلق والضجر، والتأذى بالناس، والتذكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الاجر، ويحسن بها الذخر، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه، هنك الله ستره وأبدى فعله والسلام» .

وكتب الى معاوية وهو عامله على الشام :

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فاني لم آلك في كتابي اليك ونفسي خيراً . اياك والا حتجاب، واذن للضعيف وأدنه حتى تبسط لسانه وتجري قلبه، وبعده الغريب فانه اذا طال حبسه وضاق أدنه ترك حقه وضعف قلبه : وانما ترك حقه من حبسه . واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستتب لك القضاء . واذا حضر لك الحصان بالبيئة العادلة والايمان القاطنة فامض الحكم . وكتب الى أحد العمال :

« اجعلوا عندكم الناس في الحق سواء، قريهم كبعيدهم، وبعيدهم كقريهم . اياكم والرشاء والحكم بالهوى، وان تأخذوا الناس عند الغضب . فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار » . وكتب الى سعد وهو يشرف يريد العراق وحرب الفرس ما نصه :

« أما بعد فسر من شراف نحو فارس عن معك من المسلمين، وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله . واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير، وعدتهم فاضلة، وبأسهم شديد . وعلى بلد منيع وان كان سهلاً كؤوده، لبحوره وفيوضه ودآئه : الا ان توافقوا غيضاً من فيض . واذا الفيتم القوم أو واحد منهم فابدءوهم الشد والضرب . واياكم والمناظرة لجوعهم . ولا يخذل عنكم فانهم خدعة مكررة أمرهم غير أمركم، الا أن تجادوهم . واذا انتهيت الى القادسية : والقادسية في باب فارس، وهي أجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الأصول (النواحي)، وهو منزل رغب خصيب حصين، ودونه قناطر وأهبار ممتعة فتكون مسالحك على ألقابها، ويكون الناس بين الحجر والمدرة، على حافات الحجر وحافات المدر، والجراع (الارض الرملية) بينهما . ثم الزم مكانك فلا تبرحه : فانهم اذا أحسوا انقضت بهم، رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدتهم وجدتهم . فان أتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونوئتم الامانة، رجوت أن تنصروا عليهم، ثم لا يجمع لكم مثلهم أبداً، الا أن يحقعوها وليست معهم

قلوبهم . وان تكن الاخرى كان الحجج في ادباركم ، فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ، ثم كنتم عليها اجراء وبها أعلم ، وكانواعنها أجبن وبها أجهل ، حتى يأتي الله بالفتح ويريد لكم الكرة عليهم .

من الكتاب الاول ترى أن عمر رضى الله عنه كان من أكبر المشرعين ، وكتابه هذا نظام تشريعى جمع بين كلماته العملية روح التشريع القضائى ، مما تراه مبسوطاً فى محلات ضخمة . ومن كتابه الثانى والثالث ترى انه من أبعد الناس نظراً فى النظام الادارى . ومن الرابع ترى انه أكثر الناس معرفة بأساليب الحرب . وقلماً تحتج هذه المزايا كلها فى شخص واحد . نعم كان عمر نادرة فى بابه بل نابغة من نوابع الخليفة . ومن من الناس يجلس مكان عمر بحزيرة العرب ، ينما هو يحرك عماله فى الفرس والعراق والحزيرة والشام ومصر واليمن وغيرها : فى حروبهم ، وادارتهم ، وجباية أموالهم ، وفصائهم ، حتى لا يكلمهم على مرأى منه ومسمع .

من من الملوك يمكنه أن يصل ليله سهاره فى أصبح رعيته ، وسهره على كل ما فيه مصلحتها كما كان يعمل عمر : وهو مع ذلك يرى نفسه مقصر فى واجبه غير قائم بعمله فلا يملك مفكر اعلى الدوام فى حساب ربه له على كل صغيرة يوهم أنه ارتكبها فى سبيل المصلحة العامة !!! اللهم ان هذا هو مقام الراعى من رعيته : فنعم الراعى عمر وعمت الرعية رعية عمر !!!

كان رضى الله عنه كثير النصيح لعماله ، شديد المراقبة عليهم ، كثير التجسس عن أحوالهم ، حتى أقام عليهم العيون يوافونه باخبارهم كيلا يأخذوا الناس بمظالمهم . وجعل له عمالاً من أهل الورع والصدق يفتشون على أعمال الولاة والقضاة . ومن ذلك أن قد شكك الناس بالكوفة أميرهم سعد بن أبى وقاص فى سنة احدى وعشرين ، فبعث عمر محمد بن مسلمة الا بصارى ، نحرق عليه باب قصر الكوفة وجمع الناس فى مساجدها ، فسألهم عنه . فحمدوه بعضهم وساءه بعضهم ، فعزله عمرو وبعث عليها عمار بن ياسر . وكان عمر تابع أو امره لولاه بعدم ظلم الرعية ، ومن ذلك كتابه الى عتبة بن غزوان أمير البصرة : « أعزب الناس عن الظلم ، واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي ، فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه ، وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم ، فافوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً » .

وخطب عمر في الناس يوماً فقال : « أيها الناس اني والله لم أرسل عمالا اليكم ليضربوا
أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنتكم ويفضوا بينكم
بالحق ويحكموا بينكم بالعدل ، فمن فعل به شئ عسوى ذلك فليرفعه الىّ » فوالدي نفس عمر
بده لا قصته منه .

وكان عمر رحباً بالناس رفيماً لهم ولم يقتصر رحمته على الانسان بل كان يرفق بالحيوان ،
قال المسيب بن درام : « رأيت عمر بن الخطاب يضرب حملاً ويقول حملت جمالك
بما لا تطيق » .

هذه كانت حياة عمر مع عماله ورعيه لم يفرق فيهم بين كبير وصغير ، غني أو فقير ، وحسبك
ما كان له مع جبلة بن الهم ملك غسان ، فانه أسلم في جمع من قومه وأتى الى مكة ، ففرح به
عمر وأكرمه كثيراً ، وبما هو يطوف حول الكعبة ادو طي اعرابي رداء ، فأنحسر عنه ، فلطمه
جبلة فتأذاه الا عرايى عند عمر . فعصى بالانصاف الادانحاور صاحب الحق عن حقه . وقال
جبلة : أنعامل الملوک عندكم معاملة السوقه يأمر المؤمنین / قال نعم لم يفرق الاسلام بين ملك
وسوقه . فاستمهل جبلة حتى يرى رأه ، وفرل الى بلاده . وكان عمر شديد في دينه
لا تأخذه في الله لومة لأثم . أقام حدوده في الداس لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم قريبهم وبعيدهم ،
وماهيك بحده لولده عبد الرحمن في الحر حتى مات وهو يحده . وقد كان رحمه الله شديد العناية
بالفراء : ولما أخذ لهم دار الدقيق يعين بها المتقطع منهم .

أما حياته في شخصه فقد كان رضى الله عنه كثير الورع والرهـد شديد الخوف
من الله يقتص من نفسه لغيره . وكان يعيش من عمله وتجارته الى أن صارت اليه الخلافة .
فما ولى أمر المسلمين واشتغل بشؤونهم أرادوا أن يرتبوا له من بيت المال ما يقوم بأمره
وسألوهم ما يريد ، فسأل علياً رأيه فقال له : « ما يصلحك و يصلح عيالك بالمعروف ، ليس
لك من هذا الامر غيره » . فقال عمر : الفول ما قال ابن أبي طالب .

وروى الطبري ان هذا العطاء الذي رضي به عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكفه
واشتدت به الحاجة : فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وطلحة والزبير وتشاوروا في

زيادة يزيدونها لعمر في رزقه من بيت المال، فها بوا مقابلة بذلك . فاتوا البنت حفصة التي كانت زوجا للنبي صلى الله عليه وسلم وأمروها أن تحرد بالخبر وترى رأي فيه ولا تذكر له أسماءهم . فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب في وجهه، وقال لها من هؤلاء؟ قالت لا سبيل الى علمهم حتى أعلم رأيك ، فقال لو علمت من هم لسؤت وجوههم، أنت بيني وبينهم أنشدك بالله ما أفضل ما اقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملابس / قالت ثوبين ممشمين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع . قال فأي الطعام ناله عندك ارفع / قالت خبزنا خبز شعير وصبنا عليها وهي حارة أسهل عكة (فر به السمن) جعلناها هشة دسمة، فاكل منها وتطعم استطابة لها . قال فأي مبسط كان يسطه عندك كان أوطأ (ألين) قالت كساء لنا نحن كنا نر بعه في الصيف فيجعله تحتاء فادا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدنرنا بنصفه، قال يا حفصة فبلغهم عني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد روض الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية (الرجاء) . واني قدرت فوالله لا ضعن الفضول مواضعها ولا تبلغ بالترجية . واما مثلي وة مثل صاحبي كثلاثه سلكوا طر بنا فضى الاول وقد تزود زاد ابلغ . ثم اتبعه الاخر فسلك طريقه فافضى اليه . ثم اتبعه الثالث فان لزم طر ففهما ورضى بزادهما لحق هما وكان معهما، وان سلك غير طر ففهما لم يجتمع بهما .

ما زال عمر رضى الله عنه على هذه الحال بين رعيته: مهتما بأمورهم غير مفكر الا فيما يكون من رقيهم وسعادتهم . يرضى ببلهم عما أنى من عبد الله ورسوله، واذا وفع له ما لم يمكنه أن يستخرج حكمه من القرآن والسنة، جمع اليه خاصة المسلمين أعقلهم وأعرفهم بكتاب الله وسنة رسوله وسألهم رأيهم وفضى عما يرويه . وبذلك تحق الحكم الشورى بين المسلمين: فعلا به سلطانهم وعظم ملكهم وان بسطت افياء اعمتهم . وما زال رضى الله عنه مشغلا بنصرة الاسلام وتعزيز أركانه وتوطيد بنيانه الى سنة ٢٣ من الهجرة، فانا د فيروز أنولوا لؤة غلام المغيرة بن شعبه وكان فارسيا، يشكو اليه كثرة ما ضرب به سيده عليه من الخراج . فسأله عمر كم خراجك؟ قال: درهمان في كل يوم . قال وايش صناعتك؟ قال نحاس نقاش حداد . قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الاعمال . فتوعده الغلام وانصرف . فقال عمر توعدنى العبد !!!

وتَحَيَّنَ أبولؤلؤة عمر فجاءه في صلاة الغداة حتى قام وراهه، فلما كبر وجأه أبولؤلؤة في كتفه وخصرته فسقط عمر ونادى بعبد الرحمن بن عوف وأمره أن يصلي بالناس . وكان ذلك يوم الاربعاء لاربع ليال تقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين . وفي غد ذلك اليوم أخر عبد الرحمن بن أبي بكر عبيد الله بن عمر أنه رأى أبولؤلؤة مع الهرمزان ومعهما رجل اسمه جفينة، وكانوا يتناجون فلما رأوه تفرقوا وسقط منهم ذلك الخنجر . فعدا عبيد الله على ثلاثهم وقتلهم فامسكه سعد بن أبي وقاص حتى جاء به الى عثمان بعد البيعة .

ولمات عمر صلى عليه صهيب . ودفن يوم الاحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين وعمره ثلاث وستون سنة، وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وأحد وعشرين يوماً . وقيل بل كانت وفاته في يوم الاربع المذكور من غير أن يعهد بالخلافة الى أحد : ولماسئل في ذلك قبل وفاته ، قال انه لا يريد أن يحمل تبعاتها حياً وميتاً، وجعلها شورى الى ستة وهم على عثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف . وكان له من الولد : عبد الله وحفص وعبيد الله وعاصم وفاطمة وزيد وعبد الرحمن . أما عماله في السنة التي مات فيها فكان على مكة : نافع بن عبد الحارث الخزاعي، وعلى الطائف سفيان بن عبد الله الثقفي، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة، وعلى البصرة أبو موسى الاشعري، وعلى مصر عمرو بن العاص، وعلى دمشق معاوية ابن أبي سفيان، وعلى حمص عمير بن سعد، وعلى البحر بن عثمان بن أبي العاص الثقفي، وكان كاتبه زيد بن ثابت ، وعلى بيت المال عبد الله بن أرقم .

عثمان بن عفان

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ويكنى بأبي عبد الله . ولد رضي الله عنه سنة ٢٨ قبل الهجرة . وكان ربعة ليس بالفصير ولا بالطويل ، حسن الوجه، بوجنتيه نكتات جذري ، ألقى مشرف الأنف ، من أجمل الناس ، رقيق

البشرة، عظيم اللحية طويلها، اسمر اللون، كثير الشعر، لهجمة أسفل أذنيه، ضخم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، أصلع الرأس، وكان يصفر لحيته . وكان بزازا وتاجرا وله ثروة واسعة في قومه وكان شديد الكرم فيهم كثير البذل هياأ لنا كثير الحياء حسن الخلق، لين العريكة: وكان له بذلك منزلة من قلوب الناس يحبونه ويهشون اليه ويحترمونه . وهو رضى الله عنه من السابقين الاولين في الاسلام : أسلم بدعوة من أبي بكر فاضطهدته قريش ونالت منه، فهاجر الى الحبشة . وكان العرب يتعاهدونها قبل الاسلام بالتجارة . وهاجرت معه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كان تزوجها قبل الاسلام أو بعده على خلاف بين المؤرخين: وهو رضى الله عنه أول من هاجر في الاسلام ، وهاجر معه أحد عشر رجلا من المسلمين منهم أنوخذيفة بن عتبة بن ربيعة، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، ثم لحق بهم جعفر بن أبي طالب وآخرون . وأرسلت قريش بعمر بن العاص الى النجاشي يطلبون منه رددهم اليهم فلم يعمل . وماراوا اسلادا الحبشة حتى بلغهم كدنا أن فر يشا قد أسلمت كلها ، فعاد عثمان ومعه ثمرتهم الى بنو العوام الى مكة ، وكان ذلك عام ثلاث أو أربع قبل الهجرة، فوجدوا المسلمين على حالهم من الهوان وسوء معامل قريش لهم فاقاموا معهم على أذى قريش حتى أمر الله بنبيه بالهجرة الى المدينة فهاجر عثمان اليها ومكث في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات رقية زوجته، فوجه صلى الله عليه وسلم نام كلثوم أختها، فكانوا لذلك يسمونه دالمورين . وأقام عثمان في تحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم يساعده بنفسه وماله ، ولما أراد رسول الله صلوات الله عليه تجهيز جيش العسرة ، أتى اليه عثمان بالف دينار وألماها في حجره اعانه للمسلمين ، ثم حمل رسول الله يقلبها ويقول : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » . ؟

ما زال عثمان رضى الله عنه في تحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحبة صاحبيه يعمل معهم في توطيد أركان الاسلام وتشديد بنيانها ، وكان آية من آيات الله في مكارم أخلاقه وحمل صفاته وسديد آرائه ، حتى مات عمر رضى الله عنه . ولما دفن عمر بن الخطاب جمع المقتاد أهل الشورى في بيت المسور بن مخزومة فبايعوا العثمان بن عفان يوم الاثنين ، لليلة بقيت من

ذى الحجة سنة ٢٣ ، أو ثلاث مضمين من المحرم سنة ٢٤ على رواية أخرى .
 وأول عمل له في خلافته أنه جمع الناس الى ناحية في المسجد وشاورهم في أمر عبيد الله بن
 عمر ا قتله من قتل فاشار على قتله . وقال عمرو بن العاص : لا يقتل عمر بالامس ويقتل ابنه
 اليوم ، وقد حصل هذا الحدث وليس لك على المسلمين سلطان . فجعلها عثمان دية واحتملها
 وقال أنا وليه . ثم كتب عثمان الى الولاة وعمال الخراج وعامة الناس كتباً بلغت النصيح
 والارشاد ، وطلب الى عماله فيها السير في طريق العدل والابصاف والمساواة بين الناس
 كبيرهم وصغيرهم ، مسلميهم وأهل ذمتهم ، وزاد في اعطيات جيشه . وفي سنة ٢٦ سير عثمان
 حبيب بن مسلمة القهري ومعه سلمان بن ربيعة الى فتح أرمينية والقوقار ، وكانا قد تقضتا
 الصلح بعد وفاه عمر فافتتحوهما ، وأقاموا على ثغورهما من يحفظهما من جند المسلمين .
 وبينما كانا يتساجان بحيوشهما في هذه البلاد بيدهما كان معاوية يغير من جهة أخرى
 على بلاد الاناضول . وفي سنة ٢٧ استأذن معاوية عثمان رضى الله عنه في عزو الروم
 من جهة البحر فاذن له ، وأرسل الى عبد الله بن سرح عامله على مصر بان يسير الى الشام
 اسطولا يساعده اسطول معاوية . وسار الاسطولان فافتتحا فرص وصالحهم أهلها على
 سبعة آلاف دينار يدفعونها سنوياً . وفي سنة ٢٩ فتح معاوية جزيرة افریطش (كيريد) ،
 وقد كان عثمان أصدر أمره في سنة ٢٥ الى عبد الله بن سرح بغزو افریطية ^(١) ، فامر
 عقبة بن نافع على جند وأمر عبد الله بن نافع على جند آخر وسيرهما الى بلاد المغرب فصالحهم
 أهلها على مال يؤدون له اليهم ولم يمكنهم التوغل فيها لكثرة أهلها .

وفي سنة ٢٦ جهز عثمان من المدينة جيشاً لفتح افریطية وفيه ابن عباس وابن عمر وابن
 العاص وابن جعفر والحسن والحسين وعبد الله بن الزبير ، فساروا مع عبد الله بن سعد بن
 أبي سرح حتى وصلوا برقة فلقبهم بها عقبة بن نافع فممن كان معه من المسلمين ، وساروا الى
 طرابلس فقابلهم جيوش الروم وعليهم جريجوار (جرجير) فحصلت بينهم موقعة
 هائلة انهزمت فيها جيوش الروم بعد أن قتل عبد الله بن الزبير قائدهم جريجوار . وبذلك

(١) كانت العرب تطلق اسم افریطية على بلاد تونس .

صارت البلاد الى المسلمين فولى عثمان على افر يقية عبد الله بن نافع، وعادا بن سعد الى مصر. فلما باغ قسطنطين بن هرقل امبراطور الروم خراس تيلاء العرب على بلاده في افر يقية جهز اسطولاً كبيراً مؤلفاً من ٦٠٠ مركب وسافر به من القسطنطينية الى تونس. فعلم به عبد الله بن سعد بن أبي سرح فخرج اليه من مصر في اسطوله، وخرج معاوية في اسطوله أيضاً من سورية والتقوا بمرآكب الروم وأنخنوهم، فانهزم قسطنطين مما بقي من مرآكبه الى صفلية فقتله أهلها. والمسلمون يسمون هذه الواقعة بواقعة ذات الصواري.

وكانت بلاد فارس قد انتفضت أطرافها فعزل عثمان في سنة ٢٦ أبا موسى الأشعري عن البصرة بناء على طلب أهلها لشدة رفاهته، وولى بدله عبد الله بن عامر القرشي وهو ابن خال عثمان وعمره اذ ذلك ٢٥ سنة، فبلغت جنوده الى أقاصى بلاد الالكاسرة. ثم انتفضت فارس فبلغ ابن عامر الخبر وهو بالبصرة فاستنفر الناس اليهم وسار وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاصي وعلى خيله عمران بن حصين فلفيه الثائرون على اصطخر وحصل بينهم مواقع هائلة وافتتح اصطخر عنوة وفنى في تلك المواقع أغلب بيوتات الالكاسورة لانهم كانوا جعلوا هذه المدينة مركزاً لهم ثم وطئ ابن عامر بلاد فارس وطأه قضى فيها على ما كان تقى فيهم من عرة الملك وخيلاء السلطان. ثم سار الى خراسان وكانت قد انتفضت وسير على مقدمته الاحنف بن قيس وتقدم الى بيسانور فافتتحها الى هرات ثم سير الاحنف الى طخارستان فافتتحها الى مرو وسار منها الى بلخ فافتتحها أيضاً. وسير عامر بن الربيع بن زياد الحارثي الى سجستان فافتتحها ثم انفض أهلها فأرسل اليها عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس فافتتح بلادها الى حدود الهند.

وفي سنة ٣٠ سار سعيد بن العاصي أمير الكوفة الى طرستان وكان في جيشه الحسن والحسين وحذيفة اليماني وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص فأوغلوا فيها بالفتح لكنها بعد ذلك كانت تنفض فيغروها المسلمون حتى استخضعها يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان.

ولما عاد بعض الناس من غزواتهم سألهم عثمان عن حال المسلمين فأخبروه بتعدد

قراءات القرآن فيهم، وقالوا له ان هؤلاء يقولون قرأنا خير من قرآن الآخرين وأولئك يقولون بل قرأنا خير من قرآنهم فطلب عثمان المصحف التي كان جمعها أبو بكر من حفصة بنت عمر واستكتب عشرة مصاحف منها وأرسلها إلى الجهات، وأمرهم أن يحرقوا كل ما عداها وبذلك كان حفظ القرآن الكريم على ما هو عليه اليوم من غير اختلاف ولا تغيير ولا تبديل بين أهل جميع الاقطار والامصار، وهو ما لم يتيسر لكتاب غيره بالمرّة.

ويقال ان أحدهم المصاحف موجود بكتبخانه موسقوبالروسيا، وله صورة أخذت بالهوطوغراف موجودة بكتبخانه المصرية التي بها مصحف آخر يزعمون أنه من مصاحف عثمان، ويوجد في الاستانة بحزينة الآثار النبوية مصحف يقولون انه منها. ويقولون ان المصحف الشريف الموجود بالحجرة الشريفة الآن منها أيضا.

وفي مدة عثمان رضي الله عنه اتسع ملك المسلمين كثيرا وثبت قدمه بتلك الفتوحات التي ساحت فيها جيوشهم في أملاك الروم والعجم.

الا أن عثمان كان يكثر من ولايه فرائسته على الامصار، وكان يقرب إليه نبي أمية ويستشيرهم في أموره حتى ظهر وافي خلافته على قریش كلها، وصارت لهم بالمدينة أملاك واسعة وثروة طائلة وكان مشيريه ووزيره وكاتب سره مروان بن الحكم وكان كثيرا ما يعمل فلكه وبعضى له رأيه حتى بالغ الناس في أن ختم عثمان كان مع مروان يمضى به ما يريد. ومنهم لذلك جماعة من قریش وكثير من صحابه رسول الله، وتدمرت الولايات مما كانوا يأخذونه على ولائهم من سوء عملهم فحاطبوا في ذلك عثمان وأودوا إليه وهو دا يطلبون منه عزل بعضهم فلم يقبل: فرادت الفتنة وثار الناس من مصر والبصرة، وقصدوا المدينة في جموع كثيرة وما زال على كرم الله وجهه بينه وبينهم حتى قبل عثمان بعض مطالبهم وسافروا من المدينة، ثم أعادوا الكرة إليها وفي يدهم كتاب بختم عثمان قالوا لهم وجدوه مع رسول من عثمان إلى ولائه بحبسهم وتعذيبهم، وكان منهم محمد بن أبي بكر. خلف عثمان بانه لم يكتب ذلك ولم يأمر به ولا علم له به فنسبوه للضعف فطلب منه على أن يبعد عنه مروان فلم يقل فتركه واشتدت الفتنة وطلب الثائرون أن يعتزل عثمان العمل فلم يجيبهم وكتب إلى ولائه على الامصار بان

يوافوه بالمسدد، وكان ذلك بإشارة من مروان : وخاف الثائرون شر ذلك فجمعوا على داره وحاصروها ومنعوا الماء عنها . وأرادوا الدخول عليه فوجدوا على بابها عبد الله بن عمر وعبد الله بن سلام وعبد الله بن الزبير والحسن والحسين ابني علي وأبا هريرة ومحمد بن حاطب وزيد بن ثابت ومروان بن الحكم والمغيرة بن الاخنس يمنعونها بسيوفهم . فتسلقوها من خلفها ودخلوا على عثمان والمصحف في يده يقرأ فيه فمتلوه : وقيل ان الذي قتل رجل من مصر اسمه جبلة وكان ذلك في ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ . ودفن عثمان رحمه الله في البقيع وعمره ٨٦ سنة تفريرا وكان له من الولد عبد الله الاكبر وعبد الله الاصغر وهو من رقية بنت رسول الله توفى صغيرا، وعمرو وأبان وحالد وعمر وسعيد والوليد وأم سعيد والمغيرة وعبد الملك وأم عمرو وعائشة .

أما عماله في السنة التي توفى فيها، وهم عبد الله بن الحضرمي على مكة، والعماسم بن ربيعة الثقفي على الطائف ، و يعلى بن منبه على صنعاء، وعبد الله بن عامر على البصرة، ومعاوية بن أبي سفيان على الشام، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد على حمص (من طرف معاوية)، وحبيب بن مسلمة القهري على قيسرين، وأبو الاعداء السلمي على الاردن ، وعالممة بن حكيم الكنانى على فلسطين، وأبو موسى الاشعري على الكوفة، وعلى خراجها جابر المزني ، وعلى حربها القعقاع بن عمرو، وجريير بن عبد الله المجلي على فرفسيا، والاشعث بن قيس الكندي على اذربيجان وعتبة بن النحاس على حلوان ، ومالك بن حبيب على الماء، والنيسر على همدان، وسعيد بن قيس على الري، والسائب بن الافرع على اصبهان، وكان على مصر عبد الله بن سعيد ثم تغلب عليها محمد بن أبي حذيفة، وكان له على بيت المال عتبة بن عامر . وعلى الفضلاء زيد بن ثابت

علي

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب . ولد كرم الله وجهه سنة ٢٥ قبل الهجرة ، وحصل بمكة قحط في نحو السادسة من عمره فكفله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذه الى بيته وكان يحبه حباً جماً . ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان علي أول من آمن به بعد خديجة وأول من صلى معه من المسلمين : وكان يخرج مع رسول الله الى الصحراء فيصلي معه خفية ثم يعودان الى مكة . وكان ألصق الناس برسول الله : فتعلم من علمه وتأدب بأدبه . وكان أشبه الناس به في صورته : فكان رضى الله عنه : ربعة أدعج العينين عظيمهما ، حسن الوجه كأنه قمر ليلة البدر ، عظيم البطن ، عريض المنكبين ، له مشاش كشاش السبع الضاري ، لا يبين عضده من ساعده ، قد أدلج دلاجا ، شثن الكفين ، عظيم الكراديس ، أغيد كأن عتقه ابريق فضة ، أصلع ليس في رأسه شعرا لا من خلقه ، أبيض اللحية ، قريب الى السمن ، ثبت الجنان ، اذا مشى الى الحرب هروا ، واذا أمسك بذراع رجل أمسك نفسه فلم يستطع أن يتنفس . وكان رضى الله عنه كثير الصبر ، شجاعا ، مهيبا ، ورعا ، زاهدا ، أعلم الناس بدين الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وكان كرم الله وجهه شديد أفي دينه ، لا يرأى فيه ولا تأخذه في الله لومة لائم . وسئل مرة : لم نرمعاًوية أسوس منك يا أمير المؤمنين فقال والله مامعاًوية بأسوس منى ولكن السياسة تميل الى الغدر ولست أميل اليه .

وكان رضى الله عنه ، فصيح اللسان ، قوى الجنان ، أكر العرب بلاغة ، وأكثرهم حكمة . ودونك بعض خطبه وحكمه بكتاب نهج البلاغة . مازال علي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أراد الهجرة فعلم بأن قر يشأ أجمعوا أمرهم على قتله فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً بأن يلبس رداءه وينام في فراشه من ليلته وقال له انى مهاجر الى يثرب ، وأمره أن يلحق به بعد أن يؤدي عنه دينه ، ويرد ما كان عنده من الامانات الى أربابها . وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجر علي بعد هجرته بثلاثة أيام بعد

أن أدى عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس : وهو ثالث من هاجر . وبعد الهجرة زوجته النبي صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة ، وكانت أحب الناس إليه فكان الصق الناس رسول الله قبل الهجرة وبعدها . وجعل الله ذرية نبيه عليه الصلاة والسلام في نبيه .

ومكث على يكتب لرسول الله وينصره على أعدائه ويقوم بخدمته خير قيام ، حتى إذا مات عليه الصلاة والسلام كان لصاحبيه أميناً معيناً مرشداً مبيّناً للناس ما غمض عنهم من كلام الله وسنة رسوله . حتى إذا كانت خلافة عثمان كان في عونه ونصحه ، ثم اعتزله في آخر أيامه لما كان يحيط بابن عفان من بطائه التي كانت لا تنظر إلى المصلحة العامة ، بجوار مصالحتهم الخاصة . فكان ما كان وقتل عثمان ، فاجتمع الناس على عليّ وأرادوا بيعته فأبى وقال : لا أن أكون وزيراً لكم أحب إليّ من أن أكون أميراً . وكان الناس قد افترقوا فرقا وأحزابا : قال أهل الكوفة إلى الزبير وأهل البصرة إلى طلحة ، وغيرهم إلى سعد وابن عمر ، وذهب الناس إلى عليّ وألحوا عليه فخرج إلى المسجد فباعه الناس ثم باعوه طلحة والزبير . وكان ذلك في ٢٥ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ . وجاءه طلحة والزبير وطلبا إقامة الحدود على قاتلي عثمان : فقال لا قدرة لي على شيء مما تريدون حتى يهدأ الناس ، وننظر في الأمور ، فتؤخذ الحقوق . فافترقوا عنه وأكثرت الناس الممال في قتل عثمان ، وفر بنو أمية إلى الشام مع مروان . وفي اليوم الثالث نادى عليّ بـ رجوع الأعراب إلى بلادهم ، فتذمروا وأبوا . وأخذ عليّ يفرق عماله على الأمصار فولى ابن عباس على الشام فلم يقبل ، وأشار عليه بأن يقر عمال عثمان حتى يهدأ الحال كيلا يحملوه شيئا من دمه فلم يسمع له عليّ لشدة في الحق . وبعث عليّ البصرة عثمان بن حنيف ، وعلى الكوفة عمار بن شهاب من المهاجرين ، وعلى اليمن عبد الله بن عباس ، وعلى مصر قيس بن سعد ، وعلى الشام سهل بن حنيف . ومضى عثمان إلى البصرة فاختلفوا عليه وأطاعته فرقة منهم . ومضى عمار إلى الكوفة فلما بلغ زباله لقيه طلحة وقال له ارجع فان القوم لا يستبدلون بأبي موسى . ومضى ابن عباس إلى اليمن . ومضى قيس إلى مصر فافترقوا عليه ، فرقة كانت معه وأخرى امتنعت عنه حتى ترى فعل عليّ في قاتلي عثمان . ومضى سهل إلى الشام

فلقيه خيل عند تبوك فقال لهم انه أمير على الشام، فقالوا لاندان كان بعثك غير عثمان فارجع فرجع وجاءت أخبار الآخرين بمثل ذلك ، فجمع على طلحة والزبير وقال لهما قد وقع ما كنت أحذركم منه فسألاه الاذن في الخروج الى مكة للاعتقار فأذن لهما . وكتب الى أبي موسى فكتب اليه بطاعة أهل الكوفة وبيعهم . وكتب الى معاوية فلم يجبه الى ثلاثة أشهر من مقتل عثمان ، ثم أرسل اليه كتابا مختوما عنوانه من معاوية الى علي ففضه علي فلم يجد فيه شيئاً ، فقال للرسول ما وراءك ، فقال تركت قوما لا يرضون الا بالنود : قال ممن ، قال منك : وترك ستين ألف شيخ يكون تحت قيص عثمان منصوباً على منبر دمشق ، فقال علي اللهم اني أبرأ اليك من دم عثمان ، قد نجا والله قتلة عثمان الا أن يشاء الله . ودعا أهل المدينة الى قتال أهل الشام وكتب الى ولاته على الامصار أن يندبوا الناس اليه . وكانت عائشة خرجت الى الحج وعثمان محصور ، فلما قصدت الرجوع الى المدينة بعد الحج بلغها في الطريق قتل عثمان ومبايعة الناس لعلي ، فعادت الى مكة . ولما وصل الزبير وطلحة الى مكة اتفقا مع عائشة على المطالبة بدم عثمان وساروا بألف رجل ممن كان على رأيهم من أهل مكة الى البصرة ومعهم كثير من بني أمية منهم أبان بن عثمان وسعيد بن العاص والوليد بن عتبة وعبد الله بن عامر الحضرمي وكان والياً على مكة لعثمان وساعدهم بمال كثير ، وساعدهم كذلك يعلى بن منبه الذي اشترى جملاً بمائة دينار لم ير مثله في العرب ، وأركب عليه عائشة . فلما وصلوا البصرة دعوا أهلها لنصرتهم فلم يقبل منهم عثمان بن حنيف عامل علي عليها ، فنتفوا لحيته وهشموا وجهه وقتلوا من كان معه وحصلت لهم موقعة مع من قام في وجههم من البصريين ، وكانت الغلبة لعرب البصرة . وبلغ ذلك علياً فندب الناس اليهم وسار من المدينة بعد أن أقام عليها سهل بن حنيف وعلي مكة فثم بن العباس . وأرسل محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر الى الكوفة لاستنفاذ أبي موسى الاشعري أهلها فلم يقبل منهما أبو موسى كلاماً ورد أهل الكوفة عن الخروج معهم فرجما الى علي بالخبر وهو بذى قار ، فأرسل الاشتر وابن العباس الى أبي موسى فلم يجب لهما فأرسل ولده الحسن وعمار بن ياسر الى الكوفة فنفر معهما منها تسعة آلاف نفس منهم القعقاع ، وسعد بن مالك ،

وهذبن عمرو ، والهيثم ، وزيد بن صوصان ، وعدى بن حاتم ، وغيرهم . وقد موا على "على"
بذى قارف فرح بهم وأكرمهم وأرسل الفعقاع الى البصرة ليدعوا عائشة وطلحة والزبير الى الالة
والجماعة فقدم الى البصرة واجتمع بهم .

وما زال يقيم عليهم الحجة في خروجهم حتى مالوا الى الصلح . فعاد الى على "على" وأخبره بذلك
ففرح بحقن دماء المسلمين وسار في الناس حتى قدم البصرة ، وتردد عقلاء الناس
بين الطرفين ، وتغال على "على" مع طلحة والزبير وكادت عرى الصلح تتوطد فيما بينهم ،
ولكن الذين أثاروا هذه الفتنة من الامويين أحزنهم هذا الامر وما تواتر تشاورون وصمموا
على اشعال نار الحرب ، فجمعوا على جهة من جيش على "على" وهم لا يشعرون ، فكثرت صياح الناس
وتساءل على "على" عن الخبر ، فقالوا له ان جيش طلحة والزبير هاجم جيشه ، فركب فبين معه
واستحضر القتال . وكانت عائشة راكبة حملا ومتنحية عن ساحة الحرب لتشرف على
قومها وهي تشجعهم وأمرهم بالصبر ومخرضهم على الكفاح واجتلد الناس أمام الحمل وقتل
تحتة خلق كثير فأمر على "على" بعقر الحمل قبل أن تصاب عائشة فضرب ساق البعير فوقع الى
الارض وقطع المعقاع مع زفر بطان البعير وحملوا الهودج من بين القتلى وأمر محمد بن أبي بكر أن
يضرع عليها قبة ، وفر أصحاب الحمل فأمر على بعدم اتباع الفارين وعدم الاجهاز على الجرحى
وسرح عائشة مع نفر من قومها رجال وساء الى مكة من بعد أن ودعها أميالا فسافرت
اليها وحجت ثم عادت الى المدينة . أما بنو أمية فانهم انهمزمو الى الشام وقتل في واقعة الجمل عبد
الرحمن أخو طلحة والحرز بن حارثه ومحاشع ومحمد بن عبد الله وعبد الرحمن
ابن عتاب وغيرهم وجرح عبد الله بن الزبير .

وبعد الواقعة دخل على "على" البصرة فبايعه أهلها وولى عليها ابن عباس . ثم رجع الى
الكوفة ، وبعث الى جرير بن عبيد الله البجلي بهمدان والى الاشعث بن قيس بأذر بيجان
وكانا من ولادة عثمان عليهما فحضرا اليه بعد أن أخذ الالبعة من أهل البلد فإرسل
جريرا الى معاوية يعلمه بمبايعة الناس له ويدعوه الى رأى الجماعة فاستبقاه معاوية عنده
زمتنا ، ثم اعتذر له بأن أهل الشام يطالبون بدم عثمان ، ورجع جرير بالخبر الى على

فاستنفر الناس لحرب الشام، وقدم عليه ابن عباس رجال من البصرة وساروا الى المدائن ومنها الى الرقة والتقوا رجال معاوية على الفرات وقد ملكوا عليهم شريعة الماء وبادر وهم القتال، فشكا الناس الى علي العطش فبعث الى معاوية يقول له اناسرنا ونحن عازمون على الكف عنكم حتى نعدزاليكم فسا بقنا جندكم بالقتال ونحن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك وقد منعتم الماء، والناس غير متهيئين فابعث الى أصحابك يخلون عن الماء للناس حتى ننظر بيننا وبينكم، وان ازدت القتال حتى يشرب الغالب فعلنا، فلم يقبل معاوية، وكان ذلك أول ذي الحجة سنة ٣٦ وأرسل علي الى معاوية رسالا ينصحونه ويطلبونه الى الصلح: فقال لهم ليس بيني وبينكم الا السيف فرجعوا الى علي بالخبر، واقتتل العسكران أيام ذي الحجة كلها، واستأنف علي ارسال رساله الى معاوية في حقن دم المسلمين فلم يقبل: وابتدأ القتال بين العسكرين، وكان قواد معاوية حبيب بن مسلمة، ودو الكلاع، وأبو الاعداء، وعمرو بن العاص، ومسلم بن عتبة، والضحاك بن قيس. أما قواد علي فكانوا: الاشتر النخعي، وعبد الله بن عباس، وسهيل ابن حنيف، وفيس بن سعد، وعمار بن ياسر، وهاشم بن عتبة، وعدى بن حاتم، ومسرر بن فدي. واستمر القتال فاستماتت الناس من الطرفين جملة أيام، وأبلى الاشتر وعمار بلاء عظيما، وكانا كلما هجما فراجعوا معاوية وشتار رجاله وهجم عمار نفوس كانوا معه فدخل في صفوف جيش الشام وما زال يهرق كتائبهم حتى تكاثروا عليه وقتلوه، فلما بلغ ذلك عليا حمل بالأسلحة وهجم على جيش الشام فازالهم عن موافقهم، ورأى عمرو بن العاص الغلبة في جيش العراق فقال لمعاوية مر الناس يرفعون المصاحف على الرماح ففعلوا ذلك، فقال جيش العراق نحيب الى كتاب الله، فقال علي لهم امضوا في حربكم والله ما دفعوها الا مكيدة، فلم يقبلوا وطلبوا اليه أن يمنع الاشتر ويزيد بن هاني من استمرارهما في قتال معاوية، وحضر اليهم الاشتر وعنفهم وقال امهلوني فندأ أحسست بالفتح فابوا وكثرت الملاحة فيما بينهم فخاف علي وقوع الفتنة وأرسل الاشعث بن قيس الى معاوية يسأله سبب رفع المصاحف على الرماح، فقال له لنرجع نحن وأنتم الى ما أمر الله به من كتابه، تبعثون رجلا ترضونه ونحن نبعث رجلا منا وبأخذ عليهما العهد بان يعملان في كتاب الله ثم يتبع ما اتفقا عليه، فقبل الطرفان ذلك وقالت القراء من أهل العراق رضيانا بان يكون أبو موسى الأشعري فلم يرض به علي لعدم ثقته به واختار الاشتر، فاني

قوم من العراق إلا أن يكون أباموسى، واختار معاوية عمرو بن العاص فحضر عند على ليكتب العهد بيده وبين معاوية بالحكيم وأخذ عليه المواثيق من رؤساء العسكرين وكان ذلك في ١٣ صفر وأجلا الحكم الى رمضان فانصرف الناس الى بلادهم من صيفين ورجع على الى الكوفة وبعض رجاله ينكرون عليه التحكيم . ولما جاء ميعاد التحكيم حضر الحكمان في رجال من قومهما الى دومة الجندل ، فخدع عمرو وأباموسى وقال له الا حسن بنا أن يخلع كل منا صاحبه حقنا لدماء المسلمين وهنالك يبايع الناس من أرادوا ، فقبل أبوموسى رأيه وصعد المنبر وخلع صاحبه ، ثم صعد عمرو وقال ألا ان أباموسى خلع صاحبه وأنا أثبت صاحبي معاوية فهو ولي ابن عفان . وتفرق الناس بعد أن كادوا يقتتلون ولحق أبوموسى بمكة .

ولما أرسل على أباموسى الى التحكيم عارضه بعض الناس من أهل البصرة والكوفة ، وطلبوا اليه أن يرسل غيره ، فلم يقبل لسابقة عهده مع معاوية بذلك ، فتركوا البصرة وخرجوا عليه وأمروا عليهم عبد الله بن وهب في ١٠ شوال وقصدوا النهر وان ، ولما بلغ عليا خبر الحكيمين أنكر عليهما ، وقال ان هذين الحكيمين بسذا حكم القرآن واتبع كل واحد هواه واختلعا في الحكم فاستعدوا للسير الى الشام وأخذ يجرض الناس على حرب معاوية فاجتمع لديه ثمانية وستون مقاتلا ، وكانت الخوارج التفت بعبد الله بن خباب الصحابي قريبا من النهر وان فلما عرفوه سألوه عن الشيخين (أبي بكر وعمر) فاثني عليهما وعلى عثمان ، فسألوه عن حال على قبل التحكيم وبعده : فقال انه أعلم الناس بكتاب الله فماتوه وقتلوا امرأته ، فلما بلغ عليا ذلك ندب الناس اليهم وسار الى النهر وان وأرسل الى الخوارج وكانوا أربعة آلاف يقول لهم ان من رجع الى الكوفة أو الى البصرة فهو آمن فرجع قوم منهم الى بلادهم وآخرون انضموا الى جيش على ولم يبق منهم الا ألف وثمانمائة فحمل عليهم على بمن معه وقتلوه عن آخرهم في ساعة واحدة ، وقد قتل منهم عبد الله بن وهب ، وحر قوص بن زهير ، واران النهر وض الى الشام فشكا اليه الناس التعب وعدم وفرة الدخيرة وطلبوا اليه أن يرجعوا الى الكوفة ليستمدوا للقتال وبعد وصولهم الى الكوفة بايام أخذ على يستحثهم على الخروج معه الى الشام وهم يتناقلون ولم ينشط معه أحد ، وكان عبد الله بن ملجم لحق بالحجاز مع البرك بن عبد الله التميمي ، وعمرو بن بكر التميمي

وثلاثتهم من الخوارج، وتذاكروا فيما فيه الناس من الحروب، واتفقوا على قتل عليٍّ ومعاوية وعمر بن العاص في ليلة واحدة، وأخذ ابن ملجم على نفسه قتل عليٍّ وسافر إلى الكوفة، وسار البرك إلى الشام لقتل معاوية، ومضى عمرو بن بكر إلى مصر لقتل ابن العاص وكان ولده معاوية عليها بعد التحكيم. وأتى ابن ملجم إلى الكوفة، ولما كانت الليلة التي عاهد صاحبها عليها أتى المسجد. وجاء عليٌّ ونادى بالصلاة، فضربه ابن ملجم بسيفه على رأسه فوقع واستخلف على الصلاة جمعة بن هبيرة، وقبض الناس على ابن ملجم فاوثقوه وأتوا به عليا، فنادى بالحسن ابنه، وقال إن هلك فاقتلوه كما قتلتني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي. وكان ذلك فجر يوم الجمعة ١٩ رمضان سنة ٤٠ هـ. ومات عليٌّ بعد يومين قضاهما في صبح المسلمين ووصية أولاده. وبعد دفنه أحضر الحسنُ ابن ملجم وقتله بسيفه الذي قتل به أباه.

وقد اختلف الناس في المكان الذي دفن فيه عليٌّ: فمنهم من يقول أنه دفن في قصر الكوفة، وبعضهم ذهب إلى أنه وراء سورها، وبعضهم يقول أنه دفن بمقامه الحالي في النجف. وكان عمره خمسا وستين سنة.

وكان له من الولد ١٤ ذكرًا و١٨ بنتًا. والذكور هم: الحسن. والحسين. ومحسن: من فاطمة. ومحمد الأكبر المشهور بابن الحنفية. وأبو بكر. والعباس الأكبر. وعثمان. وعبد الله. ومحمد الأصغر. ويحيى. وعون: وقد قتلوا مع الحسين. وعمر الأكبر. ومحمد الأوسط. وجعفر. وعقبه من الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعمر والعباس.

وبناته هن: أم كلثوم الكبرى وزينب الكبرى من فاطمة. ورقية. وأم الحسن. ورملة الكبرى. وأم هانيء. وميمونة. ورملة الصغرى. وزينب الصغرى. وأم كلثوم الصغرى وفاطمة. وإمامة. وخديجة. وأم الكرم. وأم سلمة. وأم جعفر. وجمانة. وتقية. وبعد موت علي كرم الله وجهه بايع أهل الكوفة ابنه الحسن، وعاهده أربعون ألقامهم على الموت دونه. وجد داهل الشام البيعة لمعاوية وكانوا قد بايعوه بعد الحكمين فسار الحسن بحيشه قاصدا معاوية وعلى مقدمته قيس بن سعد، فأرسل معاوية من دس في جيش الحسن خسر قيل قيس، فاهتاج الناس لهذا الأمر وهجموا على سراق الحسن ونهبوا ما فيه. ورأى الحسن

ان أهل الكوفة لا ينصرونه فقال الى حقن دماء المسلمين، وكتب الى معاوية يذكر له النزول عن الامر بشرط أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة ومبلغه خمسة آلاف ألف، وخراج دارا يجرد من فارس . وأخير بذلك أحاه الحسين وعبد الله بن جعفر فعذلاه فتركهما . وكان معاوية أرسل اليه عبد الله بن عامر يفاوضه في النزول عن الامر ومعه ورقة بيضاء مختومة بختم معاوية ليشترط فيها ما يشاء . فكتب فيها أضعاف ما في الصحيفة الاولى . فلما سلم له وطالبه بالشرط أعطاه ما في الصحيفة الاولى وقال هو الذي طلبت . وبهذا تم الامر الى معاوية . وكان ذلك في منتصف عام ٤١ ، وسمونه عام الجماعة لان الناس رجعت فيه الى الاجتماع على خليفة واحد .

﴿ الانصار ﴾

الانصار وهم الاوس والخزرج بطنان من الازد، وكانت ديارهم مأرب باليمن، فهاجروا مع من رحل عنها بعد سيل العرم في القرن الثاني عشر قبل الاسلام، ومروا على يثرب وكانت قرية فيها أسواق ينصدها أهل الجهات المحاورة، وأهلها كانوا يهودا، وكانوا من بني النضير، وقرية يثرب، وبنى قينفاع وغيرهم . وكان لهم بها حصون يلجئون اليها عند الشدة . فنزل عليهم الاوس والخزرج على أن يكونوا تحت حكمهم، وما زالوا كذلك حتى كان ما كان من سوء سيرة العيطون أحد ملوك اليهود يثرب وظلمه وغشمه . فاستغاث الاوس والخزرج بملوك غسان، فساروا لصرتهم، وأوقعوا يهود يثرب . ومن ثم صار الحكم فيها للاوس والخزرج وشاركوا اليهود في أملاكهم، وأصبحت لهم عصبية عظيمة . ولهم حروب مشهورة لها أيام معدودة من أيام الجاهلية : منها يوم سمير، ويوم كعب، ويوم الربيع، ويوم البقيع . وكانت الاوس والخزرج أصحاب بحدة وهمة وشجاعة وأمانة . وقد كان أتى مكة بعض مهم للحج في مبدأ ظهور الدعوة الاسلامية، فمالهم النبي صلى الله عليه وسلم عند العقبة على يسار الصاعد الى منى قبيل المدرج الذي في أسفلها ودعاهم للاسلام، وفرأ عليهم شيئاً من القرآن، فاجابوه وقالوا له ان بين قومنا شرأوعسى الله أن يجمعهم بك، فان اجتمعوا عليك فلا رجل أعز منك . فلما قدموا المدينة ذكروا لهم النبي صلى الله عليه وسلم، ودعوه الى الاسلام حتى فشا فيهم . وفي العام التالي وافي الموسم من الاوس والخزرج اثنا عشر رجلاً،

فلقوا النبي صلى الله عليه وسلم بالمقبة الاولى ، فبايعوه البيعة الاولى ، وكان من ضمنهم رافع بن عجلان وعبادة بن الصامت ، ثم انصرفوا الى المدينة . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم قواعد الاسلام . فوصل المدينة واجتمع عليه رجال ممن أسلموا ، وسمع به سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما سيدا بني الاشهل ، فذهب أسيد للايقاع به ، فقال له مصعب أوتحاس فتسمع ؟ فان رضيت أمرا قبلته ، وان كرهته كف عنك ما تكرهه . فقال أنصفت ثم جلس ، وكلمه مصعب في الاسلام وقرأ له شيئا من القرآن . فقال ما أحسن هذا ! وأسلم ، وانصرف واحتال على سعد حتى خذه الى مصعب . فمال له مقالته الى أسيد ، وقرأ عليه قرآنا فأسلم سعد ، وباسلامهما أسلم القوم ، الا عددا قليلا أسلم بعد الهجرة . وعندها اتفق جماعة منهم على المسير الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فساروا الى مكة واجتمعوا عليه ليلا دون أن يعلم بهم أحد بعقبة الحديبية تحت شجرة كانت هناك وبمكائها الآن مسجد يسمى بمسجد الشجرة ، وعاهدوه على أن ينصروه : فسامهم الانصار . وهالك أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة الى المدينة ، وكان أول من قدمها مهاجرا أبو سلمة بن عبد الاسد . وفي شهر ربيع الاول من هذه السنة هاجر الرسول الى المدينة ، وقدمها لاثنتي عشرة ليلة خلت منه ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، وقدم هما دليلهما على قباء ، فنزل صلى الله عليه وسلم على كثوم بن الهمد ، وأقام بينهم أياما ، نبي فيها مسجدها ، ودعا الناس فيه لصلاة يوم الجمعة ، وهي أول جمعة في الاسلام ، خطب فيها عليه الصلاة والسلام . ثم سار الى المدينة فلما وصل الى مكان مسجده وكان مر بدأبى النجار وكانت منهم أم أيه عبد الله ، قال نامنوني به . قالوا لا نبغى به الا ما عند الله . فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجدا ، وأقام هو في دار أئى^(١) أيوب الانصارى حتى بنى مسجده وبيته (بيت عائشة) . وكان يبنى فيه بيد الشريفة هو والمهاجرون والانصار . ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بين الانصار إحدى عشرة سنة ، كان فيها لهم

(١) أبو أيوب الانصارى مات في حصار القسطنطينية سنة ٦٨٨ ميعية ، أي ونحو السنة السابعة والاربعين للهجرة ، وكان سار اليها مع الجيش الذي سيره معاوية لفتحها ، وله فيها مسجد شهر في نهاية خليج قرن الذهب ، وهو محترم جدا لدى المسلمين والنصارى واليهود على السواء في عموم الاساسة . وأهلها يسمونه السلطان أيوب .

وللمهاجرين كناية علمية وعملية : تعلموا فيها الاخلاق الفاضلة ، والمزايا العالية ،
والسيرة الحميدة ، والتربية القويمة ، والبلاغة في الاقوال ، والمبالغة في محاسن الاعمال ،
فبعد صيتهم في جلائل الصفات ، ومكارم الاخلاق ، والشجاعة ، والقوة ، والمنعة ،
وشدة البأس ، التي ظهر واثمها في جميع المواقف التي أمرهم رسول الله بها ، أو شهدها هو معهم
رضى الله عنهم . فلما توفي النبي صلى الله عليه وسلم وصار الامر بعده للمهاجرين واشتغل
الناس بالفتح أخذ الانصار ينساحون في أطراف البلاد الاسلامية بعد اتساع دائرتهم بتلك
الفتوحات المباركة حتى أصبح سبلهم في المدينة الآن يكاد لا يكون له أثر . وسبحان من يرث
الارض ومن عليها .

وكان أمر المدينة المنورة في صدر الاسلام موكولا الى الخلفاء الراشدين أنفسهم حتى
اذا خرج على رضى الله عنه الى الكوفة بعد سير أهل مكة اليها للخروج عليه باهلها ، ولحقه على
المدينة سهل بن حنيف الانصاري وهو أول ولاية المدينة في الاسلام .
ومن هذا الوقت صار مركز الخلافة بعيداً عن المدينة وصارت ولايتهم منفصلة عن ولاية
مكة وكلتا همتا تابعة لمركز الخلافة مباشرة . وكان الخلفاء يعينون في العناية بهما وينتخبون
لهما ولاية من رجال الفضل والاصلاح ، حتى اذا داخل الضعف الخلافة العباسية وأخذت
عمال النواحي تتغلب على أطرافها وتغلب على مكة بنو الاخضر في نحو منتصف القرن الثالث ،
أخذت يدهم تتطاول الى المدينة المنورة . وما زال الحكم في المدينة مرتبكاً حتى استولت
القرامطة على مكة فزاد ارتباكاً . ولما استولت الاشراف الحسنيون^(١) على أم القرى في
منتصف القرن الرابع جعلت ولاية المدينة للاشراف الحسينيون ومارالت في أيديهم الى
سنة ١٠٩٩ ، وفيها صدر أمر الدولة العلية بتبعيتها لولاية الحجاز الى الان .

وهالك جد ولا بولاية المدينة أخذنا أغلب أسماءهم من كتاب مرآة الحرمين واستخرجنا من
ابن الاثير وغيره تواريحهم الى آخر زمنه ولم نوفق لوضع تواريح كثير ممن بقى بعده .

(١) كان ابو الحسن وبنو الحسن يلقون بالاشراف حتى جاء الشريف أبو عمى فحس الحسينيون
بلقب اشراف وخس الحسينيون بلقب سادة : فيقولون الاشراف الحسينيون ، والسادة الحسينيون .

﴿ جدول أمرء المدينة المنورة (عن كتاب مرآة الحرمين) ﴾

سنة هـ	سنة هـ	الاسم	الاسم
٢٦	١٢٥	سهل بن حنيف الانصاري	يوسف بن محمد
٤٠	١٢٧	خالد بن زيد أبي أيوب الانصاري	عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز
٤١	١٣٠	مروان بن الحكم	محمد بن عبد الملك بن مروان
٤٩	١٣٢	سعيد بن العاص	داود بن علي
٥٤	١٣٣	مروان بن العاص	يزيد بن عبيد الله بن عبد المطلب الحارثي
٥٧	١٣٤	الوليد بن عتبة بن أبي سفيان	زياد بن عبيد الله
٦٠	١٤١	عمرو بن سعيد بن العاص	محمد بن خالد بن عبد الله القسري
٦١	١٤٤	الوليد بن عتبة (ثانيا)	رباح بن عثمان المري
٦٢	١٤٥	عثمان بن محمد بن أبي سفيان	عبد الله بن الربيع الحارثي
٦٣	١٤٦	عبد الله بن الزبير بن العوام	جعفر بن سليمان بن علي
٦٥	١٥٠	مصعب بن الزبير	الحسن بن زيد بن الحسن بن علي
٦٧	١٥٥	جابر بن الاسود	عبد الصمد بن علي بن عبد الله
	١٦٠	عمر بن عبد العزيز	محمد بن عبد الله الكثيري
		عثمان بن حبان	زفر بن عبد الله
	١٦٦	أبو بكر بن محمد بن عمرو	ابراهيم بن يحيى
٧٠		طلحة بن عبد الله	اسحاق بن عيسى
٧٣	١٦٩	طارق بن عمرو	عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر
٧٤	١٧٠	الحجاج بن يوسف الثقفي	اسحاق بن سليمان بن علي بن عبد الله
٧٦		أبان بن عثمان	عبد الملك بن صالح
٨٢		هشام بن اسماعيل	محمد بن عبد الله
١٠١	١٧٨	عبد الرحمن بن الضحاك	محمد بن ابراهيم
١٠٤	١٨٠	عبد الواحد النضري	موسى بن عيسى بن موسى بن محمد
١٠٦		ابراهيم بن هشام المخزومي	ابراهيم بن محمد
١١٤		خالد بن عبد الملك	علي بن عيسى
١١٥		محمد بن هشام	عبيد الله بن مصعب

رقم الترتيب	اسم الشخص	رقم الترتيب	اسم الشخص
٥٤٥	هاشم بن أبي عبد الله الاعرج	٥٤٥	نكار بن عبد الله
٦٣٥	جماز بن قاسم		محمد بن علي
٦٦٨	شيخة بن هاشم		أبو البجترى
	أبوسند بن جماز		وهب بن منبه
	منيف بن شيخة		داود بن يحيى
	مهيل بن شيخة	٢٠٤	عبد الله بن الحسين بن عبد الله
	كش بن المنصور الحسيني	٢٠٩	صالح بن العباس بن محمد بن علي
	فضيل بن المنصور الحسيني	٢٢١	محمد بن داود بن عيسى بن موسى
	عطية » » »	٢٣٧	علي بن عيسى بن جعفر بن المنصور
	محمد بن عطية » »	٢٣٩	عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى
٧٨٣	عمير بن قاسم الحمارى	٢٤٣	عبد الصمد بن موسى
٣٨٨	ثابت بن نصير الحمازى	٢٤٥	محمد بن سليمان الزينبي بن عبد الله
	عجلان بن نصير الحمازى	٢٤٩	عبد الصمد بن موسى (ثانيا)
	عزيز بن منار ع	٢٥٠	جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى
٨٢٥	حسن الحمازى الحسيني	٣٣٣	مسلم بن عتبة بن محمد الفيلى
	إيسان » »		أبو القاسم مسلم بن أحمد
	مايع بن علي بن عطية بن منصور		اسحاق بن محمد بن يوسف بن جعفر
	ويتان بن مايع		حسن بن طاهر الحسيني
٨٣٩	قايتباى بن مايع الحمازى		أبو علي طاهر الحسيني
	سليمان بن عزيز بن منار ع الحمازى		مهنا بن أبي هاشم وداود بن قاسم
	إيسان الحمازى (ثانيا)		أبو عمارة الحسيني
	سليمان »		حسين بن محيط بن أحمد بن حسين
	زهير بن ايسان		شهاب الدين بن ابي عمارة بن مهنا
	فسيطل بن زهير بن ايسان		مهنا الاعرج الحسيني بن حسين
	زهير بن ايسان (ثانيا)		حسين بن مهنا الاعرج الحسيني
	حسين بن زهير	١٠٩٩	أبو عبد الله بن مهنا الاعرج الحسيني
		٥١٨	أبو فليته قاسم بن مهنا

سفر الحجيج من المدينه الى مصر

الطريق من المدينة ينقسم بالنسبة للحجاج الى أربعة طرق ، طريق نجد ولا يسلكه الآن الا عرب تلك الجهات غالباً ، وطريق الوجه : وهو الذى يسلكه المرحوم سعيد باشا الى مصر سنة ١٢٧٧ هجرية حينما قصد زيارة قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام . ومحطات هذا الطريق هي : المدينة المنورة ، ثم آبار عثمان . (وفيها ماء ومزارع وساتين) ، ثم محطة الضعيفى (وماؤها قليل) ، ثم محطة المليح (وماؤها حلو) ، ثم محطة الشجوى (وماؤها كثير) وكانت محقق ومفترق الحاملين الشامى والمصرى فى سفرهما معاً ، ثم محطة أبى الحلو (لحلاوة مائها) ، ثم محطة الفهارات (ولا ماء فيها) ، ثم محطة الفير (وماؤها عذب) ثم محطة مطر (ولا ماء فيها) ، ثم محطة الخوثة (وماؤها عذب) ، ثم محطة أم حرز (ولا ماء فيها) ، ثم قرية الوجه . ومنها كانوا يسرون الى السويس براً أو بحراً .

وطريق ينبع : وهو الطريق الاكثر استعمالاً ، ومنه يرجع سواد الحجيج المصرى والروسى والمغربى ، والسودانى ، واليمنى والجاوى ، والهندي ، وغيرهم . وهذا الطريق ينقسم الى شعبتين : شعبة قبيل الحمراء تمر على ينبع النخل ومنها الى ينبع البحر ، وعربان هذا الطريق من جهينة ، وأرضه رملية ناعمة . والشعبة الاخرى بعد الحمراء تمر على نفق الفار (نقب على) وهو ممر صعب بين جبلين شاهمين فى طريقه كثير من الاحجار الضخمة على طول نحو ٢ كيلومتر ولا تمر منه الجمال الا جملاً قليلاً ، وفى الغالب ينزل عنها ركابها لتعسر السير عليها فيه ، ويسمون هذا النقب قلعة حرب لمنعة الجبال التى تشرف عليه ، ومنه يخرج المسافر الى الصحراء التى توصله الى ينبع البحر .

وهذا الطريق من الحمراء نصفه الشرقى للحوازم ، ونصفه الغربى للاحامدة . ومتوسط المسافة بين المدينة المنورة وينبع ٢٣٠ كيلومتراً ، فاذا أضفنا اليها ٤٥٠ كيلومتراً ما بين المدينة ومكة ، و ٤٠ من مكة الى عرفة ذهاباً وإياباً ، و ٨٠ من جدة الى مكة ، يكون مجموعها ثمانمائة كيلومتر ، وهى كل ما يركبه الآن الحاج المصرى براً .

فاذا وصل الحجاج الى ينبع انتظروا بها المراكب التي تنقلهم الى بلادهم ، وغالباً ينتظرون فيها أياماً كثيرة لعدم انتظام حركة نقلهم الناشئ* عن قلة المراكب . وهناك يكثر عناؤهم ويسوء حالهم وتشدد فاقتهم ، وتفتك فيهم الامراض لكثرة الاقذار التي تحيطهم من فضلاتهم ، وخصوصاً من عدم صلاحية مياه الشرب .

وقد رتبت الحكومة المصرية لهم كونداس* في زمن الموسم ترشح لهم ماء البحر ولكن عمالها غير منتظم وماؤها لا يصرف الا باذن خصوصي لا يصل اليه فقراء الحجيج . ولا أظن الا أن هذا من تعنت العمال الذين يجدر بحكومةتنا السنية أن تشدد عليهم كل التشديد في القيام بواجبهم .

ويا حبذا لو انتهت الى ذلك الحكومة العثمانية الجديدة ، وأسعفتها شركات السفن وخصوصاً الشركة الخديوية ، فانهم يخففون عن الحجاج المساكين كثيراً من عنائهم مما يشكرهم عليه الانسانية .

ومن ينبع يصل حجاج مصر الى الطور لتمضية أيام الكورنتينان كان هناك حجر صخري : وهو مكان فسيح على طول ٣٣ درجة و ٣٧ دقيقة وعرض ٢٨ درجة و ١٤ دقيقة و بينه وبين السويس ١٢٥ ميل ، ومن هناك تأتي بشائر الحجاج بوصولهم الى مصر بالسلامة على لسان الرق أو البريد ، وكانت قبلهما تصل عن يد بعض الافراد الذين كانوا يحضرون من مصر لهذا الخصوص و يعودون من الطور أو الوجه بما يبشرون أهل الحجاج بسلامتهم بظير البماشيش التي كانوا يأخذونها .

والطور قرية صغيرة على شاطئ* خليج السويس الشرقى ، وأغلب سكانها من الاقباط والاروام ، وفي ضواحيها كثير من البدو ، ويقرب منها عين ماء ساخن عليها بناء لعباس باشا الاول يسمونه حمام موسى ، ويقولون انه نافع للامراض الروماتزميه . وعلى مسافة يومين بالجمال من هذه القرية دير الطور المشهور ، وفيه بساتين تنتج كثيراً من العاكة ، وفي شماله بشرق جبل المناجاة الذي كلم الله عليه موسى وذكره في القرآن الكريم في غير موضع ، ويقصد هذا الدير حجاج الروس بعد نزولهم من بيت المقدس فيزورونه ثم يرجعون الى بلادهم . وفي شرق هذه القرية محجر الطور ، وهو في نقطة صحية جداً وفيه مباحر وافيسة بالغرض ، وأخذية

مرتبة، وبنائها نظيف، وفيه اسبتياليات على غاية من النظام، ولكل مرض قسم مخصوص منها. ولقد أصبح هذا المحجر بعناية الحكومة المصرية أحسن محجر صحي في العالم. ولا شك أن بعض الصعوبات التي يلاقها فيه الحجاج لا بد وأن تزول قريباً بحسن عناية الحكومة واستمرارها على الاهتمام براحة الحجاج.

أما الطريق الرابع فهو طريق السكة الحديدية الى الشام وهو الذي افتتحتته الدولة العلية رسمياً بأول قطار للمدعوين الى هذا الاحتفال وصل الى المدينة المنورة في ثالث شعبان سنة ١٣٢٦ الموافق ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٨. وتسافر عليه الآن حجاج الشام والترك والروسيا وكثير من المصريين وخصوصاً برسم الزيارة.

وإتتمها للفائدة نقول لك ان المسافة بين المدينة المنورة ودمشق الشام تبلغ ١٣٠٢ كيلو متر، والى حيفا ١٣٣٣ كيلو تقطعها الواورات في أربعة أيام تقريباً، ومتوسط سيرها فيها ٨٠ ساعة. وسير القطارات من الشام الى معان على متوسط ٣٠ كيلو في الساعة، ومن معان الى المدينة على متوسط ١٥ كيلو في الساعة. وأجرتها في الدرجة الاولى من حيفا الى المدينة دهايا وإياباً أربعة عشر جنياً، وفي الدرجة الثالثة نصف هذا القدر، وليس فيها درجة ثانية إلا أن عربات الدرجة الاولى ضيقة وفي كل عين منها ستة مقاعد منفصلة بحواجز (مساند) ثابتة، والمسافر فيها الى المدينة يعاني مشقات كبيرة، وخصوصاً في الليل الذي يقضيه كما يمضي النهار جالساً. وكان الاولى بها أن تكون ذات أربع مقاعد يمكن تجهيزها ليلاً الى أربعة أسرة لنوم المسافرين فيها. لذلك ترى كثير أمن الركاب يفضلون ركوب الدرجة الثالثة وخصوصاً عربات البضاعة حيث يمكنهم أن يفرشوا بها فراشهم ويامون ويجلسون على راحتهم. وأملنا في رجال الدولة حرسها الله أن يفكروا في ذلك حتى تكون عربات الدرجة الاولى وافية براحة المسافرين في هذه المسافة الطويلة.

﴿وهالك جدولا بمحطات الطريق الحديدى من دمشق الى المدينة﴾

جدول أسماء المحطات

٣٠٤

أسماء المحطات	المسافة بالكيلو	نقطة القياس	المحطات التي فيها ماء	أسماء المحطات	المسافة بالكيلو	نقطة القياس	المحطات التي فيها ماء
قدم شريف	٠٠	٦٨٦	☆	حالات عمار	٥٩٥	٧٦١	
كسوة	٢١	٧٣٥	☆	دات الحج	٦٠٨	٦٩١	☆
دير على	٣١	٧٠٠		برهر ماس	٦٣٢	٧٤٧	☆
مسجد	٥٠	٦٢٠	☆	الهضم	٦٥٤	٧٥٤	
جباب	٦٣	٦٤٣		الحطب	٦٧٧	٧٥٠	
خب	٦٩	٦٢٤		تنوك	٦٩٢	٧٧٥	☆
محجة	٧٨	٦٠١		وادي الاتيل	٧٢٠	٨٤٤	
شجرة	٨٥	٥٩٩		دار الحج	٧٤٤	٩٠٤	
أدرع	٩١	٥٨٧		مستقة	٧٥٥	٩٥٠	
خرابة العرالة	١٠٦	٥٧٥		الاخضر	٧٦٠	٨٨٢	☆
الدرعا	١٢٣	٥٢٩	☆	حس	٧٨٢	٩٠٨	
نصيب	١٣٦	٥٨٦		دي يسعد	٨٠٥	٩٦٤	
المفرق	١٦٢	٧١١	☆	المعظم	٨٢٢	٩٨١	☆
خرابة السمراء	١٨٥	٥٥٨		خشم صماء	٨٥٣	١٠٣٣	
الرفاء	٢٠٣	٦١٧	☆	الدار الحمراء	٨٨٠	١١٠٣	
عمان	٢٢٢	٧٣٧	☆	المطلع	٩٠٤	١١٥١	
القصر	٢٣٤	٩٤١		أبو طاقه	٩١٨	٩٦٦	
لوي	٢٤٩	٧٧٢		المرحم	٩٣٠	٩١٤	
الحيرة	٢٦٠	٧٢١	☆	مداين صالح	٩٥٥	٧٨١	☆
الصنعة	٢٧٩	٧٥٢		العلا	٩٨٠	٦٨٤	☆
حار ريب	٢٩٥	٧٨٢		البدايح	٩٩٩	٦٠٣	☆
سواق	٣٠٩	٧٥٨		مشهد	١٠١٢	٦٧٠	
قطرانة	٣٢٦	٧٨٣	☆	سهل المطران	١٠٣٤	٦٠٠	
ميرل	٣٠٨	٨٤٠		رمرد	١٠٤٩	٧١٤	
قريرة	٣٦٧	٨٩٣		البرالحديد	١٠٧٢	٧٣٩	
الحسا	٣٧٨	٨٢٢	☆	الطوية	١٠٩٠	٦٧٠	
حروفا الدراويز	٣٩٧	٩٥٨	☆	المدوح	١١١٦	٤٦٠	
عرة	٤٢٣	١٠٥١		هديه	١١٣٣	٣٨٥	
وادي الخردون	٤٤٠	١٠٨٠		حداعة	١١٥٥	٤٥٧	☆
ممان	٤٥٩	١٠٨٤		ابوالنعم	١١٤٣	٤١٨	
عدير الحج	٤٧٥	١٠٠٠		اصطبل عنتر	١١٨٩	٥٣٠	☆
بر الشيدية	٤٨٧	٩٩٦		بور	١٢٠٨	٤٧٢	
عقة	٥١٤	١١٥٢		ديار ناصف	١٢٢٨	٤٨٩	
بطن العول	٥٢٠	١١٢٥		بواط	١٢٤٧	٥٣١	☆
وادي الرم	٥٣٠	٩٩٤		الحميرة	١٢٦٨	٥٤٠	
تل الشحم	٥٤٦	٨٥٠		الحيط	١٢٨٧	٧٥٠	☆
الرملة	٥٥٥	٨٠٦		المدينة المتورة	١٣٠٢	٦١٩	
المدورة	٥٧٢	٧٣٤	☆				

ومن محطة الدرع يخرج فرع حديدى الى جيبا ومحطاته هي : المريرب و تال شهاب و اريزون و
وادي كليب و القارون و شجرة و صراح و اله و حبر الخايم و بيسان و العقوله و الشمال و جلفاء

المهاجر والكورنتينات

لفظ كورنتينه أو كارانتينه أصله فرنساوى (Quarantaine) ومعناه الشئ الذى يبلغ عدده تقيباً الى أربعين . والفرنچ يقولون ان جمهورية فينسيا (البندقية) لما رأت أن الاوبئة كانت تأتى الى أوروبا من طريق الشرق ومن بلاد المغرب بشمال افريقية، اهتمت لهذا الامر، لان مراكبها هى التى كانت تصل الشرق بالغرب، وعيدت لأول مرة سنة ١٣٤٨ مسيحية ضباطاً صحيين كانوا يقومون بتفتيش السفن التى كانت تأتى من الخارج الى ثغورها البحرية . وفى سنة ١٤٠٣ أقامت أول محجر صحى سمته لازاريت (Lazarette) وجعلته فى جزيرة صغيرة قريبة منها بالبحر الادرياتيقي اسمها سانت مارى دونازاريه (Sainte Marie de Nazareth) وكانت تحجر فيها على البضائع والاشخاص القادمين على بلادها من الشرق . ومشى على أثرها فى القرن الرابع عشر والخامس عشر ثغور البحر الابيض المتوسط العظمى ، فاقامت جنوه محجر اصحياً سنة ١٤٦٧، وأقامت مرسلية محجر فى سنة ١٥٢٦ . وأول من اتخذ الاحتياطات الصحية ضد الطاعون فى بلاده هو الملك رينيه (René) ملك نابلى (نابولى) فى سنة ١٤٧٦ م وزادت العناية بها فى سنة ١٦٥٦ م التى فشا الطاعون فيها ببلاد ايطاليا كلها حتى أنهم كانوا يحرقون الموتى لعدم استطاعتهم دفنهم . ولما ظهر الوباء الاصفى فى كاتالونيا (مقاطعة اسبانيا عاصمتها برشلونه) اهتمت أوروبا لهذا الامر وعملت فرنسا قانوناً للكورنتينات فى ٣ مارس سنة ١٨٢٢ وهو أساس النظمات الصحية للمهاجر . وقد أدخل على هذا القانون تعديلات مهمة فى ١٧ اغسطس سنة ١٨٤٧ ثم فى ١٠ اغسطس سنة ١٨٤٩ ثم فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٥٠

هذا ما كان فى أوروبا بخصوص الكورنتينات، أما مصر فان (محمد على) ذلك المصلح الكبير فكر فى ضرورة اشاء مجلس صحى بها وشكل فى سنة ١٨٢٠ ميلادية مجلساً كانت أعضاؤه من حكماء الجيش وصيدليته . وفى سنة ١٨٢٥ أدخل كلوت بك على هذا المجلس

نظامات جمة وسماه مجلس الصحة العمومى . ولما دخلت الكوليرا فى مصر سنة ١٨٣١ زادت عناية محمد على بهذا المجلس وادخل اليه نظامات الكورنيتينات باورو باخدمة للاموور الصحية والتجارية فى جميع البلاد الواقعة على البحر الابيض المتوسط، فجمع قناصل الدول وشكل منهم لجنة للنظر فى الامور الخاصة بالكورنيتينات وأصدر بذلك ذكر يتوفى ١٨ أكتوبر سنة ١٨٣١، وفى سنة ١٨٣٢ بنى بالاسكندرية أول محجر صحى (Lazarette) فى الشاطي، ولا يزال الاسكندريون يسمونها مظهر يطه أو الاطار يطه الى الآن .

وكان من ضمن هذا المجلس عضو مصرى اسمه طاهر بك، وكانت له الكلمة العليا فى أعمال المجلس لثاقب فكره وكبير همته والعناية التى كان يبذلها فى مصادمة ذلك الوباء الذى ذهب بأغلب السكان فى الوجه البحرى . وفى أواخر سنة ١٨٣٩ التى محمد على هذا المجلس القنصلى ولم يحفل باحتجاجات الدول عليه فى هذا الصدد وشكل ادارة الصحة العمومية بمصر وجعل رئيسها ناظر الاشغال العمومية والتجارة وجعل لها سبعة أعضاء : منهم طاهر بك السابق ذكره، وستة انتخبهم الحكومة المصرية من أعيان التجار . وفى مدة عباس باشا الاولى أهملت هذه النظامات الصحية، فطلبت منه الدول الرجوع الى النظامات الاولى القنصلية فلم يحب طلبها بل ولم يعرها أية التفاتة . فاختت فرنسا تسمى جهدها فى تشكيل مؤتمر دولى يحى من الدول ذوات المصلحة فى البحر الابيض المتوسط فتم لها ذلك واجتمع هذا المؤتمر فى باريس وكان فيه أعضاء من فرنسا ومرسليا والنمسا واسبانيا وايطاليا واليونان والبرتغال وسردينيا والروسيا وتسكانيا وتركيا، وعملوا قانونا فى ٤ يونيه سنة ١٨٥٣ راعوا فيه السهولة فى الحجر خصوصاً على البضائع : لان العلم كان وصل باكتشافاته المفيدة الى ان أغلب الاوثة ليست معدية . ولم توافق اسكترا على قرارات المؤتمر واتخذت احتياطات خصوصية لموانئها .

وكان من نتيجة هذا القانون أن تشكل مجلس يحى دولى فى الاستانة ومجلس فى الاسكندرية ووظيفتهم اعلان أمر الاوثة عند ظهورها وعمل الاحتياطات اللازمة للوقوف فى وجهها حتى لاتصل الى أوروبا، ولقد تقر أيضاً تعيين بعض اطباء يركبون

البحر على الدوام الى الشرق الاقصى ليرسلوا الى المجلسين بملاحظاتهم الصحية على البلاد التي يمرون عليها .

وعليه فقد اهتم سعيد باشا وشكل في سنة ١٨٥٤ مجلساً صحياً والحقه بنظارة الداخلية في ٢١ ابريل سنة ١٨٥٧، وجعل من حقه النظر في الامور الصحية من داخل البلاد، كما شكل لجنة للنظر في الامور البحرية الصحية (الكورتينية)، وكانت يد هذه المصلحة الاخيرة مغلوطة عن التصرف بدون ارادة الحكومة المصرية الى سنة ١٨٨١ التي صدر في ٣ يناير منها ذكر يتو بفصل ادارة المصلحتين عن بعضهما ، وذلك بناء عن اتفاق من الدول مباشرة ، وسميت الاولى مصلحة الصحة العمومية وجعل مقرها مصر، وسميت الثانية مجلس الصحة البحرية والكورتينات المصرية وجعل مقره بالاسكندرية، ثم تغير هذا الذكر يتو بذكر يتو آخر صدر بتاريخ ١٩ يونيو سنة ١٨٩٣ بناء على قرارات مؤتمر باريس المنعقد في السنة المذكورة . وهذه الكورتينات كلها لم يكن الغرض منها الحجر على الحجاج لان سفرهم من وإلى مكة كان على طريق البر، وكانوا يفتكرون أن طول مسافة هذا السفر مطهرة لهم من الاوثة، الا أن شدة كولي اسنة ١٨٥٨ في بلاد الحجاز جعلت أغلب الناس يفر منها الى مصر من طريق البحر على القصير . فاحتاطت الحكومة المصرية لهذا الامر وضربت الحجر على الحجاج لأول مرة في بئر عنبر في وسط المسافة بين القصير وقنا . أما الحجاج الذين سافروا مع القافلة عن طريق العقبة فامنعهم من الدخول الى السويس وضربت عليهم الحجر في عجرود .

ومن هذا العهد وأواخره إقامة محجرجي في الطور الا أن مؤتمر القسطنطينية رأى الاستعاضة عن الطور بالوجه لان سواد الحجاج كان يسافر عليه برأ، واستمر الحجر فيه أو في رأس ملعب على ركاب القوافل ، وفي الطور أوعيون موسى على ركاب البحر كلما كانت تقضى بذلك الضرورة الى سنة ١٨٧٧ التي من ابتدائها كثر سفر الحجاج من طريق البحر . وهناك أخذت الحكومة المصرية في اكمال الاستعدادات في الطور حتى طارت في سنة ١٨٩٣ واقية بالغرض منها . ومن ثم أصبحت هي المكان الوحيد الذي تعمل فيه الكورتينات على الحجاج المصريين أو الذين يمرون على مصر ولا تزال الاصلاحات تدخل اليه من وقت الى آخر

ومن المعجب أنه قد ورد في مادة (Lazarette) بقاموس لاروس الكبير ، ان بعض الافرنج قال ان أصل هذا اللفظ أتى من الكلمة العربية (الازهرية) وذلك لان الازهر بمصر انما هو ملجأ للعميان والشيوخ المتقاعدين ، وهو كلام أساسه الجهل المطبق أو التحامل على الازهر والازهريين ولو أنصف القوم لعرفوا هذه الجامعة الاسلامية حقها في خدمة العلوم على اختلاف أنواعها . فكم لها آيات من العرفان على نبي الانسان تذكر فتشكر . ولا غرو فاهتمام الجناب العالي الخديوي وحكومته السنية بالازهر الا ان لابد وأن يجعله يوماً من الايام في مقدمة الجامعات الكبرى نظاماً واحكاماً .

أما كلمة لاراريت (Lazarette) فهي لاطينية معناها (Ladre) يعني الابرص أو المجدوم . وكانت الدولة الرومانية تبالغ في الحجر على المجدومين بل كانوا يضعونهم تحت الحجر طول حياتهم وكان عقاب من يخرج عن نطاقه منهم أن يضرب بالرصاص ، وهو قانون حق لولا أنه مبالغ في شدته ، وقد ورد في الحديث الشريف « فر من المجدوم فرارك من الاسد » . وقد أقام الوليد بن عبد الملك الملاجئ في انحاء دولته وجمع اليها المجدومين وأجرى عليهم الارزاق وهو أول من أقام الملاجئ من هذا القبيل .

هذا هو تاريخ الحجر الصحي عند الافرنج . ولكن يرى المطالعون على التاريخ أن المسلمين رأوا ضرورة هذا الحجر قبلهم . فقد ورد في تاريخ ابن الاثير في اخبار السنة الثامنة عشرة من الهجرة ما نصه :

وكان عمر بن الخطاب قدم الى الشام في مدة ذلك الطاعون (وهو طاعون عمواس الذي فتك باهل الشام فتكا ذريعاً) ، فلما كان يسرع وهو موضع قرب الشام بين المغيثة وتبولك لقيه أمراء الاجناد منهم أبو عبيدة بن الجراح ، فاخبروه بالوباء وشدته ، وكان معه كثير من المهاجرين والانصار لانه خرج بهم غازياً . فجمع المهاجرين الاولين والانصار فاستشارهم فاختلفوا عليه : فمنهم القائل خرجت لوجه الله فلا يصدك عنه هذا ، ومنهم القائل انه بلاء وفناء فلا تری ان تقدم عليه ، فقال لهم قوموا ، ثم احضر مهاجرة الفتح من قريش فاستشارهم فلم يختلفوا عليه وأشاروا بالعود ، فنادى عمر في الناس اني مصيب على ظهره ، فقال أبو عبيدة أفرار من قدر

الله ؟ فقال لو غيرك قالها يا أبا عبيدة (يعني لانتقمتم منه) نعم نفر من قدر الله الى قدر الله .
 رأيت لو كان لك ابل فببطت وادياه عدوتان : احدهما مخضبة ، والاخرى مجذبة ، أليس
 ان رعيت المخضبة رعيتها بقدر منه ، وان رعيت المجذبة رعيتها بقدر منه ؟ وكان عبد الرحمن بن
 عوف غائباً فحضر فاخبر أنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً في ذلك وهو قوله صلى الله
 عليه وسلم « اذا سمعتم بهذا الوباء ببدا فلا تقدموا عليه واذا وقع ببدا وأتم به فلا تخرجوا قراراً
 منه » فكان ذلك الحديث موافقاً لما رآه عمر رضي الله عنه فأنصرف بالناس الى المدينة .
 وقد ورد هذا الحديث بالبخاري في الجزء الرابع نكتاب الطب بهذا النص : حدثنا حمص
 ابن عمر حدثنا شعبة قال أخبرني حبيب بن أبي ثابت قال سمعت ابراهيم بن سعد قال سمعت
 أسامة بن زيد يحدث سعدا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اذا سمعتم بالطاعون بارض
 فلا تدخلوها واذا وقع بارض وأتم بها فلا تخرجوا منها » ، وقال شراح الحديث ان المنع من
 الدخول لا يتناول من كانت للمرضى مصاحبة في دخوله كالأطباء وغيرهم . وهل هذا الحديث
 الشريف الا قانون صحي وضع للناس قبل أول قانون وضعته فينسيا (البندقية) ثمانية قرون

~*~*~

الطريق الى الحرمين في غابرة وحاضرة

﴿ ولقب الحاج عند عامة المسلمين ﴾

كانت طريق الحجيج الى بيت الله الحرام كلها مشقات وأخطاراً في الزمن السابق بما
 كانت تلقيه يد الطبيعة في سبيلهم من الشدائد الطبيعية التي كانت تهتك بسوادهم في الطريق
 من حر الصيف وقرّ الشتاء ، أو جفاف ماء الابار في هذه الصحراء المحرقة ، وما كان
 يدهمهم فيها من السيول التي أشد ما حصلت في سنة ١١٩٦ حيث اجتاحت نصف الحجيج
 المصري بين مكة والمدينة . وعدا هذه الشدائد الطبيعية فكثيراً ما كانت توقع بهم يد أشرار
 الاعراب ، وأقسى ما وقع لهم في سنة ١٢٠٠ ، وكان أمير الحاج المصري أمسك بعض لصوص
 حرب في طريق المدينة وسمهم بالنار على خدودهم . فصرخت صرختهم وتلاحقت به

قبائل حرب وحملوا عليه فهرب مع عسكره ووقعت الحجاج بين أيديهم فأفنوهم عن آخرهم وأخذوا ما كان معهم من سلب وذخيرة . وكثيراً ما كان تجاذب السلطة بين أشراف مكة وبعضهم ، أوحربهم مع قبائل الأعراب ، أو اختلاف أهل مذهب مع أهل مذهب آخر : يهقل في وجوه الحجاج أبواب مكة أو المدينة بعد وصولهم إلى هذه أو تلك فيرتدون عن الأولى من غير تأدية المناسك وعن الثانية بدون زيارة السيد الرسول ، ويعودون إلى بلادهم وقد أضافوا على متاعهم الأولى مشقات جديدة تزيد في شدتها عليهم ألا مهم المعنوية من حرمانهم من أمنيته فتضعف قواهم وتخور عزائهم ، وغالباً ما كانت نشتهم بد الفوضى وتعرض بهم حال الضعف إلى النهب والسلب !! كل ذلك كان يحصل لحجاج بيت الله الحرام والناس لا يمنعونهم عنه مانع ولم يسمع أنهم انقطعوا عنه من أنفسهم في سنة من السنين ، اللهم إلا ما قعد ببعضهم من غير جزيرة العرب أيام القرمطي والوهابي لأن الطريق كانت مفضوعة عليهم ، ولم يسمع بأن جميع المسلمين أهملوا هذا الواجب مطلقاً ولم يقف أحد منهم بعرفة من مبدأ الإسلام إلى الآن ، إلا في سنة ٦٥٤ التي لم ينج فيها أحد للفتنة التي كانت بين الأشراف على إمارة مكة : لذلك كانت الحجاج إذا طلعوا إلى أداء هذه القرية كانوا أول ما يستعدون على سلاحهم كأنهم سائرون إلى دار حرب لا إلى دار قد آمن الله فيها حياة الإنسان والحيوان بل وحياة الأشجار ، فإذا عادوا إلى بلادهم استقبلهم أهلهم وذوهم بالطبول والزمر فيقيمون لهم الأفراح والليالي الملاح بعد أن يعدوا لهم كل ما فيه راحتهم ورفعهم من نقش الدور وتجديد ما قدم عهدده فيها من فرش وغيره لا فرق في ذلك بين أمير أو فقير . وكانت الطبقة الصغرى ، وهي سواد الحجاج وأكثرهم مشقة طبعاً ، تزوق لهم وجهات منازلهم : فيرسمون عليها صورة المحمل وقافلته وحرسه ويرسمون إلى جانبها نخلة قدر بط إلى جذعها سبع وضع في سلسلتين من حديد ويقرّب منهما رجل قد أشهر سيفه في يده إشارة إلى أن صاحبنا حنظله الله تغلب بقوته وشجاعته على ما صادفه في طريقه هذا من المخاطر والمهلك .

لذلك كان ولا يزال لقب الحاج عند سواد المسلمين أشرف الألقاب التي يتحلى بها صدر أسماء الطبقة الصغرى ، وهو يدل على ما يمتاز به الشخص من صفات الشهامة في الشبان ، فإذا

قيل لواحد منهم يا حاج فلان يعنى يا أيها الشهم الشجاع ، أما إذا القيت به الشيوخ والكهول فأنما يكون ذلك إشارة لكمال يقينهم ومثانة دينهم الذى تحملوا فى طريقه الأهوال التى تشيب منها الأطفال .

على أن طريق الحاج أصبح اليوم أقل صعوبة منه فى أمسه ، لذلك نرى الحاج فى عودته يستقبل بأبسط مما كان يستقبل به فى الزمن السابق . و قليلا ما تراهم بمصر يرسمون شيئاً على دور الطبقة الفقيرة ، اللهم الا محملاً يسير فى جنده والى جانبه مركب بخارية أو قطار سكة حديد مما لا شئ فيه من معنى المشقة التى كان يصادفها الحاج فى طريقه فى الزمن السابق . وفى الحقيقة فإن طريق الحاج اليوم أقل صعوبة وأكثر أمناً منه بالأمس ، بل لا نسبة بين الحالتين بالمرّة . ومادام طريق الحرمين أصبح محل اهتمام دولتنا العلية فلا بد أن يأتى يوم قريب يتدلل ما بقى فيه من الصعوبات ، خصوصاً اذا تحقق خسر تسير الطريق الحديدى بين المدينة ومكة وبين هذه وجدة ، والله الهادى الى سواء السبيل .

سفر الجنب العالى

من المدينة الى مصر

فى فجر يوم السبت ١٥ يناير سنة ١٩١٠ الذى قرر الجنب العالى سفره فيه من المدينة المنورة الى تبوك ، قصد حفظه الله الحرم الشريف ، وبعد صلاة الصبح ، أدى خدمته فى الحجرة الشريفة ، وزار زيارة الوداع ، ثم قصد المحطة التى اكتظت رحباتها بمجموع الأعيان والأشراف والمأمورين والملوك والعسكريين ، وفى مقدمة السكل حضرات العلماء ونقيب الأشراف والمفتى والقاضى وخازن دار الحرم الشريف ومديره وسعادة رضا باشا محافظ المدينة المنورة . فصاحفهم حفظه الله واحداً واحداً ، وركب صالونه المخصوصى ،

شاكر لهم ما فيه من آدابهم ولطف أخلاقهم أثناء إقامته بالمدينة ، وركب في خدمة جنابه
العالى سعاد قد فتر دار الحاذقة وحضرة المهتمندار الخصوصى الذى تعين لسموه من قبل
حكومة الحجاز ، ثم تحرك القطار فى شروق الشمس تماماً قاصداً تبوك ، بين طلقات
المدافع وعزف الموسيقى وهتاف الأهالى .

وكان قطار المعية السنينة قام إليها قبل القطار الخصوصى ساعتين ، وقد ركب فيه نحو
خمسين عائلة من مصر بين وشوام وأتراك ومعاربه كان قطعهم فى المدينة ضيق دات يدهم ،
وأمر حفظه الله بتسفيرهم الى بلادهم ساء على التماسهم .

ومر القطار فى منتصف الليل على محطة العلا ، ثم على مدائن صالح (١) التى تبعد عنها

(١) ومدائن صالح (وتسمى الحجر تكبر الحاء وسكون الحيم) نسبة الى بنى الله صالح الذى
أرسل الى قوم ثمود ، وكانوا يسكنون فى هذه الجهات الى يثرب . وهم قوم من العرب ذهب بعض
المؤرخين الى أنهم من اليمن ، ففروا الى شمال شبه جزيرة العرب مع من هجرها بعد سيل العرم ،
وكان مساكنهم فيها محصومة قرب مساكن عاد ، ودليلهم على ذلك ما وجدوه على بعض
آثارهم فى العلا من الخط المستند (الحجرى) ، وقد ذكر المقرئى والكلام على آيلة ما ملخصه :
ان حمير الاكبر اسماً الاكبر أمر بطرد قوم ثمود من اليمن لظلمهم لمن حاورهم ، ففروا من
أيلة الى داب الآصال (أطراف نجد) فقطعوا الصخور ونحووا من الحبال بيوتا وتسكروا وطمعوا
فبعث الله فيهم صالحاً نبياً ورسولاً فكذبوه وسألوه أن يخرج لهم ماء من صخرة هناك ، فأخرجها
لهم فمقروها فهلكهم الله بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جثث (مصعوقين) .

ودهب بعضهم الى أن التموديين من عماليق الشمال الذين أتوا من العراق وسكنوا مدينة بطر ،
وكان لهم مهادولة واسعة فى القرن الرابع قبل المسيح ، ويستدلون على ذلك بما وجدوه على
كهوف الحجر من الخط الآرامى الذى هو كتابة الآباط .

ومن ذهب الى رأى الاول يقول ان التموديين لم يكتبوا هذا الخط الا بعد ما ذهب دولتهم
وضعف أمرهم وصاروا تابعين لحكومة السطيين فى القرن الثانى أو الاول قبل الميلاد بحكم تلك
العهدة المتسوع على التابع . وعندى أنه لا يبعد أن يكون أصلهم من عرب الرعاة الذين طردهم الملك
نحوتمس فى سنة ٢٠٥٠ قبل الميلاد ، ومن المصريين تعلموا كيف ينحتون الحبال والصخور : قال
تمالى « وتمود الذين حافوا (نحتوا) الصخر بالواد » . فتوا وأفاموا فى المنطقة التى بين الحجر
والمدينة وصارت لهم بها دولة قوية . ثم كان لهم مع بنينهم صالح ما حسبك منه ما ذكره الله تعالى فى
سورة الاعراف « والى ثمود (أرسل) أحاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ،
قد جاءكم بينة من ربكم هده ناقة الله لكم آية ، فدروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء
فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا ادخلكم خلاء من بعد عاد وبوأكم فى الارض تتخذون من

بنحو خمسة وعشرين كيلومترا ، ووصل حفظه الله الى حذاءات كورنتينة تبوك في الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالي (الاحد) ، فدخل الفطار الخصوصي الى الكورنتينة ، و بقيت فيه دولة الوالدة مع حاشيتها ، أما الحناب العالي فانه نزل معيته الى الحذاء الذي ضربت فيه صواوينه الخصوصيه وخيام حاشيته من ملكيين وعسكريين . ومكث حفظه الله في الكورنتينة خمسة أيام كان يتردد في أنفائها من الصبيوان الخصوصي الى صالون قطار السكة

سهولها قصورا وتجدون الحبال بيوتا ، ودكروا آلاء الله ولا تغتوا في الارض مفسدين . ول الملا الذين اسكروا من قومه للدين استصعبوا لمن آمن . منهم أن تعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ، قالوا يا ربنا أرسل به مؤمناً . قال الذين اسكروا اما بالذي آمنتم به كافرون . فمقروا بالناقعة وعتوا على أمر ربهم وقالوا يا صالح انما نعلم انك كذب من المرسلين فخذتهم الرحفة فأصبحوا في ديارهم حنمين » وفي تفسير روح المعاني ان تمود كات ديارهم من الحجر الى وادي القرى جنوباً ، وقدهاء فيه في تفسير قوله تعالى أخذتهم الرحفة : قال الرءاء والراح أي الرللة الشديدة ، وقال مجاهد والسدي هي الصيحة ، وجمع بين القولين بأن أخذتهم الرللة من تحتهم والصيحة من فوقهم .

ولا يبدأ هذه الحركة كات ناشئة عن ثورة ركابية حصلت في حرة العوير (جبل ركابي تقدم ذكره في الطريق من الوجهة الى المدينة) ، فكاتب مها تلك الهرة العنيفة الى خسف بالقوم في ديارهم من غير ما يشعرون : يؤيد ذلك ما حصل أخيراً في كالابريا (مخنوب ايطاليا) من الخسف الذي كات حركته ناشئة عن ثوران ركاب فيبروف . وعلى كل حال فمدكات خادنة تمود قبل زمن موسى عليه السلام فقد ذكرهم شبيب لقومه على سبيل المرة : ول تعالى حكايه عنه في سورة هود « وياقومي لا يحرمكم شقاق أن يصحبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح » . وقد كان شبيب معاصراً لموسى كما لا يخفى .

واندمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر في عروته لتبوك في السنة التاسعة للهجرة ومع قومه من الدخول الى ديار تمود والترب من مياهم . وأرى أن ذلك لسبب مهمين : الاول أدنى وهو مبالغة عليه الصلاة والسلام في السخط على هؤلاء الاقوام امصليارهم ربهم ومخالفتهم لندبهم حتى كان من أمرهم ما كان ، والثاني صحي وذلك لان كهوفهم المتروكة من زمن سيد ، وهي بمثابة مقبرة لهم ، لاشك يكون هواؤها فساداً وماؤها مصراً عن يشربه .

أما القوش الى شاهدوها على ما وصل اليها من هذه الديار وعانها باخط الارامى وهي لا تخرج عن عبارات دينيه مما ينقش عادة على قبور كثير من الامم الى الان . يذكر لك مما ترجمه عهد كسره على قبره رجل اسمه عائد بن كهيل .

« هذا القبر الذي بناء عائد بن كهيل بن العيس لنفسه وأولاده وأعقابه ولمن يكون في يده كتاب من يد عائد يبيع له ولاى واحد يحوله عائد في حياته أن يدفن فيه . في شهر نيسان السنة التاسعة لاجارث ملك الاساط محب شعبه (وذلك حوالي سنة ١٨ هـ الميلاد) ولبن دواشيري ومائة وقيس كل من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهقه أو يهبه أو يؤجره أو ينقش عليه شيئاً آخر أو يدفن فيه أحداً الا الذين كتب أسماؤهم أعلاه . ان القبر وما كتب عليه فهو حرم مقدس ، حسب القاعدة

الحديد ، وكان الهواء في تلك الاثناء مardاً جداً يتراوح بين ١٥ درجة سنتجراد نهراً و ٥ تحت الصفر ليلاً : أما الرياح فقد كانت شديدة جداً لا تستقر معها الخيم ثابتة في أمكنتها ، بل كنت تراها متزعزعة على الدوام وخصوصاً في اليوم الاول والثاني ، وكثيراً ما كنا نشاهد خيام الكورنينة التي في الحذاءات الاخرى تطير من أما كنا فيسرع أربابها بالجري وراءها ويتعلقون بأطنابها فيوقفونها عن سيرها بعناء شديد ويرجعون بها ثم يزاولون نصبها وهم في عراك مع الرياح يزق الا رواح .

وفي هذه الكورنينة اثنا عشر حذاء جوياً تحيطها وتفصلها عن بعضها شبكة من السلك ، وهي ستة في مقالة ستة أخرى ، يسير فيها بينها شريط الطربق الحديدى ، وطول كل حذاء مائة متر في عرض ٧٥ متراً ، وليس فيها أنبىة أصلاً ، اللهم الا مبخرة واحدة في جوار الحذاء الاول ، أخذ اليها عسكر الحرس والخدم فتبخرت ملاسهم وظلوا في أثناء التبخير عرايا في حوش المبخرة وهم يرتعدون من شدة البرودة ، ولا شك في أن دولتنا العملية ستزداد عنايتها بهذا الحجر (١) حتى يكون كافلاً لراحة حجاج بيت الله الحرام .

.....

التي يقدها الانباط واللاميون الى ابد الآبدين » . (انظر صفحة ٨١ من الجزء الاول من تاريخ العرب قبل الاسلام لاصديقنا المؤرخ الناضل حورحى أفندى ريدان) : ومن هنا ترى أن القوم عبروا دياتهم بوثنية النسطيين الذين كان من آلهتهم دو الثرى ومناة وقيس وهمل واللات وغيرها ، ومنهم أخذ العرب وثنتهم .

ولقد اهتم الخنازب العالي الحديوى بخدمة العالم التاريخى بنقش مابقى من آثار الحجر فأوفد الى هذه الجهة البروفسور هيس أحد المستشرقين السويديين ونزيل مصر الآن ، فعاد منها ببعض صور غير مهمة مما أبقه فيها بد السراق . ويوجد كثير من آثار القوم في متاحف لندن وباريس وبراين والاستانة . وقد بلمي أنه يوجد منها شىء كثير في صاديق محمودة في مدينة حيفا ومد ستن على دمة محف القسطنطينية ولا أدري ماهي الحكمة في عدم ارسالها اليه الى الآن . وعلى كل حال فإن المشغلين بالآثار النسطية والنمودية لابد أن يزيدوا يوماً من الايام معرفة هؤلاء الاقوام (١) هذا الحجر لا يزال حاصاً بأهل تركيا والشام ، أما أهل مصر فانه لا بد لهم من تمصية الحجر

الصحى في الطور قبل دخولهم الى الثور المصرية ، وقد حصلت محاطبات رسمية في اعتبار كورنينة تبوك كورنينة عامة بحيث اكبي الحجر فيها على المصريين وغيرهم ولكن لم يتقرر شىء بهذا الخصوص الى الآن

الحجازى، وسعادة وقابك قائمقام معان ، وعلى بك فؤاد باشكاتب المتصرفية، للسلام على الحضرة الفخيمة الخديوية ، فلم يبقا بلهم جنباه العالى قياما بواجب قانون الكورنيتين، فبقوا فى ضيافته بادارة المحجر، حتى انقضت مدة الحجر فى صباح يوم الجمعة ٢١ يناير، فحضروا الى المخيم الخديوى ونالوا شرف المثول بين يدى حضرته العلية . وهنالك ابتدئ فى شحن القطارات ، وتحرك الركاب الخديوى فى الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم ، فر على محطة تبوك : وهى محطة صغيرة تبعد عن الحذاءات شمالا بنحو ألف متر وفى الكيلو ٦٩٣ من الشام ، وبينها وبين البلدة نحو ثلثمائة متر . ومساكن هذه القرية على مرتفع من الارض وسط الصحراء يحيط بها النخل وبعض غيطان منزرعة ذرة ، وبعضها مبنى بالطوب التى وبعضها بالدبش ، وقد رأيت فيها بيتين موشيين بالجير من خارجهما ، ومن أبنيتها ما هو بالطوب المدهوك من الداخل والخارج بالشهبة (طين به مادة جيرية) . وفيها مسجد أقام على المكان الذى صلى فيه عليه الصلاة والسلام حين خروجه الى هذه الجهة ، وعلى باب هذا المسجد على يمين الداخل اليه بئر من أثر السيد الرسول نبع ماءؤها بين يديه صلى الله عليه وسلم فى وقت كان هو ومن معه فى شدة الحاجة الى الماء ، وهى التى يشيرون اليها ضمن معجزاته صلى الله عليه وسلم بأن « الماء نبع من بين أصابعه » وماء هذه البئر عذب جدا ، وقد وضع عليها أخيراً كاظم باشا الذى كان مديراً أعمال السكة الحديد الحجازية ، طلعية تحفظ ماءها نظيفاً بعيداً عن عبث العابثين ، فجزاه الله خيراً .

وما زال القطار سائراً حتى مر على محطة ذات الحج ، وفيها قلعة قديمة كانت تخزن فيها مؤن الحمل الشامى حين سفره فى البر ، ثم وصل الى محطة معان فى نحو نصف الليل : وهى أكبر محطة بين المدينة المنورة والشام ، وعلى كيلو ٤٥٩ من دمشق : وفيها ورشة كبيرة لتصليح الواورات ، وبيوت لمستخدمى هذا الخط الحديدى ، منها منزل جميل لمنير باشا . وقرية معان تبعد عن المحطة بنحو ٢٠٠٠ متر الى الغرب بانحراف الى الشمال ، ولا تظهر للمسافر من المحطة لانها فى جوف الجبل ، وسكانها نحو ألف شخص يشتغل معظمهم فى اعمال الطريق الحديدى ، وقد كانوا قبلها جرون للتجارة البسيطة ، ولا يشتغل بالزراعة

منهم الا القليل فيما لا يبعد عن قرينهم لخوفهم من عرب الحو بطات الذين يوجدون بكثرة في تلك المنطقة ، وكثيرا ما كانوا يفضون عليهم ويهبون مزارعهم . وفي شمال هذه القرية على مسافة ثلاث ساعات خرائب كثيرة اسم أكبرها بسطة (وأظن أنها أثر مصري) ثم اذرح (اشرح) وفيها تلال قديمة تتخللها آثار عتيقة . وفي تلك الجهة مياه كثيرة عذبة وأراض زراعية مما يدل على عمراتها في قديم الزمان . وجل هذه الخرائب من آثار (١) مدينة النبطيين .

(١) والمنطقة التي في غرب السكة الحديدية بين معان و عمان إلى نهر الاردن والبحر الميت وما يليه جنوبا غنية جداً بالآثار القديمة التي بعضها للنبطيين والفلسطينيين والعرب والرومان والمصريين (البطالسة) . وأخف هذه الآثار مدينة بطره (Petra) (كلمة يونانية معناها حجر) ومنه قولهم (Arabi Petra) يعني بلاد العرب البحرية وهي تبعد عن معان غربا بمسافة ٣٥ كيلو متراً غرباً وعن العمبة جنوبا بمسافة ١٣٠ كيلو، وترى بها إلى الآن كثيراً من المبانى المحيطة بالآثار ، وهي في وادي ترشح الصحور إلى ٥٠ متراً على مدخله الذي تختلف سعته من ٣ إلى ٩ أمتار ، وقد نمر فيها هيكل نحيم جداً على ارتفاع عشرين متراً ، وفيه كثير من النقوش الجميلة . ويسمونه بحزنة فرعون ، ويظن بعضهم أنه للرومان ، أقاموه بعد تملكهم المدينة لعبودهم ايزيس .

ويوصل طريق هذا المدخل إلى واد واسع يقطعه مجرى ماء من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي كانت فيه المدينة . ولا تزال اطلالها به إلى الآن ويسمونه وادي موسى . وعلى جانبه قبور نفرت في الصحر ، والتي على يمين الوادي منها يعني إلى جهة الشرق كانت لأشراف القوم : لما تشاهد عليهم من النقوش والرسوم التي تزيد في خامتها ، أما التي على يساره (في الجهة الغربية) فهي لعامة الناس . وعدد هذه القبور لا ينسل عن ٧٥٠ قبراً ، وكلها منقورة في الصخر . ويقرب منها تيار وقد تفرق في الجبل بمسححه ومقاعده ، وفيه ٣٣ مدرجا على هيئة أوصاف دوائر تسع ٣٠٠٠ شخص .

وينتصد بطر دسنوات في فصل الربيع فوافل السياح من الأفرنج وعلى الخصوص من الأمريكان . ولا بد لزيارتها من اذن خصوصي من ولاية الشام وهو ما (كان) لا يسهل على كل انسان الحصول عليه .

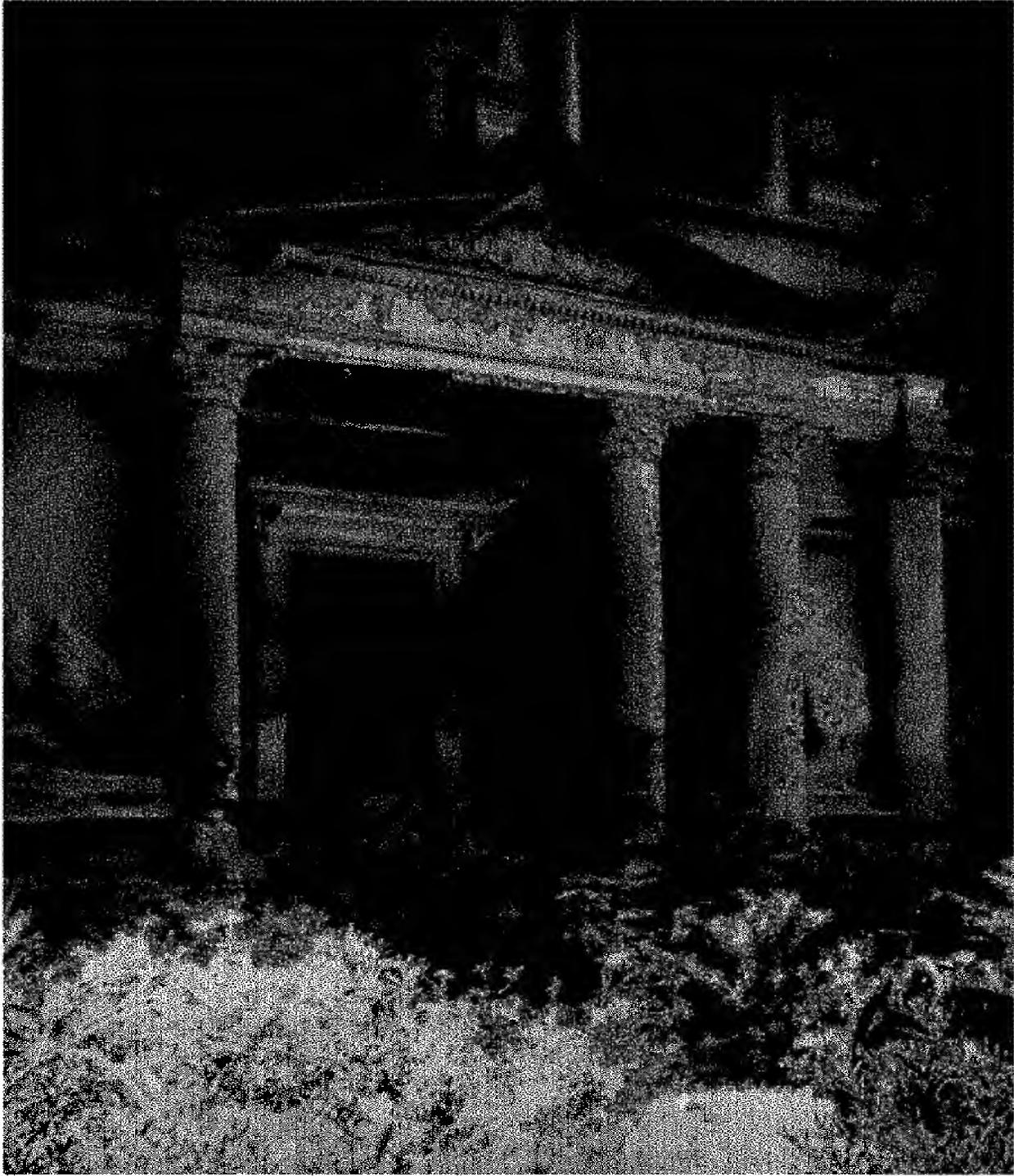
وفي صباح يوم السبت ٢٢ يناير أمر الجناح العالى حفظه الله فسارت حملة الجمال والهجن التي كانت في ركابه السامى ومعها بعض الحرس الخديوى تحت قومندانىة حضرة البكباشى ابراهيم افندى أدهم من معان الى العقبة، ومسافة ما بينهما ١٣٠ كيلومترا، واستمرت في سيرها الى السويس من طريق البر .

وكانت هذه المدينة عاصمة لحكومة الانباط : وهى حكومة عربية كبيرة كانت توجد مدة القرن الرابع قبل المسيح . وكانت لها مدنية عالية ، وجيوش قوية ، ساعدت الاسكندر الاكبر في استيلائه على بلاد الفرس وعلى مصر . ولقد حاربها انطيفونوس (Antegon) خليفة الاسكندر في سنة ٣١٢ قبل الميلاد ، فانهزم أمام جندها الباسل ، وقال انه لم يمارس في حروبه في الشرق والغرب رجالا مثل رجالهم . ثم حاصرها ديمتريوس وانقلب عنها خائبا .

وكانت مملكة النبطيين في القرن الثانى قبل المسيح قوية جداً وصرت ملوكهم السكة باسمهم، ومن اكرم ملوكهم الحارث الذى ملك في سنة ١٦٩ م ، وامتد ملكه الى وادى القرى جنوبا ، ودخل في حكمه العلاء والحجروما والاهما شرقا إلى حدود العراق ، وغرباً إلى بحيرة سينا . وكانت مدينة بطره المركز التجارى بين الشرق والغرب والشمال والجنوب إلى مبدأ القرن الثانى بعد المسيح ، حيث ساق عليهم الامبراطور تراجان الرومانى جيوشه فهدم مدينتهم ، واكتسح ملكهم ، ومزقهم كل ممزق ولم تبق لهم بعدها قائمة . حتى أن مؤرخى العرب لم يذكروا عنها كلمة واحدة في فتوح العرب للشام .

والى النبطيين ينسب الرقى الذى حصل في الكتابة التدمرية حتى كانت الحروف النبطية امهات للحروف العربية ، وحسبهم بذلك فخارا .

والعرب تسمى هذه المدينة من زمن بعيد الرقيم . واخرج ابن جرير وابن ابى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس « ان الرقيم وادد دون فلسطين قسرب من ايله ، والكهف في ذلك الوادى ، فهو من رقمة الوادى اى جانبه » . واظن ان الرقيم بمعنى مرقوم ، لما هو مكتوب ومنقوش على كهوفها وربما كانت هذه الكهوف هى المعنية بقوله تعالى في سورة الكهف « وترى الشمس اذا طلعت تزاور (تميل) عن كفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم (تبعد عنهم) ذات الشمال » وإلى شمال هذه المدينة على الجبل قبر هارون



BOEHME & ANDERER, CAIRO

خزنة فرعون في طبره

وفي الظهر تناول سموه الغداء في دار منيسر باشا . وفي مبدأ الساعة الثالثة تحرك قطاره قاصدا حيفا ، فسار في صحراء واسعة ترمى فيها الجبال على أفق البصر من الجانبين الشرق والغربي ، والارض في هذه المنطقة رملية تكثر فيها الحجارة الصوانية السوداء ، وكانت رؤوس الجبال الغربية التي يسمونها جبال الشيخ (وهي حلقة من حلقات السلسلة الجبلية التي تصل جبال لبنان بجبال السراة التي تقطع بلاد العرب من جنوبها الى شمالها) تلوح لنا بيضاء من الثلوج كأنها قد شابت ناصبتها من وحشة الوحدة في هذه البيداء الجافة .

أما الجهة الشرقية فكان يلوح لنا فيها من آن الى آخر ، بعدميل الشمس عن خط الزوال ، بحيرات كبيرة من الماء ، على دائرة أفق هذه الصحراء . وكنا كلما اقتربنا منها زاد صفاءها وتحرك ماؤها على بعضه بتموجاته البلورية ، وكانت تظهر في وسط هذه البحيرات أخى موسى ، ويقصده العرب من قديم الزمان لزيارته ، وقد ابنتى الصليبيون قلعة إلى جواره .

وتحت جبال الشيخ أثر يقال له قلعة نانياس ، ويظنون أنه من أعمال الغسانية . وفي الكرك هيكل الشمس . وفي عرك الأمير هيكل من هياكل الامونيين ، مال له هيكل العبد ، وفي عمان آثار رومانية تدهش العمل ، وفي ميدبة التي تبعد عن عمان بنحو عشرة كيلو متر ، آثار جميلة يسمونها خربة المال . وفي حصبان (حسان) التي تبعد عنها إلى الشمال الغربي بنحو خمسة عشر كيلو متراً آثار من آثار مملكة يهودا ، ولم يخف منها إلا صهاريج جميلة منقورة في جوف الجبل ، ولها فتحات من أعلاها يدخل منها الماء ، وفي جرش التي تبعد عن عمان بنحو خمس ساعات آثار نفخية جداً ، ويقرب منها قبر يزعمون أنه لهُود عليه السلام ويوجد في محطة القصر قلعة ظيظا . وكان بمحطة مشانا آثار جميلة ، ومن ضمنها قصر من القرن السابع قبل المسيح وكانت له وجهة من الفخامة بمكان أخذها الالمان هدية من السلطان عبد الحميد ونقلوها الى برلين سنة ١٩٠٤ . وفي عمان آثار جميلة جداً . وأهم ما فيها القلعة التي هي من هياكل الامونيين ، وفيها كثير من المغائر والقبور المنحوتة في الصخور ، وعلى كل حال فهذه البلاد ملاءى بآثار الاقدمين التي يهتم بها الا جانب ولا يكاد يعرفها أهل البلاد أنفسهم واكبرها فخامة قلعة بعلبك الشهيرة ، اما آثار تدمر (بالير) في الشمال الشرقي لدمشق فحدث عنها ولا حرج والطريق اليها من حمص .



BOEHME & ANDERER, CAIRO

خزنة فرعون في طبره

أحيانا جزر قامت عليها غابات من الاشجار تزيد في جمالها ، حتى اذا تاقت لها النفس ، وصارت منك على تناول اللبس ، وجدتها احدى القيعان ، سكن فيها الشيطان ، فاذا وصلت الى جنبه للحظوة بشرا به ، وجدته كان لم يكن !!

ومع أنى بمجرد ما وقع بصري على هذه البحيرات كشفت مستورها ، وعرفت ضميرها ، ولكن كان يلفتني اليها على الدوام حسن منظرها ، والتفكر في مخبرها : فكنت أنا أفكر ان هناك منخفضاً من الارض مليء بالهواء ، وقد انعكست في مرآته قطعة من السماء الصافية وانكسرت على سطحه ظلال ما في دائرته من الاعشاب ، وأخذت تتحرك بحركة تماوجاته فتعددت صورها بما تكونت معه هذه الغابات الناضرة ، وسط تلكم البحيرات الباهرة !! وزد على ذلك ان العين التي لم تعثر في الصحراء الا على مناظر جافة ، تعظم ما تراد فيها من الصور اللطيفة ، وتنقله الى الوهم حقيقة مجسمة .

وكنت أحيانا أتخيل انها شئ من البحر تسرب ، ومنا اقترب ، حتى اذا خلب اللب بسنائه ، وجذب القلب بلا لائه ، واشتفت أن تنال من مائه ، فتح فاه ، وابتلع مياهه ، ضاحكاً من سذاجتك وبساطتك ' وكنت أتوهم آونة ان الصحراء ، أرادت أن تخفف عن أنصارنا منظر ذلك الجفاء ، فلبست لباس البحار ، وسط هذه القفار ، وأخذت تتلون تلون الحرباء ، وهل يبعد على شيطان الطبيعة أن يتشكل بما شاء ' حتى اذا اقتربت منه ضرب في الهواء ، وطار طير العنقاء .

للا بل هو السراب الذي « يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً » ، أخبرنا به القرآن قبل ثلاثة عشر قرناً ، ولم نعرفه أو ربا الا في القرن السابع عشر ، بل لم تتحقق من أمره الا تلك الحملة العلمية التي دخلت مصر مع نابليون بونابارت في رأس القرن التاسع عشر . ولا غرابة في ذلك فان السراب لا يوجد الا في صحارى البلاد الحارة : ذلك أن الشمس اذا ارتفعت حرارتها سخنت الرمال التي على سطح الارض فتسخن به طبقة الهواء التي تلامسها ، وهذه الطبقة تسخن التي فوقها ، وهذه تسخن التي تتلوها ، وبذلك يتمدد الهواء في جميع هذه الطبقات بنسبة حرارة كل واحدة منها ، ويحدث من انتقال الطبقة الساخنة منه

الى أعلى ، ومن نزول الكتلة الباردة لتشغل محلها ، تموجات تنعكس في صفائها صور الاشباح القريبة منها ، وهذه الصور تنعكس بمجموعها في منخفض من هذه الرمال المتبلورة فتراها من بعد كأنها حقيقة مجسمة .

أمامونج^(١) (Nonge) وهو أول من شرح نظرية السراب ، وكان من أعضاء الحملة العلمية الفرنسية السابقة الذكر ، فقد ذهب الى أن السراب انما هو صورة أشباح حقيقية يشاهدها الرائي من بعد ، فيخترق شعاعه البصرى الذى يقل صورتها اليه طبقات الجو التى تختلف في حرارتها وكثافتها كلما اقتربت من أرض الصحراء التى سخنتها حرارة الشمس ، يأخذ فيها سيرا طبيعياً على خط منحن تتصل دائرته بالأرض في نقطة تنطبع في رمالها اللامعة صورة الشبح المرئى ، وهناك يتخيل للرأى انه يشاهد الشبح من هذه النقطة وليس كذلك .

والطريق الحديدى في هذه الجهة كثير المنحنيات ، بل تراه في حالات كثيرة مثل حرف (S) ، أى على شبه قوسين متضادين أخذاً بطريقى بعضهما ، وذلك يكون في حال صعوده على الجبال ، أو قطعه لها من جهة الى جهة أخرى . وما زال السير على هذا المثال حتى وصلنا الى محطة قطرانة ، وهى الثغر الحديدى لتصرفية الكرك التى تبعد عنها غرباً بنحو ٣٠ كيلومتراً ، وكان حضرة متصرفها قد حضر مع بعض رجاله لاستقبال الجنب الخديوى . و بعد تأديتهم الى مقامه العظيم واجب التسليم والتعظيم استأنف القطار مسيره حتى وصل الى محطة الدرا فى منتصف الليل ، ومنها يتفرع الطريق الحديدى الى شعبتين : شعبة تسير نحو الشمال الى دمشق الشام ، والاخرى تسير نحو الغرب الى حيفا . وكانت في هذه المحطة زينة لطيفة لمقدم سمو الخديو المعظم وكان كثير من أهل الدرا (التى تبعد عن المحطة بنحو ألفى متر) قد حضروا للاقتع بمشاهدة طلعة الجنب العالى . ولهدم كثنافى هذه

(١) يرى صديقنا كمال بك ان الجيم التى تحتها ثلاث نقط أصلها أعجمى ونطقها يقرب من الشين المطشدة فلا يصح وضعها للدلالة على حرف (Q) الرساوية ، وحيث ان حرف الزاى الفارسية التى تكس بثلاث نقط تؤدى بالنطق بها هذا الحرف تماماً فالاولى استعمالها بدله فتقول مونز (Monge) مثلاً .

المحطة الى فجر اليوم التالى ، ثم سرنا فى أرض زراعية من عيونا وشمالنا حتى وصلنا محطة تل شهاب ، ومنها يتبدى الطريق الحديدى يسير فى جوف الجبل ، فكنت ترى القطار صاعداً ، نازلاً ، منجداً ، متهماً ، داخلاً فى نفق ، مشرفاً على هاوية ، قاطعاً قنطرة الى الشرق ، ليمر على كوبرى الى الغرب ، ذاهباً ، آيماً ، مقبلاً ، مدبراً ، كأنه الغزال فى لغتاته ، أو الثعلب فى روغاته ، متخطياً محارى الماء ، متباعداً عن مساقط السيول ! ! وبالجولة فهذا الطريق صورة صغرى من طريق السميرنج فيما بين ترستاوفينا . ومازلنا سائرين بين هذه الهضاب ، وهاتيك الشعاب ، التى تحيرت فى جماها الالباب ، مندهشين من جلال طبيعة هذه الجبال ، ونخامة ما صنعتها يد الدولة من عظيم الاعمال ، متمتعين بما على سفوحها من الحضرة التى يكثُر فيها بصل النرجس فيه طرا لارجاء بعبيره ، والتى يرعى فى كلأها آلاف من قطعان الاقار والاعنام ، حتى نزل الوابور الى الوادى فشهدنا بعض الفلاحين يشق الارض بمحراثه (وهو أصغر من المحراث المصرى كثيراً) . وبعد كيلو ١٣٥ كثرت الخيام فى جوف الوادى الذى ابتدأ يعمر بالسكان . وفى الكيلو ١٠٠ غزت المراعى : فكنت ترى معالى الجبال ومواطنيها مفروشة ببساط أخضر سندسى يتلوّن منظره فى ارتفاعاته وانخفاضاته ، وشمس وظله ، بألوان مختلفة ذكرتنى بتغيرات مناظر البوسفور الجميلة . وهذا الوادى يسمى بوادى بيسان ، وبعضهم يسميه وادى الساسابان ، ويتبدى من محطة صماخ^(١) التى يتبدى منها جفلك السلطان عبد الحميد ، وفيه خمسون قرية ، وأرضه غاية فى الجودة يشقها الطريق الحديدى ومياهه غزيرة جداً . وكان القمح فيه على ارتفاع شبر من سطح الارض ، ويستمر هذا الجفلك الى محطة العقولة ، التى بمجرد ما تركناها شاهدنا بكل فرح وسرور مبانى حيفا . وقبل الوصول إليها بضعة كيلومترات شاهدنا على

(١) ويقرب منها قرية حطين المشهورة بوقعتها الكرى التى حصلت في سنة ٥٨٣ هجرية بين صلاح الدين الايوبي والصليبيين وانصر صلاح الدين عليهم بهراً ميباً كان فاتحة لانتصاراته المتوالية عليهم . ويقرب من حطين قرية يقال لها خياره بها قرية شيب السى . وصماخ تشرف على بحيرة طرية وتسمى في الوراثة بحر الخليل ، وهو أعظم بحيرات سوريا . وطولها من الشمال الى الجنوب ١٤ ميلاً ، وأعظم عرض لها ثمانية أميال .

يسارنا طر يقاً بالمكدام لمسحة القوم، وقد خرج اليه بعض الناس في عرباتهم لاستقبال أميرنا المعظم، وعلى حافته قهاوٍ قد اكتظت بالمتفرجين على مقدم هذا المليك الاكرم. وما زال القطار حتى وصل الى رصيف المحطة التي رفعت فيها أعلام الزينة، واحتشد الى رصيفها صنوف المستقبلين من علية القوم، وفي مقدمتهم مأمورو الدولة بين عسكريين، وملكيين، وقناصل الدول، والعلماء، يتقدمهم فضيلة القاضي والمفتي وأمين الاشراف. وكان جناب المتصرف ووكيله وقومندان عموم القوة العسكرية قائمين بحفظ النظام. ولما وقف القطار الخصوصي ضربت المدافع، وعزفت الموسيقى العسكرية بالسلام الخديوي، وصعد سعادة المتصرف الى الصالون مسلماً على الجناب العالي بالنيابة عن الدولة العلية، ودعاه الى بهو المحطة الذي أعد لاستقبال سموه بصفة رسمية. فنزل حفظه الله وسار في وسط هذه الجموع التي لا يحصى عددها حتى دخل قاعة الاستقبال. وهناك ابتدأت التشريفات: فحضر الكبراء والعظماء للسلام على جنابه العالي، وكان يقدمهم الى سموه سعادة القائمقام. وبعد ذلك قدمت المتصرفية الى جنابه الشامي ثم القهوة، وعندها قام باشكاتب المحكمة الشرعية وألقى خطابة طويلة مرحباً فيها بمقدمه السعيد، مهنئاً تلك الديار بشرف حلوله في ربوعها، ثم تلا قصيدة غراء في مدح فضائل الحضرة الفخيمة الخديوية، فشكره الجناب العالي. وقد كان حفظه الله مدة وجوده في هذه الحفلة يتكلم مع هذا بالتركية ومع ذلك بالعربية ثم مع كل قنصل بلغنه، منتقلاً من موضوع الى آخر بعبارات كلها بلاغة وحكمة حتى أدهش الحاضرين عمومهم كمال معارفه، وواسع مداركه، وعظيم آدابه. وبعد نحو نصف ساعة ركب القطار الى الاسكندرية، وركب معه رجال الدولة مهنيين، مودعين، شاكرين لجنابه، مثنيين على آدابه، فشكرهم حفظه الله ثم سلم عليهم ونزل في الزورق البخاري لوابور الحروسية، فبلغها بسلامة الله الساعة خمسة بعد الظهر من يوم الاحد ٢٣ يناير سنة ١٩١٠ ونزل في ركابه العالي من كان في خدمته من رجال المعية السنية. أما رؤساء الحجاج المصريين الذين سافروا على نفقة الجناب العالي فقد أمر حفظه الله بتسفيرهم الى بورسعيد مع بعض رجال الحرس الخديوي على أحد ابورات الشركة الخديوية الذي كان منتظراً بالميناء.

• وفي منتصف الساعة العاشرة مساءً تحركت سفينة المحروسة باسم الله مجراها الى ثغر الاسكندرية الذي ابتدأت تظهر معالمه في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الاثنين ٢٤ يناير سنة ١٩١٠ ، وهناك ابتدأ يتأثر وجودنا بعامل السرور والخبور ، ومازلنا حتى تجلى لنا شاطئ الثغر ، يتعاق مع ماء البحر ، وأخذت تأتينا منه نسائم تترى ، حاملة روائح ذكية ، أحيت النفس ، وأنعشت الحس ، فكان ربحنا كريح يوسف من يعقوب : نعم كانت تحمل إلينا ربح الاوطان ، والبنين والاهل والخلان ، فضعمناه لانه أحاط بجسوم الاحباب ، ونقل اليان من عواطفهم ما حرك فينا الاشجان ، وأهاج عبرة الوهان .

وما زالت المحروسة سائرة بنا حتى ألفت مرساها داخل الميناء في الساعة الخامسة مساء . وعندها أطلقت المدافع من طوابى المدينة بين هتاف الآلاف من المصريين الذين كانوا قد ركبوا الزوارق وساروا بها الى ظهر البحر للتمتع برؤية مليكهم المحبوب . وهناك حضر دولة الامير محمد على باشا مع حضرات النظارات ومحبتهم السير ألدن غورست على زورق بخارى واستأذنوا في الصعود الى الركاب الخديوى . ولما أشرفوا بالثول بين يديه السكر يتين أخذوا يرتلون آى حمد الله على وصول مليكهم العزيز بكال الصحة والعافية . فأبدى لهم حفظه الله شكره وامتنانه ، ثم نزل وهم في ركابه العالى الى زورق المحروسة ويم سراى رأس التين العامرة ، وتبعته دولة والدة وحاشيتها ، ثم رجال المعية السنية في زوارق أخرى .

وكانت السراى الخديوية غاصة بكبار الموظفين ، وعظماء الاجانب ، وأعيان البلاد من أدناها الى أقصاها . وهناك جرت التشريفات على غير موعد ، وتشرف الكل بحضرة الجنب العالى ، واستلموا يدها هذا الاب البار الكريم ، مهنئين أنفسهم بسلامته ، وانصرفوا شاكرين مالا قوه من كرم سموه وعظيم إيناسه . وقد استقرت التشريفات الى مبدأ الساعة التاسعة ، وبعدها تناول الجنب العالى طعام العشاء بالسراى العامرة .

وكانت المدينة كلها كأنها قطعة من نور : للزيينات التى أقامها الاسكندريون فى أطرافها ، والى أقامها المجلس البلدى من سراى رأس التين الى آخر شارع عرشيد ، محترقة المدينة من طرف الى آخر . وكانت نريات الكهرباء فى طول هذا الطريق على شكل أقواس نصر

تجمع أطرافها أوتار تتعاقق أشعتها ، وتتعاكس في مرآة صفاء هذا الجو ، حتى كان يتخيل لك أن الدراري قد نزلت من أفلا كها لتساعد الاسكندر بين على معالم الزينة احتفالاً بمقدم أميرهم المحبوب . وعدا ذلك فكنت ترى الدكاكين والمنازل على طول الطريق وخصوصاً في ساحة المنشية ، وشارع شريف ورشيد ، قد قامت عليها معالم الزينة بأشكال بديعة تختلف في مناظرها ، وتتفق في حسن تنسيقها . وكنت ترى بين تلكم الانوار ، الاعلام على اختلاف جنسياتها ترفرف بين هذه الاضواء ، فتكسيها رواء على رواء .

وكان الناس على جانبي الطريق كالبيان المرصوص ، تتقدمهم رجال البوليس ، ويتخللهم عمال المجلس البلدي حاملين في أيديهم ثريات الشهوع انتظاراً لتشريف الجنب العالي الذي تفضل فوعدي زيارة دار البلدية بناءً على التماس المجلس البلدي .

وفي نهاية الساعة التاسعة ركب حفظه الله عربة خديوية والى يساره سعادة محمد سعيد باشا رئيس النظار (وكان باظراً للداخلية) ، ومر على زينة العروة الوثقى التي كانت في مبدأ شارع رأس السنين . وكان أعضاؤها مجتمعين في سرادق عايه في البهجة والجمال انتظاراً للركاب العالي . فتنازل جنابه الفخيم ووقف لحظة شكر فيها أعضاء الجمعية ، ثم سار بين دعاء الاهلين وهتافهم الى ميدان المنشية ، فشارع شريف ، فشارع رشيد . وكان كلما مر هتف الناس له بأصوات السرور والخبور ، بما كان يتردد في جميع الارحاء ، ويرتفع الى عالم السماء . ولما وصل حفظه الله الى سراي المجلس البلدي استقبل بما يليق بمقامه الكريم ، من الاجلال والتعظيم . وبمجرد ما استقر بالصالون الذي أعد لجنابه الفخيم ، قام رئيس المجلس وتلا بين يديه الكر يمين خطبة رحب فيها نيا به عن الاسكندر بين بمقدم سموه من حجه المبرور ، وسعيه المشكور ، وهو على ما يرجو الكل له من الصحة والعافية . فشكره الجنب العالي ، ثم قام حفظه الله الى البوفيه فأخذ شيئاً منه وبارح المكان بين مظاهر الاجلال والاعظام ، وعاد الى سراي رأس التين العامرة من الطريق الذي حضر منه وكان احتفال الاهالي به في إيابه لا يقل عن احتفائهم به في ذهابه .

وفي صباح يوم الثلاثاء ٢٥ يناير قصد الجناح الخديوى محطة الباب الجديد في كوكبة من حرسه ، وكانت المحطة غاصة بأعيان الاسكندريين ، وكبار الموظفين ، وكثير من سراة البلاد ، فلموايده الشريفة ، وركب حفظه الله يحف به حضرات الظار ، وسار القطار على بركة الله الى مصر . وكانت زينات المحطات على طول الطريق الحديدى مما لم يسبق لها مثيل خصوصاً فى دمنهور ، وطنطا ، وبركة السبع ، ومنها ، التى احتشد على أرصفتها عمد وأعيان البحيرة والغربية ، والدقهلية ، والمنوفية ، والشرقية ، والقليوبية ، يتقدمهم حضرات المديرين ، وكبار المستخدمين . وشرف القطار الخديوى محطة مصر في مبدأ الساعة الثانية بعد الظهر : وكانت المحطة غاصة بأعيان القاهرة ، والعدد الجم من أعيان الوجه القبلى ، وفناصل الدول وكلائها ، وكبار مستخدمي الحكومة السنية ، وفي مقدمتهم العلماء الاعلام ، والامراء الكرام ، والذوات الفخام ، وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية يتقدمهم دولة البرنس حسين كامل باشا (وكان رئيساً لهما) . والحلمة فقد كان هناك كل ذى حيثة كرمى ، وكان كل من صاحب السعادة محافظ مصر وحكدارها يقوم بالنظام العام . ولما وقف القطار نزل الجناح العالى الى رصيف المحطة التى كانت كالعروس فى زينتها ، وسلم على الحاضرين واحداً واحداً ، ثم سار تحف به رجال حكومته حتى ركب عربته والى جانبه سعادة رئيس الظار ، بين دى طلعات المدافع وعزف موسيقات فرق الجيش المصرى ، وجيش الاحتلال ، التى كانت فى رحبة المحطة لاداء واجب التعظيم . وقصد حفظه الله سراى عابدين بين جموع الخلق الدين لا يحصى عددهم والذين وقفوا صفوفاً يتلو بعضهم بعضاً فى عرض الطريق وطوله الى السراى العامرة ، ورجال البوليس أمامهم لحفظ النظام .

وكانت كلما مرت عربة الجناح الخديوى هتف الناس هتاف السرور لمشاهدة مليكهم المحبوب ، بما كانت ترتج له أطراف مدينة القاهرة ، بحال لم يسبق لها مثيل بالمرّة . وكانت الدكاكين والمساكن التى على جانبي الطريق رافعة أعلامها على اختلاف جنسياتها حتى اذا وصلت العربة الى ميدان الأوبرا كان الناس فيها على بعضهم : هذا واقف على

الارض وذلك واقف في أو توميله ، وآخر على عربته ، والبل كونات والشبابيك قد ملئت بعلى المتفرجين من الجانب والاهلين نساء ورجالا ، والكل يهتف بأصوات الفرح . ولم يصل الركاب العالى الى السراى العامرة الا فى منتصف الساعة الثانية تماما .

وفى المساء لبست المدينة حلة من الانوار ، وبدت زينة لجنة الاحتفال بعيد الجلوس المأنوس فى أبهى مظاهرها ، كما تجلت الزينات الخصوصية التى أقامها الاهلون والجانب من جميع أنحاء القاهرة . وبالجملة فقد كانت المدينة فى زينة باهرة ، وكانت كلها من ثريات الكه رباء على شكل أقواس نصرمتالية من السراى العامرة الى المحطة ، وكان اتصال هذه الاقواس بحيث كنت ترى الطريق قد تغطت بخيمة صيغت من قباب من نور .

وقد أقامت لجنة الاحتفال فى ميدان عابدين سرادقا فخيا جذاً كانت تتلأأ أنواره ، وتتألق أزهاره ، وتتصل أشعة أضوائه الى منافذ السراى العامرة حاملة عواطف الرعية الصادقة الى هذا الملك المحبوب . وتنازل حفظه الله بتشريفه صيوان اللجنة فى منتصف الساعة العاشرة مساءً . فاستقبله حضرات أعضائها بكل ما يمكن من مظاهر الاجلال والاعظام ، وتلا حضرة رئيسها عثمان بك مرتضى المستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية خطابا بليغا بالنيابة عن اللجنة ، حمد الله فيه على وصول هذا الملك الكريم بسلامة الله من رحلته المباركة ، ثم رفع الى مقامه السامى عبارات الشكران والامتنان على تنازله بتشريف الاحتفال . فشكره الجنب العالى وأثنى على همه اللجنة التى تمثل هذه الامة المخلصة بخطاب كله درر وغرر . وعندها قدمت المرطبات لجنبه السامى فتناول منها شيئا ، وأمر حفظه الله فأديرت على عموم الحاضرين ، وعند ذلك قام حضرة الشاعر المصرى النابغة حافظ افندى ابراهيم وتلا عن ظهر قلبه فى هذا المكان الرهيب قصيدة آية فى البلاغة يهني فيها مصر بوصول الجنب العالى بسلامة الله . فشكره سموه ، ثم كرر شكره لحضرة رئيس لجنة الاحتفال وأعضائها ، وركب حفظه الله عربته وسار مخترقا طريق هذه الزينات الباهرة ، وآلاف الناس على جانبيه مكررين آيات الهناء والدعاء ، حتى وصل بسلامة الله تعالى الى سراى القبة العامرة فى مبدأ الساعة الثانية عشرة مساءً .

وفي يوم الخميس ٢٧ يناير كانت المقابلات الخديوية : فكنت ترى السراى
العامة قد ضاقت رحبانها عن جموع المهثين من الاجناس المختلفة، والآلاف من وفود
الارياف من أصوان الى الاسكندرية يردون الى عابدين أفواجاً أفواجاً لتقديم واجبات
التهانى الى الاعتاب الخديوية ، والسراى الخديوية تموج بهم بحال لم يسبق لها نظير، وكان
الجناب العالى حفظه الله يقابل الكل بلطفه وإيناسه . وفي مبدأ الساعة الثانية بعد الظهر
تمت التشریفات وانصرف الناس وكلهم ألسنة ثناء ودعاء لحفظ هذه الذات العباسية المأنوسة
المحروسة درة فى جبين الدهر ، وتاجاً على مفرق هذا العصر .



تقر يظ صاحب الفضيلة شيخ المشايخ الاعلام مولانا الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

نحمدك اللهم حمد الشاكرين، ونصلي وسلم على صفوة خلقك أجمعين، وآله الطيبين،
وصحابة الطاهرين. و بعد فإن أسمى ما حظ به يراع، وسما به ابداع، وعمقه بنان، وأظهره بيان،
من ضروب القول وصفوف الكلام، ما كان متصلاً بحج بيت الله الحرام، وزيارة حضرة
المصطفى عليه الصلاة والسلام. وقد اطلمت في هذا الباب على السفر الجليل الموسوم بالرحلة
الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خدوم مصر، الذي وضعه حضرة الكاتب
الماهر، والمثني البليغ، سعادة محمد لبيب بك البتنوني، فوجدته من أحسن ما كتب
الكاتبون في هذا الموضوع البديل، والمنصف الخليل، ومن حيرة ادون في وصف ملك الباع
الطاهرة والمعاهد المباركة. وإذا كان قد سبق هذا المؤلف كثير من حول العلماء والمؤرخين
في الكلام عليها، والكتابة فيها، فكاتبوا وأوسعوا، وأطالوا فاشبعوا، فإن كتبهم لم يتناول
جميع الاعراض التي انفسح لها هذا الكتاب، وطرقها من أحسن الابواب: فتمد قصر بعضهم
كتابته على جغرافية البلاد. وغيره على تاريخها العمراني، والبعض لم يتجاوز كتابته مواضع
العبادة ومناسك الحج. وأنت بمرور بطرك على عنوانات هذا الكتاب ترى أن واضعه
بارك الله فيه، قد بلغ إلى انفاية من كل ما يريد العارى أن يتعرفه في جزيرة العرب، مما يتعلق
بامر دينه وأمر دنياه، ببيان يسحر الالباب، واسلوب يعجز الكتاب، فهو وان جاء متأخراً
عن تقديمه في مثل هذا التصنيف، فقد سبقه في أن جمع إلى حسن الاختيار سبك التأليف.
وجملة القول أن هذا السفر جاء بهاناً واضحاً، وحجة باطقة، بما مؤلفه الفاضل من سعة الاطلاع
وغزارة المادة. هذا واذ صحبه التوفيق، واهل نعم الرفيق، فحري قلبه بما جرى تسطيراً
لرحلة الداوري الانخم، والاميرالمعظم، ولى النعم، محيي الهمم، عزيز مصر، فليواصل معنا
الدعاء إلى الله تعالى أن يديم ذاته السنية، ملحوظة بعين العناية الربانية، وأن يحفظ ملكه،
وينخذ أيامه مادارت الافلاك، واستنارت الاملاك، آمين. خادم العلم بالازهر
سليم البشرى

تقريظ صاحب الفضيلة وشيخ الادباء والكتاب الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

ليبك اللهم ليبيك ، نحمدك على ما أنعمت وأعطيت ، ونشكرك على ما تفضلت وأوليت ، ووصلى وسلم على المبعوث لتكميل مكارم الاخلاق ، وكانت نعمته عامة لكل الناس في كل الآفاق ، سيدنا محمد وآله وصحابة التابعين والعاملين على سنته ما طلع النيران ، وتعاقب الجديدان ،

وبعد من المعلوم للعموم أن تفاضل العلوم في المرتبة والشرف اعما هو بشرف موضوعاتها ، وتفاوت غاياتها ، وكلما كان موضوع العلم أعلى وغايته أسمى كالتوحيد ، كان هو بالنسبة لغيره في المرتبة الاولى ، وعلى هذا أيضاً تتفاضل الاعمال الصادرة من خبرة الرجال ، وكلما كان العمل أعم ، وغايته أعم ، وموضوعه أرفع ، ونمرته أجمع ، ونتيجته أرفع ، كان هو بالنسبة لغيره من الاعمال أرقى وأعظم ، وأعلى وأشرف ، كما هو مشاهد للعيان .

اسعدني الحد ففتحت هذه الرحلة الحجازية التي كتبها الفاضل محمد بك ليبب البتنوني وقرأتها كلمة كلمة وتتبع غايتها خطوة خطوة ، فاذا مرضوعها حجج مولانا وموئلنا عباس حلمي باشا الثاني ، خديم مصر الحالي ، أدام الله أيامه ، وأعلى أعلامه ، ومن الواضح الجلي أن هذا المضاف وهو الحج هو في ذاته عمل ديني بدني منيف ، وركن من أركان الدين الحنيف ، فهو في حد ذاته عمل شريف . وأن هذا المضاف اليه وهو الجناح الحديوي الأعظم هو ذلك الذات الاكرم ، أشرف ذات في الاقطار والامصار ، وليس من يدانيه أو يضاهيه في شرف المحتد والعنصر والاصول ، ولا من يشبهه في حسبه ونسبه أو في مركزه وعلوم مقامه ، فالعمل الذي قام به الجناح العالي في هذه الرحلة المباركة من أشرف الاعمال (خصوصاً أنه فضله على ما أوتيته وقتاً ما من أبهة الملك وجلال السلطان) ، والعامل وهو جنابه الفخيم هو أشرف الرجال ، فموضوع هذه الرسالة من أشرف الموضوعات ، ولذلك نحكم بان تأليفها عمل من أنفرد الاعمال ، يبقى حجة على ان حج مولانا العباس ، خير كله للناس ، ببقاء الدهور والازمان .

ربما ساعد على قبول العمل وتعميم النفع به ما يكون لعامله من المنزلة بين أهل فنه ومعرفة فهمه بانه كفؤ للعمل ومخلص فيه والحمد لله قد استجمع الكاتب لهذه الرسالة هذه المزايا فمزلت به بين أفاضل الكتاب منزلة المجيد، وكفاءته كفاءة القادر المجتهد، وأخلاصه في عمله هذا لا يحتاج الى برهان .

لا يعترى واحد ولا يختلف اثنان في ان الغاية من هذا السفر الواجب الذي انشأه مولانا العباس، هي من أشرف الغايات وأكمل المقاصد، لانه أدى به واجبا من واجبات الدين المفروضة على كل مستطيع من المؤمنين، وتحبب فيه بالزيارة لسيد المرسلين، وفوق هذا القصد قد ضمن سفره المبارك فوائد اجتماعية عامة النفع، فجمعت رحلته الميمونة بين المفروض والمسنون ومصالح العباد، وأهمها ان تقتدى بعمله هذا عامة أمراء المسلمين، وكبار السراة والمثريين، في قصده هذه المنازل المقدسة، وأسداء المبرات، وارسال الحسنات والخيرات، فتعمر بها هاتيك البلدان .

ولان ذكر للاستدلال على ان للجناب العالي حفظه الله مقاصد عاليات غايات، أكثر مما جاء في ارادته السنية التي أصدرها قبيل سفره الى رئيس نظاره اذذاك فقد جاء فيها مانصه (وانا لارجو أن يكون توجهنا الى تلك الاقطار المباركة ووقوفنا بالذات على أحوال الحجاج المصريين وحاجاتهم باعنا في المستقبل لراحتهم واطمئنان بالهم) ، وقد حقق الله رجاء جنابه الفخيم، واتخذت الاحتياطات الكافلة لراحة الحجاج في هذا العام أكثر مما كانت في غيره من الاعوام . وما تغير خطة السفر وتبدل الطريق الا احدى هذه النتائج المباركة التي تعود على الحجاج بالخير والبركات ان شاء الله . وليست هذه وحدها بل قد علمنا أنه عقب عود سموه من السفر السعيد أرسل وفدا من خيرة الرجال لينظروا في حال الطريق من جهة الوجه، فذهبوا ورسوموا واشتغلوا وحكموا وعادوا الى مصر فعرضوا عملهم على أنظاره السامية وسيكون من وراء ذلك كله الخير الجزيل، فيكون الحجاج في أسفارهم على أحسن ما يكون من الامن والاطمئنان .

ربما عددنا تأليف هذه الرسالة من خير نتائج هذه الرحلة المباركة فانها جاءت في بابها

محكمة الوضع، متقنة الصنع، مفيدة لمن يقصدون الحج بمعرفة مسالكه ومناسكه على المذاهب الاربع، ولمن لم يسافر بمعرفة هذه المواطن وما فيها من عجائب القدرة وما كان لها من شرف في الجاهلية والاسلام، وهذا من أشرف ما يقصده القاصد، ويطلبه الرواد، ويعمله ذوو الفضل والعرفان .

اشتملت هذه الرسالة أولا وبالذات على وصف تنقلات الركب الخديوى من مصر الى السويس فجدة فككة المكرمة فالوجه فالمدينة المنورة ومنها الى حيفا الى الاسكندرية في العود، وما بين هذه المواطن الكبرى من المنازل الصغرى، فقد وصف الكاتب فى كل من هذه الامكنة وصفات تفصيليا ما كان للجناب العالى من الحفاوة بمقدمه المبارك رسمياً وغير رسمى حتى لكانى بالقارى* لهذه الاوصاف يعد نفسه حاضرا مشاهدا بنفسه هذه الاحتفالات فى تلك الاستقبالات فيعظم من قدرها كما عظمها الحاضرون، ويتمنى أن لو كان له فيها خدمة شخصية حتى يشارك أهلها فى أداء الواجب لهذه الذات الجليلة المستحقة لكل اعظام واحترام، ولكنه يعود فيكتفى بما شاهد فى الرسالة ويلتزم التعظيم القلبى الوجدانى والدعاء بظهر الغيب بان يحرس الله هذا الجناب للبر والمعونة والفضل والاحسان .

وصف هذا الكاتب البليغ هذه المشاهد ووصفا حقيقيا ولم تفته دقيقة فى تبيان الزينات والاستقبالات والاستعداد للملاقة على أكمل الهيئات، وما كان للخاصة من الحفاوة اللائقة بمقامه الكريم، وما كان للعامة من الاجتماعات حول ركبه المهيب، وضجيجهم بصالح الدعوات، وقد تنقل الكاتب فى ذلك من أسلوب الى أسلوب ومن تعبير الى تعبير، ولا غرو فالجبال فسيح، والقائل فصيح، وما هى الا كتابة ما يمليه الواقع وتصوره المشاهدة، فما على الكاتب الا نقل ما شاهدت العينان الى العيان . وتفاوت الكتاب فى هذا الباب انما هو فى القدرة على التصوير، وما أقدر كاتبنا على تصوير هذه المناظر حتى جلاها للقارى* بحسمة المعانى تكاد تلمسها اليدين .

وكما أبدع الكاتب فى وصف هذه الهيئات الدنيوية، أغرب فى وصف ما كان للجناب العالى حين تأديته للمناسك المفروضة من عظيم التواضع وكبير الخشوع، حتى ان جنابه لم يبال

بالمظاهر الدنيوية وأدى مناسكه كلها من احرام وطواف واستلام وسمى ووقوف بعرفة ورمى للجمرات كما يؤديها من عاش عمره في شطف العيش وخشونة البدن، ولم يحفل بتعب الجسم فادى السمي ما شياً على انهم مع صحة أدائهم كباقي لا تقوته مشوبة المشقة ولا أجر التعب، وكذلك أدى المستويات على وجهها الاكمل كما يؤديها مهمة الناس، ثم بعد هذا تقع الفقراء والمساكين من أهل هذين الحرمين الشريفين بما تفهمهم به من الصدقات، وأعان الحجاج المملين بتسغيرهم على نفقته الخصوصية، فجزاه الله عن دينه وفقراء عبيده أفضل ما يجزى به إنسان .

ولقد اشتملت هذه الرسالة بعبارة على فوائد تاريخية لا شهر البلدان ولا شهر الرجال ولا شهر الاعمال، وفي كل بلد من البلاد الكبيرة كجدة ومكة والمدينة تكلم عن أوصافها أوصافاً جغرافية من جهة تجارتها وعمرانها وعلومها وسكانها ومعاربها ومزارعها وآثارها، وبين على الخصوص تاريخ مكة القديم والحديث ومن له اليد الطولى في عمارتها ثم تاريخ الكعبة ومن بناها والازمان التي بنيت فيها وكسوها ومن كساها واحلا وحار جاوعين زبدة ومنافعها، وما للأسرة الحديثة من منافع مادية وأدوية في تلك البلاد، وحروب الوهابيين وانقاذ المدينة ومكة منهم . وأحسن شيء استأملت النظر ما تكلم به عن قرامنا حواء في جدة فانه لا يبقى معه للشك بحال في أن هذا التاريخ هو على اسمها فقط كما يوجد كثير من الاضرحة في بلادنا باسم البعض من الصالحين وليسوا فيها على التحقيق . وألطف من هذا انه نبه على ما يمتد في مكة من جهة الامور الصحية (خصوصاً في عين زبدة ونثر زمزم وجهة المسعى) وغبر الصحية بادق عبارة، وطالب الاصلاح باشارات مؤدبة للغاية وهذا هو اللائق برسالة الفت لغرض شريف هو بيان رحلة أكرم امير اسلامي فانه لا يليق بها الا الكمال في التأديب والتلطف في البيان .

ثم انه وصف الطريق بين القديم والحديث بين الحرمين وبين مصر فاجاد وأفاد، وذكر تاريخ الاسفار وممدار ما كانوا يفاسونه من وعورة الطريق وطول الزمان، ثم وصف الحرمين الشريفين وصفا مذكراً من جهة الحدود والسعة والتاريخ وما تجدد في كل منهما من العمارات، كل ذلك بعبارات في نفسها واضحة ومؤيدة بالنقول والنصوص من الكتب المعتمدة

مما لم يسبق اليه هذا الكاتب المجيد، وما على من وصلت اليه هذه الرحلة الا تتبعها واستيعابها
يتضح له صدق ما قلناه ويثني على كاتبها بكل لسان .

لقد حمدناه عندما بين سنة الطواف وأصلها، وعندما أوضح احترام بعض الاحجار للناس
من قديم الزمان حين الكلام على استلام الحجر الاسود، وعندما تكلم عن احترام الحمام في
كل صوب وناحية قديما وحديثا حين الكلام على حمام الحمى وهو الحمام الذي يأوى الى
بيت الله الحرام فيكون آمنا، وعندما تكلم عن لباس الاحرام وأصل استعماله قديما بين أمم
كثيرة من البدو والحضر، الى غير ذلك من الفوائد التاريخية التي تناسب كتابا مثل هذا
الكتاب ، ولقد أعجبنى كثيراً بيار الحدود والمسافات وتعداد الحائط من مدينة الى أخرى
كما بين مكة والمدينة أو بين المدينة وحيفا مما يحتاج اليه في مثل هذه الاسفار الطوال ، كل
هذا أقوله بعبارة مجملة تنوّه عما تضمنته هذه الرسالة من نضرة العلم ونور العرفان .

ومن المباحث التي تعجب كل قارئ ما استظهره المؤلف في أصل وضع الروضة
الشريفة والحجرة النبوية المنيفة من أنها هي بذاتها ما كان دار الله في حياته عليه الصلاة والسلام
وان ما استدلل به على ذلك من الاحاديث الواردة فيه منتج لما استظهره فيما أعلم ، وكذلك
كلامه على الكورنتينة وقوم صالح وما حققه المحققون في بثهم وتاريخهم وكيفية مجيئهم الى
وادي مدائن صالح، فكله مقبول ومعقول، يؤيده ما أورده من النصوص والنقول، فلا نطيل
فيه القول ولا نؤيده بغير ما أيده به من البرهان .

ولقد اطلعت على الخرائط الكروكية والرسوم الفوتوغرافية التي وضعها للحرمين
الشريفين (خصوصاً ما كان عليه الحرم المدني في عابره وحاضره) ليحلى بها جيد هذه الرسالة
من مناظر المواقع ومناظر الحفلات الرسمية في كثير من الاستقبالات وكلها رسوم جلية
واخفة تمثل تلك المشاهد للعيان .

ظهر من هذا المختصر الذي ذكرناه ان هذه الرسالة قد شرف موضوعها حج الجنب
العالي الخديوي الشريف الذي لا يضاهيه شرف، وشرفت غايتها كما سلف، وارتفعت منزلة

کاتبہا عند کل من ذاق وعرف ، فلم یبق الا ان نصفہا حقاً بانہا اشرف رسالۃ ألقت فی ہذا
 العہد لہذا القصد ، فلیدم اللہ سبب تألیفہا (الجناب العالی) فینا نوراً ساطعاً ، ولیق مؤلفہا
 فی ظلہ الظلیل عاملاً نافعاً ، ولتکن ہی لقراءہا دواءً ناجعاً ، ولینتفع بہا طلاب الفضل والفضیلۃ
 فی کل زمان وفی کل مکان .

کاتبہ

« عبد الکریم سلمان »

